البحر المديد
في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبدالله القرشي

المجلد الثاني

من أول سورة المائدة حتى آخر سورة يوسف

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي
القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩ م



١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

شارك فى استخراج هذا الجزء من الأصول الخطية

د/ بركات أحمد أبو عوف   د / أحمد شحاته الغزالى

سورة المائدة

مدنية. وهي مائة وعشرون آية، وألفان وثمان مائة وأربع كلمات، وقرأها النبي ﷺ في حجة الوداع، وقال: «ياأيها الناس، إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها»(١) . وقال ابن عمر: (أنزلت سورة المائدة والنبي ﷺ على راحلته، فلم تستطع أن تحمله حتى نزل) . وهي مُكملة لما تضمنته سورة النساء من عقود الأحكام الستة، ولذلك افتتحها بالتوصية على الوفاء بها، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ... ﴾

أى: بالعهود التى عَهِدتُ إليكم أن تحفظوها، وهى حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأديان، وحفظ الأبدان، وحفظ اللسان، وحفظ الأيمان، ثم مرَّ معها على الترتيب، فما ذكره هناك مستوفى، لم يُعِدْ منه هنا إلا أصله، وما بقى هناك فى أصل من الأصول الستة كمله هنا، ولمّا ذكر فيما تقدم فى أول السورة حكم الأموال باعتبار الملك، ولم يتكلم على مايحل منها وما يحرم، تكلم هنا على ذلك، فقال:

﴿ ... أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾

قلت: إضافة (بهيمة الأنعام): للبيان، كثوب خزٍّ، أى: البهيمة من الأنعام، و (غير محلى الصيد): حال، قال الأخفش: من فاعل «أوفوا»، وفيه معنى النهى، وقال الكسائى: من ضمير (لكم)؛ كما تقول: أحل لكم الطعام غير مفسدين فيه، فإن قُلتَ: الحال قيد لعاملها «والحلّية غير خاصة بوقت حرمة الصيد؟ قلت: لمّا كانت الحاجة إليها فى ذلك الوقت أكثر، خص الحلية به ليكون أدعى للشكر، ويؤخذ عموم الحلّية من سورة الحج(٢) .

يقول الحق جل جلاله: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ أى: الأنعام كلها، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿إلا مايتلى عليكم﴾ بعدُ فى قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم...﴾ الآية(٣)، حال كونكم ﴿غير محلى الصيد﴾

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (التفسير ٢/٣١١) موقوفاً على (أم المؤمنين عائشة) رضى الله عنها. وصححه ووافقه الذهبى. وفى الفتح السماوى (٢/٥٥٢) نقلا عن الحافظ ابن حجر: لم نقف عليه مرفوعاً.

(٢) فى قول الله تعالى: ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم..﴾ الآية/ ٣٠ .
(٣) الآية الثالثة من السورة نفسها.

فى حال الإحرام، ومعنى الآية في الجملة: أحلت الأنعام كلها إلا مايتلى عليكم من الميتة وأخواتها، لكن الصيد فى حال الإحرام حرام عليكم، ﴿إن الله يحكم مايريد﴾ من تحليل أو تحريم.

الإشارة: يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التى عقدتموها على نفوسكم فى حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومكابدة، فمن عقد عقدة مع ربه فلا يحلها، فإن النفس إذا استأنست بحل العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التى عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التى عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أحلت لكم الأشياء كلها تتصرفون فيها بهمتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المكون كانت الأكوان معكم. إلا مايتلى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير متعرضين لشهود السّوى وأنتم فى حرم حضرة المولى. والله تعالى أعلم.

ولمّا نَهى عن التعرض للصيد فى الحرم، نهى عن تغيير المناسك والتعرض للحُجّاج؛ لأنه من تعظيم حُرْمة الحرم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: الشعائر: جمع شعيرة، وهى اسم ما أشعر، أي: جعل علامة على مناسك الحج ومواقفه، و(لايجرمنكم) أي: يحملنكم، أو يكسبنكم، يقال: جرم فلان فلاناً هذا الأمر، إذا أكسبه إياه وحمله عليه. والشنآن: هو البغض والحقد، يقال: بفتح النون وإسكانها، و (أن صدوكم) مفعول من أجله، و (أن تعتدوا) مفعول ثان ليجرمنكم. ومن قرأ: (إن صدوكم)، بالكسر فشرط، أغنى عن جوابه: (لا يجرمنكم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلوا شعائر الله﴾ أي: لاتستحلوا شيئاً من ترك المناسك، وذلك أن الأنصار كانوا لايسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لايخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فأمرهم الله ألاّ يتركوا شيئاً من المناسك، أي: لاتحلوا ترك شعائر الله ﴿و لا﴾ تحلوا

﴿الشهر الحرام﴾ بالقتال أوالسَّبي، وهذا قبل النسخ، ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿الهدى﴾، أي: ما أهدى إلى الكعبة، فلا تتعرضوا له ولو من كافر، ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿القلائد﴾ أي: ذوات القلائد، وهي الهدى المقلدة، وعطفها على الهدى للاختصاص؛ فإنها أشرف الهدى، أي: لاتتعرضوا للهدى مطلقاً. والقلائد جمع قلادة، وهي: ما قلد به الهدى من نعل أو لحاء الشجر، أو غيرهما، ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له، ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿آمين﴾ أي: قاصدين البيت الحرام، أي: قاصدين لزيارته، ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا﴾ أي: يطلبون رزقاً بالتجارة التي قصدوها، ورضواناً بزعمهم؛ لأنهم كانوا كفاراً.

وذلك، أن الآية نزلت في الحُطَم بن ضُبَيْعة، وذلك أنه أتى المدينة، فخلَّف خَيْلَه خَارجَ المدينةَ، ودخل وحْدَه إلى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو النَّاسَ إليه؟ فقال له: «إلى شَهادة أنْ لا إله إلا الله وإقَام الصَّلاة وإيتَاء الزكاة». فقال: حسن، إلا أن لي أمرَاءَ لا أقطعُ أمْراً دُونَهمْ، ولعَلّي أُسْلم، فخرج وغار على سَرْحِ المدينة فاستَاقَهُ، فلما كان في العام المقبل خرج حاجًا مع أهل اليمامة، ومعه تجارة عظيمة، وقد قلَّد الهدْيَ، فقال المسلمون للنبي ﷺ: هذا الحطم قد خرج حاجًا فخلّ بيننا وبينه؟ فقال النبي ﷺ: «إنه قلد الهدى»، فقالوا يارسول الله: هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية ـ أي: تقية ـ. فأبى عليهم النبي ﷺ، فنزلت الآية(١).

وقال ابن عباس: كان المشركون يحجون ويهدون، فأراد المسلمون أن يُغيّروا عليهم، فنهاهم الله تعالى بالآية.

﴿وإذا حللتم﴾ من الحج والعمرة ﴿فاصطادوا﴾، أمْر إباحة؛ لأنه وقع بعد الحظر، ﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: لايحملنكم، أو لا يكسبنكم ﴿شنآن قوم﴾ أي: شدة بغضكم لهم لأجل ﴿أن صدوكم عن المسجد الحرام﴾ عام الحديبية ﴿أن تعتدوا ﴾ بالانتقام منهم؛ بأن تحلوا هداياهم وتتعرضوا لهم في الحرم. قال ابن جزى: نزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة، فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل؛ لأنهم كانوا قد صدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية، فنهاهم الله عن قتلهم؛ لأن الله علم أنهم يؤمنون . هـ . ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ .(٢)

ثم قال تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ كالعفو، والإغضاء، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى. وقال ابن جزى: وصية عامة، والفرق بين البر والتقوى؛ أن البر عام في الواجبات والمندوبات، فالبر أعم من التقوى هـ. ﴿ولاتعاونوا على الإثم والعدوان﴾ كالتشفي والانتقام. قال ابن جزى: الإثم: كل ذنب بين الله وعبده، والعدوان: على الناس . هـ. ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾؛ فانتقامه أشد.

الإشارة: قد أمر الحق ـ جل جلاله ـ بتعظيم عباده، وحفظ حُرمتهم كيفما كانوا، «فالخلق كلهم عيال الله، وأحَبّ الخَلقِ إلى اللهُ أنفعُهمْ لِعيَالِه»، فيجب على العبد كف أذاه عنهم وحمل الجفا منهم، وألاَّ ينتقم لنفسه ممن آذاه

(١) أخرجه ابن جرير عن عكرمة. وذكره الواحدي في الأسباب، عن ابن عباس.
(٢) من الآية ٥ من سورة التوبة.

منهم، ولا يحمله ما أصابه منهم على أن يعتدى عليهم ولو بالدعاء، بل إن وسّع الله صدره بالمعرفة قابلهم بالإحسان، ودعا لعدوه بصلاح حاله؛ حتى يأخذ الله بيده، وهذا مقام الصديقية العظمى والولاية الكبرى، وهذا غاية البر والتقوى الذى أمر الله ـ تعالى ـ بالتعاون عليه، والاجتماع إليه، دون الاجتماع على الإثم والعدوان، وهو الانتصار للنفس والانتقام من الأعداء، فإن هذا من شأن العوام، الذين هم فى طرف مقام الإسلام. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن ماوعد به فى قوله: ﴿إلا مايتلى عليكم﴾، فقال :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ أى: ما ماتت حتَفَ أنفها بلا ذكاة، ﴿والدم﴾ المسفوح، أى: المهروق، وكانت الجاهلية يصبونه فى الأمعاء، ويشوونها ويأكلونها، بخلاف الباقى فى العروق بعد التذكية، ﴿ولحم الخنزير﴾، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة، بخلاف الشعر المجزوز، ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أى: رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير الله، كقولهم: باسم اللات والعزى، وكذا ماترك عليه اسم الله عمداً، عند مالك ﴿والمنخنقة﴾ بحبل وشبهه حتى ماتت، ﴿والموقوذة﴾ أى: المضروبة بعصا أو بحجر أو شبهه، من: وقذته وقذاً: ضربته، ﴿والمتردية﴾ أى: الساقطة من جبل أو فى بئر وشبهه فماتت، ﴿والنطيحة﴾ التى نطحتها أخرى فماتت، فإن لم تمت؛ فإن كان فى المصران الأعلى فكذلك، لا فى الأسفل أو الكرش.

﴿وما أكل السبع﴾ أى: أكل بعضه وأنفذ مقتله، والسبع: كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والنمس والعقاب والنسر ﴿إلا ماذكيتم﴾ أى: إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. قاله البيضاوى. وقال ابن جزى: قيل: إنه استثناء منقطع، وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها: مامات من ذلك بالخنق وما بعده، أى: حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ماذكيتم من غيرها فهو حلال، وهذا ضعيف، وقيل: إنه استثناء متصل، وذلك إن أريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته. والمعنى: إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء، فهو حلال، واختلف أهل هذا القول؛ هل يشترط أن يكون لم تنفذ مقاتله، أم لا؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكاً ـ رحمه الله ـ، وأما من لم تشرف على الموت من هذه الأسباب، فذكاتها جائزة باتفاق. هـ.

﴿و﴾حرم عليكم أيضاً : ﴿ماذُبح على النصب﴾، وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعدُّون ذلك قربة، وليست بالأصنام؛ لأن الأصنام مصورة، والنصب غير مصورة، وقيل: (على) بمعنى اللام، أى: وماذبح للنصب، والمراد: كل ماذبح لغير الله.

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي: تطلبوا ما قسم لكم في الأزل من المقادير بالأزلام، جمع زلم ـ بضم الزاي وفتحها ـ وهي الأقداح على قدر السهام. وكانت في الجاهلية ثلاثة، قد كُتب على أحدها: افعل، وعلى الآخر: لاتفعل، وعلى الثالث: مهمل، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمراً جعلها في خريطة، وأدخل يده وأخرج أحدها، فإن خرج له الذي فيه «افعل»؛ فعل ما أراد، وإن خرج الذي فيه «لاتفعل»، تركه، وإن خرج المهمل أعاد الضرب، ويقاس عليه كل مايدخل في علم الغيب، كالقريعة والخط والنصبة والكهانة، وشبهها.

﴿ذلكم فسق﴾ ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة، أو إلى الاستقسام بالأزلام، وإنما كان فسقاً؛ لأنه دخول في علم الغيب الذي انفرد الله به، وفيه تجسس على سر الملك، وهو حرام، ولا يعارض ماثبت جوازه من القرعة، في أمور مخصوصة كتمييز الأنصبة في القسمة، «وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقترع بين نسائه»، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب، دون الاطلاع على علم الغيوب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حرمت عليكم يامعشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات، وما انموت به قلوبكم من الانهماك في الغفلات، وتناول ما أعطيكم لغير وجه الله، وقبضتموه من غير يد الله، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة، وغفلتم عن المعطي حقيقة، فمقتضى شريعة الخواص: إخراجه عن الملك، وحرمان النفس من الانتفاع به، كما وقع لبعض الأولياء، ولا تتناولوا من الطعام إلا ماذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة، ونزلتم إليه بالإذن، دون قصد الشهوة والمتعة، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية. والله يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه. آمين.

ولمّا حرّم الله تعالى هذه الأشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم في دينهم، فلذلك ذكره الحق تعالى بإثر تحريمها، فقال:

﴿ ... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اليوم﴾ الذي أنتم فيه، وهو يوم الجمعة، ويوم عرفة في حجة الوداع، ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أن يبطلوه، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم في أمورهم كلها، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين، قيل: إنه وقف معه ﷺ في هذه الحجة: مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر، وما يتصل به من الأزمنة الآتية، ﴿فلا تخشوهم﴾ أن يظهروا عليكم، ﴿واخشون﴾ وحدي؛ فأمرهم بيدي.

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد، ﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾ بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، وبالفتح والتمكين، بهدم منار الكفر، ومحو علل الملحدين، ﴿ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ أي: اخترته لكم من بين الأديان، الذي لا نرتضي غيره ولا نقبل سواه.

الإشارة : إذا حصل المريد على أسرار التوحيد، وخاض بحار التفريد، وذاق حلاوة أسرارالمعانى، وغاب عن شهود حس الأوانى، وحصل له الرسوخ والتمكين فى ذلك ، أيِسَ منه الشيطان وسائر القواطع، فلا يخشى أحداً إلا الله، ولايركن إلى شيء سواه، وأمِنَ من الرجوع في الغالب، إلا لأمر غالب، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ . ولذلك قال بعضهم: (والله مارجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع) .

والوصول هو التمكين فيما ذكرنا، فإذا حصل على كمال المعرفة، ووقف على عرفة المعارف، فقد كمل دينه واستقام أمره، وظهرت أنواره، وتحققت أسراره، ومابقى إلا الترقى فى الأسرار أبداً سرمداً، والسيرُ فى المقامات كسير الشمس فى المنازل، ينتقل فيها من مقام إلى مقام، بحسب مايبرز من عنصر القدرة، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف، وتارة مايوجب الرجاء، وتارة مايوجب الرضا والتسليم، وتارة مايوجب التوكل، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه، ولا يقف مع مقام ولا مع حال، لأنه خليفة الله في أرضه، وقد قال تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾(١) ، وهذا هو التلوين بعد التمكين. والله تعالى أعلم.

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر، فقال:

﴿ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

قال البيضاوي: هو متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى . هـ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿فمن اضطر﴾ إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فى مخمصة﴾ أى: مجاعة، حال كونه ﴿غير متجانف﴾ أى: مائل للإثم وقاصد له، بأن يأكلها تلذذاً أو متجاوزاً حد الرخصة، قيل: هو سد الرمق، وقال ابن أبى زيد: يأكل منها ويتزود، فإن استغنى عنها طرحها . هـ . فإن تناولها للضرورة ﴿فإن الله غفور﴾ له ﴿رحيم﴾ به؛ حيث أباحها له فى تلك الحالة .

الإشارة : قال بعض الحكماء: الدنيا كلها كالميتة، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلاً وشرباً، وملبساً ومركباً، حتى يتحقق له الوصول، فما بقى لأحد حينئذ ما يقول، وعلامة الوصول: هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه، إن افتقر اغتنى فى فقره، وإن ذل عز فى ذله، وإن فقد وجد فى فقده، وهكذا فى تقلبات الأحوال لايتضعضع ولا يتزلزل، ولو سقطت السماء على الأرض. والله تعالى أعلم.

ولمّا ذكر ماحرّم عليهم؛ ذكر ما أحل لهم، فقال:

---

(١) من الآية/ ٢٩ من سورة الرحمن.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ... ﴾

قلت : لم يقل ماذا أحل لنا؛ لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة، وكلا الوجهين شائع في أمثاله. قاله البيضاوي .

يقول الحق جل جلاله : ﴿يسألونك﴾ يامحمد عن الذي ﴿أحل لهم﴾ من المآكل، بعد الذي حرم عليهم من الخبائث، فقل لهم. ﴿أحل لكم الطيبات﴾ وهو عند مالك: مالم يدل دليل على تحريمه من كتاب ولا سنّة، وعند الشافعي: ما يستلذه الطبع السليم ولم يفرّ عنه، فحرم الخنافس وشبهها، ﴿و﴾ أحل لكم صيد ﴿ماعلّمتم من الجوارح﴾ أي: الكواسب، وهي الكلاب ونحوها، مما يصطاد به ويكسب الصيد على أهله، من سباع وذوات أربع، وطير، ونحوها، حال كونكم ﴿مُكلبين﴾ أي: معلمين لها الاصطياد، أي: مؤدبين لها، ﴿تُعلمونهن مما علمكم الله﴾ من الحيل وصدق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة من الله لابن آدم. وحد التعليم عند ابن القاسم: أن يفهم الجارح الإشلاء والزجر، وقيل: الإشلاء؛ أي: التسلط ـ فقط، وقيل: الزجر فقط، وقيل: أن يجيب إذا دُعي.

﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ ولم يأكل منه، لقوله ﷺ: «وإنْ أكَلَ، فلاَ تَأكُلْ؛ فإنّما أمْسَكَ علَى نَفْسِه»(١). وهو مذهب الشافعي، وقال مالك: يؤكل مطلقًا لما في بعض الأحاديث: «وإنْ أكَلَ فكُل»(٢)، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير؛ لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر .

﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ أي: على ماعلمتم عند إرساله، ولو لم ير المرسل عليه، وكذا عند الرمي بالمحدد ونحوه، فإن سمى على شيء معين ووجد غيره لم يؤكل، أو التبس مع غيره، وإن سمى على ما وجد أكل الجميع، ولابد من نية الذكاة عند الإرسال أو الرمي، واختلف في حكم التسمية، فقال الظاهرية: إنها واجبة مطلقاً، فإن تركت عمداً أو سهواً لم تؤكل عندهم ، وقال الشافعي: مستحبة، حملاً للأمر على الندب، فإن تركت عمداً أو سهواً أكلت عنده.

---

(١) بعض حديث أخرجه البخاري في (الذبائح والصيد، باب إذا أكل الكلب) ومسلم في (الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة) من حديث عدي بن حاتم.

(٢) أخرجه ابو داود في (الصيد، باب في الصيد) عن أبي ثعلبه الخشني.
وفي التوفيق بين الحديثين قال الخطابي في معالم السنن: يجعل حديث أبي ثعلبه أصلاً في الإباحة، وأن يكون النهي في حديث عدي على معنى التنزيه دون التحريم. ويحتمل أن يكون الأصل في ذلك: حديث عدي بن حاتم «ويكون النهي على التحريم البات، ويكون المراد بقوله: وإن أكل، فيما مضى من الزمان وتقدم منه، لا في هذه الحال، فكأنه قال: كل منه وإن كان قد أكل فيما تقدم، إذا لم يكن قد أكل في هذه الحالة. انظر معالم السنن على هامش سنن أبي داود ٣/٢٧٢، وانظر أيضاً فتح الباري ٩/٤٩٤.

، وجعل بعضهم الضمير في ﴿عليه﴾، عائداً على الأكل، فليس فيها على هذا أمر بالتسمية على الصيد، ومذهب مالك: أنه إن تركت التسمية عمداً لم تؤكل ، وإن تركت سهواً أكلت، فهي عنده واجبة بالذكر ساقطة بالنسيان، وهذا الخلاف جار في الذكاة كلها.

﴿واتقوا الله﴾ في اجتناب محرماته، ﴿إن الله سريع الحساب﴾، فيؤاخذكم على ماجلّ ودق.

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ فيتناول الذبائح وغيرها، ويعم أهل الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ نصارى بني تغلب، وقال: (ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر) . ولا يلحق بهم المجوس في ذلك، وإن ألحقوا بهم في الجزية، لقوله ﷺ: «سنُّوا بهم سُنَّةَ أَهْلِ الكتاب، غير ألا تنكحوا نساءهم، ولا تأكلوا ذبائحهم»[1] وكذلك المرتد مطلقاً لا تؤكل ذكاته.

قال ابن جزي: وأما الطعام، فهو على ثلاثة أقسام: أحدها : الذبائح، وقد اتفق العلماء على أنها مرادة في الآية، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى، واختلفوا فيما هو محرم عليهم في دينهم، على ثلاثة أقوال: الجواز، والمنع، والكراهة، وهو مبني على: هل هو من طعامهم أم لا؟ فإن أريد بطعامهم ماذبحوه، جازت، وإن أريد مايحل لهم، منع، والكراهة توسط بين القولين. الثاني: مالا محاولة لهم فيه، كالقمح والفاكهة، فهو جائز لنا اتفاقا. والثالث: ما فيه محاولة كالخبز وتعصير الزيت وعقد الجبن، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه، فمنعه ابن عباس؛ لأنه رأى أن طعامهم هو الذبائح خاصة، وأجازه الجمهور، لأنه رأوه داخلاً في طعامهم، وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملا، أما إذا تحققنا استعمال النجاسة فيه؛ كالخمر والخنزير والميتة، فلا يجوز أصلاً، وقد صنف الطرطوشي في تحريم جبن النصارى، وقال: إنه ينجس البائع والمشتري والآلة؛ لأنهم يعقدونه على أنفحة الميتة .هـ.

﴿وطعامكم حلٌ لهم﴾، فلا بأس أن تُطعموهم من طعامكم، وتبيعوه لهم، وأما ماحرم عليهم، فلا يجوز بيعه منهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يسألونك أيها العارف الرباني ماذا أحل للفقراء من الأعمال والأحوال، قل لهم: أحل لكم الطيبات، أي: الخالص من الأعمال، والصافي من الأحوال، والتلذذ بحلاوة المشاهدة والمكالمة، وما اصطادت لكم أنفسكم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بقدر تزكيتها وتربيتها، فكلوا مما أمسكن عليكم، أي: تمتعوا بما أتت به لكم من

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) من حديث عبد الرحمن بن عوف، بدون ذكر: (غير ألا تنكحوا نساءهم ولا تأكلوا ذبائحهم) وجاءت هذه العبارة بنحوها في حديث أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٦/ ٦٩ ح ١٠٠٢٨) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٩٢) عن الحسن بن محمد بن علي قال: (كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قُبل، ومن أصر ضربت عليهم الجزية، على أن لا تؤكل لهم ذبيحة، ولا ينكح لهم امرأة).

أبكار الحِكَم وعرائس الحقائق، فإن أتت بشيء من علوم الحس، فاذكروا اسم الله عليه ينقلب معاني، واتقوا الله أن تقفوا مع شيء سواه، (إن الله سريع الحساب)؛ فيحاسبكم على الخواطر والطوارق إن لم تعرفوا فيها. اليوم أحل لكم الطيبات، أي: حين دخلتم بلاد المعاني ورسختم فيها، أحل لكم التمتع بالمشاهدات والمناجات، وطعام العلوم الظاهرة حِلٌ لكم تتوسعون بها، وطعامكم حل لهم، أي: وتذكيركم بما يقدرون عليه حِلٌ لهم؛ لأن العارف الكامل يُسير كل واحد على سيره، ويتلون معه بلونه، يُقره في بلده ويحوشه إلى ربه. نفعنا الله بذكره. آمين.

ثم تكلم على مابقي من حفظ الأنساب، وهو جواز نكاح الكتابية؛ إذ لم يتكلم عليه في سورة النساء، فقال:

﴿ ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: وأحل لكم **﴿المحصنات﴾** أي: الحرائر **﴿من المؤمنات﴾** دون الإماء، إلا لخوف العنت، أو العفيفات دون البغايا، فإن نكاحها مكروه، **﴿و﴾** أحل لكم **﴿المحصنات﴾** أي: الحرائر **﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾**، فأحل الله نكاح اليهودية والنصرانية الحُرتين دون إمائهم، **﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾** أي: أعطيتموهن مهورهن. فلا يجوز نكاح الكتابية إلا بصداق شرعي. حال كونكم **﴿محصنين﴾**، أي: متعففين عن الزنى بنكاحها، **﴿غير مسافحين﴾** أي: مجاهرين بالزنى، **﴿ولا متخذي أخدان﴾** أي: أصحاب تُسرون معهن بالزنى، والخدن: الصاحب، يقع على الذكر والأنثى. والمعنى: أحللنا لكم نكاح الكتابيات، توسعة عليكم لتتعففوا عن الزنى سراً وجهراً.

ولما نزل إباحة الكتابيات قال بعض الناس: كيف أتزوج من ليس على ديني؟ فأنزل الله: **﴿ومن يكفر بالإيمان﴾** أي: بشرائع الإيمان **﴿فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**، ومن الكفر به إنكاره والامتناع منه.

الإشارة: قد تقدم أن علوم الحقائق أبكار، لأنها عرائس مخدّرة، مهرها النفوس، وما سواها من العلوم ثيبات وإماء؛ لرخص مهرها، فإذا اتصل العارف بعلوم الحقائق ورسخ فيها؛ أحل له أن ينكح المحصنات من علوم الطريقة ـ وهي مبادئ التصوف، أي: التفنن فيها مع أهلها على وجه التركيز أو التعليم، والمحصنات من علوم الشريعة إذا أعطاها مهرها؛ من الإخلاص وقصد التوسع بها وتعليمها لأهلها، وهذه العلوم كلها مشروعة، والمشتغل بها متوجه إلى الله تعالى، **﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾**، فمن كفر بها فقد حبط عمله، وهو عند الله من الخاسرين.

ثم تكلم على مابقى من حفظ الأديان، وهو الوضوء؛ إذ لم يتكلم عليه فى النساء، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾

قلت : ﴿إذا قمتم﴾ : أردتم القيام، كقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾(١) ، حذف الإرادة للإيجاز، وللتنبيه على أن من أرادَ العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، وقوله :﴿برءوسكم﴾ الباء للإلصاق، تقول: أمسكتُ بثوب زيد، أي: ألصقت يدى به، أي: ألصقوا المسح برؤوسكم، أو للتبعيض، وهذا سبب الخلاف فى مسحه كله أو بعضه، فقال مالك: واجب كله، وقال الشافعي: أقل مايقع عليه اسم الرأس، ولو قلّ. وقال أبو حنيفة: الربع.

﴿وأرجلكم﴾، مَنْ نَصَبَ عطف على الوجه، ومن خفض فعلى الجوار، وفائدته: التنبيه على قلة صبِّ الماء، حتى يكون غسلاً يَقرب من المسح. قاله البيضاوى. وردّه فى المغنى فقال: الجوار يكون فى النعت قليلاً، وفى التوكيد نادراً، ولا يكون فى النسق؛ لأن العاطف يمنع من التجاور، وقال الزمخشرى: لمّا كانت الأرجل بين الأعضاء الثلاثة مغسولات، تغسل بصب الماء عليها، كان مظنة الإسراف المذموم شرعاً، فعطف على الممْسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصار فى صب الماء عليها، وجيء فيهما بالغاية إماطة لظن من يظن أنها ممسوحة؛ لأن المسح لم يضرب له غاية في الشريعة. هـ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ إذا أردتم القيام ﴿إلى الصلاة﴾، وأنتم محدثون ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ من منابت شعر الرأس المعتاد إلى الذقن، ومن الأذن إلى الأذن، ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أى: معها، ﴿وامسحوا برءوسكم﴾ أى: جميعها أو بعضها على الخلاف، ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ العظمين الناتئين فى مفصلى الساقين، فهذه أربعة فرائض، وبقيت النية لقوله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾(٢) ، ولقوله

(١) من الآية : ٩٨ من سورة النحل.
(٢) من الآية: ٥ من سورة البينة.

عليه الصلاة السلام-: «إنما الأعمال بالنيات». والدلك؛ إذا لا يسمى غسلاً إلا به، وإلا كان غمساً، والفور؛ لأن العبادة إذا لم تتصل كانت عبثاً. ولمّا عطفت بالواو، وهي لاترتب، علمنا أن الترتيب سنة.

﴿وإن كنتم مرضى﴾ لم تقدروا على الماء ﴿أو على سفر﴾ ولم تجدوه، أو في الحضر، و ﴿جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء﴾ بالجماع أو غيره ﴿ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم﴾ أي: جميعه ﴿وأيديكم منه﴾، وقيد الحضر بفقد الماء دون السفر؛ لأن السفر مظنة إعوازه، فالآية نص في تيمم الحاضر الصحيح للصلوات كلها. قال البيضاوي: وإنما كرره، - يعني مع ما في النساء - ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. هـ.

ثم قال تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ حتى يكلفكم بالطهارة في المرض أو الفقد من غير انتقال للتيمم، ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ أي: ينظفكم بالماء أو بدله، أو يطهركم من الذنوب، فإن الذنوب تذهب مع صب الماء في كل عضو، كما في الحديث، ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ بشرعه، ما هو مطهرة لأبدانكم، ومكفرة لذنوبكم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ نعمه فيزيدكم من فضله.

الإشارة: كما أمر الحق جل جلاله بتطهير الظاهر لدخول حضرة الصلاة، التي هي محل المناجاة ومعدن المصافاة، أمر أيضًا بتطهير الباطن من لوث السهو والغفلات، فمن طهر ظاهره من الأوساخ والنجاسات، ولوّث باطنه بالوساوس والغفلات، كان بعيداً من حضرة الصلاة؛ إذ لاعبرة بحركة الأبدان، وإنما المطلوب حضور الجنان.

قال القشيري: وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر طهارة، فطهارة الظاهر بماء السماء، أي: المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل، ويجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة، ويجب - في بيان الإشارة - صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عند طلب خسائس الأغراض، وكما يجب مسح الرأس، يجب صونه عن التواضع لكل أحد - أي: في طلب الحظوظ والأغراض - وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة الظاهرة، يجب صونها - في الطهارة الباطنة - عن التنقل فيما لايجوز. هـ.

وقال عند قوله: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾: وكما يجب طهارة الأعلى، أي: الظاهر، فيقتضي غسل جميع البدن، فقد يقع للمريد فترة - توجب عليه الاستقصاء في الطهارة الباطنية - فذلك تجديد عقد وتأكيد عهد، وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم، فكذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه صوب همته، ويغسله ببركات إشارته، اشتغل بما ينشر له من اقتفاء آثارهم، والاسترواح إلى ما يجد من سالف سيرتهم، ومأثور حكاياتهم. هـ.

قلت: محصل كلامه أن من سقط على شيخ التربية، كان كمن وجد الماء فاستعمل الطهارة الأصلية الحقيقية، ومن لم يسقط على شيخ التربية، كان كالمستعمل للطهارة الفرعية المجازية؛ وهي التيمم، وإلى ذلك أشار الغزالي، لما سقط على الشيخ، ولامه ابن العربي الفقيه على التجريد، فقال:

قَدْ تَيَمَّمْتَ بالصَّعِيدِ زَمَاناً		والآن قَدْ ظَفِرتَ بالمَاء
مَنْ سَرَى مطبقَ الجُفُونِ وأَضْحَى		فَاتِحاً لا يردُّها للعَمَاء

ثم قال، لمَّا طلَعَ قمرُ السعادةِ في ملك الإرادَة وأشرقت شمسُ الوُصولِ على أُفُقِ الأُصُولِ:

تَرَكْتُ هَوَى لَيْلَى وسُعْدَى بمعزِلِ ... ومِلْتُ إلى عَلْيَاء أوَّل مَنْزِلِ
فنادتْني الأوطانُ أهلاً ومرحَباً ... ألا أيها السَّاري رُوَيْدَكَ فانْزِلِ
غَزَلْتُ لهم غَزْلاً رقيقًا فلم أجِدْ ... لِغَزْلِي نَسَّاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

ثم ذكّرهم الحق جل جلاله العهدَ الذي أخذه عليهم في الجهاد والطاعة، حين بايعوا نبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ في العقبة وغيرها، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالهداية والعز والنصر، ﴿و﴾ اذكروا ﴿ميثاقه الذي واثقكم به﴾ حين بايعتم نبيه في بيعة العقبة وبيعة الرضوان على الجهاد وإظهار الدين، وعلى السمع والطاعة في المنشط والمكره، حين ﴿قلتم﴾ له: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ فيما تأمرنا به في عسرنا ويسرنا، في منشطنا ومكرهنا، ﴿واتقوا الله﴾ في نقض العهود، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: خفياتها، فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم، والمقصود: الترغيب في الجهاد الذي هو من كمال الدين.

الإشارة: يقال للفقراء الذين منّ الله عليهم بصحبة شيوخ التربية، وأخذوا عنهم العهد ألا يخالفوهم: اذكروا نعمة الله عليكم، حيث يسّر لكم منْ يُسيّركم إلى حضرة ربكم، ويعرفكم به، وغيركم يقول: إنه معدوم، أو خفي لايعرفه أحد، وهذا الكنز الذي سقطتم عليه، قلَّ من وجده، واذكروا أيضًا ميثاقه الذي واثقه عليكم ألا تخالفوهم، ولو أدى الأمر إلى حتف أنفكم.

كان شيخ شيوخنا ـ سيدي العربي بن عبد الله، يقول: الفقير الصادق، هو الذي إذا قال له شيخه: ادخل في عين الإبرة، يقوم مبادراً يُحاول ذلك، ولايتردد. وقال أيضا: (صاحبي هو الذي نقتله بشعرة)، وقد تقرر أن من قال لشيخه: لِمَ، لا يفلح، وهذا أمر مقرر في علم التربية؛ كما في قضية الخضر مع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ. واتقوا الله في اعتقاد مخالفتهم سراً؛ ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فإن الاعتراض سراً أقبح؛ لأنه خيانة، فليبادر المريد بالتوبة منه ويغسله من قلبه. والله تعالى أعلم.

ولما كان الجهاد لايقوم إلا بنصب الإمام، ذَكَر ما يتعلق به من العدل في الأحكام، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (وعد): يتعدى إلى مفعولين، وحذف هنا الثاني، أي: وعدهم أجراً عظيما، دل عليه الجملة بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يآيها الذين آمنوا﴾، عامٌ أريد به خاص، وهم أولوا الأمر منهم، الذين يلون الحكم بين الناس، وماتقدم في سورة النساء[1] باقٍ على عمومه، أي: ﴿كونوا قوامين﴾ على من تحت حكمكم، راعين لهم؛ فإنكم مسئولون عن رعيتكم، وكونوا مخلصين ﴿لله﴾ في قيامكم وولايتكم، ﴿شهداء﴾ على أنفسكم بالعدل، تشهدون عليها بالحق إن توجه عليها، ولا تمنعكم الرئاسة من الإنصاف في الحق، إن توجه عليكم، أو على أقاربكم وأصدقائكم، ولا على عدوكم ﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: ولا يحملنكم ﴿شنئان قوم﴾ أي: شدة بغضهم لكم، ﴿على ألا تعدلوا﴾ فيهم، فتمنعوهم من حقهم، أو تزيدوا في نكالهم، تشفياً وغيظاً.

﴿اعدلوا هو﴾ أي: العدل ﴿أقرب للتقوى﴾، قال البيضاوي: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبيّن أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبيّن أنه مقتضى الهوى. فإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما بالك مع المؤمنين؟. هـ ﴿واتقوا الله﴾؛ ولاتراقبوا سواه، ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فيجازي كلاً على عمله، من عدل أو جور.

ثم ذكر ثواب من امتثل، فقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾، وأفضل الأعمال: العدل في الأحكام. قال عليه الصلاة السلام: «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة»[2]... الحديث، وهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

ثم ذكر وعيد ضدهم، فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ كما هو عادته تعالى، يشفع بضد الفريق الذي يذكر أولاً، وفاءً لحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم. وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[3] وتكميل لها. والله تعالى أعلم.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين...﴾ الآية ١٣٥.
(٢) أخرجه مسلم في (الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل..) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٣) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء في النظرة والإمداد، ولا يحملهم سوء أدب أحدهم، أو قلة محبته وصدقه، أن يبعده أو يمقته؛لأن قلوبهم صافية، لا تحمل الكدر، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام، فضلاً عن أصحابهم ؛ فهم مأمورون بالتسوية بينهم في التذكير والإمداد. والله تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم، كما قال ﷺ: «إنما أنا قاسمٌ والله مُعطى» أي: إنما أنا أُبين كيفية التوصل إلى الحق، والله ـ تعالى ـ يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه، فالأنبياء والأولياء مثلهم في بيان الطريق بالوعظ والتذكير، كمن يُبين قسمة التركة بالقلم، والحاكم هو الذي يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان ينوبه في التركة، كذلك المذكِّر والمربي، يبين المقامات، والله يعطي ذلك بحكمته وفضله. والله تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه ﷺ بشكر نعمة حفظه ورعايته، وتنسحب على الأمراء من بعده، إذ لا يخلو أحد منهم من عدو أو حاسد، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بحفظه إياكم من عدوكم؛ ﴿ إذ هَمَّ قوم ﴾ أي: حين همَّ الكفار﴿ أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾ بالقتل، ﴿ فكف أيديهم عنكم ﴾ ، ولما كانت مصيبة قتل النبي ﷺ ـ لو قُتل ـ تعمُّ المؤمنين كلهم، خاطبهم جميعا، وهي إشارة إلى ما همت به بنو قريظة، من قتله ﷺ، وذلك أنه ﷺ أتى بني قريظة، ومعه الخلفاءُ الأربعة؛ يَستعينهم في دية رجلين مسلمين، قتلهما عَمرو بن أمية الضمري، خطأً، يظنهما مشركَين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قد آن لنا أن نعينك فاجلس حتى تطعم، فأجلسوه، وهموا بقتله، فعمد عَمرو بن جحاش إلى رَحى عظيمةٍ ليطرَحَها عليه، فأمْسَكَ اللهُ يده، ونزل جبريلُ فأخبَرَه، فخرَج النبي ﷺ إلى المدينة ولحقه أصحابُه، وهذا كان سبب قتلهم في غزوة بني قريظة.

وقيل: نزلت في قضية غوْرث، وذلك أن النبي ﷺ كان ببطن نخلة حاصراً لغطفان، فقال رجل منهم: هل لكم في أن أقتل محمداً فأقتك به؟ قالوا: وددنا ذلك. فأتى النبيَّ ﷺ متقلداً سيفه، فوجد النبي ﷺ نازلاً تحت شجرة قد تفرق أصحابه عنه، وقد علق سيفه في الشجرة، فسله الأعرابي وقال: من يمنعك مني؟ وفي رواية: وجد النبي ﷺ نائماً فاستل السيف، فما استيقظ النبي إلا والسيف في يد الأعرابي، فقال: من يمنعك مني يامحمد؟ فقال: «الله»، فأسقطه جبريل من يده، وأخذه النبي ﷺ فقال: «وأنت، من يمنعك مني؟» فقال: كن خير آخذ، فعفى عنه ـ عليه الصلاة السلام[1] ـ. زاد البيضاوي: أنه أسلم.

---

(١) أخرجه القصة: البخاري في (الجهاد، باب من علق سيفه بالشجر) وفي مواضع أخرى، ومسلم في (الفضائل، باب توكله ﷺ على الله) عن جابر رضي الله عنه.

وقيل نزلت في صلاة الخوف حين همّ المشركون أن يُغيروا على المسلمين في الصلاة. فالله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ فلا تشهدوا معه سواه، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فإنه يكفيكم أمرهم جلباً ودفعاً، من توكل على الله كفاه.

الإشارة: ماجرى على النبي ﷺ من قصد القتل والإذاية يجري على خواص ورثته، وهم الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ والعلماء الأتقياء، فقد همّ قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم، وإجلائهم من أوطانهم، فكف الله أيديهم عنهم، وكفاهم شرهم، لمّا صحبوا التوكل عليه، وأخلصوا الوجهة إليه، ومنهم من لحقه شيء من ذلك، كما لحق بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ زيادة في شرفهم وكرامتهم، جمع الله لهم بين مقام الشهادة والصديقية، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

ثم ذكر وبال من نقض العهد ترهيبا وترغيبا، فقال:

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

قلت: النقيب: هو كبير القوم والمقدّم عليهم، ينقب عن أحوالهم ويفتش عليها. والخائنة: إما مصدر، كالعاقبة واللاغية، أو اسم فاعل، والتاء للمبالغة، مثل: راوية ونسّابة وعلاّمة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ على أن يجاهدوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وينصروه، ويلتزموا أحكام التوراة، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا﴾ اخترناهم وقدمناهم، على كل سبط نقيباً ينقب عن أحوال قومه، ويقوم بأمرهم، ويتكفل بهم فيما أمروا به.

رُوي أن بني إسرائيل لمّا خرجوا عن فرعون، واستقروا بأوائل الشام، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى بيت المقدس، وهي في الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً، فاخرجوا إليها، وجاهدوا مَنْ فيها من العدو، فإني ناصركم. وقال لموسى ﷺ: خذ من قومك اثني عشر نقيباً، من كل

سبط نقيباً، يكون أميناً وكفيلاً على قومه بالوفاء على ما أمروا به. فاختار موسى النقباء، فسار بهم حتى إذا دنوا من أرض كنعان، وهي أريحا، بعث هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يرون، فلما قربوا من الأرض المقدسة رأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم، إلا كالب بن يوقنا ـ من سبط يهوذا ـ ويوشع بن نون ـ من سبط إفرائيم بن يوسف ـ ثم ﴿قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين﴾ إلى آخر ما يأتي من قصتهم. وأما ماذكره الثعلبي هنا، وغيره، من قصة عوج بن عناق، فقال القسطلاني: هي باطلة من وضع الزنادقة، فلا يجوز ذكرها في تفسير كتاب الله الصادق المصدوق.

﴿وقال الله﴾ لبني إسرائيل: ﴿إني معكم﴾ بالنصر والمعونة؛ ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برُسلي﴾ التي أُرسلت بعد موسى ﴿وعزرتموهم﴾ أي: نصرتموهم وقويتموهم، ﴿وأقرضتم الله قرضًا حسنا﴾ بالإنفاق في سبُل الخير، ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ أي: أستر عنكم ذنوبكم فلا تفضحكم بها، ﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك﴾ العهد المؤكد، المعلق عليه هذا الوعد العظيم، ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: تلف عن وسط الطريق، تلفاً لا شبهة فيه ولا عذر معه، بخلاف من كفر قبل أخذ العهد؛ فيمكن أن تكون له شبهة، ويتوهم له معذرة.

ثم إن بني إسرائيل نقضوا المواثيق التي أُخذت عليهم، فكفروا وقتلوا الأنبياء، قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم، أو مسخناهم، ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير، أو رديَّة مغشوشة بمرض الذنوب والكفر.

ثم بيَّن نتيجة قسوة قلوبهم فقال: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ لفظاً أو تأويلا. ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب الله وتحريفه، ﴿ونسوا حظًا مما ذُكروا به﴾ أي: تركوا نصيباً واجباً مما ذُكروا به من التوراة. فلو عملوا بما ذكّرهم الله في التوارة مانقضوا العهود وحرّفوا كلام الله من بعد ماعلموه، لكن رَيْن الذنوب والانهماك في المعاصي، غطت قلوبهم فقست ويبست، ﴿ولاتزال﴾ يامحمد ﴿تطلع على خائنة﴾ أي: خيانة ﴿منهم﴾ أو على طائفة خائنة منهم، لأن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم، فلا تزال ترى ذلك منهم ﴿إلا قليلاً منهم﴾ لم يخونوا، وهم الذين أسلموا منهم، ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ حتى يأتيك أمر الله فيهم، أو إن تابوا وآمنوا، أو إن عاهدوا والتزموا الجزية، ﴿إنَّ الله يحب المحسنين﴾ إلى عباده كيفما كانوا. ومن الإحسان إليهم: جبرهم على الإيمان بالسيف وسوقهم إلى الجنة بسلاسل الامتحان.

الإشارة: قد أخذ الله على هذه الأمة أن يلتزموا أحكام القرآن، ويحافظوا على مراسم الإسلام والإيمان، ويجاهدوا نفوسهم في تحصيل مقام الإحسان، وبعث من يقوم ببيان شرائع الإسلام والإيمان، ومن يعرف الطريق إلى مقام الإحسان، وقال الله لهم: (إني معكم) بالنصر والتأييد، لئن أقمتم شرائع الإسلام، وحققتم قواعد الإيمان، وعظمتم من يعرفكم بطريق الإحسان، لأغطين مساوئكم، ولأ محقن دعاويكم، فأوصلكم بما منى إليكم من الكرم

والجود، ولأدخلنكم جنة المعارف تجري من تحتها أنهار العلوم وأنواع الحِكَم، فمن لم يقم بهذا ، أو جحده فقد ضل عن طريق الرشاد، ومن نقض عهد الشيوخ العرفين بمقام الإحسان، فقد طرد وأبعد غاية الإبعاد، وقسا قلبه بعد اللين. وقد ذكرنا في تفسير الفاتحة الكبير معنى النقباء والنجباء وسائر مراتب الأولياء، وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ولما ذكر نقض اليهود ذكر نقض النصارى، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: وأخذنا أيضاً عهداً وميثاقاً من النصارى، الذين سموا أنفسهم نصارى؛ ادعاء لنصرة عيسى عليه السلام ولم يقوموا بواجب ذلك عملاً واعتقاداً، أخذناه عليهم بالتزام أحكام الإنجيل، وأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد، وأن يؤمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - إن أدركوه ويتبعوه، ﴿**فنسوا حظاً مما ذُكروا به**﴾ أي: نسوا ماذكرناهم به، وتركوا حظاً واجبا مما كلفوا به، ﴿**فأغرينا**﴾ أي: سلطنا ﴿**بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾، فهم يقتتلون في البر والبحر، ويتحاربون إلى يوم القيامة، فكل فرقة تلعن أختها وتكفرها، أو بينهم وبين اليهود، فالعداوة بينهم دائمة، ﴿**وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون**﴾ بالجزاء والعقاب.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن من نقض العهد مع الله؛ بمخالفة ما أمره به أو نهاه عنه، أو مع أولياء الله، بالانتقاد عليهم وعدم موالاتهم، ألقى الله في قلب عباده العداوة والبغضاء له، فيبغضه الله، ويبغضه عبادُ الله، ومن أوفى بما أخذه الله عليه من العهد بوفاء ما كلفه به، واجتناب مانهاه عنه، وتودد إلى أوليائه، ألقى الله في قلب عباده المحبة والوداد، فيحبه الله، ويحبه عباد الله، وينعطف عليه أولياء الله، كما في الحديث: «إذا أحبَّ اللَّهُ عبداً نادى جبريلُ، إنَّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأَحِبَّه، فيُحِبُّهُ جبريلُ. ثم يُنَادي في الملائكة: إن اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فأحِبُّوه. فيُحِبُّه أهْلُ السَّمَاءِ، ثم يُلْقَى له القبولُ في الأرض»(١) ... الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب، باب المِقَةُ «المحبة» من الله) ومسلم في (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم دعا أهل الكتابين إلى الإيمان برسوله ﷺ، فقال:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٦) ﴾

قلت: الضمير في: (به)، يعود إلى النور والكتاب، ووحَّده؛ لأن المراد به شيء واحد، لأن النور هو الكتاب المبين، أو لأنهما جنس واحد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أهل الكتاب﴾ اليهود والنصارى **﴿قد جاءكم رسولنا﴾** محمد ﷺ **﴿يُبين لكم كثيرًا مما كنتم تُخفون من الكتاب﴾** كصفة محمد ﷺ، وآية الرجم التي في التوراة، وكبشارة عيسى بأحمد التي في الإنجيل، **﴿ويعفو عن كثير﴾** مما تخفونه وتحرفونه، فلم يخبر به، ولم يفضحكم، حيث لم يؤمر به، أو عن كثير منكم، فلا يؤاخذه بجرمه وسوء أدبه معه.

﴿قد جاءكم﴾ يا أهل الكتاب **﴿من الله نور وكتاب مبين﴾**، عطف تفسير، فالنور هو الكتاب المبين، أو النور: محمد - عليه الصلاة السلام - والكتاب المبين: القرآن؛ لأنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والواضح الإعجاز والبيان، **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه﴾** أي: من اتبع رضى الله بالإيمان به، والعمل بما فيه، **﴿سُبل السلام﴾** أي: طرق السلامة من العذاب، أو طرق الله الموصلة إليه، **﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾** من ظلمات الكفر، إلى نور الإسلام **﴿بإذنه﴾** أي: بإرادته وتوفيقه، **﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** أي: طريق توصلهم إليه لاعوج فيها.

الإشارة: قد أطْلَع الله علماء الباطن على مقامات علماء الظاهر وأحوالهم وجل مساوئهم، ولا سيما من كان عالماً بالظاهر ثم انتقل إلى علم الباطن، كالغزالي وابن عباد وغيرهما. فقد تكلم الغزالي في صدر الإحياء مع علماء الظاهر، ففضح كثيراً من مساوئهم. وكذلك ابن عباد في شرح الحكم، وعفوا عن كثير. فهم على قدم رسول الله ﷺ وخواص ورثته، لأنهم حازوا الوراثة كلها، كما في المباحث:

تَبِيعَةُ العَالِمِ في الأقْوَالِ	والعَابِدِ الزَّاهدِ في الأفْعَالِ
وفِيهِمَا الصُّوفِيُّ في السِّبَاقِ	لكنَّه قَدْ زَادَ بالأخْلاَقِ

فالولي نور من نور الله، وسر من أسراره، يُخرج به من سبقت له العناية من ظلمات الحجاب إلى نور الشهود، ويهدي به من اصطفاه لحضرته تعالى طريق الوصول إليه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مساوئ أهل الكتاب وضلالتهم، تحريضاً على قتالهم إن لم يسلموا أو يعطوا الجزية، فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾**، والقائل بهذه المقالة هي الطائفة اليعقوبية من النصارى، كما تقدم. وقيل: لم يصرح بهذه المقالة أحدٌ منهم. ولكن لزمهم حيث قالوا بأن اللاهوت حل في ناسوت عيسى - مع أنهم يقولون الإله واحد، فلزمهم أن يكون هو المسيح، ولزمهم الاتحاد والحلول؛ فنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم، وتقبيحاً لمعتقدهم.

ثم رد عليهم بقوله: **﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾** أي: من يمنع من قدرته وإرادته شيئاً، **﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾**، وبيان الرد عليهم: أن المسيح مقدورٌ ومقهور، قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو معزول عن الألوهية. ثم أزال شبهتهم بحجة أخرى فقال: **﴿ولله ملك السموات والأرض ومابينهما﴾**؛ يتصرف فيهما كيف شاء، **﴿يخلق مايشاء، والله على كل شيء قدير﴾**؛ فقدرته عامة؛ فيخلق من غير أصل؛ كالسموات والأرض، ومن أصل؛ كخلق مابينهما، وينشئ من أصل ليس هو جنسه؛ كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه، إما من ذكر وحده؛ كحواء، أو من أنثى وحدها: كعيسى، أو منهما؛ كسائر الناس. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد رُمي كثير من الأولياء المحققين بالاتحاد والحلول؛ كابن العربي الحاتمي، وابن الفارض، وابن سبعين، والششتري والحلاج، وغيرهم - رضي الله عنهم - وهم برءاء منه. وسبب ذلك أنهم لما خاضوا بحار التوحيد، وكُوشفوا بأسرار التفريد، أو أسرار المعاني قائمة بالأواني، سارية في كل شيء، ماحية لكل شيء، كما قال في الحِكَم: «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته»، فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعاني فضاقت عبارتهم عنها؛ لأنها خارجة عن مدارك العقول، لاتدرك بالسطور ولا بالنقول. وإنما هي أذواق ووجدان؛ فمن عبَّر عنها

بعبارة اللسان كفَّر وزندق، وهذه المعاني هي الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة، ثم ظهرت محاسنها، وأبدت أنوارها وأسرارها، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات، فمن عرفها وكوشف بها. اتحد عنده الوجود، وأفضى إلى مقام الشهود. وهي منزهة عن الحلول والاتحاد، إذ لاثاني لها حتى تحل فيه أو تتحد معه، وقد أشرت إلى هذا المعنى في تائيتي الخمرية، حيث قلت:

تَنَزَّهَتْ عن حُكْمِ الحلولِ في وَصْفِها فليْسَ لهـا سِـوَى في شَكْلِه حلّت
تَجلّتْ عَـرُوساً في مَرائي جَمَالِها وأرْخَتْ سُـتُـورَ الكِبْـرياءِ لِعِـزَّتي
فَـمَا ظَاهِرٌ في الكَوْنِ غَـيْرُ بهـائها وما احْـتَجَبَتْ إلا لَمُحْجِب سَرِيرَتِي

فمن كوشف بأسرار هذه الخمرة، لم ير مع الحق سواه. كما قال بعضُ العارفين: (لو كُلِّفتُ أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لاغير معه حتى أشهده). ولو أظهرها الله تعالى للكفار لوجدوا أنفسهم عابدة لله دون شيء سواه، وفي هذا المعنى يقول ابن الفارض على لسان الحقيقة:

فما قَصَدُوا غيْرَه وإن كان قَصْدُهُم سِـوايَ وإن لم يُظْهِـروا عَـقْـدَ نِيَّـة

والنصارى ـ دمرهم الله في مقام الفرق والضلال ـ حملهم الجهل والتقليد الرديّ على مقالاتهم التي قالوا في عيسى عليه السلام.

ثم ذكر مقالة أخرى لليهود والنصارى، فقال:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله﴾ أي: أولاد بنيه؛ فاليهود يقولون: نحن أولاد عزير، والنصارى يقولون: نحن أشياع عيسى. أو: فينا أبناء الله ونحن أحباؤه، أو: نحن مقربون عند الله كقرب الولد من والده. وهذه دعوى ردَّها عليهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿فلِمَ يعذبكم بذنوبكم﴾، وهل رأيتم والداً يُعذب ابنه، وقد عذبكم في الدنيا بالمسخ والقتل والذل، وقد اعترفتم أنه يعذبكم بالنار أياماً معدودة، ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي: ممن خلقه الله، ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بفضله؛ وهو من آمن منهم بالله ورسله، ﴿ويعذب من

يشاء﴾ بعدله؛ وهو من مات منهم على كفره، فأنتم كسائر البشر يعاملكم معاملتهم، لامزية لكم عليهم، ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ كلها سواء فى كونها ملكا وعبيداً الله ـ سبحانه ـ ﴿وإليه المصير﴾، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فلِمَ يعذبكم بذنوبكم﴾ أى: فلو كنتم أحباءه لما عذبكم؛ لأن الحبيب لا يعذب حبيبه، حُكى عن الشبلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان إذا لبس ثوباً جديداً مزقه، فأراد ابن مجاهد أن يعجزه بمحضر الوزير، فقال له: أين تجد فى العلم فساد ما ينتفع به؟ فقال له الشبلى: أين فى العلم: ﴿فطفق مسحًا بالسوق والأعناق﴾[١] ؟ فسكت، فقال له الشبلى: أنت مقرئ عند الناس، فأين فى القرآن: إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ابن مجاهد، ثم قال: قل يا أبا بكر، فقرأ له الشبلى قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ ، فقال ابن مجاهد: كأنى والله ماسمعتها قط. هـ.

وفى الحديث : «إذا أَحَبَّ اللهُ عبْداً لاَ يضُرُّه ذَنْبٌ» ، ذكره فى القوت. وفى المثل الشائع: (من سبقت له العناية لاتضره الجناية) . وفى الصحيح: «لعلَّ اللهَ اطلَّعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فقَال: افْعلُوا مَاشِئْتمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكمْ»[٢]، وسببه معلوم، وفى القوت عن زيد بن أسلم: (إن الله ـ عز وجل ـ ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: اصنع ماشئت فقد غفرت لك) . وفى القصد للشيخ أبى الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنه ـ قال: يبلغ الولى مبلغاً يقال له: أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ماشئت. هـ.

وليس معناه إباحة الذنوب، ولكنه لمَا أحبه عصمه أو حفظه، وإذا قضى عليه بشىء ألهمه التوبة، وهى ماحية للذنوب، وصاحبها محبوب، قال تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ . والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى اتباع رسوله ـ عليه الصلاة والسلام، فقال:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت : جملة (يُبين) : حال، أى: جاءكم رسولنا مبيناً لكم، و(على فترة) : متعلق بجاء، أى: جاءكم على حين فترة وانقطاع من الوحى، و (أن تقولوا) : مفعول من أجله، أى: كراهية أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يأهل الكتاب﴾؛ اليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبين لكم﴾ ما اختلفتم فيه، أو ما كتمتم من أوامر الدين، أو مطلق البيان. جاءكم ﴿على﴾ حين ﴿فترة من الرسل﴾

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة (ص).
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى فى (المغازى ـ باب فضل من شهد بدرا) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر) عن سيدنا على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وانقطاع من الوحي، أرسلناه كراهية ﴿أن تقولوا﴾ يوم القيامة: ﴿ماجاءنا من بشير ولا نذير﴾، فتعتذروا بذلك، ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ فلا عذر لكم، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإرسال من غير فترة، كما في أنبياء بني إسرائيل؛ فقد كان بين موسى وعيسى ألف نبي، وبينهما ألف وسبعمائة سنة، وعلى الإرسال على الفترة؛ كما بين عيسى ومحمد ﷺ. كان بينهما ستمائة سنة، أو خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. قاله البيضاوي.

والذي في الصحيح: أن الفترة ستمائة سنة[1]، وفي الصحيح أيضاً عنه ـ عليه الصلاة السلام ـ: «أنَا أوْلى النَّاسِ بعِيسَى في الأُولَى والآخرة وليس بَيْنَنَا نبي»[2]. وهو يرد ماحكاه الزمخشري وغيره: أن بينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان العبسي؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم. قاله المحشي.

الإشارة: ظهور أهل التربية بعد زمان الفترة، وخمود أنوار الطريقة وأسرار الحقيقة، حجة على العباد، ونعمة كبيرة على أهل العشق والوداد، من انتكب عنهم لقي الله بقلب سقيم، وقامت بهم الحجة عليهم عند الملك الكريم، ومن اتبعهم وحط رأسه لهم فاز بالخير الجسيم، والنعيم المقيم؛ حيث لقي الله بقلب سليم، وقد ظهروا في زماننا هذا بعد اندراس أنوار الطريقة، وخمود أسرار الحقيقة، فجدد الله بهم الطريقة، وأحيا بهم أسرار الحقيقة، منهم شيخنا أبو المواهب صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية، البحر الفياض، سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، وشيخه القطب الواضح، والجبل الراسخ، شيخ المشايخ، مولاي العربي الدرقاوي الحسني، أطال الله بركاتهما للأنام، فقد تخرج على أيديهما الجم الغفير من الأولياء. وليس الخبر كالعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم على لسان نبيه موسى ـ عليه السلام ـ فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لقومه﴾: يابني إسرائيل ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يسوسونكم، كلما مات نبي خلفه نبي، فقد شرفكم بهم دون غيركم، إذ لم يبعث في أمة مابعث في بني إسرائيل من الأنبياء، ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ أي: جعل منكم ملوكاً، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضاً في النبوة والملك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان.

وقيل: لمّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكا.

(١) جاء ذلك فيما أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار ـ باب إسلام سلمان الفارسي ﷺ) عن سلمان قال: (فترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما ـ ستمائة سنة).

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأنبياء، باب: واذكر في الكتاب مريم) ومسلم في (الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ) عن أبي هريرة ﷺ.

﴿وآتاكم مالم يُؤت أحداً من العالمين﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها، أو المراد عالمى زمانهم، وعن أبى سعيد الخدرى قال النبى ﷺ: «كَانَ بنو إسْرَائيل إذا كَانَ لأَحَدِهم خَادِمٌ وامْرَأة يُكْتَب ملَكاً»[1]. وقال ابن عباس: (من كان له بيت وخادم وامرأة فهو ملك)، وعن أبى الدرداء قال: قال النبى ﷺ: «مَنْ أصبحَ مُعَافىً فى بَدَنه، آمناً فى سرْبِه، عِنْدَه قُوتُ يَوْمِه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها، يكفيك منها، يابْنَ آدم، ماسدَّ جوعَتَكَ، وَوَارَ عَوْرَتَكَ، فإن كان بيتٌ يُوارِيك فذاك، وإن كانت دابة فبخ بخ، فلق الخبز، وماء الجر[2] وما فَوْق الإزار حِسَابٌ عليك»[3].

وقال الضحاك: (كانت منازلهم واسعة، فيها مياة جارية، فمن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جارٍ، فهو ملك). وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم، وأول من سخر لهم الخدم من بنى آدم. هـ.

الإشارة: كل من رزقه الله من يأخذ بيده ومن يستعين به على ذكر ربه، فليذكر نعمة الله عليه، فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وكل من ملك نفسه وهواه، وأغناه الله عما سواه، فهو ملك من الملوك. وكل من خرجت فكرته عن دائرة الأكوان، واتصل بفضاء الشهود والعيان، فقد آتاه الله ما لم يؤت أحداً من العالمين. وقد كُنتُ ذات يوم جالسًا فى الجامع الأعظم من مدينة تطوان، فانتبهت فإذا مصحف إلى جنبى، فقال لى الهاتف: انظر تجد مقامك، فأعرضت عنه، فأعاد علىَّ الهاتف ثلاث مرات، فرفعته، ونظرت، فإذا فى أول الورقة: ﴿وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه.

ثم أمرهم بجهاد عدوهم، فقال:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور لابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) الجرُ والجرار: جمع جرَّة: وهو الإناء المعروف من الفخار.

(٣) أخرجه إلى قوله: (حيزت له الدنيا) البخارى فى الأدب المفرد (باب من أصبح آمناً فى سربه) والترمذى فى (الزهد باب ٣٤) وابن ماجه فى (الزهد، باب القناعة)

قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت : (فتنقلبوا) : منصوب بأن في جواب النهي، أو عطف على المجزوم، و (ما داموا) : بدل من (أبدا) ؛ بدل بعض، و (أخي) يحتمل النصب عطف على (نفسي) ، أو رفع عطف على (أن) مع اسمها، أو مبتدأ حُذف خبره ، أو جر عطف على ياء المضاف ، على مذهب الكوفيين.

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ ؛ أرض بيت المقدس، قدسها الله، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين. وفي مدحها أحاديث كثيرة. وقيل: الطور وماحوله، أو دمشق وفلسطين، أو الشام، ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي: التي كتب الله في اللوح المحفوظ، أنها لكم مسكنًا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم، ﴿ولاترتدوا على أدباركم﴾ أي: لاترجعوا مدبرين هاربين خوفًا من الجبابرة، أو: لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان، وعدم الوثوق بالله، ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ الدنيا والآخرة. رُوي أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا، وقالوا : ليتنا متنا بمصر، تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، ثم ﴿قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين﴾ أقوياء متغالبين، لا طاقة لنا بمقاومتهم، وهم قوم من العمالقة، من بقية قوم عاد، ﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ بأمْر سماوي، أو يُسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا، ﴿فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾ فيها.

﴿قال رجلان﴾ ؛ كالب بن يوقنًا، ويوشع بن نون ـ ابن اخت موسى وخادمه ـ ﴿من الذين يخافون﴾ الله، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى، وعليه قراءة ﴿يُخافان﴾ بضم الياء، ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالإسلام والتثبيت، قالا: ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ أي: باب المدينة، أي: باغتوهم بالقتال، ﴿فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ أي: ظاهرون عليهم، فإنهم أجسام لا قلوب فيها. يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قِبل موسى، أو من قوله تعالى: ﴿التي كتب الله لكم﴾، أو من عادته سبحانه في نصر رسله وأوليائه، وماعهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه. ثم قال: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ به، ومصدقين لوعده.

﴿قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها﴾ ، وهذا من تعنتهم وعصيانهم، وأشنع منه قولهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾، قالوه استهزاء بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وانظر فضيلة الأمة

المحمدية، وكمال أدبها مع نبيها - عليه الصلاة والسلام - فإن النبي ﷺ قال يوم الحديبية لأصحابه حين صُدَّ عن البيت: إني ذاهب بالهدْي فناحره عند البيت، فقال المقداد بن الأسود: أما والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك ومن خلفك، ولو خضت البحر لخضناه معك، ولو تسنمت جبلا لعلوناه معك، ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد لتبعناك، فلما سمعها أصحاب النبي ﷺ تابعوه على ذلك، فسُرَّ ﷺ بذلك وأشرق وجهه[1]. هـ.

ولما سمع موسى عليه السلام مقالة قومه له غضب، ودعا ربه فقال: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ أي: لا أثق إلا بنفسي وأخي، ولا قدرة لي على غيرهما، والرجلان المذكوران، وإن كانا موافقين له، لكنه لم يوثق عليهما، لما كبد من تلوّن قومه، ثم دعا عليهم فقال: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي: احكم بيننا وبينهم بما يستحق كل واحد منا ومنهم، أو بالتبعيد بيننا وبينهم، وتخليصنا من صحبتهم.

رُوي أنه لما دعا عليهم ظهر فوقهم الغمام، وأوحى الله إليه: ياموسى إلى متى يعصي هذا الشعب؟ لأُهلكنهم جميعا، فشفع فيهم موسى عليه السلام فقال الله تعالى له: قد غفرت لهم بشفاعتك، ولكن بعد ماسميتهم فاسقين، ودعوت عليهم، بي حلفت لأحرمنَّ عليهم دخول الأرض المقدسة، وذلك قوله تعالى: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ يحتمل أن يكون «أربعين» متعلقاً بمحرمة، فيكون التحريم عليهم مؤقتًا غير مؤبد فيوافق ظاهر قوله: ﴿التي كتب الله لكم﴾.

ويؤيد هذا ماروي أن موسى - عليه السلام - لما خرج من التيه، سار بمن بقي معه من بني إسرائيل، ويوشع على مقدمته، ففتح بيت المقدس، فبقي فيها ماشاء الله، ثم قبض. ويحتمل أن يكون «أربعين» متعلقاً بـ (يتيهون)، فيكون التحريم مؤبداً، وعلى هذا لم يبق أحد ممن دخل التيه إلا يوشع وكالب، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال له: (اذهب أنت وربك...)، بل كلهم هلكوا في التيه، وإنما دخلها أشياعهم.

رُوي أن موسى عليه السلام لما حضره الموت في التيه أخبرهم بأن يوشع بعده نبي، وأن الله أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع، وقاتل الجبابرة، وكان القتال يوم الجمعة، فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب ليلة السبت، فخشي أن يعجزوه، فقال: اللهم اردد الشمس عليّ، وقال للشمس: إنك في طاعة الله وأنا في طاعته، فوقفت مثل يوم حتى قتلهم، ثم قتل ملوك الأرمانيين، وقتل من ملوك الشام أحداً وثلاثين ملكاً، فصارت الشام كلها لبني إسرائيل، وفرّق عماله في نواحيها، وبقيت بنو إسرائيل في التيه أربعين سنة يتيهون في الأرض في ستة فراسخ، بين فلسطين وأيلة، متحيرين، يسيرون من الصباح إلى المساء جادين في السير، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، ثم

---

(١) المشهور أن قول المقداد كان يوم بدر. وقال العلامة ابن كثير: وهذا - إن كان محفوظاً يوم الحديبية - فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ، كما قاله يوم بدر. انظر: تفسير ابن كثير.

يسيرون بالليل كذلك فيصبحون حيث ارتحلوا، وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى، وماؤهم من الحجر الذى يحمله موسى، واختلف في الكسوة، فقيل: أبقى الله كسوتهم معجزة لموسى، وقيل: كساهم مثل الظفر. والأكثر أن موسى وهارون كانا معهم زيادة فى درجاتهما، وكان عقوبة لقومهما وأنهما ماتا فيه، مات هارون أولاً ودفنه أخوه فى كهف، وقيل: رُفع على سرير فى قبة، ثم مات موسى ـ عليه السلام ـ ودفن بقرب من الأرض المقدسة، رمية بحجر، كما في الحديث، ثم دخل يوشع الأرض المقدسة بعد ثلاثة أشهر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿فلا تأس﴾ أى: لاتحزن، ﴿على القوم الفاسقين﴾، خاطبه الحق تعالى بذلك لمَّا ندم على الدعاء عليهم، فقال له: إنهم أحق بذلك لفسقهم وعصيانهم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه من المريدين: ادخلوا الحضرة المقدسة التى كتب الله لكم، إن دمتم على جهاد أنفسكم، وصدقتم فى طلب ربكم، وبقيتم فى قربة شيوخكم، ولا ترتدوا على أدباركم بالرجوع عن صحبة شيوخكم من الملل مع طول الأمل، فتنقلبوا خاسرين، فإن حضرتى محفوفة بالمكاره، والطريقة الموصلة إليها مرصودة للقواطع والعوائق، فإن كان ممن لم يكتب له فيها نصيب، قال: لن ندخلها أبداً مادام القواطع فيها، ورجع على عقبيه، يتيه في مهامه شكوكه وأوهامه، وإن كان ممن سبقت له العناية وحقت به الرعاية قال: ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾، فيبادر إلى قتل نفسه، من غير تأن ولا خوف ولا فزع، فحضرة التحقيق لا ينالها إلا الشجعان، ولا يسكنها إلا الأكابر من أهل العرفان، وإلى ذلك أشار صاحب العينية بقوله:

وإيَّاك جَزْعاً لا يَهُولُكَ أَمْرُهَا فَمَا نَالَهَا إلا الشُّجَاعُ المُقَارِعُ

وقال الورتجبى فى قوله تعالى: ﴿لا أملك إلا نفسى وأخى﴾: من بلغ عين التمكين ملك نفسه وملك نفوس المريدين؛ لأنه عرفها بمعرفة الله، وقمعها من الله بسلطان سائس قاهر، من نظر إليه يفزع من الله، لا يطيق عصيانه ظاهراً وباطناً، فأخبر ﷺ عن محلّ تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينهما اتحاداً، بحيث إنه إذا حكم على نفسه صار[1] نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال. قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة»[2]. هـ.

ثم تكلم الحق جل جلاله على بقية حفظ الأبدان، فبيَّن أول مَنْ سَنَّ القتل ووبال من تبعه، فقال:

(١) هكذا فى الأصول وكذا فى تفسير الورتجبى، وأرى أنها (صارت).
(٢) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم) عن النعمان بن بشير، بلفظ: (المؤمنون كرجل واحد..).

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت : الضمير في (عليهم) : لبني إسرائيل؛ لتقدم شأنهم، ولاختصاصهم بعلم قصة ابني آدم، ولإقامة الحجة عليهم بهمهم ببسط اليد إلى النبي ﷺ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿واتل عليهم﴾ أي: على بني إسرائيل؛ إذ الكلام كان معهم، أو على جميع الأمة، أو على جميع الناس، إذ هو أول الكلام على بقية حفظ الأبدان - ﴿نبأ ابني آدم﴾ وهو قابيل وهابيل ﴿بالحق﴾ أي: تلاوة ملتبسة بالحق، أو نبأ ملتبساً بالحق موافقاً لما في كتب الأوائل.

﴿إذ قربا قرباناً فتُقبل من أحدهما﴾ وهو هابيل، ﴿ولم يُتقبل من الآخر﴾ وهو قابيل، وسبب تقريبهما القربان أن آدم - عليه السلام - كان يُولد له من حواء توأمان في كل بطن: غلام وجارية، إلا شيثاً، فإنه ولد منفرداً، وكان جميع ماولدته حواء أربعين، بين ذكر وأنثى، في عشرين بطناً، أولهم قابيل، وتوأمته أقليما، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده، وولد ولده، أربعين ألفاً، ورأى فيهم الزنا وشُرب الخمر والفساد، وكان غشيان آدم لحواء بعد مهبطهما إلى الأرض، وقال ابن اسحاق عن بعض العلماء بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة، قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت في الجنة بقابيل وتوأمته، ولم تجد عليهما وحماً ولا غيره، وحملت في الأرض بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم.

وكان آدم إذا كبر ولده يزوج غلام هذا البطن بجارية بطن آخر، فكان الرجل يتزوج أيّ أخواته شاء إلا توأَمَته، لأنه لم يكن نساء يومئذ، فأمر الله تعالى آدم أن يزوج قابيل لَوْذَاء توأمة هابيل، وينكح هابيل أقليما أخت قابيل، وكانت أحسن الناس، فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: أختي أحسن، وهي من ولادة الجنة، وأنا أحق بها، فقال له أبوه: لا تحل لك، فأبى، فقال لهما آدم: قربا قرباناً، فأيكما قُبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع، فقرَّب حِملاً من زرع رديء، وأضمر في نفسه: لا أبالي قُبل أو لا، لا يتزوج أختي أبداً، وكان هابيل صاحب غنم، فقرَّب أحسن كبش عنده، وأضمر في نفسه الرضا لله تعالى، وكانت العادة حينئذ

أن تنزل نارٌ من السماء فتأكل القربان المقبول، وإن لم يقبل لم تنزل، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فحسده، وقال له: ﴿لأقتلنك﴾، حسداً على تقبل قربانه دونه، فقال له أخوه: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الكفر، أي: إنما أُوتيت من قبل نفسك بترك التقوى، لا من قِبلي، فلِمَ تقتلني؟

قال البيضاوي: وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره، ويجتهد في تحصيل مابه صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقي. هـ. وفيه نظر: فإن تقوى المعاصي ليست شرطاً في قبول الأعمال بإجماع أهل السنة، إلا أن يحمل على تقوى الرياء والعجب. انظر الحاشية.

ثم قال له أخوه هابيل: ﴿لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدِيَ إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: لئن بدأتني بالقتل لم أبدأك به، أو لم أدفعك عني، وهل تركه للدفع تورع، وهو الظاهر، أو كان واجباً عندهم، وهو قول مجاهد؟ وأما في شرعنا: فيجوز الدفع، بل يجب، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: قيل: كان هابيل أقوى منه، فتحرج عن قتله، واستسلم له خوفاً من الله، لأن الدفع لم يبح بعدُ، أو تحرياً لِمَا هو الأفضل. قال ﷺ: «كُنْ عبدَ الله المقتُول، ولا تكن عبدَ الله القاتل»(١). وإنما قال: (ماأنا بباسط) في جوابَ (لئن بسطت)؛ للتبري من هذا الفعل الشنيع، والتحرز من أن يوصف به، ولذلك أكد النفي بالباء. هـ.

ثم قال له هابيل: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ أي: إني أريد بالاستسلام وعدم الدفع أن تنقلب إلى الله ملتبسا بإثمي، أي: حاملاً لإثمي لو بسطت إليك يدي، وإثمك ببسطك يديك إليَّ، ونحوه قوله ﷺ: «المُسْتَبَّان ماقَالا فَعلَى البادئ منهما مالَمْ يَعْتَدِ المظْلُوم»(٢). أو بإثم قتلي وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، أو بسائر ذنوبي فتحملها عني بسبب قتلك لي؛ فإن الظالم يجعل عليه يوم القيامة ذنوب المظلوم ثم يطرح في النار، ولذلك قال: ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾، يحتمل أن يكون من كلام هابيل، أو استئناف من كلام الله تعالى، أي: جزاؤهم يوم القيامة أن يحملوا أوزار المظلومين، ثم يطرحون في النار، كما في حديث المفلس.

ولم يرد هابيل بقوله: ﴿إني أريد﴾، أنه يُحب معصية أخيه وشقاوته، بل قصد بذلك الكلام أنه إن كان القتل لامحالة واقعاً فأريد أن يكون لك لا لي، والمقصود بالذات: ألا يكون له، لا أن يكون لأخيه. ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته. وإرادة عقاب العاصي جائزة. قاله البيضاوي.

﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ أي: سهلت له ووسعته ولم تضق منه، أو طاوعته عليه وزينته له، ﴿فقَتَله فأصبح من الخاسرين﴾ ديناً ودنيا، فبقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قال السدي: لما قصد قابيلُ قتل هابيل،

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٥/١١٠) من حديث خباب بن الأرت.

(٢) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب النهي عن السباب) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومعنى الحديث: أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله، إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار فيقول للبادئ أكثر مما قاله له.

راغ هابيل في رؤوس الجبال، ثم أتاه يوماً من الأيام، فوجده نائماً فشدخ رأسه بصخرة فمات، وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل؟ فتمثل له إبليس، وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، وقابيل ينظر، فعلمه القتل، فوضع رأس أخيه على حجر وشدخه بحجر آخر. وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة، وقبره قيل: عند عقبة حراء، وقال ابن عباس: عند ثور، وقال جعفر الصادق: بالبصرة، في موضع المسجد الأعظم.

الإشارة: قد تضمنت هذه الآية من طريق الإشارة ثلاث خصال، يجب التحقق بها على كل مؤمن متوجه إلى الله تعالى: أولها: التطهير من رذيلة الحسد، الذي هو أول معصية ظهرت في السماء والأرض، وقد تقدم الكلام عليه في النساء[1]، الثانية: التطهير من الشرك الجلي والخفي، والتغلغل في التبري من الذنوب التي توجب عدم قبول الأعمال، ويحصل ذلك بتحقيق الإخلاص، والثالثة: عدم الانتصار للنفس والدفع عنها إلا فيما وجب شرعاً، فقد قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)؛ فلا ينتصر لنفسه ولو بالدعاء، فإما أن يسكت، أو يدعو لظالمه بالرحمة والهداية، حتى يأخذ الله بيده اقتداء برسوله ﷺ، حيث قال: «اللهم اغفِرْ لِقَوْمي فَإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

ولمَّا قتل قابيل أخاه، لم يدر ما يفعل به؛ لأنه أول من مات من بني آدم، فعلمه الله كيفية دفنه، فقال:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: (ليريه) أي: يعلمه، وضمير الفاعل يعود على «الله» أو الغراب، و (كيف): حال من الضمير في (يُواري) والجملة مفعول ثان ليرى، أي: ليعلمه الله، أو الغراب، كيفية مواراة أخيه، و (ياويلتا): كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، كيا حسرتا ويا أسفا، و«أصبح» هنا بمعنى صار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ أي: يحفر فيها، ﴿ليريه﴾ أي: الله، أو الغراب، ﴿كيف يُواري﴾ أي: يستر ﴿سوءة أخيه﴾ أي: جسده؛ لأنه مما يستقبح أن يرى، وخصت بالذكر لأنها أحق بالستر من سائر الجسد، فعلَّم اللهُ قابيلَ كيف يصنع بأخيه؛ لأنه لم يدر ما يصنع به، إذ هو أول ميت مات من بني آدم، فتحير في أمره، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة وغطاه بالتراب.

قال قابيل لما رأى ذلك: ﴿ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾ فاهتدى إلى ما اهتدى إليه، فحفر لأخيه ودفنه ﴿فأصبح من النادمين﴾ على قتله؛ لما كابد فيه من التحير في أمره، وحمله على رقبته سنة أو أكثر، وتلمذة الغراب له، واسوداد لونه، وتبري أبويه منه، إذ روي أنه لما قتله اسود وجهه،

(١) عند إشارة الآية ٥٤.

فسأله آدم عن أخيه، فقال: ماكنتُ عليه وكيلا. فقال: بل قتلته؛ فلذلك اسود جسدك، وتبرأ منه، ومكث بعد ذلك مائة سنة لم يضحك، وعدم الظفر بما فعله من أجله. قاله البيضاوى، فانظره مع ما سيأتى عن الثعلبى.

واختلف فى كفره؛ فقال ابن عطية: الظاهر أنه لم يكن قابيل كافرا، وإنما كان مؤمناً عاصيا، ولو كان كافراً ماتحرج أخوه من قتله، إذ لا يتحرج من قتل كافر؛ لأن المؤمن يأبى أن يقتل موحداً، ويرضى بأن يُظْلَمَ ليجازى فى الآخرة. ونحو هذا فعل عثمان ﷺ لما قصد أهل مصر قتله مع عبد الرحمن بن أبى بكر، لشبهةٍ، وكانوا أربعة آلاف، فأراد أهل المدينة أن يدفعوا عنه، فأبى واستسلم لأمر الله. قال عياض: منعه من الدفع إعلام رسول الله ﷺ بأن ذلك سَبَقَ به القدر. حيث بشره بالجنة على بلوى تصيبه، كما فى البخارى[1]، ونقل عن بعض أهل التاريخ: أن شيئاً سار إلى أخيه قابيل، فقاتله بوصية أبيه له بذلك، متقلدا بسيف أبيه. وهو أول من تقلد بالسيف، فأخذ أخاه أسيراً وسلسله، ولم يزل كذلك حتى قبض كافرا. هـ.

قلت: ولعل تحرّج أخيه من قتله؛ لأنه حين قصد قتله لم يُظهِر كفره، وظهر بعد ذلك، فلذلك قاتله أخوه شيث بعد ذلك وأسره، وذكر الثعلبى: أن قابيل لما طرده أبوه، أخذ بيد أخته أقليما، فهرب بها إلى أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل، لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أنت أيضا ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار، وهو أول من عبد النار. هـ. فهذا صريح فى كفره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان الحق جل جلاله يدل العصاة من عباده إذا تحيروا على مايزيل حيرتهم، فكيف لا يدل الطائعين إذا تحيروا على مايزيل شبهتهم، إذا فزعوا إليه والتجأوا إلى حماه؟! فكل من وقع فى حيرة دينية أو دنيوية وفزع إلى الله تعالى، مضطراً إليه، فلا شك أن الله تعالى يجعل له فرجاً ومخرجاً من أمره، إما بواسطة أو بلا واسطة. كن صادقا تجد مرشدا، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من قتل نفساً بغير حق، كما فعل قابيل، فقال:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾

قلت: (من أجل ذلك): يتعلق بكتبنا، فيوقف على ماقبله، وقيل: بالنادمين، فيوقف على (ذلك)، وهو ضعيف، قاله ابن جزى، وأصل (أجْل): مصدر أجَل يأجل، كأخذ يأخذ، أجْلا، أى: جنا جناية، استعمل فى تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه، فاستعمل فى كل تعليل.

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب أصحاب النبى، باب مناقب عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ).

يقول الحق جل جلاله : ﴿من أجل ذلك﴾ القتل الذى صدر من قابيل لأخيه هابيل، وما نشأ عنه من التجرؤ على الدماء والمفاسد، حيث سنّه أولاً ولم يكن يعرفه أحد، فاقتدى به من بعده، ﴿كتبنا على بنى إسرائيل﴾ فى التوراة الذى حكمه متصل بشريعتكم، ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس﴾ أى: فى غير قصاص، وبغير فساد فى الأرض، كقطع الطريق والكفر، ﴿فكأنما قتل الناس جميعا﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء، وسن القتل، وجرأ الناس عليه.

وفى البخارى عن ابن مسعود قال : قال ﷺ: «لاتُقْتَلُ نَفْسٌ مسلمةٌ بغير حق إلاّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَلِ كِفْلٌ من دَمِهَا؛ لأَنَّهُ أَوّلُ من سَنّ القَتْلِ»(١) . أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء فى استجلاب غضب الله والعذاب العظيم، أو يكون الناس خصماءه يوم القيامة؛ لأن هتك حرمة البعض كالكل.

﴿ومن أحياها﴾ أى: تسبب فى حياتها بعفو أو منع من القتل، أو استبقاء من بعض أسباب الهلكة؛ كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك، ﴿فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ ؛ أُعطِى من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعا، وفى البخارى: «من أحياها ـ أى مَنْ حَرّمَ قتْلَها إلا بحق حيى الناس منه جميعا». قال ابن جزى: والقصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه، ليزدجر الناس عنه وكذلك الثواب فى إحيائها كثواب إحياء الجميع لتعظيم الأمر والترغيب فيه. هـ . فما كتبه الله على بنى إسرائيل هو أيضاً شرع لنا. قال أبو سعيد: (والذى لا إله إلا هو ماجعل دم بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا).

وإنما خصهم بالذكر؛ لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل النفس فى كتاب، وغلظ عليهم بسبب طغيانهم، ولتلوح مذمتهم. انظر ابن عطية. وعنه ﷺ : «مَنْ سَقَى مؤمناً شربةَ ماء والماءُ موجودٌ، فكأنما أَعْتَقَ سبْعين رقبةً، ومَنْ سقَى فى غيرِ موْطنه فكأنَّما أحيا الناس جميعا» .

الإشارة : كل من صدَّ نفساً عن إحياء قلبها وعوقها عن من يعرفها بربها فكأنما قتلها، ومن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعا؛ لأن المؤمنين كلهم كالجسد الواحد، كما فى الحديث، ومن أحياها بأن أنقذها من الغفلة إلى اليقظة، ومن الجهل إلى المعرفة، فكأنما أحيا الناس جميعاً؛ لأن الأرواح جنس واحد، فإحياء البعض كإحياء الكل.

وبهذا يظهر شرف مقدار العارفين، الدالين على الله، الدعاة إلى معرفة الله، الذين أحيا الله بهم البلاد والعباد، وفى بعض الأثر أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسُ محمدٍ بيده لئن شئتُم لأُقْسِمَنَّ لكم: إنّ أحبّ عبادِ اللهِ إلى الله الذين يُحَبّبُون اللهُ إلى عباده، ويحببون عبادَ اللهِ إلى اللهِ، ويمشُون فى الأرضِ بالنَّصِيحَة» .

---

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء، باب خلق آدم) ومسلم فى (القسامة، باب بيان إثم من سنّ القتل).

وهذه حالة شيوخ التربية: يحببون الله إلى عباده؛ لأنهم يطهرون القلوب من دنس الغفلة حتى ينكشف لها جمال الحق فتحبه وتعشقه، ويذكرون لهم إحسانه تعالى وآلاءه فيحبونه، فإذا أحبوه أطاعوه فيحبهم الله ويقربهم، والله تعالى أعلم. وقال الورتجبي: فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه أن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة في شيء، وباشرته، فكأنها باشرت جميع عصيان الله تعالى؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت، لأنها أمارة بالسوء، ومن السوء خلقت، فالجزاء يتعلق بالنية. وكذلك إذا وقعت النية من قِبَل القلب الروحاني في خير، وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات؛ لأنه لو قدر لفعل. قال ﷺ : «نيةُ المؤمن أبلغُ مَنْ عمله».

وفيه إشارة أخرى أن الله سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجتمعة، بعضها من بعض وصرّفها مختلفة، وتعلقت بعضها من بعض من جهة الاستعداد والخلقة. فمن قتل واحداً منها أثّر قتلها في جميع النفوس عالمة بذلك أو جاهلة، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده، ووصْف جلاله وجماله، حتى تحب خالقها، وتحيا بمعرفته، وجمال مشاهدته، فأثر حياتها وتزكيتها في جميع النفوس، فكأنما أحيا جميع النفوس. وفيه تهديد لأئمة الضلالة، وعز وشرف وثناء حسن لأئمة الهدى. انتهى كلامه.

وقوله في النفس الأمارة: (من السوء خلقت)، فيه نظر؛ فإن النفس هي الروح عند المحققين، فما دامت الطينية غالبة عليها ، وهي مائلة إلى الحظوظ والهوى، سميت نفساً، فإن كانت منهمكة سميت أمارة، وإن خف عثارها، وغلب عليها الخوف، سميت لوامة، فإذا انكشف عنها الحجاب، وعرفت ربها، واستراحت من تعب المجاهدة، سميت روحا، وإن تطهرت من غبش الحس بالكلية سميت سرا، وأصلها من حيث هي نور رباني وسر لاهوتي، ولذلك قال تعالى فيها: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ،[1] فالسوء عارض لها، لاذاتي، فما خلقت إلا من نور القدس. والله تعالى أعلم.

ثم عاتب بني إسرائيل على سفك الدماء والإفساد في الأرض، بعد ماحرم ذلك عليهم في التوارة، فقال:

﴿ ... وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: «ولقد جاءتهم» أي: بني إسرائيل، **«رُسلنا بالبينات»** أي: بالمعجزات الواضحات، **«ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون»** بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

قال البيضاوي: أي: بعدما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل إتيان تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد، كي يتحاموا عنها، كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولايبالون، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها، والإسراف: التباعد عن حد الاعتدال في الأمر. هـ.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

الإشارة: قد قيض الله لهذه الأمة المحمدية من يقوم بأمر دينها، ظاهراً وباطناً، وهم ورثته في الظاهر والباطن، وفي الخبر: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، فلكل زمان رجال يقومون بالشريعة الظاهرة وهم العلماء، ورجال يقومون بالحقيقة الباطنة، وهم الأولياء، فمن قصر في الجهتين قامت عليه الحجة، ولله الحجة البالغة، فمن أسرف أو طغى أدبته الشريعة وأبعدته الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال المسرفين من بني اسرائيل وغيرهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤) ﴾

قلت: سبب نزول الآية عند ابن عباس: قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل. وهو مناسب لما قبله، وقال جماعة: نزلت في نفر من عُكْل وعُرينَة، أظهروا الإسلام بالمدينة، ثم خرجوا وقتلوا راعي النبي ﷺ وأخذوا إبله، فبعث في إثرهم، فأُخذوا، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم [1]، فماتوا، ثم حُكْمُها جارٍ في كل محارب، والمحاربة عند مالك: هي حمل السلاح على الناس في بلد أو في خارج عنه، وقال أبو حنيفة: لا يكون المحارب إلا خارج البلد، و (فساداً): منصوب على العلة، أو المصدر، أو على حذف الجار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله﴾ حيث حاربوا عباده. فهو تغليظ ومُبالغة، ﴿و﴾ يحاربون ﴿رسوله﴾ كما فعل العُرَنيون أو غيرهم، ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ بالفساد كإخافة الناس، ونَهْب أموالهم. قال ابن جزي: هو بيان للحرابة، وهي درجات؛ فأدناها: إخافة الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس.

فجزاؤهم ﴿أن يُقتلوا أو يُصلبوا﴾، فالصلب مضاف للقتل، فقيل: يقتل ثم يصلب، إرهاباً لغيره، وهو قول أشهب، وقيل: يصلب حياً ويُقتل في الخشبة، وهو قول ابن القاسم، ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾،

---

(١) سمل أعينهم، أي : فقأها بحديدة محماة، أو غيرها.

فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى، وقطع اليد من الرسغ، والرجل من المفصل كالسرقة، ﴿أو يُنفوا من الأرض﴾ أى: ينفوا من بلد إلى بلد، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم. وقال أبوحنيفة: يسجن فى البلد بعينه. ومذهب مالك: أن الإمام مخير فى المحارب بين ماتقدم، إلا أنه قال: إن كان قتل فلابد من قتله، وإن لم يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب.

أولئك المحاربون ﴿لهم خزى فى الدنيا﴾: ذل وفضيحة، ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ لعظم ذنوبهم. ظاهره أن العقوبة فى الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود. ويحتمل أن يكون الخزى فى الدنيا لمن عوقب، وفى الآخرة لمن لم يعاقب، ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ بأن جاءوا تائبين ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ ، فيسقط عنهم حكم الحرابة، واختُلف: هل يطالب بما عليه من حقوق الناس كالدماء أم لا؟ فقال الشافعى: يسقط عنه بالتوبة حد الحرابة، ولا يسقط حقوق بنى آدم، وقال مالك: يسقط عنه جميع ذلك، إلا أن يُوجد معه مال رجل بعينه، فيُردّ إلى صاحبه، أو يطلبه ولى دم بدم تقوم البينة فيه، فيقاد به، وأما الدماء والأموال التى لم يطالب بها، فلا يتبعه الإمام بشىء منها.

وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب، والآية فى قُطَّاع المسلمين؛ لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها . هـ. قاله البيضاوى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فرق كبير بين من يرجع إلى الله بملاطفة الإحسان، وبين من يقاد إليه بسلاسل الامتحان، هؤلاء المحاربون لم يرجعوا إلى الله حتى أُخذوا وقُتلوا وصُلبوا أو قطعت أيديهم وأرجلهم. وإن رجعوا إليه اختياراً قبلهم، وتاب عليهم ورحمهم وتعطف عليهم، وكذلك العباد: من رجع إلى الله قبل هجوم منيته قَبِله وتاب عليه، وإن جد فى الطاعة قرّبه وأدناه، وإن تقدمت له جنايات، وقد خرج من اللصوص كثير من الخصوص، كالفضيل، وابن أدهم، وغيرهما، ممن لا يحصى، سبقت لهم العناية فلم تضرهم الجناية. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم حضَّ على التقوى التى هى مجمع الخير والفوز من كل شر، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾، ولا تسلكوا سبيل بنى إسرائيل الذين جاءتهم الرسل، فعصوا وأفسدوا ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ أى: اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه، والقرب من جناب قدسه

من الطاعات، وترك المخالفات، ﴿وجاهدوا في سبيله﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة ﴿لعلكم تفلحون﴾ بالوصول إلى الله والفوز بكرامته.

الإشارة: لا وسيلة أقرب من صحبة العارفين، والجلوس بين أيديهم وخدمتهم، والتزام طاعتهم، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق. قال أبو عمرو الزجاجي رضي الله عنه: لو أن رجلاً كشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رضي الله عنه: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لا يأخذ أدبه من آمر له وناهٍ يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات. هـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به. هـ. ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على مايلقى إليه شيخ التعليم فقط، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربي؛ لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك، فلابد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك، بالكلية، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر، وكذلك لو كان سبقت إليه من الله عناية وأخذه الحق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ، والحاصل: أن الوسيلة العظمى، والفتح الكبير، إنما هو في التحكيم للشيخ؛ لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة، التي سبقت لها من الله العناية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد أهل التقوى، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) ﴾

قلت: (لو أن لهم): الجار متعلق بالاستقرار، لأنه خبر «إن» مقدما، والضمير في (به): يعود على ما ومثله، ووحده باعتبار ماذكر كقوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا﴾ حين يشاهدون العذاب يتمنون الفداء، فلو ﴿أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من الأموال والعقار ﴿ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم﴾

(١) من الآية ٦٨ من سورة البقرة.

ولاينفعهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا خلاص لهم منه، وهذا كما ترى فى الكفار، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولاحجة للمعتزلة في الآية، خلافاً لجهالة الزمخشري.

الإشارة: كل من مات تحت قهر الحجاب، ونكّبته المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب، حصل له الندم يوم القيامة، فلو رام أن يفتدى منه بملء الأرض ذهبًا ما تقبل منه، بل يبقى مقيماً في غم الحجاب، معزولاً عن رؤية الأحباب، يتسلى عنهم بالحور والولدان، وتفوته نظرة الشهود والعيان فى كل حين وأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثم ذكر حكم السارق الذى تقدم ذكره فى قضية طعمة بن أبيرق؛ لما تقدم أن هذه السورة مكملة لما قبلها، فقال:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: (السارق): مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه، وهو الجار والمجرور، أى: مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، وقال المبرد: الخبر هو جملة: (فاقطعوا)، ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ لأن الموصول ـ وهو «أل» ـ فيه معنى الشرط، ومثله: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا ﴾(١)، قلت: وهو أظهر، فإن قلت: ما الحكمة في تقديم المذكر فى هذه الآية، وفى آية الزنا قدم المؤنث، فقال: ﴿الزانية والزانى﴾؟ فالجواب: أن السرقة فى الرجال أكثر، والزنى فى النساء أكثر، فقدّم الأكثر وقوعاً. وقدّم العذاب هنا على المغفرة لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة، أو لأن المراد به القطع، وهو مقدم فى الدنيا، و (جزاء) و (نكالاً): علة أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أى: أيمانهما من الرسغ، بشروط، منها: ألاّ يكون مضطراً بالجوع، على قول مالك، فيقدم السرقة على الميتة، إن علِم تصديقه. ومنها: ألاّ يكون السارق أباً أو عبداً سرق مال ولده أو سيده. ومنها: أن يكون سرق من حرز، وأن يكون نِصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساويهما عند مالك والشافعى، وقال أبوحنيفة: لا قطع فى أقل من عشرة دراهم، وقال عثمان البَتى: يُقطع في درهم فما فوق. وفى السرقة أحكام مبسوطة فى كتب الفقه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة النور.

وعلة القطع: الزجر، ولذلك قال: ﴿جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾. فإن قلت: ما الحكمة فى قطعها فى ربع دينار، مع أن دِيتَهَا إن قطعت، خمسمائة دينار؟ قلت: ذل الخيانة أسقطت حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة البارى.

﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ أى: بعد سرقته ، كقوله فى سورة يوسف: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾(١) أى: السارقين، ﴿وأصلح﴾ بأن ردّ ما سرق، وتخلص من التبعات ما استطاع، وعزم ألا يعود، ﴿فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾، فيتقبل توبته، فلا يعذبه فى الآخرة، وأما القطع: فهل يسقط، وهو مذهب الشافعى لظاهر الآية، أو لا يسقط، وهو مذهب مالك، لأن الحدود لاتسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب ؟.. قاله ابن جزى، تبعاً لابن عطية، وفيه نظر، فإن مشهور مذهب الشافعى موافق لمالك، ولعله تصحف عنده الشافعى بالشعبى، كما نقل الثعلبى عنه. والله أعلم.

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ يتصرف فيهما كيف شاء، فالخطاب للرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ أو لكل أحد، ﴿يُعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ قال السدى: يُعذب من مات على كفره، ويغفر لمن تاب من كفره. وقال الكلبى: ﴿يعذب من يشاء﴾ على الصغيرة إذا أقام عليها ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ على الكبيرة إذا نزع منها، ﴿والله على كل شيءقدير﴾لا يعجزه شيء.

الإشارة: كما أمر الحق ـ جل جلاله ـ بقطع سارق الأموال، أمر بقطع سارق القلوب، وهو الشيطان، وجنوده؛ الخواطر الردية؛ فإن القلب بيت كنز السر ـ أى: سر الربوبية ـ لأن القلب بيت الرب، والبصيرة حارسة له، فإذا طرقه الشيطان بجنوده، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها ، وإن وجدها نائمة؛ فإن كان نومها خفيفًا اختلس منها وفطنت له، وإن كان نومها ثقيلاً؛ بتراكم الغفلات، خرب البيت ولم تفطن له، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهى نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ قلبه، قبل أن يسكنه الشيطان، فيصعب دفعه، وحفظه بدوام ذكر الله القلبى، فإن لم يستطع فبدوام اللسان، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.

ثم تكلم على مايتعلق باللسان، وهو الأمر الخامس مما تضمنته السورة، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... ﴾

قلت: الباء فى: (بأفواههم) ـ متعلقة بقالوا.

---

(١) من الآية ٧٥ .

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيهاالرسول لايحزنك﴾ صنع المنافقين، ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ أي: يقعون فيه سريعاً، فيظهرونه إن وجدوا فرصة، ثم بينهم بقوله: ﴿من الذين قالوا آمنا﴾، قالوه ﴿بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾، فلا يهولنك شأنهم ولا تحتفل بكيدهم، فإن الله سيكفيك أمرهم.

الإشارة: من شأن العارفين بالله تذكير عباد الله، ثم ينظرون إلى مايفعل الله، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم، إلا من حيث موافقة رضا ربهم، فهم في ذلك على قدم نبيهم، آخذين بوصية ربهم. والله تعالى أعلم.

ثم رجع إلى عتاب اليهود، فقال:

﴿... وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قلت: (ومن الذين هادوا): يحتمل أن يكون عطفا على (الذين قالوا) أي: لا يحزنك شأن المنافقين واليهود، و(سماعون): خبر، أي: هم سماعون، ويحتمل أن يكون استئنافاً، فيكون (سماعون): مبتدأ على حذف الموصوف، و(من): خبر، أي: ومن الذين هادوا قوم سماعون، واللام في: (للكذب): إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، وجملة (لم يأتوك): صفة لقوم، وجملة (يحرفون): صفة أخرى له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الذين هادوا﴾ صنف ﴿سماعون للكذب﴾ أي: كثيروا السماع للكذب والقبول له، وهم يهود بني قريظة، ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ وهم يهود خيبر، ﴿لم يأتوك﴾ أي: لم يحضروا مجلسك، تكبراً وبغضا، ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي: يميلونه عن مواضعه الذي وضعه الله فيها، إما

لفظًا أو تأويلا: ﴿ يقولون ﴾ : أى: الذين لم يأتوا النبى ﷺ، وهم يهود خيبر: ﴿ إن أُوتيتم هذا فخذوه ﴾ أى: إن أوتيتم هذا المحرّف وأفتاكم محمد بما يوافقه فخذوه، ﴿ وإن لم تُؤتوه ﴾ بأن أفتاكم بغيره ﴿ فاحذروا ﴾ أن تقبلوا منه.

وسبب نزولها: أن شريفاً من يهود خَيْبَرَ زنى بِشريفة منهم، وكانا مُحْصَنَيْن، وكرهوا رجمهما، فأرسلوا مع رَهْط منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسولَ الله ﷺ، وقالوا لهم: إنْ أمَرَكُمْ بالجَلْد والتَّحْميم[1] فَاقْبَلُوا، وإنْ أمَرَكُمْ بالرَّجْمِ فاحذروا أن تقبلوه منه، فأتوا رسولَ الله ﷺ بالزَّانِيَيْن، ومعهما ابن صوريا، فاستفتوه ﷺ، فقال لابن صوريا: أَنْشُدُكَ اللهَ الذي لا إله إلا هُو، الذي فَلَقَ البَحْرَ لمُوسى، ورفع فـوقكم الطور، وأنجـاكُمْ وأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، والذي أنزل عَلَيْكُم كِتَابَه، وأحلَّ حَلاله وحرّم حرَامه، هل تجد فيه الرَّجْمَ على من أحصن؟ فقال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خِفْتُ إنْ كَذَبْتهُ أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسولُ الله ﷺ بالزَّانِيين فرُجِمَا عِنْدَ باب المسجد، وفى رواية: دعاهم إلى التوراة فأتوا بها، فوضع ابن صوريا يده على آية الرجم، وقرأ ماحولها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فإذا آية الرجم تلوح، فرجما. وفى القصة اضطراب كثير. ولعل القضية تعددت.

قال تعالى: ﴿ ومن يُرد الله فتنته ﴾ أى: ضلالته أو فضيحته، ﴿فلن تملك له من الله شيئًا ﴾ أى: تقدر على دفعها عنه، ﴿ أولئك الذين لم يُرد الله أن يُطهر قلوبهم ﴾ من الكفر والشرك، ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ أى: هوان وذل؛ بضرب الجزية والخوف من المؤمنين، ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ وهو الخلود فى النيران.

هم ﴿ سماعون للكذب ﴾، كرر للتأكيد، وليرتب عليه قوله: ﴿ أكّالون للسحت ﴾ أى: الحرام، كالرشا وغيرها، وسُمى سحتاً؛ لأنه يسحت البركة ويستأصل المال، كما قال ﷺ: «من جمع المال من نهاوش أذهبه الله فى نهابر»[2].

ثم خيَّر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الحكم بينهم، فقال: ﴿ فإن جاءوك ﴾ متحاكمين إليك ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾، وقيل: نسخ بقوله: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم ﴾[3]. والجمهور: أن ما كان من باب التظالم والتعدى فإن الحاكم يتعرض بهم ويبحث عنه، وأما النوازل التى لا ظلم فيها، وإنما هى دعاوى، فإن رضوا بحكمنا فالإمام مُخير، وإن لم يرضوا فلا نتعرض لهم، انظر ابن عطية، وقال البيضاوى: ولو تحاكم كتابيان إلى القاضى لم يجب عليه الحكم، وهو قول الشافعى، والأصح: وجوبه؛ إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً، لأنا التزمنا الذب عنهم، ومذهب أبى حنيفة: يجب مطلقا.هـ.

﴿ وإن تُعرض عنهم فلن يضروك شيئًا ﴾؛ لأن الله عصمك من الناس، ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أى: العدل الذى أمر الله به ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾، فيحفظهم ويعظم شأنهم.

﴿ وكيف يُحكمونك ﴾ وهم لا يؤمنون بك، ﴿ وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ أى: والحال أن الحكم منصوص عليه فى الكتاب الذى هو عندهم ﴿ ثم يتولون من بعد ذلك ﴾، أو ثم يتولون عن حكمك

---

(١) التحميم: تسويد الوجه بالفحم. (٢) النهاوش: المظالم. والنهابر: المهالك والأمور المتبددة. (٣) من الآية ٤٩ من السورة

الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، وفيه تنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما قصدوا به مايكون عونًا لهم على هواهم، وإن لم يكن حكم الله فى زعمهم، ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ بكتابهم ولا بكتابك؛ لإعراضهم عنه أولاً، وعنك ثانياً، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة، والبقاء مع العوائد، ويقول لهم: (إن أوتيتم هذا فخذوه) ويزعم أنه سنة، وإن لم تؤتوه، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس، وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد فاحذروه. فمن كان حاله هذا، فالآية تجر ذيلها عليه، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس، ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ من الهوى، ولا بصيرتهم من شهود السّوى؛ لأن تطهير القلوب مشروط بقتل النفوس، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعش فى الدنيا فى ذل الحجاب مسجونًا بمحيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، وله في الآخرة أشد العتاب، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل، ويقال لمن تبعه فى اتباع الرخص: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾

قال الشيخ أبوالعباس المرسي رضي الله عنه: من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء، ويأكل أموال الظلمة، ففيه نزعة يهودية، قال تعالى: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ . هـ

فإن جاءوك أيها العارف، يستخبرونك ، ويخاصمونك فى الأمر بخرق العوائد، ويزعمون أنهم موافقون للسنة، ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس، ويجهز عليها ،﴿ إن الله يحب المقسطين﴾ وكيف يحكمونك أو يخاصمونك، وعندهم القرآن فيه حكم الله بذلك، قال تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾(1)، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها، وقتلها بترك حظوظها وهواها. والله تعالى أعلم.

ثم قرر صحة كتابه التوارة، ووبال من أعرض عنه من اليهود، فقال:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قلت : (للذين هادوا) : متعلق بيحكم، أو بأنزلنا، أو بهدى ونور، و (الربانيون) : عطف على (النبيون) ، وهم العباد والزهاد منهم، والأحبار: علماؤهم، جمع حبر ـ بكسر الحاء وفتحها ، وهو أشهر استعمالاً؛ للفرق بينه وبين المداد، و(بما استحفظوا):سببية متعلق بيحكم، أو بدل من (بها) والعائد إلى «ما» محذوف، أي: استحفظوه .

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى﴾ أي: ما يهدى إلى إصلاح الظواهر من النواهي والأوامر، و ﴿نور﴾ تستنير به السرائر، وتشرق به القلوب والضمائر، من الاعتقادات الصحيحة والعقائد الراجحة، والعلوم الدينية والأسرار الربانية. ﴿يحكم بها النبيون﴾ الذين أتوا بعد موسى ـ عليه السلام ـ إلى محمد ﷺ، وهم﴿الذين أسلموا﴾ أي: انقادوا بكليتهم إلى ربهم، ولم تبق بقية لغير محبوبهم، وفيه تنويه بشأن الإسلام وأهله، وتعريض باليهود؛ فإنهم بمعزل عن دين الأنبياء واقتفاء هديهم، حيث لم يتصفوا به، يحكم بها ﴿للذين هادوا﴾ وعليهم، وهم اليهود، ﴿و﴾ يحكم بها أيضا ﴿الربانيون والأحبار﴾ أي: زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم، ﴿بما استُحفظوا من كتاب الله﴾ أي: بسبب أمر الله تعالى لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف. ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي: رقباء، فلا يتركون من يُغيرها أو يحرفها، ولما طال العهد عليهم حرفوا وغيروا، بخلاف كتابنا، حيث تولى حفظه الحق ربنا، فلا يزال محفوظاً لفظاً ومعنى إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١) . فلله الحمد.

ثم خاطب الحكام، فقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي: فلا تداهنوا في حكوماتكم خشية ظالم أو مراقبة كبير، فكل كبير في جانب الحق صغير ،﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا﴾ أي: لا تستبدلوا بالحكم بالحق ثمناً قليلاً؛ كالرشوة والجاه، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ مستهيناً به ومنكراً له ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ ؛ لاستهانتهم به.

قال ابن عباس: نزلت الثلاثة في اليهود، الكافرون والظالمون والفاسقون، وقد رُوي في هذا أحاديثُ عن النبي ﷺ وقالت جماعة: هي عامة، فكل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم، إلا أن الكفر في حق المسلمين كفر معصية، وقال الشافعي: الكافرون في المسلمين، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى، وهو أنسب لسياق الكلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف الله تعالى القرآن بأعظم مما وصف به التوراة. قال تعالى: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾(٢) ؛ فجعل التوراة ظرفًا للهداية والنور، وجعل القرآن نفس النور والهداية. وربانيو هذه الأمة: أولياؤها العارفون بالله، الذين يربون الناس ويرشدونهم إلى معرفة الشهود والعيان، وأحبارها: علماؤها.

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.
(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

وقال الورتجبي: الرباني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب، واستقام في شهود جلاله وجماله، صار متصفاً بصفات الله ـ جل جلاله ـ، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فني عن نفسه وبقي بربه، صار ربانياً، مثل الحديد في النار، إذا لم يكن في النار كان مستعداً لقبول النار، فإذا وصل إلى النار واحمر، صار ناريًا، هكذا شأن العارف، فإذا كان منورا بتجلي الرب، صار ربانيا نورانيًا ملكوتيًا جبروتيًا، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، ثم قال: العارف مخاطب من الله في جميع أنفاسه، وحركاته، ينزل على قلبه من الله وحي الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحديثه، لقوله ـ عليه الصلاة السلام ـ: «إنَّ في أمتي محدَّثين أو مُكلَّمين وإنَّ عُمرَ منهمْ»[1]. هـ.

ثم بين الحق تعالى ما كتب على بني إسرائيل في التوراة، فقال:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾

قلت : من نصب الجميع: فَعَطْفٌ على النفس، وقصاص: خبر إن، ومن رفع العين: فيحتمل أن يكون مستأنفا مرفوعاً بالابتداء، و «قصاص»: خبر، من عطف الجمل، أو يكون عطفاً على موضع النفس؛ لأن المعنى: قلنا لهم: النفس بالنفس، أو على الضمير المستكن في الخبر، ومن رفع الجروح فقط، فعلى ما تقدم في العين.

يقول الحق جل جلاله : ﴿وكتبنا﴾ على بني إسرائيل، أي: فرضنا وألزمنا عليهم في التوراة ﴿أن النفس﴾ تقتل بالنفس في القتل العمد إن كان المقتول مسلماً حراً، فلا يقتل مسلم بكافر إلا إن قتله غيلة، ولا حر بعبد، للحديث، ﴿والعينَ﴾ تفقأ ﴿بالعين﴾، ﴿والأنفَ﴾ تجدع ﴿بالأنف﴾، ﴿والأذنَ﴾ تصلم ﴿بالأذن﴾، ﴿والسّن﴾ تقلع ﴿بالسن﴾، ﴿والجروح قصاص﴾؛ يقتص من الجارح بمثل ما فعل، إلا ما يخاف منه كالمأمومة[2] ، والجائفة، وكسر الفخذ، فيعطى الدية، ﴿فمن تصدق به﴾ أي: بالدم، بأن عفى عن الجارح أو القاتل فلم يقتص، ﴿فهو كفارة له﴾ أي للمقتول، يغفر الله ذنوبه ويعظم أجره، أو كفارة للقاتل أو الجارح، يعفو الله بذلك عن القاتل؛ لأن صاحب الحق قد عفا عنه، أو كفارة للعافي؛ لأنه مسامح في حقه، أو من تصدق بنفسه ومكنها من القصاص فهو كفارة له، اقتص منه أو عُفي عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب ٥٤) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب فضائل عمر ﷺ) عن أبي هريرة، بلفظ: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه، فإنه عمر بن الخطاب»

(٢) المأمومة: هي الشجة التي تبلغ أم الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ.

وفيه دليل على أن الحدود مكفرة لا زواجر، وزعم ابن العربي: أن المقتول يُطالب يوم القيامة، ولو قتل في الدنيا قصاصاً؛ لأنه لم يتحصل للمقتول من قتل قاتله شيء، وأن القصاص إنما هو ردع، وأجيب بمنع أنه لم يتحصل له شيء، بل حصلت له الشهادة وتكفير لذنوبه، كما في الحديث: «السيف محاء للخطايا»[1]. ولو كان القصاص للردع خاصة لم يشرع العفو، قاله ابن حجر، وفي حديث البخاري: «من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، وإن ستره الله فهو في المشيئة».

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من القصاص وغيره ﴿فأولئك هم الظالمون﴾؛ المتجاوزون حدود الله، وما كتب الله على بني إسرائيل هو أيضا مكتوب علينا، لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، ولا ناسخ هنا، بل قررته السنة والإجماع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القصاص مشروع وهو من حقوق النفس؛ لأنها تطلبه تشفيا وغيظا، والعفو مطلوب ومرغب فيه، وهو من حقوق الله، هو طالبه منك، وأين ما تطلبه لنفسك مما هو طالبه منك؟ ومن شأن الصوفية الأخذ بالعزائم، واتباع أحسن المذاهب، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[2]، ومن شأنهم أيضاً: الغيبة عن حظوظ النفس، ولذلك قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)، وقالوا أيضا: (الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيح، وهي تُنبت كلّ مليح)، ومن أوكد الأمور عندهم عدم الانتصار لأنفسهم. وبالله التوفيق.

ولما فرغ من الكلام مع اليهود شرَعَ يتكلم مع النصارى، فقال:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (قفينا): اتبعنا، مشتق من القفا؛ كأن مجيء عيسى كان في قفا مجيء النبيين وخلفهم، وحذف المفعول الأول، أي: أتبعناهم، و﴿بعيسى﴾ مفعول ثان، وجملة: (فيه هدى ونور): حال من «الإنجيل»، و (مصدقا): عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: وأتبعنا النبيين المتقدمين وجئنا على إثرهم ﴿بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه﴾ أي: ما تقدم أمامه ﴿من التوراة﴾ وتصديقه للتوراة؛ إما لكونه مذكوراً فيها ثم ظهر، أو بموافقة ما جاء به من التوحيد والأحكام لما فيها، أو لكونه صدَّق بها وعمل بما فيها.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند ٤/١٨٥. من حديث عتبة بن عبد السلمي.

(٢) من الآية: ١٨ من سورة الزمر.

﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾؛ فالهدى لإصلاح الظواهر بالشرائع، والنور لإصلاح الضمائر بالعقائد الصحيحة والحقائق الربانية، ﴿ومصدقًا لما بين يديه من التوراة﴾ بتقرير أحكامها، والشهادة على صحتها، ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي: وإرشاداً وتذكيراً للمتقين؛ لأنهم هم الذين ينفع فيهم الموعظة والتذكير، دون المنهمكين في الغفلة، قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ثم أمر الله أهل الإنجيل بالحكم بما فيه، فقال: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ من الأحكام، وقرأ حمزة: (وليحكم) بلام الجر؛ أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل بما فيه، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾؛ الخارجون عن طاعة الحق. قال البيضاوي: والآية تدل على أن الإنجيل مشتملة على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع. وحمْلها على: وليحكموا بما أنزل الله، فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر. هـ.

الإشارة: قد جمع الله في هذه الأمة المحمدية ما افترق في غيرها في الأزمنة المتقدمة، فعلماؤها وأولياؤها كالأنبياء والرسل، كلما مات عالم أو ولي قفاه الله بآخر، أما العلماء فأمرهم متفق وحالهم متقارب، فمدار أمرهم على تحصيل العلوم الرسمية والأعمال الظاهرية، وأما الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ، فأحوالهم مختلفة، فمنهم من يكون على قدم نوح عليه السلام في القوة والشدة، ومنهم من يكون على قدم إبراهيم عليه السلام في الحنانة والشفقة. ومنهم من يكون على قدم موسى عليه السلام في القوة أيضا، ومنهم من يكون على قدم عيسى عليه السلام في الزهد والانقطاع إلى الله تعالى، ومنهم من يكون على قدم نبينا محمد ﷺ، وهو أعظمهم لجمعه ما افترق في غيره، وكل واحد يؤتيه الله نوراً في الباطن يجذب به القلوب إلى الحضرة، وهدى في الظاهر يصلح به الظواهر في الشريعة. والله تعالى أعلم.

ثم شرع يتكلم مع الأمة الإسلامية المحمدية، فقال:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: (مهيمنًا) أي: شاهداً، والشرعة والمنهاج: قال ابن عطية: معناهما واحد، وقال ابن عباس: أي: سبيلا وسنة. قلت: والظاهر: أن الشرعة يراد بها الأحكام الظاهرة، وهي التي تُصلح الظواهر، والمنهاج يراد به علوم الطريقة الباطنية، وهي التي تصلح الضمائر، وهو مضمن علم التصوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأنزلنا إليك﴾ يامحمد ﴿الكتاب﴾ أي: القرآن ملتبساً ﴿بالحق مصدقا لما بين يديه﴾ من جنس الكتاب، أي: مصدقًا لما تقدمه من الكتب، بموافقته لهم في الأخبار والتوحيد ،﴿ومهيمنًا عليه﴾ أي: شاهداً عليه بالصحة، أو راقبًا عليه من التغيير في المعنى، ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ إليك ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ منحرفًا عما جاءك من الحق إلى مايشتهونه، لكل نبي ﴿جعلنا منكم شرعة﴾ ظاهرة يصلح بها الظواهر، ﴿ومنهاجا﴾ أي: طريقاً واضحاً يسلك منها إلى معرفة الحق، وهو ما يتعلق بإصلاح السرائر، واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي: جماعة واحدة متفقة على دين واحد، ﴿ولكن﴾ عدد الشرائع وخالف بينها ﴿ليبلوكم﴾ أي: يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة، أيكم ينقاد ويخضع للحق أينما ظهر، فإن اختلاف الأحوال وتنقلات الأطوار فيه يظهر الإقرار والإنكار، ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إلى الانقياد إلى الطاعات واتباع الحق والخضوع لمن جاء به أينما ظهر، انتهازاً للفرصة، وحيازة لفضل السبق والتقدم، ﴿إلى الله مرجعكم جميعا﴾ فيظهر السابقون من المقصرين، ﴿فينبئكم﴾ أي: يخبركم ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، والمبادر والمقصر، واختلاف الشرائع إنما هي باعتبار الفروع، وأما الأصول كالتوحيد والإيمان بالرسل، والبعث، وغير ذلك من القواعد الأصولية، فهي متفقة؛ قال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «نحنُ أبناء علات، أمهاتنا شتَّى وأبونا واحد»[1]. يعني التوحيد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ جمع الله له ما افترق في غيره، فذاته الشريفة جمعت المحاسن كلها ظاهرة وباطنة، وكتابه جمع ما في الكتب كلها فهو شاهد عليها، وشريعته جمعت الشرائع كلها، ولذلك كان الولي المحمدي هو أعظم الأولياء.

واعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ جعل لكل عصر تربية مخصوصة بحسب مايناسب ذلك العصر، كما جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا بحسب الحكمة، فمن سلك بالمريدين تربية واحدة، وأراد أن يسيرهم على تربية المتقدمين، فهو جاهل بسلوك الطريق، فلو كان السلوك على نمط واحد ما جدد الله الرسل بتجديد الأزمنة والأعصار، فكل نبي وولي يبعثه الله تعالى بخرق عوائد زمانه، وهي مختلفة جداً ، فتارة يغلب على الناس التحاسد والتباغض، فيبعث بإصلاح ذات البين والتآلف والتودد، وتارة يغلب حب الرياسة والجاه فيربي بالخمول وإسقاط المنزلة، وتارة يغلب حب الدنيا وجمعها فيربي بالزهد فيها والتجريد والانقطاع إلى الله. وهكذا فليقس مالم يقل. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب «واذكر في الكتاب مريم ...») ومسلم في (الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ) عن أبي هريرة.

ولما قصدت اليهود أن يفتنوا النبي ﷺ بأن يحكم لهم بما يشتهون، أنزل الله تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت : (وأن احكم) : عطف على الكتاب، أي: وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل الله، أو على الحق، أي: أنزلناه بالحق وبالحكم بما أنزل الله، و (أن يفتنوك) : بدل اشتمال من الضمير، أي: احذر فتنتهم، واللام في قوله: (لقوم) : للبيان، أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يعلمون ألاَّ أحسن حكماً من الله.

يقول الحق جل جلاله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿**و**﴾ أمرناك ﴿**أن احكم بينهم**﴾ أي: بين اليهود ﴿**بما أنزل الله**﴾، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم، وقيل: لا، والمعنى أنت مخير، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾ الباطلة، التي أرادوا أن يفتنوك بها، ﴿**واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**﴾، فيصرفوك عن الحكم به.

رُوِي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يامحمد، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود، وأنَّا إن اتبعناك اتبعتك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك عليهم رسول الله ﷺ وردَّهم، فنزلت الآية(١).

قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿**فإن تولوا**﴾ عن الإيمان، بل وأعرضوا عن اتباعك، ﴿**فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**﴾ في الدنيا، ويدخر جلَّها للآخرة، وقد أنجز الله وعده، فأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبا نساءهم وذراريهم،وباعهم في الأسواق، وفتح خيبر، وضرب عليه الجزية، ﴿**وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون**﴾؛ خارجون عن طاعة الله ورسوله،﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ أي: يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى، ﴿**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾ أي: لا أحد أحسن حكمًا من الله تعالى عند أهل الإيقان؛ لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون ألاَّ أحسن حكماً من الله عز وجل.

الإشارة: إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية، والتبس عليك أمرهم، ولم تدر أيهما تتبع؟ فاحكم بينهم بالكتاب والسنة، فمن وافق كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فاتبعه، فإن من أمَّر الكتاب والسُّنة على نفسه نطق بالحكمة، وإن وافق أكثرُ من واحد الكتاب أو السنة، فانظر أثقلهم على النفس، فإنه لا يثقل عليها إلا ماهو

(١) أخرجه ابن جرير في تفسير الآية، والبيهقي في دلائل النبوة (باب ماجاء في دخول عبدالله بن سلام على رسول الله ﷺ) عن ابن عباس.

حق، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار، فإن متابعة الهوى يعمى القلب عن مطالعة الأسرار، إلا إن وافق السُّنة.

قيل لعمرَ بن عبدالعزيز: ما ألذُّ الأشياء عندك؟ قال: حق وافق هواى. وفى الحديث عنه ﷺ «لايُؤمن أحدكم حتَّى يكُون هواه تابعاً لما جئتُ به»، وفى الحِكَم : « يُخاف عليك أن تلتبس الطرقُ عليك، إنما يُخاف عليك من غلبةِ الهوى عليك».

فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح، وجعل يتبع الهوى ويسلك طريق الرخص، فليعلم أن الله أراد أن يعاقبه ببعض سوء أدبه، حتى يخرج عن منهاج السالكين، والعياذ بالله، أو يؤدبه فى الدنيا إن كان متوجهاً إليه.

ثم حذَّر من صحبة أهل الأهواء، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت : (يقول الذين آمنوا) قرئ بغير واو؛ استئنافا، وكأنه جواب عن سؤال، أى: ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقال: يقول... إلخ، وقرئ بالواو والرفع؛ عطف جملة على جملة،وقرئ بالواو والنصب؛ عطف على (فيصبحوا) أو (يأتى).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ تنتصرون بهم، أو تعاشرونهم معاشرة الأحباب، أو تتوددون إليهم، وأما معاملتهم من غير مودة فلا بأس، ثم علل النهى عن موالاتهم فقال: هم **﴿بعضهم أولياء بعض﴾** أى: لأنهم متفقون على خلافكم، يوالى بعضهم بعضًا لاتحادهم فى الدين، وإجماعهم على مضادتكم، **﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾** أى: من والاهم منكم فإنه من جملتهم.

قال البيضاوى: وهذا تشديد فى وجوب مجانبتهم، كما قال ﷺ «المؤمنُ والمشركُ لاتتَراءى نَارَهماَ»[1] أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين. هـ.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الجهاد، باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود) والترمذى فى (السير، باب كراهة المقام بين أظهر المشركين) من حديث جرير: أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس بالسجود.. الحديث، وفيه: وقال: أنا بريئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: ولم؟ «لا تترأى نارهما».

ومعناه: لاينبغى لمسلم أن يساكن الكفار حتى إذا أوقدوا ناراً كان منهم بحيث يراها. أنظر معالم السنن للخطابى على هامش سنن أبى داود ٣ / ١٠٥ .

وقال ابن عطية: من تولهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العَضْد ونحوه، دون معتقد ولا إخلال بإيمان، فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. هـ. وسُئل ابن سيرين عن رجل أراد بيع داره للنصارى يتخذونها كنيسة، فتلا هذه الآية: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ . هـ. وفي أبي الحسن الصغير: أن بيع غير السلاح للعدو الكافر فسق، وبيع السلاح له كفر.

قلت: ولعله إذا قصد تقويتهم على حرب المسلمين، وأما الفداء بالسلاح إذا لم يقبلوا غيره، فيجوز في القليل دون الكثير. وأجازه سحنون مطلقا، إذا لم يرج فداؤه بالمال. انظر الحاشية.

﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ أي: ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار.

﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾وهم المنافقون، ﴿يسارعون فيهم﴾ أي: في موالاتهم ومناصرتهم، ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي: يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من الدوائر، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. رُوى أن عبادة بن الصامت قال لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من اليهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، فقال ابن أبي: إني امرؤ أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي، فنزلت الآية، قال تعالى رداً عليه: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ونصرهم، ﴿أو أمر من عنده﴾، يقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، ﴿فيُصبحوا﴾ أي: هؤلاء المنافقون، ﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من الكفر والنفاق، ومن مظاهرة اليهود ﴿نادمين﴾.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ حينئذ ـ أي: حين فتح الله على رسوله وفضح سريرة المنافقين ـ: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ ، يقولُه المؤمنون بعضهم لبعض، تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما منَّ الله عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود؛ لأن المنافقين حلفوا لهم بالمناصرة، كما حكى تعالى عنهم ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾[1] قاله البيضاوي. وقوله: ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾. يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين، أو من قول الله تعالى، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قال: ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم! والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مراراً النهيُ عن موالاة الغافلين، وخصوصاً الفجار منهم، ويلتحق بهم القراء المداهنون؛ وهم فسقة الطلبة؛ الذين هم على سبيل الشيطان، والفقراء الجاهلون؛ وهم من لا شيخ لهم يصلح للتربية، والعلماء المتجمدون، فصحبة هؤلاء تقدح في صفاء البصيرة، وتخمد نور السريرة، وكل من تراه من الفقراء يميل إلى هؤلاء خشية الدوائر، ففيه نزعة من المنافقين. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١١ من سورة الحشر.

ثم تكلم على بقية حفظ الإيمان، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: (من): شرطية، و(يرتدد)[1]: فعل الشرط، فمن قرأه بالتفكيك فعلى الأصل، ومن قرأه بالإدغام ففتحه تخفيفا. وجملة (فسوف يأتى): جواب، والعائد من الجملة محذوف، أى: فسوف يأتى الله بقوم مكانهم.. إلخ. و(أذلّة): نعت ثان لقوم، جمع ذليل، وأتى به مع على؛ لتضمنه معنى العطف والحنو، و(لا يخافون): عطف على يجاهدون، وجملة: (وهم راكعون): حال، إن نزلت فى علىّ رضي الله عنه، أو عطف إن كانت عامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ ويرجع عنه بعد الدخول فيه، فسيأتى الله بقوم مكانهم؛ ﴿يحبهم﴾ فيثبتهم على دينهم، ﴿ويحبونه﴾ فيجاهدون من رجع عن دينه، وهم أهل اليمن، والأظهر أنهم أبو بكر الصدّيق وأصحابه، الذين قاتلوا أهل الردة، ويدل على ذلك الأوصاف التى وصفهم الله بها من الجد فى قتالهم، والعزم عليه، التى كانت من أوصاف الصدّيق، وكذلك قوله: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ فقد كان أبو بكر ضعيفًا فى نفسه، قوياً فى ذات الله، لم يخف فى الله لومة لائم، حين لامه بعض الصحابة فى قتالهم.

وفى الآية إخبار بالغيب قبل وقوعه، فقد ارتد من العرب فى أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج، وكان رئيسهم الأسود العنسى، تنبأ باليمن، واستولى على بلادهم، ثم قتله فيروز الديلمى، ليلة قُبض رسولُ الله ﷺ من غدها، وأخبر بموته الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسُر المسلمون. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب، تنبأ باليمامة، وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمةَ رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك، فأجابه ﷺ: « منْ مُحمَّدٍ رسُول الله إلى مسيلمةَ الكذَّابِ، أمَّا بعْدُ: فإنَّ الأَرْضَ للهِ يُورثُهَا منْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ والعَاقِبَةَ للمتّقِين »، فحاربه أبو بكر بجند المسلمين، وقتله وحشى قاتلُ حمزة، وبنو أسد قوم طليحة، تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقاتله، فهرب إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر (يرتدد) بدالين، وقرأ الباقون (يرتد) بدال واحدة.

وفي عهد أبي بكر، بنو فزارة قوم عُيَينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن مسلمة، وبنو سليم، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم، قوم سجاح المتنبئة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين، فكفى الله أمرهم على يديه. وفي مدة عمر رضي الله عنه غسان، قوم جبلة بن الأيهم، الذي ارتد من اللطمة. فهؤلاء جملة مَنْ ارتد من العرب. فأتى الله بقوم أحبهم وأحبوه، فجاهدوهم حتى ردوهم إلى دينهم. ومحبة الله للعبد: توفيقه وعصمته وتقريبه من حضرته. ومحبة العبد لله: طاعته والتحرز من معصيته، وسيأتي في الإشارة الكلام عليها.

ثم وصفهم بقوله: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أي: عاطفين عليهم خافضين جناحهم لهم،﴿أعزة على الكافرين﴾ شداد متغالبين عليهم، وهذا كقوله فيهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾؛[1] ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ من ارتد عن دين الله، ﴿ولا يخافون لومة لائم ﴾ لصلابتهم في دين الله، وفيه إشارة إلى خطأ من لام الصدِّيق في قتال أهل الردة، وقالوا له: كيف تقاتل قوما يقولون: لا إله إلا الله ؟ فقال: (والله لنقاتلن مَنْ فرّق بين الصلاة والزكاة) ـ فلم يلتفت إلى لومهم. ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾، الإشارة إلى ماخصهم الله به، من المحبة والأخلاق الكريمة، ﴿والله واسع﴾ الفضل والعطاء ﴿عليم﴾ بمن هو أهله.

ولمّا نهى عن موالاة الكفار ذكر من هو أهل للموالاة فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾؛ لم يقل: أولياؤكم بالجمع، تنبيهاً على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التبع، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ أي: خاضعون لله، ولعباده متواضعون، منقادون لأحكامه، أو يتصدقون في حال ركوعهم في الصلاة، حرصاً على الخير ومسارعة إليه، قيل: نزلت في علي ـ كرم الله وجهه ـ؛ سأله سائل وهو راكع في صلاة، فطَرح له خاتمه، وقيل: عامة، وذكر الركوع بعد الصلاة؛ لأنه من أشرف أعمالها.

﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾، أي يتخذهم أولياء، ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي: فإنهم الغالبون، ووضع الظاهر موضع المضمر ليكون كالبرهان عليه، فكأنه قال: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم، وتعريضاً بمن يوالي غير هؤلاء، فإنه حزب الشيطان، وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمر حزبهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: محبة الحق تعالى لعبده سابقة على محبته له، كما أن توبته عليه سابقة لتوبته، قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[2]، قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في ابتداء أمري في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت، رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي من قبل طلبي له. هـ.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) من الآية ١١٨ من سورة التوبة.

وفي الحكم: «أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين».

ومحبة الله لعبده: حفظه ورعايته، وتقريبه واصطفاؤه لحضرته، وقال القطب ابن مشيش ـ رضي الله عنه ـ : المحبة أخذة من الله قلبَ من أحب، بما يكشف له من نور جماله، وقدس كمال جلاله، وشراب المحبة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال.

قلت: ومعنى ذلك: غيبة العبد في شهود الحق، وهو مقام الفناء، ثم قال ﷺ : والشراب ـ أي: الشرب ـ سقي القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب، حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب، أي يكون شرب الخمرة شيئًا فشيئًا، ووقتًا فوقتًا ،حتى يتمكن من شهود المعاني بلا فترة، فذلك الرّي، وذلك بعد كمال التهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه، (قلت: وهو نادر، والغالب عليه الانحراف) ، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، (قلت: قوله : كالملائكة ... تمثيل للوسائط، فالملائكة؛ للأنبياء، والعلماء بالله وأكابر المقربين لغيرهم) ، ثم قال: فمنهم من يسكر بشهود الكأس، ولو لم يذق بعدُ شيئـاً، فما ظنك بعدُ بالذوق، وبعدُ بالشرب، وبعد بالري، وبعدُ بالسكر بالمشروب،؟! ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى، كما أن السكر أيضًا كذلك. انظر بقية كلامه مع شرحه في شرحنا لخمرية ابن الفارض.

وقال شيخنا البوزيدي ﷺ : المحبة لها ثلاث مراتب: بداية ووسط ونهاية؛ فبدايتها لأهل الخدمة، كالعباد والزهاد والصالحين والعلماء المجتهدين. ووسطها لأهل الأحوال، الذين غلب عليهم الشوق حتى صدرت منهم شطحات ورقصات وأحوال غريبة ربما ينكرها أهل ظاهر الشريعة، فمنهم من يغلب عليه الجذب حتى يصطلم، ومنهم من يبقى معه شيء من الصحو، وهؤلاء تظهر عليهم كرامات وخوارق العادات، ونهايتها لأهل العرفان، أهل مقام الشهود والعيان، الذين شربوها من يد الوسائط وسكروا بها، وصحوا. هـ. بالمعنى.

وفي الورتجبي ماحاصله: أن محبتهم بعد المشاهدة، وإلا لم تكن محبة حقيقة؛ لأن محبة الآلاء والنعماء معلولة، ولا كذلك هذه، لأن من رآه عشقه، وكيف يرجع عنه من كان مسلوب القلب بعشقه لجماله؟ ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة. هـ.

وللمحبة علامات وثمرات، ذكر بعضَها الحق تعالى بقوله: ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أي: متواضعين عاطفين عليهم، ﴿أعزة على الكافرين﴾، أي: القواطع، غالبين عليهم، ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ أي:

أنفسهم وأهواءهم، ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾؛ إذ لا يراقبون سوى المحبوب، وليس للمحبة طريق إلا محض الفضل والكرم. ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾؛ لكن صحبة المحبوبين عند الله من أسبابها العادية، وهم أولياء الله الذين هم حزب الله، فولايتهم والقرب منهم من أسباب القرب والمحبة، ومن موجبات النظر والغلبة؛ ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾

ثم نهى عن صحبة ضدهم، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (والكفار): من نَصَبَ عطف على الموصول الأول، ومن جرَّ فعلى الموصول الثاني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يآأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا﴾ من شدة كفرهم، وغلبة سفههم ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ كاليهود والنصارى، ﴿و﴾ لا تتخذوا أيضا ﴿الكفار﴾ من المشركين ﴿أولياء﴾ وأصدقاء، أو: لا تتخذوا من اتخذ دينكم هزوا ولعباً من أهل الكتاب ومن المشركين أولياء، ﴿واتقوا الله﴾ في موالاتهم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الوقوف عند الأمر والنهي.

وكيف توالون من يستهزئ بدينكم، ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبا﴾، رُوي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحْرق الله الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة بنار، وأهله نيام، فطارت شرارة في البيت، فأحْرقته وأهله). وفي الآية دلالة على مشروعية الأذان من القرآن. ثم قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾؛ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهُزء به، والعقل يقتضي المنع من الجهل والإقرار بالحق وتعظيمه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد حذّر الحق جل جلاله من صحبة الأشرار، ويفهم منه الترغيب في موالاة الأخيار، وهم الصوفية الأبرار، ففي صحبتهم سر كبير وخير كثير، ولابن عباد رضي الله عنه في نظم الحكم:

إنّ التَّــواخي فــضلُه لا يُنْكَر	وإنْ خــلا منْ شَــرْطه لا يُشْكَر
والشـرطُ فيــه أنْ تُوَاخِي العَارِفا	عن الحظوظ واللحُـوظ صَـارِفـا
مــقَـاله وحَــاله سِــيَّـان	مــادَعَــونَا إلاّ إلَى الرحْـمــان
أنـواره دائـمَـــة الــسِّــرايَة	فــيكَ وقَــدْ حَــفَّتْ به الرِّعَــايه

وفي الحكم: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله». وبالله التوفيق.

ثم وبخ أهل الكتاب، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: نقم ـ بفتح القاف ـ ينقم ـ بالكسر ـ، بمعنى: عاب وأنكر، وانتقم إذا كافأه على إنكاره، ويقال: نقم ـ بالكسر ـ ينقم ـ بالفتح ـ وقرئ به في الشاذ، و (أن أكثركم): عطف على (آمنا) أي: ماتعيبون منا إلا أنا مؤمنون وأنتم فاسقون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أي: ماتنكرون علينا وتعيبونه منا ﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ من الكتب كلها، ﴿وأن أكثركم﴾ خارجون عن هذا الإيمان، وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب، ونظير هذا في الاستثناء العجيب قول النابغة:

لاعَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِـرَاعِ الكَتَـائِبِ.

الإشارة: أهل الخصوصية يقرون أحوال أهل الشريعة كلها، ولا ينكرون على أهلها شيئًا من أمورهم، وأهل الشريعة ينكرون كثيراً من أحوال أهل الخصوصية ويعيبونها عليهم، وهي من أفضل القربات إلى الله عندهم، فيقولون لهم : هل تنقمون منا إلا أن آمنا بشريعتكم، وأنتم خارجون عن حقيقتنا ورؤية خصوصيتنا، لكن أهل الشريعة معذورون في إنكارهم، إذ ذاك مبلغهم من العلم، فإن كان إنكارهم غيرة على مافهموا من الدين فعذرهم صحيح، وإن كان حسداً أو حمية فهم ممقوتون عند الله. والله تعالى أعلم.

ولما جاء إلى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا يامحمد: أخبرنا بمن تؤمن من الرسل، فتلا عليهم: ﴿ قل آمنا بالله ﴾ إلى قوله: ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾(١) فلما سمعوا ذكر عيسى قالوا: مارأينا شرا من دينك، فأنزل الله تعالى في الرد عليهم:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت : مشاركة اسم التفضيل هنا باعتبار زعمهم واعتقادهم، وإلا فلا مشاركة بين المسلمين وبينهم في الشر والضلال، و(مثوبة) : تمييز عن شر، وضع موضع الجزاء، وأصل المثوبة: في الخير، والعقوبة: في الشر، فوضع هنا المثوبة موضع العقوبة تهكماً بهم، كقوله:

تَحِـيَّـــةُ بَيْنِهِمْ، ضَـــرْبٌ وَجِـيعٌ.

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

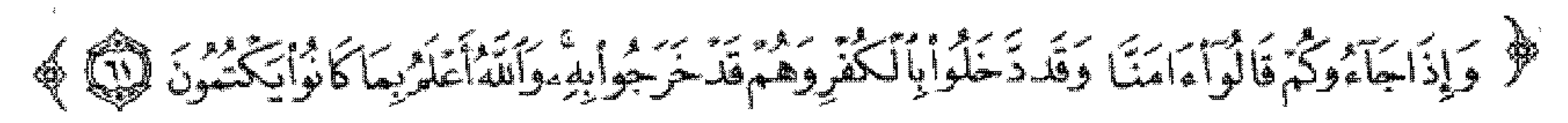
و(من لعنة الله): إما خبر، أي: هو مَنْ لعنه الله، أو بدل من شر، ولابد من حذف مضاف، إما من الأول أو الثاني، أي: بشر من أهل ذلك الدين من لعنه الله، أو دين من لعنه الله.

ومن قرأ: (عَبَدَ) بفتح الباء، ففعل ماض، صلة لموصول محذوف، أي: ومَن عبَد، و (الطاغوت): مفعول به، ومن قرأ بضم الباء، فاسم للمبالغة، كيقظ، أي: كثير اليقظة، وهو عطف على القردة، والطاغوت مضاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**قل**﴾ لهم: ﴿**هل**﴾ أخبركم بأقبح من ذلك الدين الذى قلتم ما رأيتم شراً منه، هو دين ﴿**من لعنه الله**﴾، أو نفس من لعنه الله، أي: أبعده من رحمته ﴿**وغضب عليه**﴾ بكفره وعصيانه، وهم اليهود، ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ أي: مسخ بعضهم قردة وخنازير، وهم أصحاب السبت، مسخ شبابهم قردة، وشيوخهم خنازير، ﴿**و**﴾جعل منهم أيضا من ﴿**عبد الطاغوت**﴾، وهم عباد العجل، أوالكهنة، أو كل من أطاعوه فى معصية الله، ﴿**أولئك شر مكانا**﴾ أي: أقبح مكاناً، أي: أقبح مرتبة وأخس حالا، جعل مكانَهم شراً، ليكون أبلغ فى الدلالة على شريتهم، ﴿**و**﴾هم أيضاً ﴿**أضل عن سواء السبيل**﴾ أي: عن وسط الطريق، بل حادوا عنه إلى طرق تفريط أو إفراط، حيث تركوا طريق الإسلام، الذى هو الصراط المستقيم.

الإشارة: من كان متلطخاً بالمعاصي والذنوب، وباطنه محشو بالمساوئ والعيوب؛ كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراض القلوب، ثم جعل يطعن في طريق الخصوص، يقال له: هل أنبئك بشر من ذلك، هو من أبعده الله بسبب المعاصي والذنوب، وغضب عليه بسبب أمراض القلوب، ومسخ قلبه عن مطالعة أنوار الغيوب، فهذا أقبح مكاناً وأضل سبيلاً، فكل من أُولع بالطعن على الذاكرين، يمسخ قلبُه بالغفلة والقسوة، حتى يفضى إلى سوء الخاتمة. والعياذ بالله.

ثم وسمهم الحق تعالي بالنفاق، أي: اليهود، فقال:



قلت: جملة: (وقد دخلوا)، وجملة: (وهم قد خرجوا)، حالان من فاعل (قالوا)، ودخلت (قد) على دخلوا وخرجوا؛ تقريباً للماضى من الحال، ليصح وقوعه حالاً؛ أي: ذلك حالهم فى دخولهم وخروجهم على الدوام، وأفادت أيضاً ـ لما فيها من التوقع ـ أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم.

يقول الحق جل جلاله فى ذكر مساوئ اليهود: ﴿**وإذا جاءوكم**﴾ ودخلوا عليكم، أظهروا الوفاق لكم، و ﴿**قالوا آمنا**﴾ بدينكم ﴿**و**﴾ هم ﴿**قد دخلوا**﴾ عليكم ملتبسين ﴿**بالكفر**﴾ فى قلوبهم، ﴿**وهم قد خرجوا**﴾ أيضاً ﴿**به**﴾، فلم ينفع فيهم وعظ ولا تذكير، بل كتموا النفاق وأظهروا الوفاق، ﴿**والله أعلم بما كانوا يكتمون**﴾؛ فيفضحهم على رؤوس الأشهاد.

الإشارة: من سبق له الطرد والإبعاد لا تنفعه خلطة أهل المحبة والوداد، بل يخرج من عندهم كما دخل عليهم، لا ينفع فيه وعظ ولا تذكير، ولا ينجح فيه زاجر ولا نذير، وأما من سبقت له العناية فلا يخرج من عندهم إلا مصحوباً بالهداية والرعاية، إذا كان فى أسفل سافلين أصبح فى أعلى عليين؛ لأنهم قوم لا يشقى جليسهم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية مساوئ اليهود، فقال:

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (لولا): إذا دخلت على الماضى أفادت التوبيخ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**وترى**﴾ يا محمد، أو يامن تصح منه الرؤية ﴿**كثيرا**﴾ من اليهود ﴿**يسارعون فى الإثم**﴾ أى: فى الذنوب والمعاصى المتعلقة بهم فى أنفسهم، ﴿**والعدوان**﴾ المتعلقة بغيرهم، كالتعدى على أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم، ﴿**وأكلهم السحت**﴾: الحرام؛ كالرشا والربا وغير ذلك، ﴿**لبئس ماكانوا يعملون**﴾ أى: قبح عملهم بذلك، وتناهى فى القبح.

﴿**لولا ينهاهم**﴾ أى: هلا ينهاهم ﴿**الربانيون**﴾ أى: عُبَّادُهم ورهبانهم، (**والأحبار**) أى: علماؤهم وأساقفتهم، ﴿**عن قولهم الإثم**﴾ أى: الكذب، ﴿**وأكلهم السحت**﴾: الحرام، ﴿**لبئس ماكانوا يصنعون**﴾ من السكوت عنهم، وعدم الإنكار عليهم، عبّر أولاً بيعلمون وثانياً بيصنعون؛ لأن الصنع أبلغ، ولأن الصنع عمل بعد تدريب وتدقيق وتحرى إجادته وجودته، بخلاف العمل، ولا شك أن ترك التغيير والسكوت على المعاصى من العلماء وأولى الأمر أقبح وأشنع من مواقعة المعاصى، فكان جديراً بأبلغ الذم، وأيضاً: ترك التغيير لا يخلو من تصنع، فناسب التعبير بيصنعون ، وفى الحديث عنه ﷺ: «مامِنْ رجلٍ يجاورُ قوماً فيعمَلُ بالمعاصى بيْنَ أظْهرِهم إلاَّ أوْشَكَ اللهُ تعالى أنْ يعمَّهم منْه بعِقَابٍ» . وقد قال تعالى: ﴿ واتَّقُوا فتْنةً لاَّ تُصيبنَّ الَّذين ظَلَمُوا منكُمْ خاصَّةً ﴾[1] ، فالوبال الذى يترتب على ترك الحسبة أعظم من الوبال الذى يترتب على المعصية، فكان التوبيخ على ترك الحسبة أعظم.

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

ثم نعى عليهم مقالاتهم الشنيعة، التى هى من جملة قولهم الإثم، فقال:﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أى: مقبوضة عن بسط الرزق . رُوى أن اليهود أصابتهم سنة جدبة بشؤم تكذيبهم للنبى ﷺ فقالوا هذه المقالة الشنيعة، والذى قالها فنْحاص، ونسبت إلى جملتهم؛ لأنهم رضوا بقوله، فغل اليد كناية عن البخل، وبسطها كناية عن الجود، ومنه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾(١) .

ثم رد عليهم فقال: ﴿غُلّت أيديهم﴾، يحتمل أن يكون دعاءً أو خبراً، ويحتمل أن يكون فى الدنيا بالأسر والقبض، أو فى الآخرة بجعل الأغلال فيها إلى عنقهم فى جهنم، قال تعالى: ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ أى: نعمه مبسوطة على عباده، سحاء عليهم، الليل والنهار، وإنما ثنيت اليدان هنا، وأفردت فى قول اليهود؛ ليكون أبلغ فى الرد عليهم، ومبالغة فى وصفه تعالى بالجود والكرم، كما تقول: فلان يعطى بكلتا يديه؛ إذا كان عظيم السخاء، أو كناية عن نعم الدنيا والآخرة، أو عن ما يعطيه استدراجاً وما يعطيه للإكرام. ثم أكده بقوله: ﴿يُنفق كيف يشاء﴾ أى: هو مختار فى إنفاقه، يوسع تارة ويضيق تارة أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته.

ولمّا عميت بصيرتهم بالكفر، وقست قلوبهم بالذنوب، كانوا كلما ازدادوا تذكيراً بالقرآن، زادوا فى العتو والطغيان، كما قال تعالى: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾؛ إذ هم متعصبون بالكفر والطغيان، ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء.

ومن مساوئهم أيضا: تفريق قلوبهم بالعداوة والشحناء، كما قال تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾؛ فلا تتوافق قلوبهم ولا تجتمع آراؤهم؛ ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أى: كلما أرادوا حرب الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ وإثارة شر عليه، ردهم الله، وأبطل كيدهم، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها شرهم، أو: كلما أرادوا حرب عدو لهم هزمهم الله، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط عليهم فطْرس الرومى، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمون. فكان شأنهم الفساد، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿ويسعون فى الأرض فساداً﴾ أى: الفساد بإثارة الحروب والفتن، وهتك المحارم، واجتهادهم فى الحيل والخدع للمسلمين، ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أى : لا يرضى فعلهم فلا يجازيهم إلا شراً وعقوبة.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

الإشارة: قال الورتجبي: في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار العلماء بالله وبعذاب الله لمن عصاه، وبثواب الله لمن أطاعه؛ لئلا يسكتوا عن الزجر للمبطلين والمغالطين، المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، وبيّن تعالى أن من داهن في دينه عذب وإن كان ربانيا. هـ. وفي بعض الأثر: «إذا رأى العالمُ المنكرَ وسكت، فعليه لعنة الله». والذي يظهر أن نهي الربانيين يكون بالهمة والحال، كقضية معروف الكرخي وغيره، ونهي الأحبار يكون بالمقال، وقد تقدم هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ندبهم إلى الإسلام فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أن أهل الكتاب﴾؛ اليهود والنصارى، ﴿آمنوا﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به، ﴿واتقوا﴾ ماذكرنا من معاصيهم ومساويهم، ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ المتقدمة، ولم نؤاخذهم بها، ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ مع المؤمنين، وفيه تنبيه على أن الإسلام يجُب ماقبله ولو عظم، وأن الكتابي لا يدخل الجنة إلا أن يسلم.

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ بالإيمان بما فيهما، وإذاعة علمهما، والقيام بأحكامهما، من غير تفريق بينهما، وآمنوا بما ﴿أنزل إليهم من ربهم﴾، يعني: بسائر الكتب المنزلة، ومن جملتها القرآن العظيم، فإنهم لما كلفوا بالإيمان بها صارت كأنها منزلة عليهم، فلو فعلوا ذلك ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي: لوسعنا عليهم أرزاقهم، وبسطنا عليهم النعم؛ بأن يفيض عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، أو: لأكلوا من فوقهم بكثرة ثمرة الأشجار، ومن تحت أرجلهم بكثرة الزروع، أو من فوقهم مايجنون من ثمار أشجارهم، ومن تحت أرجلهم مايتساقط منها، والمراد: بيان علة قبض الرزق عنهم، وأن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، لا لقصور القدرة عن ذلك.

ولو أنهم أقاموا ماذكرنا لوسعنا عليهم، ولحصل لهم خير الدارين، ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ أي: جماعة عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وكثير منهم ساء مايعملون﴾ أي: قبح عملهم، وفيه معنى التعجب، أي: ما أسوأ عملهم!، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه، والإفراط في العداوة. قاله

البيضاوي. قال في الحاشية: وفي الآية شاهد لما ورد من افتراق أهل الكتابين على فرق، كما أن شاهد افتراق هذه الأمة آية: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾(١)، وهذه هي الناجية من هذه الأمة هـ. يعني التي تهدي بالحق إلى الحق، وتعدل به في جميع الأمور.

الإشارة: كل من حقق الإيمان الكامل والتقوى الكاملة، وسع الله عليه في أرزاق العلوم، وفتحت له مخازن الفهوم، ودخل جنة المعارف، فلم يشتق إلى جنة الزخارف، وقال الورتجبي: لو كانوا على محل التحقيق في المعرفة لأكلوا أرزاق الله بالله من خزائن غيبه، كأصحاب المن والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض وهم على ذلك، بإسقاط رؤية الوسائط. هـ.

وقال القشيري: لو سلكوا سبيل الطاعات لوسعنا عليهم أسباب المعيشة، وسهلنا لهم الحال، إن ضربوا يمْنَةً، لايلقون غير اليُمْن، وإن ضربوا يُسْرةً، لا يجدون إلا اليسر. هـ.

ثم أمر رسوله بالتبليغ من غير مبالاة بأهل التشغيب، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الرسول بلغ﴾ جميع ﴿ماأنزل إليك من ربك﴾ غير مراقب أحداً ولاخائف مكروهاً، ﴿وإن لم تفعل﴾؛ بأن لم تبلغ جميع ما أمرتك وكتمت شيئاً منه، ﴿فما بلغت رسالته﴾ أي: كأنك مابلغت شيئا من رسالة ربك؛ لأن كتمان بعضها يُخل بجميعها، كترك بعض أركان الصلاة. وأيضا كتمان البعض يُخل بالأمانة الواجبة في حق الرسل، فتنتقض الدعوة للإخلال بالأمانة، وذلك محال. ولا يمنعك أيها الرسول عن التبليغ خوف الإذاية فإن ﴿الله يعصمك من الناس﴾ بضمان الله وحفظه، ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: لايمكنهم مما يريدونه منك. وقد قصده قوم بالقتل مراراً، فمنعهم الله من ذلك كما في السير عن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالته، فضقت بها ذرعاً، فأوحى الله لي: إنْ لمْ تُبلِّغْ رِسالتي عذبْتك، وضَمِن لِي العِصْمَةَ فقويت»(٢).

---

(١) من الآية ١٨١ من سورة الأعراف.
(٢) عزاه المناوي في الفتح السماوي ٢ / ٥٧٤ لاسحاق بن راهويه في مسنده من حديث أبي هريرة.

وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحرس، حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم، فقال: «انصرفوا يا أيها الناس؛ فقد عصمني الله من الناس»[١]. وظاهر الآية يوجب تبليغ جميع ما أنزل الله. ولعل المراد تبليغ مايتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه، فإن من الأسرار الإلهية مايحرم إفشاؤه. قاله البيضاوي.

الإشارة: قال الورتجبي: أمره بإبلاغ ما أنزل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية، ولم يأمرهم بأنه يعرفهم أسرار مابينه وبين الله، وما بين الله وبين أنبيائه وأوليائه. ثم قال: **(والله يعصمك)** أي: يعصمك أن يوقعك أحد في التمويه والغلط والحيل في طريقك إليّ، وهذا لكونه مختاراً بالرسالة، وحقائق الرسالة في الرسول: ظهور أنوار الربوبية في قلبه، وبيان أحكام العبودية في سرّه. وقال الأستاذ، يعني القشيري: يقال في قوله: **(والله يعصمك من الناس)** أي: حتى لا تغرق في بحر التوهم، بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجوداً بين طرفي العدَم. انتهى نقل الورتجبي.

وقال القشيري أيضاً: لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك مُلاحظةَ غير، إذ لا غيرَ في التحقيقَ إلا رسوماً موضوعة، أحكام القدرة عليها جارية. ثم قال: **(والله يعصمك)** أي: يعصم ظاهرك من أن يمَسَّكَ من أذاهم شيء، فلم يتسلط عليه بعد هذا عدو، أي: وما وقع له من الشج وغيره كان قبل ذلك، وقيل: المراد عصمته من القتل، ثم قال: ونصون سرَّك عنهم، حتى لا يقع على إحساسهم. وقال شيخنا السلمي: قيل: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات، أويكون لك بهم اشتغال. انتهى.

قلت: صدق الباطن، لا ينفك عنه من أول الأمر؛ لأنه من ضروريات كونه رسول الله بالله، وهذا قد يتحقق للمأذون من أتباعه، فضلا عنه، والظاهر ماصدر به من عصمة ظاهره، أو أن يقع خلل في طريقه؛ بتمويه أو غلط أو حيلة، كما أشار إليه الورتجبي. فلله دره. قاله المحشي الفاسي. والله تعالى أعلم.

ثم أبطل دين من حاد عن رسالة نبيه، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: **﴿قل﴾** يامحمد: **﴿ياأهل الكتاب﴾**؛ اليهود والنصارى، **﴿لستم على شيء﴾** أي: لستم على دين يعتد به، **﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾** على لسان محمد ﷺ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها، أمرت بالإيمان والإذعان، لمن صدقته المعجزة، وهي ناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد بإقامة الكتابين: إقامة أصولهما ومالم ينسخ من فروعهما، لا جميعهما. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير، سورة المائدة) والحاكم في (التفسير ٢ / ٣١٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في الدلائل (باب قول الله عز وجل: ﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

الإشارة : ماقيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة، فيقال لهم: لستم على شيء، يُعْبأ به من أعمالكم وأحوالكم، حتى تقيموا كتابكم القرآن، فتحلوا حلاله، وتحرموا حرامه، وتقفوا عند حدوده، وتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتقيموا ـ أيضًا ـ سنة نبيكم؛ فتقتدوا بأفعاله، وتتأدبوا بآدابه، وتتخلقوا بأخلاقه، على جهد الاستطاعة، ولذلك قال بعض السلف: ليس عليّ في القرآن أشد من هذه الآية: ﴿**قل يا أهل الكتاب لستم على شيء**﴾ الآية. كما في البخاري(١).

ثم ذكر عتو اليهود وطغيانهم، فقال:

﴿ ...وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿**وليزيدن كثيرًا**﴾ من اليهود ﴿**ما أنزل إليك**﴾ من القرآن والوحي ﴿**طغيانًا وكفرًا**﴾ على ماعندهم، فلا تحزن عليهم بزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم، لايتخطاهم، قال ابن عباس: جاء رسول الله ﷺ رافعُ بن حارثة وسلام بن مشكم وملك بن الصيف ورافع بن حريملة في جماعة من اليهود، فقالوا: يامحمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم، وأنك مؤمن بالتوراة وبنبوة موسى، وأن جميع ذلك حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وكتمتم وغيرتم. فقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق، ولانصدقك ولا نتبعك، فنزلت فيهم هذه الآية.

الإشارة : من شأن أهل المحبة والاعتقاد، الذين سبقت لهم من الله العناية والوداد، إذا ازداد على أشياخهم فيض علوم وأنوار وأسرار؛ زادهم ذلك يقيناً وإيماناً وعرفانا ، يجدون حلاوة ذلك في قلوبهم وأسرارهم؛ فيزدادون قرباً وشهوداً، وأهل العناد الذين سبق لهم من الله الطرد والبعاد؛ إذا سمعوا بزيادة علوم وأنوار علي أولياء الله، زادهم ذلك طغياناً وبُعداً، فلا ينبغي الالتفات إليهم، ولا الاحتفال بشأنهم، فإن الله كاف شرهم، وبالله التوفيق.

ثم رغب أهل الملل في الإسلام، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت : (والصابئون): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. انظر البيضاوي وابن هشام.

---

(١) القائل هو سيدنا سفيان بن عيينة، وذكره البخاري في (الرقاق ـ باب الرجاء والخوف).

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿والذين هادوا والصابئون﴾: قوم بين النصارى والمجوس، أو عباد الكواكب، أو قوم بقوا على دين نوح ـ عليه السلام ـ ﴿والنصارى﴾: قوم عيسى، ﴿من آمن﴾ منهم ﴿بالله﴾ إيمانًا حقيقيًا؛ بلا شرك ولا تفريق، وآمن باليوم الآخر، ﴿وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، قال ابن عباس: نسخها: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1]، وقيل: إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيماناً صحيحاً فله أجره، فيكون في حق المؤمنين: الثبات عليه إلى الموت، وفي حق غيرهم: الدخول في الإسلام، فلا نسخ. وقيل: إنها فيمن كان قبل بعث النبي ﷺ فلا نسخ أيضاً. قاله ابن جزي.

الإشارة: الذي طلب الله من العباد ورغبهم في تحصيله، وجعله سببا للنجاة من كل هول في الدنيا والآخرة ثلاثة أمور: أحدها: تحقيق الإيمان بالله، والترقي فيه إلى محل شهود المعبود، الثاني: تحقيق الإيمان بالبعث ومابعده، حتى يكون نصب عينيه، ويقربه كأنه واقع يشاهده؛ إذ كل آت قريب. والثالث: إتقان العمل إظهارا للعبودية، وتعظيماً لكمال الربوبية، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط، وبالله التوفيق.

ثم خص اليهود بالعتاب لعظم جرأتهم، فقال:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (أن) معه، فتكون مخففة، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان، فمن قرأ: (وحسبوا ألا تكون) بالرفع، فأن مخففة، ومن قرأ بالنصب فأن مصدرية. والفرق بين العلم والظن، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال، و (أن) تخلص للاستقبال، فلا يصح وقوعها بعد العلم، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة، بخلاف الظن؛ فيتعلق بالحال والاستقبال، فصح وقوع (أن) بعده. و (كلما): ظرف لكذبوا أو يقتلون، و(كثير): بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أن يعملوا بأحكام التوراة، ﴿وأرسلنا إليهم رسلا﴾ يجددون العهد ويحثون على الوفاء به، ثم إنهم طغوا وعتوا؛ ﴿كلما جاءهم رسول﴾ من عند الله ﴿بما لاتهوى أنفسهم﴾ من الشرائع التي تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة، ﴿فريقًا﴾ منهم كذبوهم ﴿وفريقًا﴾ يقتلونهم، أي: كذبوا فريقا كداود وسليمان، وفريقا قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام فليس مافعلوا معك ببدع منهم، فلهم سلف في ذلك .

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

﴿وحسبوا﴾ أى: ظنوا ﴿ألا تكون فتنة﴾ أى: لا يقع بهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وتكذيبهم، ﴿فعموا﴾ عن أدلة الهدى، أو عن الدين، ﴿وصموا﴾ عن استماع الوعظ والتذكير، كما فعلوا حين عبدوا العجل، ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ لما تابوا، ﴿ثم عموا وصموا﴾ لما قتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء، واستمر على ذلك ﴿كثير منهم﴾، وقليل منهم بقوا على العهد ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازيهم وفق أعمالهم.

الإشارة: لقد أخذ الله العهد على جميع بنى آدم فى شأن حمل الأمانة، التى حملها أبوهم آدم، وبعث الأنبياء والأولياء يجددون العهد فى حملها، ويعرفون الناس بشأنها، وهى المعرفة الخاصة، التى هى شهود عظمة الربوبية فى مظاهر العبودية، وحملها لا يكون إلا بمخالفة الهوى وخرق عوائد النفوس، ولا يطيقها إلا الخصوص، فلذلك كثر الإنكار على الأنبياء والأولياء؛ إذ لم يأت أحد بخرق العوائد إلا عودى وأنكر، فكلما جاءهم رسول أو ولى بما لاتهوى أنفسهم فريقاً منهم كذبوا وفريقًا يقتلون، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على ذلك، ولا تصيبهم فتنة فى قلوبهم على ماهنالك، فعموا عن مشاهدة أنوار الحق، وصموا عمن يذكرهم بالحق، وقد تلمع لهم تارة قبس من أنوارهم، فيتوبون، ثم يُصَرّون على الإنكار. والله بصير بما يعملون.

ثم ذكر مساوئ النصارى، فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٧٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾؛ لما رأوا على يديه من الخوارق، ﴿وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم﴾ المعنى: لقد كفر من اتخذ عيسى إلهاً مع أنه كان يتبرأ من هذا الاعتقاد، ويقول لبنى إسرائيل: اعبدوا الله خالقى وخالقكم.

والمشهور في الأخبار، أن النصارى هم الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد دون بني إسرائيل، نعم، أصل دخول هذه الشبهة على النصارى من يهودي يقال له: بولس، حسداً منه، وذلك أنه دخل في دينهم، وفرق أموالهم، وتأهب للتعبد معهم، ثم سار إلى بيت المقدس وقطّع نفسه تقرباً عند قبري مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ في زعمهم، وكان معه رجلان اسمهما: يعقوب وناسور، فأخذ يعلمهما ذلك الفساد ويقول لهما : عيسى هو الله أو ابن الله، فلما قطع نفسه صار الرجلان يُفشيان ذلك عنه، فشاع مذهب الرجلين، وكان منهما الطائفة اليعقوبية والناسورية.

ثم هددهم على الشرك فقال، أي: عيسى: ﴿إنه من يشرك بالله﴾ في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال، ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ أي: يمنع من دخولها؛ لأنها دار الموحدين، ﴿ومأواه النار﴾ أي: محله النار، لأنها معدة للمشركين، ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي: ومالهم أحد ينصرهم من النار. ووضع المظهر موضع المضمر، تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك، وعدلوا عن طريق الحق، وهو يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه السلام، أو من كلام الله تعالى.

ثم ذكر تعالى صنفاً آخر منهم، فقال: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي: أحد ثلاثة ، عيسى وأمه وهو ثالثهم، أو أحد الأقانيم الثلاثة، الأب والابن وروح القدس، يريدون بالأب الذات، وبالابن العلم، وبروح القدس الحياة، لكن في إطلاق هذا اللفظ إيهام وإيقاع للغير في الكفر، وهذه المقالة ـ أعني التثليث، هي قوله النسطورية والملكانية، وماسبق في قوله: ﴿إن الله هو المسيح﴾ قول اليعقوبية، القائلة بالاتحاد، وكلهم ضالون مضلون، ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك له في ألوهيته، متصلاً ولا منفصلاً، ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾، ولم يوحدوا ﴿ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ أي: ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ولم يتوبوا، عذاب موجع.

﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾ أي: أفلا يرجعون عن تلك العقائد الزائغة والأقوال الفاسدة، ويستغفرونه بالتوحيد والتوبة عن الاتحاد والحلول، فإن تابوا غفر الله لهم، ﴿والله غفور رحيم﴾. وهذا الاستفهام: تعجب من إصرارهم، مع كون التوبة مقبولة منهم.

ثم رد عليهم بقوله: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول﴾ بشر ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾، وخصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن كان قد أحيا الله الموتى على يديه، فقد أحيا العصى، وجعلها حية تسعى على يد موسى، بل هو أعجب، وإن كان قد خلقه الله من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وهو أغرب، ﴿وأمه صديقة﴾ فقط، كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق، ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ ويفتقران إليه افتقار

الحيوانات، قال البيضاوي: بيَّن أولاً أقصى مالهما من الكمال، ودل أنه لا يوجب لهما ألوهية؛ لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما، وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكون من عداد المركبات الكائنة الفاسدة، أي: القابلة للفساد، ثم عجب ممن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة، فقال: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنا يؤفكون﴾ أي: كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله، و (ثم) للتفاوت بين العجبين، أي: أن بياننا للآيات عجب، وإعراضهم عنها أعجب. هـ.

ثم أبطل عبادتهم لعيسى عليه السلام فقال: ﴿قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ بل هو عاجز عن صرفه عن نفسه وجلب الخير لها، فكيف يقدر أن يدفعه عن غيره؟ وعبَّر عنه بماء، دون (من) - إشارة إلى أنه من جنس مالا يعقل، وماكان مشاركاً في الحقيقة لجنس مالا يعقل، يكون معزولاً عن الألوهية، وإنما قدّم الضَر؛ لأن التحرز منه أهم من تحري النفع، ثم هددهم بقوله: ﴿والله هو السميع العليم﴾ بالأقوال والعقائد، فيجازي عليهما، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يصفي مشرب توحيده، ويعتني بتربية يقينه، بصحبة أهل اليقين، وهم أهل التوحيد الخاص، فيترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات، ومن توحيد الصفات إلى توحيد الذات، فنهاية توحيد الصالحين والعلماء المجتهدين تحقيق توحيد الأُفعال، وهو ألاَّ يرى فاعلاً إلا الله، لا فاعل سواه، وثمرة هذا التوحيد: الاعتماد على الله، والثقة بالله، وسقوط خوف الخلق من قلبه، لأنه يراهم كالآلات، والقدرة تحركهم، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، عاجزون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم؟ ونهاية توحيد العباد والزهاد والناسكين المنقطعين إلى الله تعالى توحيد الصفات، فلا يرون قادراً ولا مريداً ولا عالماً ولا حياً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا متكلماً إلا الله، قد انتفت عنه صفات الحدث وبقيت صفات القدم. وثمرة هذا التوحيد: الانحياش من الخلق والتأنس بالملك الحق، وحلاوة الطاعات ولذيذ المناجات. ونهاية توحيد الواصلين من العارفين والمريدين السائرين: توحيد الذات؛ فلا يشهدون إلا الله، ولايرون معه سواه. قال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لاغير معه حتى أشهده. وقال شاعرهم:

مُــذْ عَــرَفْتُ الإلهَ لَمْ أَرَ غَــيْــرَا ... وكَــذَا الغَــيْــرُ عِنْدَنَا مَــمْنُوعُ

مُــذْ تَجَـمَّـعْتُ مَـاخَشِيتُ افْتِـرَاقاً ... فَــأنَا اليَــوْمَ واصِلٌ مُــجْـمُــوعُ

وقال في التنوير: أبى المحققون أن يشهدوا مع الله سواه؛ لما حققهم به من شهود الأحدية وإحاطة القيومية. هـ. وفي الحكم: «الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته». وهؤلاء هم الصديقون المقربون. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم نهى أهل الكتاب عن الغلو في عيسى، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أهل الكتب﴾ أي: النصارى، ﴿لا تغلوا في دينكم﴾ وتقولوا قولا ﴿غير الحق﴾، وهو اعتقادكم في عيسى أنه إله، أو أنه لغير رشدة، ولاتفرطوا، ﴿ولاتتبعوا أهواء قوم﴾ سلفوا قبلكم، وهم أئمتكم في الكفر، ﴿قد ضلوا من قبل﴾ أي: من قبل مبعث محمد ﷺ، ﴿وأضلوا﴾ أناساً ﴿كثيرا﴾؛ حملوهم على الاعتقاد الفاسد في عيسى وأمه، فقلدوهم وضلوا معهم، ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: عن قصد السبيل المستقيم، وهو الإسلام بعد مبعثه ﷺ، وقيل: الضلال الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع. قاله البيضاوي.

الإشارة: الغلو كله مذموم كما تقدم، وخير الأمور أوسطها، كما تقدم. وقد رخص في الغلو في ثلاثة أمور: أحدها: في مدح النبي ﷺ فلا بأس أن يبالغ فيه مالم يخرجه عن طور البشرية، وهذا غلو ممدوح، مقرب إلى الله تعالى، قال في بردة المديح:

دعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِم   واحكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيهِ واحْتَكِمِ

الثاني: في مدح الأشياخ والأولياء، مالم يخرجهم أيضاً عن طورهم، أو يغض من مرتبة بعضهم، فقد رخصوا للمريد أن يبالغ في مدح شيخه، ويتغالى فيه، بالقيدين المتقدمين؛ لأن ذلك يقربه من حضرة الحق تعالى. والثالث: في تعظيم الحق جل جلاله. وهذا لا قيد فيه ولا حصر. حدث عن ا لبحر ولا حرج، إذا كان ممن يحسن العبارة ويتقن الإشارة، بحيث لا يوهم نقصاً ولا حلولا. وبالله التوفيق.

ولما ذكر مساوئ النصارى ذكر مساوئ اليهود، فقال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود﴾ أى: لعنهم الله فى الزبور على لسان نبيه داود عليه السلام، ﴿و﴾ لعنهم الله أيضاً فى الإنجيل على لسان ﴿عيسى بن مريم﴾، فالأول: أهل أَيْلَة؛ لما اعتدوا فى السبت لعنهم داود عليه السلام، فمسخوا قردة وخنازير، والثانى أصحاب المائدة، لمّا كفروا دعا عليهم عيسى، ولعنهم، فمسخوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل، ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾؛ ذلك اللعن الشنيع المقتضى للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ماحرّم عليهم.

﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أى: لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيأوا له، أو: لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه، ﴿لبئس ماكانوا يفعلون﴾، وهو تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم.

﴿ترى كثيراً منهم﴾ أى: من اليهود، ﴿يتولون الذين كفروا﴾ أى: يوالون المشركين بُغضاً للرسول ﷺ وللمؤمنين، ﴿لبئس ماقدمت لهم أنفسهم﴾ أى: لبئس شيئاً قدموه، ليردوا عليه يوم القيامة، وهو ﴿أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون﴾ أى: بئس ماقدموا أمامهم، وهو سخط الله والخلود فى النار، والعياذ بالله. ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى﴾ أى: نبيهم كما يزعمون، ﴿وماأنزل إليه﴾ من التوراة وغيره، ﴿ماتخذوهم أولياء﴾؛ لأن النبى لا يأمر بموالاة الكفار، ولو آمنوا بمحمد ﷺ وما أنزل إليه ـ كما هو الواجب عليهم ـ ما اتخذوا الكفار أولياء، ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أى: خارجون عن دينهم، أو خارجون عن الدين الحق الذى لا يقبل غيره، وهو الإسلام.

الإشارة: ذكر الحق جل جلاله فى هذه الآية ثلاثة أمور، وجعلها سبباً للعن والطرد، وموجبة للسخط والمقت، أولها: الانهماك فى المعاصى والعدوان، والإصرار على الذنوب والطغيان. والثانى: عدم الإنكار على أهل المعاصى والسكوت عنهم والرضا بفعلهم، والثالث: موالاة الفجار والمودة مع الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم، وفى بعض الأخبار: (لو أن رجلا قام الليل وصام النهار، ثم تودد مع الفجار لبعث معهم، ولو أن رجلاً عمل بالمعاصى ماعمل، ثم أحب الأبرار لحشر معهم)، أو كما قال ﷺ، ويعضده حديث: «المَرْءُ مع مَنْ أحبّ». والله تعالى أعلم.

ثم بيّن تفاوت عداوة الكفار للمسلمين، فقال:

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت: القسيس: العالم، والراهب: العابد، و (مما عرفوا): سببية، و (من الحق): بيان أو تبعيض، وجملة: (لانؤمن): حال، والعامل فيها متعلق الجار، أي: أي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين، و (نطمع): عطف على (نؤمن)، أو خبر عن مضمر، أي: ونحن نطمع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة﴾ للمؤمنين؛ اليهود والمشركين، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد.

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾، للين جانبهم، ورقة قلوبهم، وقلة حرصهم على الدنيا بالنسبة لليهود، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين﴾ أي: علماء، ومن جملة علمهم: علمهم بوصاية عيسى بالإيمان بمحمد ﷺ، ﴿ورهبانًا﴾ أي: عبادًا، ﴿وأنهم لايستكبرون﴾ عن قبول الحق إذا عرفوه، بخلاف اليهود؛ لكثرة جحودهم، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل محمود، وإن كان من كافر. قاله البيضاوي

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾؛ من البكاء، جعل أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها، وإنما يفيض دمعها، وذلك ﴿مما عرفوا من الحق﴾ حين سمعوه، أو من بعض الحق، فما بالك لو عرفوا كله؟ ﴿يقولون ربنا آمنا﴾ بذلك، أو بمحمد ﷺ؛ ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ بأنه حق، أو بنبوة محمد ﷺ، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم.

نزلت في النجاشي وأصحابه، حين دعوا جعفراً وأصحابه، وأحضروا القسيسين والرهبان، وأمره أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فبكوا وآمنوا بالقرآن. وقيل: نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه، وفدوا من عنده من الحبشة بأمره على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة ﴿يس﴾، فبكوا وآمنوا، فصدر الآية عام، فالنصارى كلهم أقرب مودة للمسلمين، من آمن، ومن لم يؤمن، وإنما جاء التخصيص في قوله: ﴿وإذا سمعوا﴾، فالضمير إنما يرجع إلى من آمن منهم، كالنجاشي وأصحابه. وإنما جاء الضمير عاما؛ لأن الجماعة تحمد بفعل الواحد. انظر ابن عطية.

ولما دخل الإيمان فى قلوبهم حين سمعوا القرآن، عاتبوا أنفسهم على التأخر عن الإيمان فقالوا: ﴿وما لنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق﴾ ﴿و﴾ نحن ﴿نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾، وهى أمة محمد ﷺ التى هى أفضل الأمم، وهذا منهم استفهام إنكار واستبعاد؛ لانتفاء الإيمان مع قيام الداعى، وهو الطمع فى الانخراط مع الصالحين، والدخول فى مداخلهم، ﴿فأثابهم الله﴾ أى: جازاهم ﴿بما قالوا﴾ واعتقدوا، ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ الذى اعتادوا الإحسان فى جميع الأمور، أو الذين أحسنوا النظر وأتقنوا العمل.

ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾، شفع بهم حال المؤمنين المصدقين، جمعاً بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد بين خوف ورجاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشد الناس إنكاراً على الفقراء، وأشدهم عداوة لهم، من تقدم فى أسلافه رئاسة علم أو جاه أو صلاح أو نسبة شرف، وأقرب الناس مودة لهم من لم يتقدم له شىء من ذلك، فالعوام أقرب وأسهل للدخول فى طريق الخصوص من غيرهم. والله تعالى أعلم.

ولمّا تضمن الكلام مدح النصارى على ترهبهم، والحث على حبس النفس، ورفض الشهوات، أعقبه بالنهى عن الإفراط فى ذلك والاعتداء عما حدّه الله بجعل الحلال حراماً، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله﴾ أى: لا تحرموا ماطاب ولذ مما أحله الله لكم، ﴿ولاتعتدوا﴾ فتحرموا ما أحللت لكم، ويجوز أن يراد: ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم إلى ماحرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ماحرم، داعية إلى القصد بينهما، والوقوف على ماحد دون التجاوز إلى غيره. رُوى أن رسول الله ﷺ وصفَ القيامة يوماً، وبالغ فى إنذارهم، فرَقّوا، واجتمعوا فى بيت عُثمان بنْ مظعون، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين، وألا ينامُوا على الفرُش، ولا يأكلوا اللحْمَ والوَدَك[1]، ولا يَقربُوا النساء والطّيب، ويَرفضُوا الدُّنيا، ويلبَسُوا المسُوح، ويَسيحُوا في الأرض، ويَجبُّوا مذَاكيرَهم، فبلَغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال لهم: «إني لم أومَرْ بذلك، إنَّ لأنفسكُمْ عَليكم حقاً، فصومُوا وأفطرُوا، وقومُوا ونَاموا، فإنّى أقُومُ وأنام، وأصُوم وأُفطر، وآكُلُ اللحْم والدَّسم، وآتى النساء، فَمنْ رَغِبَ عن سُنّتى فلَيْس منى»[2]. ونزلت الآية.

---

(١) الودك: دسم اللحم ودهنه الذى يُستخرج منه.

(٢) ذكره الواحدى فى أسباب النزول عن المفسرين، بغير إسناد، وبنحوه أورده الطبرى فى التفسير عن السدى. وهو منتزع من أحاديث، وأصله فى الصحيحين. راجع الفتح السماوى: (٥٧٩ ـ ٥٨١).

ثم قال تعالى: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبا﴾ أى: كلوا ماحل لكم وطاب مما رزقكم الله، ﴿واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾ ؛ فأحلوا حلاله واستعملوه، وحرموا حرامه واجتنبوه.

الإشارة: طريقةُ العباد والزهاد: رفض الشهوات والملذوذات بالكلية، زهداً وورعاً وخوفاً من اشتغال النفس بطلبها، فيتعطل وقتهم عن العبادة، وطريقة المريدين السائرين: رفض ماتتعلق به النفس قبل الحصول، وتشره إليه رياضة وتعففاً، لئلا تتعلق هممُهم بغير الله، فما جاءهم من غير طلب ولا شره أكلوه وشكروا الله عليه، ولا يقفون مع جوع ولا شبع. وطريقة الواصلين العارفين: تجنب ما يقبض من غير يد الله، فإذا أخذتهم سنة حتى غفلوا عن التوحيد فقبضوا شيئاً، مع رؤية الواسطة، أخرجوه عن ملكهم، كما وقع لأبى مدين رضي الله عنه ويأخذون ماسوى ذلك قَلّ أو كثر، ولا يقفون مع أخذ ولا ترك، وفى الحكم: «لاتمدن يديك إلى الأخذ من الخلائق، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك، فإن كنت كذلك فخذ ـ ماوافقك العلم».

ولما صدر من بعض الصحابة يمين على ترك ماتقدم، ذكر لهم الكفارة، وفيما تجب، فقال:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت: (فى أيمانكم): يتعلق باللغو، أو بيؤاخذكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا يُؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصد، كقوله: لا والله، وبلى والله. وإليه ذهب الشافعي، وقيل: هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة، ﴿ولكن يُؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ عليه، أى: بما جزمتم عليه بالنية والقصد، ﴿فكفارته﴾ أى: ماعقدتم عليه إذا حلفتم، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية.

ثم بيَّن الكفارة، فقال: ﴿إطعام عشرة مساكين﴾، فمن أطعم غنياً لم تجزه، واشترط مالك أن يكونوا أحراراً، وليس فى الآية مايدل على ذلك، ثم بيَّن نوعه فقال: ﴿من أوسط ماتُطعمون أهليكم﴾ أى: من وسط طعام أهليكم فى القدر أو فى الصفة، أما القدر فقال مالك: يطعم مُداً لكل مسكين بمد النبى ﷺ إذا كان فى المدينة

المشرفة، وفى غيرها وسط من الشبع، وقال الشافعى وابن القاسم: يجزئ المُد فى كل مكان، وقال أبو حنيفة: إن غذاهم وعشاهم أجزأه. قلت: وهو قول فى المدونة لمالك أيضًا. وأما الصنف، فاختلف: هل يطعم من عيش نفسه، أو من عيش بلده وهو المشهور؟

فمعنى الآية على هذا: ﴿من أوسط ماتطعمون﴾ أيها الناس ﴿أهليكم﴾ على الجملة ﴿أوكسوتهم﴾ ؛ فيكسو كل مسكين ماتصح به الصلاة، فالرجل ثوب، والمرأة قميص وخمار، ﴿أو تحرير رقبة﴾ مؤمنة على مذهب مالك؛ لتقييدها بذلك فى كفارة القتل. وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر، لإطلاق اللفظ هنا، واشترط مالك أيضًا أن تكون مسلمة من العيوب، وليس في الآية ما يدل عليه، فهذه الثلاثة بالتخيير.

﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة، ولم يقدر على شيء منها، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله فى يومه مايطعم به، ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ يستحب تتابعها، واشترطه أبو حنيفة؛ لأنه قرئ: (أيام متتابعات)، والشاذ ليس بحجة، ﴿ذلك﴾ المذكور هو ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ وحنثتم، ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أى: صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف، فيكون الله عرضة لأيمانكم، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا، إلا إن كان في الامتناع من الخير، فالحنث فيها أحسن، كما في الحديث. أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم، ولا تتهاونوا بها، ﴿كذلك يُبين الله لكم آياته﴾ أى: مثل ذلك البيان يُبين لكم أعلام شرائعه ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة التعليم، أو نعمه الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يُسهل لكم المخرج من ضيق اليمين، فهو نعمة يجب شكرها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ليس التشديد والتعقيد من شأن أهل التوحيد، إنما شأنهم الاسترسال مع مايبرز من عنصر القدرة، ليس لهم وقت دون الوقت الذى هم فيه، قد حلّ التوحيد عُقدهم ودكّ عزائمهم، فهم فى عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون، وإن وقع منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى مايفعل الواحد القهار، لاينشطون إلى شيء ولا يهربون من شيء، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع.

ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركا، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنة لله، وإن وقعت منهم زلة أو غفلة تأدبوا مع الله، وبادروا بالتوبه إلى الله، وما صدر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلعل ذلك كان حالاً غالبة عليهم ، قد أزعجهم وعظ النبى ﷺ، وأنهضهم حاله، فلما رءاهم غلب عليهم الحال ردهم إلى حال الاعتدال، ولعل الحق ـ جل جلاله ـ، إنما جعل كفارة اليمين جبراً لخلل ذلك التعقيد، الذى صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث، فكأنه حلف على فعل غيره، ففيه نوع من التألى على الله. والله تعالى أعلم.

ولما أمر الحق جل جلاله بأكل الحلال الطيب أخرج ضده، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت: (رجس): خبر، وأفرده؛ لأنه على حذف مضاف، أي: تعاطي الخمر، أو خبر عن الخمر، وخبر المعطوفات محذوف، أي: كذلك.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما﴾ تناول **﴿الخمر﴾**؛ وهو كل ماغيب العقل، دون الحواس، مع النشوة والطرب، **﴿والميسر﴾** وهو القمار **﴿والأنصاب﴾** وهو مانصب ليُعبد من حجارة أو خشب، **﴿والأزلام﴾** أي: الاستقسام بها، وقد تقدم تفسيرها[1]، **﴿رجس﴾** قذر خبيث تعافه العقول السليمة، **﴿من عمل الشيطان﴾** أي : من تسويله وتزيينه، **﴿فاجتنبوه﴾** أي: ماذكر من تعاطي الخمر، ومابعده، **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي: تفوزون بالرضوان والنعيم المقيم.

قال البيضاوي: اعلم أن الحق تعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدَّر الجملة بإنما، وقرنها بالأنصاب والأزلام وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شر محض، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجى منه الفلاح، ثم قرّر ذلك بأن بيّن مافيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ ، وقد وقع ذلك في زمن الصحابة، وهي كانت سبب تحريمه، **﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾**؛ إنما خص الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصودان بالبيان. وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة؛ لقوله ﷺ : «شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الوَثَنِ»[2].

وخص الصلاة من الذكر بالإفراد؛ للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان؛ من حيث إنها عماده، والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبًا على ماتقدم من أنواع

---

(١) راجع تفسير الآية ٣ من السورة نفسها.
(٢) أخرجه بلفظه البزار، كشف الأستار (الأشربة، باب في شارب الخمر) من حديث عبدالله بن عمرو، وأخرجه ابن ماجه في (الأشربة باب مدمن الخمر) بلفظ : (مدمن الخمر) .

الصوارف فقال: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ إيذانا بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت. هـ.
.ولذلك لما سمعها الفاروق رضي الله عنه حين نزلت، قال: (قد انتهينا يارينا).

وبهذا الآية وقع تحريم الخمر، وقد كان حلالا قبلها، بدليل سكوته ﷺ على شربها قبل نزول الآية، **فإن قلت:** حفظ العقول من الكليات الخمس التي اتفقت الشرائع على تحريمها؟ **قلنا:** لا حكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، ولما طالت الفترة، وانقطعت الشرائع عند العرب، رجعت الأشياء إلى أصلها من الإباحة بمقتضى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾(١)، حتى جاءت الشريعة المحمدية فحرمتها كالشرائع قبلها، فكانت حينئذ حراماً، ودخلت في الكليات الخمس التي هي: حفظ العقول والأبدان والأموال والأنساب والأديان.

ثم أكد ذلك أيضاً بقوله: **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾** فيما أمر ونهى، **﴿واحذروا﴾** غضبهما إن خالفتم، **﴿فإن توليتم﴾** أو أعرضتم عن طاعتهما **﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾**؛ لاتضره مخالفتكم، إنما عليه البلاغ وقد بلغ.

الإشارة: المقصود هو النهي عن كل ما يصد عن الله أو يشغل العبد عن شهود مولاه، وخص هذه الأربعة، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا، فالخمر فيه فساد العقل الذي هو محل الإيمان، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة والشحناء، وفساد الفكر لاستعماله في الهوى، والأنصاب فيه فساد الدين الذي هو رأس المال، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب، الذي هو سر الربوبية، وهو موجب للمقت والعطب، والعياذ بالله.

ثم عفا عما سلف من الخمر والميسر قبل التحريم، فقال:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أي: إثم **﴿فيما طعموا﴾** من الخمر والميسر قبل التحريم، **﴿إذا ما اتقوا﴾** أي: إذا اتقوا الشرك، **﴿وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا﴾** المحرمات **﴿وآمنوا﴾** أي: حققوا مقام الإيمان، **﴿ثم اتقوا﴾** الشبهات والمكروهات **﴿وأحسنوا﴾** أي: حصلوا مقام الإحسان، وهو إتقان العبادة، وتحقيق العبودية، ومشاهدة عظمة الربوبية، **﴿والله يحب المحسنين﴾** أي: يقربهم

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

ويصطفيهم لحضرته، رُوي أنه لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة - رضي الله عنهم -: يارسول الله؛ فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أي: الماضي والحال والاستقبال، أو باعتبارات الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية والتحلية، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم، وفيما بينه وبين الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة، أو باعتبار المراتب الثلاثة؛ المبدأ والوسط والنهاية، أو باعتبار مايتقى؛ فإنه ينبغي أن يتقي المحرمات توقيًا من العقاب، ثم يتقي الشبهات تحفظاً من الحرام، ثم يتقي بعض المباحات تحفظاً للنفس عن خسة الشره، وتهذيبًا لها عن دنس الطبيعة، قال معناه البيضاوي.

الإشارة: المقامات التي يقطعها المريد ثلاث: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، فما دام المريد مشتغلاً بالعمل الظاهر؛ من صلاة وصيام وذكر اللسان، سُمي مقام الإسلام، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية، سُمي مقام الإيمان، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهود وعيان سمي مقام الإحسان، وهذا اصطلاح الصوفية؛ سموا مايتعلق بإصلاح الظواهر: إسلاماً، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر: إيماناً، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر: إحسانا. وجعل الساحلي في البغية كل مقام مركبًا من ثلاثة مقامات، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام في كل مقام، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وبالله التوفيق.

ثم تكلم على حرمة الصيد في الإحرام تبييناً لقوله: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٩٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٩٦) ﴾

قلت : (فجزاء) : مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه جزاء، أو خبر عن مبتدأ محذوف، أي: فواجبه جزاء، و (مثل) : صفته، و (من النعم) : صفة ثانية لجزاء، أي: فعلية جزاء مماثل حاصل من النعم، ومن قرأ (مثل) بالجر، فعلى الإضافة، من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: فعليه أن يجزى مثل ماقتل، أو يكون (مثل) مقحمة كما في قولهم: مثلي لا يقول كذا. وقرئ بالنصب، أي: فليجزأ جزاء مماثلا. وجملة (يحكم) صفة لجزاء أيضا، أو حال من ضمير الخبر.

و(هَدْياً) : حال من ضمير (به)، أو من جزاء؛ لتخصيصه بالإضافة أو الصفة فيمن نون، و (بالغ) : صفة للحال، أو بدل من مثل باعتبار محله، أو لفظه فيمن نصبه، أو (كفارة) عطف على (جزاء) إن رفعته، وإن نصبت جزاء فهو خبر، أي: وعليه كفارة، و (طعام مساكين) : عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر عن محذوف، أي: هي طعام، ومن جرأ طعاماً فبالإضافة للبيان، كقوله : خاتم فضة، أو (عدل) عطف على (طعام) فيمن رفعه، أو خبر فيمن جره، أي: عليه كفارة طعام، أو عليه عدل ذلك، و (ليذوق) : متعلق بمحذوف، أي: فيجب عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة فعله، و(متاعًا لكم) : مفعول من أجله، و(حُرُمًا) : حال، أي: مادمتم محرمين، أو خبر دام على النقص، ويقال: دام يدوم دُمتُ، كقال يقول قلت، ودام يدَام دِمت، كخاف يخاف خفت. وبه قُرئ في الشاذ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم﴾ أي: والله ليختبرنكم ﴿الله بشيء﴾ قليل ﴿من الصيد﴾ يسلطه عليكم ويُذَلِّلُه لكم حتى ﴿تناله أيديكم﴾ بالأخذ ﴿ورماحكم﴾ بالطعن ﴿ليعلم الله﴾ علم ظهور وشهادة تقوم به الحجة، ﴿من يخافه بالغيب﴾ فيكف عن أخذه حذراً من عقاب ربه، نزل عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيده، أخذاً بأيديهم وطعنًا برماحهم، وهم مُحرمون، وكان الصيد هو معاش العرب ومستعملاً عندهم، فاختبروا بتركه مع التمكن منه، كما اختُبِر بنو إسرائيل بالحوت في السبت.

وإنما قلّله بقوله: ﴿بشيء من الصيد﴾ إشعاراً بأنه ليس من الفتن العظام كبذل الأنفس والأموال، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها، فمن لم يصبر عنده فكيف يصبر بما هو أشد منه؟ ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ الابتلاء بأن قتل بعد التحريم، ﴿فله عذاب أليم﴾ في الآخرة، لأن من لا يملك نفسه في مثل هذه فكيف يملكها فيما تكون النفس فيه أميل وعليه أحرص؟!.

ثم صرح بالحرمة، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي : محرمون جمع حَرَم، والمراد من دخل في الإحرام أو في الحرم ، وذكر القتل ليفيد العموم ، فيصدق بالذبح وغيره، وماصاده المحرم

أو صيد له ميتةٌ لايؤكل، والمراد بالصيد المنهي عن قتله: ما صيد وما لم يُصَدْ مما شأنه أن يصاد، وورد هنا النهي عن قتله قبل أن يصاد، وبعده، وأما النهي عن الاصطياد فيؤخذ من قوله: ﴿وحرم عليكم صيد البر مادمتم حُرماً﴾، وخصص الحديث: الغراب والحدأة، والفأرة والعقرب والكلب العقور[١]، فلا بأس بقتلهم، في الحل والحرم، وأدخل مالك في الكلب العقور كل ما يؤذي الناس من السباع وغيرها، وقاس الشافعي على هذه الخمسة كل مالايؤكل لحمه.

ثم ذكر جزاء قتله فقال: ﴿ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ماقتل من النَّعَمِ﴾ أي: فعليه جزاء مثل مايماثله من النعم، وهي الإبل والبقر والغنم، ففي النعامة بدنة، وفي الفيل ذات سنامين، وفي حمار الوحش وبقره بقَرة، وفي الغزالة شاة، فالمثلية عند مالك والشافعي في الخلقة والمقدار، فإن لم يكن له مثلٌ؛ أطعم أو صام، يُقوّم بالطعام فيتصدق به، أو يصوم لكل مدٍ يوماً، ومذهب أبي حنيفة أن المثلية: القيمة، يُقوم الصيد المقتول، ويُخير القاتل بين أن يتصدق بالقيمة أو يشترى بها من النعم مايهديه. وذكر العمد ليس بتقييد عند جمهور الفقهاء، خلافاً للظاهرية؛ بل المتعمد، والناسي في وجوب الجزاء سواء، وإنما ذكره ليرتب عليه قوله: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد، إذ رُوي أنهم عرض لهم حمار وحشي، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله، فنزلت الآية.

ولابد من حكم الحكَمين على القاتل لقوله: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾، فكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد، فكذلك تحتاج المماثلة في الخلقة والهيأة إليهما، فإن أخرج الجزاء قبل الحكم عليه؛ فعليه إعادته، إلا حمام مكة؛ فإنه لا يحتاج إلى حكمين، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم، لعموم الآية. وقال الشافعي: يكتفي في ذلك بما حكمت به الصحابة، حال كون المحكوم به ﴿هدياً﴾ بشرط أن يكون مما يصح به الهدي، وهو الجذع من الضأن، والثني مما سواه، وقال الشافعي: يخرج المثل في اللحم، ولا يشترط السن، ﴿بالغ الكعبة﴾ لم يرد الكعبة بعينها، وإنما أراد الحرم، وظاهره يقتضي أن يصنع به ما يصنع بالهدي؛ من سوق من الحل إلى الحرم، وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن اشتراه في الحرم أجزأه.

﴿أو كفارة طعام مساكين﴾؛ مد لكل مسكين، ﴿أو عدل ذلك صياماً﴾؛ يوم لكل مد، عدد الحق ـ تعالى ـ مايجب في قتل الصيد، فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب مالك والجمهور: أنها على

(١) أخرج ذلك البخاري في (جزاء الصيد، باب ما يقتل من الدواب) ومسلم في (الحج، باب مايندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرام) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

التخيير، وهو الذى يقتضيه العطف بأو، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة. وقد نظم ابن غازى الكفارات التى فيها التخيير أو الترتيب؛ فقال:

خَيِّرْ بِصَوْمٍ ثُمَّ صَيْدٍ وأَذَى وقُلْ لِكُلِّ خَصْلَةٍ: ياحَبَّذا
ورَتِّبِ الظِّهارَ والتَّمَتُّعا والقَتْلَ ثُمَّ فى اليَمِينِ اجْتَمَعا

وكيفية التخيير هنا: أن يخير الحكمان القاتلَ؛ فإن أراد الجزاء عينوا له ما يهدى، وإن أراد الإطعام قوموا الصيد بالطعام فى ذلك المحل، فيطعم مدًا لكل مسكين، وإن أراد الصيام صام يوماً لكل مدّ، وكمل لكسره، فإذا قوم بعشرة مثلاً ونصف مدّ، صام أحد عشر يوماً.

ثم ذكر حكمة الجزاء، فقال: ﴿ليذوق وبال أمره﴾ أى: فعليه الجزاء أو الإطعام أو الصيام؛ ليذوق عقوبة سوء فعله، وسوء هتكه لحرمة الإحرام، ﴿عفا الله عما سلف﴾ فى الجاهلية أو قبل التحريم، ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ فى الآخرة، وليس فيه مايمنع الكفارة على العائد؛ كما حكى عن ابن عباس وشريح. ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ ممن أصر على عصيانه.

ثم استثنى صيد البحر فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ وهو مالاً يعيش إلا فى الماء، وهو حلال كله لقوله ﷺ فى البحر: «هُو الطَّهورُ ماؤُه، الحِلُّ ميْتَتُه»[1]. وقال أبو حنيفة: لا يحل منه إلا السمك، ﴿وطعامه﴾ أى: ماقذفه، أو طفا على وجهه؛ لأنه ليس بصيد إنما هو طعام. وقال ابن عباس: طعامه: ما ملّح وبقى، ﴿متاعًا لكم وللسيارة﴾، الخطاب بلكم للحاضرين فى البحر، والسيارة: المسافرون فى البر، أى: هو متاع تأتدمون به فى البر والبحر، ﴿وحُرم عليكم صيد البر﴾ يحتمل أن يريد به المصدر، أى الاصطياد، أو الشىء المصيد، أو كلاهما، وتقدم أن ماصاده محرم أو صيد له: ميتة، وحد الحرمة: ﴿مادمتم حُرما﴾ فإذا حللتم فاصطادوا، ﴿واتقوا الله﴾ فى ترك ماحرم عليكم، ﴿الذى إليه تحشرون﴾ فيجازيكم على مافعلتم.

الإشارة: إذا عقد المريد مع الله عقدة السير والمجاهدة، قد يختبره الله ـ تعالى ـ فى سيره بتيسير الشهوات، وتسليط العلائق والعوائق؛ ليعلم الكاذب من الصادق، فإن كف عنها وأعرض، هيأه لدخول الحضرة، وإن انهمك فيها، واقتنص فى شبكتها، بقى مرهونًا فى يدها، أسيراً فى قبضة قهرها، فإذا نهض حتى دخل حرم الحضرة قاصداً لمعرفة المعارف، حرِّم عليه صيد البر، وهو كل مايخرج من بحر الحقيقة إلى شهود برِّ السِّوى، فرقًا بلا جمع، كائنًا ماكان، رسوماً أو علوماً أو أحوالاً أو أقوالاً، وحلّ له صيد البحر وطعامه، من أسرار أو أنوار أو حقائق،

---

(١) أخرجه مالك فى (الطهارة، باب الطهور للوضوء) والبيهقى فى الكبرى (١ / ٣) وأبو داود فى (الطهارة، باب الوضوء بماء البحر) والترمذى فى (الطهارة، باب ماجاء فى ماء البحر) والنسائى فى (الطهارة، باب ماء البحر) وابن ماجه فى (الطهارة، باب الوضوء بماء البحر) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

متاعاً لروحه وسره، وللسيارة من أبناء جنسه، يطعمهم من تلك الأسرار، بالهمة أو الحال أو التذكار، واتقوا الله في الاشتغال بما سواه، الذي إليه تحشرون، فيدخلكم جنة المعارف قبل جنة الزخارف. والله تعالى أعلم.

ولما عظّم شأن الحرم عظّم شأن الكعبة، فقال:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) ﴾

قلت: (البيت الحرام): عطف بيان على جهة المدح، و(قياما): مفعول ثان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿جعل الله الكعبة﴾ التي هي ﴿البيت الحرام قياما للناس﴾ أي: سبب انتعاشهم، يقوم بها أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعُمار، أو يقوم به أمر دينهم بالحج إليه، وأمر دنياهم بأمْنِ داخله، وتُجبى ثمرات كل شيء إليه.

قال القشيري: حكمَ الله ـ سبحانه ـ بأن يكون بيته اليومَ ملجأ يلوذ به كل مؤمّل، ويستقيم ببركة زيارته كلُّ حائدٍ عن نهج الاستقامة، ويظفر بالانتقال هناك كل ذي أرَبٍ. هـ.

﴿والشهر الحرام﴾ جعله الله أيضاً قياماً للناس؛ والمراد به ذو الحجة، فهو قيام لمناسك الحج، وجمْع الوجود إليه بالأموال من كل جانب، أو الجنس، وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، لأنهم كانوا يكفون عن القتال، ويأمن الناس فيها في كل مكان، **﴿والهدي﴾**، لأنه أمان لمن يسوقه؛ لأنه لم يأت لحرب، **﴿والقلائد﴾**، كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئاً من السمُر[1]، وإذا رجع تقلد شيئاً من شجر الحرم؛ ليعلم أنه كان في عبادة، فلا يتعرض له أحد بشر، فالقلائد هنا: ماتقلده المحرم من الشجر، وقيل: قلائد الهدي.

﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافي السموات ومافي الأرض﴾ أي: جعل ذلك الأمور، قياماً للناس؛ لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل الأمور، فشرع ذلك دفعاً للمضار وجلباً للمنافع، **﴿وأن الله بكل شيء عليم﴾** لا يخفى عليه محل مصالح عباده ومضارهم، وهو تعميم بعد تخصيص، ومبالغة بعد إطلاق.

---

(١) السمُر ـ بضم الميم والراء: ضرب من الشجر، صغار الورق قصار الشوك.

ثم قال تعالى : ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن عصاه، ﴿وأن الله غفور رحيم﴾ لمن أطاعه وأقبل عليه، وهو وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصرّ ورجع، ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ وقد بلّغ، فلم يبق عذر لأحد، وهو تشديد في إيجاب القيام بما أمر، ﴿والله يعلم ماتبدون وماتكتمون﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

الإشارة : كما جعل الله الكعبة قياماً للناس، يقوم به أمر دينهم ودنياهم ، جعل القلوب، التي هي كعبة الأنوار والأسرار، قياما للسائرين، يقوم بها أمر توحيدهم ويقينهم، أو أمر سيرهم ووصولهم. وفي الحديث: «إِنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صلَحَتْ صلُحَ الجسدُ كلُّه وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألاَ وَهِيَ القَلْبُ». وكما جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة لأهلها، جعل النسبة والتزيي بها حفظاً لصاحبها، من تزيا بزي قوم فهو منهم، يجب احترامه وتعظيمه لأجل النسبة، فإن كان كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، وقد أخذ اللصوص بعض الفقراء، وانتهكوا حرمته، وأخذوا ثيابه، فاشتكى لشيخه فقال له: هل كانت عليك مرقعتك؟ قال: لا، فقال له: أنت فرطت؛ والمفرط أولى بالخسارة. هـ. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان مدار الأمر كله على صلاح القلوب وفسادها ذكره بإثره، فقال:

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب﴾ عند الله، في القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب، والرديء مردود ممقوت، فالطيب مقبول وإن قلّ، والرديء مردود ولو جلّ، وهو معنى قوله: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾، فالعبرة بالجودة والرداءة، دون القلة والكثرة، وقد جرت عادته ـ تعالى ـ بكثرة الخبيث من كل شيء، وقلة الطيب من كل شيء، قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾(١)، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٢) ، وفي الحديث الصحيح: «النَّاسُ كإبلٍ مِائةٍ لا تكادُ تجِدُ فيها راحِلةً»(٣)، وقال الشاعر:

إنِّى لأفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أفْتَحُها عَلَى كَثِيرٍ ولكنْ لا أرَى أحَدا

فأهل الصفا قليل في كل زمان، ولذلك خاطبهم بقوله: ﴿فاتقوا الله يأولى الألباب﴾ أي: القلوب الصافية في تجنب الخبيث وإن كثر، وأخذ الطيب وإن قلّ، ﴿لعلكم تُفلحون﴾ بصلاح الدارين.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة ص. (٢) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٣) أخرجه البخاري في (الرقاق باب رفع الأمانة) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ : الناس كإبل مائة ..) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ومعنى الحديث: أن الزاهد في الدنيا، الكامل في الزهد فيها قليل جداً، كقلة الراحلة في الإبل.

الإشارة: لاعبرة بالأحوال الظلمانية وإن كثرت، وإنما العبرة بالأحوال الصافية ولو قلّت، صاحب الأحوال الصافية موصول، وصاحب الأحوال الظلمانية مقطوع، مالم يتب عنها، قال بعض الحكماء: (كما لا يصح دفن الزرع في أرض ردية، لا يجوز الخمول بحال غير مرضية).

والمراد بالأحوال الصافية: هي التي توافق مراسم الشريعة؛ بحيث لا يكون عليها من الشارع اعتراض، بأن تكون مباحة في أصل الشريعة، ولو أخلت بالمروءة عند العوام، إذ المروءة إنما هي التقوى عند الخواص، والمراد بالأحوال، كل مايثقل على النفس وتموت به سريعاً، كالمشي بالحفا وتعرية الرأس، والأكل في السوق، والسؤال، وغير ذلك من خرق عوائدها، التي هي شرط في حصول خصوصيتها، وفي الحِكم: «كيف تخرق لك العوائد؟ وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». وبالله التوفيق

ومن جملة الأحوال الرديئة: كثرة الخوض فيما لا يعني، التي أشار إليه بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ ﴾

قلت: الجملة الشرطية صفة لأشياء، وأشياء اسم جمع لشيء، أصله عند سيبويه: شيئاءُ، مثل فَعْلاء، قلبت إلى لفْعاء، أي: قلبت لامه إلى فائه، لثقل اجتماع الهمزتين، وقال أبو حاتم: أشياء وزنها أفعال، وهو جمع شيء، وترك الصرف فيه سماع، وقال الكسائي: لم ينصرف أشياء، لشبه آخره بآخر حمراء، انظر ابن عطية. وجملة (عفا الله عنها): صفة أخرى لأشياء، أي: عن أشياء عفا الله عنها، ولم يكلف بها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ ليس لكم فيها نفع، ﴿إن تُبد لكم تسؤكم﴾ أي: إن تظهر لكم وتجابوا عنها تسؤكم؛ بالأخبار بما لا يعجبكم وبما يشق عليكم، قيل: سبب نزول الآية: كثرة سؤال الناس له ﷺ من الأعراب والمنافقين والجهال، فكان الرجل يقول للنبي ـ عليه الصلاة السلام ـ؟ أين ناقتي؟ وآخر يقول: ماذا ألقى في سفري؟ ونحو هذا من التعنيت، حتى صعد المنبر ﷺ مغضبًا، فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أخبرتكم به». فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال: في النار، وقام عبد الله بن حذافة ـ وكان يطعن في نسبه فقال: منْ أبي؟ فقال: «أبوك حذافة»، وقال آخر: من أبي؟ قال: «أبوك سالم مولى شيبة»، فقام عمر بن الخطاب، فجثا على ركبتيه، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيًا نعوذ بالله من الفتن. فنزلت هذه الآية[1].

---

(١) أخرج بعضه البخاري في: (مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال) عن أنس، وأخرجه مختصراً في (التفسير ـ سورة المائدة) عن ابن عباس، وانظر فتح الباري (ح ٢٦٢١) والفتح السماوي (٢ / ٥٩٤ ـ ٥٩٥)

وقيل: سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقالوا: يارسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فأعادوا، فقال: لا، لو قُلْتُ: نَعَمْ، لوجبَتْ، ولَو وَجَبَتْ لَمْ تُطيقوه، ولَو تَرَكْتُموه لهلكتم، فاتْرُكُوني مَاتَرَكْتُكُم»(١)، قال أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وعفا ـ من غير نسيان ـ عن أشياء، فلا تبحثوا عنها .

ثم قال تعالى: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن﴾ أي زمنه ﴿تُبد لكم﴾ أي: تظهر لكم، وفيه معنى الوعيد على السؤال، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم أبدى لكم ما يسوءكم. والمراد بحين ينزل القرآن: زمان الوحي. فلا تسألوا عن أشياء قد ﴿عفا الله عنها﴾ ولم يكلف بها أو عفا الله عما سلف من سؤالكم، فلا تعودوا إلى مثلها، ﴿والله غفور حليم﴾ لا يعاجلكم بعقوبة مافرط منكم ويعفو عن كثير. ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كفرين﴾ ؛ حيث لم يأتمروا بما سألوا، وجحدوا، وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء؛ فإذا أُمروا بها تركوها، فهلكوا. فالكفر هنا عبارة عن ترك ما أُمروا به. وقال الطبري: كقوم صالح في سؤالهم الناقة، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة. زاد الثعلبي: وكقريش في سؤالهم أن يجعل الله الصفا ذهبًا. هـ. وكسؤالهم انشقاق القمر، وغير ذلك من تعنتاتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مذهب الصوفية مبني على السكوت والتسليم والصدق والتصديق، مجلسهم مجلس حلم وعلم وسكينة ووقار، إن تكلم كبيرهم أنصتوا ، كأن على رءوسهم الطير، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولذلك قالوا: من قال لشيخه: (لِمَ) لم يفلح أبداً. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إذا جلست مع الكبراء فدع ما تعلم ومالا تعلم؛ لتفوز بالسر المكنون. هـ.

وفي الحديث عنه ﷺ: «إنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنْ قِيلَ وقَالَ، وكَثْرة السُّؤالِ، وإضاعَةَ المَالِ»(٢) . وقال الورتجبي: في الآية تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم في البداية عن حالات المشايخ. هـ. قلت : وعلة النهي: لعله يطلع؛ بكثرة البحث عن حالهم، على أمور توجب له نفرة أو غضا من مرتبتهم قبل تربية يقينه، فالصواب: السكوت عن أحوالهم، واعتقاد الكمال فيهم، وكذلك يجب عليه ترك السؤال عن أحوال الناس، والغيبة عما هم فيه؛ شغلاً بما هو متوجه إليه، والاضاع وقته، وتشتت قلبه، ولله در القائل:

وَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَادُمْتُ حَيًّا ... أَسَارَ الجَيْشُ أَمْ رَكِبَ الأَمِيرُ؟

والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢ / ٥٠٨ ومسلم في (الحج، باب فرض الحج في العمر) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر) ومسلم في (الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة..) عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومن جملة ما وقع السؤال عنه : البحيرة وما معها، فأجابهم الحق - تعالى - بقوله:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت : البحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، من بَحَرَ، إذا شق، وذلك أن الناقة كانت إذا ولدت عندهم في الجاهلية عشرة أبطن، شقوا أذنها، وتركوها ترعى، ولا ينتفع بها، وأما السائبة فكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري، أو برئت من مرضي، فناقتي سائبة، فإذا قدم أو برئ سيّبها لآلهتهم، فلا تُحلب، ولا تُركب، ولا تمنع من شجر، وقد يُسيِّبون غير الناقة، فإذا سيّبوا العبد فلا يكون عليه ولاء لأحد، وإن قال ذلك، اليوم، فحمله على العتق، وولاؤه للمسلمين، وفعل ذلك - اليوم - في الحيوان حرام، كما يفعله جهلة النساء في الديك الأبيض؛ يحرر حتى يموت، فإذا فعل ذلك ذبح وأكل.

وأما الوصيلة: فكانوا إذا ولدت الناقة ذكراً وأنثى متصلين، قالوا : وصلت الناقة أخاها، فلم يذبحوها، وأما الحام: فكانوا إذا نتج من الجمل عشرة أبطن، قالوا : قد حَمى ظهره، فلا يُركب ولا يُحمل عليه.

يقول الحق جل جلاله في إبطال هذه الأشياء: ﴿ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحام﴾ أي: ما شرع الله شيئًا من ذلك، ولا أمر به، **﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾** بتحريم ذلك، ونسبته إليه، **﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾**، أي: جُلهم لا عقل لهم؛ بل هم مقلدون غيرهم في تحريم ذلك، وتقليد الآباء والرؤساء في تحريم ما أحل الله - تعالى - شرك؛ لأنهم نزَّلوا غير الله منزلته في التحريم والتحليل، وهو كفر، **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول﴾** من الحلال والحرام، **﴿قالوا حسبنا﴾** أي: يكفينا **﴿ماوجدنا عليه آباءنا﴾**، وهذا بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد، قال تعالى : أيتبعونهم **﴿ولوكان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾** سبيلاً.

قال البيضاوي: الواو للحال، والهمزة دخلت عليها؛ لإنكار الفعل على هذه الحال، أي: أحَسْبُهم ماوجدوا عليه أباءهم ولو كانوا جهلة ضالين ؟ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصح لمن عَلِم أنه عالم مهتد، وذلك لا يعرف إلا بالحجة، فلا يكفي التقليد . هـ.

الإشارة: قد نفى الله تعالى الخصوصية عن أربعة أنفس من أنفس المدعين، منها: نفس دخلت بحر الحقيقة بالعلم، وتبحرت في علمها دون الحال والذوق، وأهملت مراسم الشريعة حتى سقطت هيبتها من قلبها، فانسل منها الإيمان والإسلام انسلال الشعرة من العجين. ومنها نفس سائبة أهملت المجاهدة وانسابت في الغفلة، وأخذت

الولاية بالوراثة من أسلافها، دعوى، أو ظهرت عليها خوارق، استدارجاً، مع إصرارها على كبائر العيوب، ومنها: نفس وصلت إلى الأولياء وصحبتهم، وخرجت عنهم قبل كمال التربية، وتصدرت للشيخوخة قبل إبانها، ومنها: نفس حمت ظهرها من التجريد، ووفرت جاهها مع العبيد، وادعت كمال التوحيد وأسرار التفريد، لمجرد مطالعة الأوراق، من غير صحبة أهل الأذواق، وهؤلاء بعداء من حيث يظنون القرب، مردودون من حيث يظنون القبول، والعياذ بالله من الدعوى وغلبة الهوى، فإذا قيل لهؤلاء: تعالوا إلى من يعرفكم بربكم، ويخرجكم من سجن نفوسكم، قالوا : نتبع ماوجدنا عليه أسلافنا، فيقال لهم: أتتبعونهم ولو كانوا جاهلين بالله؟

ثم نهى الله تعالى أهل التحقيق عن التعرض لمثل هؤلاء بعد نصحهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت : (عليكم) : اسم فعل، وفاعله مستتر فيه وجوباً، و(أنفسكم) : مفعول به على حذف مضاف؛ أي: الزموا شأن أنفسكم. قاله الأزهري.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ : احفظوها والزموا صلاحها، ﴿لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ أنتم، أي: لا يضركم ضلال غيركم إذا كنتم مهتدين؛ ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته، قال ﷺ: «من رأى مِنكُم مُنكَراً، واستَطاعَ أن يُغيِّره بيَدِه، فَلْيُغيِّر، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبِلسانِه، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبقَلْبِه» . والآية نزلت حيث كان المؤمنون يحرصون على الكفرة، ويتمنون إيمانهم، وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، فلاموه، فنزلت.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾؟ فقال: « ائتمِرُوا بالمَعرُوف، وانهوا عن المُنكَر، فإذا رأيتَ دُنْيا مُؤثَرة، وشُحاً مُطاعاً، وإعْجابَ كُلِّ ذِي رأيٍ برأيِه، فَعَلَيكَ بخويصة نَفْسِك، وَذَرعوامَهم؛ فإنَّ وَرَاءكُمْ أياماً، العاملُ فيها كأجْرِ خَمْسِينَ مِنكُم»[1] .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية على أنه لا يلزم معها أمر ولا نهي، فصعد المنبر، فقال: (ياأيها الناس: لاتغتروا بقول الله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ فيقول أحدكم: عليَّ نفسي، والله لتأمُرن بالمعروف، ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فليسومنكم سوء العذاب) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ماقُبِلَ منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم) .

---

(١) أخرجه الترمذي في: (التفسير، باب: ومن سورة المائدة) وابن ماجه في (الفتن، باب قوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ وأبو داود في (الملاحم باب الأمر والنهي) وصححه الحاكم في المستدرك ٤ / ٣٢٢ ووافقه الذهبي.

قال ابن عطية: وجملة ما عليه أهل العلم في هذا: أن الأمر بالمعروف متعين متى رجي القبول، أو رجي رد المظالم، ولو بعنف، مالم يخف الآمِر ضرراً يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم، حُكْم واجب أن يوقف عنده . هـ .

ثم هدد من لم ينته، فقال: ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفيه تنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره، وتسلية عن أمور الدنيا؛ مكروهها ومحبوبها، بذكر الحشر ومابعده، وعن بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيئني الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبور . هـ .

الإشارة: في الآية إغراء وتحضيض على الاعتناء بإصلاح النفوس وتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ عليكم بإصلاح أنفسكم أولاً، فإذا صلحت فأصلحوا غيركم، فعلى العبد أن يشتغل بشأن نفسه ولا يلتفت إلى غيره، حتى إذا كمل تطهيرها، وفرغ من تأديبها، فإن أمره الحق ـ جل جلاله ـ بإصلاح غيره على لسان شيخ كامل، أو هاتف حقيقي، فليتقدم لذلك، فإنه حينئذ محمول محفوظ مأذون، وإلا فعليه بخاصة نفسه، كما تقدم . والله ـ تعالى ـ أعلم .

ولما جرى ذكر المرجع ومابعده، ولا يكون إلا بالموت، ناسب أن يذكر الوصية، التي من شأنها أن تكون عندها، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قلت: (شهادة): مبتدأ، وخبره: (اثنان)، أي: مقيم شهادة بينكم اثنان، أو حذف الخبر، أي: فيما أمرتكم شهادة بينكم، و(اثنان) على هذا : فاعل شهادة، و(إذا) : ظرف لشهادة، و(حين الوصية) : بدل منه، ويجوز أن يكون (إذا) : شرطية حذف جوابها، أي: إذا حضر الموت فينبغي أن يشهد حين الوصية اثنان، و(ذوا عدل) : صفة

لاثنان، أو (آخران): عطف على (اثنان)، (إن أنتم): شرط حذف جوابه، دل عليه ماتقدم، أي: إن سافرتم، فأصابتكم مصيبة الموت في السفر، فشهادة بينكم اثنان.

و(تحبسونهما): قال أبو علي الفارسي: هو صفة لآخران، واعترض بين الصفة والموصوف قوله: (إن أنتم) إلى قوله: (الموت)، ليفيدا العدء لأن (آخران) من غير الملة، إنما يجوز لضرورة الضرب في الأرض وحلول الموت في السفر. وقال الزمخشري: هو استئناف كلام، (إن ارتبتم): شرطية، وجوابها محذوف، دلّ عليه (يقسمان)، و(لا نشترى) هو المقسم عليه، وجملة الشرط معترضة بين القسم والمقسم عليه، والتقدير: إن ارتبتم في صدقهما فأقسما بالله لانشترى به، أي: بالقسم، ثمناً قليلاً من الدنيا، و(الأوليان): خبر، فيمن قرأ بالبناء للمفعول، أو فاعل، فيمن قرأ بالبناء للفاعل، ومن قرأ (الأولين) ـ تثنية أول ـ فبدل من الذين، أو صفة له. قال مكى: (هذه الآية أشكل آية في القرآن؛ إعراباً ومعنى).

وسبب نزولها: أن تميماً الدّاريّ وعَديّ بن بداء ـ وكانا أخوين ـ، خرجا إلى الشام للتجارة ـ وهما حينئذ نَصْرانيّان ـ ومعهما بُدَيْلٌ مولَى عمْرو بن العاص، وكان مسلماً، فلمّا قَدِما الشام مَرِض بُدْيلٌ، فدون مامعَه في صَحِيفةٍ، وطرحها في متَاعه، وشدّ عليها، ولم يُخبرْهُما بها، وأوْصَى إليهما بأنْ يَدْفَعا متَاعَه إلى أهْلِه، ومات، ففتّشاه، وأخذا منه إنَاءً من فضّة، قيمته: ثلاثمائة مثقالٍ، منقوشاً بالذهب، فجَنباه ودفَعا المتَاع إلى أهْلِه، فأصابُوا الصَّحِيفَةَ، فطالَبُوهُمَا بالإنَاء، فجحَدَا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ إلى قوله: ﴿من الآثمين﴾ فحلّفهما رسول الله ﷺ، بعد صلاة العصر، عند المنبر، وخلا سبيلهما، ثم عثر بعد مدة على الإناء بمكة، فقيل لمن وجد عنده: من أين لك هذا؟ قال: اشتريته من تميم الدارى وعدىّ بن بداء، فرفع بنو سهم الأمر إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما﴾، فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وَداعة السهْميان، فحلفا واستحقا الإناء[1].

ومعنى الآية: يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، مما تأمركم به: أن تقع ﴿شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾، وأراد الوصية فيحضر عدلان منكم، فإن كنتم في سفر وتعذر العدلان منكم، فليشهد ﴿آخران من غيركم﴾ ممن ليس على دينكم، ثم إن وقع ارتياب في شهادتهما، ﴿تحبسونهما﴾ بعد صلاة العصر ﴿فيقسمان بالله﴾ ماكتمنا، ولا خُنّا، ولانشترى بالقسم أو بالله عرضاً قليلاً من الدنيا، ولو كان المحلوف له قريبا منا، ﴿ولانكتم شهادة الله﴾ ﴿إنا إذا﴾، إن كتمنا، ﴿لمن الآثمين﴾.

(١) أخرجه الترمذي في: (التفسير، سورة المائدة) عن ابن عباس عن تميم الداري، وقال الترمذي: ليس إسناده بصحيحه. وأخرجه مختصراً البخاري في (الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾) عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء. وذكره مختصراً.

فإذا حلفا خلى سبيلهما، ﴿فإن عُثر﴾ بعد ذلك ﴿على﴾ كذبهما و﴿أنهما استحقا إثمًا﴾ بسبب كذبهما، ﴿فآخران﴾ من رهط الميت ﴿يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم﴾ المال المسروق، اللذان هم ﴿الأوليان﴾ أي: الأحقان بالشهادة، ﴿فيُقسمان بالله﴾ فيقولان: والله ﴿لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾، وأصدق، وأولى بأن تقبل، ﴿وما اعتدينا﴾: وما تجاوزنا فيها الحق، ﴿إنا إذًا لمن الظالمين﴾، فإن حلفا غرم الشاهدان ما ظهر عليهما، وتحليف الشهود منسوخ، وهذا الحكم خاص بهذه القضية.

قال البيضاوي: الحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين، فإنه لا يحلف الشاهد، ولا تُعارِضُ يمينه يمينَ الوارث، وثابت إن كانا وصيين. هـ. وكذا شهادة غير أهل الملة منسوخة أيضاً، واعتبار صلاة العصر للتغليظ، وتخصيص الحلف في الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة. قاله السيوطي.

قال تعالى: ﴿ذلك﴾ أي: تحليف الشهود، ﴿أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة فيها، ﴿أو يخافوا أن ترد أيْمَانٌ بعد أيمانهم﴾ أي: أو أقرب لأن يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة، وإنما جمع الضمير، لأنه حكم يعم الشهودَ كلهم، ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ ماتُوصون به، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوما فاسقين، ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ أي: لايهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة.

الإشارة: أمر الحق ـ جل جلاله ـ في الآية المتقدمة، بالاعتناء بشأن الأنفس، بتزكيتها وتحليتها؛ وأمر في هذه الآية بالاعتناء بشأن الأموال؛ بحفظها، والأمر بالإيصاء عليها ودفعها لمستحقها؛ إذ كلاهما يقربان إلى رضوان الله، ويوصلان إلى حضرته، وقد كان في الصحابة من قربه ماله، وفيهم من قربه فقره، وكذلك الأولياء، منهم من نال الولاية من جهة المال أنفقه على شيخه فوصله من حينه، ومنهم من نال من جهة فقره أنفق نفسه في خدمة شيخه، وقد روى أن سيدى يوسف الفاسي أنفق على شيخه قناطير من المال، قيل: أربعين، وقيل: أقل. والله تعالى أعلم.

ولما أمرهم بالتقوى، ذكر اليوم الذى تجنى فيه ثمراتها، فقال:

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قلت: (يوم): بدل من (الله)، بدل اشتمال، أى: اتقوا يوم الجمع، أو ظرف لاذْكر، و(ماذا): منصوبٌ على المصدر، أى: أيَّ إجابة أُجبتم.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ والأمم يوم القيامة ﴿فيقول﴾ للرسل: ﴿ماذا أجبتم﴾؟ أى: ما الذى أجابكم به قومكم، هل هو كفر أو إيمان، طاعة أو عصيان؟ والمراد بهذا السؤال توبيخ من

كفر من الأمم، وإقامة الحجة عليهم، فيقولون له في الجواب: ﴿لاعلم لنا﴾ مع علمك، تأدبوا فوكلوا العلم إليه، أو علمنا ساقط في جنب علمك؛ ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾؛ لأن من علم الخفيات لاتخفى عليه الظواهر والبواطن، وقرئ بنصب علام، على أن الكلام قد تم بقوله: ﴿إنك أنت﴾ أي: إنك الموصوف بصفاتك المعروفة، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.

الإشارة: من حجة الله على عباده، أن بعث في كل أمه نذيراً يدعو إلى الله، إما عارفاً يعرف بالله، أو عالماً يعلم أحكام الله، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم: ماذا أجيبوا، وهل قوبلوا بالتصديق والإقرار، أو قوبلوا بالتكذيب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء، وعلى الخواص بالعارفين الكُبراء، أهل التربية النبوية، فلا ينجو من العتاب إلا من ارتفع عنه الحجاب، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صحبهم وأحبهم وملك نفسه إليهم. والله تعالى أعلم.

ثم خص عيسى عليه السلام بتذكير النعم يوم الجمع توطئة لتوبيخ من عبده من دون الله، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: (إذ): بدل من (يوم يجمع)، أو باذكر، وجملة (تكلم): حال من مفعول (أيدتك).

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ﴾ يقول الله ـ جل وعز ـ يوم القيامة: ﴿ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك﴾ بالنبوة والرسالة، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية، وذلك حين ﴿أيدتك﴾ أي: قويتك ﴿بروح القدس﴾، وهو جبريل عليه السلام كان لا يفارقك في سفر ولا حضر، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح، الحياة الأبدية. كنت ﴿تكلم الناس في المهد﴾ أي: كائناً في المهد ﴿وكهلا﴾ أي: تكلم في الطفولة والكهولة بكلام يكون سبباً في حياة القلوب، وبه استدل أنه ينزل، لأنه رفع قبل أن يكتهل، ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ علمتك الكتاب﴾ أي: الكتابة

﴿والحكمة﴾: النبوة ﴿والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى، وإذ تخرج الموتى بإذنى﴾ وتقدم تفسيرها فى آل عمران.

وكرر ﴿بإذنى﴾ مع كل معجزة؛ إبطالاً لدعوى الربوبية فيه، إذ قد عزله عن قدرته ومشيئته مع كل معجزة. قال ابن جزى: الضمير المؤنث ـ يعنى فى «فيها» ـ يعود على الكاف، لأنها صفة الهيئة، وكذلك المذكور فى آل عمران. ﴿فأنفخ فيه﴾ يعود على الكاف؛ لأنها بمعنى مثل، وإن شئت قلت: هو فى الموضعين يعود على الموصوف المحذوف الذى وصف به كهيئة، فتقديره فى التأنيث: صورة، وفى التذكير: شخصاً، أو خلقاً وشبه ذلك. هـ.

﴿و﴾ اذكر أيضا ﴿إذ كففت بنى إسرائيل عنك﴾ حين هموا بقتلك، ﴿إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ أى: ما هذا الذى جئتنا به إلا سحرا، أو: قالوا فى شأنك حين جئتهم: ما هذا إلا ساحر مبين، ﴿و﴾ اذكر أيضاً ﴿إذ أوحيت إلى الحواريين﴾ أى: ألهمتهم، أوأمرتهم بأن ﴿آمنوا بى وبرسولى﴾ عيسى، فامتثلوا، ﴿وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أى: منقادون ومخلصون.

الإشارة: قال الورتجبى: من تمام نعمة الله ـ تعالى ـ عليه صيرورة جسمه بنعت روحه فى المهد على شبابه بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله، وربوبيته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرّف عباد الله تنزيه الله وقدس صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تُكلم الناس فى المهد وكهلا﴾، وزاد فى وصفه بقوله: ﴿وإذ علمتك الكتاب﴾، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم. هـ. فانظره، مع ماورد فى التاريخ أنه كان يذهب مع الصبيان للمكتب.

ثم ذكر معجزة المائدة، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

قلت: (ياعيسى ابن مريم): ابن هنا بدل، ولذلك كتب بالألف، و(أن ينزل): مفعول (يستطيع)، ومن قرأ بالخطاب، فمفعول بالمصدر المقدر، أي: سؤال ربك إنزال مائدة، و(لأولنا وآخرنا): بدل كل، من ضمير (لنا)، لإفادته الإحاطة والشمول كالتوكيد، و(ذلك): شرط إبدال الظاهر من ضمير الحاضر، وأعيدت اللام مع البدل للفصل، وضمير (لا أعذبه): نائب عن المصدر، أي: لا أعذب ذلك التعذيب أحدا.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ أي: هل يطيعك ربك في هذا الأمر، أم لا؟ فالاستفهام عن الإسعاف في القدرة، فهو كقول بعض الصحابة لعبد الله بن زيد: هل تستطيع أن ترينا كيف كان يتوضأ رسول الله ﷺ؟ مع جزمهم بأن عبد الله كان قادراً على تعليمهم الوضوء. فالحواريون جازمون بأن الله ـ تعالى ـ قادر على إنزال المائدة، لكنهم شكوا في إسعافه على ذلك.

قال ابن عباس: كان الحواريون أعلم بالله من أن يشكوا أن الله تعالى يقدر على ذلك، وإنما معناه، هل يستطيع لك؛ أي: هل يطيعك، ومثله عن عائشة، وقد أثنى الله ـ تعالى ـ على الحواريين، في مواضع من كتابه، فدل أنهم مؤمنون كاملون في الإيمان.

قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿اتقوا الله﴾ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، فإنّ كمال الإيمان يوجب الحياء من طلب المعجزة، ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ أكلاً نتشرف به بين الناس، وليس مرادهم شهوة البطن، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، أي: نعاين الآية ضرورة ومشاهدة، فلا تعرض لنا الشكوك التي في الاستدلال، ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ علما ضروريا لا يختلجه وهم ولاشك، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي: نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس، أو من الشاهدين للعين، دون السامعين للخبر، وليس الخبر كالعيان، والحاصل: أنهم أرادوا الترقي إلى عين اليقين، دون الاكتفاء بعلم اليقين.

﴿قال عيسى ابن مريم﴾ مسعفاً لهم لما رأى لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، رُوي أنه لبس جُبَّةَ شعر، ورداء شعر، وقام يصلي ويدعو ويبكي، وقال: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي: لمتقدمنا ومتأخرنا، يعود علينا وقت نزولها كل عام بالفرح والسرور، فنتخذه عيداً نحن ومن يأتي بعدنا، ﴿و﴾ يكون نزولها ﴿آية منك﴾ على كمال قدرتك وصحة نبوتي، ﴿وارزقنا﴾ المائدة والشكر عليها، ﴿وأنت خير الرازقين﴾ أي: خير من يرزق؛ لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض، ونسبة الرزق إلى غيره مجاز.﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾ كما طلبتم، ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ أي: من عالمي زمانهم، أو مطلقا.

قال ابن عمر: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة: من كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، والمنافقون.) رُوِى أنها نزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها مثْلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية، تسيل دسماً وعند ذنبها خل، وحولها من أنواع البقول ماخلا الكراث، وخمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. قال شمعون: ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكنه اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتم، واشكروا الله يمددكم ويزدكم من فضله، فقالوا: ياروح الله، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: ياسمكة؛ احيَى بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي، فعادت كما كانت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً، غبّاً[1]، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار، يأكلون، فإذا فرغوا، طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره، ولا مريض إلا برئ ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله إلى عيسى: أن اجعل مائدتى في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون. وقيل: لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة، استغفروا وقالوا: لانريد، فلم تنزل. قلت: المشهور أنها نزلت، ويحكى أن أرجلها باقية بجزيرة الأندلس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في سؤال الحواريين لسيدنا عيسى عليه السلام قلة أدب من وجهين: أحدهما: خطابه بقوله: (ياعيسى ابن مريم)؛ وقد كانت هذه الأمة المحمدية تخاطب رسول الله ﷺ يارسول الله، يانبى الله، لكمال أدبها، ولذلك شرفت وعظم قدرها، فالأدب عند الصوفية ركن عظيم، بل هو روح التصوف وقطب دائرته، قال بعضهم: (اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً)، والكلام فيه عندهم طويل شهير.

والوجه الثاني: ما في قولهم: (هل يستطيع ربك) من بشاعة التعبير، وسوء اللفظ، حتى اتهموا بالكفر من أجله. وقد تقدم تأويله، وأما سؤالهم المائدة، فقال بعض الصوفية: هي عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هي قوت الأرواح السماوية، فقوت الأشباح الأرضية مايخرج من الأرض من الأقوات الحسية، وقوت الأرواح السماوية ماينزل من السماء من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، ينزل على قلوب العارفين، ثم يبرز منها إلى قلوب عائلة المستمعين، ولما طلبوها قبل إبانها وقبل الاستعداد لها، قال لهم: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، فلما ألحوا في

---

(١) أي: يوماً بعد يوم، ليكون أشهى وأحب ـ أنظر حاشية الشهاب ٣ / ٣٠٢ .

السؤال، بيَّن الحق لهم أن إنزالها سهل على قدرته، لكن فيه خطر وسوء عاقبة، لأن الحقائق قد تضر بالمريد إذا لم يكمل أدبه واستعداده، فلما بيَّنوا مرادهم من كمال الطمأنينة واليقين؛ دعا الله ـ تعالى ـ فوعدهم بالإنزال مع دوام الإيمان وكمال الإيقان، فمن كفر بها، ولم يعرف قدرها، عذب بعذاب لم يعذبه أحد من العالمين، وهو الطرد والبعد من ساحة حضرة رب العالمين. والله تعالى أعلم.

ثم وبخ من عبد عيسى من الكفرة، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ (١٢٠) ﴾

قلت: (من دون الله): صفة لإلاهين، أو صلة (اتخذوني)، و(أن اعبدوا): تفسيرية للمأمور به، أو بدل من ضمير به، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً؛ لئلا يلزم منه بقاء الموصول بلا راجع، أو عطف بيان له، أو خبر عن مضمر، أي: هو، أو مفعول به، أي: أعني، ولا يجوز إبداله من (ما)؛ لأن المصدر لا يكون مفعولاً للقول؛ لأنه مفرد، والقول لا يعمل إلا في الجمل أو ما في معناه.

(يوم ينفع)؛ من نصب جعله ظرفا لقال، أو ظرف، مستقر خبرِ (هذا) والمعنى: هذا الذي مرّ من كلام عيسى، واقع يوم ينفع، إلخ، وأجاز ابن مالك أن يكون مبنياً، قال في ألفيته:

وقَبْلَ فعلٍ معْرَبٍ أوْ مُبْتدا أعْرِبْ، ومَنْ بنَا فلَنْ يُفنَّدا[1]

ومن رفع، فخبر، وهو ظرف متصرف.

(١) أنظر الألفية، باب الإضافة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر ﴿إذ قال الله ياعيسى﴾ بعد رفعه إلى السماء، أو يقوله له يوم القيامة، وهو الصحيح، بدليل قوله: ﴿قال الله هذا﴾ إلخ، فإن اليوم الذى ﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾ هو يوم القيامة، فيقول له حينئذ: ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ يريد به توبيخ الكفار الذين عبدوه وتبكيتهم، وفيه تنبيه على أن من عبد مع الله غيره فكأنه لم يعبد الله قط، إذ لاعبرة بعبادة من أشرك معه غيره .

﴿قال﴾ عيسى عليه السلام مبرءاً نفسه من ذلك وقد أرعد من الهيبة: ﴿سبحانك﴾ أى: تنزيهاً لك من أن يكون لك شريك، ﴿مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق﴾ أى: ماينبغى لى أن أقول مالا يجوز لى أن أقوله، ﴿إن كنتُ قُلتُه فقد علمته﴾، وكَلَ العلم إلى الله لتظهر براءته؛ لأن الله علم أنه لم يقل ذلك، ﴿تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾ أى: تعلم ما أخفيته فى نفسى، كما تعلم ما أعلنته، ولا أعلم ماتخفيه من معلوماتك، سلك فى اللفظ مسلك المشاكلة، فعبّر بالنفس عن الذات. ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ لا يخفى عليك شيء من الأقوال والأفعال.

﴿ماقُلتُ لهم إلا ما أمرتنى به﴾ وهو عبادة الله وحده، فقلت لهم: ﴿اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدًا﴾ أى: رقيباً عليهم، أمنعهم أن يقولوا ذلك أو يعتقدوه. ﴿مادمتُ فيهم، فلما توفيتنى﴾ بالرفع إلى السماء، أى: توفيت أجلى من الأرض. والتوفى أخذ الشئ وافيا، فلما رفعتنى إلى السماء ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أى: المراقب لأحوالهم ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾: مطلع عليه مراقب له.

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت مالك لهم، ولا اعتراض على المالك فى ملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا العذاب، أى: لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك، ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، فلا عجز ولا استقباح، فإنك القادر والقوى على الثواب والعقاب بلاسبب، ولا تُعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن عذبت فعدل، وإن غفرت ففضل ، وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد، فلا امتناع فيه لذاته ليمتنع الترديد والتعليق بإن. قاله البيضاوى.

وقال ابن جزى : فيه سؤالان : الأول: كيف قال: ﴿إن تغفر لهم﴾ وهم كفار، والكفار لا يغفر لهم؟ فالجواب: أن المعنى تسليم الأمر إلى الله، وإنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه؛ لأن الخلق عباده، والمالك يفعل مايشاء، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار، وإنما يقتضى جوازها فى حكمة الله وعزته، وفَرّقٌ بين الجواز والوقوع، وأما على قول من قال : إن هذا الخطاب وقع لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء فلا إشكال، لأن المعنى: إن تغفر لهم بالتوبة، وكانوا حينئذ أحياء، وكل حيى مُعرض للتوبة.

السؤال الثانى : ما مناسبة قوله : ﴿العزيز الحكيم﴾ لقوله : ﴿إن تغفر لهم﴾، والأليق إن قال : فإنك أنت الغفور الرحيم؟ فالجواب: أنه لما قصد التسليم له والتعظيم، كان قوله : (فإنك أنت العزيز الحكيم) أليق، فإن الحكمة

تقتضى التسليم، والعزة تقتضى التعظيم، فإن العزيز هو الذى يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله فى المغفرة لهم أو عدمها؛ لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم؛ لئلا يكون شفيعاً لهم بطلب المغفرة، فاقتصر على التسليم والتفويض، دون الطلب، إذ لا نصيب في المغفرة للكفار. أنظر بقية كلامه.

قال التفتازاني : ذكر المغفرة، يُوهم أن الفاصلة: (الغفور الرحيم)، لكن يُعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، وهو العزيز، أي: الغالب ، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس؛ لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال الله تعالى: ﴿هذا﴾ أي: يوم القيامة ﴿يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ أي: هنا ينتفع الصادقون فى الدنيا بصدقهم، ويفتضح الكاذبون على الله بكذبهم. والمراد بالصادقين؛ أهل التوحيد، الذين نزهوا الله تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ماوعدهم به، فقال: ﴿**لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضى الله عنهم ورضوا عنه**﴾ حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية، ﴿**ذلك الفوز العظيم، لله ملك السموات والأرض ومافيهن وهو على كل شيء قدير**﴾، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى، وفساد دعواهم فى المسيح وأمه، وإنما لم يقل: ومن فيهن، تغليباً لغير العقلاء، وإنما غلبَ غير أولى العقل للإعلام بأنهم فى غاية القصور عن معنى الربوبية، وإهانة لهم وتنبيهاً على أنهم جنس واحد، فمن يعقل منهم لقصورعقله ونظره كمن لا يعقل، فيبعد استحقاقهم للألوهية التى تنبئ عن تمام الحكمة وإحاطة العلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من صدّر نفسه للشيخوخة من غير إذن ، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يلحقه العتاب يوم القيامة فيقال له : أأنت قلت للناس عظمونى من دون الله ؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق تعالى، والأدب معه فى الحضرة دون الوقوف مع الواسطة، وبذل جهده فى توصيل المريدين إلى هذا المقام، يقول: سبحانك مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إلى تمام ماقال السيد عيسى عليه السلام، فيقال له: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) . وإن كان مقصوده بالتصدر للتعظيم والأمر به، حظ نفسه، وفرّح بتربية جاهه والإقبال عليه، افتضح وأُهين بما افتضح به الكاذبـون المدعون. نسأل الله تعالى الحفظ والرعاية بمنّه وكرمه، وسيدنا محمد رسوله ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم..

* * *



مكية غير ست آيات أو ثلاث، وقال الكلبي: الأنعام كلها مكية إلاَّ آيتين نزلتا بالمدينة في فِنْحاص اليهودي، وهي: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴾[1] مع ما يرتبط بهذه الآية.

وهي مائة وخمس وستون آية، قاله البيضاوي. قال ابن عباس: (نَزَلَت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك، لهم زجل[2] يجأرون بالتسبيح). وقال كعب: (فاتحة الأنعام هي فاتحة التوراة؛ ﴿ الحمد لله... ﴾ إلى ﴿ ...يعدلون ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود؛ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3]). وقيل: خاتمتها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا... ﴾[4] إلى ﴿ ...تكبيراً ﴾. وقال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: (من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضا ربه). قاله ابن عطية.

ومناسبتها لما قبلها: الاستدلال على قدرته تعالى التي خَتم بها ماقبلها، ومضمنها: التعريف بالذات المقدسة، دلالة وعياناً، والاستدلال على وحدانيتها وما يجب لها من صفات الكمال، والرد على طوائف المشركين، وذم أحوالهم وأفعالهم، ومدح أهل التوحيد من العارفين أو المؤمنين، قال الشيخ زرّوق رحمه الله في شرح الرسالة: ماذكره الشيخ ابن أبي زيد، في عقائدِ رسالته، هو ماتضمنته سورة الأنعام. هـ. بالمعنى.

قال جل جلاله:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾

قلت: (ثم الذين كفروا): عطف على جملة الحمد؛ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ماخلقه، نعمةً على العباد، ثم الذين كفروا بربهم الذي ربّاهم بهذه النعم، يَعْدِلون به سواه من الأصنام، يقال: عدلْت فلاناً بفلان؛ جعلته نظيره. أو عطف على «خلق، وجعل»: على معنى أنه خلق وقدّر ما لا يقدر عليه غيره، ثم هم يعدلون به مالا يقدر على شيء. ومعنى (ثم): استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء في «بربهم» متعلقة بكفروا، على الأول، وبيعدلون على الثاني. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الحمد لله ﴾ أي: جميع المحامد إنما يستحقها الله، إذ مابكم من نعمة فمن الله. ﴿ الذي خلق السموات ﴾ التي تُظلُّكم، مشتملة على الأنوار التي تضيء عليكم، ومحلاً لنزول الرحمات والأمطار

---

(1) الآية ٩١ من سورة الأنعام.
(2) زجل، أي: صوت رفيع عال.
(3) الآية ١٢٣ من سورة هود.
(4) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

عليكم، ﴿ و ﴾ خلق ﴿ الأرض ﴾ التى تُقلُّكم، وفيها نبات معاشكم فى العادة، وفيها قراركم فى حياتكم وبعد مماتكم، مشتملة على بحار وأنهار، وفواكه وثمار، وبهجة أزهار ونوار، ﴿ وجعل الظلمات ﴾ التى تستركم، راحة لأبدانكم وقلوبكم، كظلمات الليل الذى هو محل السكون. ﴿ و ﴾ جعل ﴿ النور ﴾ الذى فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم. ﴿ ثم الذين كفروا ﴾ بعد هذا كله، ﴿ يعدلون ﴾ عنه إلى غيره، أو يعدلون به سواه، فيُسوّونه فى العبادة معه.

قال البيضاوى: وجمع السموات دون الأرض وهى مثلهن؛ لأن طبقاتها مختلفة بالذات، متفاوتة الآثار والحركات، وقدَّمها؛ لشرفها وعلو مكانها. ثم قال أيضاً: وجمع الظلمات؛ لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة: الضلال، وبالنور: الهُدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقديمها لتقدم الإعدام على الملَكة. ومن زعم أن الظلمة عرَض يُضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملَكة كالعمى ليس صِرْف العدم حتى لايتعلق به الجعل. هـ.

الإشارة: أثنى الحق - جل جلاله - على نفسه بإنشاء هذه العوالم، التى هى محل ظهور عظمته وجلاله وجماله وبهائه. فأنشأ سموات الأرواح، التى هى مظهر لشروق أنوار ذاته وصفاته، ومحل لظهور عظمة ربوبيته، وأنشأ أرض النفوس، التى هى مظهر لتصرف أقداره، ومحل لظهور آداب عبوديته، وتجلى بين الضدين؛ بين الظلمات والنور، ليقع الخفاء فى الظهور، كما قال بعض الشعراء:

... لقد تكاملت الأضدادُ فى كاملِ البهَا

ثم بعد هذا الظهور التام، عدل عن معرفته جُل الأنام، إلا من سبقت له العناية من الملِك العلام. وبالله التوفيق.

ثم برهن على كمال قدرته، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: (أجل): مبتدأ. و(مُسمى): صفته. و(عنده): خبر، وتخصيصه بالصفة أغنَى عن تقديم الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هو الذى خلقكم من طين ﴾ أى: ابتدأ خلقكم منه، وهو آدم، لأنه المادة الأولى، وهو أصل البشر. ﴿ ثم قضى أجلا ﴾ تنتهون فى حياتكم إليه، وهو الموت. ﴿ وأجل مسمى ﴾ مُعيَّن للبعث، لا يقبل التغيير، ولايتقدم ولا يتأخر، ﴿ عن ﴾ استأثر بعلمه، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة، وهو المقصود بالبيان، ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ أى: تشكُّون فى هذا الأجل المسمى الذى هو البعث.

و ﴿ثم﴾ : لاستبعاد امترائهم بعد ما ثبت عنه أنه خالقهم، وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن مَنْ قدر على خلق المواد وجمعها، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً. قاله البيضاوى.

الإشارة: القوالب من الطين، والأرواح من نور رب العالمين، فالطينية ظرف لنور الربوبية، الذى هو الروح؛ لأن الروح نور من أنوار القدس، وسر من أسرار الله، فمن نظَّف طينته ولطَّفها ظهرت عليها أسرار الربوبية والعلوم اللدنية، وكُشف للروح عن أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وانخنست الطينية، واستولت عليها الروح النورانية، ومن لطّخ طينته بالمعاصى وكثّفها باتباع الشهوات، انحجبت الأنوار واستترت، واستولت الطينية الظُّلمانية على الروح النُّورانية، وحجبتها عن العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بحكمته تعالى وعدله وظهور قهره. وبالله التوفيق.

ثم برهن على وحدانيته الخاصة، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (هو): مبتدأ، و(الله): خبره. و(في السموات): خبر ثان، أي: وهو الله كائن أو موجود فى السموات وفى الأرض بنوره وعلمه. قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ ﴾[1]. و(يعلم سركم وجهركم): تقرير له.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى اختص بالحمد وأبدع الكائنات كلها ـ ﴿هو الله﴾ ظاهر ﴿فى السموات وفي الأرض﴾ بنوره وقدرته وعلمه وإحاطته، فلا شريك معه ﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون﴾ من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أراد بالسر والجهر مايظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح. فالآية الأولى دليل القدرة التى ختم بها السورة، والآية الثانية دليل البعث، والآية الثالثة دليل الوَحْدة.

الإشارة: قال بعض العارفين: الحق تعالى مُنزَّه عن الأَيْن والجهة، والكيف، والمادة، والصورة، ومع ذلك لايخلو منه أين، ولا مكان، ولا كم، ولا كيف، ولاجسم، ولا جوهر، ولا عرض. لأنه للطفه سار فى كل شيء، ولنوريته ظاهر فى كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غير متقيد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده، فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق تعالى. ولابن وفا :

هُوَ الحَقُّ المُحِيطُ بِكُلِّ شيءٍ ... هُوَ الرحمنُ ذُو العَرشِ المَجِيدِ
هُوَ المَشْهُودُ في الأَشْهَادِ يَبْدُو ... فَيَخْفِيه الشُهُودُ عن الشَّهِيدِ
هُوَ العَيْنُ العِيَانُ لِكُلِّ غَيْبٍ ... هُوَ المَقْصُودُ مِنْ بَيْتِ القَصِيدِ
جَمِيعُ العَالَمِينَ لَه ظِلالٌ ... سُجُودٌ فى القَرِيبِ وفي البَعِيدِ
وهَذَا القَدْرُ في التَّحْقِيقِ كَافٍ ... فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ المَزِيدِ

---

(١) من الآية: ٣٥ من سورة النور.

ثم ذم مَنْ أعرض عن دلائل توحيده، فقال:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: (مِن) الأولى: مزيدة للاستغراق، والثانية للتبعيض .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ دالة على توحيد الله وكمال صفاته، إلا أعرَضوا عنها، أي: الكفار، أو: ماتأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على قدرة الله وصدق رسوله، أو: ما تأتيهم آية من آيات القرآن تدل على وحدانيته وكمال ذاته، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ ؛ تاركين للنظر فيها، غير ملتفتين إليها.

﴿ فقد كذبوا بالحق ﴾ وهو القرآن ﴿ لمّا جاءهم ﴾ ، وهو كالدليل لما قبله، لأنهم لمّا كذبوا بالقرآن ـ وهو أعظم الآيات ـ فكيف لا يُعرِضون عن غيره من الآيات؟ ثم هددهم بقوله: ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ﴾ أي: أخبار ﴿ ماكانوا به يستهزئون ﴾ أي: سيظهر لهم، عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، ما كانوا يستهزئون به من البعث والحساب، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه.

الإشارة: مَنْ سبق له الخُذْلان لاتنفعه الأدلة وتواتُر البرهان، ولاتزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات، ولايزيده الدعاء إلى الله والتناد، إلاَّ الإعراض عنه والبعاد، نعوذ بالله من الشقاء وسوء القضاء.

ثم أمر أهل الإنكار بالنظر والاعتبار، فقال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت: (كم): خبرية، مفعول «أهلكنا»، أي: كثيراً أهلكنا من القرون، والقَرْن؛ مدة من الزمان تهلك أشياخُها وتقوم أطفالُها، واختُلف في حدِّها، قيل: مائة، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وقيل: القرن: أهل زمان فيه نبي أو فائق في العلم، قلَّت المدةُ أو كثُرَتْ، مشتق من قرين الرجل. والمطر المِدْرار هو الغزير، وهي من أمثلة المبالغة، كمِذْكار ومِئْناث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم يروا ﴾ ببصائرهم رؤيةَ اعتبار، ﴿ كم أهلكنا من قبلهم ﴾ من أهل عصر ﴿ مكناهم في الأرض ﴾ أي: جعلناهم متمكنين فيها بالقرار والسُّكْنَى والطمأنينة فيها، أو أعطيناهم من القوة والآلات

مالمكّنوا بها من أنواع التصرف فيها؛ فقد ﴿ مكناهم مالم نمكن لكم ﴾ يا أهل مكة، فقد جعلنا لهم من السعة وطول المقام مالم نجعله لكم، أو أعطيناهم من القوة والسّعة فى المال والاستظهار على الناس بالعُدّة والعَدد وتَهَيُّؤ الأسباب مالم نجعله لكم.

﴿ وأرسلنا السماء ﴾ أى: المطر أو السحاب ﴿ عليهم مِدْرارًا ﴾ أى: مِغْزارًا على قدر المنفعة بحسب الحاجة، ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أى: أجرينا الأودية من تحت ديارهم وأراضيهم، فعاشوا فى الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، فعصوْا وطغَوا وبَطِرُوا النعمة، فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئاً. ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا ﴾ أى: أحدثنا، ﴿ من بعدهم قرنا آخرين ﴾ بدلاً منهم. والمعنى: أنه تعالى كما قدَّر أن يُهلك مَنْ تقدم مِن القُرون، بعد أن مكّنهم فى البلاد واستظهروا على العباد، كعاد وثمود، وأنشأ بعدهم آخرين عمَّر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم يامعشر الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ.

الإشارة: النظر والاعتبار يُوجب للقلب الرقّة والانكسار، وهى عبادة كبرى عند العُبّاد والزهاد، أولى العزم والاجتهاد. وفوقها: فكرة الشهود والعيان، وهى الفكرة التى تطوى وجود الأكوان، وتُغيب الأوانى بظهور المعانى، أو تريها حاملة لها قائمة بها، فالأولى فكرة تصديق وإيمان، والثانية فكرة شهود وعيان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عِنادهم، وأنهم لاتنفع فيهم المعجزة، فقال:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو نزّلنا عليك ﴾ يامحمد ﴿ كتابًا ﴾ مكتوبًا ﴿ في قرطاس ﴾ أى: رَقّ، فرأوه بأعينهم، ولمسوه بأيديهم، حتى لا يبقى فيه تزوير، لعاندوا، ولقال ﴿ الذين كفروا منهم ﴾ بعد ذلك: ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾؛ تعنتًا وعنادًا، وتخصيص اللمس؛ لأن التزوير لا يقع فيه، فلا يمكنهم أن يقولوا: ﴿إنما سُكِّرت أبصارُنا﴾، وتقييده بالأيدى لدفع التجوز، فإنه قد يتجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله: ﴿ وأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾[١].

ثم اقترحوا معجزة أخرى، ﴿ وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ﴾ يكلمنا أنه نبى، ﴿ أو يكون معه نذيرا ﴾ أو شهيدًا له بالرسالة، رُوِى أن العاص بن وائل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود هم الذين سألوا ذلك. قال تعالى:

(١) من الآية ٨ من سورة الجن.

﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ ، كما طلبوا ﴿لقُضى الأمر﴾ بهلاكهم، فإنَّ سُنَّة الله جرَتْ بذلك فيمن قبلهم؛ مهما اقترحوا آية، فظهرت ثم كفروا، عجَّل الله هلاكهم، ﴿ثم لايُنظرون﴾ أى: لا يُمهلون بعد نزولها ساعة.

وعلى تقدير لو أنزلنا عليهم الملك ـ كما اقترحوا ـ فلا يمكن أن يظهر إلا على صورة البشر ليُطيقوا رؤيته، ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ ليتمكنوا من رؤيته، كما مثَّل جبريل فى صورة دِحْيَة، فإن القوة البشرية لا تقوَى على رؤية الملائكة. وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياء، لامتلاء أسرارهم بالأنوار القدسية، فإذا ظهر على صورة البشر التبس الأمر عليهم فقالوا: إنما هو بشر لا ملَك. فهذا معنى قوله: ﴿وللبسنا عليهم مايلبسون﴾ أى: لخلطْنا عليهم مايخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم فى ذلك فعلاً مُلْبِساً يطرق لهم إلى أن يَلْبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله فى إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُوناً، فمن سبقت له العناية خلق الله فى قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها. وبالله التوفيق.

الإشارة: كرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لاتظهر إلا لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا مايقتضى البعد عنهم. وأهل الإقرار لايرون إلا ما يقتضى القرب منهم والمحبة فيهم. والله تعالى أعلم.

ثم سلَّى رسوله ـ عليه الصلاة السلام ـ فقال:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: حاق يَحِيق حَيقاً، أى: نزل وأحاط، و (منهم) : يتعلق بسخروا، و(ماكانوا) : الموصول اسمى أو حرفى .

يقول الحق جل جلاله فى تسلية رسوله ﷺ: ﴿ولقد استُهزئ برسل﴾ كثير ﴿من قبلك﴾ فصبروا على أذى قومهم حتى أهلكهم الله، ﴿فحاق﴾ أى: أحاط ﴿بالذين سَخِروا منهم ماكانوا به يستهزءون﴾ أى: نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزءون به ويستبعدونه، أو: نزل بهم وبالُ استهزائهم وهو الهلاك.

الإشارة: كل ما سُلِّيَت به الرسل تسلَّى به الأولياء، فما من ولى صدِّيق إلا ابتلاه الله بتسليط الخلق عليه؛ حتى ترحلَ رُوحه عن هذا العالم لضيقه عليها، وتتمكن من شهود عالم الملكوت، فإذا طهرت منه البقايا، وكملت فيه المزايا، ردَّه إليهم غنياً عنهم، وغائباً عنهم، جسمُه مع الخلق وقلبه مع الحق. هذه سنّة الله فى أوليائه، فكل ولىّ يتسلى بمن قبله فى إيذاء الخلق له. غير أن أولياء هذه الأمة إذا كمل مقامهم صاروا على قَدَم نبيهم، يكونون رحمة

للعباد، مَنْ آذاهم لا يُعاجَل بالعقوبة غالبًا، كما كان نبيهم رحمة للعالمين، فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». والله تعالى أعلم.

ثم جددَ الأمر بالاعتبار، فقال:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: قال الزمخشري: فإن قلت: أيُّ فرق بين قوله: (فانظروا)، وبين قوله: (ثم انظروا)؟ فالجواب: أنه جعل النظر مسببًا على السير في قوله: «فانظروا»، كأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا﴾، فمعناه: إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في الهالكين. هـ. ولم يقل: كانت؛ لأن العاقبة مُجاز تأنيثُها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿سيروا في الأرض﴾ وجُولوا في أقطارها، ﴿ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ قبلكم، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كي تعتبروا وتنزجروا عن تكذيب محمد ـ عليه الصلاة السلام ـ.

الإشارة: يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير: سيروا في الأرض، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين، كانت عاقبتهم الخذلان، وسوء الذكر بعد الموت والخسران كابن البراء وغيره من أهل التنكير. نعوذ بالله من التعرض لمقت الله.

لكن الأمر كله بيد الله، كما قال تعالى:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: جملة (ليجمعنكم): مقطوعة، جواب لقسم محذوف، وقيل: بدل من الرحمة، وهو ضعيف؛ لدخول النون الثقيلة في غير موضعها. و «إلى»: هنا، للغاية، كما تقول: جمعتُ القوم إلى داري. وقيل: بمعنى «في»، و(الذين خسروا): مبتدأ، وجملة: (فهم لا يؤمنون): خبر، و (له ما سكن): عطف على (لله)، وهو إما من السكنى فلا حذف، أو من السكون، فيكون حذف المعطوف. أي: ما سكن وتحرّك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ للمشركين يا محمد: ﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ خلقًا وملكًا وعبيدا؟.﴿قل﴾ لهم هو: ﴿لله﴾ لا لغيره، والقصد بالآية: إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك. وجاء ذلك بصيغة الاستفهام؛ لإقامة الحجة على الكفار، فسأل أولاً، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه؛ لأنّ الكفار يُوافقون على ذلك ضرورة، فثبت أن الإله الحق هوالذى له ما فى السموات والأرض، وإنما يحسُن أن يكون السائلُ مجيباً إذا علِم أن خَصمَه لا يخالفُه فى الجواب الذى يقيم به الحجة عليه.

ثم دعاهم إلى الإيمان والتوبة بتلطُف وإحسان فقال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾، ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] كما فى الآية الأخرى، والكتابةُ هنا عبارة عن القضاء السابق، وقد فسرها رسول الله ﷺ بقوله: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتاباً قَبلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرضَ فَهُوَ عِنْدَهُ» وفيه: «أَنَّ رَحْمَتي سبقَتْ غَضَبَى»[2] وفى رواية: «تَغْلِبُ غضبى»[3].

قال البيضاوى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أى: التزمها تفضلاً وإحساناً، والمراد بالرحمة: ما يعُمّ الدارين، ومن ذلك: الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده، بنصب الأدلة، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر.هـ.

ثم ذكر محل ظهور هذه الرحمة، فقال: والله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ أى: ليجمعنكم من القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيُجازى أهل التوبة والإيمان، ويعاقب أهل الشرك والكفران، ﴿لاريب﴾ فى ذلك اليوم، أو فى ذلك الجمع، فيظهر أهل الخسران من أهل الإحسان، ولذلك قال: ﴿ الذين خسروا أنفسهم﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو النظر الصحيح الموجِب للإيمان والتوحيد ﴿ فهم لا يؤمنون﴾ حتى أدركهم الموت؛ فلا خسران أعظم من ذلك. ودخلت الفاء فى الخبر؛ للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبَّب عن خسرانهم؛ فإن إبطال النظر، والانهماك فى التقليد واتباع الوهم، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر، والامتناع من الإيمان إلى الممات. فخسروا أولاً بتضييع النظر، فتسبب عنه عدم الإيمان.

ثم تمم جوابه فقال: ﴿ وله ما سكن﴾ أى: قل لهم: ما فى السموات والأرض لله، وله أيضاً ماسكن ﴿في الليل والنهار﴾ أى: ما استقر فيهما وما اشتملتا عليه، أو ماسكن فيهما وتحرك، ﴿وهو السميع﴾ لكل مسموع، ﴿ العليم﴾ بكل معلوم؛ فلا يخفى عليه شيء فى الليل والنهار، فى جميع الأقطار.

---

(١) الآية ٥٤ من السورة نفسها.
(٢) أخرجه البخارى فى (التوحيد، باب قول الله تعالى: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين») من حديث أبى هريرة.
(٣) أخرجها البخارى فى (التوحيد، باب قوله تعالى «ويحذركم الله نفسه») ومسلم فى (التوبة، باب: فى سعة رحمة الله) من حديث أبى هريرة.

الإشارة: إذا علم العبد أن الخلق كلهم في قبضة الله، وأمورهم كلها بيد الله، أحاط بهم علماً وسمعاً وبصرا، لم يبق له على أحد عتاب، ولاترتيبُ خطأ ولا صواب، إلاّ ما أمرتْ به الشريعةُ على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه، فيتلقاه بالقبول والرضى، وفي الحِكَم: «ما ترَكَ من الجهل شيئاً مَنْ أراد أن يُظهر في الوقت غيرَ ما أظهره الله فيه»، هذا شأن أهل التوحيد؛ يدورون مع رياح الأقدار حيثما دارت، غيرَ أنهم يتحلَّلون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان، وينهضون بهمتهم إلى مظانّ السعادة والغفران، ويرجون منه الجمع عليه في روح وريحان، وجنة ورضوان، بمحض فضل منه وإحسان. جعلنا الله منهم بفضله وكرمه. آمين.

ثم أقام الحجة على أهل الشرك، فقال:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) ﴾

قلت: (فاطر): نعت لله، ومعناه: خالق ومبدع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما كنتُ أعرف معنى فاطر، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرْتُها بيدى). وجملة: (وهو يطعم): حال، وقُرِئَ بعكس الأول؛ ببناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، على أن ضمير (هو) راجع لغير الله، وببنائهما للفاعل؛ على معنى يُطعِم تارة، ويمنع أخرى، كقوله: ﴿ يقبض ويبسط ﴾[1]، وجملة (إن عصيتُ): معترضة بين الفعل والمفعول، والجواب: محذوف دل عليه ما قبله، أي: إن عصيت فإنى أخاف عذاب يوم عظيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد: ﴿ أغير الله أتخذ ولياً ﴾ أى: معبوداً أواليه بالعبادة والمحبة، وأُشركه مع الله الذى أبدع السموات والأرض، ﴿ وهو ﴾ الغنى عما سواه، الصَّمَدانى، ﴿ يُطْعِمُ ﴾ عبادَه ولا ﴿ يُطْعَمُ ﴾ ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو يرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام؛ لشدة الحاجة إليه. ﴿ قُل ﴾ لهم: ﴿ إنى أُمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ ، وأنقاد بكليتى إلى هذا الإله الحقيقى، الغنى بالإطلاق، وأرفضُ كل ما سواه، ممن عمَّه الفقرُ ابتداءً ودواما. فكان عليه الصلاة والسلام هو أولَ سابق إلى الدين. ثم قيل له: ﴿ ولاتكونن من المشركين ﴾ ؛ تنفيراً لغيره من الشرك، وإلاّ فهو مبرأ منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) من الآية: ٢٤٥من سورة البقرة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالشرك وغيره ﴿عذاب يوم عظيم﴾، وهذه مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة، مستوجبون للعذاب، ﴿من يُصرف عنه﴾ ذلك العذاب، ﴿يومئذ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فقدْ رحمه﴾ أي: نجاه، وأنعم عليه، ﴿وذلك الفوز المبين﴾ أي: وذلك الصرف أو الرحمة هو الفلاح المبين.

ثم ذكر حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية، فقال: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ كمرض أو فقر، ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾؛ إذ لا يقدر على صرفه غيره، ﴿وإن يمسسك بخير﴾؛ بنعمة، كصحة وغنى ومعرفة وعلم، ﴿فهو على كل شيء قدير﴾، فهو قادر على حفظه وإدامته، ولا يقدر أحد على دفعه، كقوله تعالى: ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[1]. ﴿وهو القاهر﴾ لجميع خلقه؛ كلهم في قبضته، ﴿فوق عباده﴾ بهذه القهرية والغلبة والقدرة، ﴿وهو الحكيم﴾ في صنعه وتدبيره، ﴿الخبير﴾ بخفايا أمور عباده، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم الباطنة والظاهرة.

الإشارة: في الآية حضٌّ على محبة الحق، وولايته على الدوام، ورفض كل ما سواه ممن عمَّه الفقر من الأنام، وفيها أيضاً: حث على المسابقة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات، فكان - عليه الصلاة السلام - أول من عبد الله، وأول من توجه إلى مولاه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[2]، فلو جاز أن يتخذ ولداً، لكنت أنا أولى به، لأني أنا أول من عبده.

قال الورتجبي: ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أي: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون - حيث لم يكن غيري في الحضرة - أن أكون أول الخلق في المحبة والعشق والشوق، وأول الخلق له منقاداً بنعت محبتي له، راضياً بربوبيته، غير منازع لأمر مشيئته. وقال بعضهم: أكون أول من انقاد للحق إذا ظهر. هـ.

ولما قالت قريش للنبي ﷺ: يامحمد: لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولاصفة، فأرنا منْ شهد لك؟ أنزل الله تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ..﴾

قلت: (قل الله شهيد): يحتمل المبتدأ والخبر، أو يكون (الله) خبراً عن مضمر، أو مبتدأ حُذف خبره، وشهيد: خبر عن مضمر، أي: قل هو الله، أو الله أكبر شهادة، وهو شهيد بيني وبينكم، و(من بلغ): عطف على مفعول «أنذر»، أي: لأنذركم يا أهل مكة، وأنذر من بلغه القرآن، وحذف مفعول (بلغ).

(١) من الآية: ١٠٧ من سورة يونس.
(٢) من الآية: ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد للذين سألوك مَنْ يشهد لك بالنبوة: ﴿أيُّ شيء﴾ عندكم هو ﴿أكبر شهادة﴾ ؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: هو ﴿الله﴾ ؛ فإنه أكبر الشاهدين، وهو الذى يشهد لى بالنبوة والرسالة؛ بإقامة البراهين وإظهار المعجزات، وهو ﴿شهيد بيني وبينكم﴾، وكفى به شهيدا.

﴿وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به﴾ أى: لأخوّفكم به، إن أعرضتم عنه، وأُبشّركم به إن آمنتم به، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة؛ لأنه مصرح به فى موضع آخر، ولأن الأهم هنا هو الإنذار؛ لغلبة الكفر حينئذ، وأُنذر به أيضا كل من بلغه القرآن من الأحمر والأسود، والجن والإنس إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أَحكام القرآن تعم الموجودين وقت النزول ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلُغه، وهو نادر، قال سعيد بن جبير: (مَنْ بلَغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ).

الإشارة: فى الآية حث على الاكتفاء بعلم الله، والاستغناء به عما سواه، وعلامةُ الاكتفاء بعلم الله ثلاث: استواء المدح والذم، والرضى بالقليل والكثير، والرجوع إلى الله وحده فى السراء والضراء.

واعلم أن الحق تعالى إذا شهد لك بالخصوصية، ثم اكتفيت بشهادته فأنت من أهل الخصوصية، وإن لم تكتف بشهادته، وتطلعت إلى أن يعلم الناس بخصوصيتك، فأنت كاذب فى دعوى الخصوصية. واطلاع الحق تعالى على ثبوت خصوصيتك هو شهادته لك، فاقنع بعلم الله، ولا تلتفتْ إلى أحد سواه، لئلا ينزعَها مِنْ قلبك، حيث لم تقنع بعلم الله فيك. وبالله التوفيق.

ولمّا أتى قومٌ من الكفار إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد؛ أما تعلم أن مع الله إلهاً آخر؟ أنزل الله تعالى:

﴿... أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

قلت: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

يقول الحق جل جلاله، فى الإنكار على المشركين: ﴿أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أُخرى﴾ تستحق أن تعبد ﴿قل﴾ لهم يا محمد: أنا ﴿لا أشهدُ﴾ بما تشهدون به، ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما هو إله واحد﴾ ؛ بل أشهد ألا إله إلا هو، ﴿وإنني بريءٌ مما تُشركون﴾ به من الأصنام.

الإشارة: لم يبْرأ من الشرك الخفي والجلي إلا أهلُ الفناء؛ الذين وحدوا الله في وجوده، فلم يروا معه سواه. قال بعضُ من بلغ هذا التوحيد: (لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غيرَ معه حتى أشهده) وقال آخر: مُحَالٌ أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مُـذْ عَـرَفْتُ الإلَه لَمْ أرَ غَـيْـراً وَكَـذَا الْغَـيْـرُ عِنْدَنَـا مَـمْنُـوعُ

إلى غير ذلك من مقالاتهم الدالة على تحقيق وجدانهم. نفعنا الله بذكرهم ومحبتهم. آمين.

ولمّا قالت قريش: قد سألنا اليهود والنصارى عنك، فلم يجدوا لك عندهم ذكراً، ردّ الله عليهم، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ من اليهود والنصارى، ﴿يعرفونه﴾ أي: محمداً ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل، ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أو أشد، وإنما كتموه؛ جحداً وخوفًا على رياستهم. ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من أهل الكتاب؛ حيث كذّبوا وكتموا، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا، ﴿فهم لا يؤمنون﴾؛ لتضييعهم مايه يُكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق، فقد ظلموا أنفسهم ويخسوها.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن كتم شهادة الحق، وهي صفة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو ادّعاء الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، ﴿أو كذّب بآياته﴾؛ كالقرآن والمعجزات وسمّوها سحرًا، أي: لا أحد أظلم ممن فَعل هذا، وإنما عبَّر بـ«أو»، وهم قد جمعوا بين الأمرين؛ تنبيهاً على أن كل واحد منهما وحده بالغٌ غاية الإفراط في الظلم على النفس، ﴿إنه﴾ أي: الأمر والشأن ﴿لا يُفلح الظالمون﴾، فضلاً عمّن لا أحد أظلم منه.

الإشارة: أقبحُ الناس منزلة عند الله، من تحقق بخصوصية ولي من أولياء الله، ثم كتَمها وجَحدها؛ حسداً وعنادا، وجعل يُنكر عليه، فقد آذن بحرب من الله، فالتسليمُ عناية، والانتقاد جناية، والاستنصافُ من شأن الكرام، والتعصب من شأن اللئام. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد أهل الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: ﴿لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا﴾، من قرأ بالرفع والتأنيث: ففتنة اسمها، و(إلاَّ أن قالوا): خبرها، ومن قرأ بالنصب: فخبرٌ مقدم، والتأنيث لأجل الخبر، ومن قرأ بالتذكير والنصب، فخبر مقدم، و(إلاَّ أن قالوا): اسمها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر يامحمد ﴿يوم نحشرهم﴾ أي: المشركين، ﴿جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم﴾ أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، ﴿الذين كنتم﴾ تزعمونهم شركاء، وتودونها وتنتصرون لها، فيُحال بينهم وبينها، ويتبرأون منها، كما قال تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين﴾ أي: لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به، إلا التبرؤ منه، بعد الانتصار له والتعصب عليه، أو: لم يكن جواب اختبارهم إلا التبرؤ من الشرك، فيكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع من فَرْط الحيْرة والدَهشة.

فإن قلت: كيف يجحدون مع قوله: ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾[1] فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف الطوائف والمواطن، فيكتم قومٌ ويُقر آخرون، ويكتمون في موطن ويُقرون في موطن آخر؛ لأن يوم القيامة طويل، وقال ابن عباس لمَّا سئل عن هذا: (إنهم جحدوا، طمعاً في النجاة، فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم، فلا يكتمون حديثا).

قال تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ بنفيِ الشرك عنها بعد تحققها به ونظيره قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[2] ﴿وضل عنهم ماكانوا يفترون﴾ أي: غاب عنهم ماكانوا يعبدونه من الشركاء افتراء على الله.

الإشارة: من أحب شيئاً فهو عبد له، ويوم القيامة يتبرأ منه، ويرى وبال فتنته والاشتغال به، فينبغي لمن أراد السلامة من الفتنة، أن يُفرد محبته لله، ويتبرأ من كل ما سواه، ويفرد وجهته لله، ولا يشتغل ظاهراً ولا باطنا إلا

(١) من الآية ٤٢ من سورة النساء.
(٢) من الآية: ١٨ من سورة المجادلة.
(١) من الآية: ٤٢ من سورة يونس.

بما يقربه من الله ويبعده عما سواه وفي الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ والخَمِيصَةِ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انْتُقِشَ»[1].

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا باعتبار الكفر والعناد، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: «مَنْ»: لفظها مفرد ومعناها جمع، فيجوز في الضمير مراعاة اللفظ فيُفرد، كقوله هنا: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾، ويجوز مراعاة المعنى فيجمع، كقوله في يونس: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾[2] والأكِنَّة: الأغطية، جمع كنان، و(أن يفقهوه): مفعول له؛ أي: كراهية أن يفقهوه، و (حتى): غاية، أي: انتهى التكذيب حتى وصلوا إليك يجادلونك، والجملة بعدها: إمّا في محل جر بها ويجادلونك جواب لها، و (يقول): تبيين لها، و إما لا محل لها؛ فتكون ابتدائية. والأساطير: جمع أسطورة، أو أسطار؛ جمع سطْر، فيكون جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله: ومنَ الكفار ﴿ من يستمع إليك ﴾ حين تقرأ القرآن، والمراد: أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشَيْبَة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ، فقالوا للنضر: ماتقول؟ فقال: والذي جعلها بيتنا وبينه ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين، مثل ماجئتكم به. قال السُّهَيْلي: حيث ماورد في القرآن: «أساطير الأولين» فإنّ قائلها هو النضر بن الحارث، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلّم أخبار ملوكهم، فكان يقول: حديثي أحسنُ من حديث محمد، فنزلت فيه وفي أصحابه .

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً ﴾ أي: أغطية؛ كراهة ﴿ أن يفقهوه ﴾؛ لما سبق لهم من الشقاء، ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وقرًا ﴾ أي: ثقلاً وصممًا فلا يسمعون معانيه، ولايتدبرونها. ﴿ وإن يروا كلَّ آية ﴾ ومعجزة ﴿ لايؤمنوا بها ﴾؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، وسبقِ الشقاء لهم، فلا يزال التكذيب والشك يعظمُ فيهم ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي: حتى ينتهي بهم التكذيب إلى أن يجيئوك يجادلونك؛ ﴿ يقول الذين كفروا إنْ ﴾ أي: ما ﴿ هذا إلا أساطير ﴾ أي: أكاذيب ﴿ الأولين ﴾، فإنّ جَعْلَ أصدق الحديث خرافاتِ الأولين غايةُ التكذيب.

---

(١) إذا شيك فلا انتقش: أي: إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش.. والحديث أخرجه البخاري مطولاً في (الجهاد والسير، باب الحراسة). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الآية: ٤٢ من سورة يونس.

﴿وهم﴾ أيضا ﴿ينهون عنه﴾ أي: ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول والإيمان به، ﴿وينأون عنه﴾ أي: يبعدون عنه، فقد ضلوا وأضلوا، أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ، وينأون عنه؛ فلا يؤمنون، كأبي طالب ومن كان معه، يحمي رسول الله ﷺ وهو في مكة. وفي (ينهون) ضربٌ من ضروب التجنيس من علم البلاغة. قال تعالى: ﴿وإنْ﴾ أي: ما ﴿يُهلكون﴾ بذلك ﴿إلا أنفسهم ومايشعرون﴾ أن ضررهم لايتعداهم إلى غيرهم.

الإشارة: اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام الله والتمتع بحلاوته أربعةُ حُجُب:

الأول: حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام..

والثاني: حجاب المعاصي والذنوب، وينخرق بالتوبة والانقلاع.

والثالث: حجاب الانهماك في الحظوظ والشهوات واتباع الهوى، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة.

والرابع: حجاب الغفلة والخوض فيما لايعني، والاشتغال بالبطالة، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق، والانقطاع إلى الله بكليته، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب، تمتع بحلاوة القرآن، ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة.

ويبقى حجابان آخران، إذا خرقهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة، أولهما: حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة، والوقوف مع المقامات أو الكرامات، فإنها عند العارفين سموم قاتلة. وثانيهما: حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس، دون الوصول إلى باطنه، فيقف مع الأواني دون شهود المعاني، وقد قال الششتري:

لاَ تَنْظُرْ إلَى الأوانِي وَخُضْ بَحْرَ المَعَانِي لعلَّك تَرانِي.

وقال الغزالي: الموانع التي تحجب القلب عن الفهم أربعة: الأول: جعل الفهم مقصوراً على تحقيق الحروف؛ بإخراجها من مخارجها، فهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّل بالقراء، يصرفهم عن معاني كلام الله تعالى. الثاني: أن يكون مُقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، من غير وصول إليه ببصيرة. الثالث: أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب، وهو كالخبْء على المرآة، فيمنع جلية الحق فيه، وهو أعظم حُجب القلب، وبه حُجب الأكثرون. الرابع: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما يتأوّل عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، و أن ماوراء ذلك تفسير بالرأي منهي عنه، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة، فإن القرآن بحرٌ لا ساحل له، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة، كل على قدر سعته وصفاء قلبه..هـ. بالمعنى.

ثم هددهم بما أعد لهم يوم القيامة، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: (لو): شرطية، وجوابها محذوف: أي: لرأيت أمراً فظيعًا هائلا، وإنما حذف في مثل هذا ليكون أبلغ مايقدره السامع، و(لا نكذب) و(نكون): قُرِئ بالرفع، على الاستئناف والقطع عن التمني، ومثّله سيبويه بقولك: (دعني ولا أعود) أي: وأنا لا أعود، ويحتمل أن يكون حالاً، أي: غير مُكَذّبين، أو عطفًا على: (نُرد)، وقُرِئ بالنصب؛ على إضمار «أن» - بعد واو المعية في جواب التمني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يامحمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، حالَ الكفار ﴿إذ وقُفُوا على النار﴾ حين يعاينونها أو يطلعون عليها، أو يدخلونها، فيعرفون مقدار عذابها، لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً فظيعا؛ ﴿فقالوا﴾ حينئذ: ﴿ياليتنا نُردُّ﴾ إلى الدنيا، ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، ندموا حين لم ينفع الندم، وقد زلّت بهم القدم، قال تعالى: ﴿بل بدا لهم﴾ أي: ظهر لهم يوم القيامة في صحائفهم ﴿ماكانوا يُخفون من قبل﴾ في دار الدنيا من عيوبهم وقبائح أعمالهم، أو: بدا لهم حقيقة الإيمان وبطلان ضده، عياناً، لمّا وقفوا على التوحيد وعرفوه ضرورة، وقد كانوا في الدنيا يُخفونه ويظهرون الشرك، عياذاً بالله. قال تعالى: ﴿ولو رُدُّوا﴾ إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور، ﴿لعادوا لما نُهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصي؛ لأنهم من قبضة الشقاء، والعياذ بالله، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم من الإيمان وعدم التكذيب. وفي هذا: الإخبار بما لايكون، ولو كان كيف يكون، وهو مما انفرد الله بعلمه.

الإشارة: يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هي عليه، فإن كانت حقاً ظهرت حقيقتها وصحتها، وإن كانت باطلة، ظهر بطلانها عياناً، لكنْ لا تنفع المعرفة حينئذ، لرفْع حجاب الحكمة وظهور القدرة، فلم يبقَ غيب، وإنما المزيّة في الإيمان بالغيب، والمعرفةِ في النكْران، والشهود خلف رداء الكبرياء، بشهود المعاني خلف الأواني، فإن ظهرت المعاني فلا إيمان، وإنما يبقى العيان، لأهل العيان، والخيبة لأهل الخذلان.

قال الورتجبي: القوم لم يعرفوا حقائق الكفر في الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولاينفعهم ذلك؛ لفوتهم السير في النكرات، التي معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام في أماكنِ صدورهم، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلة عرفانهم به، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب، بإلهام الله الذي يعرف به طُرُقَ رضى الحق، وصاحبه يعلم ذلك ويسمع ويُخفيه في قلبه، لأنه أدق من الشعرة، وحركته أُخفي من دبيب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن من غلَبتْ شهواتُ نفسه عليه، لا يتبع خطاب الله بالسر، فأبدى الله لهم ماكانوا يخفونه، تعييراً لهم وحجة عليهم. انتهى.

قلت: قوله: ولايكون قلب... إلخ، حاصل كلامه: أن القلب من حيث هو لابد أن يطرقه الخصم إن حاد عن الحق، وهو المراد بهواتف الغيب، لكنه أخفى من دبيب النمل فى حق الغافلين. فإن كان القلب حياً متيقظاً تتبع ذلك الخصم؛ حتى يزيله بظهور الحق، وإن كان ميتاً بغلبة الشهوات أخفاه حتى يموت، فيبدو له ما كان يخفيه من قبل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتقادهم الفاسد، وما أداهم إليه، فقال:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا ﴾ أى: الكفار فى إنكار البعث: ﴿إن هى﴾ أى: الحياة ﴿إلا حياتنا الدنيا﴾ لاحياة بعدها، ﴿ومانحن بمبعوثين﴾، قال جل جلاله: ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم﴾، كناية عن حبسهم للسؤال والتوبيخ، أو: وقفوا على قضاء ربهم بين عباده، وعرفوه حق التعريف، قال لهم الحق جل جلاله: ﴿أليس هذا﴾ الذى كنتم تنكرونه، ﴿بالحق. قالوا بلى وربنا﴾ إنه لحق، ولكنا كنا قومًا ضالين، وهو إقرار مؤكد باليمين، لانجلاء الأمر غاية الجلاء، قال تعالى لهم: ﴿فذوقوا﴾ أى: باشروا ﴿العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أى: بسبب كفركم.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾، حيث فاتهم النعيم، واستوجبوا العذاب المقيم، والمراد بلقاء الله: البعث وما يتبعه. فاستمروا على التكذيب ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ أى: فجأة ﴿قالوا ياحسرتنا﴾ أى: ياهلكتنا ﴿على مافرطنا﴾ أى: قصّرنا ﴿فيها﴾ أى: فى الحياة الدنيا، أو فى الساعة، أى: فى شأنها والاستعداد لها، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾، كناية عن تحمل الذنوب، لأن العادة حمل الأثقال على الظهور، وقيل: إنهم يحملونها حقيقة، وقد رُوى: أن الكافر يركبه عمله، بعد أن يتمثل له فى أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله، بعد أن يتصور له فى أحسن صورة. قال تعالى فى شأن الكفار: ﴿ألا ساء مايزرون﴾ أى: بئس شيئًا يَزِرُونَه ويرتكبونه فى الدنيا وزرهم هذا ،الذى يتحملونه على ظهورهم يوم القيامة.

وسبب هذا: الركون إلى دار الغرور، ونسيان دار الخلود، ولذلك قال تعالى بإثره: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ أي: وما أعمالها إلا لعب ولهو، تُلهي الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وما مدة بقائها مع مايعقبها من الفناء إلاّ كمدة اللعب واللهو، إذ لا طائل تحته لمن لم يعمر أوقاتها بطاعة ربه، ﴿ وللدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ ؛ لدوامها وخلوص نعيمها وصفاء لذاتها، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أيّ الأمرين خير، هل دار الخراب والفناء، أو دار النعيم والبقاء، وفي قوله: ﴿ للذين يتقون ﴾ : تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين كله لعب ولهو.

الإشارة: إذا كمل نور العقل حصل لصاحبه التمييز بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، فنظر بعين اعتباره إلى الدنيا، فوجدها ذاهبة فانية، ونظر إلى الآخرة، فرآها مقبلة باقية دائمة، فصدف عن الدنيا مولياً، وأعرض عن زهرتها مدبرا، وأقبل بكليته إلى مولاه، غائباً عن كل ما سواه، فجعل الموت وما بعده نصب عينيه، وخلف الدنيا وراء ظهره أو تحت قدميه. وفي الحكم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا، وكِسْفَةُ الفناء ظاهرة عليها » وقال بعض الحكماء: (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من طين يبقى، لاختار العاقل مايبقى على مايفنى. ولاسيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفنى؛ والآخرة من ذهب يبقى). فلا يختار هذه الدار إلا من لاعقل له أصلا. وفي الحديث عنه ﷺ: «الدُّنيا دَارُ مَنْ لادَارَ لَه، ومَالُ مَنْ لامَالَ لَهُ، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاعَقْلَ لَهُ، وعَلَيها يُعَادى مَنْ لا عِلْمَ عِنْده»(١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم سلى رسول الله ﷺ على ما لقى من قومه، فقال:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: «قد» للتحقيق، «وإنه» ضمير الشأن، وقرأ نافع: «يُحزِن»، بضم الياء حيث وقع، إلا قوله: ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾(٢) والباقون: بفتح الياء، وفيه لغتان: حزن يحزُن، كنصر ينصر، وأحزن يحزِن. والأول أشهر.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٧١/١٦ من حديث السيدة عائشة ـ رضي الله عنها.
(٢) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

ومن قرأ: «يُكذِّبُونَكَ» بالتشديد؛ فمعناه: لايعتقدون كذبك، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به، ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: لا يجدونك كاذبا، يقال: أكذبت الرجل إذا وجدته كاذبا، وقيل: معناهما واحد، يقال: كذّب فلان فلانًا، وأكذبه، بمعنى واحد، وفاعل (جاءك): مضمر، أى: نبأ أو بيان، وقيل: الجار والمجرور. وجواب (فإن استطعت): محذوف، أى: فافعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أى: الكفار فى جانبك؛ من أنك شاعر أو كاهن أو مجنون أو كاذب، ﴿فإنهم لا يُكذبونك﴾ فى الحقيقة، لجزمهم بصحة نبوتك، ولكنهم يجحدون بآيات الله، حسدًا وخوفًا على زوال الشرف من يدهم. نزلت في أبى جهل، قال لرسول الله ﷺ: إِنَّا لا نُكَذِّبُكَ، ولَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ[1]. وقال الأخْنَسُ بن شَرِيْق: والله إن محمدًا لصادق، ولكنى أحسده على الشرف. ووضع (الظالمين) موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم ظلموا لجحودهم، أو جحدوا لتمرنهم على الظلم.

ثم سلاّه عن ذلك، فقال: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا﴾ أى: صبروا على تكذيبهم وأذاهم، ﴿حتي أتاهم نصرنا﴾، فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم، وفيه إيماء بوعد النصر للصابرين، ولذلك قيل: الصبر عنوان الظفر. ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ السابقة بنصر الصابرين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾[2] الآية. ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ أى: من قصصهم، وماكابدوا من قومهم حتى نصرهم الله، فتأنس بهم وانتظر نصرنا.

﴿وإن كان كَبُر﴾ أى: عظم وشق ﴿عليك إعراضهم﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به، ﴿فإنْ استطعت أن تبتغي نفقًا﴾ أى: سربًا ﴿في الأرض﴾ فتدخل فيه لتطلع لهم آية، ﴿أو سُلّما فى السماء﴾ لترتقى فيه ﴿فتأتيهم بآية﴾ حتى يعاينوها فافعل، ولكن الأمر بيدى، فإنما أنت نذير.

قال البيضاوى: المقصود: بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها ؛ رجاء إسلامهم، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أى: لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلق به مشيئته. وفيه حجة على القدرية. أو: لو شاء الله لأظهر لهم آية تلجئهم إلى الإيمان، لكن لم يفعل؛ لخروجه عن الحكمة، ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ أى: من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير، أى: دم على عدم كونك منهم، ولاتقارب حالهم بشدة التحسر هـ .

وقال فى نوادر الأصول: إن الخطاب به تربية له، وترقيةٌ من حال إلى حال، كما يربّى أهل التقريب وينقلُون من ترك الاختيار، فيما ظاهره بِرٌ وقربة. هـ. قلت: تشديد الخطاب على قدر علو المقام، كما هو معلوم

(١) أخرجه الترمذى فى: (تفسير سورة الأنعام) عن سيدنا علي ـ كرم الله وجهه.
(٢) الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢ من سورة الصافات.

من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح، وقد قال لنوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]. وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه ﷺ.

الإشارة: كل ما سُلّيتْ به الرسل تسلّى به الأولياء؛ لأنهم ورثتهم الخاصة، وكل ما أُمرت به الرسل تؤمر به الأولياء، من الصبر وعدم الحرص، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر، بل هم يزرعون حكمة التذكير في أرض القلوب، وينظرون ماينبت الله فيها، اقتداءً بما أُمر به الرسول ـ عليه الصلاة السلام، وما تخلق به، فمن أصول الطريقة: الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر علّة إعراضهم، وهو موت أرواحهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما يستجيب﴾ لك، ويجيب دعوتك إلى الإيمان، ﴿الذين يسمعون﴾ سماع تفهم وتدبر، وهو من كان قلبه حياً، وأما الكفار فهم موتى لا يسمعون ولا يفقهون، ﴿والموتى﴾، وهم الكفار الذين ماتت أرواحهم بالجهل حتى ماتوا حساً، ﴿يبعثهم الله﴾، فيظهر لهم حينئذ الحق، ويسمعون حين لا ينفع الإيمان، أو يبعثهم الله في الدنيا بالهداية، أو الموتى حقيقة حساً، يبعثهم الله للحساب، ﴿ثم إليه يُرجعون﴾ للجزاء.

الإشارة: إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا اللهُ قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترقّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله، فتهبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود.

ثم عاتبهم على اقتراح الآيات، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة هود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ ـ حين سمعوا ذكر البعث والرجوع إلى الله ـ: ﴿ لولا نُزل عليه آية من ربه ﴾ تدل على ما ادعاه من البعث والرجوع إلى الله، وعلى أنه رسول من عند الله، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ خارقة للعوائد، يرونها عياناً، وتضطرهم إلى الإيمان، ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ أن إنزالها وبالٌ عليهم؛ لأنهم إن عاينوها ولم يؤمنوا عُوجلوا بالعقاب، أو: لا يعلمون أن الله قادر على أكثر مما طلبوا؟.

وهذا الطلب قد تكرر منهم في مواضع من القرآن، وأجابهم الحق تعالى بأجوبة مختلفة، منها: ما يقتضي الرد عليهم في طلبهم الآيات؛ لأنهم قد أتاهم بآيات، وتحصيل الحاصل لاينبغي، كقوله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ ﴾[1]، ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾[2] ومنها: مايقتضي الإعراض عنهم؛ لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته. ويحتمل أن يكون منه قوله هنا: ﴿ قل إن الله قادر... ﴾ الآية.

فإن قيل: كيف طلبوا آية وهم قد رأوا آيات كثيرة، كانشقاق القمر، وإخبارهم بالغيب، وغير ذلك؟ فالجواب: أنهم لم يعتدوا بما رأوا؛ لأن سر الربوبية لا يظهر إلاّ ومعه شيء من أردية القهرية، وهم قد طلبوا آية يدركونها من غير نظر ولا تفكر، وهو خلاف الحكمة.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث وغيره، فقال: ﴿ وما من دابة ﴾ تدبُّ ﴿ في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ في الهواء، ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ ؛ مقدرة أرزاقها، محدودة آجالها، معدودة أجناسها وأصنافها، محفوظة ذواتها، معلومة أماكنها، كلها في قبضة الحق، وتحت قدرته ومشيئته، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، فيدل على قدرته على أن ينزل آية، وعلى بعثهم وحشرهم؛ لأنه عالم بما تنقص الأرض منهم، كما قال تعالى: ﴿ مافرطنا في الكتاب ﴾ أي: اللوح المحفوظ، ﴿ من شيء ﴾ ؛ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق، لم يهمل فيه أمرَ حيوان ولاجماد، ظاهراً ولا باطناً ، أو القرآن؛ فإنه قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلا ومجملا، حتى قال بعض السلف: (لو ضَاعَ لي عِقَالٌ لوجدتُه في كِتَابِ الله) أي: باعتبار العموم وأصول المسائل.

قال تعالى: ﴿ ثم إلى ربهم يُحشرون ﴾ أي: الأمم كلها، فيُنصف بعضها من بعض. كما رُوي أنه يُؤخذ للجَمَّاء من القَرْنَاء[3]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: (يُحشر الخلقُ كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغُ من عدْل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾[4]. وفي المسألة اضطراب بين العلماء، والصحيح هو حشرها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[5] وعن ابن عباس رضي الله عنه: (حشرها موتها). والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة البقرة.		(٢) من الآية ٥١ من سورة العنكبوت.
(٣) كما في حديث: «لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تحريم الظلم) من حديث أبي هريرة. والجماء: التي لا قرن لها.
(٤) من الآية ٤٠ من سورة النبأ.		(٥) الآية ٥ من سورة التكوير.

الإشارة: قد تقدم مراراً أن طلب الكرامات من الأولياء: لقلة الاعتقاد فيهم وقلة الصدق. وأكمل الكرامات: الاستقامة على التوحيد في الباطن، وتحقيق العبودية في الظاهر. وبالله التوفيق.

ثم قبّح شأن أهل التكذيب، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على كمال قدرتنا وتحقيق وحدانيتنا، أو بآياتنا المنزلة على رسولنا، هم ﴿صمٌّ﴾ لايسمعون مثل هذه الآيات ـ الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظيم قدرته ـ سماعاً تتأثر به نفوسهم، ﴿و﴾ هم أيضا ﴿بكم﴾ لاينطقون بالحق، وهم ﴿في الظلمات﴾ أي: خائضون في بحر ظلمات الكفر والجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، فوصفهم بالصمم والبَكَم والعَمَى، ويؤخذ العمى من قوله: ﴿في الظلمات﴾، وهذا كله داخل تحت مشيئته وعلمه السابق، ﴿من يشأ الله يضلله﴾ عدلاً، ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾؛ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه، فيتبع الطريق الذي لاعوج فيه.

الإشارة: أولياء الله في أرضه آية من آيات الله، فمن كذب بهم بقي في ظلمة الجهل بالله وظلمة حجاب النفس وحجاب الأكوان، محجوباً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، قلبه أصم عن تَذَكُّرِ الحقائق، ولسانه أبكم عن النطق بحكم العلم والأسرار، لم تسبق له في مشيئة الحق عناية، ولا هبّ عليه شيء من رياح الهداية، عائذاً بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء.

ثم أقام لهم البرهان على توحيده، فقال:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قال في المشارق: أرأيتك: معناه: الاستخبار والاستفهام، أي: أخبرني عن كذا، وهو بفتح التاء في المذكر والمؤنث والواحد والجمع، تقول: أرأيتك وأرأيتكما وأرأيتكم، ولم تُثَنّ ما قبل علامة المخاطب ولم تجْمَعْهُ، فإذا أردت معنى الرؤية ـ أي البصرية ـ ثَنّيْت وجمعت وأنثت، فقلت: أرأيتك قائما، وأرأيْتِكِ قائمة، وأرأيتكما وأرأيتموكم وأرأيتيكن. هـ. وقال في الإتقان: إذا دخلت الهمزة على «رأيت» امتنع أن يكون من رؤية العين والقلب، وصار المعنى: أخبرني، وهو خلاف ما قال في المشارق، فانظره وانظر الحاشية الفاسية.

قال البيضاوي: (أرأيتكم): استفهام تعجب، والكاف: حرف خطاب، أكد به الضمير للتأكيد، لكن لا محل له من الإعراب، لأنك تقول: أرأيتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت الكاف مفعولاً ـ كما قاله الكوفيون ـ لعدّيت الفعل إلى ثلاثة

مفاعيل، ولزم في الآية أن يقول: أرأيتكموكم، بل الفعل معلق، أو المفعول محذوف، وتقديره: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها إن أتاكم عذاب الله، ويدل عليه: (أغير الله تدعون). هـ. وجواب (إنْ): محذوف؛ أي: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة فمن تدعون؟ وجواب (إن كنتم): محذوف أيضا؛ أي: إنْ كنتم صادقين في أنّ غير الله ينفعكم فادعوه، ثم وصفهم بأنهم لا يدعون حينئذ إلا الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد: ﴿أرأيتكم﴾ أي: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ في الدنيا كما أتى من قبلكم، ﴿أو أتتكم الساعة﴾ وأهوالها، ﴿أغير الله تدعون﴾ وتلتجئون إليه في كشف ما نزل بكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن الأصنام آلهة، لا، ﴿بل إياه تدعون﴾ وحده، ﴿فيكشف ماتدعون إليه﴾ أي: ماتدعونه إلى كشفه، ﴿إن شاء﴾ أن يتفضل عليكم بالكشف في الدنيا، وقد لا يشاء، ﴿وتنسونَ ماتُشركون﴾ أي: وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لِما ركز في العقول من أنه قادر على كشف الضر دون غيره، أو تنسون من شدة الأمر وهوله.

الإشارة: إنما يظهر توحيد الرجال عند هجوم الأحوال، فإن رجع إلى الله وحده ولم يلتفت إلى شيء سواه، علمنا أنه من الأبطال، وإن فزع إلى شيء من السّوى، علمنا أنه من جملة الضعفاء. وعندهم من جملة أصول الطريق: الرجوع إلى الله في السراء والضراء، فإن رجع إليه أجابه فيما يريد، وفي الوقت الذي يريد، وقد لايريد على حسب إرادة المريد. والله تعالى أعلم.

ثم حضّ على الرجوع إليه في حالة الضراء، فقال:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، تخويفاً لهذه الأمة: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم﴾ مضت ﴿من قبلك﴾ رسلاً فأنذروهم، فكذبوا وكفروا ﴿فأخذناهم بالبأساء﴾ أي: الشدة، كالقحط والجوع، ﴿والضراء﴾ كالأمراض والموت والفتن، تخويفًا لهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي: يتذللون ويتوبون من ذنوبهم، فلم يفعلوا، ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي: هلاّ تذللوا حين جاءهم البأس فنرحمهم، وفيه دليل على نفع التضرع حين الشدائد، ﴿ولكن قست قلوبهم﴾

أي: صلُبتْ ولم تلن، ﴿وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون﴾ ؛ فصرَفهم عن التضرع، أي: لا مانع لهم من التضرع إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿فلما نسوا ماذكروا به﴾ أي: تركوا الاتعاظ بما ذُكروا به من البأساء والضراء، ولم يزدجروا، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من أنواع الرزق وضروب النعم، مراوحة عليهم بين نوبتَيْ الضراء والسراء، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم، لما روى أنه ﷺ قال: «مُكر بالقوم ورب الكعبة»(١). ﴿حتى إذا فرحوا﴾ أي: أعجبوا ﴿بما أوتوا﴾ من النعم، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه، ﴿أخذناهم بغتة﴾ أي: فجأة، ﴿فإذا هم مبسلون﴾ متحيرون آيسون من كل خير، ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي: قطع آخرهم، ولم يبق منهم أحد، وهي عبارة عن الاستئصال بالكلية، ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على إهلاكهم، فإن إهلاك الكفار والعصاة نعمٌ جليلة، يحق أن يحمد عليها؛ من حيث إنه خلاص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: المقصود من إظهار النقم الظاهرة؛ مايؤول الأمر إليه من النعم الباطنة، فإن الأشياء كامنة في أضدادها، النعمة في النقمة، والرخاء في الشدة، والعز في الذل، والجمال في الجلال، إن وقع الرجوع إلى الله والانكسار والتذلل. «أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم منْ أجْلي». فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة، توجب نعماً غزيرة، فإذا قست القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع، كان النازل بلاءً ونقمة وطرداً وبُعدا. فإنَّ ما ينزل بالإنسان من التعرفات منها: مايكون أدباً وكفارة، ومنها: زيادة وترقية، ومنها: ما يكون عقوبة وطرداً، فإن صحبها التيقظ والتوبة، كان أدباً مما تقدم من سوء الأدب، وإن صحبه الرضى والتسليم، ولم يقع ما يوجب الأدب، كان ترقية وزيادة، وإن غضب وسخِط كان طرداً وبُعدا. أعاذنا الله من موارد النقم.

ثم احتج عليهم بوجه آخر، فقال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(١) لم أقف عليه مرفوعاً. وذكره السيوطي في الدر موقوفاً على الحسن، وعزاه لابن أبي حاتم. لكن روى أحمد في المسند ٤/١٤٥ والطبراني في الكبير ١٧/٣٣١ وابن جرير في التفسير، من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: (إن رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج. ثم تلا رسول الله ﷺ: (فلما نسوا ما ذكروا به....) الآية والتي بعدها).

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم أيضا: ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي: أصمّكم وأعماكم، ﴿وختم على قلوبكم﴾ ؛ بأن غطى عليها بما يزول به عقلكم وفهمُكم، ﴿مَن إله غير الله يأتيكم به﴾ أي: بذلك المأخوذ. ﴿انظر كيف نُصرف الآيات﴾ أي: نكررها على جهات مختلفة، كتصريف الرياح، تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين، ﴿ثم هم يصدفون﴾ أي: يعرضون عنها ولم يلتفتوا إليها، و(ثُم) : لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

و﴿قل﴾ لهم أيضا: ﴿أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ من غير مقدمة ﴿أو جهرة﴾ بتقديمها، فالبغتة: مالم يتقدم لهم به شعور، والجهرة: ماقدمت لهم مخايله، وقيل: بغتة بالليل، وجهرة بالنهار، ﴿هل يُهلك﴾ أى: مايُهلك به هلاك سخط وتعذيب، ﴿إلا القوم الظالمون﴾ بالكفر والمعاصى.

الإشارة: إنما خلق الأسماع والأبصار، لسماع الوعظ والتذكار، ولنظرة التفكر والاعتبار، فمن صرفهما فى ذلك فقد شكر نعمتهما، ومن صرفهما فى غير ذلك فقد كفر نعمتهما، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة، وكذلك نور العقل، ماجعله الله فى العبد إلا ليعرفه به، ويعرف دلائل توحيده، ويتبصَّر به فى أمره. فإذا صرفه فى تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته، فيوشك أيضا أن يؤخذ منه.

وإذا أنعم الله عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله؛ فليكن على حذر من أخذ ذلك منه أيضا، فلا يأمن مكر الله، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد الله، يُقلبها كيف شاء، فإن أخذها لن يقدر على ردها، ولذلك كان العارف لايزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، والعذاب الذى يأتى بغتة، هو السلب بغتة، أى: فقد القلب فى مرة واحدة، والذى يأتى جهرة هو فقده شيئا فشيئا، وسبب هذا الهلاك: هو ظلم العبد لنفسه، إما بسوء أدب مع الله، أو نقض عهد الشيوخ العارفين بالله. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم رغّب فى الإيمان بالرسل، وحذّر من الكفر بهم، فقال:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومانرسل المرسلين إلا مبشرين﴾ للمؤمنين بالنعيم المقيم، ﴿ومنذرين﴾ للكفار بالعذاب الأليم، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم، ﴿فمن آمن﴾ بهم، ﴿وأصلح﴾ ما يجب إصلاحه على ماشرع لهم، ﴿فلا خوف عليهم﴾ من العذاب، ﴿ولا هم يحزنون﴾ لفوات الثواب، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا

يمسهم العذاب﴾ أي: يلحقهم، جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن توصيفه. وذلك المس ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي: بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

الإشارة: مامن زمان إلا ويبعث الله أولياء عارفين، مبشرين لمن أطاعهم واتبعهم بطلعة أنوار الحضرة على أسرارهم، ومنذرين لمن خالفهم بظهور ظلمة الكون على قلوبهم، وانطباع الأكوان في أسرارهم، فمن آمن بهم وصحبهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بدليل قوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، ومن كذب بهم وبما يظهر على أيديهم من أسرار المعارف يمسهم عذاب القطيعة، بما كانوا يفسقون، أي: بخروجهم عن طاعتهم والإذعان إليهم.

وليس من شرط الداعين إلى الله ظهور المعجزات أو الكرامات، كما قال تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد: أنا ﴿لاأقول لكم عندي خزائن الله﴾ فآتيكم منها بكل ماتقترحون عليّ من المعجزات، بل خزائن مقدوراته تعالى في علم غيبه، ليس لي منها إلا مايظهره منها بقدرته، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ حتى أخبركم بالمغيبات، بل مفاتيح الغيب عنده، لا يعلمها إلا هو، إلا ما يُوحى إليّ منها، ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ فأستغني عن الطعام والشراب، أو أقدر على ما يقدر عليه الملك، إن أنا إلا بشر أوحي إليّ أن أنذركم، فأتبع مايوحى إليّ؛ وأتبرأ من دعوى الألوهية والملكية، وأدعى النبوة التي هي من كمالات البشر.

﴿قل﴾ لهم: ﴿هل يستوي الأعمى﴾ الذي هو ضالّ جاهل، ﴿والبصير﴾ الذي هو مهتدٍ عالم، أو: هل يستوي مدعي المستحيل؛ كالألوهية والملَكية ومدّعي الحق، كالنبوة والرسالة، ﴿أفلا تفكرون﴾ فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، فتهتدوا إلى اتباع الحق وتجنب الباطل.

الإشارة: ما قالته الرسل للكفار حين اقترحوا عليهم المعجزات، تقوله الأولياء لأهل الإنكار، حين يطلبون منهم الكرامات، وتقول لهم: إن نتبع إلا ما أمرنا به ربنا وسنه لنا رسولُنا، **فمن اهتدى وتبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها.**

وقال الورتجبي ــ بعد قوله ــ: ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾: تواضع ﷺ حين أقام نفسه مقام الإنسانية، بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب الله سبحانه، خضوعاً

---

(١) الآية ٦٢ من سورة يونس.

لجبروته، وخضوعاً في أنوار ملكوته، بقوله: ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾، وليس لي اختيارٌ في نبوتي، ﴿إنْ اتبع إلا مايوحى إليَّ﴾. هل يكون من هذا وصفه، بعد كونه بصيراً بنور الله، ورأفته به، كالذي عمى عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيراً بنور القدم، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله. انتهى كلامه.

ثم أمره بالإنذار لمن ينتفع به، فقال:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: الضمير في (به): يعود على (ما يوحى)، وجملة (ليس): حال من ضمير (يُحشروا).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأنذر﴾ أي: خوِّف بما أوحى إليك، المؤمنين المقصرين في العمل؛ ﴿الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم﴾ بالبعث للحساب، حال كونهم في ذلك الوقت ﴿ليس لهم من دونه وليٌّ﴾ ينصرهم من عذابه، ﴿ولاشفيع﴾ يرده عنهم بشفاعته، ﴿لعلهم يتقون﴾ أي: كي يصيروا بإنذارك متقين، وإنما خص الإنذار هنا بالذين يخافون؛ لأنه تقدم في الكلام مايقتضي اليأس من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذر الخائفين؛ لأنه ينفعهم الإنذار، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون، أو: أُنذر من يتوقع البعث والحساب، أو يتردد فيه مؤمناً أو كافرا. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير؛ إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق، وأما من سوَّدت قلبَه الخطايا، وانطبعت في مرآته صور الأشياء، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم، والعياذ بالله.

ثم أمره بالدنو ممن ينفعه التذكير، ونهاه عن ضده، فقال:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: (فتطردهم): جواب النفي، و (فتكون): جواب النهي، أي: ولا تطرد فتكون من الظالمين، فليس عليك من حسابهم شيء فتطردهم.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حين طلب منه صناديدُ قريش أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين ليجالسوه، فَهَمَّ بذلك طمعاً في إسلامهم، فنزلت: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ أي: يعبدونه بالذكر وغيره، أو يدعونه بالتضرع والابتهال، ﴿بالغداة والعشي﴾ أي: على الدوام. وخص الوقتين بالذكر؛ لشرفهما. وفي الخبر: «يابن آدمَ، اذكرْني أول النهار وآخره، أكْفِكَ ما بينهما»(١). وقيل: صلاة الصبح والعصر، وقيل: الصلاة بمكة قبل فرض الخمس.

قال البيضاوي: بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا ـ أي: على التفسير الثاني في الآية المتقدمة ـ أمره بإكرام المتقين وتقريبهم، وألاَّ يطردَهم، ترضية لقريش، روي أنهم قالوا: لو طَرَدتَ هؤلاء الأَعْبُد ـ يَعْنُون فقراء المُسلمينَ، كعمَّار وصُهَيْب وخبَّاب وبلال وسلْمان ـ جلَسْنا إليك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين». قالوا: فأَقِمْهُمْ عنا، قال: «نعَمْ». [وروي أن عمر قال له: لَوْ فَعلْتَ حتَّى ننظر إلى مايصيرُونَ؟] قالوا: فاكتُبْ بذَلِكَ كتَاباً، فدعَا بالصَّحيفَةِ وبعَليٍّ؛ ليكْتُبَ، فنزلت(٢). هـ. وفي ذكر سلمان معهم نظر لتأخر إسلامه بالمدينة.

ثم وصفهم بالإخلاص فقال: ﴿يريدون وجهه﴾ أي: يدعونه مخلصين طالبين النظر لوجهه، وفيه تنبيه على أن الإخلاص شرط في الأعمال، ورتب النهي عليه؛ إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم، ثم علل عدم طردهم فقال: ﴿ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم﴾ أي: أنت لاتحاسب عنهم، وهم لا يحاسبون عنك، فلأي شيء تطردهم؟ وقيل: الضمير: للكفار، أي: أنت لا تحاسب عنهم، وهم لايحاسبون عنك، فلا تهتم بأمرهم، حتى تطرد هؤلاء من أجلهم، ﴿فتكون من الظالمين﴾ بطردهم، لكنه ـ عليه الصلاة السلام ـ لم يفعل، فلا ظلم يلحقه في ذلك؛ لسابق العناية والعصمة.

﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: ومثل ذلك الاختبار، وهو اختلاف أحوال الناس في أمر الدنيا، ﴿فتنا بعضهم ببعض﴾ أي: ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش؛ بالسبق إلى الإيمان ﴿ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي: أهؤلاء من أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء، وهم المساكين والضعفاء، فنحن أحق منهم به إن كان حقاً، وهذا إنكار منهم لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير، كقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا﴾(٣). واللام في «ليقولوا»: للعاقبة. قال تعالى

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن أبي هريرة.. انظر كنز العمال / ١٧٩٥.
(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه في: (الزهد، باب مجالسة الفقراء) والطبراني في الكبير (٤/٨٧ح ٩٦٩٣) والواحدي في أسباب النزول، وابن جرير في التفسير عن خباب، بدون ذكر سلمان، وكذلك بدون ذكر مشورة سيدنا عمر، وقد جاء ذكر مشورة سيدنا عمر عند ابن جرير والواحدي عن عكرمة.
(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف.

في الرد عليهم: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي: بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقهم، وبمن لا يقع منه فيخذُله. وبالله التوفيق.

الإشارة: في صحبة الفقراء خيرٌ كثير وسرٌ كبير، وخصوصاً أهل الصفاء والوفاء منهم، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

مَا لذَّةُ العَيْشِ إلاَّ صُحْبَةُ الفُقَرا ... هُم السَّلاَطِين والسَّادَاتُ والأُمَرا

فَاصْحَبْهُمُو وتأدَّبْ في مَجَالِسِهِمْ ... وخَلِّ حظَّكَ مَهْمَا خلَّفُوكَ ورَا

إلى آخر كلامه.

فلا يحصل كمال التربية والتهذيب إلا بصحبتهم، ولا تصفو المعاني إلا بمجالستهم والمذاكرة معهم، والمراد من دخل منهم بلاد المعاني، وحصَّل مقام الفناء في الذات، فالجلوس مع هؤلاء ساعة تعدل عبادة الثقلين سنين، ومن شأن شيوخ التربية: العطف على الفقراء والمساكين وتقريبهم، ولا يطردون أحداً منهم ولو عمل ما عمل، اقتداء بما أمر به نبيهم ﷺ. بل شأنهم الإقبال على من أقبل إليهم؛ عصاة كانوا أو طائعين، وإقبالهم على العصاة المذنبين أكثر، جبراً لكسرهم، وتألفاً لهم، وسوقاً لهم إلى الله بملاطفة الإحسان. وبالله التوفيق.

ولما أمره بتقريب الضعفاء من المؤمنين، أمره بإكرامهم بالسلام والبشارة بغفران الآثام، فقال:

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: من فتح (أنه)؛ جعله بدلاً من الرحمة، ومن كسره؛ فعلى الاستئناف، و(بجهالة): حال، ومن قرأ (فإنه) بالكسر؛ فالجملة: جواب الشرط، ومن فتح؛ فخبر عن مضمر، أي: فجزاؤه الغفران، أو مبتدأ؛ فالغفران جزاؤه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾؛ وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، خصهم بالإيمان بالقرآن، بعد ما وصفهم بالمواظبة على الطاعة والإحسان، فإذا أقبلوا إليك ﴿فقل﴾ لهم: ﴿سلام عليكم﴾؛ تحية مني عليكم، أو من الله أبلغه إليكم، ﴿كَتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي: حتمها عليه فضلاً منه، وهي ﴿أنه من عمل منكم سوءا﴾ أي: ذنبا ﴿بجهالة﴾ أي: بسفاهة وقلة أدب، أو جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثم تاب من بعده﴾ أي: من بعد عمل السوء ﴿وأصلح﴾ بالتدارك والندم على ألا يعود إليه، ﴿فإنه غفور﴾ لذنبه، ﴿رحيم﴾ به بقبول توبته.

قال البيضاوي: أمره أن يبدأ بالتسليم، أو يُبلغ سلام الله ويبشرهم بسعة رحمته وفضله، بعد النهي عن طردهم؛ إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتَيْ العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقرّب ولا يُطرد، ويُعز ولا يُذل، ويُبشّر من الله بالسلامة في الدنيا وبالرحمة في الآخرة، وقيل: إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فلم يردّ عليهم، فانصرفوا، فنزلت .هـ.

قال القُشَيْري: أحلّه محل الأكابر والسّادات، فإنّ السلام من شأن الجائي إلاّ في صفة الأكابر، فإنّ الجائي والآتي يسكت لهيبة المأتي، حتى يبتدئ ذلك المقصود بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتي. هـ.

الإشارة: مِنْ شأن الأكابر من الأولياء، الداعين إلى الله، إكرامُ مَنْ أتى إليهم بحُسْن اللقاء وإظهار المسّرة والبِرور، وخصوصاً أهل الانكسار فيُؤنسونهم، ويوسعون رجاءهم، ويفرحونهم بما يسمعون منهم من سعة فضل الله وكرمه.

كان الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ إذا دخل عليه أحد من أهل العصيان ـ كأرباب الدولة والمخزن ـ، قام إليهم، وفرح بهم ، وأقبل عليهم، وإذا أتى إليه أحد من العلماء أو الناسكين لم يعتنِ بشأنهم، فقيل له في ذلك، فقال: أهل العصيان يأتوننا فقراء منكسرين من أجل ذنوبهم، لا يرون لأنفسهم مرتبة، فأردت أن أجبر كسرهم، وهؤلاء أهل الطاعة يأتوننا أغنياء معتمدين على طاعتهم، فلا يحتاجون إلى ما عندنا. أو كلاما هذا معناه، ذكره في لطائف المنن. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن علّة ماتقدّم من النهي عن الطرد وغيره، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: قرئ بتاء الخطاب، ونصب السبيل؛ على أنه مفعول به، وقرئ بتاء التأنيث ورفع السبيل؛ على أنه فاعل مؤنث، وبالياء والرفع؛ على تذكير السبيل؛ لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وكذلك نُفصل الآيات﴾ أي: ومثل ذلك التفصيل الواضح نفصل الآيات، أي: نشرح آيات القرآن ونوضحها في صفة المطيعين والمجرمين، والمصرين والأوابين، ليظهر الحق، ولتستوضح يامحمد ﴿سبيل المجرمين﴾ فتعاملهم بما يحق لهم من الإبعاد إن بعُدوا، أو الإقبال إن أقبلوا. أو لتتبين طريقهم ويظهر فسادها ببيان طريق الحق.

الإشارة: سبيل المؤمنين من أهل اليمين، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية؛ بامتثال الأمر واجتناب النهي، والمبادرة إلى التوبة، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرٍّ لما وراء ذلك، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين: تصفية القلوب وتهيئها لإشراق أسرار علم الغيوب؛ بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل؛ لتتهيأ بذلك

لطلوع شموس العرفان، والدخول فى مقام الكشف والعيان، الذى هو مقام الإحسان، وما خرج عن هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين: إما بالكفر، وإما بالإصرار على العصيان، والعياذ بالله.

ثم نهى عن سلوك هذا السبيل ـ أعنى سبيل المجرمين ـ فقال:

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يامحمد: ﴿إنى نُهيتُ﴾ أى: نهانى ربى ﴿أنْ أعبدَ الذين تدْعُون﴾ أى: تعبدون ﴿من دون الله﴾ ، أو ما تدعونها آلهة؛ أى: تسمونها بذلك، وتخضعون لها من دون الله، ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا أتبع أهواءكم﴾ الفاسدة وعقائدكم الزائغة، ﴿قد ضللتُ﴾ عن الحق ﴿إذًا﴾ أى: إذا اتبعت أهواءكم، ﴿وما أنا من المهتدين﴾ أى: ما أنا فى شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم إن اتبعت أهواءكم، وفيه تعريض بهم، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى، ليسوا على شيء منها.

﴿قل إني على بينة﴾ أى: طريق واضحة ﴿من ربي﴾ تُوصلنى إلى تحقيق معرفته، واستجلاب رضوانه، أنا ومن اتبعنى، ﴿و﴾ أنتم ﴿كذبتم به﴾ أى: بربى؛ حيث أشركتم به وعبدتم غيره، أو كذبتم بطريقه؛ حيث أعرضتم عنها، واستعجلتم عقابه فى الدنيا، ﴿ماعندي ماتستعجلون به﴾ من العذاب أو المعجزات، ﴿إنْ الحكم إلا لله﴾ فى تعجيل العذاب وتأخيره، أو فى إظهار الآيات وعدم إظهارها، ﴿يقُصُّ﴾ القصص ﴿الحق﴾ وهو القرآن، أى: ينزله علىّ لأُنذركم به، أو يقضى القضاء الحق من تعجيل ما يعجل وتأخير مايؤخر، فيحكم بينى وبينكم إن شاء، ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أى: القاضين.

﴿قل لو أن عندى﴾ أى: فى قدرتى وطوقى ﴿ماتستعجلون به﴾ من العذاب ﴿لقُضى الأمر بيني وبينكم﴾ أى: لأهلكتكم عاجلاً؛ غضباً لربى، وانقطع ما بينى وبينكم، ولكن الأمر بيد خالقكم الذى هو عالم بأحوالكم، ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ أى: عالم بما ينبغى أن يؤخذ عاجلاً، وبمن ينبغى أن يمهل، فمفاتح الغيب كلها عنده، كما سيذكره.

الإشارة: قل، أيها العارف، المتوجه إلى الله، المنقطع بكليته إلى مولاه، الغائب عن كل ما سواه: إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله؛ من حب الدنيا، ومن الرياسة والجاه. قل: لا أتبع أهواءكم؛ لأنى قد اجتمعت

أهوائي في محبوب واحد، حين وصلت إلى حضرته، وتنعمت بشهود طلعته، فانحصرت محبتي في محبوب واحد، وفي ذلك يقول القائل:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دنياهم ودِينَهُمُ شُغْلاً بِذِكْرِكَ يَادِينِي ودُنْيَائي

وقال آخر:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ، ماتَهْوَى نفُوسُهم مِنْ حُبِّ دُنْيَا ومن عِزٍّ ومن جَاهِ
كذاكَ تَرْكُ المقَامَات هُنَا وَهُنَا والقَصْدُ غَيْبَتُنَا عَمَّا سِوَى اللَّهِ

﴿قل إني على بينة من ربي﴾ أي: بصيرة نافذة في مشاهدة أسرار ربي، فقد كذَّبتم بخصوصيتي، وطلبتم دلائل ولايتي، ماعندي ماتستعجلون به من الكرامات، ﴿إن الحكم إلا لله﴾، يقضي القضاء الحق، فيُظهر مايشاء، ويُخفي مَنْ يشاء، ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أي: الحاكمين بين عباده، قل لو أن عندي ماتستعجلون به؛ من نفوذ دعوتي في إظهار كرامتي، لقُضي الأمر بيني وبينكم، والله أعلم بالمكذبين بأوليائه.

ثم قال تعالى:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (مَفَاتِح): جمع مِفتح ـ بكسر الميم ـ مقصور، من مفتاح، وهو آلة الفتح، وهو مستعار لما يتوصل به إلى الغيوب، أو يفتحها، وهو المخزن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ أي: علم المغيبات، لا يعلمها غيره، إلا من ارتضى من خلقه، أو: عنده خزائن علم الغيوب لا يعلمها غيره، والمراد بها الخمسة التي ذكرها الحق تعالى في سورة لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(١) الآية؛ لأنها تعم جميع الأشياء، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله، فقد اختص

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان.

سبحانه بعلم المغيبات ﴿لا يعلمها إلا هو﴾؛ فيعلم أوقاتها وما فى تعجيلها وتأخيرها من الحِكَم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، وهو أمر ضرورى.

﴿ويعلم ما فى البر والبحر﴾ من عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات؛ على اختلاف أجناسها وأنواعها، حيها وجامدها، فيعلم عددها وصفتها وأماكنها، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ كيف تسقط، على ظهرها أو بطنها، وما يصل منها إلى الأرض وما يتعلق فى الهواء، وهو مبالغة فى إحاطة علمه بالجزئيات، كما تعلق بالكليات، ﴿ولا حبة فى ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار وبذور سائر النبات، والرمل، وغير ذلك من دقائق الأشياء وجلائلها، ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ من الأشجار والنبات والحيوانات التى فيها الحياة والتى فارقتها، فهى من جنس اليابس، ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ أى: علم الله القديم، أو اللوح المحفوظ، فعلى الأول، يكون بدلاً من الاستثناء الأول، بدل الكل من الكل، وعلى الثانى: بدل اشتمال. وقرئت بالرفع، على العطف على محل: ﴿من ورقة﴾، أو على الابتداء، والخبر: ﴿فى كتاب مبين﴾.

الإشارة: مفاتح الغيب هى أسرار الذات وأنوار الصفات، أو أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، لا يعلمها إلا هو، فما دام العبد محجوباً بوجود نفسه، محصوراً فى هيكل ذاته، لا يذوق شيئاً من هذه الغيوب، فإذا أراد الحق جل جلاله أن يفتح على عبده شيئاً من هذه الغيوب، غطى وصف عبده بوصفه، ونعته بنعته، فغيَّبه عن وجود نفسه، فصار هو سمعه وبصره وقلبه وروحه، فيعلم تلك الأسرار به، لا بنفسه، فما علم تلك الأسرار غيره، ويحيط بأسرار الأشياء كلها، برها وبحرها؛ لأنه يصير خليفة الله فى أرضه. وقال الورتجبى: غَيْبُه ذاته القدسية، وهى خزانة أسرار الأزل والآباد، ومفاتحها: صفاتها الأزلية، لايعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه، فنَفَى الغير عن البين، حيث لا حيث ولا بين. انظر تمامه فيه.

ومن جملة الغيوب التى اختص الله بها: انقضاء الأجل، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ (٦٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى يتوفاكم﴾ أى: يقبض أرواحكم ﴿بالليل﴾ إذا نمتم، وفى ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخروى، ﴿ويعلم ماجرحتم﴾ أى: ماكسبتم من الأعمال ﴿بالنهار﴾. وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد، ﴿ثم﴾ إذا توفاكم بالليل ﴿يبعثكم فيه﴾ أى: فى النهار، ﴿ليُقضى أجل مُسمى﴾ أى: ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له فى الدنيا، وهو أجل الموت، ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ بالموت ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فيعاتب المسيء ويكرم المحسن.

رُوى: أن العبد إذا قُبض عَرجتْ الملائكة برُوحه إلى سِدرة المنتهَى، فيُوقف به هناك، فيُعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يَرْفَضَّ عرقاً، ثم يقول له: قد غفرتُ لك، اذهبوا به ليرى مقعدَه فى الجنة، ثم يُردّ إلى السؤال.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ بالقهر والغلبة، ﴿ويُرسل عليكم حفظةً﴾؛ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه: أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر له عن المعاصى، ثم لاتزال الملائكة تكتب عليه أعماله ﴿حتى إذا جاء أحدَكُم الموتُ توفته رُسُلنا﴾ أى: ملك الموت وأعوانه، ﴿وهم لا يُفرطون﴾ بالتوانى والتأخير، ولايجاوزون ماحد لهم بالتقديم والتأخير. ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾ أى: إلى حُكمه وجزائه، أو مشاهدته وقربه، ﴿مولاهم﴾ الذى يتولى أمرهم، ﴿الحقّ﴾ أى: المتحقق وجوده، وماسواه باطل، ﴿ألا له الحُكم﴾ يومئذ، لاحكم لغيره فيه، ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾؛ يحاسب الخلائق فى مقدار حلب شاة، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة: وهو الذى يتوفاكم، أى: يخلصكم بليل القبض، ويعلم ماكسبتم فى نهار البسط، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط، وهكذا؛ ليقضى أجل مسمى للإقامة فيهما، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما؛ لتكونوا لله لاشيء دونه، وفى الحكم: «بسطك كى لا يبقيك مع القبض، وقبضك كى لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما، كى لا تكون لشيء دونه».

وقال فارس رَحِمَهُ اللَّه: القبض أولاً ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود؛ أى: فى وجود النفس، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أى: فلا قبض ولا بسط؛ لأن العارف الواصل مقبوض فى بسطه، مبسوط فى قبضه، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال؛ لأنه مالك غير مملوك. والله تعالى أعلم.

ومن علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسى بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ماحجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، (وهوالقاهر فوق عباده)، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.

ثم أمر بالرجوع إليه عند الشدائد، فقال:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل من ينجيكم﴾ أي: يُخلصكم ﴿من ظلمات البر والبحر﴾ أي: من شدائدهما، استعير الظلمة للشدة؛ لمشاركتهما في الهول، فقيل لليوم الشديد: يوم مظلم، أو: من الخسف في البر والغرق في البحر، حال كونكم ﴿تدعونه تضرعاً وخُفية﴾ أي: جهراً وسراً ، قائلين: ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾[1] الظلمة، أي: الشدة، ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ بإقرارنا بوحدانيتك، ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي: غم سواها، ﴿ثم أنتم تُشركون﴾ أي: تعودون إلى الشرك ولاتوفون بالعهد، وهذا شأن النفس اللئيمة؛ في وقت الشدة ترجع إلى الحق وتوحده، وفي وقت السعة تنساه وتشرك معه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

الإشارة: ظلمات البر هو مايخوض القلب ويظلمه؛ من أجل مايدخل عليه من حس الظاهر، الذي هو بر الشريعة، وظلمات البحر هو مايدهش الروح ويحيرها من أجل مايدهمها من علم الحقائق، عند الاستشراف عليها، أو مايشكل عليها في علم التوحيد، فإذا رجع إلى الله فيهما، وتمسك بشيخ كامل في علم الحقائق ـ أنجاه الله منهما، فإذا شكر الله وأفرد النعمة إليه دامت نجاته، وإن التفت إلى غيره خيف عليه العَوْد إلى ماكان عليه. وبالله التوفيق.

ثم هدد أهل الشرك، أو: هُمْ مع غيرهم، فقال:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ ، كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ ، كما أُغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: من فوقكم:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أنجيتنا) بالياء والتاء بعد الجيم من غير ألف.. وقرأ الباقون (أنجانا) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء. انظر الإتحاف (٢/١٦).

(٢) الآية ٣٣ من سورة الروم.

بتسليط أكابركم وحكامكم عليكم، ومن تحت أرجلكم: سفلتكم وعبيدكم، ﴿أو يلبسكم﴾ أي: يَخْلطكم ﴿شيعًا﴾ أي: فِرقًا متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم، ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾، بقتال بعضكم بعضا.

وفي الحديث عنه ﷺ: أنه لما نزلت: ﴿أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ولما نزلت: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال أيضا: «أعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ولما نزلت: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ قال: «هذا أهْوَن»(١)، فقضى الله على هذه الأمة بالقتل والقتال إلى يوم القيامة، نعوذ بالله من الفتن.

قال تعالى: ﴿انظر كيف نُصرف الآيات﴾ أي: نقلبها بورود الوعد والوعيد ﴿لعلهم يفقهون﴾ ما نزل إليهم.

﴿وكذَّب به قومك﴾ أي: بالعذاب، أوبالقرآن، ﴿وهو الحق﴾ أي: الواقع لا محالة، أو الصدق في أخباره وأحكامه، ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي: وُكل إلىَّ أمركم فأمنعكم من التكذيب، أو أجازيكم، إنما أنا منذر، والله هو الحفيظ. ﴿لكل نبأ﴾ أي: خبرٍ بعذاب أو إيعاد به، ﴿مستقر﴾ أي: وقت استقراره ووقوعه، يعرف ـ عند انقضائه ـ صدقه من كذبه، ﴿وسوف تعلمون﴾ ما يحل بكم عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

الإشارة: الخطاب للمريدين السائرين، أو الواصلين. خوفهم بأن يحول بينهم وبين شهود عظمته الفوقية والتحتية، فينزل عليهم عذاب الفرق من جهة العلو أو السفل، فلا يشهدون إلا الأكوان محيطة بهم، أو يخالف بين وجوههم ويلبسهم شيعًا، فإذا تفرقت الوجوه تفرقت القلوب غالباً، والعياذ بالله، لأن الفتح والنصر مرتب على الجمع، قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾(٢). قال القشيري: فيه إشارة إلى أن الجمع مُؤْذِن بالفتح. هـ. فينبغي للمريد أن يشهد الصفاء في الجميع، ويتودد إلى الجميع، حتى لا يبقى معه فرق. والله تعالى أعلم.

ثم حذَّر من صحبة أهل الخوض، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾

(١) أخرجه البخاري في: (تفسير سورة الأنعام، باب: قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) الآية ٢٦ من سورة سبأ.

قلت: ﴿ولكن ذكرى﴾: مفعول بمحذوف، أي: يذكرونهم ذكرى، أو مبتدأ، أي: عليهم ذِكْرَى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا رأيتَ الذين يخوضون فى آياتنا﴾ أى: القرآن؛ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها ﴿فأعرض عنهم﴾ ولاتجالسهم، بل قُم عنهم ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ أى: غير القرآن، ﴿وإما يُنسينكَ الشيطانُ﴾ النهيَ عن مجالستهم، وجلست نسياناً، ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ أى: بعد أن تذكر النهى ،﴿مع القوم الظالمين﴾ ، ونسبة النسيان إلى الشيطان أدباً مع الحضرة، ﴿قل كل من عند الله﴾[1]، ووضع المظهر موضع المضمر، أى: معهم، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أى: ماعلى المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم ، بل عقابهم على الخوض خاصٌ بهم، ﴿ولكن﴾ عليهم ﴿ذِكْرَى﴾ أى: تذكيرهم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدروا، وكراهية ذلك إن لم يقدروا، فيعظونهم ﴿لعلهم يتقون﴾، فيجتنبون ذلك الخوض؛ حياء أو كراهية مَساءتهم، وإنما أبيح للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم؛ لأن ذلك يشق عليهم، إذ لابد لهم من مخالطتهم فى طلب المعاش وفي الطواف، وغير ذلك، بخلافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن الله أغناه عنهم به، فنهاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقا.

ثم قال له: ﴿وذرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ أى : بنوا أمر دينهم على التشهِّى، وتديَّنوا بما لا يعود عليهم بنفع ،عاجلاًوآجلا، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذى كلفوا بالدخول فيه لعباً ولهواً، حيث سخروا به، أي: أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم. ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم، وترك التعرض لهم، ﴿وغرتهم الحياةُ الدنيا﴾ وزخرفها، حتى نسُوا البعث وأنكروه، والعياذ بالله.

الإشارة: قد تقدم مراراً التحذير من مخالطة أهل الخوض وصحبة العوام، وكل من ليس من جنس أهل النسبة، فإن ألجأه الحال إلى صحبتهم ـ فليُذكرهم، ويعظهم، ويُنهضهم إلى الله بمقاله أو حاله ما استطاع. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتذكير، فقال:

---

(١) من الآية: ٧٨ من سورة النساء.

﴿... وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قلت: (تبسل) : تُحبس وتُسلم للهلكة، وفي البخاري: «تُبْسَل: تفضح، أبسلوا: فُضِحُوا وأسلموا»[1].

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿وذكِّر﴾ بالقرآن الناس؛ مخافة ﴿أن تُبسل نفس بما كسبت﴾ أي: لئلا تُحبس كل نفس وتُرتهن بما كسبت أو تُسلم للهلكة، أو لئلا تفضح على رؤوس الأشهاد بما كسبت، ﴿ليس لها من دون الله وليّ ولا شفيع﴾ يدفع عنها العذاب، ﴿وإن تَعدل كل عَدْل﴾ أي: وإن تفد كل فداء ﴿لا يؤخذ منها﴾ أي: لا يُقبل منها.

﴿أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا﴾ أي: أُسلموا للعذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة، أو افتضحوا بما كسبوا ﴿لهم شراب من حميم﴾ وهو الماء الحار، ﴿وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ ، والمعنى: هم بين ماء مغلى يتجرْجر في بطونهم، ونار تُشعل بأبدانهم بسبب كفرهم، والعياذ بالله.

الإشارة: لا ينبغي للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء، ولا ينبغي للمريد أن يمل من التصفية والتشمير، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ، أو أُظهرت له من الاستقامة ما أظهرت، قال تعالى: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾.

قال أبو حفص النيسابوري رضي الله عنه: من لم يتَّهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه، كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؛ والكريم ابن الكريم بن الكريم بن الكريم، يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[2]. وقال أيضا: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي ـ أن الله ينظر إليَّ نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك. وقال الجنيد رضي الله عنه: لا تسكن إلى نفسك، وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: (ما رضيت عن نفسي طرفة عين). إلى غير ذلك من مقالاتهم التي تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة منها بالتصفية التي أظهرت.

ويُحكى عن القطب ابن مشيش؛ أنه لما بلغ في تلاوته هذه الآية، تواجد وأخذه حالٌ عظيم اقتطعه عن حسه، حتى كان يتمايل، فيميل الجبل معه يمينا وشمالا. نفعنا الله بذكرهم آمين.

(١) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنعام) من قول ابن عباس. رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

فإن قلت: العارف لم تبق له نفس يتهمها؛ لفنائه في شهوده وانطوائه في وجوده؟ قلت: العارف الكامل هو الذي لايحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، فإذا رجع إلى شهود فرقه، رأى نفسه عبداً متصفاً بنقائص العبودية التي لا نهاية لها، ولذلك قالوا: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعاً في الحضرة، متصفاً بالكمالات التي لانهاية لها، فيغيب عن شهود عبوديته في عظمة ربوبيته، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه؛ لكماله، وإلى هذا المعنى أشار في الحكم بقوله: «لانهاية لمذامك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك». وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام بالتبرؤ من الشرك مطلقاً، تشريعاً، فقال:

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: (ونُردُّ): عطف على (ندعو) والهمزة للإنكار، والرد على العقب: الرجوع إلى وراء، لعلّة في المشي، واستعير للمعاني، و(كالذي استهوته): الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير في (نُردّ) أي: كيف نرجع مشبهين بمن استهوته الشياطين، أو نعت لمصدر محذوف، أي: رداً كرد الذي... إلخ. واستهوى: استفعل، من هوَى في الأرض إذا ذهب، وقال الفارسي: استهوى بمعنى أهوى، مثل استزل بمعنى أزل، و(حيران): حال من مفعول استهوى.

و«أن أقيموا»: عطف على «لنسْلم»، أو «أمرنا». «قوله الحق»: مبتدأ، و«يوم يقول»: خبر مقدم، أي: قوله الحق حاصل يوم يقول: كن فيكون، وفاعل «يكون»: ضمير فاعل كن، أي: حين يقول للشيء: كن فيكون ذلك الشيء، و«يوم ينفخ»: ظرف لقوله: «الملك»، كقوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾[1].

---

(١) من الآية ١٦ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم يامحمد ﴿أندعو من دون الله﴾ أي: نعبد ﴿مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ من الأصنام الجامدة، ﴿ونُرد على أعقابنا﴾ أي: نرجع إلى الشرك ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ وأنقذنا، ورزقنا الإسلام، وهذ على الصحابة. وأما النبي ﷺ فلم يتقدم له شرك؛ لعصمته، أي: كيف نرد على أعقابنا رداً ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾، أي: أضلته مَرَدَةُ الجن عن الطريق المستقيم، فذهب ﴿في الأرض حيران﴾؛ متحيراً ضالاً عن الطريق، ﴿له أصحاب﴾ أي: رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ أي: إلى الطريق المستقيم، يقولون له: ﴿ائتنا﴾ وكن معنا لئلا تتلف. وهو مثال لمن ترك الإسلام وضل عنه.

﴿قل﴾ لهم: ﴿إن هدى الله﴾، وهو الإسلام، ﴿هو الهدى﴾ وحده، وما عداه ضلال. ﴿و﴾قد ﴿أمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ نكون على الجادة من الهدى، ﴿و﴾ أمرنا ﴿أن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ أي: أُمرنا بإقامة الصلاة والتقوى، رُوِي أن عبد الرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت، وعلى هذا أُمِر الرسول بهذا القول إجابة عن الصديق تعظيماً لشأنه، وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما. قاله البيضاوي. وقال ابن جزي: ويُبطِل هذا قول عائشة: ما نزل في آل أبي بكر شيء من القرآن إلا براءتي. هـ.قلت: ليس بحجة؛ لصغر سنّها وقت نزول الآية بمكة، والإسلام يمحو ما قبله. ثم قال جل جلاله: ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ يوم القيامة؛ فيظهر من تبع الحق من الباطل.

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾، أي: قائماً بالحق والحكمة، فهو أحق بالعبادة وحده، ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أي: قوله العدل حاصل يوم يقول للبعث والحشر: كن فيكون، ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ أي: انفرد الملك له يوم ينفخ في الصور فيقول: لمن الملك اليوم؟ فلا يُجاب، فيقول: لله الواحد القهار ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: هو عالم بما غاب وما ظهر، ﴿وهو الحكيم﴾ في صنعه، ﴿الخبير﴾ بأمر عباده.

الإشارة: إذا توجه العبد إلى مولاه، وانقطع بكليته إلى الله، طالباً منه معرفته ورضاه، قد يمتحن بشيء من شدائد الزمان؛ كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان، فيقال اختباراً له: تعلق في دفع ما نزل بك بشيء من السِّوى، فيجب عليه أن يقول: ﴿أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولا يضرنا ونُردُّ على أعقابنا﴾ بالالتفات إلى غير ربنا، بعد إذ هدانا الله إلى توحيده ومعرفته، ونكون كالذي استهوته الشياطين في الأرض، حيران بالتفاته إلى غير الكريم المنان؛ ﴿قل إن هدى الله﴾ أي: هدايته الخاصة، وهي الانقطاع إليه وحده في الشدائد، ﴿هو الهدى﴾، وقد أُمرنا بالانقياد بكليتنا إلى ربنا، وأمرنا إذا حزبنا شيء بإقامة الصلاة؛ لأنها مفتاح الفرج، وبالتقوى؛ لأنها سبب النصر؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا، والاستراحة إلى الروح والريحان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة إبراهيم إبطالاً لدعوى الشرك، فقال:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: آزر: عطف بيان، أو بدل من أبيه، ومنع من الصرف؛ للعلمية والعجمة. وقرأ يعقوب بالضم ـ على النداء، وقيل: إن آزر اسم صنم؛ لأنه ثبت أن اسم أبي إبراهيم تارخ. فعلى هذا يحتمل أن يكون لقب به؛ لملازمته له، وقيل: هما علمانِ له كإسرائيل ويعقوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾، حين دعاه إلى التوحيد: ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ تعبدها من دون الله، وهي لاتنفع ولا تضر، ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾: بيِّن الضلالة، ظاهر الخطأ.

الإشارة: كل من سكن إلى شيء دون الله، أو مال إليه بالعشق والمحبة، فهو صنم في حقه، فإن لم ينزع عن محبته، ولم يقلع عن السكون إليه، كان حجاباً بينه وبين شهود أسرار التوحيد. وفي الحِكَم: «ما أحببت شيئاً إلا وكنت عبداً له، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً». وفي الحديث: «تعس عبدُ الدينار والدرهم» ... أي: خاب وخسر، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلاً لغيره، حجب عنه أنوار قدسه، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

لِي حَبِيبٌ إنما هو غيُور، يُطلُّ في القَلْبِ كطَيْرٍ حَذُور،
إذا رأى شَيْئًا امْتَنَع أنْ يَزُور.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر احتجاج إبراهيم على قومه، وتبصره بأمر ربه، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت : المُلك: ما ظهر في عالم الشهادة من المحسوسات، والملكوت: ماغاب فيها من معاني أسرار الربوبية، والجبروت: ما لم يدخل عالم التكوين من أسرار المعاني الأزلية .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وكذلك ﴾ أي: مثل ذلك التبصر الذي بَصَّرنا به إبراهيم حتى اهتدى للرد على أبيه، نُريه ﴿ ملكوت السموات والأرض ﴾ أي: نكشف له عن أسرار التوحيد فيهما، حتى يشاهد فيهما صانعهما، ولا يقف مع ظاهر حسهما، وإنما فعلنا له ذلك ﴿ ليكون من الموقنين ﴾ بمعرفتنا، عارفاً بأسرار قدسنا.

ولما كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والقمر والشمس، أراد أن يرشدهم إلى التوحيد من طريق النظر والاستدلال؛ ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أي: ستره بظلامه، ﴿ رأى كوكبا ﴾ وهو الزهرة أو المشتري، ﴿ قال هذا ربي ﴾ على سبيل التنزل إلى قول الخصم، وإن كان فاسداً؛ فإن المستدل على فساد قول يحكيه على مايقوله الخصم، ثم يكرّ عليه بالفساد؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأقرب إلى رجوع الخصم، ﴿ فلما أفل ﴾ أي: غاب، ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ ؛ فضلاً عن عبادتهم؛ فإن التغير بالاستتار والانتقال يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ : مبتدئاً في الطلوع، ﴿ قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ . استعجز نفسه واستعان ربه في درك الحق، وأنه لايهتدي إليه إلا بتوفيقه؛ إرشاداً لقومه، وتنبيها لهم على أن القمر أيضاً؛ لتغير حاله، لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً، فهو ضالٌ.

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ ، إنما ذكّر الإشارة لتذكير الخبر، وصيانةً للرب عن شبهة التأنيث ﴿ هذا أكبر ﴾ لكبر النور وسطوعه أكثر، ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ من الأجرام المحدثة المحسوسة، المحتاجة إلى محدث يحدثها، ومخصص يخصصها.

ولما تبرأ من عبادتها توجه إلى موجدها ومبدعها، فقال: ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر ﴾ أي: أبدع ﴿ السموات والأرض ﴾ حال كوني ﴿ حنيفا ﴾ أي: مائلاً عن دينكم ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ مثلكم. وإنما احتج بالأفول دون البزوغ، مع أنه تغير؛ لأن الأفول أظهر في الدلالة؛ لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب. ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال. وقيل: إن هذا الاستدلال والاحتجاج كان في حال طفولته قبل التكليف. فقد رُوي أنه لما ولدته أمه في غار، خوفًا من نمرود؛ إذ كان يقتل الأطفال؛ لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبي يُولد في هذا العصر، فكان يستدل بما رأى على توحيد ربه، وهو في الغار، وهذا ضعيف لأن قوله: ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ يقتضي المحاججة والمخاصمة لقومه.

وقوله ﷺ: ﴿ هذا ربي ﴾ مع قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[1] و ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[2]، ليس بكذب؛ للعصمة، وإنما هو تورية. وفي الحديث: «ليس بكاذبٍ من كاذب ظالماً، أو دفع ضرراً، أو رعى حقاً، أو حفظ قلباً» . وفي

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الصافات. (٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

رواية أخرى: «ليس بكاذب، من قال خيراً أو نواه». وأما اعتذاره في حديث الشفاعة؛ فلهول المطلع، فيقع الحذر من أدنى شيء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لمّا كوشف إبراهيم بعالم الملكوت، رأى الله في الأشياء كلها، كما ورد في بعض الأثر: (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه). وإنما قال: ﴿لا أحب الآفلين﴾؛ حذراً من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال. وإنما تتغير الأواني دون المعاني، فشمس المعاني مشرقة على الدوام، ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال، ولذلك قيل:

طَلَعتْ شَمسُ مَنْ أُحِبُّ بلَيْلٍ وأستنارتْ فما تَلاها غُرُوبُ

إنّ شَمْسَ النّهارِ تَغْرُبُ باللّيْلِ وشَمْسُ القُلوبِ ليس لها مَغيبُ

أي: طلعت شمس نهار عرفانهم على ليل وجودهم، فامتحت ظلمة وجودهم في شهود محبوبهم، وفي الحِكَم: «أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه، لأجل ذلك أفلَتْ أنوار الظواهر، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر».

قال الجَوْزي: لما بدا لإبراهيم نجم العلم، وطلع قمر التوحيد، وأشرقت شمس المعرفة ـ قال: ﴿إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي...﴾ الآية. هـ. قيل: لما نظر إبراهيم عليه السلام بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسي، نودي في سره: يا إبراهيم، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية؛ لأن الوجود كله عين الأحدية، فافهم معاني الأسماء، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى. فقال إبراهيم: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ . هـ. وفي ذلك يقول الششتري أيضاً:

لا تَنْظُرْ إلى الأوَاني وَخُضْ بَحْرَ المَعَاني لَعَلَّكَ تَرَاني.

ولما احتج إبراهيم عليه السلام على قومه خاصموه في ذلك، كما قال تعالى:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ...﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وحاجه قومه﴾ أي: خاصموه في التوحيد، فقال لهم: ﴿أتحاجُّوني في الله﴾ أي: في وحدانيته، أو في الإيمان به، وقد هداني إلى توحيده وأرشدني إلى معرفته، فلا ألتفت إلى غيره، ولا أعبأ بمن خاصمني فيه، والأصل: تحاجونني، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع، وأبقى نون الوقاية، وقيل: العكس، وأدغم الباقون إحدى النونين في الأخرى.

الإشارة: مخاصمة العموم لأهل الخصوصية سنّة ماضية؛ (ولن تجد لسنة الله تبديلا)؛ لأنّ من أنكر شيئاً عاداه، فأهل الخصوصية يَعْذرون من أنكر عليهم؛ لأن ذلك مبلغهم من العلم، والعامة لايعذرون أهل الخصوصية؛ لخروجهم عن بلادهم؛ فلا يعرفون ماهم فيه. والله تعالى أعلم.

ولما خاصموا إبراهيم عليه السلام فلم يلتفت إليهم، خوفوه بأصنامهم، فقال لهم:

﴿... وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قلت : الاستثناء في قوله: (إلا أن يشاء) : منقطع . قاله ابن جزى . وظاهر كلام البيضاوى: أنه متصل، وهو المتبادر، أي: ولا أخاف ما تشركون في حال من الأحوال إلا أن يشاء ربى أن يصيبنى بمكروه من جهتها؛ استدراجاً لكم، وفتنة . وقال الواحدى: لا أخاف إلا مشيئة ربى أن يعذبنى .

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله إبراهيم: ﴿ولا أخاف ماتُشرِكون به﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم أن تصيبنى بشيء؛ لأنها جوامد لا تضر ولاتنفع، ﴿إلا أن يشاء ربي شيئًا﴾ يصيبنى بقدره وقضائه، فإنه يصيبنى لا محالة، لا بسببها، ﴿وَسِع ربي كل شيء علما﴾، كأنه علة الاستثناء، أي: لا أخاف إلا ما سبق فى مشيئة الله، لأنه أحاط بكل شيء علما، فلا يبعد أن يكون فى علمه وقدره أن يحيق بي مكروه من جهتها، ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميّزوا بين الصحيح والفاسد، والقادر والعاجز؟.

﴿وكيف أخافُ ما أشركتم﴾ وهو جامد عاجز لا يتعلق به ضرر ولا نفع؟ ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ وهو أحق أن يُخاف منه كل الخوف، لأنه القادر على الانتقام ممن أشرك معه غيره، وسوّى بينه وبين مصنوع عاجز، لا يضر ولا ينفع، فأنتم أحق بالخوف؛ لأنكم ﴿أشركتم بالله مالم يُنزِل به عليكم سلطانًا﴾ أي: لم يُنَزِّل بإشراكه كتاباً، ولم ينصب عليه دليلاً، ﴿فأيُّ الفريقين أحق بالأمن﴾ : أهل التوحيد والإيمان، أو أهل الشرك والعصيان؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ما يَحق أن يخاف منه.

ثم أجابَ عن الاستفهام: الحق تعالى أو خليلهُ، فقال: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أي: يخلطوا ﴿إيمانهم بظلم﴾ أي: بشرك، بل آمنوا بالله ولم يعبدوا معه غيره، ﴿أولئك لهم الأمن﴾ فى الآخرة، ﴿وهم مهتدون﴾ فى الدنيا. أما الطائع فأمنه ظاهر، وأما العاصى فيؤمن من الخلود وتحريم الجنة عليه.

ولماً نزلت الآية أشفق منها أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عموم الظلم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ما تظنون، إنما هو ماقال لقمانُ لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾»[1].

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان. ... والحديث أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة...») ومسلم فى (الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد كان المشركون يقرُّون بالصانع ويخلطون معه التصديق بربوبية الأصنام، فقد آمنوا بوجود الصانع، ولكنهم لبسوا إيمانهم بالشرك، فلا أمن لهم ولا هداية. وبهذا يرد جهالة الزمخشري في إنكاره الحديث الصحيح، ولو بقي الظلم على عمومه ـ أي: ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية ـ لصَحّ، ويكون المراد بالأمن أمنًا خاصا وهداية خاصة، لكن ماقاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُوقف عنده.

الإشارة: العارف بالله، المتحقق بوحدانية الله، لا يسكن خوفُ الخلق في قلبه، ولا ينظر إلا إلى ما يبرُز من عند ربه، فإنْ وعدَه بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرعَ والالتجاء إلى ربه؛ لسعة علمه تعالى، وقد يكون ذلك متوقفًا على أسباب وشروط، أخفاها الحق تعالى إظهاراً لقهريته، ولذلك قال الخليل عليه السلام: ﴿ ولا أخاف ماتُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما ﴾ . وقال سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[1] . فالعارف لايزول اضطراره، ولايكون مع غير الله قراره، وأما الأمن من التحويل والانقلاب، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يحصُل للوليّ الأمنُ، إذا تحقق بمقام القُرْب، وحصل له الفناء والبقاء، متمسكاً بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾ . وقال بعضهم: لا يحصل الأمن إلا للأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ للعصمة.

قال الورتجبي: مقام الأمن لا يحصل لأحد، مادام هو بوصف الحدَثية، وكيف يكون آمنًا منه وهو في رقّ العبودية ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت؟ وقال تعالى: ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[2]. فإذا رأى الله تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتّصف بصفات الحق، بدا له أوائل الأمن، لأن في صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء، لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ماداموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره.هـ.

فظاهر كلامه، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء، يحصل له الأمن من الشقاء، وكذلك قال أبو المواهب: من رجع إلى البقاء أَمِنَ من الشقاء. وقال في نوادر الأصول: مَنْ حَظُّه من أهل التقريب: الجلال والجمال، وقد أُقيم في الهيبة والأنس، قد غاب عن خوف العقوبة، ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط، لما رُكّب في نفوس بني آدم من الشهوات، فهن أبداً يَهْوِين بصاحبهن عن الله إلى الإخلاد والبُطء، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلَص إلى الفردانية وتعلّق بالوحدانية؛ لتلاشي الهوى منه والشهوة؛ بكشف الغطاء، ولا يذهب خوف ذلك بالكلّية عنه، وإن

---

(١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

سكن؛ لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء. وأما هُمْ فلم يبقَ لهم ظلُّ الهوى، فبُشّروا بالنجاة؛ فلَمْ تَغُرهم البُشْرى؛ لأنهم لم يبق لهم نفوس، فتستبدّ وتجور إذا أَمِنَت السقوط، ومَنْ بعدهم بَقِي لهم في نفوسهم شيء فمُنعوا البشرى، وأُبهم عليهم الأمر؛ صنعاً بهم؛ ونظراً لهم، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال. هذا هو الأصل فافهمه. هـ.

وحاصل كلامه: أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوفُ التحويل، بل يسكن خوفه فقط، ولا يُبَشَّر بالأمن إلا الأنبياء، وهو الصواب، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[1] . والله تعالى أعلم.

ثم مدح خليله بما أظهر على يديه من الحُجة والعلم، فقال:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: (على قومه): متعلق بحجتنا، إن جُعل خبراً عن (تلك)، وبمحذوف، إن جعل بدلَه، أي: وتلك الحجة آتيناها إبراهيم حجة على قومه. ومن قرأ: «درجات»: بالتنوين؛ فَمَنْ نشاء: مفعول، ودرجات: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾، إشارة إلى ماتقدم من استدلاله على وحدانيته تعالى بأُفول الكوكب والقمر والشمس، واحتجاجه بذلك على قومه، وإتيانه إياها: وإرشاده لها وتعليمه إياها، قالَ تعالى: ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ في العلم والحكمة، أو في اليقين والمعرفة، ﴿ إن ربك حكيم ﴾ في رفعه وخفضه، ﴿ عليم ﴾ بحال من يرفعه ويخفضه، وبحال الاستعداد لذلك.

الإشارة: رفعُ الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين. وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأُنس. والله تعالى أعلم.

ومما خُصَّ به إبراهيم عليه السلام وكان زيادة في درجته، أن الأنبياء جلّهم من ذريته، كما قال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) من الآية ١٨ من سورة الأنعام.

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت: الضمير فى (ذريته) لإبراهيم عليه السلام؛ لأن الحديث عليه، أو لنوح عليه السلام؛ لذكر لوط، وليس من ذرية إبراهيم، لكنه ابن أخيه فكأنه ابنه، و(داود): عطف على (نوح)؛ أى: وهدينا من ذريته داود، و(من آبائهم): فى موضع نصب، عطف على (نوح)؛ أى: وهدينا بعض آبائهم، والهاء فى (اقتده): للسكت، فتحذف فى الوصل، ومن أثبتها راعى فيها خط المصحف، وكأنه وصل بنية الوقف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ووهبنا ﴾ لإبراهيم ﴿ إسحاق ﴾ ابنه، ﴿ ويعقوب ﴾ حفيده، ﴿ كُلاًّ ﴾ منهما ﴿ هدينا ﴾ ﴿ ونوحاً ﴾ قد هديناه ﴿ من قبل ﴾ إبراهيم، وعدّه نعمة على إبراهيم؛ من حيث إنه أبوه، وشرفُ الوالد يتعدّى إلى الولَد، ﴿ ومن ذريته ﴾ أى: إبراهيم، ﴿ داود ﴾ بن أيشا، ﴿ وسليمان، وأيوب ﴾ بن قوص بن رازَح بن عيصُو بن إسحاق ﴿ ويوسف ﴾ بن يعقوب بن إسحاق، ﴿ وموسى وهارون ﴾ ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوِى بن يعقوب. ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ أى: نجزى المحسنين جزاء مثل ماجازينا إبراهيم؛ برفع درجاته وكثرة أولاده، وجعلِ النبوة فيهم.

﴿ وزكريا ﴾ بن آذِن بن بَركيا، من ذرية سليمان، ﴿ ويحيى ﴾ بن زكريا، ﴿ وعيسى ﴾ بن مريم بنت عمران، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت، ﴿ وإلياس ﴾ بن نُسى بن فنحاص بن إلْعازر بن هارون. وقيل: هو إدريس جَد نوح، وفيه بُعْد. ﴿ كلٌّ من الصالحين ﴾ الكاملين فى الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغى والتحرز مما لا ينبغى.

﴿ وإسماعيل ﴾ بن إبراهيم، قد هدينا أيضاً، وهو أكبر ولد إبراهيم، وهو ابن هاجر، ﴿ واليسع ﴾ بن أخطوب بن العجوز، وقرئ: «والليسع» بالتعريف، كأن أصله: ليسع، و«أل» فيه: زائدة، لا تفيد التعريف؛ لأنه علَم، ﴿ ويونس ﴾ بن متى، اسم أبيه، وهو من ذرية إبراهيم، خلافاً للبيضاوى. قال القرطبى: لم يبعث الله نبياً من بعد إبراهيم إلا من صُلبه. هـ. ويونس مثلث النون كيوسف، يعنى بتثليث السين. ﴿ ولوطاً ﴾ هو ابن هاران أخى إبراهيم، فهو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، فقد يُطلق على العم أب مجازاً، ﴿ وكلاًّ فضلنا على العالمين ﴾ أى: عالَمِى زمانِهم بالنبوة والرسالة. فكل واحد فُضّل على أهل زمانه.

﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي: فضَّلنا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، ﴿واجتبيناهم﴾ أي: اخترناهم للرسالة واصطفيناهم للحضرة، ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾؛ الذي يُوصل إلى حضرة قدسنا. ﴿ذلك هُدَى الله﴾ أي: ذلك الدين الذي دانوا به هو هدى الله ﴿يهدى به﴾ أي: بسببه، ﴿من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون﴾، تحذيراً من الشرك، وإن كانوا معصومين منه.

﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: جنس الكتب، ﴿والحُكم﴾ أي: الحكمة، أوالفصل بين العباد، على مايقتضيه الحق، ﴿والنبوة﴾؛ الرسالة، ﴿فإنْ يكفرْ بها هؤلاء﴾ : أهل مكة، ﴿فقد وكَّلنا بها﴾ أي: بالإيمان بها والقيام بحقوقها، ﴿قومًا ليسوا بها بكافرين﴾؛ وهُم الأنبياء المذكورون، وتابعوهم ، وقيل: الصحابة المهاجرون والأنصار، وهو الأظهر. وقيل: كل مؤمن، وقيل: الفرس. والأول أرجح؛ لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: ﴿أولئك الذين هَدَى الله﴾ ، الإشارة إلى الأنبياء المذكورين، ﴿فبهداهم اقْتَدِه﴾ أي: اتبع آثارهم، والمراد بهديهم: ماتوافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلَف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل، ولايمكن التأسِّي بهم جميعاً؛ فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة السلام متعبِّد بشرع مَنْ قبله. قاله البيضاوي.

﴿قل لا أسألُكم عليه﴾ أي: التبليغ أو القرآن، ﴿أجراً﴾ أي: جُعلاً من جهتكم، كحال الأنبياء قبلى؛ اقتداء بهم فيه، فهو من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه، ﴿إن هو﴾ أي: ماهو، أي: التبليغ أو القرآن، ﴿إلا ذكرى للعالمين﴾؛ إلا تذكرة وموعظة لهم.

الإشارة: فَضَّلَ هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية. وفي قوله لحبيبه: ﴿فبهداهم اقتده﴾ فتح لباب اكتساب التفضيل، فكلُّ مَن اقتدى بهم فيما ذُكر شُرِّف على أهل زمانه، وقد جمع في حبيبه ﷺ ما افترق فيهم، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات، فكان هو سيد الأولين والآخرين، فكل من اقتدى به في أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه، وأمْرُه سبحانه له بالاقتداء بهم، إنما هو في الآداب، وكان ذلك قبل أن يترقَّى عنهم إلى مقامه الذي خصَّه الله به. فإن للأنبياء سيرا وترَقِّيا يليق بهم. كما للأولياء سيرٌ وتَرَقٍّ يليق بهم.

قال الورتجبي: أمَر حبيبَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبلَه في آداب الشريعة، لأن هناك منازلَ الوسائط، فإذا أوصله بالكلِّية إليه، وكَحَل عيون أسراره بكُحْل الربوبية، جعلَه مستقلاً بذاته مستقيماً بحاله، وخرج عن حدِّ الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة، وأمره بإسقاط الوسائط، حتى قال: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيّاً ما وَسِعَهُ إلاَّ اتِّباعي»، وغير ذلك.هـ. وقال الشاذلي ﷺ: أمَره بالاقتداء بهم فيما شاركوه فيه، وإن انفرد عنهم بما خُصَّ به. هـ.

ولمَّا ذكر مشاهير الرسل، وما أتحفهم به من الهداية وإنزال الوحي، ردَّ على من أنكر ذلك، فقال:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾

يقول الحق جل جلاله في الرد على اليهود: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد بالوحي وغيره، إذ لو عرفوه لهابوا أن ينكروا بعثة الرسل، أو ما جسروا على هذه المقالة، أو ما عظموه حق تعظيمه. حيث كذَّبوا رسله وأنكروا أن يكون أنزل عليهم كتابًا، إذ لو عظَّموه حق تعظيمه لصدَّقوا الرسول الوارد عنه، وهو معنى قوله: ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴾، والقائلون هم اليهود، كفنحاص ومالك بن الصيف وغيرهما، قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن ونبوة محمد ﷺ، فردَّ الله عليهم بما لابدَّ لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى، فقال: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهُدى للناس ﴾، فالنور للبواطن، والهداية للظواهر، ﴿ تجعلونه ﴾ أي: التوراة، ﴿ قراطيس ﴾ أي: تُجَزِّئونه أجزاء متفرقة، ماوافق أهواءكم أظهرتموه وكتبتموه في ورقات متفرقة، وماخالف أهواءكم كتمتموه وأخفيتموه.

رُوى أنَّ مَالك بْنَ الصَّيْف قاله، لَمَّا أغضَبَهُ النبي ﷺ بقوله: «أَنْشُدُكَ اللهَ الذي أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَجِدُ فيها أنَّ اللهَ يبغض الحَبْرَ السَّمِين، فَأنْتَ الْحَبْرُ السَّمِين» ،فغضب، وقال: ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيء، فرَدَّ اللهُ عَلَيه بما تقدم[1]. وقيل: القائلون ذلك: المشركون، وإلزامهم بإنزال التوراة؛ لأنه كان مشهوراً عندهم يقرُّون به، ولذلك قالوا: ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾[2].

﴿ وعلِمْتُم ﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾، زيادة على ماقي التوراة، وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم. ونظيره: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[3] أو: وعلِّمتم من التوراة مالم تكونوا تعلَّمتم أنتم ولا آباؤكم قبل إنزاله، وإن كان الخطاب لقريش؛ فالذي علّموه: ماسمعوا من النبي ﷺ من القصص والأخبار.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير. وذكره الواحدي في أسباب النزول، عن سعيد بن جبير مرسلاً.
(٢) الآية ١٥٧ من السورة نفسها.
(٣) الآية ٧٦ من سورة النمل.

ثم أجاب عن استفهامه بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي: أنزله الله، أو الله أنزله. قال البيضاوي: أمره بأن يجيب عنهم؛ إشعارًا بأن الجواب بهذا متعيّن لا يمكن غيره، وتنبيهًا على أنهم بُهتوا بأنهم لا يقدرون على الجواب هـ. ﴿ ثم ذَرهُم في خوضهم يلعبون ﴾ في أباطيلهم. فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة، وأصلُ الخَوْض في الماء، ثم استُعير للمعاني المُشْكِلة، وللقلوب المتفرقة في أودية الخواطر.

الإشارة: يُفْهَم من الآية أنّ من أقرّ بإنزال الكتب وآمن بجميع الرسل، فقد قَدَر الله حق قدره وعظّمه حق تعظيمه. وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله؛ وإلاّ فتعظيم الحق حق تعظيمه، ومعرفته حق معرفته، لا يمكن انتهاؤها، ولا الوصول إلى عشر العشر منها. قال تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[1]، وقال: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾[2] فلو بقي العبد يترقى في المعرفة أبداً سرمداً، ماعرف الله حق معرفته، حتى ينتهي إلى غايتها، ولو بقي يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه.

وقوله تعالى: ﴿ قل الله ﴾ استشهد به الصوفيةُ، في طريق الإشارة، على الانفراد والانقطاع إلى الله، وعدم الالتفات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار، والخروج عنهم إلى مقام الصفا، وهو شهود الفردانية، والعكوف في أسرار الوحدانية. قال ابن عطاء الله ـ لما تكلم على أهل الشهود ـ قال: (لأنهم لله لا لشيء دونه، ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾) . وقد يُنكِر عليهم من لم يفهم إشارتهم؛ تجمداً ووقوفاً مع الظاهر، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الربانيون. نفعنا الله بهم، آمين.

ثم قرر صحة إنزال كتابه، فقال:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ أي: كثير البركة، حساً ومعنى؛ لكثرة فوائده وعموم نفعه، أو: كثير خيره، دائم منفعته، قال القشيري: مبارك: دائم باق، لا ينسخه كتابٌ، من قولهم: برَك الطير على الماء.هـ. ﴿ مُصدقُ الذي بين يديه ﴾ من الكتب المتقدمة، ﴿ ولتُنذر ﴾ أنت ﴿ أُمَّ القرى ﴾ أي: مكة،

---

(١) من الآية ١١٠ من سوة طه.
(٢) الآية ٢٣ من سورة عبس.

﴿ ومَنْ حولها ﴾ من المشرق والمغرب أو لينذر القرآنُ أمَّ القرى ومن حولها أي: أنزلناه للبركة والإنذار، وإنما سميت مكة أمَّ القرى؛ لأنها قبلة أهل القرى وحجهم ومجمعهم، وأعظم القرى شأناً. وقيل: لأن الأرض دُحيت من تحتها أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس.

﴿ والذين يؤمنون بالآخرة ﴾ هم الذين ﴿ يؤمنون به، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾؛ لأنَّ من صدَق بالآخرة، وخاف عاقبتها، تحرى لنفسه الصواب، وتفكر في صدق النجاة، فآمن بالنبي ﷺ وصدّق بما جاء به، وحافظ على مراسم الشريعة، وأهمها: الصلاة؛ لأنها عماد الدين وعلم الإيمان، من حافظ عليها حفظ ما سواها، ومن ضيّعها ضيّع ما سواها.

الإشارة: مفتاح القلوب هو كتاب الله، وهو عنوان السير، فمن فُتح له في فهم كتاب الله، عند سماعه والتدبر في معانيه، فهو علامة فتح قلبه، فلا يزال يزداد في حلاوة الكلام، حتى يُشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة؛ وذلك غاية السير، وابتداء الترقي في أنوار التوحيد وأسرار التفريد، التي لانهاية لها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من كذَّب به أو عارضه، فقال:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قلت: (كما خلقناكم): بدل من (فُرَادى)، أو حال ثانية، و(لقد تقطع بينكم)؛ من قرأ بالرفع، فهو فاعل، أي: تقطع وصلكم، ومن قرأ بالنصب، فظرف، على إضمار الفاعل، أي: تقطع الاتصال بينكم، أو على حذف الموصول؛ لقد تقطع مابينكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ فزعم أنه يوحى إليه، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي، أو: غيَّر الدين، كعمرو بن لحيي وأمثاله، ﴿ أو قال أُوحي إليَّ ولم يُوح إليه شيء ﴾ كابن أبي سَرْح

ومن تقدم، إلا من تاب، كابن أبى سرح.﴿ ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ﴾ كالذين قالوا :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾[1] كالنضر بن الحارث وأشباهه .

﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ من اليهود والكذابين والمستهزئين، حين يكونون ﴿ فى غمرات الموت ﴾ : شدائده ﴿ والملائكة باسطو أيديهم ﴾ لقبض أرواحهم، أو بالضرب لوجوههم وأدبارهم، قائلين لهم: ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ من أجسادكم؛ تغليظاً عليهم، ﴿ اليوم ﴾ وما بعده ﴿ تُجزون عذاب الهون ﴾ أى: الهوان، يريد العذاب المتضمن للشدة والهوان، وإضافته للهوان لتمكنه فيه. وذلك العذاب ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ كادعاء النبوة كذباً، وادعاء الولد والشريك لله، ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ فلا تستمعون لها، ولاتؤمنون بها فلو أبصرت حالهم ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً وهولاً شنيعاً.

يقول الحق سبحانه لهم: ﴿ ولقد جئتمونا ﴾ للحساب والجزاء، ﴿ فُرادى ﴾. متفرِّدين عن الأعوان والأوثان أو عن الأموال والأولاد، وهذا أولى بقوله: ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ أى: على الهيئة التى وُلدتم عليها من الانفراد والتجريد حفاة عُراة غُرْلاً[2] ﴿ وتركتم ماخولناكم ﴾ أى: تفضلنا به عليكم من الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة، ﴿ وراء ظهوركم ﴾ ، فلم تقدموا منه شيئاً، ولم تحملوا معكم منه نقيراً، ﴿ ومانرى معكم شفعاءكم ﴾ أى: أصنامكم ﴿ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ أى: أنهم شركاء مع الله فى ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ﴿ لقد تقطَّع بينكم ﴾ أى: تفرق وَصْلكم وتشتت شملكم، ﴿ وضَلَّ ﴾ أى: غاب ﴿ عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ أنهم شفعاؤكم، أو لا بعث ولاحساب لظهور كذبكم.

الإشارة: كل من ادعى حالاً أو مقاماً، يعلم من نفسه أنه لم يُدركه ولم يتحقق به، فالآية تَجُرُّ ذيلَها عليه. وفى قوله: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى .. ﴾ إلخ، إشارة إلى أن الدخول على الله والوصول إلى حضرته، لا يكون إلا بعد قطع العلائق والعوائق والشواغل كلها، وتحقيق التجريد ظاهراً وباطناً؛ إذا لاتتحقق الفردانية إلا بهذا.

وقال الورتجبى : ولى هنا لطيفةٌ أخرى، أى: ولقد جئتمونا موحِّدين بوحدانيتى، شاهدين بشهادتى، بوصف الكشف والخطاب، كما جئتمونا من العدم فى بدء الأمر، حين عَرَّفْتكم نفسى بقولى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[3]، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل، كما وصفهم نبيه ﷺ : «كُلُّ مَولُود يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»، يعنى: على

(١) من الآية ٣١ من سورة الأنفال.
(٢) أى غير مختونين.
(٣) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف

قطرة الأزل بلزوم سمة العبودية بلا علة الاكتساب، عند سبق الإرادة. انتهى. **قلت**: وحاصل كلامه: أن مجيئهم فُرادى، كناية عن دخولهم الحضرة القدسية بعد تقديس الأرواح وتطهيرها، حتى رجعت لأهلها، كما خلقها أول مرة، أعني: مقدسة من شواهد الحس، مُطهرة من لوْث الأغيار، على فطرة الأزل، فشبه مجيئها الثاني بعد التطهير ببروزها الأول، حين كانت على أصل التطهير، كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى من الحس وشهود الغير كما خلقناكم كذلك في أول الأمر. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾ أي: من العلوم الرسمية، والطاعات البدنية والكرامات الحسية، قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي العارف: كنت أعرف أربعة عشر علْماً، فلما علمت علم الحقيقة سرطت ذلك كله، فلم يبق لي إلا التفسير والحديث والمنطق .هـ. وقوله تعالى: ﴿ ومانرى معكم شفعاءكم ﴾ إشارة إلى أنهم دخلوا من باب الكرم لا من باب العمل. والله تعالى أعلم.

ثم شرع يذكر دلائل توحيده وتعريف ذاته، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: (ومُخْرِج): معطوف على (فالق)، على المختار؛ لأنّ (يُخرج الحى) ـ واقع موقع البيان له، و(سكنا): مفعول بفعل محذوف، أي: جعله سكنا، إلا أن يريد بجاعل: الاستمرار، فحينئذ ينصب المفعول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ أي: يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها، ﴿ يُخرج الحي ﴾ أي: كل ما ينمو من الحيوان والنبات؛ ليطابق ما قبله، ﴿ من الميت ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿ ومُخرج الميت من الحى ﴾ أي: ومخرج الحب والنُّطَف من الحى، ﴿ ذلكم الله ﴾ أي: ذلكم المخرج والمحيى المُميت هو الله المستحق للعبادة دون غيره، ﴿ فأنّى تُؤفكون ﴾؛ تصرفون عنه إلى غيره.

﴿ فالق الإصباح ﴾ أي: شاقّ عمُود النهار عن ظُلْمة الليل، ﴿ وجاعل[1] الليل سكنا ﴾ أي: يُسكن فيه من تعَب النهار للاستراحة، ﴿ و ﴾ جعل ﴿ الشمس والقمر حُسبانا ﴾ أي: على أدوار مختلفة، يُعلم بها حساب

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ـ وكذا خلف ـ : (جَعَلَ) فعلاً ماضياً. وقرأ باقي السبعة (جاعل) باسم الفاعل مضافاً إلى الليل.

الأزمنة والليل والنهار، أو حُسباناً كحسبان الرّحا يدور بهما الفلك دورة بين الليل والنهار، ﴿ ذلك ﴾ التسيير بالحساب المعلوم، هو ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ الذي قهرهما بعزته، وسيرهما على ذلك السير البديع بعلمه وحكمته.

الإشارة: إذا أحب الله عبداً فلق حبة قلبه بعشقه ومحبته، وفلق نواة عقله بالتبصر في عجائب قدرته، فلايزال قلبه يميل إلى حضرته، وعقلُه يتشعشع أنواره بازدياد تفكره في عجائب عظمته، حتى تُشرق عليها شمس العرفان، فيفلق عمود فجرها عن ظلمة ليل وجود الإنسان، فيصير حياً بمعرفته، بعد أن كان ميتاً بجهله وغفلته، فيميته عن شهود نفسه، ثم يحييه بشهود ذاته، يُخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، جاعل ليل العبودية سكناً، وشمس العرفان وقمر الإيمان حسباناً، تدور الفكرة بأنوارهما، كما يدور الفلك بالشمس والقمر الحسيين، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ﴾ أي: ببعضها ﴿ في ظلمات البر والبحر ﴾ أي: في ظلمات الليل في البر والبحر، وأضاف الظلمات إليهما؛ لملابستها بهما، أو في مشتبهات الطرق في البر والبحر، وسماها ظلمات على الاستعارة، ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾؛ بيناها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ فإنهم المنتفعون بها.

الإشارة: جعل الحق ـ جل جلاله ـ نجوم العلم يهتدى السائرون بها في مشكلات أمور الشريعة وأمور الحقيقة، فلبر الشريعة علم يسير به أهلُه إلى جنته ورضوانه، ولبحر الحقيقة علم يسير به أهلها الطالبون لها إلى معرفة ذاته وصفاته، وشهودها في حال جلاله وجماله، ولله در المجذوب رضي الله عنه ، حيث قال:

العلم سرايا من هند، والجهل صندوق راشي | من لا قرايش يعرف الله ما هو مبني على شي[1]

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسۡتَقَرٌّ وَمُسۡتَوۡدَعٌۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(١) زجل بلهجة مغربية.

قلت: من قرأ (مستقر) بفتح القاف، فمصدر، أو اسم مكان ومن قرأه بالكسر؛ فاسم فاعل، وعلى كل ـ هو مبتدأ، حذف خبره؛ الجار والمجرور، أي: لكم مستقر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ آدم عليه السلام ﴿فمستقر ومستودع﴾ أي: فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع فيهما، أو: فمنكم مُستَقِرٌ في الأصلاب أو في الأرض، أي: قارٌ فيهما، ومنكم مستودَع في الأرحام أو تحت الأرض.

وقيل: الاستقرار: في الأرحام، والاستيداع: في الصلب، بدليل قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾[1].

﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ أي: يفهمون دقائق أسرار القدرة، ذكر مع النجوم: ﴿يعلمون﴾؛ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق بني آدم: ﴿يفقهون﴾؛ لأن إنشاءهم من نفس واحدة، وتصريفهم على أحوال مختلفة، دقيق يحتاج إلى زيادة تفهم وتدقيق نظر.

الإشارة: بعض الأرواح مستقرها الفناء في الذات، ومستودعها الفناء في الصفات، وهم العارفون من أهل الإحسان، وبعضها مستقرها الفناء في الصفات، ومستودعها الاستشراف على الفناء في الذات، وهم أهل الإيمان بالغيب. وقال الورتجبي: بعض الأرواح مستقرها الصفات، ومستودعها الذات، بنعت البقاء في الصفات، والفناء في الذات؛ لأن القِدَم منزه أن يحل فيه الحدث.هـ.

ثم ذكر بُرهاناً آخر، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

قلت: الضمير في (منه): يعود على النبات، و(خَضِراً): نعت لمحذوف، أي: شيئاً خضراً، و(قنوانٌ): مبتدأ، و(من النخل): خبر، و(مِن طلعها): بدل، والطَّلع: أول ما يخرج من التمر في أكمامه، والقنوان: جمع قنو، وهو العنقود من التمر، و (مُشتبهاً): حال من الزيتون والرمان، أو من كل ما تقدم من النبات، و(جنات): عطف على (نبات كل شيء). و(ينْعِه) أي: نضجه وطيبه، يقال: ينَعتِ الثمرة، إذا أدركت وطابت.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى أنزل من السماء﴾ أي: السحاب أو جانب السماء، ﴿ماء فأخرجنا﴾، فيه الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ﴿به﴾ أي: بذلك الماء، ﴿نبات كل شيء﴾ أي: نبات كل صنف من النبات على اختلاف أنواعه، فالماء واحد والزهر ألوان، ﴿فأخرجنا منه﴾ أي: من النبات، شيئا ﴿خضراً﴾ وهو ما يتولد من أصل النبات من الفراخ، ﴿نُخرجُ منه﴾ أي: من الخَضِر، ﴿حبًّا مُتراكبًا﴾ وهو السنبل؛ لأن حبه بعضه فوق بعض، وكذلك الرمان والذرة وشبهها، ﴿ومن النخل من طلعها قِنوانٌ دانية﴾ أي: ويخرج من طلع النخل عناقيد متدانية قريبة من المتناول، أو ملتفة، قريب بعضها من بعض، وإنما اقتصر على المتداني دون العالي؛ لزيادة النعمة والتمكن من النظر فيه، دون ضده.

﴿و﴾ أخرجنا أيضا بذلك الماء، ﴿جنات﴾ أي: بساتين، ﴿من أعناب﴾ مختلفة الألوان والأصناف ﴿و﴾ أخرجنا به ﴿الزيتونَ والرمانَ﴾ على اختلاف أصنافها، ﴿مُشْتبِهًا وغير مُتشَابه﴾ أي: من النبات والثمار ما يُشبه بعضه بعضاً، في اللون والطعم والصورة، ومنه ما لا يُشبه بعضه بعضا، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار القدير العليم المريد، ولذلك أمر بالنظر والاعتبار فقال: ﴿انظروا إلى ثمره﴾ أي: انظروا إلى ثمرة كل واحد من ذلك ﴿إذا أثمر﴾، ﴿و﴾ انظروا إلى ﴿ينْعِه﴾؛ إذا ينع، أي: طاب ونضج، والمعنى: انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفاً لا منفعة فيه، ثم ينتقل من طوْر إلى طور، حتى يينع ويطيب.

﴿إنَّ في ذلكم لآيات﴾ دالة على وجود الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة، ونقلها من حال إلى حال، لا يكون إلا بإحداث قادر، يعلم تفاصيلها، ويُرجِّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه، أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك فقال: ﴿وجعلوا لله شركاء...﴾ إلخ. قاله البيضاوي.

الإشارة: مَنْ كحَّل عينه بإثمد التوحيد، غرق الكائنات كلها في بحر التوحيد والتفريد، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع، ففيه نور من جمال الحضرة ساطع، ولذلك قال ابن الفارض رضي الله عنه:

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمُ لاتَنْظرُ ... وَسِوَاكُمُ فِي خَاطِرِي لا يَخْطُرُ

وقال الششتري رضي الله عنه:

انْظُر جَمالِي شاهِداً ... فِي كُلِّ إنْسانْ

كالماءِ يَجْرِي نافِذاً ... فِي أُسِّ الأغْصان

يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ ... والزَّهْرُ ألْوانْ

وقال صاحبُ العَينية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ ... فَفِي كُلِّ مَرْئِيٍّ لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ

فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً ... تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهُنَّ مَطَالِعُ

فما برز في عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)، ولا يعرف هذا ذوقًا إلا أهل العيان، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه، الذي أشار إليه بقوله:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾

قلت: (الجن): مفعول أول لجعلوا، و(شركاء): مفعول ثانٍ، وقدّم لاستعظام الإشراك، أو (شركاء): مفعول أول، و(لله): في موضع المفعول الثاني، و(الجن): بدل من شركاء، وجملة (خلقهم): حال، و(بديع): خبر عن مضمر، أو مبتدأ و جملة (أنّى): خبره، وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أي: مبدع السموات، أو إلى فاعلها: أي: بديع سمواته، من بَدُعَ؛ إذا كان على نمط عجيب، وشكل فائق، وحُسْن لائق.

يقول الحق جل جلاله، توبيخًا للمشركين: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ في عبادته، وهم ﴿الجن﴾ أي: الملائكة؛ لاجتنانهم أي: استتارهم، فعبدوهم واعتقدوا أنهم بنات الله، أو الجن حقيقة، وهم الشياطين؛ لأنهم أطاعوهم كما يُطاع الله تعالى، أو: عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، فقد أشركوا مع الله، ﴿و﴾ الحال أن الله قد ﴿خلقهم﴾ أي: الجن أي: عبدوهم وهم مخلوقون، أو الضمير للمشركين، أي: عبدوا الجن، وقد علِموا أن الله قد خلقهم دون الجن لعجزه، وليس من يَخلُق كمَنْ لا يَخلُق.

﴿وخرقوا له﴾ أي: اختلقوا وافتروا، أو زوّروا برأيهم الفاسد له ﴿بنين﴾ كالنصارى في المسيح، واليهود في عُزَير، ﴿وبنات﴾ كقول العرب في الملائكة: إنهم بنات الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ قالوا ذلك ﴿بغير علم﴾ أي: بلا دليل ولا حجة، بل مجرد افتراء وكذب، ﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تنزيهًا له، وتعاظم قدره ﴿عما يصفون﴾ من أن له ولدًا أو شريكًا.

وكيف يكون له الولد أو الشريك، وهو ﴿ بديعُ السموات والأرض ﴾ ؟. أي: مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، والمعنى: أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة؛ لأنه تعالى منزه عن الأفعال بالمادة. والوالد عنصر الولد، ومنفصل بانتقال مادته عنه، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟. ولذلك قال: ﴿ أنّى يكونُ له ولدٌ ﴾ أي: من أين، أوكيف يكون له ولد، ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ يكون منها الولد، فإن انتفاء الصاحبة مستلزم لانتفاء الولد، ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة فى العادة، وانتفاء الصاحبة مما لا ريب فيه، وكيف أيضا يكون له ولد ﴿ و ﴾ قد ﴿ خلقَ كلَّ شيء ﴾، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه؟ ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي: أحاط بما من شأنه أن يعلم كائناً ما كان، فلا تخفى عليه خافية مما كان، ومما سيكون من الذوات والصفات، ومن جملتها: ما يجوز عليه تعالى وما يستحيل كالولد والشريك.

﴿ ذلكم ﴾ المنعوت بما ذكر من جلائل الصفات، هو ﴿ الله ﴾ المستحق للعبادة خاصة، ﴿ ربكم ﴾ أي: مالك أمركم لا شريك له أصلاً، ﴿ خالقُ كل شيء ﴾، مما كان وسيكون، ولا تكرار مع ما قبله؛ لأن المعتبر فيما تقدم خالقيته لِما كان فقط، كما تقتضيه صيغة الماضي، بخلاف الوصف يصلح للجميع، وإذا تقرر أنه خالق كل شيء ﴿ فاعبدوه ﴾؛ فإن من كان خالقًا لكل شيء، جامعاً لهذه الصفات، هوالمستحق للعبادة وحده، ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي: هو متولى أمورجميع عباده ومخلوقاته، التى أنتم من جملتها، فكِلُوا أمركم إليه، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخروية، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته وحفظه.

الإشارة: كل من خضع لمخلوق فى نيل حظ دنيوى، إنسيًا أو جنيا، أو أطاعه فى معصية الخالق، فهو مشرك به مع ربه، ﴿ ومن يُشرك بالله فقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً ﴾(١)، فلذلك عمل الصوفية على مجاهدة نفوسهم فى مخالفة الهوى؛ لئلا تميل بهم إلى شيء من السِّوى، وتحرروا من رق الطمع، وتوجهوا بهمتهم إلى الحق وحده، ليتبرأوا من أنواع الشرك كلها، جليها وخفيها. حفظنا الله بما حفظهم به. آمين.

ثم عرَّف بذاته المقدسة، فقال:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لا تدركه الأبصارُ ﴾ أي: لا تحيط به، ولا تناله بحقيقته، وعن ابن عباس: (لا تدركه فى الدنيا، وهو يُرى فى الآخرة)، ومذهب الأشعرية: أن رؤية الله فى الدنيا جائزة عقلاً، لأن موسى عليه السلام سألها، ولا يسأل موسى ما هو محال، وأحالته المعتزلة مُطلقًا، وتمسكوا بالآية، ولا دليل فيها؛ لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية، ولا النفى فى الآية عامًا فى الأوقات، فلعله مخصوص ببعض الحالات، ولا فى الأشخاص؛ فإنه فى قوة قولنا: لا كل بصر يدركه، مع أن النفى لا يوجب الامتناع. قاله البيضاوى.

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء

ثم قال تعالى: ﴿وهو يُدرك الأبصارَ﴾ أي: يحيط علمه بها؛ إذ لا تخفى عليه خافية، ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ فيدرك مالا تدركه الأبصار، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكْمَين السابقين على طريق اللفّ، أي: لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مقابلاً للكثيف، لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. قاله البيضاوي وأبو السعود.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده فى مظاهر الأكوان، لكنه لحكمته وقدرته، قد تجلى بين الضدين، بين الأنوار والأسرار، بين الحس والمعنى، بين مظهر الربوبية وقالب العبودية. فالأنوار ما ظهر من الأوانى، والأسرار ما خَفِيَ من المعانى، فالحس ما يُدرك بحاسة البصر، والمعنى ما يُدرك بالبصيرة. فالحس رداء للمعنى، فمن فتح الله بصيرته استولى نورُ بصيرته على نور بصره، فأدرك المعانى خلف رقة الأوانى، فلم تحجبه الأوانى عن المعانى، بل تمتحق فى حقه الأوانى، ولا يرى حينئذ إلا المعانى. لذلك قال الحلاج، لما سئل عن المعرفة، قال: (استهلاك الحس فى المعنى)، فإذا فَنِيَ العبد عن شهود حسِّه بشهود معناه، غاب وجوده فى وجود معبوده، فشاهد الحقَّ بالحق. فالعارفون لمَّا فنوا عن أنفسهم، لا يقع بصرهم إلا على المعانى، فهم يشاهدون الحق عياناً. ولذلك قال شاعرهم:

مُــذْ عَـرَفْتُ الإلــهَ لَـمْ أَرَ غَـيْـرًا		وَكَــذا الـغَـيْـرُ عِـنْـدَنَا مَـمْنُـوعُ

وقال فى الحِكَم: «ماحَجَبَكَ عن الحَقِّ وجُودُ مَوْجُودٍ معَهُ؛ إذْ لا شَيْءَ مَعَهُ، وإنَّما حَجَبك تَوَهُّمُ مَوجُودٍ معَهُ».

وقوله تعالى: ﴿لا تُدركه الأبصارُ﴾ أى: الأبصار الحادثة، وإنما تدركه الأبصار القديمة فى مقام الفناء. وقال الورتجبي: لا تدركه الأبصار، إلا بأبصار مستفادة، من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان؟ ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم .هـ. أو لا تحيط به، إذ الإحاطة بكُنْه الربوبية متعذرة. وعلى هذا حمل الآية في نوادر الأصول، قال: إدراك الهوية ممتنع، وإنما يقع التجلى بصفة من صفاته.

وقال ابن عبد الملك فى شرح مشارق الصغانى، ناقلاً عن المشايخ: إنما يتجلى الله لأهل الجنة، ويريهم ذاته تعالى، فى حجاب صفاته، لأنهم لا يطيقون أن يروا ذاته بلا حجابِ مرتبةٍ من مراتب الصفات. وقال الورتجبى: التجلى لا يكون بكلية الذات، ولا بكلية الصفات، وإنما يكون على قدر الطاقات، فيستحيل أن يقال: تجلى كل الهوى لذرة واحدة، وإنما يتجلى لها على قدرها. هـ.

وتتفاوت الناس فى لذَّة النظر يوم القيامة على قدر معرفتهم فى الدنيا، وتدوم لهم النظرة على قدر استغراقهم هنا، فمن كان هنا محجوباً لا يرى إلا الحس، كان يوم القيامة كذلك، إلا فى وقت مخصوص، يُغيبه الحق تعالى

عن حسه، فيشاهد معاني أسرار الربوبية في مظاهر أنوار صفاته. ومن كان هنا مفتوحاً عليه في شهود المعاني، كان يوم القيامة كذلك، لا تغيب عنه مشاهدة الحق ساعة.

قال الغزالي في كتاب الأربعين: إذا ارتفع الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة. قلت: ومعنى كلامه: أن ما عرفه به هنا من التجليات، صار بعينه هناك مشاهدة؛ لأن المعنى هناك غالب على الحس، بخلاف دار الدنيا، الحس فيها غالب، إلاَّ لمن غاب عنه واستهلكه. ثم قال: ويكون لكل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله تعالى في النظر على لذة غيرهم، ولذلك يتجلى الله تعالى لأبي بكر خاصة، ويتجلى للناس عامة.

وقال في الإحياء: ولمَّا كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي على درجات متفاوتة، ثم ذكر حديث التجلي لأبي بكر المتقدم. ثم قال: فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر، ممن هو دونه، يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجده، إلا عُشْرَ عُشْرِهِ إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره، ولما فضَلَ الناس بسر وقر في صدره، فضل لا محالة بِتَجلٍّ انفرد به.

وقال أيضاً: يتجلى الحق للعبد، تجلياً يكون انكشاف تجليه، بالإضافة إلى ما علمه، كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله - أي: إلى ما وصفه له الواصف. ثم قال: وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، ثم قال: المعرفة الحاصلة في الدنيا هي التي تستكمل، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف، إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح. وقال أيضاً: وبحر المعرفة لاساحل له، والإحاطة بكنه جلاله مُحال، وكلما كثرت المعرفة وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة، وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن؛ كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولاحصاد إلا في الآخرة.هـ.

قال شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه: بل الرجال زرعوا اليوم وحصدوا اليوم. وفي تفسير الأقليشي لقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(١) : ليس لهذه الهداية - مادام العبد في الدنيا - نهاية، حتى إذا حصل في جوار الجبار، ونظر إلى وجهه العظيم، كان حظه من النعيم بقدر ما هداه في الدنيا لصراطه المستقيم.هـ. وقال في نوادر الأصول: في الحديث: «إنَّ مِنْ أهلِ الجنّة من ينظرُ إلى الله عزَّ وجلَّ غُدْوَةً وعَشِيًّا». وروُي عن معاذ أنه قال: «صنْفٌ مِنْ أهْلِ الجنّة مَنْ يَنْظُر إلى الله عزَّ وجلّ، لا يُستر الربُّ عنهم ولا يحتَجِبُ»، ثم قال: وذُكر أن الرضوان آخر ما ينال أهلُ الجنة، ولا شيء أكبر منه، وكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على الله في الدنيا.هـ.

---

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

وقوله تعالى: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾، قال الورتجبي: هو بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه، مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم، وجوداً وعدماً، أي: وإنما يُرى بنوره، لا بالحواس الخفاشية، فإنها تضعف عن مقاومة شعاعه، وتنخنس عند انكشاف سُبحاته.هـ. على نقل الحاشية الفاسية. والله تعالى أعلم.

ولمَّا كان الاطلاع على هذه الأسرار، به تنفتح البصائر، أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: البصائر: جمع بصيرة، وهي عَيْنُ القلب، كما أن البصر عين البدن، فالبصيرة ترى المعاني القديمة، والبصر يرى الحسيات الحادثة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد جاءكم﴾ أيها الناس ﴿بصائرُ من ربكم﴾ أي: براهين توحيده، ودلائل معرفته، حاصلةٌ من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه، ﴿فمن أبصرَ﴾ الحق، وآمن به، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه، ﴿فلنفسه﴾ أبصر، ولها نفع، ﴿ومن عَمِيَ﴾ عنها، ولم يرفع بها رأساً، وضل عن الحق، ﴿فعليها﴾ وباله وضرره، ولا يتضرر بها غيره، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أرقب أعمالكم وأجازيكم، وإنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم، يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

الإشارة: البصيرة كالبصر، أدنى شيء يقع فيها يَضُرُّ بناظرها، وهي على أقسام: منها ما تكون عمياء، والعياذ بالله، وهي التي فسد ناظرها بفساد الاعتقاد، كبصيرة الكفار ومن قاربهم، ومنها ما تكون مريضة فقط، لاتقاوم شعاع شمس التوحيد الخاص، وهي بصيرة أهل الغفلة، ومنها ما يخف مرضها فيكون لها شعاع، تدرك قرب نور الحق منها؛ وهي بصيرة المتوجهين من العباد والزهاد ونهاية الصالحين.

ومنها ما تكون قريبة البُرْء والصحة، قد انفتحت، لكنها حيرى؛ لما فاجأها من النور، وهي بصيرة المريدين السائرين من أهل الفناء، ومنها ما تكون صحيحة قوية، قد تمكنت من شهود الأنوار، ورسخت في بحر الأسرار، وهي بصيرة العارفين المتمكنين في مقام البقاء، وقد أشار في الحِكَم إلى الثلاثة فقال: «شُعاعُ البصيرة يُشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لاعدمك ولا وجودك، كان اللهُ ولا شيءَ معهُ، وهو الآنَ على ما عليه كان».

وذِكْرُ هذه الآيات، سبب لضلال أهل الشقاء وهداية أهل العناية، كما بيَّن ذلك بقوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت: تصريف الشيء: إجراؤه على أحوال متعاقبة وجهات مختلفة، ومنه: تصريف الرياح لهبوبها من جهات مختلفة، ولما كانت آيات القرآن تنزل على أنواع مختلفة في أوقات متعاقبة، شبهت بتصريف الرياح على أنحاء مختلفة، (وليقولوا) : متعلق بمحذوف، أي: وليقولوا: درست، صرفنا الآيات، واللام للعاقبة، وكذلك: (ولنبينه) : المتعلق واحد.

يقول الحق جل جلاله: ومثل ذلك التصريف الذي صرفنا من الآيات، من قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾[1] إلى قوله: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[2] . ﴿ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ في المستقبل لتكون عاقبة قوم الشقاء بها بتكذيبهم إياها ،﴿ وليقولوا ﴾ لك: ﴿ دارسْتَ ﴾[3] أهل الكتاب، وتعلمت ذلك منهم، وليس بوحي، أو ﴿ درسَتْ ﴾ هذه الأخبار وعفت، وأخبرت بها من إملاء غيرك عليك، كقولهم: أساطير الأولين، وليكون عاقبة قوم آخرين الاهتداء، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أي: وليتضح معناه عند قوم آخرين، فيهتدوا به إلى معرفتي وتوحيدي ومحل رضواني وكرامتي، فالخطاب متحد، والأثر مختلف على حسب السابقة.

الإشارة: ظهور الآيات على يد أهل الخصوصية- كالعلوم اللدنية والمواهب الربانية- لا يوجب لهم التصديق لجميع الخلق، فلو أمكن ذلك لكان النبي ﷺ أولى به، بل لابد من الاختلاف، فقوم قالوا: هذه العلوم... دارس فيها وتعلمها، وقوم قالوا: بل هي من عند الله لا كسب فيها، قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[4].

ثم أمر نبيه بالإعراض عن أهل الإنكار، فقال:

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ بالدوام على التمسك به، والاهتداء بهديه، ودم على توحيده، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ فلا تصغ إلى من يعبد معه غيره، ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ ، فلا تحتفل بأقوالهم، ولا تلتفت إلى رأيهم، وهذا محكم، أو: أعرض عن عقابهم وقتالهم، وهو منسوخ بآية السيف، ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ : لكن سبقت مشيئته بإشراكهم، ولو أراد إيمانهم لآمنوا، وهو حجة على المعتزلة، ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظا ﴾ : رقيباً، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ تقوم بأمرهم، وتلجئهم إلى الإيمان؛ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾[5].

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام. (٢) الآية ١٠٤ من السورة نفسها.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف، وقرأ ابن عامر ويعقوب (درسَتْ) أي: قدمت وبليت، وقرأ الباقون (درسْتَ) أي: حفظت وقرأت.. انظر: إتحاف فضلاء البشر.

(٤) الآية ١١٨ من سورة هود. (٥) الآية ٢٣ من سورة فاطر.

الإشارة: الإعراض عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق ركن من أركان الطريق، قال الشيخ زروق رضي الله عنه: أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع الرسول في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والرضا عن الله في القليل والكثير. هـ.

ثم نهى عن التعرض لأصنامهم، فقال:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تسبوا﴾ أصنامهم ﴿الذين﴾ يدعونها آلهة، ويخضعون لها ﴿من دون الله﴾ أي: ولا تذكروا آلهتهم بسوء، ﴿فيسبوا الله عدوًا﴾ أي: ظلمًا وتجاوزًا عن الحق إلى الباطل، ﴿بغير علم﴾ أي: على جهالة بالله تعالى، وبما يجب أن يذكر به من التعظيم، روى أنه ﷺ كان يطعن في آلهتهم، فقالوا: لتنتهين عن آلهتنا أو لنهجُونَّ إلهك، فنزلت. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنهوا؛ لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى، واستدل المالكية بهذا على سد الذرائع. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت لمعصية راجحة وجب تركها، فإنّ ما يؤدي إلى الشر شر.هـ. وقال ابن العربي: وقاية العرض بترك سنة واجب في الدين. هـ.

قال تعالى: ﴿كذلك زينًا لكل أمة عملهم﴾ من الخير والشر، نحملهم على ما سبق لهم توفيقًا أو تخذيلاً، أو يكون مخصوصًا بالشر، أي: زيّنا لكل أمة من الكفرة عملهم السوء؛ كسب الله تعالى وغيره من الكفر، ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ من الخير فيجازيهم عليه، أو من الشر فيعاقبهم عليه.

الإشارة: العارف الكامل لا ينقص شيئًا من مصنوعات الله، ولا يصغر شيئًا من مقدورات الله، بل يتأدب مع كل شيء؛ لرؤية صنعة الله في كل شيء، وكذلك المريد اللبيب، يتأدب مع كل من ظهر بالخصوصية في زمنه، كان صادقًا أو كاذبًا؛ لئلا يؤدي إلى تنقيص شيخه، حين يذكر غيره بتقص أو غض. وفي الحديث: «لعن الله من يسبُّ والديه، فقالوا: وكيف يسبُّ والديه يا رسول الله؟ قال: يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ الرجلُ أباهُ وأمه»[1] أو كما قال ﷺ.

ثم ردّ عليهم في اقتراح الآيات، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

(١) أخرجه البخاري في (الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه) ومسلم في (الإيمان، باب: بيان الكبائر) عن عبدالله بن عمرو. ولفظ البخاري: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

قلت : (جهد) : مصدر لعامل محذوف، أي: واجتهدوا جهد أيمانهم، وهو حال، أي: وأقسموا جاهدين أيمانهم، ومن قرأ: (أنها) ؛ بالفتح، فهو مفعول يشعركم، أي: وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون، وقيل: (لا) : مزيدة، أي: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا رأوها، وقيل: أن، هنا، بمعنى لعل. ومن قرأ بالكسر فهو استئناف، وتم الكلام في قوله: (وما يشعركم) أي: وما يشعركم ما يكون منهم، فعلى القراءة بالكسر، يوقف على: (ما يشعركم) ، وأما على القراءة بالفتح، فإن كانت أنّ . مصدرية لم يوقف عليه؛ لأنه عامل فيها، وإن كانت بمعنى: لعل، فأجاز بعض الناس الوقف، ومنعه بعضهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأقسموا ﴾ أي: المشركون، ﴿ بالله ﴾ واجتهدوا في أيمانهم، ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ ظاهرة يشاهدونها، ﴿ ليؤمنن بها ﴾ وبمن جاء بها، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ وفي قدرته وإرادته، يظهرها حيث شاء، وليس في قدرتي منها شيء ، ﴿ وما يشعركم ﴾ أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بها ، لما سبق لهم من الشقاء، وقد كان المؤمنون يتمنون إنزالها طمعًا في إيمانهم، وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما لم ينزلها؛ لعلمه بأنها ﴿ إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بها. وقيل: الخطاب للمشركين، ويتأتى هذا على كسر «إن»، أو على قراءة ابن عامر وحمزة: «لا تؤمنون» ؛ بتاء الخطاب، وقرئ: ﴿ وما يشعرهم ﴾ بالغيبة، فيكون إنكارًا لهم على حلفهم.

ثم ذكر سبب عدم إيمانهم فقال: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ عند نزول الآية، أي: نصرف قلوبهم ونحولها عن الحق، فلا يفقهون بها، ونقلب أبصارهم عن النظر والتفكر، فلا يبصرون بها الحق، فيصرفون عن الإيمان بما أنزل إليك ﴿ كما لم يؤمنوا به ﴾ أي: بما أنزل من الآيات، ﴿ أول مرة ونذرهم في طغيانهم ﴾ أي: في كفرهم وجحدهم ﴿ يعمهون ﴾ أي: يتحيرون، فلا نهديهم هداية المؤمنين.

الإشارة: سألني بعض العوام، فقال لي: ليس لكم ولا لأصحابكم كرامات تظهر فيمن آذاكم، فقد كان أصحاب سيدي فلان وفلان يظهرون الكرامات، وينفذون في من آذاهم؟! فقلت له: نحن على قدم نبينا ﷺ، أرسله الله رحمة للعالمين، فقد أوذي وضرب، فلما خيره ملك الجبال في أن يطبق عليهم الأخشبين ـ أي الجبلين ـ قال: «لا، لعل الله تعالى يخرج منهم من يعبد الله» ، وقال حين أكثروا إيذاءه: «اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون» ، فالأولياء المحققون: رحمة للعباد، يتحملون أذاهم، ويتوجهون لمن آذاهم في الدعاء له بالهداية والتوفيق، فهم قوم لا يشقى جليسهم، جالسهم بالإنكار أو بالإقرار، وقد ظهرت الكرامات على بعض الأولياء ولم ينقطع عنهم الإنكار، فإنّ الإيمان أو التصديق بالنبي أو الولي إنما هو محض هداية من الكبير العلي، كما بيّن ذلك بقوله:

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

قلت: (قبلا) : بكسر القاف؛ معاينة، وبضمتين: جمع [قبيل][1]، أي: ضمناء، وهو حال.

يقول الحق جل جلاله، في الرد على المشركين، حين أقسموا: لئن رأوا آية ليؤمنن بها، فقال تعالى: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾ تشهد لك بالنبوة كما اقترحوا، ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ كما طلبوا بقولهم: ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا ﴾[2]، وقالوا: إنّ قُصيًا كان شيخ صدق، فابعثه لنا يكلمنا ويشهد لك بما تدعى.

﴿ و ﴾ لو ﴿ حشرنا عليهم ﴾ أي: جمعنا عليهم، ﴿ كل شيء ﴾ من الحيوانات والجمادات، معاينة، أو ضمناء، تشهد لك بالرسالة والنبوة، ﴿ ماكانوا ليؤمنوا ﴾ بك في حال من الأحوال، ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ إيمانهم فيمن لم يسبق له الشقاء، ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا ، فكيف يقسمون بالله جَهْدَ أيمانهم على ما لا يعلمون؟!، فالجهل بهذا المعنى حاصل لأكثرهم، ومطلق الجهل حاصل لجميعهم، أو: ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الآية تسكين لقلوب الأولياء الداعين إلى الله، حين يرون الخلق قد حادوا عن باب الله، وتعلقت هممهم بالدنيا الدنية، وتشتتت قلوبهم، وضاعت عليهم أعمارهم، فيتأسفون عليها، فإذا تفكروا في هذه الآية وأمثالها سكنوا وردوا أمر عباد الله إلى مشيئته وإرادته، فلو شاء الله لهدى الناس جميعا، ولايزالون مختلفين: (ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله). وبالله التوفيق.

ومما تعلقت به المشيئة، وجرت به الحكمة، أنه لابد أن يبقى للنبي من يُحرّكه إلى ربه، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت: (شياطين): بدل من (عدو)؛ إذ هو بمعنى الجمع، أو مفعول أول لجعلنا، و(عدواً): مفعول ثان، والضمير في (فعلوه): للوحي، أو للعداوة، و(غرورا): مفعول له، أو مصدر في موضع الحال (لتصغى): عطف على غرورا، أو متعلق بمحذوف، أي: فعلنا ذلك لتصغى... إلخ.

يقول الحق جل جلاله، في تسلية نبيه - عليه الصلاة والسلام -: وكما جعلنا لك أعداء من الكفار، ﴿ جعلنا لكل نبيٍ عدُوا ﴾ من شياطين ﴿ الإنس والجن ﴾ أي: من مردة الفريقين، وشياطين الإنس أقبح؛ لأنه يأتي في

---

(١) في الأصول : قبل.　　(٢) كما جاء في الآية ٣٦ من سورة الدخان

صورة ناصح، لايدفع بتعوذ ولا غيره. ﴿ يوحي ﴾ أي: يوسوس، ﴿ بعضهم إلى بعض ﴾ ، فيوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، ثم يوسوس شياطين الإنس إلى من يريد الحق اختباره وابتلاءه، يلقى إليه ذلك الشيطان ﴿ زخرف القول ﴾ أي: أباطيله، أي: قولاً مزخرفاً مزوّقاً ﴿ غرورا ﴾ أي: لأجل الغرور، فإن أراد الله خذلان ذلك العبد غره ذلك الشيطان بزخرف ذلك القول فيتبعه، وإن أراد توفيقه وزيادته أيده وعصمه، وكل شيء بقدره وقضائه، ﴿ ولو شاء ربك ﴾ هدايتهم ما فعلوا ذلك الوحي، أو ما ذكر من المعاداة للأنبياء، ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ على الله من الكفر وغيره، فلا تهتم بشأنهم.

وإنما فعلنا ذلك الإيحاء ﴿ لتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ فيغتروا به، ﴿ وليرضوه ﴾ لأنفسهم، ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ أي: وليكتسبوا من الإثم والكفر ما هم مكتسبون بسبب ذلك الوحي من الجن أو الإنس، وفي الآية دليل لأهل السنة في أن الله خالق الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، فالمعصية خلقها وقدرها، ولم يرضها، ﴿ لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون ﴾[1].

الإشارة: كما جعل الله لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن؛ جعل للأولياء كذلك؛ تحويشاً لهم إليه، وتطهيراً لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته، قال في الحكم: «إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء». وقال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله حكمهم في بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، كي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: «من أسدى إليكم نعماً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: آذاني إنسانٌ فضقت به ذرعاً، فرأيتُ يقال لي: مِنْ علامة الصديقية كثرةُ أعدائها ثم لا يبالي بهم. وقال بعضهم: الصيحة من العدو، سوطٌ من الله يزجر بها القلوب إذا ساكنت غيره، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه: (عداوة العدو حقا: اشتغالك بمحبة الحبيب حقّا، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك، وفاتتك محبة الحبيب). وقال بعض أشياخ الشعراني في بعض وصاياه له: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك؛ فإنه هو الذي حركه عليك؛ ليختبر دعواك في الصدق، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، فاشتغلوا بأذى من آذاهم، فدام الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم وكفاهم أمرهم. هـ.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

وهذا كله إنما يكون في البدايات، كما قال الشاذلي رضي الله عنه: (اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا) .. فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم، حكّمهم في العباد، وأذلهم لهم، فيكون العبد المجتبى سيفاً من سيوف الله، ينتصر الله به لنفسه؛ كما نبه على ذلك في لطائف المنن. وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام؛ تشريعًا لما ذكرنا، وتحذيراً من الانتصار للنفس، وعدم تمحض النصرة للحق. وعند الرسوخ في اليقين، والأمن من مزاحمة الصدق غيره، وقع الإذن في الجهاد، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام، وأما النبي ﷺ فكامل من أول نشأته، وإنما ذلك تشريع لغيره، وترفيع لرتبته. والله تعالى أعلم.

ولما طلبوا من يحكم بينهم وبينه ﷺ، أنزل الله:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

قلت: (غير): مفعول، و(حَكَمًا): حال، وهو أبلغ من حاكم، ولذلك لا يوصف به غير العادل، و(صدقًا وعدلاً): تمييز، أو حال، أو مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: قل يا محمد: ﴿ أفغير الله ﴾ أطلبُ ﴿ حكَمًا ﴾ يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق منّا من المبطل، ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب ﴾ أي: القرآن المعجز، ﴿ مُفصَّلا ﴾؛ مبيناً، قد بيّن فيه الحق من الباطل، بحيث انتفى به الالتباس، فهو الحاكم بيني وبينكم، فلا أطلب حاكماً غيره، وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه مُغْنٍ عن سائر الآيات. ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ كأحبار اليهود، ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقته له في كثير من الأخبار، ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل من ربك، والمراد غيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممن يطرقه ارتياب، والمعنى: أن الأدلة تعاضدت على صحته، فلا ينبغي لأحد أن يمترى فيه.

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾؛ آيات القرآن، بلغت الغاية في التمام والكمال، ﴿ صدقًا وعدلا ﴾ أي: من جهة الصدق والعدل، صدقًا في الأخبار والمواعيد، وعدلاً في الأقضية والأحكام، فلا أصدقَ منها فيما أخبرت، ولا أعدل منها فيما حكمت، ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يبدل منها شيئاً بما هو أصدق وأعدل، ولا أن يحرف شيئاً منها، كما فُعل بالتوراة، فهو ضمان من الحق لحفظ القرآن، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١)

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

أو: لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها، ﴿ وهو السميع ﴾ لكل ما يقال، ﴿ العليم ﴾ بكل ما يضمر، فمن ألحد أو بدل فالله عليم به.

الإشارة: من قواعد أهل التصوف: الرجوع إلى الله في كل شيء، والاعتماد عليه في كل نازل، والتحاكم إلى الله في كل أمر، إن توقفوا في حكم رجعوا إلى كتاب الله، فإنْ لم يجدوه نصاً، رجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ، فإن لم يجدوه، استفتوا قلوبهم، وفي الحديث عنه ﷺ: «استفْتِ قَلْبَكَ وإنْ أفتاكَ المُفْتُونَ وأفْتوك» . وفي بعض الآثار قالوا: يارسول الله؛ أرأيت إن اختلفنا بعدك، ولم نجد نصًا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال: «ردوه إلى صلحائكم، واجعلوه شُورَى بينهم ولا تتعدَّوا رأيهم» . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

ثم نهى عن الركون إلى الجهال، فقال:

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

قلت: (من يضل): موصولة، أو موصوفة في محل نصب بفعل دل عليه «أعلم»، أي: يعلم من يضل، فإن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به إجماعا. أو مبتدأ، والخبر: «يضل» على أن (من) استفهامية، والجملة: معلق عنها الفعل المقدر، كقوله تعالى: ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾[1].

يقول الحق جل جلاله لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولمن كان على قدمه: ﴿ وإن تُطع أكثر من في الأرض ﴾ ، من الكفار أو الجهال أو من اتبع هواه ﴿ يضلوك عن ﴾ طريق ﴿ الله ﴾ ، الموصلة إلى معرفته، وحلول رضوانه، فإن الضال لا يأمر إلا بما هو فيه، مقالاً أو حالا . والمراد بهم: من لا يقين عندهم، بل ﴿ إن يتبعون إلاَّ الظن ﴾ ، وهو ما استحسنته عقولهم، إما تقليداً، كظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو ما ابتدعوه برأيهم الفاسد من العقائد الزائفة والآراء الفاسدة، ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أي: يكذبون على الله فيما ينسبون إليه؛ كاتخاذ الولد، وجعل عبادة الأوثان وُصلة إلى الله، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يقدّرون في عقولهم أنهم على شيء، وكل ذلك عن تخمين وظن لا يقين فيه. ثم قال لنبيه: ﴿ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي: هو عالم بالفريقين، لا يخفى عليه أهل الحق من أهل الباطل.

الإشارة: مخالطة العموم والركون إليهم والمعاملة معهم سموم قاتلة، قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لابد لي،

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الكهف.

قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لابُد لى، قال: فلا تعاملهم، فإنّ معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لابد لى من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا، تنظر إلى اللاعبين، وتسمع إلى كلام الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة المعاملة فى قلبك مع الله عز وجل!! هيهات، هذا لا يكون أبدا .هـ.

وفى الخبر المروى عن رسول الله ﷺ : «أَخْوَفُ ما أَخافُ على أُمّتِى ضَعْفُ اليَقِين»[1]. وإنما يكون برؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة، وتربية اليقين وصحته إنما تُكتسب بصحبة أهل اليقين واستماع كلامهم، والتودد إليهم وخدمتهم. وفى بعض الأخبار: (تعلموا اليقينَ بمجالسةِ أهلِ اليقين)، وفى رواية: «فإنّى أتعلّمُه»، والحاصل: أن الخير كله فى صحبة العارفين الراسخين فى عين اليقين. أو حق اليقين، وما عداهم يجب اعتزالهم، كيفما كانوا، إلا بقصد الوعظ والتذكير، ثم يغيب عنهم، وإلى هذا أشار ابن الفارض رضي الله عنه بقوله:

تَمَسَّكْ بِأَذْيالِ الهَوى واخْلَعِ الحَيَا وخَلِّ سَبِيلَ النّاسِكينَ وإن جَلُّوا

وبالله التوفيق.

وأصل تنوير القلب باليقين والمعرفة: هو أكل الحلال وتجنب الحرام، كما بيّنه الحق تعالى بقوله:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ عند ذبحه، ولا تتورعوا منه، ﴿إن كنتم بآياته مؤمنين﴾، فإن الإيمان يقتضى استباحة ما أحل الله تعالى، واجتناب ما حرمه، ﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ أى: ما يمنعكم منه، وأىّ غرض لكم فى التحرّج عن أكله؟. ﴿وقد فصّل لكم﴾ فى الكتاب،

(١) ذكره بنحوه السيوطى فى الجامع الصغير، وعزاه للطبرانى فى الصغير والبيهقى فى الشعب، من حديث أبى هريرة، وحسّنه.

أو فصّل الله لكم ﴿ما حرم عليكم﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾ الآية[١] ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرم عليكم؛ فإنه حلال حال الضرورة.

﴿وإنَّ كثيراً ليُضلون﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال ﴿بأهوائهم﴾ أي: بمجرد أهوائهم ﴿بغير علم﴾ ولادليل، بل بتشهي أنفسهم، ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ المجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، ﴿وذَروا﴾أي: اتركوا ﴿ظاهرَ الإثم وباطنه﴾ أي: سره وعلانيته، أو ما يتعلق بالجوارح والقلب، ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ سراً أو علانية، ﴿سيجزون بما كانوا يقترفون﴾؛ يكتسبون.

ولما أمرهم بأكل الحلال نهاهم عن الحرام، فقال: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه﴾، بأن ترك التسمية عليه عمداً لاسهوا؛ كما هو مذهب مالك وأبي حنيفة[٢]. وقال الشافعي: تؤكل مطلقاً، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ذَبِيحَةُ المُسْلِمِ حَلالٌ وإنْ لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ»[٣]، وقال أحمد وداود: لا تؤكل إن تركت مطلقاً، عمداً أو سهوا.

وقال ابن جزي: إنما جاء الكلام في سياق تحريم الميتة وغيرها مما ذُبح للنُّصب، فإن حمّلناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية في ذبائح المسلمين، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك. وقال عطاء: هذه الآية أمر بذكر الله على الذبح والأكل والشرب .هـ.

﴿وإنه﴾ أي: الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه ﴿لفسق﴾ أو: وإنه ـ أي: عدم ذكر اسم الله على الذبيحة، لفسق ومن تزيين الشياطين، ﴿إن الشياطين ليوحون﴾؛ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾من الكفار ﴿ليُجادلوكم﴾ بقولهم: إنكم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله. وهذا يؤيد أن المراد بما لم يذكر اسم الله عليه هو الميتة، ﴿وإنْ أطعتموهم﴾ في استحلال ما حرمتُ عليكم، ﴿إنكم لمشركون﴾ مثلهم، لأن من أحل ما حرم الله فقد كفر، والجواب عن شبهتهم: أن الذكاة تطهير لخبث الميتة، مع ضرب من التعبد.

الإشارة: ليس المراد من التسمية على الطعام أو غيره مجرد اللفظ، وإنما المراد حضور المسمى، وهو شهود المنعم في تلك النعمة؛ لأن الوقت الذي يغلب فيه حظ النفس، ينبغي للذاكر المتيقظ أن يغلب فيه جانب الحق،

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) فرّق أبو حنيفة بين العامد والناسي.

(٣) أخرجه أبو داود في مراسيله (باب في الضحايا والذبائح) من حديث الصلت السدوسي. وهذا المرسل يعضده ما رواه الدارقطني في السنن: (الصيد والذبائح) عن ابن عباس قال: (إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله). ويؤيد ما ذهب إليه أيضا ما أخرجه البخاري في: (الصيد والذبائح، باب ذبيحة الأعراب) عن عائشة: أن ناساً قالوا: يارسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. راجع تفسير: القرطبي وابن كثير.

فيكون تناوله لتلك النعمة بالله من الله إلى الله، وهذا هو المقصود من الأمر بذكر اسم الله، لأن الاسم عين المسمى في التحقيق، فإن كان الأكل أو غيره مما شرعت التسمية في أوله، على هذا التيقظ، فهو طائع لله وعابد له في أكله وشربه، وسائر أحواله، وإن كان غافلاً عن هذا، فأكله فسق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ، سبب ذلك: غلبة الغفلة. والغفلة من وحي الشيطان، ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾. أو: ولا تنظروا إلى الأشياء بعين الفرق والغفلة، بل اذكروا اسم الله عليها وكلوها بفكرتكم ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله﴾ عليه من الأشياء؛ فإنه غفلة وفسق في الشهود، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ﴾؛ هو ما ظهر على الجوارح من الذنوب، وقوله: ﴿وباطنه﴾؛ هو ما كمن في السرائر من العيوب. والله تعالى أعلم.

ثم حذر من الشرك والكفر، فقال:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قلت: (كَمَنْ): موصولة، و(مَثَلُه): مبتدأ، و(في الظلمات): خبره، وقيل: مثل - هنا - زائدة، أي: كمن هو في الظلمات، و(ليس بخارج): حال من الضمير في الخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أو من كان ميتاً﴾[1] بالكفر والجهل ﴿فأحييناه﴾ بالإيمان والعلم، ﴿وجعلنا له نوراً﴾ في قلبه أي: نور الإيمان والعلم، ﴿يمشي به في الناس﴾، فيذكرهم بالله، ويدلهم على الله، ﴿كمن مثله﴾ غريق ﴿في الظلمات﴾ في ظلمة الكفر والجهل والتقليد والذنوب، ﴿ليس بخارج منها﴾ أي: لا يفارق ضلالته بحال. ﴿كذلك﴾ أي: كما زين الإيمان لهؤلاء ﴿زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾.

قال البيضاوي: مثّل به من هداه الله تعالى وأنقذه من الضلال، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ثم قال: والآية نزلت في حمزة وأبي جهل، وقيل: في عمّار وعُمر وأبي جهل. هـ. ولفظها أعم، وفي الآية من أنواع البيان: الطباق؛ في قوله: ﴿ميتا فأحييناه﴾.

الإشارة: الروح تكون أولاً على الفطرة التي فطرها الله عليها، من العلم والإقرار بالربوبية، فإذا بلغت قد تطرأ عليها موتات، ثم تحيا من كل واحدة على حسب المشيئة، فقد تموت بالكفر، ثم تحيا بالإيمان، وقد تموت بالذنوب والجرائم، ثم تحيا بالتوبة، وقد تموت بالحظوظ والشهوات، ثم تحيا بالزهد والورع والرياضة، وقد تموت بالغفلة والبطالة ثم تحيا باليقظة والإنابة، وقد تموت برؤية الحس وسجن الأكوان والهيكل، ثم تحيا برؤية المعاني وخروج الفكرة إلى فضاء الشهود والعيان، ثم لا موت بعد هذا إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

---

(١) قرأ نافع: «ميّتاً» بالتشديد، وقرأ الآخرون: «ميتاً» بالتخفيف.

وسبب هذه الموتات: صحبة الغافلين؛ الموتى، وطاعتهم حتى يمكروا بصاحبهم، كما قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قلت: (جعلنا) بمعنى صيَّرنا، يتعدى إلي مفعولين، و(مجرميها): مفعول أول، مؤخر، و(أكابر): مفعول ثان، وفيه ضعف من جهة الصناعة؛ لأن أكابر جمع أكبر، وهو من أفعل التفضيل، فلا يستعمل إلا بالإضافة، أو مقروناً بمن. قاله ابن جزى. قلت: ويُجاب بأنه لم يقصد به المفاضلة، وإنما المراد مطلق الوصف، أي: جعلناهم كبراء، فلا يلزم إفراده ولا اقترانه بمن. فتأمله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها، ليمكروا فيها بأهلها، ﴿ جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾ أي: مجرميها أكابر، ﴿ ليمكروا فيها ﴾ بمن فيها، فيمكروا بالناس فيتبعوهم على ذلك المكر، لأنهم أكابر تصعب مخالفتهم، فيحملونهم على الكفر والعصيان، ويخذلونهم عن الإسلام والإيمان، ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾؛ لأن وبال مكرهم راجع إليهم، ﴿ وما يشعرون ﴾ بذلك.

الإشارة: إذا أراد الله بقومٍ خيراً جعل الخير في أكابرهم، فيجعل أمراءهم عدولاً حلَماء، وعلماءهم زهَّادا أعفَّاء، وأغنياءهم رحماء أسخياء، وصلحاءهم قانعين أغنياء، وإذا أراد بهم شراً جعل الشر في كبرائهم، فيجعل أمراءهم فجاراً يحكمون بالهوى، وعلماءهم حراصاً جامعين للدنيا، وأغنياءهم أشحاء قاسية قلوبهم، وصلحاءهم طماعين في الناس، منتظرين لما في أيديهم، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا، ويفسد إذا فسدوا، وفي ذلك يقول ابن المبارك رحمه الله:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ وأحْبَارُ سُوءٍ ورُهْبَانُهَا

وقد تقدم تمامه في تفسير سورة البقرة[1]. وبالله التوفيق.

ثم بيَّن حال تلك الأكابر المجرمين، فقال:

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قلت (حيث): مفعول بفعل مقدر، لا بأعلم؛ لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، أي: يعلم حيث يجعل رسالته، أي: يعلم المكان الذي يصلح للرسالة، إلا إنْ أُوِّلَ أفعل بمالا تفضيل فيه، فينتصب المفعول به، ويحتمل أن

(١) راجع إشارة الآية (١٥٩) وما بعدها من سورة البقرة.

يكون هذا منه، قال أبو حيان: ويحتمل أن تكون حيث على بابها من الظرفية المجازية، ويُضَمَّنُ أعلم معنى يتعدى إلى الظرف، والتقدير: الله أنفذ علما حيث يجعل رسالته. انظر المحشى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا جاءتهم ﴾ أى: هؤلاء المجرمين الأكابر، ﴿آية﴾ نزلت على نبى، ﴿قالوا لن نؤمن﴾ بها ﴿حتى نُؤتى﴾ من النبوة ﴿مثل ما أُوتى رسلُ الله﴾، فنكون أنبياء مثلهم، والقائل لهذه المقالة أبو جهل، قال: تزاحمنا: بنو عبد مناف الشرف مع بنى هاشم، حتى إذا صِرنا كفَرَسَيْ رِهان، قالوا: منا نبى يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت الآية. وقيل: في الوليد بن المغيرة، قال: أنا أولى بالنبوة من محمد[1]. فرد الله على من قال ذلك بقوله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾. فعَلِم أن محمداً ﷺ أهل للرسالة، فخصه بها، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها، فحرمهم إياها، فإن النبوة ليست بمجرد النسب والمال، وإنما هى بفضائل نفسانية يَخُصُّ الله بها من يشاء من عباده، بل بمحض الفضل والكرم، فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذى فيه يضعها.

ثم ذكر وعيد المنكرين، فقال: ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ﴾ أى: ذل وحقارة يوم القيامة، بعد تكبرهم وارتفاعهم فى الدنيا. رُوى «أنهم يُبعثون فى صورة الذَّرِّ يطؤهم الناس فى المَحْشَر». ﴿و﴾ يصيبهم ﴿عذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ أى: بسبب مكرهم، أوجزاء مكرهم. كما تدين تدان.

الإشارة: ما حَرَم الناسَ من الخير إلا خصلتان: التكبر والحسد، فمن طهر قلبه من الحسد، وتواضع لكل أحد، نال الرفعة والشرف عند الله في الدنيا والآخرة، ولا يضع الله سر الخصوصية إلا فى قلب طاهر متواضع، يحط صاحبه رأسه لأقدام الرجال، ويذل نفسه لأهل الصفاء والكمال، وفى ذلك يقول الشاعر:

يــامَــنْ يَلُــوم خَمْــرة المحــبّة ... قُــولُــوا لــه عَنّى هِــيَ حَــلالْ
ومَــنْ يُــرِدْ يُسْــقَى منها غِبًا ... خَــدْ يضَــع لأقــدامِ الــرّجــالْ
رَأسِــي حَــطَطْت بكُــلّ شَــيْــبه ... هُــم المَــوالِــى سَقَــونِي زلالْ

فكما أن الحق تعالى علم حيث يجعل رسالته، علم حيث يجعل سر ولايته، وهى النفوس المتواضعة المتطهرة من رذائل النفوس؛ كالحسد والكبر وسائر الأوصاف المذمومة.

---

(١) ذكره البغوى فى التفسير عن مقاتل.

ثم ذكر علامة الهداية والشقاء، فقال:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ﴾

قلت: من قرأ ﴿حرجا﴾؛ بالفتح، فهو مصدر وُصف به للمبالغة ،ومن قرأ بالكسر، فوصف، أي: شديد الضيق، ومن قرأ ﴿يَصَّعَّد﴾؛ بالشد والقصر، فأصله: يتصعد، أدغم التاء في الصاد، ومن قرأ: ﴿يصّاعد﴾؛ فأصله: يتصاعد، فأدغم أيضا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فمن يُرد الله أن يهديه ﴾ أي: يعرِّفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿ يشرح صدره ﴾ أي: يوسعه ﴿ للإسلام ﴾، فيتسع له ويقبله، ويغتبط به، ويبتهج، فرحًا وسرورًا. والشرح: كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهيأة لحلوله فيها، مصفاة عما يمنعها منه، وإليه أشار النبي ﷺ، حين سئل عنه، فقال: «نور يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح له وينفسح، قالوا: هل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول»(١).

ثم ذكر ضدَّه، فقال: ﴿ ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا ﴾؛ شديد الضيق، بحيث ينبو عن قبول الحق، فلا يدخله الإيمان، ولا ينشرح صدره له، بل ينفر منه، ويثقل عليه ﴿ كأنما يصَّعَّد في السماء ﴾ أي: يتكلف الصعود فيه. شبَّهه ـ على وجه المبالغة ـ بمن يحاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء غاية فيما يبعد عن الاستطاعة، تنبيهًا على أن الإيمان تَمَنّعَ عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء، ﴿ كذلك ﴾ أي: كما يضيق صدر الكافر ويبعد قلبه عن الحق، ﴿ يجعل الله الرجس ﴾ أي: العذاب والخذلان، ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

﴿ وهذا ﴾ البيان الذي جاء به القرآن، أو ما سبق من التوفيق والخذلان، ﴿ صراط ربك ﴾ أي: الطريق الذي ارتضاه، إن قلنا: الإشارة للبيان، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته، إن قلنا ما سبق من التوفيق والخذلان، حال كونه ﴿ مستقيمًا ﴾ لاعوج فيه، أوعادلاً مطرداً لاجور فيه، ﴿ قد فصَّلنا الآيات ﴾ أي: بيَّنَّاها ﴿ لقوم يذكَّرون ﴾ فيعلمون أن الفاعل هو الله وحده، وأن كل ما يحدث من خير وشر، أو إيمان وكفر، بقضائه وخلقه، فإنه عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل بهم من تقريب أو إبعاد.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٣/٣٧٧) وابن جرير في تفسير الآية، والحاكم في المستدرك (٤/١١)، وسكت عنه وتعقبه الذهبي. من حديث ابن مسعود موصولاً. وأخرجه مرسلاً من حديث أبي جعفر: ابن جرير في التفسير، وابن المبارك في الزهد/١٠٦ والبيهقي في الأسماء/١٥٦.

الإشارة: فمن يرد الله أن يهديه لسر الخصوصية ونور الولاية يشرح صدره للدخول في طريقها، ويوفقه لبذل نفسه وروحه في تحصيلها، ويصبِّره على حمل لأوائها(١)، وينهضه إلى السير في ميدانها، بعد أن يسقطه على شيخ كامل عارف بطريقها، فيحققه بخصوصيته، ويطلعه على سر ولايته، حتى يلقى القياد إليه بكليته، فلا يزال يسايره حتى يقوله له: ها أنت وربك. ومن يرد أن يضله عنها يجعل صدره ضيقاً عن قبولها، حرجاً عن الدخول فيها، حتى يثقل عليه حمل أعبائها، أو ينكر وجود أهلها، كذلك يجعل الله رجس حجابه على الذين لايؤمنون بطريق الخصوص، فإنه طريق مستقيم يوصل إلى حضرة النعيم في الدنيا والآخرة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما أعدّ لأهل التوفيق، فقال:

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لهم دار السلام﴾ التي هي الجنة. والسلام اسم الحق تعالى، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دار التحية؛ ﴿تحيتهم فيها سلام﴾(٢)، ﴿عند ربهم﴾ ذخيرة لهم عنده حين يقدمون عليه، لايعلم كنهها غيره، أو في ضمانه وكفالته، ﴿وهو وليهم﴾ أي: مولاهم وناصرهم في الدارين، ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: بسبب أعمالهم، أي: تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، فيحفظهم في الدنيا، هم وذريتهم، ويحفظهم في الآخرة كذلك.

الإشارة: من هداه الله لطريق الخصوصية، واستعمله في الوصول إليها، ووصله إلى من يسيره إليها، فقد دخل دار السلام قبل موته، فله جنتان؛ جنة المعارف وجنة الزخارف، [من دخل جنة المعارف لم يشتق إلى جنة الزخارف](٣)، لأن الله تولاه وأغناه عما سواه.

ثم ذكر ما أعد لأهل الخذلان، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

---

(١) أي: شدتها. (٢) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(٣) وددت لو أن الشيخ المفسر ـ رحمه الله ـ ترك هذه العبارة المشعرة بدونية ما أطلق عليه جنة الزخارف. وهي الدار التي سماها الله عز وجل «دار السلام»، وفيها يتحقق للمؤمن رؤية النبي ﷺ وفوق هذا: رؤية الله تعالى. فكيف لا يشتاق المؤمن إلى هذه الجنة؟!.

قلت : (خالدين) : حال مقدّرة من الكاف، والعامل فيه: ﴿مثواكم﴾، إن جعل مصدرا، أو معنى الإضافة، إن جعل مكاناً.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ و ﴾ اذكر﴿ يوم تحشرهم ﴾[1] أى: الثقلين، ﴿ جميعا ﴾ ونقول: ﴿ يا معشر الجن ﴾ أى: الشياطين ﴿ قد استكثرتم من الإنس ﴾ أى: من إغوائهم وإضلالهم، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم فى أتباعكم، فحُشروا معكم، ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ الذين أطاعوهم فى الكفر: ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ أى: انتفع الإنس بالجن، بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحَصَّلوا مرادهم، وقيل: استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذُون بهم فى المفاوز وعند المخاوف، كان الرجل إذا نزل وادياً يقول: أعوذ بصاحب هذا الوادى، يعنى كبير الجن، واستمتاعهم بالإنس: اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم، ﴿ وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ﴾ وهو الموت أو البعث والحشر، وهو اعترافٌ بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى، وتكذيب البعث، وتحسرٌ على حالهم، وإظهار للاستكانة والضعف. أقروا بذنبهم لعله ينفعهم.

﴿ قال النار مثواكم ﴾ : منزلكم، ﴿ خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾، إلا أوقات، ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل: ليس المراد بالاستثناء هنا الإخراج، وإنما هو على وجه الأدب مع الله وإسناد الأُمور إليه. وسيأتى فى الإشارة تكميله إن شاء الله، ﴿ إن ربك حكيم ﴾ فى أفعاله، ﴿ عليم ﴾ بأعمال الثقلين.

﴿ وكذلك ﴾ أى: كما ولينا الشياطين على الكفرة، ﴿ نُولِّى بعض الظالمين بعضا ﴾ أى: نَكِل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضاً يتولى بعض فيقويهم، أو: أولياءهم وقرناءهم فى العذاب، كما كانوا قرناء فى الدنيا، وذلك التولى والتسليط ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والمعاصى.

الإشارة: ليست الآية خاصة بالكفار، بل كل من عوّق الناسَ عن طريق الخصوص، واستكثر من العموم؛ بأن أبقاهم فى حزبه، يقال له: يا معشر أهل الرياسة قد استكثرتم من العموم، فيقول أهل اليمين من العموم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتبعناهم فى الوقوف مع الحظوظ والعوائد، وتمتعوا بتكثير سوادهم بنا وتنعيش رياستهم، مع مايلحقهم من الارتفاق من قِبلنا، فيقول الحق تعالى: نار القطيعة والحجاب مثواكم خالدين فيها، إلا وقت الرؤية مع عوام الخلق، وهذه عادته تعالى: يولى بعض الغافلين بعضاً بسبب غفلتهم.

وفى قوله تعالى: ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ ـ إرشاد إلى استعمال الأدب، وردُّ الأمور كلها إلى رب الأرباب، وعدم التحكيم على غيب مشيئته وعلمه، وقوفًا مع ظاهر الوعد أو الوعيد، فالأكابر لا يقفون مع وعد ولا وعيد،

(١) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء، وقرأ الباقون (نحشرهم) بالنون.

كقول عيسى عليه السلام: ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(١)، وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾(٢) الآية، وكقوله: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾(٣)، وكقول شعيب عليه السلام: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾(٤) وكاستغفار نبينا ﷺ للمنافقين قبل نزول النهى، وبعد نزوله، ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة...﴾(٥) الآية. وكقوله، يوم بدر: «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»، مع تقدم الوعد بالنصر، وكخوف موسى بعد قوله: ﴿لاتخافا إنني معكما...﴾(٦) الآية.

ومنه: خوف الأكابر بعد تأمينهم؛ لأن ظاهر الوعد والوعيد لايقضى على باطن المشيئة والعلم، ومثله يجرى فى سورة هود فى قوله: ﴿إلا ماشاء ربك﴾(٧)، وفى سورة يوسف: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِبوا﴾(٨) بالتخفيف، وغير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة، وانظر الورتجبى. فقد انفرد بمقالة، بعد حكاية اتفاق مذاهب المسلمين جميعًا على عدم غفران الشرك، ولكن قول عيسى عليه السلام: ﴿وإن تغفر لهم...﴾ الآية، يشير إلى ما أشار إليه ابن عباس وابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك﴾ قال(٩): تؤمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم، ويرجى من كرم الله ولطفه إدخالهم بعد ذلك الجنة، قال: وهذا مرجو، ليس بمعتقد أهل السنة.هـ.

قال فى الحاشية: وهو يرجع عند التحقيق إلى طرح الأسباب وعدم الوقوف معها، نظراً إلى أن الحق تعالى لايتقيد فى وعيد ولاوعد، فمن غلبه النظر إليه، سرى إليه الرجاء فى عين التخويف، كما أنه يسرى الخوف فى عين الرجاء، لكونه اقتطع من الوقوف مع خصوص وصف، ولما كانت تلك الحالة هى عين الأدب اللائق بالعبودية مع الله تعالى أرشد تعالى إليها بقوله: ﴿إلا ماشاء الله﴾، ﴿إلا ما شاء ربك﴾، وهو حال أهل الحقيقة، والوقوف مع خصوص الوعد أو الوعيد حال أهل الشريعة. انتهى ببعض اختصار. وقد رد الثعالبى هذه المقالة التى حكاها الورتجبى.

ثم وبخهم على عدم الإيمان بالرسل، فقال:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

---

(١) الآية ١١٨ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٨٠ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٣٦ من سورة ابراهيم.
(٤) الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٥) الآية ٨٠ من سورة التوبة.
(٦) الآية ٤٦ من سورة طه.
(٧) من الآية ١٠٧.
(٨) من الآية ١١٠
(٩) أى: الورتجبى.

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

قلت: (ذلك أن لم يكن ربك) : خبر عن مضمر، وأنْ على حذف لام العلة، أي: الأمر ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك متصفاً بالظلم .

يقول الحق جل جلاله، يوم القيامه في توبيخ الكفار: ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي: من مجموعكم، أو رسل الجن: نُذُرهم الذين يبلغون لهم شريعة الإنس؛ إذ ليس في الجن رسل على المشهور. وروى الطبري من طريق الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك، واحتج بأن الله تعالى أخبَر أن من الجن والإنس رسلاً أرسلوا إليهم، يعني ظاهر هذه الآية. وأجاب الجمهور بأن معنى الآية: أن رسل الإنس رسل من قبل الله إليهم، ورسل الجن يبلغون كلام رسل الإنس إليهم، ولهذا قال قائلهم: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ الآية[1]، فالرسالة إلى الجن خاصة بنبينا محمد ﷺ، أي: مع الإنس.

حال كون الرسل الذين أتوكم ﴿ يقصون عليكم آياتي ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ يعني يوم القيامة، قالوا في الجواب: ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ بالكفر والعصيان، وهو اعتراف منهم بما فعلوا.

قال تعالى: ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ ؛ ألهتهم بزخرفها عن النظر والتفكر، ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ، وهذا ذم لهم على سُوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات الفانية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد؛ تحذيراً للسامعين وإرشاداً لهم. قاله البيضاوي.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: ﴿ ذلك ﴾ الإرسال حكمته لـ ﴿ أنْ لم يكن ربك مُهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ أي: إنما أرسلَ الرسل لئلا يكون ظالماً لهم بإهلاكهم بسبب ظلم فعلوه، وهم غافلون عن الإنذار، بحيث لم ينذرهم أحد، أو: لم يكن مهلك القرى ملتبساً بظلم حيث أهلكهم من غير إنذار، ففاعل الظلم، على الأول: القرى، وعلى الثاني: الله تعالى، على تقدير إهلاكهم من غير إنذار. والأول يتمشى على مذهب المعتزلة، والثاني على مذهب أهل السنة. انظر ابن جزي.

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

﴿ ولكلٍّ﴾ من الإنس والجن ﴿ درجات ﴾ ؛ مراتب، ﴿ مما عملوا ﴾ من أجل أعمالهم بالخير والشر، فهم متفاوتون في النعيم والعذاب، وظاهر الآية: أن الجن يُثابون ويعاقبون؛ لأنهم مكلفون، وهو المشهور، واختلف: هل يدخلون الجنة أم لا؟ فروى الطبري وابنُ أبي حاتم عن أبي الدرداء موقوفًا: أنهم يكونون تراباً كسائر الحيوانات، ورُوي عن أبي حنيفة مثله، وذهب الجمهور - وهو قول الأئمة الثلاثة والأوزاعي وأبي يوسف، وغيرهم؛ أنهم يثابون على الطاعة ويدخلون الجنة. ثم اختلفوا، هل يدخلون مدخل الإنس، وهو الأكثر، أو يكونون في ربض الجنة، وهو عن مالك وطائفته، أو أنهم أصحاب الأعراف، أو التوقف عن الجواب؟ في هذا أربعة أقوال، والله تعالى أعلم بغيبه. ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

﴿ وربك الغني ﴾ عن العباد وعبادتهم، ﴿ ذو الرحمة ﴾ يترحم عليهم بالتكليف، تكميلاً، ويمهلهم على المعاصي حلماً، وليس له حاجة في طاعة ولا معصية، ﴿ إن يشأ يُذهبكم ﴾ أيها العصاة، ﴿ ويستخلف من بعدكم مايشاء ﴾ من الخلق، ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ؛ فأنشأكم قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم رحمة بكم، ﴿ إنَّ ما توعدون ﴾ من البعث وما بعده، ﴿ لآتٍ ﴾ لا محالة، ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ ؛ تعجزون قدرة الله الطالب لكم بالبعث والحساب.

الإشارة: كما أن الحق تعالى لم يُعذب الكفار إلا بعد إرسال الرسل، كذلك لا يُعاقب أهل الإصرار إلا بعد بعث الأطباء؛ وهم أهل التربية النبوية، فكل من لم يصحبهم وينقد إليهم مات مصراً على الكبائر - أي: كبائر القلوب - وهو لا يشعر، فيلقى الله بقلب سقيم، فيعاقبه الحق تعالى على عدم صحبتهم، ومعاتبته له: بُعْدُه عن مشاهدته وعن مقام المقربين، فإذا رأى مقام المقربين وقربهم من الحضرة، قال: غرتنا الحياة الدنيا وزخارفها، وجاهها ورياستها، وشهد على نفسه أنه كان غافلاً.

فحكمة وجود الأولياء في كل قرن؛ لتقوم الحجة على أهل الغفلة، فإذا وقع البعد لقوم لم يكن الحقُّ ظالماً لهم، فالدرجات على حسب المقامات، والمقامات على حسب الأعمال، وأعمال القلوب هي التي تقرب إلى حضرة علام الغيوب، بها يقع القرب، وبالخلو عنها يقع البعد. وعليها دلت الأولياء بعد الأنبياء، لأن الأنبياء جاءوا بالشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة، فمن رأوه أهلاً لسر الحقيقه دلوه عليها، فكان من المقربين، ومن رأوه ضعيفاً عنها دلوه على الشريعة، فكان من أصحاب اليمين. وبالله التوفيق.

ثم أمره بتهديد قريش وتخويفهم، فقال:

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١٣٥) ﴾

قلت: ﴿من تكون﴾: إما مفعول (تعلمون)، أو مبتدأ، وهى إما موصولة أو استفهامية، والمكانة: التمكن أو الجهة، يقال: مكان ومكانة كمقام ومقامة .

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أى: تمكنكم من هواكم وشهواتكم التي أنتم عليها، أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من الكفر والهوى، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، ﴿إني عامل﴾ على ما أنا عليه من المصابرة والثبات على الدين الحق. والتهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد، كأن الذى يهدده يريد تعذيبه لا محالة، فيحمله بالأمر على ما يفضى به إليه، وتسجيلٌ بأن المهدد لا يأتي منه إلا الشر، كالمأمور به الذى لا يقدر أن ينقضى عنه. قاله البيضاوى.

ثم صرح بالتهديد فقال: ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أى: أيُّنا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله لها هذه الدار، أى: وهى الدار الآخرة، أو: فسوف تعرفون الذى تكون له عاقبة سكنى الدار الآخرة والنعيم المقيم، أو: من تكون له عاقبة هذه الدار بالنصر والظهور على الأديان. أنا أو أنتم، وفيه إنصاف فى المقال حال الإنذار، وحسن الأدب، وتنبيهٌ على وثوق المنذِر لأنه محق. قال تعالى: ﴿إنه﴾ ، أى: الأمر والشأن، ﴿لا يُفلح الظالمون﴾ ، والظلم أعم من الكفر، ولذلك وضع موضعه؛ لعمومه.

الإشارة: إذا انكب الناس على الدنيا، وأخذتهم الغفلة، وغلب عليهم الهوى، ثم وقع الوعظ والتذكير من أهل الإنذار، فقابلوهم بالإبعاد والإنكار، يقول لهم المذكر والواعظ: ﴿ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ... ﴾ الآية.

ثم ذكر جهالة الجاهلية وحمقهم، فقال:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وجعلوا﴾ أى: مشركو العرب، ﴿لله مما ذرأ﴾ أى: خلق، ﴿من الحرث والأنعام نصيبا﴾ ، وهم حى من خولان، يقال لهم: الأديم، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم وأنعامهم نصيباً، ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾ أى: بدعواهم من غير دليل، وأكثر ما يستعمل الزعم فى الكذب، ﴿وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم﴾ .

رُوى أنهم كانوا يُعينون شيئاً من حرث أو نتاج إلى الله، فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منها إلى آلهتهم، فينفقونه على سدنتهم ـ أي: خدامهم ، والقيام بأصنامهم، ويذبحون عندها، ثم إذا رأوا ما عينوا لله أزكى وأكثر، بدلوه لآلهتهم وقالوا: الله غني عنه، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها؛ حبًا لآلهتهم، وإذا هبت ريح فحملت شيئًا من الذى لله إلى الذى للأصنام أقروه، وإن حملت شيئاً من الذى للأصنام إلى الذى لله ردوه، وإذا أصابتهم سنّة، أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم، تعظيماً لها.

وفى قوله: ﴿ مما ذرأ ﴾ : تنبيه على فرط جهالتهم، فإنهم أشركوا الخالق فى خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكى له، وفى قوله: ﴿ بزعمهم ﴾ : تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمرهم الله تعالى به .﴿ساء﴾ أى: قبح، ﴿ مايحكمون ﴾ حكمهم هذا الذى اخترعوه من عند أنفسهم.

الإشارة: مما ينخرط في سلك الآية، وتجر ذيلها عليه، ما يفعله بعض الناس من التساهل في حقوق الله الواجبة، والمسارعة إلى حقوق الناس التي ليست بواجبة عليه، فترى بعض العوام يقدمون مد أبى العباس السبتى، ويتساهل فى الزكاة، وترى بعض الناس يُسارع إلى إطعام الطعام وقرى الأضياف، وهو لا يفى زكاته. وبعضهم يجعلون للصالحين شيئاً من أموالهم لتصلح وتنمو ويعتني بشأنها، وقد لا يعتنى بزكاته ولا يخرجها، وهذا كله شعبة من فعل أهل الشرك، وعلامة اتباع الهوى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر من كفرهم، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

قلت: قرأ الجمهور: ﴿زَيّن﴾، بالبناء للفاعل ونصب قتل، على أنه مفعول به، وخفض (أولادهم) بالإضافة، ورفع (شركاؤهم)؛ فاعل (زين)، فالشركاء على هذه القراءة هم الذين زينوا القتل، وقرأ ابن عامر: بضم الزاى؛ على البناء للمفعول، ورفع «قتل»؛ على النيابة عن الفاعل، ونصب «أولادهم» على أنه مفعول بقتل، وخفض «شركائهم» بالإضافة إلى قتل، إضافة المصدر إلى فاعله، أى: زُين لهم أن يقتل شركاؤهم أولادهم، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بأولادهم، وهو معمول للمصدر، وهو جائز فى العربية، قال ابن مالك فى الألفية:

فَصلَ مُضَافٍ شِبْهِ فِعْلٍ مَا نَصب مَفْعُولاً أَوْ ظَرْفَاً أجِزْ، ولم يُعِب

وهذا من فصل المفعول، فهو جائز فى السعة؛ خلافاً للزمخشرى ومن تبعه، وقد شنّع عليه الشاطبى فى حرز الأمانى.

يقول الحق جل جلاله: ومثل ذلك التزيين الذى وقع لهم فى الحرث والأنعام، ﴿ زَيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم ﴾ ؛ زين لهم ذلك شركاؤهم من الجن، أو من السدنة، وحملوهم عليه، خوفًا من الجوع أو من العار، وكانوا يقتلون البنات دون البنين، زينوا لهم ذلك ﴿ ليُردُوهم ﴾ أى: ليهلكوهم بالإغواء، ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ أي: ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، ﴿ ولو شاء الله مافعلوه ﴾ أى: ما فعل المشركون مازين لهم، أو ما فعل الشركاء التزيين، أو الفريقان جميع ذلك ، ﴿ فذرهم ومايفترون ﴾ أى: اتركهم مع افترائهم، أو: والذى يفترونه من الإفك، وهذا قبل الأمر بالسيف، ثم نسخ به.

الإشارة: مما ينخرط في سلك الآية: إهانة البنات وتعظيم البنين، وقد نهى الشارع - عليه الصلاة السلام - عن تخصيص الذكور بالوصية، وقال للذى أراد أن يفعله: «لاتُشهدنى على جور»، وهنا إشارة أرق من هذا، وهو أنْ يراد بالأولاد ما تنتجه الفكرة الصافية من العلوم والمواهب، وقتلها: إهمال الفكرة عن استخراجها حتى ضاعت عليه، والذى زين له ذلك هو شرك القلب، واشتغاله برسوم الفرق، حتى تعطلت الفكرة، وماتت تلك العلوم من قلبه، وقع ذلك التزيين بأهل الفرق ليسقطوهم عن درجة المقربين؛ أهل العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وليلبسوا عليهم دينهم بالخواطر والشكوك، والأوهام، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا.

ثم ذكر أيضا نوعاً آخر من جهالتهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

قلت: (حِجْر): فعل، بمعنى مفعول، يستوى فيه الواحد والكثير، والمذكر والمؤنث، ومعناه: حرام، و(افتراء): حال، أو مفعول من أجله، أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أيضًا: ﴿ هذه ﴾ الأشياء التى جعلوها لأصنامهم، وهى ﴿ أنعام وحرث ﴾ ، هى ﴿ حِجْر ﴾ أى: حرام محجر، ﴿ لا يَطعمها ﴾ ، لا يأكلها ﴿ إلا من نشاء ﴾ ، وهم خُدام الأوثان وسدنتها، والرجال دون النساء. قالوا ذلك ﴿ بزعمهم ﴾ وافترائهم من غير حجة، ﴿ وأنعام ﴾ أخرى ﴿ حُرمت ظهورها ﴾ ؛ وهى البحائر والسوائب والحوامي، ﴿ وأنعام ﴾ أخرى ﴿ لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ فى الذبح، وإنما يذكرون عليها اسم آلهتهم؛ ﴿ افتراء ﴾ على الله، لأنهم قسموا أموالهم على هذه القسمة، ونسبوا ذلك إلى الله؛ افتراء وكذباً ، ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أى: بسببه فيعذبهم عليه.

الإشارة: ما عاب الله على المشركين إلا الشرك والتحكم على الله، فالواجب على من أراد السلامة أن يُوحد ربه، وينفرد بكُلّيته إليه، ويُخلص أعماله لله، ويصرف أمواله في مرضاة الله، ويقف في أموره كلها عند ما حدد له الله، وبيّنه رسولُ الله؛ يكونُ من أولياء الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جهالة أخرى لهم، فقال:

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾

قلت: ﴿خالصة﴾: خبر لـ(ما)، وأنثه؛ حملاً على المعنى، لأن (ما) واقعة على الأجنة، وذكّر (محرم)؛ حملاً على لفظ «ما»، ويحتمل أن تكون التاء للمبالغة، ومن قرأ: (تكن)؛ بالتأنيث، فالمراد: الأجنة، ومن قرأ بالتذكير فراعى لفظ «ما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا ما﴾ استقر ﴿في بطون هذه الأنعام﴾، يعني: البحائر والسوائب، من الأجنة، ﴿خالصة لذكورنا﴾ لا يشاركون فيه، ﴿ومحرم علي أزواجنا﴾ أي: نسائنا، يعني: أن ما يولد للبحائر والسوائب، قالوا هو حلال لذكورهم دون نسائهم، هذا إن ولد حياً، ﴿وإن يكن ميتة﴾؛ بأن ولد ميتاً ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ فالذكور والإناث سواء، ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي: سيجزيهم على ما وصفوا و افتروا على الله من الكذب في التحليل والتحريم، فهو كقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾(١)، ﴿إنه حكيم﴾ في صنعه، ﴿عليم﴾ بخلقه؛ فيجزي كلاً على قدر جرمه.

الإشارة: اعلم أن جيفة الدنيا اشترك النساء مع الرجال فيها، لقوله تعالى: ﴿وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾، والزهد في النساء قليل بالنسبة إلى الرجال، واعلم أيضا أن الحق تعالى يجازي عبده جزاء موافقاً لوصفه، فإن كان وصفه التعظيم لكل شيء عظمه الله، ومن كان وصفه التصغير صغره الله، ومن كان وصفه الإحسان أحسن الله إليه، ومن كان وصفه الإساءة أساء الله إليه، ومن كان وصفه الفرق فرقه الله، ومن كان وصفه الجمع جمعه الله، وهكذا: كما تدين تدان، كما تقابل الأشياء تقابلك، قال تعالى: ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾.

ثم شنّع عليهم قتل الأولاد، فقال:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾

قلت: (سفها): حال أو مصدر، وكذلك: (افتراء).

(١) من الآية ٦٢ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾؛ يعني: العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي أو الفقر، ﴿بغير علم﴾ ولا دليل؛ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله رازق أولادهم كما يرزقهم، وليسوا هم الرازقين لهم، ﴿وحرّموا ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما؛ ﴿افتراء على الله﴾ من عند أنفسهم، ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ إلى الحق والصواب.

الإشارة: قد خسر الذين ضيعوا قلوبهم فلم تنتج لهم شيئاً من أبكار الحقائق وأسرار العلوم، بل اشتغلوا بالسفه من القول والفعل، بغير علم ولا بصيرة نافذة، وحرموا ما رزقهم الله من العلوم والأسرار، لو طهروا قلوبهم، وخربوا ظواهرهم وخرقوا عوائدهم، لكنهم حكموا على فعل ذلك بالتحريم، تجمدوا على علم الرسوم وحفظ المروءة، والمروءة إنما هي التقوى والدين، كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، قد ضلوا عن طريق الوصول، وما كانوا مهتدين إلى طريق الخصوص، ما داموا على ماهم عليه من زي اللصوص.

ثم بيّن أن الأشياء كلها لله، ليس لأحد فيها شيء حتى يحلل منها أو يحرم، فقال:

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾

قلت: (مختلفا): حال مقدّرة؛ لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء، والضمير في ﴿أكله﴾: يعود على النخل، والزرعُ مقيس عليه، أو للجميع؛ على تقدير: كل واحد منهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أنشأ﴾ أي: خلق ﴿جنات﴾؛ بساتين مشتملة على كروم - أي: دوالي - ﴿معروشات﴾ أي: مرفوعة بالعرشان والدعائم، ﴿وغير معروشات﴾ أي: مبسوطة على وجه الأرض، قيل: المعروشات: ماغرسه الناس في العمران، وغير المعروشات: ما أنبته في الجبال والبراري.

﴿و﴾ أنشأ ﴿النخل والزرع مختلفا أكله﴾ أي: ثمره الذي يؤكل منه، واختلافه في اللون والطعم والرائحة والحجم والهيئة والكيفية، وذلك دليل على عظمة القادر المريد، ﴿و﴾ أنشأ ﴿الزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ أي: تتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم، ولا يتشابه بعضها. ﴿كُلوا من ثمره﴾ أي: من ثمر كل واحد منهما، ﴿إذا أثمر﴾ وإن لم يطب، قيل: فائدة الأمر بالأكل: رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله منه قبل الطيب، أي: قبل أن تجب زكاته، وأما إذا طاب فلابد من التخريص[1].

(١) خرص النخلة والكرمة يخرصها خرصاً: إذا حزر ما عليها من الرُّطب تمراً، ومن العنب زبيباً، فهو من الخَرْص أي: الظن؛ لأن الحزْر إنما هو تقدير بظن. انظر النهاية (مادة: خرص).

﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ ؛ يريد: ما كان يتصدق به يوم الحصاد، لا الزكاة المقدرة؛ لأنها فرضت بالمدينة، وكان ذلك واجبًا ثم نسخ بالعشر. وقيل: الزكاة حقيقةً، والآية مدنية، وقيل: مكية، ولم يعيّن قدرها إلا بالمدينة، والأمر بإتيانها يوم الحصاد؛ ليُهتم به حينئذ، حتى لايؤخر عن وقت الأداء، خلاف ما يفعله العامةمن خزنها مع ماله، حتى يدفعها في نوائب المخزن[1]، وليعلم أن الوجوب بالإفراك والطيب، لا بالتصفية، ولذلك شرع التخريص، ﴿ولا تُسرفوا﴾ بصرفها في غير محلها، ولا تتعدوا ما أمرتم به فتجعلوا ما أنشأ الله للأصنام، أو: لا تسرفوا في التصدق بالكل، كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[2]، ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي: لا يرضى فعلهم.

الإشارة: وهو الذي أنشأ جنات المعارف لمن خرق عوائده، معروشات بشهود أسرار الجبروت، وغير معروشات بشهود أنوار الملكوت، أو معروشات بشهود المعاني مع الأواني، وغير معروشات بشهود الأواني فقط، أو معروشات بشهود المؤثر والأثر، وغير معروشات بشهود المؤثر فقط، وكلها ترجع لمعنى واحد، والمعروش أرفع من غيره وأكمل، والأول: مقام البقاء والصحو، والثاني: مقام الفناء والسكر، والنخل والزرع: الحقيقة والشريعة على اختلاف علومهما، والزيتون والرمان: الأعمال والأحوال، متفقة وغير متفقة، وثمره: حلاوة الشهود، فليأكل منها المريد إذا طاب وقته، ولا تسرفوا في الأحوال، إنه لا يحب المسرفين.

ثم ذكر إنشاء الأنعام، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

قلت: (حَمولة وفرشًا) : عطف على جنات، و﴿ثمانية أزواج﴾: بدل من حَمولة، و(من الضأن اثنين) : بدل من ثمانية.

---

(١) أي: جامع الضرائب.		(٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و﴾ أنشأ أيضا ﴿من الأنعام﴾ أنعاماً ﴿ حمولة ﴾ ؛ مايحمل الأثقال، كالكبار منها، ﴿ وفَرْشًا ﴾ ؛ ما لا يحمل، كالصغار لدنوها من الأرض. أو حمولة للإبل، وفرشاً للغنم، لأنها تفرش للذبح، ويُفْرَش ما ينسج من صوفها، ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي: كلوا ما أحل الله لكم منها، ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم، ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ؛ ظاهر العداوة.

ثم فصلها فقال: ﴿ ثمانية أزواج ﴾ ؛ ذكر وأنثى من كل صنف، والصنف: مامعه آخر من جنسه يزاوجه، ثم بيَّنها فقال: ﴿ من الضأن اثنين ﴾ ؛ ذكر وأنثى؛ كبش ونعجة، ﴿ ومن المعز اثنين ﴾ ؛ التيس وهو الذكر، والعنز وهي الأنثى، ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ آلذكرين ﴾ أي: ذكر الضأن والمعز، ﴿ حرَّم أم الأنثيين ﴾ منهما؟ ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ من الأجنة، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿ نبئوني بعلم ﴾ يدل على أن الله تعالى حرم شيئًا من ذلك، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعوى التحريم عليه.

﴿ ومن الإبل اثنين ﴾ ؛ ذكر وأنثى، ﴿ ومن البقر اثنين ﴾ كذلك. ﴿ قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين ﴾ أم حرم ما ﴿ اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ من الجنين مطلقا؟ وهذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، وتوبيخ لهم، حيث حرموا بعض الذكور مرة وبعض الإناث مرة، فألزمهم تحريم جميع الذكور، إن كان علة التحريم وصف الذكورة، أو تحريم جميع الإناث، إن كانت العلة الأنوثة، أو تحريم الجميع إن كان المُحرم ما اشتملت عليه الأرحام، ولا وجه للتخصيص، فالاستفهام للإنكار، وأكده بقوله: ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ حاضرين حين ﴿ وصاكم الله بهذا ﴾ التحريم، ولا طريق لكم إلى معرفة هذا إلا المشاهدة والسماع، وليس لكم شيء من ذلك، وإنما أنتم مفترون على الله.

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ ؛ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد: كبراؤهم الأوائل كعمرو ابن لحي وأمثاله، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، ﴿ ليُضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ إلى مراشدهم، أو إلى ما ينفعهم.

الإشارة: ومن الأحوال ما تحمل صاحبها إلى مقام الحرية، بشهود الربوبية، فيغلب عليه العز والاستظهار، ومنها ما تحمله إلى مقام العبودية، فيغلب عليه الذل والانكسار، وإليه الإشارة بقوله: «حمولة وفرشا»، فليتمتع المريد بما يظهر عليه منهما، ولا يتبع خطوات الشيطان فيتعدى طوره، ولا يعرف قدره.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع: أربعة سفلية تناسب العبودية، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالأربعة السفلية: الذل، والفقر، والعجز، والضعف. والأربعة العلوية: العز، والغنى، والقدرة، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فليناد من كوة الذل: يا عزيز من للذليل سواك؟، ومن كوة الفقر: يا غني من للفقير سواك؟، ومن كوة العجز: يا قدير من للعاجز سواك؟ ومن كوة الضعف: يا قوي من للضعيف سواك؟، ير الإجابة طوع يديه، ومن أراد التحقق بها، فليتحقق بذله يمده بعزه، وليتحقق بفقره يمده بغناه، وليتحقق بعجزه يمده بقدرته، وليتحقق بضعفه يمده بقوته، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه». وبالله التوفيق.

ثم بيّن ما حرم عليهم ليقفوا عنده، فقال:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا أجد فيما أوحي إليّ﴾ في القرآن أو مطلق الوحي، ﴿محرما﴾ أي: طعاماً محرماً، ﴿على طاعم يطعمه﴾، أو يطعم منه غيره، ﴿إلاَّ أن يكون﴾ الطعام ﴿ميتة﴾، وفي قراءة بالتاء؛ لتأنيث الخبر، ﴿أو﴾ يكون ﴿دما مسفوحا﴾ أي: مصبوباً كدم المنحر، ﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي: خبيث، قيل: إنه يورث عدم الغيرة بالخاصية ﴿أو﴾ يكون ﴿فسقا﴾، من صفته: ﴿أُهِلَّ لغير الله به﴾ أي: ذبح لغير الله، وذكر عليه اسم الصنم، وإنما سمى فسقاً؛ لتوغله في الفسق.

والآية تقتضي حصر المحرمات، فيما ذكر، وقد جاء في السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا، كلحوم الحمر الإنسية والكلاب، وغيرها، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر. وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب، فلا تقتضي الحصر، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ماذكر: مكروه.

وقال البيضاوي: والآية مُحكمة؛ لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحي إليه إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، ولا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد، ولا على حل الأشياء غيرها، إلا مع الاستصحاب(١).هـ.

ثم استثنى المضطر، فقال: ﴿فمن اضطُرَّ﴾ إلى تناول شيء من ذلك، ﴿غير باغٍ﴾ على مضطر مثله، ﴿ولا عادٍ﴾ أي: متجاوز قدر الضرورة، ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه.

الإشارة: الأحوال كلها تتقوت منها الروح، إلا ماكان غير مباح في الشرع، فلا سير فيه، والمراد بالأحوال: خرق عوائدها، بكل ما يثقل عليها، وأما ما كان محرما في الشرع فلا بركة في تناوله؛ لأنه رجس، وأجازه بعض الصوفية محتجاً بقضية لص الحمام، وفيه مقال، فمن اضطر إلى تناوله، لغلبة حال عليه، غير قاصد لمخالفة الشرع، فإن الله غفور رحيم، وعليه حمل بعضهم قصة لص الحمّام(٢). والله تعالى أعلم.

---

(١) الاستصحاب – اصطلاحاً: هو الحكم بثبوت أمر في الزمن الثاني، بناء على ثبوته في الزمان الأول. (التعريفات/٤٤).
(٢) راجع قصة لص الحمّام في التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة.

ثم ذكر ما حرّم على بنى إسرائيل، فقال:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

قلت: الحوايا هى الأمعاء، أى: المصارين التى فيها البعر، وتسمى المباعر، جمع حوية، فعيلة، فوزنها على هذا: فعائل، فصنع بها ما صنع بهراوا، وقيل: جمع حاوية، فوزنها: فواعل، كقوارب، وهو عطف على ما فى قوله: ﴿إلا ما حملت﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾؛ ماله أصبع، كالإبل والأوز والنعام، وغيرها من الحيوان، الذى هو غير منفرج الأصابع وله ظفر، وقيل: كل ذى مخلب وحافر، وسمى الحافر ظفراً؛ مجازاً

﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ كالثروب وشحوم الكُلى، ﴿ إلا ما حملتْ ظُهورهما ﴾ أى: إلا ما علق من الشحم بظهور البقر والغنم، فهو حلال عليهم، لكنهم اليوم لا يأكلونه، حدثنى شيخى الفقيه الجنوى أنه سأل بعض أحبارهم: هل هو حرام فى كتابكم؟ فقال له: لا، لكنهم قاسوه سداً للذريعة.هـ. فلما شددوا شدد الله عليهم، ﴿ أو الحوايا ﴾ أى: ما احتوت عليه الأمعاء والحشوة مما يتحوى فى البطن من الشحوم، فهو حلال عليهم ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ فى جميع الجسد، فإنه حلال عليهم، لكنهم شددوا فحرموا الجميع عقوبة من الله ﴿ ذلك ﴾ التحريم جزاء ﴿ جزيناهم ﴾ به بسبب بغيهم، أى: ظلمهم، ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرنا به من التحريم، وفى ذلك تعريض بكذب من حرّم غير ما حرم الله.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصى تضيق على العبد لذائذ متعته، وتقتر عليه طيب رزق بشريته، وتضيق عليه أيضا حلاوة المعاملة فى قلبه، ولذة الشهود فى روحه وسره، لقوله تعالى: ﴿ذلك جزينهم ببغيهم﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾[1]، وقال فى شأن القلب: ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2]، أى: نوراً يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[3] أى: علماً لدُنيا، فالمعصية كلها تُبعد العبد من الحضرة، إن لم يتب، والطاعة كلها تقرب من الحضرة. والتنعم إنما هو على قدر القرب، ونقصانه على قدر البُعد. والله تعالى أعلم.

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف. (٢) الآية ٢٩ من سورة الأنفال.
(٣) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

ولمَّا كانت المعصية توجب تعجيل العقوبة أخبر تعالى عن سعة حلمه، فقال:

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإنْ كذبوك﴾ يا محمد، ﴿فقل﴾ لهم: ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ يُمهلكم على التكذيب، فلا تغتروا بإمهاله؛ فإنه يُمهل ولا يُهمل. ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾ حين ينزل بهم، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين، فأقام مقامه: ﴿ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾، لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم، مع الدلالة على أنه لازب لايمكن رده. قاله البيضاوي. وفي ابن عطية: ولكن لا تغتروا بسعة رحمته، فإن له بأساً لا يُرد عن القوم المجرمين.هـ.

الإشارة: يؤخذ من تقديم الرحمة الواسعة على البأس الشديد أن جانب الرجاء أقوى من جانب الخوف؛ لأن حسن الظن بالله مطلوب من العبد على كل حال، لأن الرجاء وحسن الظن يستوجبان محبة العبد وإيحاشه إلى سيده بخلاف الخوف، وهذا مذهب الصوفية: أن تغليب الرجاء هو الأفضل في كل وقت، ومذهب الفقهاء أن حال الصحة ينبغي تغليب الخوف لينزجر عن العصيان، وحال المرض يغلب الرجاء؛ إذ لا ينفع حينئذ، فالصوفية يرون أن العبد معزول عن الفعل، فليس له قدرة على فعل ولا ترك، وإنما ينظر ما تفعل به القدرة، فهو كحال المستشرف على الموت. والفقهاء يرون أن العبد له كسب واختيار. والله تعالى أعلم.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر على كلا المذهبين، كما قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

قلت: (هلُم): اسم فعل، وهو عند البصريين بسيط، وعند الكوفيين مركب. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ في الاحتجاج لأنفسهم: ﴿لو شاء الله﴾ عدم شركنا ﴿ما أشركنا ولا﴾ أشرك ﴿آباؤنا، ولاحرمنا من شيء﴾ من البحائر وغيرها، فلو لم نكن على حق مرضي عند الله ما أمهلنا ولا تركنا عليه؛ فإمهاله لنا وتركه لنا على ما نحن فيه دليل على أنه أراده منا.

والجواب عن شبهتهم: أنه خلاف ما أنزل الله على جميع رسله، والحق تعالى لم يتركهم على ذلك، بل بعث لهم الرسل يكلفهم بالخروج عنه، والإرادة خلاف التكليف، وأيضاً: قولهم هذا لم يصدر منهم على وجه الاعتذار؛ وإنما صدر منهم على وجه المخاصمة والاحتجاج. ولا يصح الاحتجاج بالقدر. والحاصل أنهم تمسكوا بالحقيقة ورفضوا الشريعة، وهو كفر وزندقة، إذ لابد من الجمع بين الحقيقة في الباطن، والتمسك بما جاءت به الرسل من الشريعة في الظاهر، وإلاّ فهو على باطل.

ولذلك ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ الرسل، فتمسكوا بالحقيقة الظلمانية، ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أي :عذابنا الذى أنزلناه عليهم بتكذيبهم ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ هل عندكم من علم ﴾ يدل على أن الله أمركم بالشرك، وتحريم ما أحل، وأنه رضى ذلك لكم، ﴿ فتخرجوه ﴾ أى: فتظهروه ﴿ لنا ﴾ ، بل ﴿ إن تتبعون ﴾ فى ذلك ﴿ إلا الظن ﴾ ولا تحقيق عندكم، ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾؛ تكذبون على الله تعالى، وفيه دليل على أن الظن لا يكفى فى العقائد.

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ فلله الحجة ﴾ على عباده، ﴿ البالغة ﴾ ، حيث بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وأمروا بتوحيد الله وطاعته، فكل من خالفهم قامت الحجة عليه، هذا باعتبار التشريع الظاهر، وأما باعتبار باطن الحقيقة، فالأمور كلها بيد الله؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدى من يشاء بفضله، ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾(١) فقول المشركين: ﴿لو شاء الله ...﴾ الخ، حق فى نفسه، لكنهم لم يعذَروا؛ لإهمالهم الشريعة.

﴿ قل هلُم ﴾ أى: أحْضروا، ﴿ شهداءكم ﴾ أى: كبراءكم وأئمتكم، ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ ، استحضرهم ليلزمهم الحجة، ويظهر بانقطاعهم ضلالهم، وألاّ متمسك لهم فى ذلك. ثم قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ فإن شهدوا ﴾ بشيء من ذلك، ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أى: لا تصدقهم وبيّنْ لهم فساده؛ ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيتنا ﴾ ، والأصل أن يقول: ولا تتبع أهواءهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن مكذب الآية متبع للهوى لا غير، وأن متبع الحق لا يكون إلا مصدقاً لها. ﴿ و ﴾ تتبع أيضا ﴿ الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ ؛ كعبدة الأوثان، ﴿ وهم بربهم يعدلون ﴾ ؛ يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله كلف عباده فى هذه الدار، بالقيام بوظيفتين: الشريعة والحقيقة، الشريعة محلها الظواهر، والحقيقة محلها البواطن، الشريعة تقتضى التكليف، والحقيقة تقتضى التعريف، الشريعة شهود الحكمة، والحقيقة شهود القدرة. وجعل الشريعة رداء الحقيقة ولباساً لها، ثم جعل سبحانه فى القلب عينين، وتسمى

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

البصيرة، إحداهما تنظر للحكمة فتقوم بالشرائع، والأخرى تنظر للقدرة فتقوم بالحقائق. فقوم فتحوا عين الحقيقة وأعموا عين الشريعة، وهم أهل الكفر والزندقة، ولذلك قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾، وقوم فتحوا عين الشريعة وأهملوا عين الحقيقة، وهم عوام المسلمين من أهل اليمين، فلذلك طال خصمهم للمقادير الأزلية مع إقرارهم بها، فإن أنكروها فقد عَمِيَتْ بصيرتهم.

وقوم أحبهم الله، ففتح لهم عين الحقيقة، فأسندوا الأفعال كلها إلى الله ولم يروا معه سواه، فتأدبوا في الباطن مع الأشياء كلها، وفتح لهم عين الشريعة فقاموا بوظائف العبودية على المنهاج الشرعي، وهم الأولياء العارفون بالله، فمن تمسك بالحقائق العلمية دون الشرائع كان زنديقا، ومن تمسك بالشرائع دون الحقائق كان فاسقا، ومن تمسك بهما كان صدّيقًا، فمن رام التمسك بالشرائع، ولم تُسعفه الأقدار، فإن كان عن سُكر وجذب فهو معذور، وإن كان عن كسل فهو مخذول، وإن كان عن إنكار لها فهو مطرود معدود من حزب الشيطان، والعياذ بالله.

ثم بيَّن لهم ما حرم عليهم، فقال:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

قلت: (تعالوا): أمر من التعالي، وأصله: أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفل، فاتسع فيه بالتعميم في كل أمر بالقدوم، و(ألاتشركوا): فيه تأويلات؛ أحدها: أن تكون مفسرة لاموضع لها، و(لا): ناهية جزمت الفعل، أو تكون مصدرية في موضع رفع، أي: الأمر ألاّ تشركوا، و(لا): نافية حينئذ، أو بدل من «ما»، و(لا): زائدة، أو على حذف الإغراء، أي: عليكم ألا تشركوا.

قال ابن جزي: والأحسن أن يكون ضَمَّنَ ﴿حرّم﴾ معنى وَصَّى، وتكون «أن» مصدرية، و«لا» نافية، ولا تفسد المعنى؛ لأن الوصية في المعنى تكون بتحريم وتحليل وبوجوب وندب، ويدل على هذا قوله بعد ذلك:

﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ ولا ينكر أن يريد بالتحريم ـ الوصية؛ لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص، وتريد به العموم، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص، فتقدير الكلام على هذا: قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم، ثم أبدل منه، على وجه التفسير والبيان، فقال: ألاّ تشركوا، ووصاكم بالإحسان بالوالدين، وهكذا .. فجمعت الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين، وما بعد ذلك. انظر بقية كلامه.

وإنما قال الحق سبحانه: (من إملاق)، وقدّم الكاف في قوله (نرزقكم)، وفي الإسراء قال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾[1]، وأخر الكاف؛ لأن ما هنا نزل في فقراء العرب، فكان الإملاق نازلاً بهم وحاصلاً لديهم، فلذلك قال: ﴿ من إملاق ﴾، وقدم الخطاب لأنه أهم. وفي الإسراء نزلت في أغنيائهم، فكانوا يقتلون خوفاً من لحوق الفقر، لذلك قال: ﴿ خشية إملاق ﴾، وقدم الغيبة فقال: ﴿ نحن نرزقهم ﴾ ؛ حين نخلقهم وإياكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ تعالَوا ﴾ أي: هلموا، ﴿ أَتْلُ ﴾ أي: أقرأ ﴿ ماحرم ربكم عليكم ﴾، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم، ولم يُنسخ قط في ملة من المللِ، بل وصى به جميعَ المللِ، هو ﴿ ألاَّ تُشركوا به شيئاً ﴾ بل توحدوه وتعبدوه وحده، ﴿ و ﴾ أن تحسنوا ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾ ، ولا تُسيئوا إليهما؛ لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما. ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ أي: من أجل الفقر الحاصل بكم، وكانت العرب تقتل أولادها خوفاً من الفقر فنزلت فيهم، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره، ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ ، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم.

﴿ ولاتقربوا الفواحش ﴾ ؛ كبار الذنوب ﴿ ما ظهر منها ﴾ للناس ﴿ وما بَطَنَ ﴾ في خلوة، أو: ما ظهر منها على الجوارح، وما بطن في القلوب من العيوب، ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ﴾ ؛ كالقود، وقتل المرتد، ورجم المحصن. قال ﷺ: «لا يحلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلمٍ إلا بِإحْدَى ثلاثٍ: زِنَىً بعد إحْصَانٍ، وكُفْرٍ بعد إيمَانٍ، وقَتْل نَفْسٍ بغيْرِ نَفْسٍ»[2]. ﴿ ذلكم ﴾ المتقدم، ﴿ وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ ، فتتدبرون فيما ينفعكم وما يضركم

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي ﴾ بالخصلة التي ﴿ هي أحسن ﴾ ؛ كحفظه وتثميره. والنهي عن القرب: يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة؛ لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى، ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ وهو البلوغ مع الرشد، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير، فيدفع له، ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ ؛ بالعدل والتوفية، ﴿ لانُكلِّف نفساً إلا وسعها ﴾ ؛ إلا ما يسعها ولايعسر عليها، ولمَّا أمر بالقسط في الكيل والوزن، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولانقصان مما يجرى فيه الحرج ـ أمر بالوسع في ذلك وعفا عما سواه.

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأسراء.

(٢) أخرجه البخاري في (الديات، باب قول الله تعالى: «أن النفس بالنفس») ومسلم في (القسامة، باب ما يباح به دم المسلم). عن ابن مسعود، رضي الله عنه.

﴿ وإذا قلتم ﴾ في حكومة ونحوها ، ﴿ فاعدلوا ولو كان ﴾ المقول له في شهادة أو حكومة ﴿ ذا قربى ﴾ ؛ فيجب العدل في ذلك، ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ أي: ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع، أو ماعاهدتم مع عباده، ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ ؛ تتعظون به.

﴿ وأنَّ هذا ﴾ أي: ما تقدم في السورة كلها، ﴿ صراطي مستقيما فاتبعوه ﴾ ؛ لأن السورة بأسرها إنما هي في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة، ﴿ ولا تتبعوا السُّبل ﴾ ؛ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد، ومقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات، ولذلك تفرقت. والمراد بالطرق: اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة، ويدخل فيه البدع والأهواء. وفي الحديث أن النبي ﷺ خط خطاً، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه سبُلٌ، وعلى كُلِّ سَبيلٍ منها شيطانٌ يَدْعُو إليها»(١). ﴿ ذلكم ﴾ الاتباع ﴿ وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ الضلال والتفرق عن الحق. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد وصى الحق ـ جل جلاله ـ على التخلص من الشرك، جليه وخفيه، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص. وهو مطلب الصوفية، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين، أي: والد الأرواح – وهو الشيخ المربي – ووالد الأشباح، ولابد للمريد من طاعتهما، إلا أنه يقدم طاعة الشيخ، كما تقدم عن الجنيد في (سورة النساء).

ووصى بعدم قتل الأولاد، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب في الغفلة، وعدم قرب الفواحش: الظاهرة الحسية، والباطنية القلبية؛ كالحسد، والكبر، وحب الجاه والدنيا، وسائر العيوب. وعدم قتل النفس بالانهماك في الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة. وعدم قُرب مال اليتيم، وهو الذي ليس له شيخ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(٢)، إشارة لها أرق من هذه، وعلى التوفية في الأمور كلها؛ لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد، وأعظمها عهد الشيوخ المُربين، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة . وبالله التوفيق.

ولما ذكر ما وصى به هذه الأمة، ذكر ما وصى به بني إسرائيل، فقال:

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٣٥.
(٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

قلت: (ثم): هنا للترتيب الإخباري، وقال ابن جزي: هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها، فصح الترتيب. وقال البيضاوي: (أو): للتفاوت في الرتبة، كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك: أنا آتينا موسى الكتاب... إلخ. وهو عطف على (وصاكم)، و(تماماً، وتفصيلا): حالان، أو علتان، أو مصدران.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم﴾ نخبرك أنا ﴿آتينا موسى الكتاب﴾؛ التوراة، ﴿تماماً على الذى أحسن﴾ القيام به من بني إسرائيل، ويدل عليه قراءة: (أحسنوا)، أي: تماماً للنعمة على العاملين به، أو تماماً على موسى الذى أحسن القيام به، أي: آتيناه الكتاب تفضلاً وإتماماً للنعمة؛ جزاء على ما أحسن من طاعة ربه وتبليغ رسالته، ففاعل أحسن: ضمير موسى. أو: ﴿تماماً﴾ أي: إكمالاً على ما أحسن الله به إلى عباده، فالفاعل على هذا: ضمير الله تعالى، ﴿وتفصيلاً﴾ أي: تبييناً ﴿لكل شيء﴾ يحتاجون إليه في الدين. ﴿وهدى﴾ أي: هداية للظواهر، ﴿ورحمة﴾ للقلوب، ﴿لعلهم﴾ أي: بني إسرائيل، ﴿بلقاء ربهم﴾ للجزاء، ﴿يؤمنون﴾ إيماناً صحيحاً، وهو اللقاء بالأجسام والأرواح، والنعيم أو العذاب للأشباح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أحسن عبادة ربه في الظاهر، وحقق عبوديته في الباطن، أتم الله عليه نعمته بشهود ذاته وأنوار صفاته، ووهب له علوماً لدنية تفصل له ما أشكل، يكون له هداية لزيادة الترقي، ورحمةً يتهيأ بها قلبه لوحي الإلهام والتلقي. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل كتابه العزيز، فقال:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قلت: (أن تقولوا): مفعول له، أي: كراهة أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ كثير النفع ﴿فاتبعوه﴾ في الأصول والفروع، ﴿واتقوا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿لعلكم تُرحمون﴾ ببركة اتباعه؛ فتحيا به قلوبكم، وتنتعش به

أرواحكم، وإنما أنزلناه؛ كراهة ﴿أن تقولوا يوم القيامة﴾ في الحجة: ﴿إنما أُنزل الكتابُ على طائفتين من قبلنا﴾ ؛ اليهود والنصارى، وإنما خصهما بالذكر لشهرتهما دون الكتب السماوية، ﴿وإن كنا﴾ وإنه، أي: الأمر والشأن، كنا ﴿عن دراستهم﴾ أي: قراءتهم ﴿لغافلين﴾ أي: كنا غافلين عن قراءة أهل الكتاب، لاندري ما هي ولا نعرف مثلها، أو لم ندرس مثل دراستهم، ولم نعرف ما درسوا من الكتب، فلا حجة علينا، فقد قامت الحجة عليكم بنزول القرآن.

﴿أو﴾ كراهة أن ﴿تقولوا﴾ أيضا: ﴿لو أنا أُنزل علينا الكتابُ﴾ كما أُنزل إليهم، ﴿لكُنا أهدى منهم﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا، ولذلك تلقفنا فنوناً من العلم، كالقصص والأشعار والخطب والأنساب، مع كوننا أميين، قال تعالى لهم: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهو القرآن؛ حجة واضحة تعرفونها؛ ﴿وهدى ورحمةٌ﴾ لمن تدبره وعمل به، ﴿فمن أظلم﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ممن كذّب بآيات الله﴾ بعد أن عرف صحتها، ﴿وصَدَف﴾ ؛ أعرض ﴿عنها﴾، ستجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ ؛ ألمه وقبحه، ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أي: يعرضون ويصدون عنها.

الإشارة: جعل الله رحمة القلوب وحياة الأرواح في شيئين: في التمسك بالقرآن العظيم وتدبر معانيه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وفي التحصن بالتقوى جهد استطاعته، فبقدر ما يتحقق بهذين الأمرين تقوى حياة قلبه وروحه وسره، حتى يتصل بالحياة السرمدية، وبقدر ما يُخل بهما يحصل له موت قلبه وروحه، والإنسان إنما فضل وشرف بحياة قلبه وروحه، لا بحياة جسمه، ولا حجة له أن يقول: كنت مريضاً ولم أجد من يعالجني، ففي كل زمان رجال تقوم الحجة بهم على عباد الله، فيقال لهم: قد جاءكم بينة من ربكم، وهو الولي العارف، وهدى ورحمة لأهل عصره، لمن تمسك به وصحبه، وأما من أعرض عنه بعد معرفته فلا أحد أظلم منه، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا...﴾ الآية.

ثم هددَّ أهل الإعراض، فقال:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل ينظرون﴾ أي: ما ينتظر أهل مكة ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم، أو بالعذاب، لأجل كفرهم، وهم لم يكونوا ينتظرون ذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبههم بالمنتظرين، ﴿أو يأتي ربك﴾ أي: أمره بالعذاب، ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ يعني: أشراط الساعة.

وعن حذيفة والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة، إذ أشرق علينا رسول الله ﷺ، فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، فقال: «إنها لاتقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدجال ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وناراً تخرج من عدن»(١).

﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ ، وهو طلوع الشمس من مغربها، كما في حديث الصحيحين(٢)، قال الأقليشي: وذلك أن الله تعالى، إذا أراد طلوعها من مغربها، حبسها ليلة تحت العرش، فكلما سجدت واستأذنت لم يجر لها جواب، حتى يحبسها مقدار ثلاث ليال، فيأتيها جبريل عليه السلام فيقول: إن الرب تعالى يأمرك أن ترجعي إلى مغربك فتطلعي منه، وأنه لاضوء لك عندنا ولانور، فتبكي عند ذلك بكاء يسمعها أهل السبع سموات، ومن دونها، وأهل سرادقات العرش وحملته من فوقها، فيبكون لبكائها مما يخالطهم من خوف الموت، وخوف يوم القيامة، قال: فيبيت الناس ينتظرون طلوعها من المشرق، فتطلع الشمس والقمر خلف أقفيتهم من المغرب، أسودين مُكدّرين، كالقارتين، ولاضوء للشمس ولانور للقمر، فيتصايح أهل الدنيا، وتذهل الأمهات عن أولادها، والأحبة عن ثمرة قلوبها، فتشتغل كل نفس بنفسها، ولا ينفع التوحيد حينئذ.هـ.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها ﴾ ؛ كالمحتضر إذا صار الأمر عياناً، وإنما ينفع الإيمان بالغيب، وقد فات يومئذ، فلا ينفع الإيمان نفساً ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ ، ولا تنفع التوبة من المعاصي وترك الواجبات حينئذ؛ لقوله: ﴿ أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾ أي: لاينفع نفساً مؤمنة لم تكن كسبت خيراً قبل ذلك اليوم، حيث كانت فرطت فيه قبل، وينفع اكتسابه بعد.

والحاصل: أن طلوع الشمس من مغربها يُغلق بعده باب التوبة؛ فلا يقبل الإيمان من كافر، ولا التوبة من عاصٍ، وأما الإيمان المجرد عن العمل، إذا كان حاصلاً قبل ذلك اليوم، فإنه ينفع على مذهب أهل السنة، وكذلك العاصي بالبعض ينفعه بعض الذى كان يعمله، كالزانى مثلاً، إذا كان يصلي، فتنفعه صلاته ويعاقب على العصيان، وهكذا، والمنفي قبوله: إنما هو الخير المتروك قبل ذلك اليوم، فلا ينفع استدراكه بعد.

ثم قال تعالى: ﴿ قل انتظروا ﴾ إتيان أحد الثلاثة؛ الملائكة بعذابكم، أو أمر الله تعالى بإهلاككم، أو بعض آياته، ﴿ إنا منتظرون ﴾ ذلك، لنا الفوز وعليكم الويل.

الإشارة: ما ينتظر الغافلون والمنهمكون في اللذات والشهوات والإعراض عن الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فجأة، فيموتون على الغفلة، فتنزل بهم الحسرة والندم، وقد زلت القدم بهم، أو يأتي أمر الله بطردهم والطبع على قلوبهم، فلا ينفعهم وعظ ولاتذكير، أو يأتي بعض آيات ربك؛ مصيبة أو داهية تثقل قلوبهم عن

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم في (الفتن، باب في الأمارات التي تكون قبل الساعة).
(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين...» الحديث بطوله أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنعام) ومسلم في (الإيمان، باب: إتيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان).

التوجه إلى الله، وجوارحهم عن طاعة الله. فالغافل والعاصي بين هذه الثلاثة، إن لم يقلع ويتب. والله تعالى أعلم.

ثم أمرهم بالإعراض عن أهل الإعراض، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ ؛ فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، وهم اليهود والنصارى، وقيل: أهل الأهواء والبدع، فيكون إخباراً بغيب، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قيل: يا رسول الله، وما تلك الواحدة؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي » .

وقرئ: « فارقوا » أي: تركوا دينهم، ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ ؛ جمع شيعة، أي: فرقًا متشيعة، كل فرقة تتشيع لمذهبها وتتشيع إمامها، أي: تنتسب إليه. ﴿ لستَ منهم في شيء ﴾ أي: أنت بريء منهم، فلست في شيء من السؤال عنهم وعن تصرفهم، أو عن عقابهم، وقيل: هو نهي عن التعرض لهم؛ فيكون منسوخًا بآية السيف، ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ يتولى جزاءهم، ﴿ ثم ينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ من التفرق فيعاقبهم عليه.

الإشارة: الافتراق المذموم، إنما هو في الأصول؛ كالتوحيد وسائر العقائد، فقد افترقت المعتزلة وأهل السنة في مسائل منه، فخرج من المعتزلة اثنان وسبعون فرقة، وأهل السنة هي الفرقة الناجية، وأما الاختلاف في الفروع فلا بأس به، بل هو رحمة لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «خلاف أمتي رحمة»، كاختلاف القراء في الروايات، واختلاف الصوفية في كيفية التربية، فكل ذلك رحمة وتوسعه على الأمة المحمدية، إذ كل من أخذ بمذهب منها فهو سالم، مالم يتبع الرخص. وقال بعضهم: مادامت الصوفية بخير ما افترقوا، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم. ومعنى ذلك: إنما هو في التناصح والإرشاد والنهي بعضهم لبعض عما لا يليق في طريق السير، فإذا سكت بعضهم عن بعض؛ مداهنةً وحياءً فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فلابد أن تكون متفقة متوددة، لابغض فيها ولاتحاسد، وإلا لم يكونوا صوفية. والله تعالى أعلم.

ثم رغَّب في الخير قبل فوات إبانه، فقال:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ قولية أو فعلية أو قلبية، ﴿فله عشر أمثالها﴾ من الحسنات، فضلاً من الله، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة، وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر: الكثرة دون العدد، ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ ؛ قضية للعدل، ﴿وهم لايظلمون﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

الإشارة: إنما تضاعف أعمال الجوارح وما كان من قبل النيات، وأما أعمال القلوب فأجرها بغير حساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١]، وقال ﷺ: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» . وقال الشاعر:

كُـلُّ وَقْـتٍ مِـنْ حَبِيبِـي قَـدْرُه كَـأَلْفِ حِجَّـهْ

وقد تقدم هذا في سورة البقرة[٢].

ثم إن تضعيف الحسنات إنما يكون لمن تمسك بالدين القيم، وهو الذي أشار إليه بقوله:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

قلت: (دينًا) : بدل من محل «صراط»؛ لأن الأصل: هداني صراطاً مستقيما ديناً قيماً، و(قيمًا) : فيعل من القيام، فهو أبلغ من مستقيم، ومن قرأ بكسر القاف: فهو مصدر وصف به؛ للمبالغة، و(ملة إبراهيم) : عطف بيان لدين، و(حنيفاً) : حال من إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والآيات، ﴿دينا قيماً﴾ ؛ مستقيماً يوصل من تمسك به إلى جوار الكريم، في حضرة النعيم، وهو ﴿ملة إبراهيم﴾ أي: دينه، حال كونه ﴿حنيفاً﴾ : مائلاً عما سوى الله، ﴿وما كان من المشركين﴾، وهو تعريض لقريش، الذين يزعمون أنهم على دينه، وقد أشركوا بالله عبادة الأوثان.

الإشارة: قد أخذ الصوفية من هذا الدين القيم، الذي هدى الله إليه نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلاصته ولبابه، فأخذوا من عقائد التوحيد: الشهود والعيان على طريق الذوق والوجدان؛ ولم يقنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الصلاة: صلاة القلوب، فهم على صلاتهم دائمون مع صلاة الجوارح، على نعت قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ

---

(١) الآية ١٠ من سورة الزمر.

(٢) راجع إشارة الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

في صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[1] وأخذوا من الزكاة: زكاة نفوسهم بالرياضة والتأديب وإضافة الكل إليه. (العبد وما كسب لسيده)، مع أداء الزكاة الشرعية لمن وجبت عليه. وكان الشيخ أبو العباس السبتي ﷺ يعطي تسعة أعشار زرعه، ويمسك العشر لنفسه.

وأخذوا من الصيام: صيام الجوارح كلها، مع صيام القلب عن شهود السّوى. وأخذوا من الحج: حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب، فالكعبة تشتاق إليهم وتطوف بهم، كما تقدم في آل عمران. ومن الجهاد: الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفوس، وهكذا مراسم الشريعة كلها عندهم صافية خالصة من الشوائب، بخلاف غيرهم، فلم يأخذ منها إلا قشرها الظاهر وعمل الأشباح، فهي صور قائمة لا روح فيها؛ لعدم الإخلاص والحضور فيها. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن مقام الإخلاص، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾

قلت: (ربًا): حال من (غير).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: ﴿ إن صلاتي ونسكي ﴾ أي: عبادتي كلها، وقرباتي أو حجي، ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ أي: وعملي في حياتي، وعند موتي من الإيمان والطاعة، أو الحياة والممات أنفسهما، ﴿ لله رب العالمين، لا شريك له ﴾ أي: هي خالصة لله لا أشرك فيها غيره، ﴿ وبذلك ﴾ أي: بذلك القول والإخلاص، أمرني ربي، ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ أغير الله أبغي ربا ﴾ فأشرك مع الله، ﴿ وهو ربُّ كل شيء ﴾؛ لأن كل شيء مربوب لايصلح للربوبية. وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفس ﴾ من شرك أو غيره ﴿ إلا عليها ﴾ وزره، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي، وهو رد على الكفار حيث قالوا له: اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك، ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿ ولاتزر ﴾ أي: تحمل نفس ﴿ وازرة ﴾ أي: آثمة ﴿ وزر ﴾ نفس ﴿ أخرى ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنوب أحد، ﴿ ثم إليَّ ربكم مرجعكم ﴾ بالبعث والحساب، ﴿ فينبئكم ﴾، أي: يُخبركم ﴿ بما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين؛ فيبين الرشد من الغي، والمحق من المبطل.

الإشارة: الإخلاص سر من أسرار الله، يُودعه قلب من أحب من عباده، وهو إخلاص العبودية لله وحده، ولايتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه، وهذا شيء عزيز. ولذلك قيل

(١) الآية ٢ من سورة المؤمنون.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق: النفس، والإخلاص عند المحبين: ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وألاَّ يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع، والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم، أي: لا يرون مع الله غيره في الأفعال، وترك السكون إليهم، والاستراحة إليهم في الأحوال. هـ.

وبالإخلاص تتفاوت الدرجات، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضا، أو خلفاء الله في أرضه؛ تتصرفون فيها بإذنه، على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السابقة، على أن الخطاب للمسلمين، ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ في الشرف والغناء والقوة والجاه، وفي العلوم والأعمال والأحوال والإخلاص والمعارف، وغير ذلك مما يقع به التفاضل بين العباد، ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي: ليختبر شكركم على ما أعطاكم، وأعمالكم فيما مكنكم فيه من الخلافة.

﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ لمن كفر نعمه، إما في الدنيا لمن عجل أخذه؛ لأن كل آت قريب، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن شكر نعمه وآمن وعمل بطاعته، جمع بين التخويف والترجية ليكون العبد بينهما. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه، في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملَّكهم الله من الأملاك الحسية. والخواص يتصرفون بالهمة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفون بالله، أمرهم بأمر الله، إن قالوا لشيء: كن. يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار، والحاصل: أن من بقي مع الأكوان شهوداً وافتقاراً، كان محبوساً معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: خلفاء عنه تتصرفون في الوجود بأسره بأرواحكم، وأنتم في الأرض بأشباحكم، ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾؛ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك، مما هو مذكور في محله. خرطنا الله في سلكهم ومنحنا ما منحهم، بمنّه وكرمه، وبسيدنا محمد ﷺ حبيبه ونبيه. آمين. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁



هي مكية إلا ثماني آيات، من قوله تعالى: ﴿واسألهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا﴾، وقيل: إلى قوله: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾. وآياتها: مائتان وخمس. قاله البيضاوي. ومضمنها: الحث على اتباع ما أنزله على نبيه من التوحيد والأحكام، والتحذير من مخالفته ومتابعة الشيطان، وذكر وبال من تبعه من القرون الماضية، وما لحقهم من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، تتميماً لقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

وافتتح السورة بالرموز التي بينه وبين حبيبه، فقال:



إما أن تكون مختصرة من المصطفى، على عادة العشاق؛ يرمزون إلى ذكر بعض حروف المحبوب، اتقاء الرقباء، أي: يا أيها المصطفى المختار لرسالتنا؛ هذا كتاب أنزل إليك، وإما أن تشير إلى العوالم الثلاثة: الجبروت والملكوت والملك. وزاد هنا الصاد، إشارة إلى صدقه فيما يُخبر به من علم الغيوب، ولذلك ذكر هنا جملة من القصص والأخبار.

وقال الورتجبي: كان الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا أراد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والأعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، ويخبره بما كان وما يكون، أشار إلى هذه الأشياء بحروف التهجي، وأعلمه سر ذلك بخفي الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه عليه الصلاة والسلام يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق، ونبأ صادق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة، فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه، وخواص أمته ربما تطلع على سر بعضها، كالصحابة والتابعين والمتقدمين من العلماء والأولياء، كأنّ حروف المقطعات رموز ومعاني سور القرآن، لايعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين. هـ.

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

ثم ذكر حكمة إنزال الكتاب، فقال:

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: (كتاب): خبر، أي: هذا كتاب، و(أُنزل): صفته، والحرج: الضيق، و(لتنذر): متعلق بأُنزل، أو بلايكن، لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفْهم، و(ذكرى): يحتمل النصب بإضمار فعل، أي: لتُنذر ولتذكر ذكرى، والجر عطف على (لتنذر)، أي: للإنذار والتذكير، والرفع عطف على (كتاب).

يقول الحق جل جلاله: هذا ﴿ كتابٌ أنزل إليك ﴾ من ربك، ﴿ فلا يكن في صدرك حرجٌ منه ﴾ أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يُكذب به، مخافة أن تكذّب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة، كقولك: لا أرينك ها هنا، كأنه قال: فلا يحرج صدرك منه، وإنما أنزلناه إليك لتُنذر به من بلغه، ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ أي: وتذكيراً وموعظة للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بمواعظه.

الإشارة: تذكير أهل الإنكار ووعظهم يحتاج إلى سياسة كبيرة وحلم كبير وصبر عظيم، لا يطيقه إلا الأكابر من أهل العلم بالله؛ كالأنبياء والصديقين، لسعة معرفتهم، واتساع صدورهم لحمل الجفاء وتحمل الأذى، ونهيه تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ضيق صدره: تشريع لورثته من بعده؛ الداعون إلى الله ـ عز وجل والاّ فهو ﷺ بحر واسع، لا تكدره الدِّلاءُ، كما قال البوصيري.

فَهو البَحْرُ والأنَامُ إِضاء[1]

والله تعالى أعلم.

ثم حضَّ على الإتباع، فقال:

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (قليلاً): صفة لمصدرٍ، أو زمانٍ محذوف، أي: تتذكرون تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، والعامل فيه: تذكرون، و(ما): زائدة لتأكيد القلة.

(١) الإضاءة: جمع إضاءة، وهي: الغدران – جمع غدير. قلت: وهذا شطر بيت، أوله: لاتقِسْ بالنبيِّ في الفضل خلقًا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ أيها الناس ﴿ ما أُنزل إليكم من ربكم ﴾ من أحكام القرآن والسنة؛ إذ كله وحي يوحى، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[1]، ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ أي: الله، ﴿ أولياءَ ﴾ من الجن والإنس يضلونكم عن دينه، أو: ولا تتبعوا من دون ما أنزل إليكم أولياء، تتبعونهم فيما يأمرونكم به وينهونكم، وتتركون ما أنزل إليكم من ربكم، ﴿ قليلاً ما تذكَّرون ﴾: تتعظون حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، بعد كمال إنذاره ووضوح تذكاره، وذلك لانطماس البصيرة وعمى القلوب، والعياذ بالله.

الإشارة: اتباع الحبيب في أمره ونهيه يدل على صحة دعوى المحبة، ومخالفته يدل على بطلانها.

تَعْصِي الإِلَه وأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذَا مُحَالٌ في القِيَاسِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[2]

وجمع المحبة في محبوب واحد يدل على كمالها، وتفرق المحبة يدل على ضعفها، ولذلك قال الشاعر:

كَانَتْ لقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رأَتْكَ العَيْنُ أَهْوائي

فلا تجتمع المحبة في محبوب واحد إلا بعد كمال معرفة المحبوب، وشهود أنوار جماله وكمال أسراره. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من لم يتبع، فقال:

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

قلت: (كم): خبرية، مفعول (أهلكنا)، وهو على حذف الإرادة، أي: في الحال أردنا إهلاكها، و(بياتا أو هم قائلون): حالان، أي: بائتين أو قائلين، وأغنى الضمير في (هم) عن واو الحال.

(١) الآية ٥ من سورة النجم.
(٢) البيتان لعبد الله بن المبارك.

يقول الحق جل جلاله: كثيراً من القرى ﴿أهلكناها﴾ لما عصت أمرنا، وخالفتْ ما جاءت به رسلنا، ﴿فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا ﴿بياتاً﴾ أي: ليلاً، كقوم لوط؛ قلبت مدينتهم، عاليها سافلها، وأرسلت عليهم الحجارة بالسَّحَر، ﴿أو هم قائلون﴾ نصف النهار، كقوم شعيب، نزلت عليهم نار فأحرقتهم، وهو عذاب يوم الظلة، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما وقت دعة واستراحة، فيكون مجيىء العذاب فيهما أفظع.

﴿فما كان دعواهم﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم بأسنا، ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي: إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه، تحسراً، أو: ما كان دعاؤهم إلا قولهم: ﴿.. يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾(١): ميتين، فإذا أحييناهم وبعثناهم من قبورهم، فوالله ﴿لنسألن الذين أرسل إليهم﴾ عن قبول الرسالة وإجابة الرسل، ﴿ولنسألن المرسلين﴾ عما أُجيبوا به، والمراد بهذا السؤال: توبيخ الكفرة وتقريعهم، وأما قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾(٢) فالمنفي: سؤال استعلام؛ لأن الله أحاط بهم علما، أو الأول في موقف الحساب، وهذا عند حصول العقاب.

﴿فلنقصَّنَّ عليهم﴾ أي: على الرسل والأمم، فنقص على الرسل ما قُوبلوا به من تصديق أو تكذيب، وعلى الأمم ما قابلوا به الرسل من تعظيم أو إنكار، أو فلنقص على الرسل ما علمنا من قومهم حين يقولون: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(٣). نقص ذلك عليهم ﴿بعلم﴾ وتحقيق؛ لاطلاعنا على أحوالهم، وإحاطة علمنا بسرهم وعلانيتهم. ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم، فيخفى علينا شيء من أحوالهم، بل كنا حاضرين لديهم، محيطين بسرهم وعلانيتهم.

الإشارة: ما أهلك الله قوماً وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق، فمن قام بهما معاً كان مصحوباً بالسلامة، موصوفاً بالكرامة في الدارين، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال في الدارين، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير، حيث فاته الحزم والتشمير، فإذا ندم لم ينفعه الندم، حيث زلت به القدم، فالبدارَ البدارَ إلى التوبة والانكسار، والتمسك بشريعة النبي المختار، والتحقق بمعرفة الواحد القهار، وصحبة الصالحين الأبرار، والعارفين الكبار، قبل أن تصير إلى قبرك فتجده إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وكما أن الحق تعالىٰ يسأل الرسل عما أُجيبوا به، يسأل خلفاءهم ـ وهم الأولياء والعارفون ـ عما إذا قُوبلوا من تعظيم أو إنكار، فيرفع من عظمهم في أعلى عليين، ويحط من أنكرهم في محل أهل اليمين. وبالله التوفيق.

---

(١) الآيتان ١٤ ـ ١٥ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٧٨ من سورة القصص.
(٣) من الآية ١٠٩ من سورة المائدة.

ثم ذكر مقادير الأعمال ووزنها، فقال:

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: (الوزن): مبتدأ، و(يومئذ): خبره، و(الحق): صفته، أي: الوزن العدل حاصل يومئذ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والوزن ﴾ أي: وزن الأعمال، على نعت الحق والعدل، حاصل يوم القيامة، حين يسأل الرسل والمُرسل إليهم. والجمهور على أن صحائف الأعمال تُوزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق؛ إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فتعترف بها ألسنتهم، وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما رُوى: « أن الرجل يُؤتى به إلى الميزان، فيُنشر عليه تسعة وتسعُون سجلاً، كُلُّ سجلٍ مَد البصرِ، فتخرجُ لهُ بطَاقة فِيهَا كلمةُ الشهَادةِ، فتُوضعُ السِّجلاَّتُ في كفةٍ، والبطاقة في كفةٍ، فتثقُل البطاقةُ، وتَطِيشُ السِّجلاَّتُ»(١).

وقيل: توزن الأشخاص؛ لما رُوى عنه ﷺ أنه قال: «إنَّهُ ليأتِي العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لا يَزِنُ عندَ الله تَعالى جَنَاحَ بعُوضَةٍ»(٢). والتحقيق: أن المراد به الإهانة والتصغير، وأنه لا يساوى عند الله شيئاً؛ لاتباعه الهوى.

ثم فصل في الأعمال فقال: ﴿ فمن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ أي: حسناته، أو الميزان الذى يوزن به حسناته، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن، فعلى الأول هو جمع موزون، وعلى الثانى جمع ميزان، فمن رجحت حسناته ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب الدائم، ﴿ ومن خفتْ موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسَهُمْ ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التى فطروا عليها، واقتراف ما عرضها للهلاك، ﴿ بما كانوا بآياتنا يَظْلِمُون ﴾ حيث بدلوا التصديق بها بالتكذيب، والعمل فيها بالتفريط. نسأل الله تعالى الحفظ.

الإشارة: العمل الذى يثقل على النفس كله ثقيل فى الميزان؛ لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً، والعمل الذى يخف على النفس كله خفيف؛ لأنه فيه نوع من الهوى؛ إذ لا يخف عليها إلا مالها فيه حظ وهوى. وفى الحكم:

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند ٢/٢١٣ والترمذى فى (الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله) وابن ماجه فى (الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة) وصححه الحاكم ١/٦، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الكهف، باب: «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم..») ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة..) من حديث أبى هريرة.

«إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه؛ فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾. هـ. بمعناه، ذكره في القوت. وهذا في غير النفس المطمئنة، وأما هي فلا يثقل عليها شيء، وقد يثقل عليها الباطل، ويخف عليها الحق، لكمال رياضتها. والله تبارك وتعالى أعلم.

ثم ذكّرهم بالنعم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾؛ تتصرفون فيها بالبناء والسكن، وبالغرس والحرث والزرع، وغير ذلك من أنواع التصرفات، ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾: أسباباً تعيشون بها؛ كالتجارة وسائر الحرف، ﴿قليلا ما تشكرون﴾ على هذه النعم، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان، فأنتم جديرون بسلبها عنكم، وإبدالها بالنقم، لولا فضله ورحمته.

الإشارة: نعمة التمكين في الأرض متحققة في أهل التجريد، المنقطعين إلى الله تعالى، فهم يذهبون في الأرض حيث شاءوا، وموائدهم ممدودة يأكلون منها حيث شاءوا، فهم متمكنون من أمر دينهم؛ لقلة عوائدهم، ومن أمر دنياهم؛ لأنها قائمة بالله، تجري عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون، تخدمهم ولا يخدمونها؛ «يادنياي اخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك». فمن قصّر منهم في الشكر توجه إليه العتاب بقوله: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿قليلا ما تشكرون﴾، ومن تحقق شكره قيل له: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾(١). والله تعالى أعلم.

ولما ذكر نعمة الإمداد أتبعه بنعمة الإيجاد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) ﴾

---

(١) الآيتان: ٥ ـ ٦ من سورة القصص.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد خلقناكم﴾ أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ﴿ثم صورناكم﴾ أي: صورنا خلقة أبيكم آدم. نزّل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره؛ لأنه المادة الأصلية، أي: ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه، ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ تعظيماً له، حيث وجد فيه ما لم يوجد فيهم، واختباراً لهم ليظهر من يخضع ممن لم يخضع، ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ لآدم.

﴿قال﴾ له الحق تبارك وتعالى: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ أي: أن تسجد، فلا: زائدة، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه، ومنبهة على أن الموبَّخ عليه ترك السجود، وقيل: الممنوع من الشيء كالمضطر إلى خلافه، فكأنه قال: ما اضطرك إلى ترك السجود ﴿إذ أمرتك﴾.

وفيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور، فأجاب بقوله: ﴿قال أنا خيرٌ منه﴾، أي: المانع لي من السجود هو كوني أنا خير منه، ولا يحسُنُ للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به، فإبليس هو الذي سنّ التكبر، وقال بالتحسين والتقبيح العقليين أولاً، وبهذا الاعتراض كفر إبليس؛ إذ ليس كفره كفر جحود.

ثم بيّن وجه الأفضلية، فقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، فاعتقد أن النار خيرٌ من الطين، وقد غلط في ذلك، فإن الأفضلية إنما تظهر باعتبار النتائج والثمرات، لا باعتبار العنصر والمادة فقط، ولا شك أن الطين ينشأ منه ما لا يحصى من الخيرات؛ كالثمار والحبوب وأنواع الفواكه.

قال البيضاوي: رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] أي: بغير واسطة، وباعتبار الصورة، كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وباعتبار الغاية، وهو ملاكه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبين لهم أنه أعلم منهم، وأنه له خواصاً ليست لغيره. هـ.

(١) من الآية ٧٥ من سورة ص.

ولما تبين عناده قال له تعالى: ﴿ فاهبطْ منها ﴾ أي: من السماء أو من الجنة، ﴿ فما يكونُ لك ﴾ أي: فما يصح لك ﴿ أن تتكبّر فيها ﴾ وتعصي؛ فإنها موطن الخاشع المطيع، وفيه دليل على أن الكبر لا يليق بأهل الجنة، فإنه تعالى إنما أنزله وأهبطه؛ لتكبره لا لمجرد عصيانه، ﴿ فاخرجْ إنك من الصاغرين ﴾ أي: ممن أهانه الله لتكبره. قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ الله، ومَنْ تَكَبَّر وَضَعَه الله»(١).

ولما تحقق إبليس أنه مطرود، سأل الإمهال فقال: ﴿ أنظرني ﴾ أي: أخرني، ﴿ إلى يوم يُبعثون ﴾ فلا تمتني، ولاتعجل عقوبتي، ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾؛ يقتضي أنه أجابه إلى ما سأل، لكنه محمول على ما في الآية الأخرى: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾(٢)؛ وهو نفخ الصور النفخة الأولى، ﴿ قال فبمَا أغويتني ﴾ أي: بعد أن أمهلتني لأجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني، بسبب إغوائك إياي، والله ﴿ لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ﴾، وهو الطريق الذي يوصلهم إليك، فأقعد فيه، وأردهم عنه، ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾؛ فآتيهم من الجهات الأربع، وذلك عبارة عن تسلطه على بني آدم كيفما أمكنه.

قال ابن عباس: ﴿من بين أيديهم﴾: الدنيا يُزيّنها لهم، ﴿ومن خلفهم﴾: الآخرة يُنسيها لهم، (وعن أيمانهم): الحسنات يُثبطهم عنها، ﴿وعن شمائلهم﴾: السيئات يزينها في أعينهم. هـ. ولم يجعل له سبيلاً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم؛ لأن الرحمة تنزل من أعلى، فلم يحل بينهم وبينها، والإتيان من تحت موحش، وأيضاً: السفليات محل للتواضع والخشوع، فتكثر فيه الأنوار فيحترق بها. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: (لأنّ فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، ولا يمكن أن يأتي من توحيد ولا إسلام).

ثم قال تعالى: ﴿ ولاتجدُ أكثرَهم شاكرين ﴾؛ مطيعين، قال بعض الصوفية: (لوكان ثم مقام أعظم من الشكر لذكره إبليس)؛ فالشكر أعظم المقامات، وهو الطريق المستقيم الذي قعد عليه إبليس، والشكر: هو ألا يُعصى الله بنعمه، أو: صرف الجوارح كلها في طاعة الله، أو رؤية المنعم في النعمة. وإنما قال إبليس ذلك؛ ظنًا لقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾(٣)، وسيأتي في الإشارة حقيقته.

﴿ قال ﴾ تعالى لإبليس: ﴿ اخرجْ منها ﴾؛ من السماء أو الجنة، ﴿ مذءومًا ﴾ أي: مذموماً، من ذامه، أي: ذمه، ﴿ مدحوراً ﴾ أي: مطروداً. والله ﴿ لمن تَبِعَكَ منهم ﴾ في الكفر ﴿ لأملأنّ جهنم منكم أجمعين ﴾ أي: منك وممن تبعك.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (الباب ٥٧) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) الآية ٣٨ من سورة الحجر.
(٣) من الآية ٢٠ من سورة سبأ.

تنبيه: ذكر الفخر الرازي، في تفسيره، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم، فقال لهم: إني أسلم أن الله خالقي وموجدي، وهو موجد الخلق، ولكن لي على حكمته أسئلة: الأول: ما الحكمة في إيجاد خلقه، لاسيما وكان عالماً بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثاني: ما الفائدة في التكليف، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث: هب أنه كلفني بطاعته ومعرفته، فلماذا كلفني بالسجود لآدم؟ الرابع: لما عصيته فلِمَ لعنني وأوجب عقابي، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس: لما فعل ذلك فلِمَ مكنني من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟ السادس: ثم لما فعل ذلك، فلم سلطني على أولاده، ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع: ثم لما استمهلته بالمدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني، ومعلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً؟. هـ. قال شارح الأناجيل: فأوحى الله إليه من سرادقات الكبرياء: إنك ما عرفتني، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض عليّ في شيء من أفعالي، فأنا الله لا إله إلا أنا لا أُسْألُ عما أفعل.

قال الشهرستاني: اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصاً، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق ـ سبحانه ـ زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات. هـ. قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار:

أما الحكمة في إيجاد خلقه؛ فخلقهم ليعرف بهم. وفي الحديث القدسي: «كنت كنزا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً لأعرف بهم»، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف؛ فلتقوم الحجة على العبيد، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب، فإذا عذبه لم يكن ظالماً له؛ ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾[1]، ولتظهر صورة العدل في الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم؛ فلأنه ادعى المحبة، ومقتضاها الطاعة للحبيب في كل ما يشير إليه، ولا تصعب إلا في الخضوع للجنس، أو مَنْ دونه، فأمره بالسجود لمن دُونه في زعمه؛ ليظهر كذبه في دعوى محبته، وأما لعنه وطرده؛ فهو جزاء من كذب

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.

وعصى. وهذا الطرد كان في علمه تعالى، ولكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات، فكان امتناعه واعتراضه سببا لإظهار ما سبق له في علم الله، كما كانت وسوسته لآدم سبباً في إظهار خروجه من الجنة السابق في علم الله. وأما تمكينه من دخول الجنة؛ فليتسبب عنه هبوط آدم الذي سبق في علمه؛ لأن الحكمة اقتضت أن لكل شيء سببا . أما تسلطه على أولاده، فليكون منديلاً تمسح به أوساخ الأقدار؛ إذ إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمشيئة الواحد القهار، ولا فعل لغيره، لكن الحق تعالى علمنا الأدب، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل، فما كان فيه كمال نسبه لله، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس؛ أدباً مع الحضرة.

وأما إمهاله؛ فليدوم هذا المنديل عندهم، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجرى عليهم إلى انقضاء وجودهم. وقوله: (معلوم أن العالم لو كان خاليًا من الشر لكان ذلك خيرا)، مغالطة؛ لأن حكمته تعالى اقتضت وجود الضدين: الخير والشر، وبهما وقع التجلي والظهور؛ ليظهر آثار أسمائه تعالى؛ فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود الشر، فيما نفهم، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالي أو جمالي لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره في مملكته، وقوله: (إنك ما عرفتني..) الخ.. يقتضي أنه لو عرف الله حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بيناها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار، ولعل إبليس لم يرـ في حال الأمر بالسجود ـ من آدم إلا الأغيار، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار.

ثم ذكر دخول آدم الجنة وخروجه منها، فقال:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ

لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويا آدمُ اسكُنْ أنت وزوجُك ﴾ حواء ﴿ الجنة فكُلاَ من حيث شئتما ﴾ من ثمارها، ﴿ ولا تقربَا هذه الشجرة ﴾ ؛ التين أو العنب أو الحنطة، ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ لأنفسكما بمخالفتكما، ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ أي: فعل الوسوسة لأجلهما، وهو الصوت الخفي، ﴿ ليُبْدِيَ ﴾ أي: ليظهر ﴿ لهما ما ووُرِيَ ﴾ أي: ما غطى ﴿ عنهما من سوْآتِهما ﴾ أي: عوراتهما، واللام: للعاقبة، أي: فعل الوسوسة لتكون عاقبتهما كشف عورتهما، وكانا لايريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. وفيه دليل على أن كشف العورة، ولو عند الزوج من غير حاجة ـ قبيح مستهجن في الطباع،

﴿ وقال ﴾ لهما: ﴿ ما نهاكما ربُكما عن هذه الشجرة إلا ﴾ كراهية ﴿ أن تكونا ملَكين ﴾. واستدل به من قال بفضل الملائكة على الأنبياء، وجوابه: أنه كان من المعلوم عندهما أن الحقائق لا تَنْقَلب، وإنما كانت رغبتهما فيما يحصل لهما من الغنى عن الطعام والشراب، فيمكن لهما الخلود في الجنة، ولذلك قال: ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ الذين يخلدون في الجنة.

ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، أن آدم عليه السلام لم يكن ناسيا للنهي، وإلا لما ذكره بقوله: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، وقوله في سورة طه: ﴿فنسي﴾، أي: نسي أنه عدو له، ولذلك ركن إلى نصيحته، وقبل منه حتى تأول أن النهي عن عين الشجرة لا عن جنسها، فأكل من جنسها، رغبة في الخلود، ولكنه غره من حيث الأخذ بالظواهر وترك الاحتياط.

ولم يقصد إبليسُ إخراجهما من الجنة، وإنما قصد إسقاطهما من مرتبتهما، وإبعادهما كما بعُد هو، فلم يبلغ قصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخينة عين، وغيظ نفْس، وخيبة ظن. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾(١)، فصار عليه السلام خليفةً لله في أرضه، بعد أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفة والجار؟

(١) الآية ١٢٢ من سورة طه.

﴿ وقاسَمَهُما ﴾ أي: حلف لهما ﴿إني لكما لمنَ الناصحين﴾ فيما قلت لكما. وذكر قَسَم إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين مبالغة؛ لأنه اجتهد فيه، أو لأنه أقسم لهما، وأقسما له أن يقبلا نصيحته.

﴿ فدلاَّهُما ﴾، أي: أنزلهما إلى الأكل من الشجرة، ﴿ بغُرور ﴾ أي: بما غرهما به من القَسَم، لأنهما ظنا أن أحداً لا يحلف بالله كاذبا، ﴿ فلما ذاقَا الشجرةَ ﴾ أي: وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها، ﴿ بدت لهما سَوآتُهما ﴾، وتهافت عنهما ثيابُهما، فظهرت لهما عوراتهما؛ أدباً لهما. وقيل: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبينَ النظر، فلما أكلا انكشف عنهما، وظهرت عورتهما، ﴿ وطَفِقَا ﴾ أي: جعلا ﴿ يَخْصِفَانِ عليهما من ورَقِ الجنّة ﴾ أي: أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستترا به، قيل: كان ورق التين. فآدم أول من لبس المرقعة، ﴿ وناداهما ربُّهما ألم أنْهكُمَا عن تلكما الشجرة وأقلْ لكُمَا إن الشيطانَ لكما عدوٌ مبين ﴾؛ هذا عتاب على المخالفة، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

ثم صرحا بالتوبة فقالا: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ حين صدرناها للمعصية، وتعرضنا للإخراج من الجنة، ﴿ وإن لم تغفرْ لنا وترحَمنا لنكُونَنَّ من الخاسرين ﴾؛ وهذه هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه بها. قال البيضاوي: فيه دليل على أن الصغائر يُعاقب عليها إن لم تغفر، وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقربين في تعظيم الصغير من السيئات، واستحقار العظيم من الحسنات. هـ.

﴿ قال اهبطوا ﴾؛ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو: لهما ولإبليس، وكرر الأمر له تبعًا؛ ليعلم أنهم قرناء له أبدا. حال كونكم ﴿ بعضكم لبعض عدوٌّ ﴾ أي: متعادين، ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ أي: استقرار، ﴿ ومتاعٌ ﴾ أي: تمتع، ﴿ إلى حين ﴾ انقضاء آجالكم، ﴿ قال فيها ﴾ أي: في الأرض ﴿ تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون ﴾ للجزاء، بالنعيم، أو بالعذاب الأليم، على حسب سعيكم في هذه الدار الفانية.

الإشارة : قال بعض العارفين: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو شجرة آدم، فمن دخل جنة المعارف، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة ـ وهي شجرة سوء الأدب ـ أخرج منها، فإن كان ممن سبقت له العناية أُلهم التوبة، فتاب عليه وهداه، وأهبطه إلى أرض العبودية؛ ليكون خليفة الله في أرضه، فأنْعِم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفي الحكم: «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضاً: «معصية أورثت ذُلاً وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزاً واستكبارا». وقال بعضهم: كل سوء أدب يثمر لك أدباً فهو أدب . والله تعالى أعلم.

ثم ذكّرهم بنعمة اللباس، الذي عوضهم به في الدنيا عن لباس الجنة، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ: (لباس)؛ بالرفع؛ فهو مبتدأ، والجملة: خبر، والرابط: الإشارة، والريش: لباس الزينة، مستعار من ريش الطير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يابني آدمَ قدْ أنزلنا عليكم لباساً ﴾ أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره: قوله تعالى: ﴿ وأنزَلَ لَكُم مِّنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾(٢). من صفة ذلك اللباس: ﴿ يُوارى ﴾ أي: يستر ﴿ سوآتكم ﴾ التي قصد إبليس إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. رُوِى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها، فنزلت. ولعل ذكر قصة آدم تقدمة لذلك؛ حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. قاله البيضاوي.

﴿ وريشاً ﴾ أي: ولباساً فاخراً تتجملون به ﴿ ولباسُ ﴾ أي: وأنزلنا عليكم لباس ﴿ التقوى ﴾؛ وهي خشية الله تعالى، أو الإيمان، أو السمت الحسن، واستعار لها اللباس؛ كقولهم: ألبسك الله لباس تقواه، وقيل: لباس الحرب. ومن قرأ بالرفع؛ فخبره: ﴿ ذلك خير ﴾ أي: لباس التقوى خير من لباس الدنيا؛ لبقائه في دار البقاء دون لباس الدنيا؛ فإنه فانٍ في دار الفناء، ﴿ ذلك ﴾ أي: إنزال اللباس من حيث هو خير ﴿ من آيات الله ﴾ الدالة على فضله ورحمته، ﴿ لعلهم يذَّكَّرون ﴾ فيعرفون نعمه، فيشكرون عليها، أو يتعظون فينزجرون عن القبائح.

الإشارة: اللباس الذي يوارى سوءات العبودية ـ أي: نقائصها ـ هي أوصاف الربوبية ونعوت الألوهية؛ من عز وغنى، وعظمة وإجلال، وأنوار وأسرار، التي أشار إليها في الحكم بقوله: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا، ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه». والريش هو بهجة أسْرار المعاني التي تغيب ظلمة الأواني، أو بهجة الأنوار التي تُفْنِي الأغيار، ولباس التقوى هي حفظه ورعايته لأوليائه في الظاهر والباطن مما يكدر صفاءهم أو يطمس أنوارهم. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٦ من سورة الزمر. (٢) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ثم حذَّرهم من الشيطان، وأعلمهم بسابق عداوته، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يابني آدم لا يفتننكُم الشيطانُ ﴾؛ بأن يشغلكم عما يقربكم إلى الله، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته، ﴿ كما أخرج أبويكُمْ من الجنة ﴾ بسبب غروره، والنهي، في اللفظ، للشيطان، والمراد: نهيهم عن اتباعه. حال كون أبويكم ﴿ ينْزِعُ ﴾ الشيطان ﴿ عنهما لباسَهما ﴾ بسبب غروره لهما، وإسناد النزع إليه: مجاز؛ للسببية؛ ﴿ ليُريهما سواءتهما إنه يراكُم هو وقبيلُه من حيث لا تَرونهم ﴾، وهو تعليل للنهي، وتحذير من فتنته، و﴿قبيله﴾: جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا، وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة؛ فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى: ﴿ إنا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذين لا يؤمنون ﴾؛ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم، وتمكينهم من خذلانهم، وحملهم على ماسولوا لهم، والآية هي مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة: الحكمة في خلق الشيطان هي كونه منديلاً تمسح فيه أوساخ الأقدار، وكونه يحوش أولياء الله إلى الله، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم، فلايزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته، فحينئذ ينقاد إليهم، ويخدمهم بأولاده. وفي الحِكَم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده».

قال محمد بن واسع: تمثل لي الشيطان في طريق المسجد، فقال لي: يا ابن واسع، كلما أردتك وجدت بيني وبينك حجاباً، فما ذاك؟ قال: أقرأُ، كلما أصبحتُ: اللهم إنك سلطت علينا عدواً من أعدائنا، بصيراً بعيوبنا، مطلعاً على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب ـ وفي رواية: كما باعدت بينه وبين جنتك ـ إنك على كل شيء قدير. هـ.

ثم ذكر مساوئ أولياء الشيطان، فقال:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله، في وصف المشركين: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ أي: فعلة متناهية في القبح؛ كعبادة الصنم، وكشف العورة في الطواف، احتجوا بفعل آبائهم فقالوا: ﴿ وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ فاعتذروا بعذرين باطلين: أحدهما: تقليد آبائهم، والآخر: افترازهم على الله، فأعرض عن الأول؛ لظهور فساده، ورد الثاني بقوله: ﴿ قل إنَّ الله لا يأمرُ بالفحشاء ﴾؛ لأن الله تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال ومكارم الخلال. ولا حجة فيه للمعتزلة. انظر البيضاوي.

والآية كأنها جواب سؤالين مترتبين؛ كأنه قيل لهم: لِمَ فعلتم هذه الفواحش؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، فقيل: ومن أين أخذها آباؤكم؟ قالوا: الله أمرنا بها، فكذبهم الله بقوله: ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾، أي: أتتقولون على الله مالا علم لكم به؛ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله.

﴿ قل أمرَ ربي بالقسط ﴾ أي: العدل، وهو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط، وأمر بأن قال: ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ أي: افعلوا الصلاة في كل مكان يمكن فيه السجود إذا حضرتكم، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والمعنى: إباحة الصلاة في كل موضع، فهو كقوله ﷺ: «جُعلتْ لِيَ الأَرضُ مَسجداً وطَهوراً». وقيل: المراد إحضار النية والإخلاص لله في كل صلاة بدليل قوله: ﴿ وادعوه ﴾؛ أي: اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي: الطاعة، فلا تعبدوا معه غيره، فإنكم راجعون إليه، ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، فاحتج على البعث الأخروي بالبدأة الأولى؛ لاشتراكهما في تعلق القدرة بهما، بل العود أسهل باعتبار العادة، وقيل: كما بدأكم من التراب، تعودون إليه، وقيل: كما بدأكم حفاة عراة غرلا، تعودون، وقيل: كما بدأكم مؤمناً وكافراً، يُعيدكم. قاله البيضاوي.

﴿ فريقاً هَدَى ﴾؛ بأن وفقهم للإيمان، ﴿ وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾؛ بمقتضى القضاء السابق، أي: خذل فريقًا حق عليهم الضلالة، ﴿ إنهم اتخذوا الشياطينَ أولياءَ ﴾ يطيعونهم فيما يأمرونهم به، ﴿ من دون الله ﴾،

وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم، ﴿ ويَحْسَبُون ﴾ أي: يظنون ﴿ أنهم مهتدون ﴾ ؛ فهم على جهل مركب، وفيه دليل على أن الكافر المخطئ والمعاند: سواء في الذم واستحقاق العذاب؛ إذ لا يعذر بالخطأ في أمر التوحيد.

الإشارة: تقليد الآباء في المساوئ من أقبح المساوئ، واحتجاج العبد بتخليته مع هواه هو ممن اتخذ إلهه هواه، إن الله لا يأمر بالفحشاء، فإذا قال العبد ـ في حال انهماكه : هكذا أحبني ربي، فهو خطأ في الاحتجاج ؛ بل يجاهد نفسه في الإقلاع، ويتضرع إلى مولاه في التوفيق؛ فإن الحق تعالى إنما يأمر بالعدل والإحسان، ودوام الطاعة والإذعان، والخضوع لله في كل زمان ومكان، والتحقق بالإخلاص في كل أوان، وإفراد المحبة والولاية للكريم المنان. وبالله التوفيق.

ثم أمرهم بستر العورة في الصلاة والطواف، فقال:

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يابني آدم خُذوا زينتكم ﴾ أي: ثيابكم التي تستر عورتكم، ﴿ عند كل مسجد ﴾ لطواف أو صلاة، واحتج به من أوجب ستر العورة في الصلاة، ومن السُّنة أن يأخذ الرجل أحسن ثيابه للصلاة، وقيل: المراد بالزينة: زيادة على الستر، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب، ﴿ وكُلوا واشربوا ﴾ ؛ أمر إباحة؛ لِمَا رُوِي أن بني عامر، في أيام الحج، كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً؛ يعظمون بذلك حجهم، وهَمَّ المسلمون بذلك، فنزلت.

﴿ ولا تُسرفوا ﴾ ؛ بتحريم الحلال، أو بالتقدم إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره إليه، وقد عدّ في الإحياء من المهلكات: شره الطعام، وشره الوقاع، أي: الجماع. ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ ؛ لا يرتضي فعلهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه : (كُلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومخيلة)[1] أي: تكبر. وقال علي بن الحسين بن واقد: جمع الله الطب في نصف آية؛ فقال: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

الإشارة: إنما أمر الحق ـ جل جلاله ـ بالتزين للصلاة والطواف؛ لأن فيهما الوقوف بين يدي ملك الملوك، وقد جرت عادة الناس في ملاقاة الملوك: التهيىء لذلك بما يقدرون عليه من حسن الهيئة؛ لأن ذلك زيادة تعظيم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (الأدب واللباس) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه . وأخرجه مرفوعاً النسائي في (الزكاة، باب الاختيال في الصدقة) وابن ماجه في (اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة) وأحمد في المسند ١٨١/٢ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة».

للملك، وتزيين البواطن بالمحبة والوداد أحسن من تزيين الظواهر وخراب البواطن؛ «إنَّ اللهَ لاينظُرُ إلى صُوَرِكُمْ ولاَ إلى أمْوَالِكُمْ، وإنَّمَا يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكم وأعْمَالِكُمْ»[1]. وملاقاة الملك بالذل والانكسار أحسن من ملاقاته بالتكبر والاستظهار. والله تعالى أعلم.

ولما تعاهدت قريش، ومن دان دينها، أنهم لا يأكلون أيام الحج دسمًا ولا سمنًا ولا أقطًا ولا طعامًا جاء من الحل، ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾

قلت: من قرأ: (خالصة)؛ بالرفع، فخبر بعد خبر، أو خبر عن مضمر، ومن قرأ بالنصب، فحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿مَنْ حرَّم زينةَ الله﴾؛ وهي ما يتجمل به من الثياب وغيرها، ﴿التي أخرج لعباده﴾ من النبات؛ كالقطن والكتان، أو الحيوان؛ كالحرير والصوف والوبر، والمعادن؛ كالدروع والحلي، ﴿و﴾ قل أيضا: من حرم ﴿الطيبات مِنَ الرزق﴾ أي: المستلذات من المآكل والمشارب، ويدخل فيها المناكح؛ إذ هي من أعظم الطيبات. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات: الإباحة؛ لأن الاستفهام للإنكار، وبه رد مالك ـ رحمه الله ـ على من أنكر عليه من الصوفية، وقال له: اتق الله يا مالك؛ بلغني أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، فكتب إليه بالآية.

قال تعالى: ﴿قلْ هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾، ويشاركهم فيها الكفار، ويوم القيامة تكون ﴿خالصة﴾ لهم دون غيرهم. ﴿كذلك نُفصّل الآيات﴾ أي: كتفصيلنا هذا الحكم نُفصل سائر الأحكام ﴿لقوم يعلمون﴾ فينزلونها في محلها بخلاف الجهال.

(١) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قل إنما حرّم ربي الفواحشَ﴾؛ وهى ما تزايد قبحها من المعاصى، وقيل: ما يتعلق بالفروج، ﴿ما ظهرَ منها وما بَطَنَ﴾ أى: جهرها وسرها، أو ما يتعلق بالجوارح الظاهرة والعوالم الباطنية وهى القلوب، ﴿والإثم﴾؛ كقطع الرحم، أو عام فى كل ذنب، ﴿والبغيَ﴾؛ وهو الظلم؛ كقطع الطريق والغصب، وغير ذلك من ظلم العباد، أو التكبر على عباد الله، وقوله: ﴿بغير الحق﴾: تأكيد له فى المعنى. ﴿وأنْ تُشركوا بالله مالم يُنزلْ به سُلطانًا﴾ أى: حجة على استحقاق العبادة، وهو تهكم بالمشركين، وتنبيهٌ على تحريم مالم يدل عليه برهان. ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ من الإلحاد فى صفاته، والافتراء عليه؛ كقولهم: ﴿اَللَّهُ أَمَرَنَا﴾(١)، و﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾(٢).

﴿ولكل أمة أجل﴾ أى: مدة ووقت لنزول العذاب بها إن لم يؤمنوا، وهو تهديد لأهل مكة، ﴿فإذا جاء أجَلُهم﴾ أى: انقرضت مدتهم، أو دنى وقت هلاكهم، ﴿لا يستأخرون ساعةً﴾ عنه ﴿ولا يستقدِمون﴾ أى: لا يتأخرون ولا يتقدمون عنه أقْصَرَ وقت، أو لا يطيقون التقدم والتأخر لشدة الهول، وجعل بعضهم: (ولا يستقدمون) استئنافًا؛ لأن الأجل إذا جاء لا يتصور التقدم، وحينئذ يوقف على: «ساعة»، ثم يقول: ولا هم يستقدمون عنه قبل وصوله.

الإشارة: قال شيخنا البوزيدى ﷺ: زينة الله التى أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلى، والطيبات من الرزق هى حلاوة الشهود. هـ. وهى لمن كمل إيمانه وصِدْقه فى الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهى حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها فى الدارين، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصاً أو خللا فى أنوار جماله وسناه. والله تعالى أعلم.

ثم إن العباد والزهاد وأهل البداية من المريدين السائرين ـ ينبغى لهم أن يزهدوا فى زينة الدنيا وطيباتها؛ لئلا تركن إليها نفوسهم، فيثبط سيرهم، وأما الواصلون فهم مع الله، لا مع شيء سواه، يأخذون من الله بالله، ويدفعون بالله، وقد اتسعت دائرة علمهم، فليسوا مع لباس ولا أكل ولا شرب ولا جوع ولا شبع، هم مع ما يبرز فى الوقت من المقدورات. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

ثم وصاهم على الإيمان بالرسل، عند ظهورهم، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قلت: (إما): شرط مؤكد بما ذكره بحرف الشك؛ للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز، غير واجب، كما ظنه المعتزلة، وجوابه: (فمن اتقى..) الخ، وإدخال الفاء في الجواب الأول دون الثاني؛ للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا بني آدم﴾ مهما ﴿يأتينكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتي﴾ الدالة على توحيدي ومعرفتي، ﴿فمن اتَّقى﴾ الشرك والتكذيب، ﴿وأصلح﴾ فيما بيني وبينه، منكم، بالعمل الصالح، ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾، ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبرُوا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، فمنْ كمال الإيمان: أن يقدر الإنسان نفسه أن لو كان في زمان كل رسول، لكان أولَ من تبعه، ولكان من خواص أصحابه، هكذا يسير بعقله مع كل رسول من زمان آدم عليه السلام إلى مبعث رسولنا محمد ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جعل الله لكل نبي خلفاء يخلفونه في تبليغ أحكامه الظاهرة والباطنة، وهم العلماء الأتقياء، والأولياء العارفون الأصفياء، فمن أراد أن يكون ممن لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، فليتبع علماء أهل زمانه في الشريعة، وأولياء أهل عصره في تربية الحقيقة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من استكبر، فقال:

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فمنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن نسب إليه الولد والشريك، ﴿أو كذَّب بآياته﴾ التي جاءت بها الرسل من عنده، أي: لا أحد أظلم منه، أو: تقوَّل على الله ما لم يقله، وكذَّب بما

قاله، ﴿ أولئك ينالُهمْ نصيبُهم من الكتاب ﴾ أي: يلحقهم نصيبهم مما كتب في اللوح المحفوظ؛ من الأرزاق والآجال، ﴿ حتى إذا ﴾ انقضت أعمارهم و﴿ جاءتْهم رسلُنا يتوفَّونهم ﴾ أي: يتوفون أرواحهم، ﴿ قالوا ﴾ لهم توبيخًا: ﴿ أين ما كنتم تَدْعون من دون الله ﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؛ لتدفع عنكم العذاب؟ ﴿ قالوا ضلُّوا عنا ﴾، غابوا عنا ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾، اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه، وندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلت بهم القدم.

الإشارة: كل من أعرض عن خصوص أهل زمانه، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه، ينال نصيبه من الدنيا الفانية وما قُسِم له فيها؛ فإذا جاءت منيته ندم وتحسر، وقيل له: أين ما تمتعت به وشغلك عن مولاك؟ فيقول: قد غاب ذلك وفنى وانقضى، وكأنما كان برقًا سرَى، أو طَيْفَ كرَى، والدهر كله هكذا؛ لمن سدد نظرا، وعند الصباح يحمد القوم السُّرَى، وستعلم، إذا انجلى الغبار، أفرس تحتك أم حمار.

وقد قال ﷺ في بعض خطبه: «لاتخدعنكُمْ زخارفُ دنيا دنيَّة، عن مَراتب جنَّاتٍ عَاليةٍ؛ فكان قد كُشِفَ القِناع، وارتفع الارتياب، ولاقى كل امرىءٍ مستقره، وعرفَ مثواه ومنقلبه». وفي حديث آخر: «مَن بدأ بِنَصِيبه من الدنيا فَاتَه نصيبُه من الآخرة، ولم يُدْرِكْ منها ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة، وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد».

ثم ذكر عذاب أهل التكذيب، فقال:

﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ الله تعالى أي: يوم القيامة للكفار، بواسطة ملك، أو بغيرها: ﴿ ادخلوا في ﴾ جملة ﴿ أمم ﴾ كانوا من قبلكم؛ ﴿ من الجن والإنس ﴾ متفقين معكم في الكفر والضلال، فادخلوا مصاحبين معهم ﴿ في النار ﴾. قال تعالى، مخبراً عن حالهم: ﴿ كلما دخلت أمةٌ ﴾ منهم في النار ﴿ لعنتْ أختها ﴾ التي ضلت

بالاقتداء بها، ﴿حتى إذا ادَّاركوا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا، ﴿فيها جميعًا قالت أُخراهم﴾؛ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع السفلة، ﴿لأولاهم﴾ وهم المتبوعون الرؤساء ـ أي: قالت لأجلهم؛ لأن الخطاب مع الله لا معهم، قالوا: ﴿ربنا هؤلاء﴾ الرؤساء ﴿أضلونا﴾، حيث سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم، ﴿فآتِهم عذابًا ضِعفًا﴾ أي: مضاعفًا ﴿من النار﴾؛ لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿قال﴾ تعالى: ﴿لكلٍّ﴾ واحد منكم ﴿ضِعفٌ﴾ أي: عذاباً مضعفا، أما القادة؛ فلكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع؛ فلكفرهم وتقليدهم، ﴿ولكن لاتعلمون﴾ ما لكم، أو ما لكل فريق منكم.

﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ أي: المتبوعون للأتباع: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ في الإيمان والتقوى تُوجب أن يكون عذابنا أشد من عذابكم، حتى يتضاعف علينا العذاب دونكم؛ فإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب، ﴿فذوقوا﴾ أي: باشروا ﴿العذاب بما كنتم تكسبون﴾؛ هو من قول القادة، أو من قول الله ـ تعالى ـ لجميعهم.

الإشارة: إذا قامت القيامة تحققت الحقائق، وتميزت الطرائق، للخاص والعام، فيرتفع المقربون في أعلى عليين، ويبقى أهل اليمين في أسفل منازل أهل الجنة مع عوام المسلمين، فيتعلق عوامهم بخواصهم، فيقولون لهم: أنتم رددتمونا عن صحبة هؤلاء، وأنتم خذلتمونا عنهم، ثم يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا عن صحبة هؤلاء المقربين، فآتهم حجاباً ضعفاً مما لنا، قال: لكل ضِعْف من الحجاب، هم بتضليلهم لكم عن صحبتهم، وأنتم بتقليدكم لهم، ولكن لا تعلمون ما أعددت للمقربين حين صبروا على جفاكم، وتحملوا مشاق طاعتي ومعرفتي؛ لأن كل آية في الكفار تجر ذيلها على أهل الغفلة من المؤمنين. والله تعالى أعلم.

ثم حرّم على الكفار دخول الجنة، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (سَمِّ الخياط): عين الإبرة، وفي السين: الفتح والكسر والضم، والخياط: ما يخاط به، على وزن حِزام، والتنوين في (غواش): للعوض عن الياء، عند سيبويه، وللصرف عند غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا﴾ عن: الإيمان بها، ﴿لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماء﴾؛ لأدعيتهم وأعمالهم؛ فلا تقبل، أو: لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا، بل تغلق دونها إذا وصلت بها

الملائكة إليها، فيطرحونها فتسقط من السماء، بخلاف أرواح المؤمنين؛ تُفتح لهم أبواب السماء حتى يفضوا إلى سدرَة المنتهى. ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يَلجَ ﴾ أي: يدخل، ﴿ الجمَلُ ﴾ وهو البعير ﴿ في سَمِّ الخِياط ﴾ أي: في ثقب الإبرة، والمعنى: لايدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدا، فلا يدخلون الجنة أبدا، وقرأ ابن عباس (الجُمّل)؛ بضم الجيم وسكون الميم، وهو حبل السفينة، الذي جُمِعَ بعضُه إلى بعض حتى صار أغلظ ما يكون .

ثم قال تعالى: ﴿ وكذلك نَجْزي المجرمين ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي المجرمين، ﴿ لهم من جهنم مِهادٌ ﴾ أي: فراش، ﴿ ومن فوقهم غَوَاشٍ ﴾ أي: أغطية من النار. ﴿ وكذلك نجزي الظالمين ﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى؛ إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات، اتصفوا بالجرم والظلم، وذكر مع الحرمان من الجنة: الجرم، ومع التعذيب بالنار: الظلم؛ تنبيهاً على أن الظلم أعظم الإجرام.

الإشارة: أهل التربية النبوية من الشيوخ العارفين: آية من آيات الله، من كَذَّب بهم، واستكبر عن الخضوع لهم، لاتفتح لفكرته أبواب السماء، بل يبقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، ولايدخل جنة المعارف أبداً، بل يحيط به الحجاب من فوقه ومن أسفله، فتنحصر روحه في الأكوان، ولم تفض إلى فضاء الشهود والعيان.

وفي الحِكَم: «الكائن في الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور في هيكل ذاته». وقال أيضا: «وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يَسَعك من حيث ثبوتُ روحانيتك»، فكل من لم تثبت له الروحانية: فهو محصور في الكون، وكل من ثبتت له الروحانية؛ بأن استولى معناه على حسه، لم يسعه الكون، ولم يحصره عرش ولا فرش، وكذلك الصوفي؛ لاتظله السماء ولا تقله الأرض، أي: لا يحصره الكون من حيث فكرتُه. والله تعالى أعلم.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قلت: جملة (لا نُكلف): معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ويسهل عليهم، و (ما كنا لنهتدى): اللام لتأكيد النفى، وجواب «لولا»: محذوف، أى: لولا هدايته إيانا ما اهتدينا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين آمنوا ﴾ بالرسل، ﴿ وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ على قدر طاقتهم، ﴿ لا نُكلف نفسًا إلا وُسعَها ﴾ أى: ما تسعه طاقتها، فمن فعل ذلك فـ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ونزعنا ما في صدورهم من غِل ﴾ أى: نُخرج مِن قلوبهم كل غل وعدواة، ونطهرها منه، حتى لايكون بينهم إلا التودد، فيصيرون أحباباً وإخواناً، وإنما عبَّر بالماضى؛ لتحقق وقوعه، كأنه وقع ومضى، وكذلك ما يجيء بعدها، ثم وصف الجنة فقال: ﴿ تجري من تحتهم ﴾ أى: من تحت قصورهم، ﴿ الأنهارُ ﴾؛ من عسل وخمر وماء ولبن؛ زيادة في لذتهم وسرورهم، فالقصور مرتفعة في الهواء، والأنهار تجرى تحتها.

﴿ وقالوا ﴾ حينئذ: ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ أى: لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان في الدنيا والعمل الصالح، ﴿ وما كنا لنهتدي ﴾ بأنفسنا ﴿ لولا أنْ هدانا الله ﴾ بتوفيقه وإرادته، ﴿ لقد جاءتْ رُسلُ ربنا بالحق ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحًا بأن ما علموه في الدنيا يقينًا، صار لهم عين اليقين في الآخرة، ﴿ ونُودوا ﴾ أى: نادتهم الملائكة، أو الحق تعالى: ﴿ أنْ تلكُم الجنةُ ﴾ أى: هذه الجنة ﴿ أُورِثتُموها ﴾ أى: أعطيتموها ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أى: بسبب أعمالكم، وهذا باعتبار الشريعة، وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه وإليه. ولذلك قال ﷺ: «لن يُدْخِلَ الجنَّةَ أحدَكم عمَلُهُ، قالوا: ولا أنت، قال: ولا أنا، إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله برحْمَتِه»[1]. فالشريعة تنسب العمل للعبد، والحقيقة تعزله عنه، وقد آذنت بها الآية قبله بقوله: «وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله»، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.

وقال القشيرى: إنما قال: ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾؛ تسكينًا لقلوبهم، وتطييبًا لهم، وإلاَّ، فإذا رأوا تلك الدرجات، علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال: (يجوزون الصراط بعفو الله، ويدخلون الجنة برحمة الله، ويقتسمون المنازل بأعمالهم). هـ.

الإشارة: والذين آمنوا بطريق الخصوص، وعملوا الأعمال التى تناسبها، من خرق العوائد واكتساب الفوائد، والتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل على حسب الطاقة؛ أولئك أصحاب جنة المعارف، هم فيها خالدون في الدنيا والآخرة، قد نزع الله من قلوبهم المساوئ والأكدار، وطهَّرها من جملة الأغيار، حتى صاروا إخوانًا متحابين؛ لا لَغوَ بينهم ولا تأثيم، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهوم، فإذا تمكنوا من

(١) أخرجه البخارى في (الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.

هذه الحضرة (قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)، تحققوا أنهم محمولون بسابق العناية، محفوفون بعين الرعاية، فتحققوا بما جاءت به الرسل من عند الله، وما نالوه على يد أولياء الله من الذوق والوجدان، وكشف الغطاء عن عين العيان، منحنا الله من ذلك حظا وافرا، بمنّه وكرمه.

ثم ذكر تبجح أهل الجنة على أهل النار، فقال:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) ﴾

قلت: (أنْ): فى هذه المواضع: مخففة من الثقيلة، أو: تفسيرية، وحذف مفعول: (وعد) الثانى؛ استغناء بمفعول وعد الأول، أو لإطلاق الوعد، فيتناول الثواب والعقاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أنْ قد وجَدنا ما وعدنا ربُّنا﴾ من النعيم ﴿حقاً فهل وجدتم﴾ أنتم ﴿ما وَعَدَ ربكم﴾ من البعث والحساب ﴿حقاً﴾، إنما قال أهل الجنة ذلك؛ تبجحا بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وتحسيراً لهم، فأجابهم أهل النار بقولهم: ﴿نعم﴾، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ بين الفريقين: ﴿أن لعنةُ الله على الظالمين﴾؛ الكافرين، ﴿الذين يصدُّون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ وهى الإسلام، ﴿ويبغونها﴾ أى: يطلبون لها ﴿عوجاً﴾؛ زيغًا وميلاً عما هو عليه من الاستقامة، أو يطلبونها أن تكون ذات عوج، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أى: جاحدون.

﴿وبينهما﴾ أى: بين الفريقين ﴿حجابٌ﴾، أو بين الجنة والنار حجاب، يمنع دخول أثر أحدهما للأخرى، ﴿وعلى الأعراف﴾؛ وهو السور المضروب بين الجنة والنار، ﴿رجالٌ﴾؛ طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم، كما فى الحديث. وقال فى الإحياء: يشبه أن يكونوا من لم تبلغهم الدعْوة فى أطراف البلاد، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقربهم، ولا جناية تبعدهم، ولهم السلامة فقط، لا تقريب ولا تبعيد.هـ. **قلت**: لكن سيأتى أنهم يدخلون الجنة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ يعرفون كُلاًّ﴾ من أهل الجنة والنار، ﴿ بسيماهم ﴾ : بعلامتهم التي أعلمهم الله بها؛ كبياض الوجوه في أهل الجنة، وسوادها في أهل النار، أو غير ذلك من العلامات. ﴿ ونادوا أصحابَ الجنة ﴾ ، إذا نظروا إليهم، فقالوا لهم: ﴿ أن سلامٌ عليكم ﴾ ، أي: نادوهم بالسلام عليهم، ﴿ لم يدخلوها ﴾ أي: الجنة، ﴿ وهم يطمعون ﴾ في دخولها.

﴿ وإذا صُرِفتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النار﴾ أي: التفتوا إليهم على وجه القلة، تعوذوا من حالهم، ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ في النار.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلي الكبير؛ نادوا أهلَ البطالة والتقصير، فقالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا؛ من كشف الحجاب والدخول مع الأحباب، حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا كما وجدنا نحن؟ قالوا على وجه الدعوى والغلط: نعم، فأذن مؤذن بينهم، بلسان الحال: أن لعنة الله على الظالمين؛ الذين بقوا مع حظوظ أنفسهم، ولم يخرقوا شيئاً من عوائدهم، مع ترامِيهم على مراتب الرجال، وادعائهم بلوغ غاية الكمال، الذين يصدون عن طريق الخصوص ويبغونها عوجاً، وهم بالخصلة الأخرة ـ وهي إشراق نور الحقيقة على أهل التربية ـ هم كافرون، وبينهما حجاب كبير، وهو حجاب الغفلة، فلا يعرفون أهل اليقظة، وهم أهل مقام الإحسان، بل بينهما مفاوز ومهامه[1] ، كما قال الشاعر:

تَرَكْنَا البُحور الزَّاخراتِ وراءنا		فَمِنْ أين يَدْرِي النَّاسُ أيْنَ توجَّهْنَا

وعلى الأعراف؛ وهو البرزخ الذي بين الحقيقة والشريعة، رجال من أهل الاستشراف، يعرفون كلاً من العوام والخواص بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أي: الواصلين إلى جنة المعارف: أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون، لأنهم في حالة السير، وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار أي: نار الحجاب والتعب، وهم العوام، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ثم ذكر شماتة أهل الأعراف بأهل النار، فقال:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) المهامة: جمع مَهْمَه: وهي المفازة البعيدة. انظر اللسان (مهه).

قلت: (ما أغنى): استفهامية أو نافية، و(ماكنتم): مصدرية، و(ادخلوا): محكى بقول محذوف، أى: قيل لهم ادخلوا... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً ﴾ من رؤساء الكفرة، ﴿ يعرفونهم بسيماهم ﴾؛ بعلامة فيهم من سوء حالهم، ﴿ قالوا ﴾ لهم: ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ أى: كثرتكم، أو جمعكم للمال، شيئاً أو أىّ شيء أغنى عنكم جمعكم، ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾؟ أىْ: واستكباركم؟ ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالُهم اللهُ برحمة ﴾ وهم ضعفاء المسلمين الذين كانت الكفرة تستحقرهم فى الدنيا، ويحلفون أن الله لايدخلهم الجنة، قد قيل لهم: ﴿ ادخلوا الجنة لاخوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾. أو تقول الملائكة لأهل الأعراف: ﴿ ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾، بعد أن حُبسوا على الأعراف حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم، وقالوا لهم ما قالوا، تفضل الله عليهم، فقيل لهم: ادخلوا الجنة.

وقيل: لما عيَّر أصحابُ الأعراف أهل النار، أقسموا ـ أى: أهل النار ـ أن أصحاب الأعراف لايدخلون الجنة، فقال لهم الله تعالى: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم برحمة، ادخلوا﴾ يا أهل الأعراف ﴿الجنة﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أصحاب الأعراف: قوم من الصالحين حصل لهم محبة القوم، ليسوا من عوام أهل اليمين ولا من خواص المقربين، فإذا نظروا إلى أهل الطعْن على الفقراء المتوجهين، والترفع عليهم، قالوا لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، أهؤلاء الذين كنتم تطعنون عليهم، وأقسمتم أنهم ليسوا على شيء؟ قد قيل لهم: ادخلوا جنة المعارف لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، وأنتم حصل لكم الخيبة، والحرمان، والأسر فى أيدى النفوس، والحصر فى سجن الأكوان، عائذاً بالله من ذلك.

ثم ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة، فقال:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا

مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: (هدى ورحمة): حال من مفعول (فصّلناه)، (فيشفعوا): جواب الإستفهام، (أو نُرد)؛ بالنصب: عطف عليه، وبالرفع: استئناف، فعلى الأول: المسئول أحد الأمرين؛ إما الشفاعة أو الرد، وعلى الثاني: المسئول الشفاعة فقط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى﴾، يوم القيامة، ﴿أصحابُ النار أصحابَ الجنة أنْ أفيضُوا﴾ أي: صبوا ﴿علينا من الماء﴾، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار، أو: صبوا علينا مما رزقكم الله؛ من سائر الأشربة، ليلائم قوله «أفيضوا»، أو: من الطعام؛ على حذف الفعل، أي: أو أعطونا مما رزقكم الله، ﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾، أي: منعهما عنهم، ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾؛ كتحريم البحائر والسوائب، والتصدية حول البيت، والطواف به؛ عريانا، وغير ذلك مما أحدثوه، واللهو: صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروى . واللعب: طلب الفرح بمالا يحسن أن يطلب به؛ لخلوه عن منفعة دينية، ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾؛ بأن أنستهم القيامةَ، ﴿فاليوم نَنساهُم كما نَسُوا لقاءَ يومهم هذا﴾، والكاف: للتعليل، أي: ننساهم؛ لأجل نسيانهم لقاء يومهم هذا، فلم يخطروه ببالهم، ولم يستعدوا له، ﴿وماكانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي: نُهملهم لأجل إهمالهم الاستعداد للقاء، وإهمالهم آياتنا حتى جحدوا أنها من عند الله.

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم﴾ أي: بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلةً ﴿على علم﴾، أي: عالمين بوجه تفصيله حتى جاء في غاية الإتقان، ﴿وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ فإنهم المنتفعون بهدايته ورحمته دون غيرهم.

﴿هل ينظرون﴾ أي: ما ينتظر الكفار به ﴿إلا تأويلَه﴾، أي: ما يئول إليه أمره؛ من تبين صدقه، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد، بقيام الساعة وما بعدها، ﴿يوم يأتي تأويله﴾؛ بظهور ما نطق به، ﴿يقول الذين نَسُوه من قبل﴾، ولم يؤمنوا به: ﴿قد جاءتْ رسلُ ربنا بالحق﴾ أي: قد تبين أنهم جاءوا بالحق، وحصل لهم اليقين حيث لم ينفع، ثم طلبوا من يشفع فيهم فقالوا: ﴿فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا﴾ اليوم، ﴿أو نُردُّ﴾ أي: وهل نرد إلى الدنيا ﴿فنعملَ غيرَ الذي كنا نعملُ﴾ فنستبدل الكفر بالإيمان، والعصيان بالطاعة والإذعان، أو: فيشفعوا لنا في أحد الأمرين: إما السلامة من العذاب، أو الرد إلى الدنيا فنستبدل الكفر بالإيمان. قال تعالى: ﴿قد خسروا أنفسهم﴾؛ أي: بخسوها بسوء أعمالهم وكفرهم، ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي: غاب عنهم افتراؤهم فلم ينفعهم.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العلي الكبير، وأفاض عليهم من ماء غيبه، حتى امتلأت قلوبهم وأسرارهم، فأثمر لهم العلوم اللدنية والأسرار الربانية؛ ناداهم أهل البطالة والتقصير: أفيضوا علينا من الماء الذى سقاكم الله منه، أو مما رزقكم من العلوم والمعارف. قالوا: إن الله حرمهما على البطالين؛ الذين اتخذوا طريق القوم لهواً ولعباً، وغرتهم الحياة الدنيا فقبضتهم في شبكتها، فيقول تعالى: فاليوم ننساهم من لذيذ مشاهدتي، وحلاوة معرفتي، كما نسوا لقائي بشهود ذاتي، وأنكروا على أوليائي وأهل معرفتي، وجحدوا وجود التربية وحجروا على قدرتي، ولقد جئناهم بكتاب فصلناه فيه كل شيء؛ فقلنا فيه: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾(١) إلى يوم القيامة، هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله بظهور درجات المقربين، في أعلى عليين، حينئذ يحصل لهم اليقين بوجود المقربين، أو بالتربية النبوية في كل زمان وحين، فيطلب الشفاعة في اللحوق بهم، أو يرد إلى العمل بعملهم.. هيهات! قد بُعثر ما في القبور، وحُصّل ما في الصدور، فخسر المبطلون، وفاز المجتهدون السابقون. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم عرّف الحق ـ جل جلاله ـ بنفسه؛ ليعرفه من أراد معرفته في الدنيا، فقال:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾

قلت: (حثيثًا) أي: سريعا؛ صفة لمصدر محذوف، أي: طلبًا حثيثا، أو حال من الفاعل، أي: حاثًا، و(مسخرات) حال فيمن نصب، وخبر فيمن رفع، و(تضرعاً وخفية): مصدران، حالان من الواو، وكذلك (خوفاً وطمعا)..

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ ربكم ﴾ الذى يستحق أن تعبدوه، هو ﴿ اللهُ ﴾ وحده ﴿ الذى خلق السموات والأرض ﴾ أي: أظهرهما ﴿ فى ستة أيام ﴾ أي: مقدار ستة أيام من أيام الدنيا؛ إذ لم يكن ثَمّ شمس، ولو شاء خلقهن في لمحة، والعدول إليه؛ لتعليم خلقه التأني والتثبت.

(١) من الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق به، والعرش: جسم عظيم محيط بالأكوان. سمي به؛ لارتفاعه، وللتشبيه بسرير الملك، فالأكوان في جوفه ممحوقة؛ فقد استولى عليها ومحقها، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبَّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

وقال القشيري: ثم استوى على العرش، أي: تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت، وملوكنا إذا أرادوا التجلِّي والظهور للحَشَم والرعية؛ برزوا لهم على سرير مُلْكِهم في إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحقُّ - سبحانه وتعالى - بما يَقْرُب من فَهْم الخلْقِ، بما ألقي إليهم من هذه الكلمات، بأنه استوى على العرش، ومعناه: اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية، وتقدَّس الجبَّارُ عن الأقطار، والمعبودُ عن الحدود. هـ.

﴿ يُغشي الليلَ النهارَ ﴾ أي: يُغطي نور النهار بظلمة الليل، ﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ أي: يعقبه سريعا؛ كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء، ﴿ و ﴾ خلق ﴿ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخرات بأمره ﴾ أي: بقضائه وتصريفه، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمور غيبية، دالة على ظهور شيء منها.

والنهي عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين؛ إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به؛ لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل، فإنَّ علم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء، ثم اندرس ذلك العلم، فلم يبق إلا ما هو مختلط، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار يخلق الله ـ تعالى ـ بها في الأرض، وفي النبات والحيوان شيئاً، يعني في الجملة ليس قادحاً في الدين، بل هو الحق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل: قادح في الدين، فالكواكب ما خلقت عبثاً، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وقرأ قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ... ﴾ الآية[1]. انظر: الإحياء للغزالي.

ثم قال تعالى: ﴿ ألا له الخلقُ والأمرُ ﴾ أي: الإيجاد والتصرف بالأمر والنهي، ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ أي: تعاظم في ألوهيته، وتعالى في ربوبيته، وتفرد في وحدانيته.

قال البيضاوي: (وتحقيق الآية ـ والله أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً، فبيَّن لهم أن المستحق للربوبية واحد ـ وهو الله تعالى؛ لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه تعالى خلق العالَم على ترتيب قويم، وتدبير حكيم ؛ فأبدع الأفلاك العلوية، والأجرام السفلية، ثم بعد تمام خلق عالَم الملك أخذ في تدبيره؛ كالملكِ الجالس على عرشه

(١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.

وسريره لتدبير مملكته، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكوير الليالي والأيام، فله الخلق والأمر. وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[1]، فربُّ الخلائق: مَنْ هذا صفته، لا غيره. انتهى بالمعنى.

ثم أمرهم بأن يدعوه، متذللين مخلصين، فقال: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخُفْيةً﴾ أي: ذوي تضرع وخفاء؛ فإن الإخفاء دليل الإخلاص، ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ المتجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، ونبه على أن الداعي ينبغي ألاَّ يطلب مالا يليق به؛ كرتبة الأنبياء، وقيل: الاعتداء في الدعاء، هو الصياح به، والتشدق، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، وعن النبي ﷺ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وحَسْبُ المَرْءِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الجنَّةَ ومَا يُقَرِّبُ إليْهَا مِنْ قَوْلٍ وعَمَلٍ. ثم قرأ: ﴿إنَّه لا يُحبُّ المُعْتَدِينَ﴾»[2].

﴿ولا تُفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿بعد إصلاحها﴾ ببعث الأنبياء، وشرع الأحكام، أو: ولا تفسدوا في الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم بالقحط والفتن، بعد إصلاحها بالخصب والأمان، ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفًا من الرد لقصور الأعمال، وطمعًا في القبول بالفضل والكرم؛ ﴿إن رحمتَ الله قريبٌ من المحسنين﴾ المخلصين.

قال البيضاوي: هو ترجيح للطمع، وتنبيه على ما يتوصل به إلى الإجابة، وتذكير قريب؛ لأن الرحمة بمعنى الترحم، أو لأنه صفة محذوف؛ أي: أمر قريب، أو على تشبيه فعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو للفرق بين القريب من النسب، والقريب من غيره. هـ. قلت: والأحسن أنه إنما ذكره؛ لأن المراد بالرحمة هنا: سر الخصوصية، وهو مذكر، فراعى معنى اللفظ، كأنه قال: إن سر الولاية ـ وهي الخصوصية ـ قريب من المحسنين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (في ستة أيام): قال الورتجبي: في كل يوم من هذه الأيام: ظهور صفة من صفاته الست: أولها: العلم، والثاني: القدرة، والثالث: السمع، والرابع: البصر، والخامس: الكلام، والسادس: الإرادة، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة، ولما أتمها صارت الحدثان؛ كجسد آدم بلا روح، فتجلى من صفته السابعة ـ

---

(١) الآية ٤ من سورة السجدة.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٢/ ٧١، من حديث سعد بن أبي وقاص. وصدر الحديث إلى قوله (في الدعاء) أخرجه أبو داود في (الطهارة، باب الإسراف في الماء) وابن ماجه في (الدعاء، باب كراهية الاعتداء في الدعاء) والحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٠، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث عبدالله بن مغفل.

وهي حياته القديمة الأزلية الباقية، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس ـ فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون إلى الأبد؛ لحياتها بروح حياته، المقدسة عن الاتصال والانفصال. قلت: وهي المعبِّر عنها بالمعاني القائمة بالأواني. ثم قال: وفي أدق الإشارة: السموات: الأرواح، والأرض: الأشباح، والعرش: القلوب، بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب؛ لأن مناظر القلوب للغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلي استواء القدم، استوى قهر القدم، بنعت الظهور للعدم، أي: فتلاشى العدم، ثم استوى تجلي الصفات على الأفعال، واستوى تجلي الذات على الصفات، فاستوى بنفسه لنفسه، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان. قلت: أي: إذ لا حدثان ولا أكوان؛ لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت، وما بقي إلا نعت القدم.

ثم قال: خصَّ السموات والأرض بتجلي الصفات، وخص العرش بتجلي الذات. قلت: لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها، وهي أسرار الذات لم تترَدَّ برداء الكبرياء، وهو حجاب الحس الظاهر، بخلاف المعاني القائمة بالأواني، وهي أنوار الصفات، تجلت مرتدية بحجاب القهرية، فقيل لها: تجلي الصفات.

ثم قال: السموات والأرض جسد العالم، والعرش قلب العالم، والكرسي دماغ العالم، خص الجميع بالأفعال والصفات، وخص العرش بظهور الذات؛ لأنه قلب الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأيته في المكاشفة أنواراً شعشعانياً، بلا جسم ولا مكان ولا صورة، يتلألأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشا. انتهى.

قلت: وأقرب من هذا كله: أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم، حتى صارت في وسطه كلا شيء، ومعاني أسرار الربوبية، وهي العظمة الأصلية ـ قد استولت عليه، وأحاطت به، ومحت وجوده، فعبَّر الحق ـ جل جلاله ـ عن استيلاء هذه العظمة ـ التي هي أسرار الربوبية ـ على العرش بالاستواء. وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله: «يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الآثار ـ وهي العرش وما احتوى عليه ـ بمحيطات أفلاك الأنوار» وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار، من العرش إلى الفرش، فعبّر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية؛ لأن الرحمانية صفة الذات، والصفة لاتفارق الموصوف، فافهم.

قلت: ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لايستبعد أن يكون الحق ـ جل جلاله ـ يتجلى بتجل خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته، يستوي بتلك العظمة على العرش، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، إذ تجلياته لا تنحصر، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته. وهذا القدر كاف لمن شم شيئًا

من أسرار التوحيد، وقد تكلم ابن جزي هنا على الخوف والرجاء، وأطال فيهما، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر، وقد تقرر في محله.

وقوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾: هو تقييد لقوله: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾؛ فالمختص بالرحمة هم المحسنون. انظر لفظ الحكم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق ـ جل جلاله ـ تصاريف قدرته المفهوم من قوله: (ألا له الخلق والأمر)، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (نُشُرًا): حال من الرياح، وهو جمع نشور، بمعنى ناشر، ومن قرأ بسكون الشين، فهو تخفيف منه، ومن قرأ بفتح النون، فمصدر في موضع الحال، بمعنى: ناشرات، أو مفعول مطلق؛ فإن الإرسال والنشر متقاربان، ومن قرأه بالباء وسكون الشين فهو جمع بشير، مخفف، و(أقلّت): مشتق من القلة؛ لأن الحامل للشيء يستقله، و(ثقالا): جمع؛ لأن السحاب جمع بمعنى السحائب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ أو الريح ﴿نُشْراً﴾ أي: تنشر السحاب، وتفرقه إلى الأرض التي أراد الله أن تمطر، أو بشارة بالمطر[1]، ﴿بين يدي رحمته﴾ أي: قبل نزول المطر، فهي قدامَه؛ فإن الصبا تثير السحاب، والشمال تجمعه، والجنوب تذره، والدبور تفرقه. قاله البيضاوي.

﴿حتى إذ أقلّتْ﴾ أي: حملت ﴿سحاباً ثقالاً﴾ بالماء؛ لأنها تحمل الماء فتثقل به، ﴿سُقناه﴾ أي: السحاب بما اشتمل عليه من الماء، ﴿لبلدٍ ميّتٍ﴾ أي: لإحيائه أو لسقيه بعد يبسه، كأنه ميت، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بالبلد، أو بالسحاب، أو بالسوق، أو بالريح، ﴿الماء﴾ الذي في السحاب، ﴿فأخرجنا به﴾ أي: بالماء، ﴿من كل الثمرات﴾ من كل أنواعها وأصنافها، ﴿كذلك نُخرج الموتى﴾ من القبور، أي: كما نُحيي البلد بإحداث القوة

(١) هذا المعنى على قراءة «بُشْرًا»، جمع بشير وهي قراءة عاصم. وقرأ الباقون «نُشْراً» بالنون. راجع الإتحاف (٢/٥٢).

النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿ كذلك نُخرج الموتى ﴾ من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقُوى الحسية. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي: هو تمثيل لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض، وقد وقع ذلك في القرآن في مواضع منها: ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[1] و ﴿ كَذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾[2] .هـ. ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾؛ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى، إذ لا فرق.

﴿ والبلدُ الطيب ﴾ أي: الأرض الكريمة والتراب الجيد ﴿ يَخرج نباتُه ﴾ بسهولة، حسناً قوياً نضرا، ﴿ بإذن ربه ﴾ أي: بمشيئته وقدرته، ﴿ والذي خبُث ﴾ من الأرض؛ كالحرة والسبخة، ﴿ لايخرج إلا نَكِداً ﴾؛ قليلاً عديم النفع، أو عسيراً بمشقة، ﴿ كذلك نُصرِّف الآيات ﴾؛ نُكررها ونُرددها ﴿ لقوم يشكرون ﴾ نعمة الله، فيتفكرون فيها، ويعتبرون بها.

قال البيضاوي: والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها، ومثلُه في البخاري في حديث طويل[3]. وقال ابن عباس وغيره: هو ضرب مثل للمؤمن والكافر. وقال ابن جزي: يحتمل أن يكون المراد ما يقتضيه ظاهر اللفظ، فتكون متممة للمعنى الذي قبلها في المطر، وأن تكون تمثيلاً للقلوب؛ فالطيب: قلب المؤمن، والخبيث: قلب الكافر، وقيل: هما للفهم والبليد. هـ.

الإشارة: وهو الذي يرسل رياح الهداية، تنشر سحاب الواردات الإلهية والنفحات الربانية، بين يدي معرفته، أو تُبشر بها قبل وصولها، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً بالعلوم اللدنية، سقناه لقلبٍ ميت بالجهل والهوى، فأنزلنا مما فيه من ماء ذلك الأمطار، فأخرجنا به من ثمرات العلوم وأزهار الحِكَم ونوار اليقين. وفي الحكم: «لاتزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المقصود من السحابة الأمطار، وإنما المقصود وجود الأثمار». (كذلك نخرج الموتى) أي: نحي القلوب الموتى بالجهل، (لعلكم تذكرون). والبلد الطيب، وهو القلب الطيب، إذا هبت عليه هذه الواردات، وتزلت فيه أمطار النفحات، يُخرج نباته من العلوم والمعارف بإذن ربه، والذي خبث من القلوب لا يخرج ما فيه إلا نكدا ـ أي: ضعيفاً؛ لعدم تأثره بالواردات والمواعظ.

وقال الورتجبي: ذكر ـ سبحانه ـ القلب الذي هو بلد الله الذي مُطر عليه من بحر امتنانه، ويخرج نبات ألوان الحالات والمقامات. ثم قال: وكل قلب بذره الهوى فنباته الشهوات.هـ.

---

(١) من الآية ١١ من سورة ق.

(٢) من الآية ٩من سورة فاطر.

(٣) وذلك قول الرسول ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير...» الحديث أخرجه البخاري في (العلم ـ باب فضل من عَلِم وعلَّم) ومسلم في (الفضائل ـ باب بيان ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم) عن أبي موسى رضي الله عنه.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، تفصيلاً لقوله: (وكم من قرية أهلكناها..) ... الآية، فقال:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (أوَ عَجبتم): الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، أي: أكذبتم وعجبتم، و(في الفلك): يتعلق بأنجينا، أو بمن معه، أو حال من الموصول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقدأرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس، نبيء بعده[1]، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين، وعاش ألفًا وثلاثمائة سنة، ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده ﴿مالكم من إلهٍ غيرُه﴾ يستحق أن يُعبد، ﴿إني أخاف عليكم﴾، إن لم تؤمنوا وتوحدوا الله ﴿عذابَ يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

﴿قال الملأُ﴾ أي: الأشراف ﴿من قومه﴾؛ لأنهم يملأون العيون عند رؤيتهم، قالوا له: ﴿إنا لنَراكَ في ضلالٍ مبين﴾ أي: في خطأ بيِّن عن الحق، ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ﴾ أي: ليس بي شيء من الضلال، بالغ لهم في النفي كما بالغوا له في الإثبات، وعرض لهم به، وتلطف لهم في القول، ﴿ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾ أي: لست في ضلال كما اعتقدتم، ولكني في غاية من الهدى؛ لأني رسول من رب العالمين، ﴿أبلغكم رسالاتِ ربي﴾ كما أمرني، ﴿وأنصحُ لكم﴾ جُهدي، ﴿وأعلمُ من الله مالا تعلمون﴾ من صفاته الجلالية والجمالية ومن رحمته وعذابه، أو من قدرته وشدة بطشه، أو أعلم من جهة وحْيه أشياء لا علم لكم بها، وجمع الرسالات؛ لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها، كعلم العقائد والمواعظ والأحكام.

---

(١) أي: بعد إدريس ـ عليه السلام.

ثم قال لهم: ﴿أو عَجِبْتُم﴾ أي: أكذبتم وعجبتم من ﴿أن جاءكم ذِكرٌ﴾ أي: تذكير ووعظ ﴿من ربكم﴾ ﴿على﴾ لسان ﴿رجل منكم﴾ أي: من جملتكم، أو من جنسكم؛ كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾(١)، قال القشيري: عجبوا مِنْ كوْنِ شخص رسولا، ولم يَعجبوا من كون الصنمِ شريكاً لله، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغواية. هـ. وحكمة إرساله؛ كونه جاءكم ﴿لينذركم﴾ عاقبة الكفر والمعاصي، ﴿ولتتقوا﴾ الله بسبب ذلك الإنذار، ﴿ولعلكم ترحمون﴾ بتلك التقوى، وفائدة حرف الترجي؛ التنبيهُ على أن التقوى غير مُوجب للترحم بذاته، وإنما هو ـ أي: الترحم ـ فضل من الله، وأن المتقي ينبغي ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمَن من عذاب الله.

﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه﴾ هو ومن آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، حَمَلناهم ﴿في الفلك﴾ أي: السفينة، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بالطوفان؛ ﴿إنهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ أي: عُمْي القلوب، غير مستبصرين، وأصله: عَمِيين، مخفف. قاله البيضاوي.

الإشارة: الشريعة المحمدية: سفينة نوح عليه السلام، فمن ركب بحر الحقائق وحاد عنها؛ حال بينه وبينها الموج فكان من المغرقين في بحر الزندقة والكفر، ومن تمسك بها في ذلك كان من الناجحين الفائزين.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام فقال:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ

(١) كما جاء في الآية ٢٤ من سورة (المؤمنون).

ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: (أخاهم): عطف على نوح، و(هودا): عطف بيان أو بدل، وكذلك (أخاهم صالحا) وما بعده؛ حيث وقع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ قبيلة ﴿عادٍ أخاهم﴾ أي: واحد من قبيلتهم، كقولهم: يا أخا العرب، فإنه هود بن عبدالله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، فهو ابن عم أبي عاد، وإنما أرسل إليهم منهم لأنهم أفهم لقوله، وأعرف بحاله، وأرغب في اتباعه، ثم وعظهم فقال: ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده؛ ﴿ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ عذاب الله، ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، كان قومه أحسن من قوم نوح، إذ كان من أشرافهم من آمن به؛ كمرثد بن سعد، ولذلك قيد الملأ بمن كفر، بخلاف قوم نوح؛ لم يكن أحد منهم آمن به، فأطلق الملأ، قالوا لهود عليه السلام: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أي: متمكناً في خفة العقل، راسخاً فيها، حيث فارقتَ دين قومك، ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ في ادعاء الرسالة.

﴿قال ياقوم ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالاتِ ربي، وأنا لكم ناصح أمين﴾، يحتمل أن يريد أمانته على الوحي، أو أنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والصدق قبل الرسالة. ثم قال: ﴿أوَ عجبتم﴾ من ﴿ أن جاءكم ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾، تقدم تفسيرها.

قال البيضاوي: وفي ذكر إجابة الأنبياء الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا به والإعراض عن مقالتهم: كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾: تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. هـ.

ثم قال لهم: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ في مساكنهم، أو خلفاء في الأرض من بعدهم بأن جعلكم ملوكاً، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض، من رمل عالج إلى بحر عمان، خوفهم أولاً من

عقاب الله، ثم ذكرهم بإنعامه؛ ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي: قامة وقوة، فكانوا عظام الأجساد، فكان أصغرهم: ستين ذراعا، وأطولهم: مائة ذراع. ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أي: نعمه، تعميم بعد تخصيص، ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي: لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح، ومن شكرها: الإيمان برسولهم.

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا ﴾ من الأصنام، استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما وجدوا عليه آباءهم؛ انهماكاً في التقليد، وحباً لما ألفوه مع اعترافهم بالربوبية، ولذلك قال لهم هود عليه السلام : «قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب»، بعد أن قالوا: ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فيه.

﴿ قال قد وقع ﴾ أي: وجب ﴿ عليكم من ربكم رجسٌ ﴾؛ عذاب ﴿ وغضب ﴾ إرادة الانتقام، ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي: أتجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف. وأراد بقوله: ﴿ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي: جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتموها آلهة من غير دليل، وهو معنى قوله: ﴿ ما نزّل الله بها من سلطان ﴾ أي: حجة تدل على استحقاقها للعبادة، فالمجادلة يحتمل أن تكون في عبادتها، أو في تسميتها آلهة، والمراد بالاسم ـ على الأول ـ المسمى، وعلى الثاني: التسمية.. قاله ابن جزي. ﴿ فانتظروا ﴾ نزول العذاب، الذي طلبتم حين أصررتم على العناد، ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ نزوله.

قال تعالى: ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾ عليهم. قال القشيري: لارتبةَ فوق رتبة النبوة، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة، وقد أخبر سبحانه: أنه نجيٌ هوداً برحمته، وكذا نجيٌ الذين آمنوا معه برحمته، ليُعلَم أن النجاة لاتكون باستحقاق العمل، وإنما تكون ابتداء فضلٍ من الله ورحمة، فما نَجاَ مَنْ نَجاَ إلا بفضل الله سبحانه وتعالى. هـ.

﴿ وقطعنا دابر الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾ أي: استأصلناهم، ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾، تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نَجاَ وبين من هلك: هو الإيمان.

روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وزادوا عتواً، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذ، مسلمهم ومشركهم، إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه «قيل بن عنز»، ومرثد بن سعد، في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة؛ أولاد عمليق بن لاود بن سام، وسيدهم: معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه، وهو بظاهر مكة، أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغني عليهم الجرادتان ـ قَيْنتَانِ له ـ فلما رأى ذهولهم عما

بعثوا له أهمه ذلك، واستحيا أن يكلمهم فيه؛ مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم، فعلم المغنيتين بيتين من الشعر، وأمرهما أن تغنيا به وهما:

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَكَ، قُم، فَهَيْنِمْ لَعَلَّ اللّه يسْقِينَا الغَمَامَا
فَيسْقِي أَرْضَ عَادٍ، إِنَّ عَادًا قَدَ امْسَواْ لاَ يُبِينُونَ الكَلاَمَا

فلما غنيتا به أزعجهم ذلك، فقال مرثد: والله لايُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم ، وتبتم إلى الله، سقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنّا ،لايقدمنَّ معنا مكة؛ فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم دخلوا مكة، فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثا؛ بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السماء: يا قيل؛ اختر لنفسك ولقومك. فقال: اخترت السوداء؛ فإنها أكثرهن ماءً، فخرجت إلى عاد من وادي المغيث، فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم، فيها ريح عقيم، فأهلكتهم، رُوى أنها لما قربت من ديارهم حملت أنعامهم في الهواء، كأنها جراد، فاستمرت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام، شدخَتْ رؤوسهم إلى الحجارة حتى هلكوا جميعا، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله حتى هلكوا. قاله البيضاوي وغيره.

وها هنا بحث؛ وهو أن البيت إنما بناه إبراهيم عليه السلام حسبما في الصحيح، ولم تعمر مكة إلا بعد إنزال إسماعيل فيها، وهود كان قبل إبراهيم، والبيت حينئذ خرب، كان خربه الطوفان، فكيف يتوجهون إليه وهو لم يكن؟.

ويمكن الجواب : بأنهم كانوا يلتجئون إلى رسومه وخربته التي بقيت بعد الطوفان؛ لأن أول من بناه آدم عليه السلام فلما خربه الطوفان بقي أثره، فكانوا يتبركون به، وفي بعض التواريخ: أن العماليق بنوه قبل إبراهيم، فكانوا يطوفون به ويتبركون، ثم هُدم، وبناه بعدهم خليل الله إبراهيم. وبهذا ـ إن صح ـ يزول الإشكال. والله تعالى أعلم. وأما من قال: إن هوداً تعدد، فغير سديد.

الإشارة: قد تضمنت موعظة هود عليه السلام لقومه خصلتين، بهما النجاة من كل هول وشر، والفوز بكل خير، وهما: التوحيد والتقوى، وهي الطاعة لله ولرسوله فيما جاء به من أمر ونهي. فالتوحيد تطهير الباطن من الشرك الجلي والخفي، والتقوى: حفظ الجوارح من المخالفة في السر والعلانية، وهاتان الخصلتان هما أساس الطريق ونهايته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: ﴿آية﴾: حال، والعامل فيها: الإشارة، و﴿بيوتاً﴾: حال من الجبال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾، قبيلة أخرى من العرب، سُموا باسم أبيهم الأكبر: ثمود بن غابر بن إرم بن سام، وقيل: سُموا به؛ لقلة ما بهم من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وقد دخلها رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: «لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ مخافة أن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»(١).

أرسلنا إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾، وهو صالح بن عُبَيد بن أُسف بن ماسَح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وقال وهب بن منبه: بعث الله صالحاً حين راهق الحلم. وقال الكواشي: إنه مات ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه ينذرهم عشرين. هـ.

---

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء ـ باب قول الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾) ومسلم في (الزهد ـ باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

﴿قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾؛ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وهي: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾؛ لأنها جاءت من عند الله بلا وسائط وأسباب، على ما سيأتي، ﴿فذروها﴾ أي: اتركوها، ﴿تأكل في أرض الله﴾ العشب، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾، نهي عن المس، الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى؛ مبالغةً في الأمر وإزاحة للعذر. قاله البيضاوي. ﴿فيأخذكم﴾ إن مسستموها بسوء ﴿عذاب أليم﴾، وهو الهلاك بالصيحة.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم﴾ أي: هيأ لكم القرار ﴿في الأرض﴾ أي: أرض الحجاز، ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي: تبنون مما انبسط منها قصورا، فالسهل ضد الجبل، ﴿وتنحتون الجبال بيوتا﴾ أي: تنجرون بيوتاً من الجبال، وكانوا يسكنون القصور في الصيف والجبال في الشتاء. ﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ بالمعاصي والكفر.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ عن الإيمان، ﴿للذين استضعفوا﴾ أي: للذين استضعفوهم واستذلوهم ـ أعني لمن آمن منهم ـ : ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾؟، قالوه على وجه الاستهزاء، ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾، لم يقولوا في الجواب: نعم؛ تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن ومن كفر؛ فلذلك قال: ﴿قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾؛ على المقابلة، ووضعوا «آمنتم به» موضع «أُرسل به»؛ رداً لما جعلوه معلوماً مسلما.

﴿فعقروا الناقة﴾؛ نحروها، أسند إلى جميعهم فعل بعضهم كما يأتي؛ لأنه كان برضاهم، ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمره، وهو ما بلغهم صالح بقوله: «فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء»، ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة﴾ أي: صيحة جبريل، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾؛ باركين على ركبهم، ميتين.

رُوي: أنهم بعد عادٍ عمروا بلادهم وخلفوهم، وكثروا ، وعُمِّروا أعماراً طِوالا لا تفي بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خِصب وسعة، فعتوا وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم، فأنذرهم، فسألوه آية، فقال لهم: أيّ آية تريدون؟ فقالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا، فمن استجيب له اتبع، فخرج معهم، فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم «جندع بن عمرو» إلى صخرة منفردة يقال لها: «الكاثبة»، قال له: أخرج من هذه الصخرة ناقةً مخترجة جوفاء وبْراء، فإن فعلت صدقناك، فأخذ

عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلتُ ذلك لتؤمنن؟ قالوا: نعم، فصلى، ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تَمَخُّضَ النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشَرَاءَ، جوفاء وبْراء كما وَصَفُوا، وهم ينظرون، ثم أنتجت ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع في جماعة، ومنع الناس من الإيمان: ذُؤاب بن عمرو، والحباب صاحب أصنامهم، ورباب كاهنهم.

فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر، وترد الماء غِبّاً، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج[1]، فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره؛ فشق ذلك عليهم، فزينت عقرها لهم «عنيزة أم غنم» وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، وعاقرها: الأحمر، واسمه قدار، استعان برجل آخر، فلما شربت اختبأ لها في جانب تل، فضربها صاحبه بالسهم، وعقرها قدار بسيفه، واقتسموا لحمها، فرقي ولدها جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثا، ودخل صخرة أمه، فقال لهم صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل، عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه حيث دخل الصخرة بعد رغائه، فقال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ويصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع: تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

﴿فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم ولكن لا تُحبون الناصحين﴾، ظاهره: أن توليته عنهم بعد أن أبصرهم جاثمين؛ ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم، كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، وقال لهم: «قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقًا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا؟»[2] أو ذَكَرَ ذلك على سبيل التحسر عليهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: كل ما قص علينا الحق ـ جل جلاله ـ من قصص الأمم الماضية، فالمراد به: تخويف هذه الأمة المحمدية وزيادة في يقينهم، فالواجب على من أراد السلامة في الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ويتحرى في ذلك جهده؛ يقصد بذلك رضا الله ورسوله. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، ومن سلك الطريق المستقيم وصل إلى النعيم المقيم. والله تعالى أعلم.

---

(١) الفحج: تباعد ما بين الفخذين. انظر النهاية (فحج).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في (المغازي ـ باب قتل أبي جهل) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) من الآية ١٠١ من سورة آل عمران.

ثم ذكر قصة لوط عليه السلام، فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلت: (شهوة): مفعول له، أو مصدر في موضع الحال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾، واعظاً لهم: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: اللواط؛ توبيخاً وتقريعاً على تلك الفعلة المتناهية في القبح، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ أي: ما فعلها أحد قبلكم، وبخهم على أمرين: إتيان الفاحشة، واختراعها أولاً، ثم قال لهم: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾، وصفهم بالشهوة البهيمية، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة: طلب الولد وإبقاء النوع لا قضاء الوطر، ﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ أي: عادتكم السرف في كل شيء، حتى تجاوزتم ما أحل الله لكم من النساء إلى ما حرم عليكم من إتيان الذكور، وهو إضراب عن الإنكار إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم لهم على جميع معايبهم، أو عن محذوف، مثل: لا عذر لكم فيه، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف. قاله البيضاوي.

﴿وما كان جواب قومه﴾ له حين وعظهم، ﴿إلا أن قالوا أخرجوهم﴾ أي: لوط ومن آمن به، ﴿من قريتكم﴾ أي: ما أجابوه بشيء يصلح للجواب، لكن قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه من قريتهم، والاستهزاء بهم، حيث قالوا: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ من الفواحش.

قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله﴾ أي: من آمن معه، ﴿إلا امرأته﴾ فإنها كانت تسر الكفر؛ ﴿كانت من الغابرين﴾ أي: الباقين في ديارهم فهلكوا وهلكت معهم.

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: نوعاً عجيباً من المطر، بيَّنه بقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[1]، ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾.

(١) الآية ٧٤ من سورة الحجر.

رُوى أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر عمه إبراهيم إلى الشام، ونزل بالأردن، وكان هاجر هو معه، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، ليدعوهم إلى الله، وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها، فقلع جبريل مدينتهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر الحجارة على ماقربهم من القرى، وسيأتى فى سورة هود بقية قصتهم، إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما أهلك اللهُ قوم لوط حيث آثروا شهوة نفوسهم على عبودية ربهم، وغلبهم الطبع البهيمى على مقتضى العقل الصافي، وقد تقدم قول الغزالى: إن الشَّره إلى الوِقاع من جملة المهلكات. فعلى المريد أن يصفى قصده، ولاينزل إلى أرض الحظوظ إلا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، ولاينزل بالشهوة والمتعة. وقد قال ﷺ: «المؤمن يأكل بشهوة أهله»[1] فلا يأتى ماأحلَّ اللهُ لهُ من متعة النِّساء إلا قياماً بحقِّ الغَيْر وطلباً للنسْلِ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السلام فقال:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن

---

(١) أخرجه الديلمى فى الفردوس (ح ٦٥٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلى، بلفظ «المؤمن يأكل بشهوة عياله، والمنافق يأكل أهله بشهوته».

نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى مدين أخاهم شعيباً ﴾، ومدين: قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم، شعيب بن ميكائل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل، على ما قيل. وقد تقدم في البقرة أن مدين ومدان من ولد ابراهيم عليه السلام، وشعيب هذا يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه.

﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ يريد المعجزة التي كانت له، وليس في القرآن بيان ما هي معجزته. وحمل الواحدي البينة على الموعظة. وقال في الكشاف: ومن معجزات شعيب: ما روى من محاربة عصا موسى التنين، حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع خاصة، حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصا آدم في يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات. هـ. وفيه نظر؛ لأن هذ وقعت بعد مقالته لقومه، وإنما كانت إرهاصات لموسى عليه السلام، وفي حديث البخاري: «ما بعث الله نبياً إلا وآتاه ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1]. وهو صريح في أنه لابد من الآية لكل رسول، ولعل الله تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود في القرآن مع وجودها؛ لظاهر الحديث.

ثم قال لهم: ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾، وكانوا مطففين، أي: فأوفوا المكيال الذي هو آلة الكيل، أي: كبروها؛ بدليل قوله: ﴿والميزان﴾ الذي هو الآلة، ويحتمل أن يريد بهما المصدر، أي: الكيل والوزن.

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أي: لا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال: ﴿أشياءهم﴾، للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، وقيل: كانوا مكّاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه. ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ بالكفر والظلم، ﴿ بعد إصلاحها ﴾ بإقامة الشرائع وظهور العدل، ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي: ذلك الذي أمرتكم به ونهيتكم عنه هو خير لكم من إبقائكم على ما أنتم عليه، ومعنى الخيرية: الزيادة مطلقاً؛ إذ لا خير فيما هم فيه، أو: في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال. قاله البيضاوي.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في (فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ أي: طريق ﴿توعدون﴾ من أراد الإيمان بالعقوبة، وكانوا يجلسون على الطرقات والمراصد، يقولون لمن يريد شعيباً: إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك؛ ويوعدون من آمن، وقيل: كانوا يقطعون الطريق.

﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ أي: تصدون الناس عن طريق الله، وهوالإيمان به وبرسوله، وهو الذى قعدوا لأجله فى كل طريق، وقوله: ﴿من آمن به﴾؛ من أراد الإيمان به، أو من آمن حقيقة؛ كانوا يصدونه عن العمل، ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي: وتطلبون لطريق الله عوجا بإلقاء الشُّبَه فيها، أو بوصفها للناس بأنها مُعْوَجَّة. ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾ عَدَدكم وعُددكم ﴿فكثَّركم﴾ بالبركة فى النسل والمال، ﴿وانظروا كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ من الأمم قبلكم، فاعتبروا بهم.

﴿وإن كانت طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا﴾ أي: تربصوا ﴿حتى يحكم اللهُ بيننا﴾ أي: بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، ﴿وهو خير الحاكمين﴾؛ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه.

﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه﴾ فى جوابه عن وعظه: ﴿لنُخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين؛ إما إخراجكم من القرية أو عودكم فى الكفر، وشعيب ﷺ لم يكن فى ملتهم قط؛ لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكنهم غلَّبوا الجماعة على الواحد؛ فخُوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أُجرى الجواب فى قوله: ﴿قال أوَ لو كنا كارهين﴾. قاله البيضاوى. وقال ابن عطية: وعاد: قد يكون بمعنى صار، فلا يقتضى تقدم ذلك المحال، قلت: ويؤيده ما فى حديث الجَهنميين: «قد عادوا حمماً»[1] أي: صاروا.

ثم قال شعيب ﷺ: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: إن رجعنا إلى ملتكم بعد الخلاص منها، فقد اختلقنا على الله الكذب، وهذا كله فى حق قومه كما تقدم. ﴿وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه تسليم للإرادة المغيبة، والعلم المحيط، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء. فإن قلت: هو معصوم فلا يصح فيه العود؟. قلت: قاله أدباً مع الربوبية، واستسلاماً لقهر

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى (الرقاق ـ باب صفة الجنة والنار) ومسلم فى (الإيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية) من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ.

الألوهية، كقول نبينا ﷺ: « يا مُقلّبَ القلوبِ ثبّتْ قلبي على دينِك»(١). ﴿ وَسِع رَبُّنا كلَّ شيءٍ علماً ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم، ﴿ على الله توكلنا ﴾ في أن يثبتنا على الإيمان، ويخلصنا من الإشراك. ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾ أي: احكم بيننا ﴿ وبين قومنا بالحق ﴾ بالعدل، بتمييز المحق من المبطل، ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ أي: الفاصلين.

﴿ وقال الملأُ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتُم شعيباً ﴾ وتركتم دينكم ﴿ إنكم إذاً ﴾ أي: إذا اتبعتموه ﴿ لخاسرون ﴾؛ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم من البخس والتطفيف. ﴿ فأخذتهم الرجفةُ ﴾ أي: الزلزلة. وفي سورة الحجر. ﴿ الصيحة ﴾، ولعلها كانت من مبادئها، ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي: في مدينتهم ﴿ جاثمين ﴾: باركين ميتين.

﴿ الذين كذّبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوا فيها ﴾ أي: استؤصلوا كأنهم لم يقيموا فيها ساعة. ﴿ الذين كذَّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ ديناً ودنياً، بخلاف الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا؛ فإنهم الرابحون، ولأجل التنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول، واستأنف الجملتين وأتى بهما إسميتين.

﴿ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم ﴾، قاله بعد هلاكهم، تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه فقال: ﴿ فكيف آسى على قومٍ كافرين ﴾ ليسوا أهلاً للحزن عليهم، لاستحقاقهم ما نزل بهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أن إقامة الشرائع، وظهور الدين من علامة إصلاح الأرض وبهجتها، وخصبها وعافيتها، وترك الشرائع وظهور المعاصي من علامة فساد الأرض وخرابها. ويؤخذ من قوله: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط...﴾ الآية، أن حض الناس على الإيمان ودلالتهم على الله من أفضل القربات عند الله، وأعظم الوسائل إلى الله.

ويؤخذ من قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ أن الإنسان لايقف مع ظاهر الوعد والوعيد، ولعل الله تعالى علّق ذلك الوعد أو الوعيد بشروط وأسباب أخفاها، ولذلك كان العارف لايزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره. وفي بعض الآثار القدسية: «يا عبدي لا تأمن مكري وإن أمّنتك، فعلمي لايحيط به محيط». والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد في المسند (٦/ ٩١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها والترمذي في (القدر ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن) من حديث أنس ﷺ. وفي (الدعوات، باب ٩٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

ولما سرد قصص الأمم السالفة ذكر حاله معهم، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾ أي: رسول ﴿ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾ أي: بالبؤس والضر، كالقحط والأمراض، ﴿ لعلهم يضَّرَّعون ﴾ أي: يتضرعون ويتذللون، ﴿ ثم بدَّلنا مكانَ ﴾ الحالة ﴿ السيئة ﴾ الحالة ﴿ الحسنة ﴾ أي: أعطيناهم، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة، السلامة والسعة، ﴿ حتى عَفَوا ﴾: كثروا عَددا وعُددا، يقال: عفا النبات: إذا كثر، ومنه: «اعفُوا اللِّحى»[1]. ﴿ وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراءُ والسراءُ ﴾؛ كفراً لنعمة الله عليهم، ونسياناً لذكره، واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يتعاقب فى الناس بين السراء والضراء، فقد مس آباءنا منه شيء مثل ما مسنا، ﴿ فأخذناهم بغتةً ﴾: فجأة ﴿ وهم لايشعرون ﴾ بنزول العذاب.

﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ المتقدمة فى قوله: ﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى﴾ وقيل: مكة وما حولها. وقيل: مطلقا، ﴿ آمنوا واتقوا ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم، ﴿ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ﴾؛ لوسَّعنا عليهم الخير، ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد: المطر والنبات. ﴿ ولكن كذبوا ﴾ بالرسل، وكفروا النعم، ﴿ فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والمعاصى.

﴿ أفأمِن أهل القرى ﴾ أى: أبعد ذلك أمن أهل القرى ﴿ أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾؟ أى: ليلاً، فى حال نومهم. ﴿ أوَ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ﴾ أيضاً ﴿ ضُحىً ﴾؛ ضحوة النهار ﴿ وهم يلعبون ﴾ من

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى (اللباس ـ باب إعفاء اللحى) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم؛﴿ أفأمنوا مكرَ الله ﴾ وهو أن يستدرجهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة؟ ﴿ فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون ﴾ الذين خسروا أنفسهم، بترك النظر والاعتبار، حتى هلكوا، فلم ينفعهم حينئذ الندم.

الإشارة: إظهار المحَن والمِنَن وتعاقبهما على الإنسان، حكمتها: الرجوع إلى الله، وتضرع العبد إلى مولاه، فمن فعل ذلك كان معتمداً عليه في الحالتين، مغترفاً من بحر المنة بكلتا اليدين، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن، فلم يرجع إلى مولاه، ولاشكره على ما خوله من نعماه، بل قال: هذه عادة الزمان؛ يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان، فهذا عبد منهمك في غفلته، قد اتسعت دائرة حسه، وانطمست بصيرة قدسه، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1].

وقال القشيري في قوله تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا... ﴾ الآية: أي: لو آمنوا بالله واتّقَوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بأسباب العطاء، فإنْ سَبَقَ بخلافه القضاء فأبواب الرضا، والرضا أتم من العطاء. ويقال: ليس العبرة بالنعمة؛ العبْرة بالبركة في النعمة.هـ.

قوله تعالى: ﴿ ولكن كذَّبوا ﴾ أي: شكُّوا في هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب، والشاك في الصادق المصدوق مكذب. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: للناس أسباب، وسببنا الإيمان والتقوى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا...﴾ الآية، وقد تقدم عند قوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[2]. ما يتعلق بالأمن من مكر الله.

ولما ذكر هلاك الأمم الماضية، خوّف من خلفهم بعدهم إلى يوم القيامة، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(١) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

قلت: (أن لو نشاء): «أن» مخففة، وهى وما بعدها: فاعل (يَهْدِ) أى: أو لم يتبين لهم قدرتنا على إهلاكهم لو نشاء ذلك؟ وإنما عدى «يهدى» باللام؛ لأنه بمعنى يتبين، و(نطبع): استئناف، أى: ونحن نطبع على قلوبهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لمْ يهدِ﴾ أى: يتبين ﴿للذين يرثون الأرضَ من بعد أهلها﴾ أى: يخلفون من قبلهم ويرثون ديارهم وأموالهم، ﴿أن لو نشاء أصَبْناهم﴾ أى: أهلكناهم ﴿بذنوبهم﴾ بسبب ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم، لكن أمهلناهم ولم نهملهم، ﴿و﴾ نحن ﴿نَطْبَعُ على قلوبهم﴾ بالغفلة والانهماك فى العصيان، ﴿فهم لا يسمعون﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿تلك القرى﴾، التى قصصنا عليك آنفًا، ﴿نقصُّ عليك من أنبائها﴾ من أخبارها، أى: بعض أخبارها، ولها أنباء غيرها لا نقصها عليك ﴿ولقد جاءتهم رسُلهم بالبينات﴾ بالمعجزات، ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيئهم، بها ﴿بما كذَّبوا من قبل﴾ مجيئها، يعنى: أن ظهور المعجزات لم ينفعهم، بل الشيء الذى كذبوا به قبل مجيئها، وهو التوحيد وتصديق الرسل؛ استمروا عليه بعد مجيئها.

أو: «فما كانوا ليؤمنوا» مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً، حين جاءتهم الرسل، فلم تؤثر فيم دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة. ﴿كذلك يطبعُ الله على قلوب الكافرين﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ أى: لأكثر أهل القرى ﴿من عهدٍ﴾، بل جُلُّهم نقضوا ما عَهِدناهم عليه من الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، ﴿وإن وجدنا أكثرَهم﴾ أى: علمناهم ﴿لفاسقين﴾، «وإن» مخففة، واللام: فارقة.

الإشارة: ينبغى لمن فتح الله بصيرته أن ينظر بعين الاعتبار فيمن سلف قبله، كيف تركوا الدنيا ورحلوا عنها، ولم يأخذوا منها إلا ما قدموا أمامهم؟ قَدِموا على ما قدَّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفعهم الندم وقد زلت بهم القدم، فالدهر خطيب يُسمع القاصى والقريب، وهو ينادى بلسان فصيح، عادلا عن الكناية إلى التصريح، قائلا: أمَا حَصَلَ لكم الإنذار؟ أما كفاكم ماتشاهدون فى الاعتبار؟ أين من سلف قبلكم؟. أوَ ما كانوا أشد منكم أو مثلكم؟ قد نما ذكرهم وعلا قدرهم، وخسف بعد الكمال بدرهم، فكأنهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، أفضوا إلى ماقدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا، فيا أيها الغافلون، أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيها الباقون؛ أنتم إليهم تساقون، قضاء مبرم، وحُكْم ملزم، ليس عنه محيد لأحد من العبيد.

ثم شرع فى قصص موسى عليه السلام، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد الرسل المتقدمين ﴿موسى﴾ بن عمران ﴿بآياتنا﴾: بمعجزاتنا الدالة على صدقه، ﴿إلى فرعون وملئه فظلموا بها﴾ أى: طغوا بسببها، وزادوا عتواً على عتوهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ كيف غرقوا عن آخرهم، وأكلهم البحر.

الإشارة: إذا أراد الله ـ تعالى ـ أن يُهلك قوماً بعث إليهم من يُذكرهم، فإذا زادوا فى العتو والطغيان عاجلهم بالعقوبة. ذكر الشعرانى: أن مدينة بالمشرق صنعوا وليمة يتنزهون فيها، فخرجوا إلى بستان، فلما صنعوا الطعام دخل عليهم فقير، فقال: أعطونى، فأعطوه، ثم قال: أعطونى فزادوه، ثم قال: أعطونى، فجروه حتى أخرجوه، فأرسل عليهم من أخرجهم من تلك المدينة وخربها، فهى خربة إلى اليوم. سبحان المدبر الحكيم الواحد القهار!.

ثم ذكر دعوة موسى إلى فرعون، وما كان من أمره معه، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قلت: من قرأ: «عليّ»؛ بشد الياء، فحقيق: مبتدأ، وعليّ: متعلق به، و(ألاّ أقول): خبره، أى: حقيق علىّ قول الحق. ومن قرأ: (على)؛ بالتخفيف، فحقيق: صفة لرسول، وعلى: حرف جر، و(ألاّ أقول): مجرور، أى: إنى رسول حقيق على قول الحق، وعدّاه بعلى؛ لتضمنه معنى حريص، أو تكون (على) بمعنى الباء أى: حقيق بقول الحق، وقد يبقى على أصله لأمن الالتباس؛ والمعنى: حقيق على قول الحق أن أكون أنا قائله، لا يرضى إلا مثله ناطقاً به. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال موسى يافرعونُ إني رسولٌ من ربِّ العالمين، حقيقٌ﴾ واجب ﴿على أن لا أقول على الله إلا الحقَّ﴾؛ لأننى معصوم من النطق بغيره، فإن كذّبتنى فقد ﴿جئتكم ببينة من ربكم﴾ أى: بمعجزة واضحة، تدل على صدقى، وهى العصا. ﴿فأرسِلْ معي بني إسرائيل﴾ أى: فخل سبيلهم، حتى يرجعوا معى إلى الأرض المقدسة: التى هى وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الأعمال الشاقة؛ وذلك أنه لما تُوفِّى يوسف عليه السلام غلب عليهم فرعونُ واستعبدهم حتى أنقذهم الله على يد موسى، وكان بين اليوم الذى دخل فيه يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى رسولاً إلى فرعون: أربعمائة عام.

ثم طلب منه إظهار المعجزة، فقال:

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾

قلت: يقال: أرجأ، بالهمز، يرجىء بمعنى أخر؛ فمن قرأ بالهمزة فعلى الأصل، ومن قرأه بغير الهمزة فيحتمل أن يكون بمعنى المهموز، وسهلت الهمزة، أو يكون بمعنى الرجاء، أى: أطمعه، وأما ضم الهاء وكسرها فلغتان، وأما إسكانها فلغة؛ أجرى فيها الوصل مجرى الوقف. وقد تتبع البيضاوى توجيه القراءات، فانظره إن شئت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ إن كنت جئت بآية ﴾ مِنْ عند مَن أرسلك، كما ذكرتَ، ﴿ فأت بها ﴾ وأحضرها ليثبت بها صدقك ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك، ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾ أى: ظاهر أمره، لايشك فى أنه ثعبان، وهى الحية العظيمة.

رُوى أنه لما ألقاها صار ثعباناً أشعر، فاغراً فاه، بين لحييْه ثمانون ذراعا، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب منه وأحْدَث، وانهزم الناسُ مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، وصاح فرعون: ياموسى، أنشدك الذى أرسلك خذه، وأنا أُومن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً. قاله البيضاوى.

ثم أظهر له معجزة أخرى: ﴿ ونَزَعَ يدهُ ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه، ﴿ فإذا هي بيضاءُ للناظرين ﴾ أى: بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، يجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للنظار، لا أنها كانت بيضاء فى خلقتها، بل كانت شديدة الأدمة كلون صاحبها. رُوى أنه كان شديد الأدمة فأدخل يده فى جيبه أو تحت إبطه، ثم نزعها، فإذا هى بيضاء نورانية، غلب شعاعُها شعاعَ الشمس.

﴿ قال الملأُ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾، قيل: قاله هو وأشرافُ قومه، على سبيل المشاورة فى أمره، فحكى عنه فى سورة الشعراء، وعنهم هنا، أو قاله هو ووافقوه عليه، كعادة جلساء الملوك مع أتباعهم. ﴿ يريد أن يُخرجكم من أرْضكم ﴾ بالحيل، أو بالقتال، أو بإخراج بنى إسرائيل، وكانوا خداماً لهم، فتخرب البلد

من بعدهم، لأنهم خدامها وعمارها. قال فرعون: ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي: تُشيرون عليّ أن أفعل؟ ﴿ قالوا أرْجِهْ ﴾ أي: أخّره ﴿ وأخاه ﴾ أي: أخّرهما حتى تنظر في أمرهما، وقيل: أمروه بسجنهما، ﴿ وأرسل في المدائن ﴾ أي: مدائن عمالتك ﴿ حاشرين ﴾ يحشرون لك السحرة، ﴿ يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم ﴾.

ثم ذكر مجيئهم، وما كان من أمرهم مع موسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) ﴾

قلت: من قرأ: (أئن) بهمزتين، فهو اسم استفهام، ومن قرأ بهمزة واحدة، فيحتمل أن يكون خبراً، كأنهم قالوا: لابد لنا من أجر، أو استفهاماً حُذفت منه الهمزة، والتنكير للتعظيم، واستأنف الجملة، كأنها جواب عن سائل قال: فماذا قالوا إذ جاءوا؟ قالوا: إن لنا لأجراً... الخ، و(إنكم): عطف على ماسدّ مسده نعم، من تمام الجواب، كأنه قال: نعم نعطيكم الأجر ونقربكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء السحرةُ فرعونَ ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم، ﴿ قالوا ﴾ لما وصلوا إليه: ﴿ إن ﴾ أئن ﴿ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ لموسى؟ ﴿ قال نعم ﴾ إن لكم أجراً ﴿ وإنكم لَمِنَ المقربين ﴾ إليّ. فأنعم لهم بالأجر، وزادهم التقريب منه والجاه عنده؛ تحريضًا لهم. واخْتُلف في عدد السحرة اختلافاً متباينا، من سبعين رجلا إلى سبعين ألفا، وكل ذلك لا أصل له في صحة النقل.

ولمّا خرجوا إلى الصحراء لمقابلته ﴿ قالوا يا موسى إما أن تُلقي وإما أن نكونَ نحن الملقين ﴾؛ خيّروا موسى مراعاة للأدب، وإظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله، ولذلك عبّروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقائهم بالجملة الإسمية، وفيه إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. ولذلك أسعفهم، ﴿ قال ألقوا ﴾ أسعفهم كرماً ومسامحة وازدراءً بهم، ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس ﴾، بأن خيلوا إليها خلاف ما في حقيقة الأمر، ﴿ واسترهبوهم ﴾ أي: خوفوهم بما أظهروا لهم من أعمال السحر، ﴿ وجاؤوا بسحر عظيم ﴾ في فنّه. رُوِي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشبًا طوالا، كأنها حيات، ملأت الوادي، وركب بعضها بعضا.

﴿ وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاكَ ﴾ ، فألقاها، فصارت ثعباناً عظيما، على قدر الجبل، وقيل: إنه طال حتى جاوز النيل، ﴿ فإذا هي تَلْقَفُ ﴾ أي: تبتلع ﴿ ما يأفِكُون ﴾ ما يُزَوِّرونَه من إفكهم وكذبهم. رُوِى أنها لما ابتلعت حبالهم وعصيهم، وكانت ملأت الوادى، فابتلعتها بأسرها، أقبلت على الحاضرين، فهربوا وازدحموا حتى هلك منهم جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا.

﴿ فوقعَ الحقُّ ﴾ أي: ثبت بظهور أمره، ﴿ وبَطَلَ ما كانوا يعملون. فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ أي: صاروا أذلاء مبهوتين، أو انقلبوا إلى المدينة مقهورين.

ولما رأى السحرة ذلك علموا أنه ليس من طوق البشر، وليس هو من السحر، فتحققوا أنه من عند الله، فآمنوا، كما أشار إليه بقوله:

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأُلقي السحرةُ ﴾ على وجوههم ﴿ ساجدين ﴾ لما عرفوا الحق وتحققوا به، فآمنوا؛ لأن الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود بحيث لم يتمالكوا، أو ألهمهم الله ذلك وحملهم عليه، حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى، وينقلب الأمر عليه.

﴿ قالوا آمنا بربِّ العالمين. ربِّ موسى وهارون ﴾ أبدلوا الثانى من الأول؛ لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون. ﴿ قال فرعونُ آمنتم به ﴾ أي: بالله أو بموسى، ﴿ قبل أن آذن لكم، إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه ﴾ أي: إن هذه لحيلة صنعتموها أنتم وموسى ﴿ في المدينة ﴾ ؛ في مصر، ودبرتموها قبل أن تخرجوا للميعاد؛ ﴿ لتُخرِجُوا منها أهلها ﴾ أي: القبط، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة ما صنعتم.

ثم فصّل ما هددهم به، فقال: ﴿ لأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ من كل شق عضو، كيدٍ ورِجْلٍ من كل واحد، ﴿ ثم لأُصلبنّكم أجمعين ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، وليس في القرآن أنه أنفذ ذلك، ولكن رُوى عن ابن عباس وغيره أنه فعله. قيل: إنه أول من سنّ ذلك - أيْ: القطع من خلاف - فشرعه الله للقطاع تعظيماً لجرمهم، فلذلك سماه الله محاربة لله ورسوله.

﴿ قالوا ﴾ أي: السحرة لما خوفهم: ﴿ إنا إلى ربّنا منقلبون ﴾ بالموت، فيكرم مثوانا، فلا نُبالي بوعيدك، كأنهم اشتاقوا إلى اللقاء، فهان عليهم وعيده، أو إنا وأنت إلى ربنا منقلبون، فيحكم بيننا وبينك، ﴿ وما تَنْقِمُ منا ﴾ أي: وما تعيب علينا ﴿ إلا أن آمنا بآيات ربّنا لما جاءتْنا ﴾، وهو لا يعاب عند العقلاء، لأنه خير الأعمال، وأصل المناقب ومحاسن الخلال، ثم فزعوا إلى الله فقالوا: ﴿ ربنا أفْرِغْ علينا صبرا ﴾ أي: اصبب علينا صبراً يغمرنا، كما يُفرغ الماء على الشيء فيغمره، ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ ثابتين على الإسلام. قال البيضاوي: قيل: إنه فعل بهم ذلك، وقيل: إنه لم يقدر عليه، لقوله: ﴿ أنتُما ومَنِ اتَّبعكُما الغالبُون ﴾[1]. هـ. وقد تقدم قول ابن عباس وغيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر من سبقت له العناية، هؤلاء السحرة جاءوا يُحاربون الله فأمسوا أولياء الله، فكم من خصوص تخرج من اللصوص، وانظر أيضا صبرهم وثباتهم على دينهم، وعدم مبالاتهم بعدوهم، هكذا ينبغي أن يكون مَنْ مراده مولاه، لا يلتفت إلى شيء سواه، وعند هذه التصرفات يفتضح المدَّعون ويثبت الصادقون، عند الامتحان يعز المرء أو يُهان.

ثم قال تعالى في تتمة قصة موسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الملأُ من قوم فرعون أتذَرُ موسى وقومَه ﴾ أي: تتركهم يخالفون دينك ﴿ ليفسدوا في الأرض ﴾ أي: يخربوا ملكك بتغيير دينك ودعوتهم إلى مخالفتك، ﴿ ويذَرك وآلهتَك ﴾ أي: يترك موسى دينك ومعبوداتك التي تعبد، قيل: كان يعبد الكواكب، وقيل: صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه. ولذلك قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[1]. قال فرعون في جوابهم: ﴿ سنُقتّل أبناءهم ﴾ أي: ذكورهم ﴿ ونستحيي نساءهم ﴾ أي: بناتهم، كما كنا نفعل من قبل، ليُعلم أنَّا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولايتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه. ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ غالبون، وهم مقهورون تحت أيدينا.

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾، قاله تسكيناً لهم حين سمعوا قول فرعون وما هددهم به، ثم قال لهم: ﴿ إن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده ﴾ وسيورثها لكم إن صبرتم وآمنتم. ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾، فتكون العاقبة لكم إن اتقيتم، وهو وعدٌ لهم بالنصر والعز، وتذكير بما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وملكهم.

﴿ قالوا ﴾ أي: بنو إسرائيل: ﴿ أُوذينا من قبل أن تأتينا ﴾ بقتل الأبناء، ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ بإعادته، فلم يرتفع عنا الذل بمجيئك، ﴿ قال عسى ربُّكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾، تصريحاً بما كنَّى عنه أولاً، لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بحرف الطمع، أي: الترجي؛ لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم، أو أولادهم، وقد رُوي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود ﷺ. قاله البيضاوي. ﴿ فينظرَ كيف تعملون ﴾ أي: فإذا استخلفكم يرى ما تعملون من شكر أو كفران، أو طاعة أو عصيان، فيجازيكم على حسب ما يُوجد منكم من كفر أو إحسان.

الإشارة: ما وقع للأنبياء مع قومهم وقع مثله لأشياخ هذه الأمة وفقرائها مع أهل زمانهم، ولما كثرت الأحوال من الفقر أو خرق العوائد، وظهروا بتخريب ظواهرهم، وقعت بهم الشكاية إلى السلطان، وقالوا له: هؤلاء يخربون ملكك ،فآل على نفسه إنْ مكنه الله منهم لا يترك منهم أحداً، فكفى الله بأسه، فاستعانوا بالله وصبروا، واشتغلوا بذكر الله، وغابوا عمن سواه، فكانت العاقبة للمتقين.

ثم ذكر ابتلاءه لقوم فرعون، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(١) كما جاء في الآية ٢٤ من سورة النازعات.

قلت : عبّر في جانب الحسنة بإذا المفيدة للتحقيق، وعرّف الحسنة؛ لكثرة وقوعها، وعبّر في جانب السيئة بإنْ المفيدة للشك ، ونكّر السيئة لنُدورها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسنين ﴾ أي: بالجدب والقحط لقلة الأمطار والمياه ، ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ بكثرة العاهات، ﴿ لعلهم يذكّرون ﴾ أي: لكي ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا، وترق قلوبهم بالشدائد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا فيما عنده .

﴿ فإذا جاءتهم الحسنةُ ﴾ ؛ من الخصب والسعة والرخاء، ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي: قالوا: هذه لنا ولسعودنا، ونحن مستحقون له. ﴿ وإن تُصبهم سيئة ﴾: جدب وبلاء ﴿ يطيّروا بموسى ومن معه ﴾ أي: يتشاءموا بهم، ويقولون: ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة؛ فإن الشدائد تُرقق القلوب، وتذلل العرائك أي: الطبائع، وتُزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهي لم تؤثر فيهم، بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي.

قال تعالى:﴿ ألا إنما طائرُهم عند الله ﴾ أي: سبب طائرهم وشرهم عنده، وهو حكمه ومشيئه، أو سبب شؤمهم عند الله، وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم. قال ابن جزي: أي: حظهم ونصيبهم الذي قدر لهم من الخير والشر عند الله، وهو مأخوذ من زجر الطير، ثم سمي به ما يُصيب الإنسان، ومقصود الآية: الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم. هـ. ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى بلا واسطة، أو من شؤم أعمالهم.

الإشارة: هذه الخصلة جارية أيضا في هذه الأمة، أعني التطاير، ترى العوام إذا نزل بهم بلاء أو شدة قالوا: بظهور هؤلاء وقع بنا ما وقع، ولقد سمعت ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقت ابتداء ظهور الفقراء، وذلك أنهم آذوهم أذى شديداً، فأرسل الله عليهم كثرة الأمطار كادت أن تكون طوفانا، فقالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذه المرقعات التي ظهرت، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذايتهم أهل الله . والله تعالي أعلم .

ثم ذكر عتو آل فرعون، وعقوبته لهم، فقال :

﴿ وَقَالُوا۟ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا

عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

قلت : (مهما): اسم شرط جازم، و(تأتنا): شرطها، وجملة (فما نحن): جوابها، قيل: مركبة، وأصلها: «ما» الشرطية، ضمت إليها «ما» الزائدة، نحو: أينما، ثم قلبت الألف هاء، والمشهور: أنها بسيطة، ومحلها: رفع بالابتداء، أو نصب بفعل يفسره: «تأتنا»، والضمير في: «به» عائد على «مهما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أي: فرعون وقومه: ﴿ مهما تأتنا به من آية ﴾، وإنما سموها آية على زعم موسى، لا لاعتقادهم، ولذلك قالوا: ﴿ لتسحرنا بها ﴾ أي: لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا، ﴿ فما نحن لك بمؤمنين ﴾ . وهذا من عظيم عتوهم وانهماكم في الكفر .

قال تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ وهو مطر شديد نزل بهم مع فيض النيل، حتى هدم بيوتهم وكادوا يهلكون، وامتنعوا من الزراعة، وقيل: الطاعون، وقيل: الجدري، وقيل الموتان، ﴿ والجراد ﴾ وهو المعروف، أكل زروعهم وثمارهم، حتى أكل ثيابهم وأبوابهم وسقف بيوتهم، ﴿ والقُمَّل ﴾ قيل: أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وقيل السوس، والتحقيق: أنه صغار القراد، دخل ثيابهم وشعورهم ولحاهم، وقرىء: «القَمْل» بفتح القاف وهو القمل المعروف، دخل ثيابهم وامتلأت منها، ﴿ والضفادع ﴾، وهي المعروفة، كثرت عندهم حتى امتلأت بها فروشهم وأوانيهم، وإذا تكلم أحدهم وثب الضفدع إلى فيه.﴿ والدم ﴾ صارت مياههم دماء فكان يستقي من البئر القبطي والإسرائيلي في إناء واحد، فيخرج ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإ سرائيلي ماء .

قال البيضاوي : رُوي أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلي تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل متصلة ببيوتهم، فلم يدخل فيها قطرة، وركب على أرضهم فمنعتهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى عليه السلام: أدع لنا ربك بما عهد

عندك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا الله فكشف عنهم، ونبت لهم من الكلأ والزرع والثمار مالم يعهد مثله، ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زرعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزعوا إليه ثانيا، فدعا، وخرج إلي الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلط عليهم القمل وأكل ما أبقاه الجراد، فكان يقع في أطعمتهم ويدخل في ثيابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه فرفع عنهم، فقالوا: قدتحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لاينكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تملأ مضاجعهم، وتثب إلى قدورهم وهى تغلي وأفواههم عند التكلم، ففزعوا وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياههم دمًا، حتى يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على الماء، فيكون ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه، وقيل: سلط عليهم الرعاف. هـ.

﴿ آياتٍ ﴾ أي: حال كون ماتقدم آيات ﴿ مُفصَّلاتٍ ﴾، مبينات، لا تشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته. قيل: كان بين كل واحدة منها شهر، وامتداد كل واحدة أسبوعا، وقيل: إن موسى ثبت فيهم، بعد ما غلب السحرة، عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل، ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الإيمان ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي: عادتهم الإجرام .

﴿ ولمّا وقع عليهم الرِّجزُ ﴾ يعني: العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله عليهم بعد ذلك، ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي: بعهده عندك، وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. والمعنى: ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عندك من النبوة والجاه، أو بدعائك إليه ووسائلك، ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ : العذاب ﴿ لنؤمنن لك ﴾ أي: أقسمنا بعهد الله لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ﴿ ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل ﴾ كما طلبت، قال تعالى: ﴿ فلما كشفنا عنهم الرِّجزَ إلى أجل هم بالغوه ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه ثم يهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت، وقيل: إلى أجل عينوه لإيمانهم، ﴿ إذا هم ينكُثُون ﴾ ؛ جواب «لمّا»، أي: فلما كشفنا عنهم جاءوا بالنكث من غير تأمل ولا توقف، ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي: فأردنا الانتقام منهم، ﴿ فأغرقناهم في اليم ﴾ أي: البحر الذي لايدرك قعره أو لجته، ﴿ بأنهم ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ كذّبوا بآياتنا ﴾ التى أرسلناها عليهم . ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي: أغرقناهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها .

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعَفون ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء ﴿ مشارقَ الأرضِ ومغاربها ﴾ يعنى: أرض الشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكنوا من نواحيها ﴿ التى باركنا فيها ﴾ بالخصب وسعة العيش، وهى أرض الشام. وزاد ابن جزي: ومصر.

﴿ وتمتْ كلمةُ ربك الحسنى على بني إسرائيل ﴾ أي: نفذت ومضت واستقرت، والكلمة هنا: ما قضى في الأزل من إنقاذهم من عدوهم، وقيل: قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾(١) وكانت حسنى؛ لما فيها من النصر والعز، ﴿ بما صبروا ﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد ﴿ ودمَّرنا ﴾ أي: خربنا ﴿ ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُهُ ﴾ من القصور والعمارات، ﴿ وما كانوا يَعْرِشُون ﴾ من البنيان المرتفع كصرح هامان، أو ما كانوا يرفعون من الكروم في البساتين على العرشان، فالأول من العرش، والثاني من العَرِيش .

الإشارة : قد جرت عادة الله في خلقه أن يظهر الخواص من عباده، فيُنْكَرُوا أو يستضعفوا، حتى إذا طَهَّروا من البقايا وتمكنوا من شهود الحق، مَنَّ الله عليهم بالعز والنصر والتمكين، فمنهم من يمكن من التصرف في الحس والمعنى، ويقره الوجود بأسره، ومنهم من يمكّن من التصرف في الكون بهمته، ولكنه تحت أستار الخمول، لا يعرفه إلا من اصطفاه لحضرته، وهذا من شهداء الملكوت، ضَنَّ به الحق تعالى فلم يظهره لخلقه . والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر نجاة موسى عليه السلام وقومه من فرعون، وخروجهم إلى الشام، فقال:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل ﴾ أي: قطعنا بهم ﴿ البحرَ ﴾، رُوى أنهم عبروه يوم عاشوراء، بعد مهلك فرعون، فصاموه شكرا ،﴿ فأتوا على قوم ﴾ أي: مروا على قوم من العمالقة، وقيل: من لخم، ﴿ يعكُفُون على أصنام لهم ﴾ أي: يقيمون على عبادتها، قيل: كانت تماثيل البقر، وذلك أول شأن عبادة العجل،

(١) من الآية ٥ من سورة القصص.

وهؤلاء القوم، قيل: هم الجبارُون الذين أمر موسى بقتالهم بعد وصوله إلى الشام، ولما رآهم بنو اسرائيل ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهـاً ﴾ أي: مثالاً نعبده ﴿ كما لهم آلهة ﴾ يعبدونها، ﴿ قال ﴾ لهم موسى عليه السلام: ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾، وَصَفَهُم بالجهل المطلق، وأكده بإن؛ لبُعد ما صدر منهم، بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

قال البيضاوي: ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنّ الله تعالى عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليةً لرسول الله ﷺ عما كان يرى منهم ويلقي من التشغيب، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. هـ. وذكر في «القوت» أن يهودياً قال لعلي رضي الله عنه: كيف اختلفتم وضربتم وجوه بعضكم بالسيف، ونبيكم قريب عهد بكم؟ فقال: أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾.هـ.

ثم قال لهم موسى عليه السلام: ﴿ إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ﴾: مدمر هالك ﴿ ما هُم فيه ﴾ يعني: أن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم فيه، ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضاً. ﴿ وباطلٌ ﴾: مضمحل ﴿ ماكانوا يعملون ﴾ من عبادتها، وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا. ﴿ قال أغيرَ الله أبغيكم ﴾ أطلب لكم ﴿ إلهـاً ﴾ أي: معبوداً ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ أي: والحال أنه قد خصكم بنعم لم يُعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص الله لهم بما استحقوه تفضلا، بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته وأبلدَه، وهو البقر.

﴿ وإذْ أنجيناكم من آل فرعون ﴾ أي: واذكروا صنعه معكم في هذا الوقت حيث نجاكم من فرعون ورهطه ﴿ يسومُونَكم ﴾ أي: يذيقونكم ﴿ سوءَ العذاب ﴾، ثم بيَّنه بقوله: ﴿ يقتلون أبناءَكم ﴾ ذكوركم ﴿ ويستحيون نساءَكم ﴾ أي: بناتكم، ﴿ وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾ أي: وفي ذلك القتل امتحان عظيم، أو في ذلك الإنجاء نعمة عظيمة وامتنان عظيم.

الإشارة: من جاوز بحر التوحيد وحاد عنه، ولم يغرق فيه، لا يخلو من طلب شرك جلي أو خفي؛ لأن النفس مادامت لم تغرق في بحر الوحدة، ولم تسبها جمال المعاني، قطعاً تميل إلى شيء من جمال الحس، لأن الروح في أصلها عشاقة، إن لم تعشق جمال الحضرة تعشق جمال الحس، ومن ركن إلى شيء مما سوى الله فهو شرك عند الموحدين من المحققين، ويؤخذ من الآية أن شكر النعم هو تلخيص التوحيد، وانفراد الوجهة إلى الله تعالى؛ لأن بني إسرائيل لمَّا أنعم الله عليهم بالإنجاء وفلق البحر قابلوا ذلك بطلب الشرك، فسقطوا من عين الله واستمر ذلهم إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

ولما استقر بنو إسرائيل بالشام طلبوا من نبيهم نزول الكتاب وتقرير الشرائع، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وواعدنا موسى ﴾؛ لإنزال الكتاب ﴿ ثلاثين ليلة ﴾ من ذي القعدة، ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ من ذي الحجة، ﴿ فتمَّ ميقاتُ ربه ﴾ بالغاً ﴿ أربعين ليلة ﴾، رُوى أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل، بمصر، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً، ثم أنزل عليه التوراة .

﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة: ﴿ اخلفني في قومي ﴾ أي:كن خليفتي فيهم ﴿ وأصلحْ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحاً، ﴿ ولا تتبع سبيلَ المفسدين ﴾ أي: لاتتبع سبيل من يسلك الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

الإشارة : كل من انقطع إلى الله تعالى بكليته واعتزل عن الخلق، وأخلى قلبه عما سوى الحق، حصلت له المناجاة والمكالمة، كما وقعت للكليم عليه السلام، وكل ما منحه الله للانبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة، والله تعالى أعلم . وفي الحديث: «مَنْ أَخْلَصَ للهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»(١) .

قال بعض الحكماء: والسر في ذلك أن الله تعالى أمر بطينة آدم فخمرت في الماء أربعين يوماً، فتربى فيها أربعون حجاباً ، فلولا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض، فمن أيده الله على زوالها تشبه بالملأ الأعلى، وخرقت له العوائد، وأشرق النور من قلبه . ولهذا المعنى بقي داود عليه السلام ساجداً أربعين يوما، فقبلت توبته، ومكث إبراهيم عليه السلام في نار النمرود أربعين يوماً، فاتخذه الله خليلا، وكان بعد ذلك يقول: ما رأيت أحلى من تلك الأيام، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانيا . قال تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾(٢). انظر الشطيبى .

ويؤخذ من الآية أن الشيخ إذا أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية، إذ لا خير في قوم ليس فيهم من يعظهم في الله . وبالله التوفيق .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، بسند ضعيف عن أبي أيوب. ورواه أحمد بنحوه عن مكحول مرسلاً. راجع كشف الخفاء (٢/٢٢٤).
(٢) من الآية ٧٩ من سورة آل عمران.

ولما سمع سيدنا موسى عليه السلام كلامَ الحق بلا واسطة، طمع في الرؤية بلا واسطة، كما قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ الذي وقتنا له ﴿ وكلَّمه ربه ﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة . وفيما رُوي: أنه كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وفيه تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين . قاله البيضاوي . وقال الورتجبي: أي: أسمع عجائب كلامه كليمه ليعرفه بكلامه؛ لأن كلامه مفاتيح كنوز الصفات والذات . هـ . وقال ابن جزي : لما سمع موسى كلام الله طمع في رؤيته، فسألها، كما قال الشاعر :

وأبرحُ ما يكُونُ الشَّوقُ يَوْماً ... إذا دَنَتِ الديارُ من الدِّيَارِ

﴿ قال ربِّ أرني أنظر اليك ﴾ أي: أرني نفسك أنظر إليك، بأن تكشف الحجب عني، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة، كما أسمعتني كلامك من غير واسطة . **قال البيضاوي** : وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة؛ لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله، ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿ لن تراني ﴾ دون لن أُرَى و لن أريك، ولن تنظر إليّ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على حال في الرائي، لم توجد فيه بعدُ، وجعلُ السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا: ﴿ أرنا الله جهرة ﴾(١) خطأ، إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبههم، كما فعل بهم حين قالوا: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا ﴾(٢)، والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ؛ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبداً، وألا يراه غيره أصلا، فضلاً عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة فيه مكابرة وجهالة بحقيقة الرؤية . هـ .

وهو تعريض بالزمخشري وردٌ عليه، فإنه هنا أطلق لسانه في أهل السنة ـ عفا الله عنه ـ. **والتحقيق**: أن رؤيته تعالى برداء الكبرياء ـ وهي أنوار الصفات ـ جائزة واقعة ـ، وأما رؤية أسرار الذات ـ وهي المعاني الأزلية، التي هى كنه الربوبية ـ فغير جائزة؛ إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت، ولعل هذا المعنى هو الذى طلب سيدنا موسى عليه السلام، فلذلك قال له: ﴿ لن تراني ولكن انظرْ إلى الجبل فإن استقرَّ مكانه ﴾ عند تجلي هذه

(١) من الآية ١٥٣ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

الأسرار له، ﴿ فسوف تراني، فلما تجلى ربُّه للجبل ﴾ أي: أظهر له شيئًا من أنوار الربوبية التي هي أسرار المعاني الأزلية، ﴿ جعله دكاً ﴾ أي: مدكوكًا مفتتا، والدك والدق واحد. وقرأ حمزة: «دكاء» بالمد، أي: أرضًا مستوية، ومنه: ناقة دكاء لاسنم لها. ﴿ وخرَّموسى صَعِقاً ﴾ مغشيا عليه من هول ما رأى، ﴿ فلما أفاق قال ﴾ تعظيماً لما رأى: ﴿ سبحانك تُبت إليك ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن، وقال بعضهم: تُبتُ إليك من عدم الاكتفاء بقوله: ﴿لن تراني﴾حتى نظر إلى الجبل، ﴿ وأنا أولُ المؤمنين ﴾ أنك لا تُرى بلا واسطة نور الصفات، أو أول أهل زماني إيمانا .

الإشارة: رؤية الحق جائزة واقعة عند الصوفية في الدارين، ولكن لا ينالها في هذه الدار إلا خواص الخواص، ويُعبّرون عنها بالشهود والعيان، ولا يكون ذلك إلا بعد الفناء، وفناء الفناء بعد موت النفس وقتلها، ثم الغيبة عن حسها ورسمها، تكون بعد التهذيب والتدريب والتربية على يد شيخ كامل، لايزال يسير به ويقطع به في المقامات، ويغيبه عن نفسه ورؤية وجوده، حتى يقول له: ها أنت وربك، وذلك أن الحق جل جلاله تجلى لعباده بأسرار المعاني خلف رداء الأواني، وهو حس الأكوان، فأسرار المعاني لا يمكن ظهورها إلا بواسطة الأواني، أو تقول: أسرار الذات لا تظهر إلا في أنوار الصفات، فلو ظهرت أسرار الذات بلا واسطة لاضمحلت الأشياء واحترقت، كما في الحديث: «حِجَابُه النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأحرقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهى إِلَيْه بَصَرُه من خَلْقِه»(١) .

فالمراد بالنور نور الصفات، وهو الأواني الحاملة للمعاني، لو كشف ذلك النور حتى تظهر أسرار الذات لأحرقت كل شيء أدركه بصره . والواسطة عند المحققين هي عين الموسوط، فلايزال المريد يفنى عن عين الواسطة في شهود الموسوط حتى يغيب عن الواسطة بالكلية، أو تقول: لايزال يغيب عن الأواني بشهود المعاني حتى تشرق شمس العرفان، فتغيب الأواني في ظهور المعاني، فيقع العيان على فقد الأعيان، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»، «ما حجبك عن الحق وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه» .

والحاصل: أن الحق تعالى تكون رؤيته أولاً بالبصيرة دون البصر، لأن البصيرة تدرك المعاني، والبصر يدرك الحسيات، فإذا انفتحت البصيرة استولى نورها على نور البصر، فلا يرى البصر حينئذ إلا ما تراه البصيرة . قال بعض العارفين: هذه المزية العظمى ـ وهي رؤية الحق تعالى ـ في الدنيا على هذا الوجه: خاص بخواص الأمة

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان ـ باب في قوله ﷺ: إن الله لاينام) من حديث أبي موسى.

المحمدية - دون سائر الأمم - وراثة عن نبيهم ﷺ، فإنه خص بالرؤية دون غيره من الأنبياء. وإلى ذلك أشار ابن الفارض في تائيته، مترجماً بلسان الحقيقة المحمدية، حيث قال:

ودونَكَ بحراً خُضْتُهُ، وقَفَ الأُلى ... بساحِله، صَوْناً لمَوْضِعِ حُرْمَتي
ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيمِ إشارةٌ ... لكَفِّ يدٍ صُدَّتْ له، إذ تَصَدَّتِ
وما نالَ شيئاً منهُ غيري سوى فتىً ... على قَدَمي في القبضِ والبسطِ ما فتى

قال شارحه القاشاني: أراد بهذا البحر: الرؤية التي مُنع منها موسى عليه السلام، وخص بها محمد - عليه الصلاة السلام - وأفراد من أتباعه. ثم قال: ورد في الخبر: أنه لما أفاق موسى عليه السلام من صعقته قيل له: ليس ذلك لك، ذلك ليتيم يأتي من بعدك، ثم قال: سبحانك تبتُ إليك عما تعديتُ لما ليس لي، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد ﷺ بهذا المقام. هـ.

وقيل في قوله: ﴿فلما تجلى ربُّه للجبل﴾ أي: جبل العقل، بحيث طمس نوره بنور شمس العرفان، وخر موسى صعقاً، أي: ذهب وجوده في وجود محبوبه، وحصل له الزوال في مكان الفناء والسكر، فلما أفاق ورجع إلى البقاء تمسك بمقام العبودية والأدب مع الربوبية فقال: «سبحانك تبتُ إليك» من رؤية جبل الحس قبل شهود نور المعنى، وأنا أول المؤمنين بأن نور المعاني خلف رداء الأواني، لايدرك إلا بعد الصعقة، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نزول التوراة، فقال :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

قلت: الرُّشْد والرَّشَد: لغتان، قُرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتُك﴾ اخترتك ﴿على الناس﴾ الموجودين في زمانك، وهارون، وإن كان نبياً، كان مأموراً باتباعه، ولم يكن كليما ولا صاحب شرع. فقد اصطفيتك على أهل زمانك ﴿برسالتي﴾ لك إليهم، ومن قرأ بالجمع فالمراد: أوقات التبليغ بأنواع الأحكام أو أسفار التوراة، ﴿و﴾ خصصتك ﴿بكلامي﴾، وقد شاركه نبينا محمد ﷺ مع زيادة الرؤية، ﴿فخُذْ ما آتيتك﴾ أي: أعطيتك من الرسالة والتكليم، واقنع بهما ولا تطلب غير ذلك، ﴿وكن من الشاكرين﴾ على هذه النعمة، وفيه نوع تأديب له. رُوي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وأعطاه التوارة يوم النحر.

قال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاجون إليه ﴿موعظةً﴾ أي: تذكيراً ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يتوقفون عليه في الأحكام والوعظ. واختلف في الألواح؛ هل كانت سبعة أو عشرة أو اثنين، وهل كانت من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر، أو خشب، أو صخرة صماء، شقها الله تعالى لموسى عليه السلام فقطعها بيده، وكان فيها التوراة.

قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فخُذْهَا﴾ أي: الألواح أو الرسالة ﴿بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد، ﴿وأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها﴾ بأحسن ما فيها، فإن فيها ماهو حسن وأحسن منه؛ كالقصاص مع العفو، أو بواجباتها، فإن الواجب أفضل من المندوب، وهذا كقوله في كتابنا: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(١)، ويجوز أن يراد بالأحسن: البالغ في الحسن مطلقاً، لا بالإضافة إلى غيره، كقولهم: الصيف أحر من الشتاء، فيكون الأمر بأخذ كل ما فيها لأنه بالغ الحسن، ثم بشرهم بخراب ملك عدوهم، فقال: ﴿سأُوريكُم دارَ الفاسقين﴾ أي: دار فرعون وقومه خاوية على عروشها، أي: أريكم كيف أَقْفَرَتْ منهم لمَّا هلكوا، وقيل: منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم، لتعتبروا بها، وقيل: جهنم.

وقرأ ابن عباس: «سأورثكم» با لثاء المثلثة، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٢).

﴿سَأَصْرِفُ عنْ آياتي﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يتفكرون فيها، أو القرآن وغيره من الكتب، أصرفُ عنها ﴿الذين يتكبّرون في الأرض﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون؛ ولا يؤمنون بها، عقوبة لهم على تكبرهم، وقيل: الصرف: منْعهم من إبطالها

(١) من الآية ٥٥ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

وإطفاء نورها، وإن اجتهدوا، كما فعل فرعون وغيره، فعاد عليهم بإعلائها وإظهار نورها، وذلك التكبر صدر منهم ﴿ بغير الحق ﴾ أي: تكبروا بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل .

﴿ وإن يروا كل آية ﴾ مُنزلة أو معجزة ﴿ لا يُؤمنوا بها ﴾ لعنادهم، واختلال نظرهم، بسبب انهماكهم في الهوى وحب الجاه، ﴿ وإن يَرَوْا سبيل الرُّشد ﴾ أي: طريق الصواب والحق ﴿ لا يتخذوه سبيلا ﴾ لاستيلاء الشيطان عليهم، ﴿ وإن يَرَوْا سبيلَ الغيِّ ﴾ أي: الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ﴾ أي: يسلكونه ويتبعونه، لأن سجيتهم الضلال، ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم الآيات.

﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة ﴾ أي: وبلقائهم الدار الآخرة، أو: ما وعد الله في الآخرة، ﴿ حَبِطَتْ أعمالُهم ﴾ لا ينتفعون بها، ﴿ هل يُجزَونَ إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي: لا يجزون إلا مقدار أعمالهم . ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١).

الإشارة: كل من أقامه الله في مقام من المقامات، أو حال من الأحوال، كيفما كان، يقال له: خذ ما آتيتك، واقنع بما أوليتك، وكن من الشاكرين عليه، وإلا سلبناك ما أعطيناك، فالرضا بالقسمة واجب، وطلب باب الفضل والكرم لازب، والأمر مُبهم، والعواقب مُغيبة، ومنتهى المقام على التعيين لا يعلم إلا بعد الموت. وقوله تعالى: ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي: بجد واجتهاد. قال في الإحياء: الأخذ بالجد أن يكون القارئ متجرداً لله عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره، وهو يشير للحضور.

وقوله تعالى: ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ قال الورتجبي: يأخذون بأبينها لهم، وهي المحكمات التي توجب العبودية، ويأخذون بمتشابهها التي هي وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها، لأن علومها وحقائقها لاتكشف إلا للربانيين. قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ... ﴾(٢) الآية. هـ. وقوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض﴾. قال القشيري: سأحْرِمُ المتكبرين بركة الاتباع، حتى لايتلقوا الآيات التي يُكَاشَفون بها بالقبول، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبون به بسمع الإيمان.هـ.

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف.
(٢) الآية٧ من سورة آل عمران.

ثم شرع في ذكر مساوئ بني إسرائيل فبدأ بعبادتهم العجل، فقال:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

قلت: «عِجْلاً»: مفعول أول لاتخذ، و«جسداً»: بدل منه، وحذف الثاني - أي: «إلهاً» - لدلالة أوله، و(له خوار): نعت له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذ قومُ موسى من بعده ﴾ أي: من بعد ذهابه للميقات، ﴿ من حُلِيِّهم ﴾ التي كانوا استعاروها من القبط، حين هموا بالخروج من مصر، وأضافتها إليهم؛ لأنها كانت تحت أيديهم، فصنع لهم منها السامري ﴿ عِجْلاً جسداً ﴾ بلا روح، فألقى في جوفه من تراب أثر فرس جبريل، فصار ﴿ له خُوارٌ ﴾، فقال لهم: ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾، فعكفوا على عبادته، واتخذوه إلهاً.

قال تعالى: ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ أي: ألم يروا، حين اتخذوه إلهاً، أنه لايقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كآحاد البشر، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر، وهذا تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. قال تعالى: ﴿ اتخذوه ﴾ إلهاً ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ في اتخاذه، وضعوا الأشياء في غير محلها، أي: كانت عادتهم الظلم، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

﴿ ولما سُقِطَ في أيديهم ﴾؛ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعض يده غماً، فتصير يده مسقوطاً فيها. أو يسقط رأسه، أي: يطأطئها لبعض يده. وقال الدماميني: العرب تضرب الأمثال بالأعضاء، ولا تريد أعيانها، تقول للنادم: يُسقط في يده، وفي الذليل: رغم أنفه. هـ. أي: ولمّا ندموا على ما فعلوا، ﴿ ورأوا ﴾ أي: علموا ﴿ أنهم قد ضلّوا ﴾ باتخاذ العجل، ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴾ بالتجاوز عن خطيئتنا، ﴿ لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾ دنيا وأخرى.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء وعكف على محبته من دون الله فهو في حقه عجل يعبده من دون الله، «ما أحببت شيئاً إلا وكنت عبداً له، وهو لايحب أن تكون عبداً لغيره». عافانا الله من ذلك.

ثم ذكر رجوع موسى عليه السلام من الطور، فقال :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

قلت : (بئسما) : «ما» نكرة موصوفة: تمييز، تفسير للضمير المستكن في (بئس)، والمخصوص: محذوف، أي: بئس شيئاً خلفتموني خلافتكم هذه، و«ابن أم»: منادى مضاف، منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم، وأصله: ابن أمي، فحذفت الياء، وفتحت الميم تخفيفا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما رجعَ موسى ﴾ من ميقاته ﴿ إلى قومه غضبان ﴾ على قومه، ﴿ أسِفاً ﴾ أي: حزيناً عليهم حيث ضلوا، ﴿ قال ﴾ لهم، أو لأخيه ومن معه من المؤمنين: ﴿ بئسما خلفتموني من بعدى ﴾ أي: من بعد انطلاقي إلى المناجاة، ﴿ أعَجِلتُم أمرَ ربكم ﴾ أي: أسابقتم قضاء ربكم ووعده، واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدّر فيه، أو أعجلتم عقوبة ربكم وإهلاكه لكم حيث عبدتم غيره.

﴿ وألقى الألواحَ ﴾؛ طرحها من شدة الغضب حمية للدين، رُوى أن التوارة كانت سبعة أسفار في سبعة ألواح، فلما ألقاها انكسرت، فرفع ستةَ أسْبَاعها، وكان فيها تفصيل كل شيء، وبقى سُبُعٌ كان فيه المواعظ والأحكام، ﴿ وأخذَ برأسِ أخيه ﴾: بشعر رأسه ﴿ يَجرُّهُ إليه ﴾؛ توهمًا في أنه قصَّر في زجرهم، وهارونُ كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان حمولاً لَيِّنًا، ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل، ولما رأى هارون ما يفعل به أخوه ﴿ قال ابنَ أمَّ ﴾، ذكر الأم ليرققه، وكان شقيقًا له، ﴿ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ حين أنكرتُ عليهم، فقد بذلتُ جهدى فى كفهم، وقهروني حتى قاربوا قتلى، فلم أُقصِّر، ﴿ فلا تُشمتْ بى الأعداء ﴾؛ فلا تفعل بى ما يشمتون بى، أى: يستشفون بى لأجله، ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ معدوداً فى عدادهم بالمؤاخذة، أو نسبة التقصير.

﴿ قال ﴾ موسى: ﴿ ربِّ اغفر لي ﴾ ما صنعتُ بأخى، ﴿ ولأخي ﴾؛ إن فرَّط فى كفِّهم، ﴿ وأدْخلنا فى رحمتك ﴾ بمزيد الإنعام علينا، ﴿ وأنت أرحمُ الراحمين ﴾ فأنت أرحم منا على أنفسنا.

قال تعالى: ﴿إن الذين اتخذوا العجلَ سينالُهم غضبٌ من ربهم﴾؛ وهو ما أمرهم من قتل أنفسهم، أو الطاعون الذى سلط عليهم، ﴿وذلةٌ فى الحياة الدنيا﴾ وهى ضرب الجزية والهوان إلى يوم القيامة، ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم، حيث ﴿قالوا هذا إلهكم وإله موسى﴾، ولعله لم يفترِ أحدٌ مثلها قبلهم ولا بعدهم، حيث جعلوا البقر إلههم وإله الرسول، نسأل الله الحفظ.

ثم ذكر توبتهم، فقال: ﴿والذين عَمِلُوا السيئات﴾ من الكفر والمعاصى، ﴿ثم تابوا من بعدها﴾؛ من بعد السيئات ﴿وآمنوا﴾ واشتغلوا بما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحات، ﴿إنَّ ربك من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿لغفورٌ رحيم﴾ وإنْ عَظُم الذنب؛ كجريمة عَبَدَة العجل ـ وكَثُر؛ كجرائم بنى إسرائيل .

الإشارة: الغضب لله وبالله، والأسف على دين الله، من أمارة الغَيْرة على دين الله، لكنَّ صاحب هذا المقام مالك نفسه، يظهر الغلظة ويبطن الرحمة، قياماً بشهود الحكمة والقدرة، وأما ما صدر من سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فتشريع لأهل التشريع، لئلا يقع التساهل في تغيير المناكر. وساق الإمام الهروي هذه الآية في منازل السائرين في باب المراد، وهو المخصوص من ربه بما لم يرِدْه هو ولا خطر بباله، والإشارة بذلك إلى الضنائن الذين ورَدَ فيهم الخبر: «إنّ لله ضنَائن من خلقِه، أَلْبَسَهُم النور السَاطِع، وغذّاهم في رحمته، وفعَلَ بِهم وفَعَل...» أورده الإمام أبو نعيم في الحلية[1] .

وحاصله: أن المُرادين هم قوم مخصوصون، ملطوف بهم، محمول عنهم، ومنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[2] فقد خُص ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما لم يخطر على باله قبل النبوة .

قال الهروي: والمراد: ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن يُعصَمَ العبد وهو مستشرف للجفا؛ اضطراراً بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ، وسد مسالك المعاطب عليه، إكراماً، والدرجة الثانية: أن توضع عن العبد عوارض النقص، ويعافيه من سمة اللائمة، ويملكه عواقب الهفوات، كما فعل لسليمان عليه السلام في قتل الخيل؛ حمله على الريح الرُخاء، فأغناه عن الخيل، وكما فعل لموسى عليه السلام؛ حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه لم يعتب عليه كما عتب على آدم ونوح وداود ويونس ـ عليهم السلام . هـ.

قال شارحه الإمام عبد المعطي السكندري: وهذه الدرجة أتم في العمل على الأعمال وركوب الأهوال، والتلطف في تعليم الإقبال مما قبلها، فإن ما قبلها منعٌ من الشهوات، وصيانة عن الآفات؛ جبراً وقهراً وحفظاً، وهذا حفظ عنها؛ بإظهارصفح برفق وإكرام ولطف، فتقوى المحبة في القلب، فيحمل ذلك على سرعة الموافقة، ومتى

---

(١) الجزء الأول ص٦ بنحوه عن ابن عمر ـ مرفوعاً.
(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

عرف العبد تقصيره في حق مولاه، ورأى مع ذلك تجاوزه عنه، وإحسانه إليه، فضلاً عن ترك مؤاخذته بما جناه، انغرس في قلبه محبته، وقوى بذلك نشاطه، وخفت عليه الأعمال، وقويت منه الأحوال، فكلاهما محفوظ مُعَان، إلا أن الأول قهر مع تعلقه، وهذا إكرام ولطف بعد جريان هفوته، ثم ذكر الدرجة الثالثة، فانظره. هـ. بنقل المحشي.

ثم كمّل القصة، فقال :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما سكت ﴾ أي: سكن ﴿ عن موسى الغضبُ ﴾؛ لمّا كان الغضب هو الحامل له على مافعل صار كأنه كان يأمره به ويغريه عليه، حتى عبّر عن سكونه بالسكوت، أي: لما سكن غضبه ﴿ أخذ الألواحَ ﴾ التي ألقاها، ﴿ وفي نُسختها ﴾ أي: وفيما نسخ فيها، أو: كُتب ﴿ هُدًى ورحمة ﴾ أي: بيان للحق وإرشاد إلى الصلاح والخير، ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ أي: للذين يخافون ربهم ويهابونه؛ لأنهم هم المنتفعون بها، ودخلت اللام في المفعول؛ لضعف العامل بتأخره .

الإشارة: الغضب لأجل النفس يُفسد الإيمان، كالحنظل مع العسل، ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للذي قال له: أوصني، قال: «لا تَغْضَبْ»، ثم كرر عليه: أوصني، قال: «لا تَغْضَبْ»، ثلاثاً، لأن الغضب المفرط يغطي نور العقل، فيصدر من صاحبه أمور منكرة، قد يخرج بها عن الإيمان بالكلية، وقد يؤدي إلى قتل نفسه والعياذ بالله، والغضب معيار الصوفية؛ قال بعضهم: إذا أردت أن تعرف الرجل فغضبه وانظر مايخرج منه، إلى غير ذلك مما ورد فيه، فإن كان غضبه لله أو بالله فلا كلام عليه، وهو حال الأنبياء وأكابر الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ .

ولما انقضت قضية العجل أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يذهب بقوم، يعتذرون عن عبادة العجل، كما قال تعالى:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واختارَ موسى قومَه ﴾ من قومه ﴿ سبعين رجلاً ﴾ يعتذرون عن قومهم في عبادة العجل، ﴿ لميقاتنا ﴾ الذي وقتنا لهم يأتون إليه، وقيل: إن الله تعالى أمره به بأن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستةً، فزاد على السبعين اثنان، فقال: يتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لِمن قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع، وذهب معه الباقون، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام، فدخل موسى بهم الغمام وخروا سُجداً، فسمعوه يكلم موسى، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام، فأقبلوا إليه، وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾(١)، ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أي: الصعقة، أو رجفة الجبل، عقاباً لهم على قولهم، فصعقوا منها، يحتمل أن تكون رجفة موت أو إغماء. والأول أظهر؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾(٢).

﴿ فلما أخذتهُم الرَّجْفَةُ قال ﴾ موسى: ﴿ ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبل وإيايَ ﴾، تمنى هلاكهم وهلاكه قبل ذلك الوقت، لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه، إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين، ربما قالوا: عرّضتهم للهلاك، أو يكون قال ذلك على وجه الاستسلام والانقياد للقضاء، أي: لو شئتَ أن تُهلكنا من قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك تفعل بنا ماتشاء، أو يكون قاله على وجه التضرع والرغبة، أي: لو شئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت، لكنك عافيتنا وأنقذتنا وأغرقت عدونا، فافعل بنا الآن كما عودتنا، وأحْيِ هؤلاء الذين أمتهم، إذ ليس ببعيد من عميم إحسانك، ﴿ أتُهلكُنا بما فعلَ السفهاءُ منّا ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، أو بما فعل السفهاء من عبادة العجل .

﴿ إنْ هي إلا فتنتُك ﴾ أي: ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك، حتى طمعوا في الرؤية، أو فتنتك لهم بأن أجريت الصوت من العجل حتى افتتنوا به، وهذا اعتراف بالقدر، ورجوع إلى قوله: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ . . . ﴾(٣) الآية، ولذلك قيل: إنه قال له تعالى: نعم هي فتنتي يا حكيم الحكماء. هـ. أي: ما هذه الأمور كلها التي صدرت من بني إسرائيل إلا فتنتك ﴿ تُضلُّ بها من تشاء ﴾ ضلالته، باتباع المخايل، ﴿ وتهدي من تشاء ﴾ هدايته، فيقوى بها إيمانه، وهو اعتذار عن فعل السفهاء فإنه كان بقضاء الله ومشيئته .

﴿ أنت وليُّنا ﴾ القائم بأمرنا، أو ناصرنا من الوقوع في أسباب المهالك، ﴿ فاغفرْ لنا ﴾ ما قارفنا من الذنوب، ﴿ وارحمنا ﴾ أي: اعصمنا من الوقوع في مثله، ﴿ وأنت خيرُ الغافرين ﴾؛ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة، ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي: حالة حسنة من حسن معيشة وتوفيق طاعة، ﴿ وفي الآخرة ﴾ حسنة؛ نعيمَ الجنة، ﴿ إنا هُدنا إليك ﴾ أي: تبنا إليك، من هادَ يهود: إذا رجع، أي: رجعنا إليك بالتوبة مما سلف منا .

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٥٦ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٨٥ من سورة طه.

الإشارة: السلامة من العطب هو في مقام الهيبة والأدب، ولذلك قيل: قف بالبساط، وإياك والانبساط. وأما مقام الإدلال فلا يصح إلا من أكابر الأنبياء، والأولياء المحققين بمقام المحبوبية، المتحفين بغاية الخصوصية، ومنه قول سيدنا موسى عليه السلام: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾، كما قال في الإحياء. والإدلال: هو انبساط يثور من مقام الأنس والتحقق بالمحبة الخاصة، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه، ليس عليه بقية من نفسه، ولا شعور بوجوده وأنانيته، وإلا رُدّ في وجهه وكان سبب عطبه. ومن الإدلال: ما وقع لأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حزبه الكبير، من قوله: وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك... إلخ. وقد وقع لغيره من المحبوبين. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق - سبحانه وتعالى - سؤال موسى عليه السلام في قوله: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة) فقال:

﴿... قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾

يقول الحق جل جلاله: في جواب سيدنا موسى عليه السلام: ﴿قال عذابي أُصيب به من أشاءُ﴾ ممن أخذتْه الرجفة وغيرهم، ﴿ورحمتي وَسعتْ كلَّ شيء﴾ في الدنيا للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مخصوصة بالمؤمنين، ﴿فسأكتبها﴾ كتابة خاصة لا تليق بكم يا بني إسرائيل، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية، الذين ﴿يتقون﴾ الكفر والمعاصي، وإن وقعت هفوة بادروا إلى التوبة، ﴿ويُؤتون الزكاة﴾، خصصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم. ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ فلا يكفرون بشيء منها، بل يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء، وليس ذلك لغيرهم. ولذلك خصهم الله بهذه الرحمة؛ فنَصَرهم على جميع الأمم، وأعلى دينهم على جميع الأديان، ومكّن لهم مالم يمكن لغيرهم.

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ ﷺ ﴿النبي الأميّ﴾ وهو نبينا ومولانا محمد ﷺ، وكونه أميًا شرفٌ له، إذ الكتابة وسيلة للعلوم، وقد أعطى منها ما لم يُعْطَ أحدٌ من العالمين، من غير تعب تعلمها، ولارتفاع الارتياب فى نبوته ﷺ، فهى من جملة معجزاته؛ قال تعالى: ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب . . . ﴾ الآية(١). قال بعضهم: لما قال الله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ طمع فيها كل أحد، حتى إبليس، فلما قال: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ يئس إبليس، وبقيت اليهود والنصارى، فلما قال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ يئس اليهود والنصارى. هـ.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والإنجيل﴾ اسمًا وصفة، ونص ما فى التوراة على ما فى صحيح البخارى، عن عبد الله بن سلام: «يا أيُّهَا النبىُّ إنَّا أرْسَلنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيرا، وحِرْزًا للأمِّيين، أنْتَ عَبْدِى ورَسُولِى، سَمَّيْتُكَ المتَوكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍ ولا غليظ ولا صَخَّابٍ فى الأسْوَاقِ، ولا يُجَازِى بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئة، ولكنْ يَعْفُو ويَصفح ، ولَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجاءَ، بأنْ يَقُولُوا: لاَ إلهَ إلاَّ الله، فَيَفْتَح بِها أعيناً عُمْيًا، وآذاناً صُمّاً، وقلوبا غُلْفاً»(٢).

ومما فى التوراة أيضًا، وهو مما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق فى أيديهم إلى الآن؛ أن الملك قد نزل على إبراهيم، فقال له: فى هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: يارب ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك، قد استجيب لك فى إسماعيل، وأنا أباركه، وأنميه، وأكثره، وأعظمه بماذماذ، وتفسيره: محمد ﷺ.

ومن ذلك مما فى التوارة أيضا: أن الرب - تعالي - جاء من طور سيناء، وطلع على «ساغين»، وظهر من جبل فاران، ويعني بطور سيناء: موضع مناجاة موسى، وساغين موضع عيسى، وفاران هى مكة، موضع مولد نبينا محمد ﷺ، وفى التوراة أيضا: أن هاجر أم اسماعيل لما غضبت عليها سارة، تراءى لها ملكٌ، فقال لها: يا هاجر، أين تريدين، ومن أين أقبلت؟ فقالت: أهرب من سيدتى سارة، فقال لها: يا هاجر، ارجعى إلى سارة، وستحملين وتلدين ولداً اسمه إسماعيل، وهو يكون عيْن الناس، وتكون يده فوق الجميع، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع.هـ.

وهذا الذى وعدها الملك إنما ظهر بمبعث النبي ﷺ وظهور دينه وعلو مكانه، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره من أولاده، لكن الأصل يشرف بشرف فرعه، وفى التوراة أيضا: أن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: قد أجبت دعاءك فى إسماعيل، وباركت عليه، وسيلد اثنى عشر عظيما، وأجعله لأمة عظيمة. وفى بعض كتبهم: لقد

---

(١) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت.
(٢) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الفتح، باب: «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا») من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

تقطعت السماء من بهاء مُحمدٍ المحمود، وامتلأت الأرض من حمده، لأنه ظهر بخلاص أمته.هـ. ونص ما في الإنجيل: أن المسيح قال للحواريين: إني ذاهب عنكم، وسيأتيكم الفارقَلِيط، الذي لا يتكلم من قِبل نفسه، إنما يقول كما يقال له. هـ. والفارقليط بالعبرانية: اسم محمد ﷺ، وقيل معناه: الشافع المشفع.

وعن شَهْر بن حَوْشَب- في قصة إسلام كعب الأحبار، وهو من اليمن من حمير-: أن كعباً أخبره بأمره، وكيف كان ذلك، وكان أبوه من مؤمني أهل التوارة برسول الله ﷺ، قبل ظهوره، قال كعب: وكان أبي من أعلم الناس بالتوراة وكُتب الأنبياء، ولم يكن يدخر عني شيئاً مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعاني فقال: يا بني، قد علمتَ أني لم أكن أدخر عنك شيئاً مما كنتُ أعلم، إلا أني حبَستُ عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يُبعث، وقد أظل زمانه، فكرهت أن أُخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه، وقد قطعتهما من كتابي، وجعلتهما في هذه الكوة التي ترى، وطينت عليهما، فلا تتعرض لهما حتى يخرج هذا النبي، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما، فإن الله تعالى يزيدك بهذا خيرا، فلما مات والذي لم يكن شيء أحب إلي من أن ينقضي المأتم حتى أنظر ما في الورقتين، فإذا فيهما: «محمد رسول الله ﷺ، خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر ويصفح، أمته الحمَّادون، الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتُذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويتأزرون على أوساطهم، وأناجيلُهُمْ في صدورهم، ويأكلون قربانهم في بطونهم، ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون، والشافعون المشفع فيهم».(١) . ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الحق جل جلاله في بقية أوصاف نبينا -عليه الصلاة السلام-: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات ﴾ مما حرم على اليهود؛ كالشحوم وغيرها، ﴿ ويُحرِّم عليهم الخبائث ﴾ كالدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث، أو كالربا والرشوة وغيرهما من المحرمات. قال ابن جزي: مذهب مالك أن الطيبات هي الحلال، وأن الخبائث هي الحرام. ومذهب الشافعي: أن الطيبات هي المستلذات ، إلا ما حرمه الشرع منها، كالخمر والخنزير، وأن الخبائث هي المستقذرات كالخنافس والعقارب. هـ.

﴿ ويضعُ عنهم إصْرَهم ﴾ أي: الثقل الذي عليهم، وهو مثال لما كُلفوا به - أي: بنو إسرائيل - في شرعهم من المشقات؛ كقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، وتعيين القصاص في العمد والخطأ.(*)

(١) أخرجه بنحوه مختصراً الدارمي في (المقدمة - باب صفة النبي ﷺ) والبغوي في تفسيره، (٣/٢٨٩) وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٦٠.
(*) من هنا يبدأ سقط كبير في المخطوطة الأصلية سيستمر حوالي عشرين صفحة.

﴿ والأغلال التي كانت عليهم ﴾، عبارة عما منعت منه شريعتهم، كتحريم الشحوم، وتحريم العمل يوم السبت، وشبه ذلك. ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ﴾ أي: منعوه وحفظوه من عدوه، حتى لايقوى عليه، أو عظموه بالتقوية حتى انتصر، وأصله: المنع، ومنه التعزير، ﴿ ونصروه ﴾ حتى أظهروا دينه في حياته وبعد مماته، ﴿ واتبعوا النور الذي أُنزل معه ﴾ وهوالقرآن، وإنما سماه نوراً؛ لأنه بإعجازه ظاهر أمره ومظهر غيره، أو لأنه كاشف للحقائق مظهر لها. ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، وهذا آخر جواب سيدنا موسى عليه السلام.

الإشارة: قوله تعالى ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ، قال القشيري: لم يعلِّقها بالمشيئة - يعني: كما قال في العذاب - لأنها نفس المشيئة، ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم، فلمّا كان العذاب من صفات الفعل علّقه بالمشيئة، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات. ويقال في قوله تعالى: ﴿ وسعت كل شيء ﴾ : مجالٌ لآمال العُصاة؛ لأنهم، وإن لم يكونوا من جملة المطيعين العابدين والعارفين، فهم «شيء». هـ.

قلت: وبهذا العموم تشبث إبليس في قضية له مع سهل، وذلك أنه لما تراءى له، ضحك، فقال له: كيف تضحك وقد أبلست من رحمة الله؟ فقال له: قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ وأنا شيء، فسكت سهل، ثم تذكر تمام الآية، فقال: قال تعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾، فهي مقيدة لا مطلقة، فقال له: التقوى فعل العبد، والرحمة صفة الرب، ولا يتغير وصف الحق بفعل العبد، فعجز سهل. قلت: والجواب: أن إبليس جاء من جهة الفرق، ولو نظر للجمع لوجد الرحمة وصفه، والتقوى فعله، وفعله يغير وصفه، والكل منه وإليه. والله تعالى أعلم.

وقال الورتجبي: جميع الخلائق مستغرقون في بحر الرحمة، لأن إيجاد الحق إياهم، على أي وصف كانوا، عين رحمته، حيث دخلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته، ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت في الرحمة فالجمادات مستغرقة في نور فعله، وهي الرحمة الفعلية، والحيوانات مستغرقة في نور صفاته، وهي الرحمة الصفاتية، والعقلاء من الجن والإنس والملائكة مستغرقون في نور ذاته، وهي الرحمة القديمة الذاتية من جهة تعريفهم ربوبيته ووحدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجري عليها، في الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجري عليها، في الرحمة الخاصة، وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم في رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم في رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم في رؤية الجلال والجمال عشقوا وطاشوا، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق في الراحم، وفنى عن الرحمة، فصار رحمة للعالمين، وهذا وصف نبينا - عليه الصلاة والسلام -، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1]، ثم خص رحمته الخاصة الصفاتية، بعد أن عم الكل برحمته العامة للمتفردين بالله عن غير الله، القائمين بعظمته في عظمة الذين بذلوا وجوههم لحق ربوبيته عليهم بقوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ... ﴾ .هـ .

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

قال في الحاشية: واعتبر قوله: ﴿ فسأكتبها ﴾، فإنه يقتضي كون الرحمة السابقة مطلقة، والتغيير طارئ، والطارئ لا ينافي الذات . هـ. قلت: فتكون على هذا الرحمة التي وسعت كل شيء رحمة عامة، إذ لا يخلو مخلوق من رحمته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فالخلق كلهم مرحومون إيجاداً وإمداداً، وأما في الآخرة فما من عذاب إلا والله أشد منه في قدرته، والرحمة التي كتبت للمتقين رحمة خاصة، ويدل على هذا ما في القوت[1] على قوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾، قال: معناه خصوص الرحمة وصفوها لا كلها، إذ لا نهاية للرحمة، لأنها صفة الراحم الذي لا حد له، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء.هـ.

وقال السيوطي: فسأكتبها في الآخرة، ووجه تخصيصها في الآخرة بالمؤمنين: تمحضها هنالك من غير شوب بضده، ولا كذلك في الدنيا، وإن كانت غالبة، والكافر عمته في الدنيا عموماً ظاهراً، وسلب منها في الآخرة بحسب الظاهر، وإن لم يخل عنها في الجملة، لأن غضبه تعالى لا حد له لولا رحمته.

وحاصله: أنه لم تفي جهنم بغضبه، لأنه لا يفي المتناهي بغير المتناهي ورحمته عمت الكافر في الدنيا لإمهاله وبسط نعمه عليه، وفي الإمهال فسحة في الحال وأمل الإقلاع في المآل، وقد يتفق كثيراً، أي: الإقلاع، فلا يتعين أن يكون الإمهال استدراجاً، على أنه إنما يتجلى تجلياً أولياً ذاتياً برحمة مطلقة من غير تفصيل، إذ لا تعدد في الذات، وإنما يظهر التفصيل بالصفات، وإن كان يسرى إليها من الذات، ولكن الرحمة تظهر أولاً من الذات، مع قطع النظر عن الصفات؛ لظهورها، ولا تظهر النقمة إلا من الصفات، وهي خفية في تجلي الذات المطلق، ولذلك قال: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾، وعلق العذاب على المشيئة، فخص به دونها. هـ. من الحاشية مع زيادة بيان.

ثم أمره بالدعاء إلى الإيمان، فقال:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً ﴾؛ الأحمر والأسود، والعرب والعجم، والإنس والجن، خص بهذه الدعوة العامة، وإنما بعثتْ الرسل إلى قومها خاصة. فادع الناس أيها الرسول إلى الله تعالى، ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ يتصرف فيهما كيفما شاء، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير، ﴿ يُحيي ويميت ﴾؛ لعموم قدرته ونفوذ أمره،

(١) أي قوت القلوب لأبي طالب المكي.

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووحيه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة، أي: لم يقل: فآمنوا بالله وآمنوا؛ لإجراء هذه الصفات عليه، الداعية إلى الإيمان به واتباعه، ولذلك قال: ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ إلى طريق الحق والرشد، جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين؛ تنبيهاً على أن من صدّقه، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة: لاغنى للمريد عن متابعة الرسول ﷺ، ولو بلغ ما بلغ، لقوله تعالى: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾، وغاية الاهتداء غير متناهية، لأن أدب العبودية مقرونٌ مع عظمة الربوبية، فكما أن الترقي في مشاهدة الربوبية لا نهاية له، كذلك أدب العبودية لا نهاية له، ولا تُعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام، فواسطة النبي ﷺ لا تفارق العبد، ولو عرف ما عرف، وبلغ ما بلغ. والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحق تعالى إلى الكلام مع بني إسرائيل، فقال:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن قوم موسى ﴾، يعني بني إسرائيل، ﴿ أمةٌ ﴾ طائفة ﴿ يهدون ﴾ الناس بكلمة الحق، أو متلبسين ﴿ بالحق ﴾؛ وهم الذين ثبتوا حين افتتن الناس بعبادة العجل، والأحبار الذين تمسكوا بالتوارة من غير تحريف، أو الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿ وبه ﴾ أي: بالحق ﴿ يعدلون ﴾ في أحكامهم وقضاياهم. قال البيضاوي: أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن؛ تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة: في كل أمة، وفي كل عصر، أمة صالحة، يُبَصِّرُونَ الناس بالحق، ويدعون إلى الله، فمنهم مَنْ يهدي إلى تزيين الظواهر بالشرائع، وهم العلماء الأتقياء، ومنهم من يَهدي إلى تنوير السرائر بالحقائق، وهم الصوفية الأولياء، المحققون بمعرفة الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل، فقالوا:

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

قلت: أسباطاً: بدل لاتمييز؛ لأن تمييز العدد يكون مفرداً، والتمييز محذوف، أي: فرقة أسباطاً. وقال الزمخشري: يصح تمييزاً ؛ لأن كل قبيلة أسباطٌ لاسبط. هـ. فكأنه قال: وقطعناهم اثنتي عشرة سبطا سبطا. والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و(أُمما) : بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثاني بدل من أسباط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقطَّعناهم ﴾ أي: بني إسرائيل، أي: فرقناهم ﴿ أثنتي عشرة أسباطاً ﴾ ؛ اثني عشر سبطاً، ﴿ أمما ﴾ متميزة، كل سبط أمة مستقلة، ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ﴾ في التيه، ﴿ أن اضربْ بعصاك الحجر فانبجَستْ ﴾ ؛ انفجرت، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار، أي: فضرب فانبجست، وحذفه للإيماء إلى أن موسى لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل من ذاته، بل سبب عادي وحكمة جارية، والفعل إنما هو بالقدرة الإلهية، أي: نبعت ﴿ منه اثنتا عشرةَ عيناً، قد علم كلُّ أُناس ﴾؛ كل سبط ﴿ مشربهم، وظلّلنا عليهم الغمام ﴾ لتقيهم من حر الشمس، ﴿ وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى ﴾، وقلنا لهم: ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ سبق في سورة البقرة، وكذلك الإشارة[١].

ثم قال:

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذ قيل ﴾ لبني إسرائيل: ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾؛ بيت المقدس، ﴿ وكُلوا منها حيث شئتم، وقولوا ﴾: أمرنا ﴿ حِطةٌ، وادخلوا الباب سُجّداً ﴾ سجود انحناء، ﴿ نغفرْ لكم خطيئاتِكم ﴾ التي سلفت، ﴿ سنزيد المحسنين ﴾؛ وعد بالغفران والزيادة عليه، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف، يعني: سنزيد، ولم يقل: وسنزيد؛ للدلالة على أنه تفضل محض، ليس في مقابلة ما أمروا به، ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾؛ قالوا: حبة في شعرة، مكان حطة، لأنهم حملوا الحطة؛ على الحنطة. ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ قد مر تفسيره، وإشارته، في سورة البقرة[٢].

---

(١) راجع تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة.

تنبيه: وقع اختلاف كثير في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة، في ﴿ انفجرت ﴾ و﴿ انبجست ﴾، وقوله: ﴿ وإذ قلنا ادخلوا ﴾ و﴿ وإذا قيل لهم اسكنوا ﴾، وقوله هنا: ﴿ وكُلُوا ﴾، وهناك ﴿ فكُلُوا ﴾. فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجّه بعضهم الفرق بأن ما في هذه السورة سيق في محل الغضب والعقاب على عبادة العجل، وما في سورة البقرة سيق في محل الامتنان، فلذلك عبّر هنا بانبجست؛ لأنه أقل من انفجرت، وعبّر هنا بقيل؛ مبنيًا للمجهول؛ تحقيراً لهم أن يذكر نفسه لهم، وعبّر هنا بالسكنى؛ لأنه أشق من الدخول ويستلزمه، وعبّر هنا بالواو؛ لأن السكنى تجامع الأكل، بخلاف الدخول، فإن الأكل مسبب عنه، فعبّر بالفاء، وزاد في البقرة الواو في: ﴿ سنزيد ﴾، كأنه نعمة أخرى، بخلاف هذا، وزاد هنا ﴿ منهم ﴾؛ لتقدم ذكرهم في قوله: ﴿ وإذ قيل لهم ﴾، وعبّر هنا بالظلم؛ لأنه أعم من الفسق وغيره. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتداءهم في السبت وما ترتب عليه، فقال:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قلت: (إذ يَعْدُون): بدل من (القرية)، بدل اشتمال، أو منصوب بكانت، أو بحاضرة، و(إذ تأتيهم): منصوب بيعدون، و(سبتهم): مصدر مضاف للفاعل، يقال: سبت اليهود سبتًا: إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه، و(شُرّعا): حال، ومعناه: ظاهرة قريبة منهم، يقال: شرع منه فلان إذا دنا منه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ أي: اليهود، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعما هو من معلومهم، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحي، وقد تحققوا أنك أُمي، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم، ﴿ عن القرية ﴾ أي: عن خبرها وما وقع لها، ﴿ التي كانت حاضرةَ البحر ﴾ قريبة منه، وهي «إيلة»، قرية بين مدين والطور، على شاطئ البحر، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، ﴿ إذ يَعْدُون في السّبت ﴾: يتجاوزون حدود الله

بالاصطياد في يوم السبت، وكان حرامًا عليهم لاشتغالهم عنه بالعبادة، ﴿ إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم شُرّعاً ﴾: ظاهرة على وجه الماء، دانية منهم، ﴿ ويوم لايَسْبِتُون لا تأتيهم ﴾ بل تغوص كلها في البحر، ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل هذا البلاء الشديد ﴿ نَبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أي: بسبب فسقهم. وقيل: «كذلك»: متصل بما قبله، أي: لا تأتيهم مثل ذلك الإتيان الذي تأتيه يوم السبت.

ثم افترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة عصت بالصيد يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت القوم، وفرقة سكتت واعتزلت فلم تنه ولم تعص. ﴿ وإذ قالت أمةٌ منهم ﴾، وهي التي لم تنه ولم تعص، لمَّا رأت مهاجرة الناهية وطغيان العاصية: ﴿ لِمَ تَعِظُون قوماً اللهُ مهلكهم ﴾ بالموت بصاعقة، ﴿ أو معذبهم عذاباً شديدا ﴾ في الآخرة؟ ﴿ قالوا ﴾: نهينا لهم ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ أي: عذراً إلى الله تعالى، حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر، ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ فينزجرون عن العصيان، إذ اليأس منهم لا يحصل إلا بالهلاك.

﴿ فلما نَسُوا ما ذُكّروا به ﴾ أي: تركوا ما وُعظوا به ترك الناسي، ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوءِ وأخذنا الذين ظلموا ﴾؛ بالاعتياد ومخالفة أمر الله، ﴿ بعذاب بئيس ﴾: شديد، من بؤس يبؤس بؤساً، وقرىء (بيْئَس) على وزن ضيغم، و«بِئْس» بالكسر والسكون، كحذر، وبيس بتخفيف الهمزة، ومعناها واحد، أي: بما عاقبناهم بالمسخ، ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي: بسبب فسقهم.

قال ابن عباس: لا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ وقال عكرمة: لم تهلك؛ لأنها كرهت ما فعلوه. ورجع إليه ابن عباس وأعجبه، لأن كراهيتها تغيير المنكر في الجملة، مع قيام الفرقة الناهية به؛ لأنه فرض كفاية. قال تعالى: ﴿ فلما عتوا عما نُهوا عنه ﴾؛ تكبراً عن ترك ما نُهوا عنه، ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أذلاء صاغرين. قال البيضاوي: «قلنا لهم كونوا»، هو كقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١)، والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذّبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم قردة وخنازير، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى.

رُوي أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يومًا ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين، فقالوا: إن لهم شأنا، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، فلم يعرفوا أنسباءهم، ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسباءهم وتشم ثيابهم، وتدور باكية حولهم، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. هـ.

الإشارة: المسخ على ثلاثة أقسام: مسخ الأشباح، ومسخ القلوب، ومسخ الأرواح، فمسخ الأشباح هو الذي وقع لبني إسرائيل، قيل: إنه مرفوع عن هذه الأمة، والصحيح: أنه يقع في آخر الزمان، ومسخ القلوب يكون بالانهماك

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل.

في الذنوب، والإصرار على المعاصي، وعلامته: الفرح بتيسير العصيان، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان، ومسخ الأرواح: الانهماك في الشهوات، والوقوف مع ظواهر الحسيات، أو تكثيف الحجاب، والوقوف مع العوائد والأسباب، دون مشاهدة رب الأرباب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة بني إسرائيل في الدنيا، فقال:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

قلت: تأذن: أعلم، وهي تفعل، وهي من الإيذان بمعنى الإعلام، كتوعّد وأوعد، أو: عزم، لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله، وأجرى مجرى القسم كعلِم الله وشهد الله، ولذلك أجيب باللام القسمية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذْ تأذَّن ربك ﴾ أي: أعلم وأظهر ذلك في عالم الشهادة، ﴿ ليبعثنَّ ﴾ على بني إسرائيل، أي: ليسلطن ﴿ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ ؛ كالإذلال وضرب الجزية، وقد بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر، فخرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ ففعل بهم ما فعل، في بني قريظة والنضير وخيبر، ثم ضرب الله عليهم الجزية إلى آخر الدهر، ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ فعاقبهم في الدنيا، ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب وآمن، وإنما أكد هنا الخبر باللام دون ما في آخر الأنعام[1]، لأن ماهنا في اليهود، وما في آخر الأنعام في المؤمنين، فأكد ما هنا باللام، فقال: ﴿لسريع العقاب﴾؛ زيادة في توبيخهم ونكالهم.

الإشارة: مواطن الذل والهوان هو الانهماك في المخالفة والعدوان، وقد ينسحب ذلك في الذرية إلى آخر الزمان، فإن الله تعالى يقول: أنا الملك الودود، أعاقب الأحفاد بمعاصي الجدود، ومواطن العز والحرمة والأمان: هو الطاعة والتعظيم والإحسان، ينسحب ذلك على الأحفاد، إلى منتهى الزمان، فإن الله تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد. وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون في آخر الزمان من الفتن والفساد، فقال بعضهم: ياليتني كنت عقيماً أو لم أتزوج، فقال له من هو أكبر منه: ألا أدلك على ما يحفظ الله به عقبك؟ قال: نعم، دلني، قال: قوله تعالى: ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً ... ﴾ الآية[2]. وبالله التوفيق.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ الآية الأخيرة من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٩ من سورة النساء.

ثم قال تعالى فى شأن اليهود:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾

قلت: (أممًا): مفعول ثان لقطّعنا، أو حال، وجملة (منهم الصالحون): صفة، وجملة (يأخذون): حال من فاعل (ورثوا)، و(يقولون) عطف على (يأخذون)، أوحال، والفعل من (سيغفر): مسند إلى الجار والمجرور، أو إلى مصدر (يأخذون)، و(أن لا يقولوا): عطف بيان من (ميثاق الكتاب)، أو تفسير له، أو متعلق به، أي: لأن لا يقولوا، و(درسوا): عطف على (ألم يؤخذ) من حيث المعنى، أي: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه، أوحال، أي: وقد درسوا، و(الذين يمسّكون): مبتدأ، وجملة: (إنا لانضيع أجر المصلحين): خبر، والرابط: ما فى المصلحين من العموم، فوضع موضع الضمير؛ تنبيهًا على أن الإصلاح كالمانع من التضييع، أو حذف العائد، أي: منهم، ويحتمل أن يكوت عطفًا على (الذين يتقون) أى: خير للمتقين والذين يتمسكون بالكتاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقطّعناهم ﴾ أي: فرقناهم ﴿ فى الأرض أممًا ﴾: فرقًا، ففى كل بلد من البلدان فرقة منهم، فليس لهم إقليم يملكونه، تتمةً لإذلالهم، حتى لاتكون لهم شوكة قط، ﴿ منهم الصالحون ﴾ وهو من تمسك بدين التوراة، ولم يحرف، ولم يفرق، أو من آمن منهم بالنبى ﷺ فى زمانه وبعده، ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ أي: ومنهم ناس دون ذلك، أي: منحطون عن الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم، ﴿ وبلوناهم ﴾ أي: اختبرناهم ﴿ بالحسنات والسيئات ﴾ أى: بالنعم والنقم، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾؛ ينتبهون فينزجرون عمّا هم عليه .

﴿ فخلَفَ من بعدهم خلْفٌ ﴾ أي: فخلف، من بعد الأولين، خلف، أي: بدل سوء، وهو مصدر نعت به، فالخلْف، بالسكون، شائع فى الشر، يقال: جعل الله منك خلفا صالحاً. والمراد بالخلف فى الآية: اليهود الذين أدركوا النبى ﷺ، ﴿ ورِثوا الكتابَ ﴾؛ التوارة، من أسلافهم، يقرؤونها ويقفون على ما فيها، ﴿ يأخذون عرَضَ هذا الأدنى ﴾؛ حطام هذا الشيء الحقير، من الدنو، أو من الدناءة، وهو ما كانوا يأخذون من الرشا فى الأحكام، وعلى تحريف الكلام. ﴿ ويقولون سيُغفر لنا ﴾؛ لايؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، اغترارًا وحمقًا.

﴿ وإن يأتهم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه ﴾ أي: يرجون المغفرة، والحال أنهم مصرون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين منه، ﴿ألم يُؤخذ عليهم ميثاقُ الكتاب ﴾ أي: في الكتاب، وهو التوراة، ﴿ أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾، وهو تكذيب لهم في قولهم: ﴿ سيُغفر لنا ﴾، والمراد: توبيخهم على القطع بالمغفرة مع عدم التوبة، والدلالة على أنه افتراء على الله، وخروج عن ميثاق الكتاب، ﴿ ودَرَسُوا ما فيه ﴾ أي: وقد درسوا ما فيه، وعلموا ما أُخذ عليهم فيه من المواثيق، ثم تجرأوا على الله، ﴿ والدارُ الآخرة خير للذين يتقون ﴾ مما يأخذ هؤلاء من العرض الفاني.﴿ أفلا يعقلون ﴾[1] فيعلموا ذلك، ولا يستبدلوا الأدنى الحقير المؤدي إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد في دار الثواب، ومن قرأ بالخطاب فهو لهم، من باب التلوين في الكلام.

﴿ والذين يُمسِّكُون بالكتاب ﴾ أي: يتمسكون بالتوراة، ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ المفروضة عليهم، ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ منهم. وهذا فيمن مات قبل ظهور الإسلام، أو: والذين يمسكون بالقرآن، ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ مع المسلمين، ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾.

الإشارة: تفريق النسب في البلدان، إن كان في الذل والهوان، فهو من شؤم المخالفة والعصيان، وإن كان مع العز وحفظ الحرمة، فقد يكون لقصد الخير والبركة، أراد الله أن يُنمي تلك البلاد، بنقل ذلك إليها، كأولاد الصالحين والعلماء وأهل البيت. ويؤخذ من قوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، أن العبد مأمور بالرجوع إلى الله في السراء والضراء، في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بالتسليم والصبر.

ويؤخذ من مفهوم قوله : ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾، أن من عقد التوبة وحل عقدة الإصرار غفر له ما مضى من الأوزار. وفي قوله: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب...﴾ الآية، تحذير لعلماء السوء. وقوله: ﴿والذين يُمسكون بالكتاب...﴾ الآية، أي: والذين يمسكون بظاهر الكتاب وأقاموا صلاة الجوارح، ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ مع عامة أهل اليمين، والذين يمسكون بباطن الكتاب وأقاموا صلاة القلوب - التي هي العكوف في الحضرة - حضرة الغيوب - إنا لانضيع أجر المصلحين لقلوبهم، وهو شهود رب العالمين مع المقربين، في حضرة الأنبياء والمرسلين، جعلنا الله منهم وفي حزبهم، آمين.

ولمَّا ذكر من تمسك بالكتاب طوعاً، ذكر من تمسك به كرهاً من أسلاف اليهود، فقال:

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب «تعقلون» بالخطاب، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٦٨).

قلت: جملة (خذوا): محكية، أي: وقولنا لهم: خذوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ نتقنا﴾ أي: قلعنا ورفعنا ﴿الجبل فوقهم﴾ أي: فوق بني اسرائيل، ﴿كأنه ظُلَّة﴾ أي: سقيفة، والظلة: كل ما أظلك، ﴿وظنوا﴾ أي: تيقنوا ﴿أنه واقع بهم﴾ أي: ساقط عليهم بسبب عصيانهم؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو؛ لأنهم كانوا يوعدون به، وإنما عبّر بالظن؛ لأنه لم يقع بالفعل حين الظن، وسبب نتق الجبل أنهم امتنعوا من أحكام التوارة، فلم يقبلوها؛ لثقلها، فرفع الله الطور فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم ما فيها وإلاّ ليقعن عليكم، فقلنا لهم حين الرفع: ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ من الأحكام ﴿بقوة، واذكروا مافيه﴾ بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسى، ﴿لعلكم تتقون﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

الإشارة: من لم ينقد إلى الله بملاطفة الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان، عجب ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل.

ولما ذكر الميثاق الخاص، ذكر الميثاق العام، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

قلت: (من ظهورهم): بدل من (بني آدم)، أي: من ظهور بني آدم، و(ذريتهم): مفعول به، و(بلى): حرف جواب، يُجاب بها عن الهمزة إذا دخلت على منفي، فخرجت عن الاستفهام إلى التقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفي، نحو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1]، فيجاب ببلى، أي: شرحت، وكذا نظائرها، ومنه: (ألست بربكم..) الآية.

وقد يجاب بها الاستفهام المجرد عن النفي، كما في الحديث: «أترضَون أن تكونوا رُبُع أهل الجنّة؟ قالوا: بلى»[2]. ولكنه قليل، فلا يُقاس عليه، بل يوقف على ما سمع، والكثير: أنها جواب للنفي، ومعناها: إثبات مانفى، ورفع النفي، لا إثباته وتقريره، بخلاف «نعم»؛ فإنها تقرر ما قبلها من إثبات أو نفي، ولذا قال ابن عباس: (ولو قالوا: نعم، لكفروا)، وقد تقدم الفرق بينهما في سورة البقرة[3]، ثم الكثير: مراعاة صورة النفي، فيجاب ببلى، وقد

---

(١) الآية الأولى من سورة الشرح.
(٢) أخرجه مسلم في (الإيمان ـ باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.
(٣) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة.

ينظر للمعنى وما يفيده الاستفهام الإنكاري من نفيه للنفي، فيصير الكلام إيجاباً ، فيصح الجواب بنعم في الجملة، لكن لمَّا كان محتملاً امتنع في الآية. انظر المغني. وقوله: (أن تقولوا) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذْ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ﴾ : من ظهور بني آدم ﴿ ذريّتهم ﴾؛ وذلك أن الله تعالى لمَّا خلق آدم ، وأهبطه إلى الأرض، أخرج من صلبه نسيم بنيه، بعضهم من صلب بعض، على نحو ما يتوالدون، قرناً بعد قرن كالذر، وكان آدم بنَعْمان، وهو جبل يواجه عرفة، وقال لهم حين أخرجهم : ﴿ ألستُ بربكم ﴾ ؟ فأقروا كلهم، و﴿ قالوا بلى ﴾ أنت ربنا، ﴿ شهِدنا ﴾ بذلك على أنفسنا، لأن الأرواح حينئذ كانت كلها على الفطرة، علاَّمة درَّاكة، فلما ركبت في هذا القالب نسيت الشهادة، فبعث اللهُ الأنبياءَ والرسل يُذكِّرون الناس ذلك العهد، فمن أقرّ به نجا، ومن أنكره هلك، ويحتمل أن يكون ذلك من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية من الظهر عبارة عن إيجادهم في الدنيا، وأما إشهادهم فمعناه: أن الله نصب لبني آدم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقال: (ألست بربكم) ؟ وكأنهم قالوا بلسان الحال: أنت ربنا.

والأول هو الصحيح؛ لتواتر الأخبار به، فقوله: (شهِدنا) : هو من تمام الجواب، فهو تحقيق لربوبيته وأداء لشهادتهم بذلك، فينبغي أن يوقف عليه، وقيل: إنّ (شهدنا) : من قول الله أو الملائكة، فيوقف على (بلى) ، لكنه ضعيف.

ثم ذكر حكمة هذا الأخذ، فقال: ﴿ أن تقولوا ﴾ أي: فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا ﴿ يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾، أو كراهية أن تقولوا: ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنا ذرية مَن بعدهم ﴾ فاقتدينا بهم، ﴿ أفتُهلكنا بما فعل المبطِلون ﴾ ، يعني: آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك، ولابد من حذف كلام هنا لتتم الحجة، والتقدير: أخذنا ذلك العهد في عالم الأرواح، وبعثنا الرسل يجددونه في عالم الأشباح، كراهة أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ... ﴾ الآية[1] . وقوله: ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة ﴾[2] ، ولا يكفي مجرد الإشهاد الروحاني في قيام الحجة؛ لأن ذلك العهد نسيته الأرواح حين دخلت في عالم الأشباح، فلا تهتدي إليه إلا بدليل يذَكِّرها ذلك.

قال البيضاوي: والمقصود من إيراد هذا الكلام ها هنا: إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم من التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ الدالة على وحدانيتنا سمعًا وعقلاً، ﴿ ولعلهم يرجعون ﴾ عن التقليد واتباع الباطل .

---

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء.   (٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء.

الإشارة: أَخَذَ الحق جل جلاله العهد على الأرواح أن تعرفه وتُوحده مرتين، أحدهما: قبل ظهور الكائنات، والثاني: بعد ظهورها. والأول أخذه عليها في معرفة الربوبية، والثاني تجديداً له مع القيام بآداب العبودية . قال بعضهم: أخذ الأول على الأرواح يوم المقادير، وذلك قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم أخذ الثاني على النفوس بعد ظهورها في عالم الأشباح، كما نبهت عليه الآية والأحاديث.

وقال ابن الفارض في تائيته:

وَسَابِقِ عَهْدٍ لَمْ يَحُلْ مُذْ عَهِدْتُهُ ولا حِقِ عقْدٍ جَلّ عَنْ حلّ فتْرَةِ

قال القاشاني : أراد بالعهد السابق: ما أخذه الله على الأرواح الإنسانية المستخرجة من صلب الروح الأعظم، الذي هو آدم الكبير، في صور المثل، قبل تعلقها بالأشباح، وهو عقد المحبة بين الرب والمربوب، في قوله سبحانه: ﴿وإذ أخذ ربك...﴾ الآية . وبالعهد اللاحق: ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء، من عقد الإسلام بعد التعلق بالأبدان، وهو توكيدٌ للعهد الأول، وتوثيقه بالتزام أحكام الربوبية والتزامها .هـ. وقال في الحاشية: كلام ابن الفارض ينظر إلى العهد الأول، الروحاني، وكلام غيره ينظر إلى الثاني النفساني، وهو ظاهر الآية .هـ. قلت: وفيه نظر، فإن كلام ابن الفارض مشتمل على العهدين معاً، الروحاني في الشطر الأولى، والنفساني في الشطر الثاني.

والحاصل مما تقدم: أن العهد أخذ على الأرواح ثلاث مرات، أحدها: حين استخرجت من صلب الروح الأعظم الذي هو آدم الكبير، وهو معنى القبضة النورانية، التي أخذت من عالم الجبروت. والثاني: حين استخرجت من صلب آدم الأصغر، كالذر، والثالث: حيث دخلت في عالم الأشباح، على ألسنة الرسل، ومن ناب عنهم، فالمذكور في الآية هو الثاني، وهو أحسن من حمْلِ القاشاني الآية على الأول.

فالحاصل: أن الأخذ الأول كان على الأرواح مجردة عن مادة التطوير والتمثيل، بإقرارها إقرار النفوس، لا إقرار الألسنة، والأخذ الثاني كان على الأرواح بعد خروجها من الوجود العلمي إلى الوجود العيني، فتطورت الأرواح بصفاتها الذاتية، من سمع وبصر ولسان وغيرها، في عالم المثال، بصور مثالية؛ لتُبصر بها ظهور الرب، وتسْمع خطابه، وتجيب سؤاله، بإقرارها حينئذ إقرار الألسنة، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية. وأما العهد الذي أخذه بواسطة الأنبياء في ظهور عالم الأشباح فإنما هو تذكير للعهدين، وتجديد لهما ، وهو الذي تقوم به الحجة عليها ، فلابد من انضمامه إلى الأوَّلَيْن في قيام الحجة ، كما تقدم .

فالموجودات ثلاث: علمي، ثم خيالي مثالي، ثم نوعي حسي. فأَخـذَ على كل واحد عهدٍ؛ من الأوَّلَيْنِ بلا واسطة، والثالث بواسطة الرسل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من نقض هذا العهد، مع تمكنه من العلم به، فقال:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾

قلت: أتبعه الشيطانُ: أدركه، يقال: أتبع القوم: لحقهم، ومنه: ﴿ فأتبعهم فرعون وجنوده ﴾[1] أي: لحق بني إسرائيل. قاله في الأساس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتلُ عليهم ﴾؛ على اليهود ﴿ نبأ ﴾ أي: خبر ﴿ الذي آتيناه آياتنا ﴾؛ علمًا بكتابنا، ﴿ فانسلخ منها ﴾؛ بأن كفر بها، وأعرض، ﴿ فأتبعه الشيطانُ ﴾ فأدركه ﴿ فكان من الغاوين ﴾. قال عبد الله بن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين، داعيًا إلى الله، فرشاه الملكُ، وأعطاه المُلك على أن يترك دين موسى، ويُتابع الملكَ على دينه، ففعل وأضل الناس على ذلك.

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين، اسمه: «بلعم»، كان عنده الإسم الأعظم، فلما أراد موسى قتل الكنعانيين، وهم الجبارون، سألوه أن يدعو على موسى باسم الله الأعظم، فأبى، فألحوا عليه حتى دعا ألا يدخل المدينة، ودعا موسى عليه. فالآيات التي أعطيها، على هذا: اسم الله الأعظم، وعلى قول ابن مسعود: هو ما علمه موسى من الشريعة. قيل: كان عنده من صحف إبراهيم. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي[2]، وكان قد أُوتي علمًا وحكمة، وأراد أن يُسلم قبل غزوة بدر، ثم رجع عن ذلك ومات كافرًا، وكان قد قرأ الكتب، وخالط الرهبان، وسمع منهم أن الله تعالى مرسلٌ رسولاً في ذلك الزمان، فرَجَا أن يكون هو، فلما بعث الله محمداً ﷺ حسده، وقال: ماكنت لأؤمن لرسول ليس من ثقيف.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة يونس.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (التفسير ـ ٣٤٨/٦) والطبري في تفسيره (١٢٠/٩)، قال أبو حيان في البحر: والأولى في مثل هذا ـ إذا ورد عن المفسرين ـ أن تحمل أقاويلهم على التمثيل، لا على الحصر في معين، فإنه يؤدي إلى الاضطراب والتناقض.

قال تعالى: ﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾ إلى منازل الأبرار ﴿ بها ﴾ أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها، ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ أي: مال إلى الدنيا وحطامها، أي: أخلد إلى أرض الشهوات، ﴿ واتبع هواه ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، أو صيانة رئاسته وجاهه. قال البيضاوي: وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها، فأوقع موقعه: ﴿ أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ مبالغةً وتنبيهًا على ما حمله عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. هـ.

﴿ فمثله ﴾ أي: فصفته التي هي مثلٌ في الخسة، ﴿ كمَثَل الكلب ﴾ أي: كصفته في أخس أحواله، وهو ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركْه يلهثْ ﴾ أي: يلهث دائما، سواء حمل عليه بالزجر والطرد، أو ترك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات؛ لضعف فؤاده، واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والمراد: لازم اللهث، وهو نفي الرفع ووضع المنزلة.

قال ابن جزي: اللهث: هو تنفس بسرعة، وتحريك أعضاء الفم، وخروج اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات عند الحر والتعب، وهي حالة دائمة للكلب، ومعنى ﴿إن تحمل عليه﴾: أن تفعل معه ما يشق عليه، من طرد أو غيره، أو تتركه دون أن تحمل عليه، فهو يلهث على كل حال، ووجه تشبيه ذلك الرجل به أنه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، فضلالته على كل حال.هـ. وقال الواحدي: وذلك أنه زجر في المنام عن الدعاء على موسى، فلم ينزجر، وترك عن الزجر، فلم يهتد. هـ. وقيل: إن ذلك الرجل خرج لسانه على صدره، فصار مثل الكلب، وصورته ولهثه حقيقة.هـ. وفعل به ذلك حين دعا على موسى عليه السلام. وفي ابن عطية: ذكر المعتمد أن موسى قتله.

قال تعالى: ﴿ ذلك مثَل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾؛ صفتهم كصفة الكلب في لهثه وخسته، أو كصفة الرجل المشبه به، لأنهم إن أنذروا لم يهتدوا، وإن تركوا لم يهتدوا. أو شبههم بالرجل في أنهم رأوا الآيات فلم تنفعهم، كما أن الرجل لم ينفعه ما عنده من الآيات. وقال الواحدي: يعني: أهل مكة كانوا متمنين هاديًا يهديهم، فلما جاءهم من لا يشكُّون في صدقه كذبوه، فلم يهتدوا لمَّا تُركوا، ولم يهتدوا أيضًا لما دعوا بالرسول، فكانوا ضالين عن الرسول في الحالتين. هـ.

﴿ فاقصص القصَصَ ﴾ المذكور على اليهود، فإنها نحو قصصهم، ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ تفكرًا يُؤدي إلى الاتعاظ، فيؤمنوا به، فإنَّ هذه القصص لا توجد عند من لم يقرأ إلا بوحي، فيتيقنوا نبوتك. ﴿ ساءَ ﴾ أي: قبح ﴿ مثلاً ﴾ مثل ﴿ القومُ الذين كذَّبوا بآياتنا ﴾؛ حيث شُبهوا بالكلاب اللاهثة. ﴿ وأنفسَهم كانوا يظلمون ﴾ بتعريضها للهلاك. قال البيضاوي: إما أن يكون داخلاً في الصلة، معطوفاً على ﴿الذين كذبوا﴾، بمعنى: الذين

جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعًا عنها، بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وباله لا يتخطاها ولذلك قدّم المفعول. هـ.

﴿ من يهد الله فهو المهتدى، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾، هو تصريح بأن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وأنّ هداية الله يخص بها بعضاً دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفراد في الأول والجمع في الثاني؛ لاعتبار اللفظ والمعنى، تنبيهًا على أن المهتدين كواحد؛ لاتحاد طريقهم، بخلاف الضالين. والاقتصار في الإخبار عمّن هداه الله بالمهتدي: تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه، في نفسه، كمال جسيم، ونفع عظيم، لولم يحصُل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها . قاله البيضاوي .

الإشارة: في الحديث: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ»(١). والعلم النافع هو الذي تصحبه الخشية والمراقبة والتعظيم والإجلال، ويوجب لصاحبه الزهد والسخاء والتواضع والانكسار، وهو علم التوحيد الخاص، الذي هو مشاهدة الحق. وقال الورتجبي في قوله: ﴿ آتيناه آياتنا فا نسلخ منها ﴾: ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحبه استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجا بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه بقوله: ﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾، ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره، مُكِرَ به في الأزل، فكان مكره مستداماً إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة عارضة للامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر العرض الطارئ. هـ.

وقال في الإحياء: إن بلعم أوتي كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات، فشُبه بالكلب، أي: سواء أوتي الحكمة أو لم يؤتها فهو يلهث إلى الشهوات. هـ. وفي ذكر قصته تحذير لعلماء هذه الأمة وصلحائها. وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ: من أخلدت نفسه إلى أرض الشهوات، وغلبته عن النهوض إلى الطاعات، فدواؤه في حرفين، أحدهما: أن يذكر منّة الله عليه بنعمة الإيمان والإسلام، ويقيد هذه النعمة بالشكر، لئلا تفلت من يده، والثاني: أن يتوجه إلى الله بالتضرع والاضطرار، آناء الليل والنهار، وفي رمضان راجيًا الإجابة، قائلا: اللهم سَلِّم سَلِّم. فإن أهمل هاتين الخصلتين فالشقاوة لازمة له.هـ. بالمعنى لطول العهد به. وبالله التوفيق.

(١) أخرجه البيهقي في الشُّعب (باب في نشر العلم ـ ح ١٧٧٨) وزاد السيوطي في الجامع الصغير (ح ١٠٥) عزوه لابن عدي في الكامل والطبراني في الصغير عن أبي هريرة، وضعّفه.

ثم ذكر علامة أهل الضلالة والخسران، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد ذرأنا ﴾؛ خلقنا ﴿ لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾؛ كتبنا عليهم الشقاء في سابق الأزل، فهم من قبضة أهل النار، كما قال: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي»(١).

ثم ذكر علامتهم فقال: ﴿ لهم قلوبٌ لايفقهون بها ﴾ المواعظ والتذكير؛ للأكنة التي جعلت عليها، ﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ دلائل وحدانيتنا وكمال قدرتنا، فلا ينظرون بها نظر اعتبار، ﴿ ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ الآيات والمواعظ، سماع تأمل وتدبر، ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ في عدم التفقه والاستبصار، أو في أن هممهم ومشاعرهم متوجهة إلى أسْباب التعيش، مقصورة عليها، فهممهم في بطونهم وفروجهم، ﴿ بل هم أضلُّ ﴾ من الأنعام، لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة، وأيضا: الأنعام رُفع عنها التكليف فلا تعذب، بخلاف الكافر، وأيضاً: البهائم تقبل الرياضة والتأديب لِماَ يراد بها، والكافرعاص على الدوام، ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون في الغفلة المنهمكون فيها.

الإشارة: النار على قسمين: حسية ومعنوية، كما أن الجنة كذلك، فالنار الحسية لتعذيب الأشباح، والنار المعنوية لتعذيب الأرواح، والجنة الحسية لنعيم الأشباح، والمعنوية لنعيم الأرواح. النار الحسية معلومة. والنار المعنوية هي نار القطيعة وغم الحجاب، وأهلها هم أهل الغفلة، وهم كثير من الجن والإنس، ليس لهم قلوب تجول في معاني التوحيد، وليس لهم أعين تنظر بعين الاعتبار، وليس لهم آذان تسْمع المواعظ والتذكار، إن هم إلا كالأنعام، غير أن الله تعالى تفضل عليهم برسْم الإسلام. والجنة الحسية هي جنة الزخارف، والجنة المعنوية هي جنة المعارف، وأعدها الله لقلوب تجول في الأنوار والأسرار، ولأعين تنظر بعين الاعتبار والاستبصار، حتى تشاهد أنوار الواحد القهار، ولآذان تسمع المواعظ والتذكار، وتعي ما تسمع من الحكم والأسرار، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٥/٢٣٩) عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي».

ثم عرَّف بذاته؛ بتعريف أسمائه، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولله الأسماءُ الحسنى﴾ تسعة وتسعين، ﴿فادعوه بها﴾ أي: سموه بها. قال ابن جزى: أي: سموه بأسمائه، وهذا إباحة لإطلاق الأسْماء على الله سبحانه، فأما ما ورد منها في القرآن والحديث فيجوز إطلاقه على الله إجماعاً، وأما ما لم يرد، وفيه مدح ولا تتعلق به شُبهة، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على الله، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعرى وغيره، ورأوا أن أسماء الله تعالى موقوفة على ماورد فى القرآن والحديث. وقد ورد فى حديث الترمذى عدتها[1]، أعني: تعيين التسعة والتسعين.

واختلف أهل الحديث: هل هى مرفوعة أو موقوفة على أبي هريرة؟ والذى فى الصحيح: «إِنَّ للَّه تِسعَةً وَتِسعِين اسْـمَاً، مائَةً إلاَ وَاحِداً، مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّـة»[2]. وهل الإحصـاء بالحفظ أو بالعلـم أو بالتخلق أو بالتعلق أو بالتحقق؟ أقوال. قلت: كونها موقوفة بعيد جداً؛ إذ ليس هذا مما يقال بالرأى.

وسبب نزول الآية: أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ، فيذكر الله مرة، والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإله واحد، وها هو يعبد آلهة كثيرة، فنزلت الآية مُبيِّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هى لمسمى واحد، و(الحسنى): مصدر وُصف به، أو تأنيث أحسن، وحسّن أسماء الله هي أنها صفة مدح وتعظيم وتمجيد، وقيل: الدعاء بها: التوسل بكل واحد منها.

قال تعالى: ﴿وذَرُوا﴾ أي: اتركوا ﴿الذين يُلْحدون﴾ أي: يميلون ﴿في أسمائه﴾ عن الكمال؛ إما بتعطيلها، أو إنكار شيء منها، وإما بزيادة فيها، مما يوهم نقصاً أو فساداً.

قال القشيري: الإلحاد: هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين: بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا .هـ. قال البيضاوي: أي: اتركوا تسْمية الزائغين فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنىً فاسداً، كقولهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، أو لا تبالُوا بإنكارهم ما سمى به نفسه، كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو: وذروهم والحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام، واشتقاقها منه؛ كاللات من الله، والعزى من العزيز، فلا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم. هـ.

(١) أخرج حديث الأسماء الحسنى الترمذى فى (الدعوات باب ٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) أخرجه البخارى فى (الدعوات ـ باب لله مائة اسم غير واحد) ومسلم فى (الذكر والدعاء ـ باب فى أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها) ـ من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً.

قال ابن جزي: قيل: معنى (ذروا): اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم، فالآية، على هذا، منسوخة بالقتال، وقيل: معنى (ذروا) للوعيد والتهديد، كقوله: ﴿ذرني والمكذبين﴾ (١)، وهو الأظهر. هـ. قلت: وهو أليق بقوله بعده: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ من الإلحاد وغيره.

الإشارة: قال القشيري بعد كلام: ويقال إن الله سبحانه وقف الخلْق بأسمائه، فهم يذكرونها قالةً، وتعزّز بذاته، والعقول - وإنْ صفَتْ - لا تهجم على حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك لا يجوز على الحق، فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك، وطلبه في أحوال الرؤية. والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي متفرّد .هـ.

قلت: وأسماء الله الحسنى كلها تتجلى في مظاهر الإنسان، وتتوارد عليه انفراداً واجتماعاً، وقد تجتمع في واحد، إذا كان عارفًا، كلها، بحيث يتخلق بها، غير أن تجلياتها تختلف عليه، تارة ملكاً قدوساً، وتارة رحمانياً رحيما، وهكذا. وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها، في شرحنا: الفاتحة الكبير، والله تعالى أعلم.

ولمَّا ذكر فيما تقدم خواص قوم سيدنا موسى، ذكر هنا خواص هذه الأمة المحمدية، فقال:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وممن خلقنا﴾ أي: ومن جملة ما خلقنا: ﴿أمة﴾: طائفة ﴿يهدون﴾ الناس ﴿بالحق﴾ ويحملونهم عليه، ﴿وبه يعدلون﴾ في حكوماتهم وقضاياهم. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى»(٢).

قال البيضاوي: ذكر ذلك بعدما ماَبيّن أنه خلق للنار طائفة ضالين، ملحدين عن الحق، للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق، عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة؛ لقوله ﷺ: «لاتَزَالُ مِنْ أمّتي طَائِفَةٌ على الحَقّ، إلى أنْ يأتيَ أمْرُ اللّهِ»(٣) إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة، فإنه معلوم. هـ.

الإشارة: هذه الأمة التي خلقها الله لهداية خلقه، وهي الطائفة التي لاتزال على الحق، وهي مؤلفة من العلماء الأتقياء على اختلاف أصنافهم وعلومهم، ومن الأولياء العارفين، فالعلماء يهدون إلى التمسك بالشرائع وإتقانها، والأولياء العارفون يهدون إلى التحقق بالحقائق وأذواقها، فالعلماء داعون إلى أحكام الله، والعارفون داعون إلى

---

(١) الآية ١١ من سورة المزمل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير (١٣٥/٩).

(٣) أخرجه البخاري في (الاعتصام - باب قول النبي: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق) ومسلم في (الإمارة - باب قول النبي ﷺ: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق) من حديث المغيرة.

معرفة ذات الله، العلماء لإصلاح الظواهر، والأولياء لإصلاح البواطن، ولا يقوم هذا إلا بهذا ، فالظاهر من غير باطن فسق، والباطن من غير ظاهر إلحاد، وسيأتي عند قوله: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة ... ﴾[1] الآية، تمثيل منزلتهم عند الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

قلت: أصل الاستدراج: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومعناه: نسوقهم إلى الهلاك شيئاً فشيئا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾، وألحدوا في أسمائنا، ﴿ سنستدرجهم ﴾ أي: ندرجهم إلى الهلاك شيئاً فشيئا، ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ ما نريد بهم، وذلك أنْ تتواتر النعم عليهم، فيظنوا أنها لطفٌ من الله بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكًا في الغي، حتى تحق عليهم كلمة العذاب. ﴿ وأملي لهم ﴾ أي: وأمهلهم، أي: وأمدهم بالأموال والبنين والعُدة والعَدد، حتى تأخذهم بغتة، ﴿ إنَّ كيدي متين ﴾ أي: أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

الإشارة: قال الشيخ زروق رضي الله عنه: الاستدراج: هو كُمون المحنة في عين المنة، وهو من درج الصبي؛ إذا أخذ في المشي شيئًا بعد شيء، ومنه: الدرج الذي يرتقى عليه إلى العلو، كذلك المستدرج هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شيء وهو لا يشعر. قال تعالى: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ .هـ. فالاستدراج ليس خاصًا بالكفار، بل يكون في المؤمنين؛ خواصهم وعوامهم.

قال في الحكم: «خف مَن وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجاً لك؛ ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾» . وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم: أُخذوا.

وقال ابن عطاء رضي الله عنه: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: الخوف من الاستدراج بالنعم من صفة المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفة الكافرين. يقال: من أمارات الاستدراج: ركوب السيئة والاغترار بزمن المُهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفي. قال تعالى: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أي: لا يشعرون بذلك،

(١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

وهو أن يلقي في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، يستدرجهم في ذلك شيئاً فشيئاً، حتى يأخذهم بغتة، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ماذُكروا به﴾؛ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم، بعدما رأوا من الشدة، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي: فتحنا عليهم أسباب العوافي وأبواب الرفاهية، ﴿حتى إذا فرحوا بما أُوتوا﴾من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا، ﴿أخذناهم بغتة﴾ أي: فجأة،﴿فإذا هم مبلسون﴾[١]؛ آيسون قانطون من الرحمة.هـ.

ثم ندبهم إلى التفكر، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾

قلت: (وما خلق) :عطف على (ملكوت)، و(أن عسى): مخففة، و(أن يكون): مصدرية، أو عطف على (ملكوت) أيضاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أو لم يتفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ؛ حتى يتحققوا أنه ﴿ما بصاحبهم من جِنَّة﴾؛ يعني: نبينا محمداً ﷺ. رُوي أنه ﷺ لما أُمر بالإنذار صعد الصّفا، فدعاهم، فَخِذاً فخذاً، يحذرهم بأس الله تعالى، فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، بات يُصوِّت إلى الصباح، فنزلت[٢].

﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: بيّن الإنذار واضح أمره، لا يخفى على ناظر. ﴿أو لم ينظروا﴾[*] نظر استدلال ﴿في ملكوت السماوات والأرض﴾ أي: في عظمتهما وما اشتملتا عليه من العجائب، ﴿وما خَلَق الله من شيء﴾ أي: وينظروا فيما خلق الله من شيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، لتدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها، وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها، ليظهر لهم صحة مايدعوهم إليه.

﴿وأنْ عسى أن يكون قد اقترب أجلُهم﴾ أي: أو لمْ ينظروا أيضا في اقتراب أجلهم وتوقع حلول الموت بهم، فيسارعوا إلى طلب الحق، والتوجه إلى ما ينجيهم من عذابه، قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب. ﴿فبأي حديث بعده﴾ أي: بعد القرآن، ﴿يؤمنون﴾ إن لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان؟ كأنه إخبار عنهم بالطبع

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير، (٩/١٣٦) بإسناد صحيح إلى قتادة.
(*) إلى هنا ينتهي السقط الموجود في المخطوطة الأصلية.

على القلوب والتصميم على الكفر، بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر، وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلُهم ﴾، كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لايُبادرون بالإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به؟!.. قاله البيضاوى.

ثم بيّن أن أمرهم بيده، فقال:﴿ ومن يُضلل اللهُ فلا هاديَ له ﴾ أصلاً، ولايقدر أحد عليه، ﴿ ونذرهم[1] في طُغيانهم يعمهون ﴾ : يتحيرون. ومن قرأ بالياء فمناسب لقوله: (من يضلل)، ومن جزمه فعطف على محل: (فلا هادى له)؛ لأنه جواب الشرط.

الإشارة: قد أرشد الحق -تعالى- عباده إلى التفكر والاعتبار، وقد تقدم الكلام عليه في «آل عمران»[1]، وقد علّم هنا أهل الاستدلال كيفيته؛ وهو أن ينظر الإنسان في أمر الرسول ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات وخوارق العادات، وأعظمها القرآن العظيم، ثم ما أتى به من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وما نطق به من الحكم العجيبة، وما أخبر به من قصص الأمم الدارسة والشرائع المتقدمة، مع كونه أمياً لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجالس أحداً ممن له خبرة بذلك، فتطلع عليه شمس المعرفة به حتى لا يخالطه وهمٌ، ولا يخطر بساحته خاطر سوء، ثم يتفكر فى عجائب ملكوت السموات والأرض، وما اشتملتا عليه من ضروب المصنوعات، وعجائب المخلوقات، فيتحقق بوجود الصانع القادر على كل شيء، هذا إن لم يجد شيخاً يُخرجه من سجن الدليل، وإن وجده استغنى عن هذا بإشراق شمس العرفان، والخروج إلى فضاء الشهود والعيان.

ثم ذكر أمر الساعة، التي خوّفهم بها بقوله: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾، فقال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

قلت: إنما سميت القيامة ساعة: لسرعة حسابها، أو وقوعها، لقوله: ﴿ وما أمرُ الساعةِ إلا كلمحِ البصرِ أو هو أقربُ ﴾[3].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (نذرهم) بنون العظمة ورفع الراء على الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء على الغيبة ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء عطفا على محل قوله تعالى ﴿فلا هادى له﴾ راجع الإتحاف (٢/٧٠).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يسألونك﴾ أي: قريش، ﴿عن الساعة﴾ أي: قيام الناس من قبورهم للحساب، ﴿أيّان مُرْسَاها﴾ أي: متى إرساؤها، أي: ثبوتها ووقوعها؟ ﴿قلْ إنما علمها عند ربي﴾؛ استأثر بعلمها، لم يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ﴿لا يُجلّيها لوقتها﴾ أي: لا يُظهرها عند وقت وقوعها، ﴿إلا هو﴾، والمعنى أن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها، ﴿ثَقُلَتْ في السموات والأرض﴾؛ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. أو ثقّلَتْ على السموات والأرض أنفسهما؛ لتبدلهما وتغيرحالهما، ﴿لا تأتيكم إلا بغتةً﴾: فجأة على غفلة، كما قال ﷺ: «إنَّ الساعةَ تَهِيجُ بالنَّاسِ، والرَّجُلُ يُصلِحُ حَوْضَهُ، والرَّجُلُ يَسقِي مَاشِيَتَهُ، والرَّجلُ يُقَوِّمُ سِلْعَته في سُوقِه، والرَّجُل يَخْفِضُ مِيزَانَهُ ويرفعه»[1]. والمراد: النفخ في الصور للصعق، لأن الساعة مُرَتّبَة عليه وقريبة منه.

﴿يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها﴾ أي: عالم بها، من حفي على الشيء: إذا سأل عنه، فإنَّ من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه، استحكم علمه فيه، أي: يسألونك عن وقت قيامها، كأنك بليغ في السؤال عنها فعلمتها، وليس كما يزعمون، وأما قوله: ﴿فِيمَ أنت من ذِكْراها﴾[2]: فقيل: معناه: التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال، أي: في أي شغل أنت من ذكراها والسؤال عنها؟ ولا يعارض ما هنا؛ لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية، وبعدها نزلت هذه، والله أعلم.

وقيل: «عنها»: يتعلق بـ(يسألونك)، أي: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، أي: شفيق بهم، قيل: إن قريشاً قالوا: إنَّ بيننا وبينك قرابة، فقل لنا: متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى: ﴿قل إنما علمها عند الله﴾؛ لا يعلمها غيره، وكرره؛ لتكرر «يسألونك». ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

الإشارة: إذا أشرق نور اليقين في القلب صارت الأمور المستقبلة حاصلة، والغائبة حاضرة، والآجلة عاجلة، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتيا، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، وجازوا الصراط بسلوكهم المنهاج المستقيم، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف، فالموت في حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحِكم: «لو أشرق لك نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفنّاء عليها».

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير في التفسير، (٩/١٠٤) من حديث قتادة، وفي البخاري، عن أبي هريرة رفعه: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه». أخرجه البخاري في (الرقاق ـ باب ٤) وبنحوه مسلم في (الفتن ـ باب قرب الساعة).

(٢) الآية ٤٣ من سورة النازعات.

قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه، فيحق به الحق، ويبطل به الباطل، والآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها، فحق بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه، قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها، حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافى عن زهرتها، والإقبال على الآخرة، والتهيوء لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور. كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنَّ النورَ إذا دَخَلَ القلبَ انشرحَ له الصَّدْرُ وانفَسَح، قِيلَ يارَسُولَ اللَّه: هَلْ لذلكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بِها ؟ قال: نَعَمْ. التَّجافى عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والإنَابَةُ إلى دَارِ الخُلودِ، والاستعْدَادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِه»(١). أو كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعي نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهي، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل، وفوات صالح العمل، وإلى هذا الإشارة بحديثى حارثة ومعاذ -رضى الله عنهما-. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يمشى إذ استقبله شابٌ من الأنصار، فقال له النبى ﷺ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارثةُ؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقّاً، قال: انظرْ ما تقول، فإن لكلِّ قَوْلٍ حقيقة؟ فقال: يا رسولَ اللَّه عَزَفَتْ نَفْسِي عن الدنيا فأسْهَرْتُ لَيْلى وأظْمَأْتُ نهاري، وكأني بعَرْشِ ربى بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهْلِ الجنّةِ يتَزَاوَرُون فيها، وكأنى أنظرُ إلى أهْلِ النار يتعاوون فيها، فقال: أبْصَرْتَ فالْزَمْ، عبْدٌ نور اللّهُ الإيمانَ فى قلْبه..» إلى آخر الحديث(٢).

وروى أنس رضي الله عنه أيضاً: أن معاذ بن جبل دخل على النبى ﷺ وهو يبكى، فقال له: كيف أصبحتَ يا معاذ؟ فقال: أصبحتُ بالله مؤمناً، قال النبي ﷺ: «إنَّ لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟» فقال: يانبيَّ الله، ما أصبحتُ صباحاً قط إلا ظننتُ أني لا أُمسى، ولا أمْسَيْتُ قط إلا ظننت أنى لا أُصْبِح، ولا خَطَوْتُ خطوةً قط إلا ظننتُ أنى لا أُتبِعُها أُخْرَى، وكأنى أنظرُ إلى كل أمةٍ جاثية تُدْعَى إلى كتابها، معها نبيُها وأوْثَانُها التى كانت تعبدُ من دون الله، وكأنى أنظرُ إلى عُقُوبَةِ أهْلِ النّارِ وثوابِ أهْلِ الجنة. قال رسول الله ﷺ: «عرفْتَ فالْزَمْ». انظر بقية كلامه رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٧/٣٦٢).

(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة الأنعام.

ثم أمر نبيه ﷺ بالاعتراف بالتقصير عن علم الغيب، الذي اختص الله به؛ كعلم الساعة وغيرها، فقال:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

قلت: «وما مسني السوء»: عطف على «استكثرتُ»، أي: لو علمتُ الغيب لاستكثرتُ الخير واحترست من السوء، أو لستئناف، فيوقف على ما قبله، ويراد حينئذ بالسوء: الجنون، والأول أحسن؛ لاتصاله بما قبله، و(لقوم): يجوز أن يتعلق ببشير ونذير، أي: أُبشر المؤمنين وأُنذرهم، وخصهم بالبشارة والنذارة لانتفاعهم بهما، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها، فيُوقف على (نذير)، ويكون المتعلق بنذير محذوف، أي: نذير للكافرين، والأول أحسن. قاله ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: أنا ﴿ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ﴾ أي: لا أجلب لها نفعاً ولا أدفع عنها ضرراً، ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ من ذلك، فيعلمني به، ويوفقني عليه، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب، ﴿ ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسني السوء ﴾ أي: لو كنت أعلم ما يستقبلني من الأمور المغيبة؛ كشدائد الزمان وأهواله، لاستعددت له قبل نزوله باستكثار الخير والاحتراس من الشر، حتى لايمسني سوء، ﴿ إن أنا إلا نذير وبشير ﴾ أي: ما أنا إلا عبد مرسل بالإنذار والبشارة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾؛ فإنهم المنتفعون بهما، أو نذير لمن خالفني بالعذاب الأليم، وبشير لمن تبعني بالنعيم المقيم.

الإشارة: العبودية محل الجهل وسائر النقائص، والربوبية محل العلم وسائر الكمالات، فمن آداب العبد أن يعرف قدره، ولا يتعدى طوره، فإن ورد عليه شيء من الكمالات فهو وارد من الله عليه، وإن ورد عليه شيء من النقائص فهو أصله ومحله، فلا يستوحش منه، وكان شيخنا يقول: إن علمنا فمن ربنا، وإن جهلنا فمن أصلنا وفصلنا. أو كلام هذا معناه، فالاستشراف إلى الاطلاع على علم الغيوب من أكبر الفضول، وموجب للمقت من علام الغيوب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أصل النشأة، ليدل على نقص العبد وجهله، فقال:

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة﴾، آدم عليه السلام، ﴿وجعل منها زوجها﴾ أى: خلق من ضلعها زوجها حواء، سلها منه وهو نائم، ﴿ليسكُنَ إليها﴾: ليستأنس بها، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه.

﴿فلما تغشاها﴾ أى: جامعها حين رُكبت فيه الشهوة، ﴿حملتْ حملاً خفيفاً﴾ أى: خف عليها، ولم تلق منه ما تلقى بعضُ الحبالي من حملهن من الأذى والكرب، أو حملاً خَفيفاً، يعني النطفة قبل تصورها، ﴿فمرتْ به﴾ أى: ذهبت وجاءت به، مخففة، واستمرت إلى حين ميلاده، ﴿فلما أثْقلتْ﴾ أى: ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره فى بطنها، ﴿دَعَوا الله ربهما﴾ آدم وحواء، قائلين: ﴿لئن آتيتنا﴾ ولداً ﴿صالحا﴾ أى: سويا سالماً فى بدنه، تام الخلقة، ﴿لنكونن﴾ لك ﴿من الشاكرين﴾ على هذه النعمة المجددة.

﴿فلما آتاهما﴾ ولداً ﴿صالحا﴾ كما سألا، جعل أولادُهما ﴿له شركاءَ فيما آتاهما﴾، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب فى أحوال بنى آدم ممن كفر منهم وأشرك، ولا يصح فى آدم وحواء هذا الشرك؛ لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح. وقد يُعاتبُ الملكُ الأبَ على ما فعل أولادُه، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له: أولادك فعلوا وفعلوا، على عادة الملوك.

وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليسُ فى صورة الرجل، فقال لها: وما يدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب، وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك، ثم قال لها: إن أطعتينى، وسميته عبد الحارث، فسأخلصه لكِ، وكان اسم ابليس فى الملائكة: الحارث، وإن عصيتنى قتلته، فأخبرتْ بذلك آدم، فقال لها: إنه عدونا الذى أخرجنا من الجنة، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة أخرى، فقال لها إبليس مثل ذلك، فعصته، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة ثالثة، فسمياه عبد الحارث؛ طمعًا فى حياته[1]، فقوله: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أى: فى التسمية لا غير، لا فى عبادة غير الله.

والقول الأول أصح، لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقتضى براءة آدم وحواء من الشرك، قليله وكثيره، وذلك هو حال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ. والثاني: أنَّ جمع الضمير فى قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، يقتضى أن الشرك وقع من أولادهما، لا منهما. الثالث: أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح، وهو غير موجود. انظر: ابن جزى.

الإشارة: قال الورتجبى: فى قوله ﴿ليسكن إليها﴾: لم يجد آدم عليه السلام فى الجنة إلاسنا تجلى الحق، فكاد أن يضمحل بنور التجلي، لتراكمه عليه، فعلم الله ـ سبحانه ـ أنه لا يتحمل أثقال التجلى، وعرف أنه يذوب فى نور

---

(١) هذه القصة يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب، وقد أعلَّها أهلُ الحديث، رغم ورودها فى كتب الحديث وغيرها. راجع تفسير: ابن كثير (٢/٢٧٥)، والإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبى شهبة (١٧٩). والآية تتحدث عن (نمط) فى السلوك البشرى، وترسم نموذجاً لأى زوجين بشريين يريدان الإنجاب من الله ـ بإلحاح، وعندما يعطيهما الله تعالى ما سألاه، ينسبان ذلك لغير الله تعالى.

حسنه، وكل ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها، ويستوحش بها سُوَيْعات من سطوات التجلي، ولذلك قال ﷺ لعائشة –رضي الله عنها–: «كلميني ياحُميراء». ثم قال: وقال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة، بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة .هـ. فكل من سكن إلى غير الله تعالى كان سكونه بلاء في حقه، يخرجه من جنة معارفه. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ على من أشرك من بني آدم، فقال:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أيُشرِكون﴾ مع الله أصناماً جامدة، لا يخلقون شيئاً ﴿وهم يُخلَقون﴾، فهي مخلوقة غير خالقة. والله تعالى خالق غير مخلوق، ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي: لا يقدرون أن ينصروا من عبدهم، ﴿ولا أنفسَهم ينصرون﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها، فهي في غاية العجز والذلة، فكيف تكون آلهة؟

﴿وإن تدعوهم إلى الهُدى لا يتبعوكم﴾ أي: وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم، فلا تهتدي إلى مادعيت إليه؛ لأنها جمادات، أو: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم، ﴿سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ عن دعائهم، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء، وإنما لم يقل: أم صمتم؛ ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم؛ لأن الجملة الإسمية تقتضي الاستمرار.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، هم ﴿عبادٌ أمثالُكم﴾ من حيث إنها مسخرة مملوكة، فكيف يعبد العبد مع ربه، ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ في أنها تستحق أن تُعبد، والأمر للتعجيز؛ لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد

ثم عاد عليهم بالنقض فقال: ﴿ألهُمْ أرجلٌ يمشون بها أمْ لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعينٌ يبصرون بها أمْ لهم آذانٌ يسمعون بها﴾، ومعناه: أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة، ومن كان كذلك لا يكون

إلهاً، فإنّ من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة. وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام؛ لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تُسمع، فلزمتهم الحجة، والهمزة في قوله: ﴿ ألهم ﴾ : للاستفهام مع التوبيخ، و(أم)، في المواضع الثلاثة: تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل، وليست عاطفة. قاله ابن جزى. ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾؛ استعينوا بهم في عداوتي، ﴿ ثم كِيدُون فلا تُنظِرُون ﴾ أي: لاتؤخرون، فإنكم وأصنامكم لا تقدرون على مضرتى وكيدى، ومفهوم الآية: الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة.

الإشارة: كل ما سوى الله قد عمه العجز والتقصير، فليس بيده نفع ولاضر، وفى الحديث: «لو اجْتَمَعَ الإنْسُ والجنُ على أنْ ينفعُوكَ بشَيْء لمْ يَنْفَعُوكَ إلاّ بشَيْءٍ قدْ كَتَبَه اللّهُ لك، ولو اجْتَمعُوا على أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لمْ يَضُرُّوكَ إلاّ بِشَيْءٍ قَدَّرَهُ اللهُ عليكَ». أو كما قال ﷺ، فالخلق كلهم فى قبضة القهر، مصروفون بقدرة الواحد القهار، ليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يبطشون بها، ولا أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، وإنما هم مجبورون في قوالب المختارين، فلا تركن إليهم أيها العبد فى شيء، إذ ليس بيدهم شيء، ولا تخف منهم فى شيء، إذ لا يقدرون على شيء . قال ابن جزى: وفيها ـ أي: في الآية ـ إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء.

ثم أفصح بذلك، فقال:

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: قل لهم أيضًا يا محمد: ﴿ إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ ﴾ أي: هو ناصري وحافظي منكم، فلا تضرونني ولو حرصتم أنتم وآلهتكم، ﴿ الذى نزَّل الكتاب ﴾ أي: القرآن، ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ أى: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه، فلا أخافكم بعد أن تولى حفظي منكم.

الإشارة: قال القشيري: مَنْ قام بحقّ الله تولّي أمورَه على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولايَدَعُ شيئاً من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحُسْنِ إفضاله، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبد راضياً بما يفعله، فرَوْحُ الرضا على الأسرار أتمّ من راحة العطاء على القلوب . هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في إتمام الرد على المشركين: ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي: تعبدونها من دونه، ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾، فلا تُبال بهم أيها الرسول، ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾، يحتمل أن يريد الأصنام، فيكون تحقيراً لها، ورداً على من عبدها؛ فإنها جماد موات لا تسمع شيئاً، أو يريد الكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون، يعني: سمعاً ينتفعون به، لإفراط نفورهم، أو لأن الله طبع على قلوبهم، ﴿ وتراهم ﴾ أي: الأصنام، ﴿ ينظرون إليك وهم لا يُبصرون ﴾؛ لأنهم مصورون بصورة من ينظر، فقوله: ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾: مجاز، ﴿ وهم لا يُبصرون ﴾ حقيقةً، لأن لهم صورة الأعين، وهم لا يرون بها شيئاً، هذا إن جعلناه وصفاً للأصنام، وإن كان وصفاً للكفار فقوله: ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ حقيقة، ﴿ وهم لا يُبصرون ﴾ مجاز، لأن الإبصار وقع منهم في الحس، لكن لمَّا لم ينفعهم؛ لعمى قلوبهم، نفاه عنهم كأنه لم يكن.

قال المحشي: شاهدوا بأبصار رؤوسهم، لكنهم حجبوا عن الرؤية ببصائر أسرارهم وقلوبهم، فلم يعتد برؤيتهم.هـ.

الإشارة: في الآية تحويش للعبد إلى الاعتماد على الله واستنصاره به في جميع أموره، فلا يركن إلى شيء سواه، ولا يخاف إلا من مولاه، إذ لا شيء مع الله.

وقوله تعالى: ﴿ وتراهم ينظرون إليك... ﴾ الآية. قال المحشي: يقال: رُؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن لِما يحصل للقلوب من مكاشفة الغيوب، وذلك على مقدار الاحترام وحضور الإيمان.هـ. يعني: أن النظر إلى الأكابر، من العارفين بالله، ليست مقصودة لرؤية أشخاصهم، وإنما هي مقصودة لفيضان أمدادهم، وذلك على قدر التعظيم والاحترام، وصدق المحبة والاحتشام، فكل واحد من الناظرين إليهم يغرف على قدر محبته وتعظيمه. رُوِي أن بعض الملوك زار قبر أبي يزيد البسطامي، فقال: هل هنا أحد ممن أدرك الشيخ أبا يزيد البسطامي؟ فأتي بشيخ كبير، فقال: أنا أدركته، فقال: ما سمعتَه يقول؟ فقال: سمعتُه يقول: (من رآني لا تأكله النار). فقال الملك: هذا لم يكن للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فقد رآه كثير من الكفار فدخلوا النار، فكيف يكون لغيره؟ فقال له الشيخ: يا هذا، الكفار لم يروه ﷺ على أنه رسول الله، وإنما رأوه على أنه محمد بن عبد الله، فسكت. والله تعالى أعلم.

ثم أمر نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، فقال:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿خُذ العفوَ﴾ أي: اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها، أو: خذ من الناس، في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم، ما سهل وتيسر مما لا يشق عليهم؛ لئلا ينفروا. فهو كقول الشاعر:

خُذِ العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمي مَوَدَّتي(١) ....

أو: خذ في الصدقات ما سهل على الناس من أموالهم وهو الوسط، ولا تأخذ كرائم أموالهم مما يشق عليهم، أو تمسك بالعفو عمن ظلمك ولا تُعاقبه، وهذا أوفق لتفسير جبريل الآتي، ﴿وأمر بالعُرْفِ﴾ أي: المعروف، وهو أفعال الخير، أو العرف الجاري بين الناس. واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعرف الذي يجري بين الناس. ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي: لا تكافئ السفهاء على قولهم أو فعلهم، واحلم عليهم. ولمَّا نَزَلَتْ سأل رسولُ الله ﷺ جبريلَ عنها، فقال: «لا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ، فعرج، ثم رجع فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللَّه يأمُركَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»(٢). وعن جعفر الصادق: (أمر الله نبيه ﷺ فيها بمكارم الأخلاق)، وهي على هذا ثابتة الحكم، وهو الصحيح. وقيل: كانت مداراة للكفار، ثم نسخت بالقتال.

﴿وإمّا ينزَغنّك من الشيطان نَزْغٌ﴾، ينخسنك منه نخس، أي: وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به؛ كاعتراء غضب، ومقابلة سفيه، ﴿فاستعذْ بالله﴾ والتجئ إليه؛ ﴿إنه سميعٌ عليمٌ﴾ يسمع استعاذتك، ويعلم ما فيه صلاح أمرك، فالاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة، وفي الحديث: أن رجلا اشتد غضبه، فقال ﷺ: «إنِّي لأَعْلَمُ كلمة لو قالَهَا لذَهَبَ عنهُ ما به؛ أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيم»(٣).

الإشارة: كل ما أمر به الرسول ﷺ تُؤمر به أمته، وخصوصًا ورثته من الصوفية، فهم مطالبون بالتخلق بأخلاقه ﷺ أكثر من غيرهم، لأن غيرهم لم يبلغ درجتهم. وقال الورتجبي: ﴿خذ العفو﴾: أي: فاعف عنهم من قلة عرفانهم حقك، ﴿وأمر بالعرف﴾ أي: تلطف عليهم في أمرك ونهيك لهم، فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك، ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ الذين ليس لهم استمداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإنَّ منكر معجزات أنبيائي وكرامات أوليائي لا يبلغ إلى درجة القوم. قال بعض المشايخ –حين ذكر أهل الظاهر–: دع هؤلاء الثقلاء. هـ. فوصف علماء الظاهر بالثقلاء؛ لثقل ظهورهم بعلم الرسوم، فلم ينهضوا إلى حقائق العلوم ودقائق الفهوم، وفي تائية ابن الفارض:

---

(١) هذا شطر بيت تمامه: (ولا تنطقي في سَوْرَتي حين أغضبُ) وهو لحاتم، راجع: تفسير أبي حيان (٤/٤٤٤).
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٩/١٥٥) عن سفيان بن عيينه عن أبي المرادي، وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: (هذا منقطع، وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر وحديث قيس بن سعد). انظر تفسير البغوي (٣/٣١٦) مع حاشية المحقق.
(٣) أخرجه بنحوه البخاري في (بدء الخلق – باب صفة إبليس وجنوده) ومسلم في (البر – باب فضل من يملك نفسه عند الغضب) من حديث سليمان بن صرد.

وجُزْ مُثقلاً لو خَفَّ طَفَّ مُوكَّلاً بمنْقُولِ أحْكَامٍ ومعْقُولِ حِكْمَة

قال شارحه: أمره بالمجاوزة عن المثقلين بأثقال العلوم الظاهرة، من الفقهاء، والمتكلمين بأحكام المنقولات، والفلاسفة الموكلين بالمعقولات والحكمة، ووصف مُثقلا بأنه: لو خف طفا، أي: لأنه لو كان خفيفاً بوضع الأثقال عنه كان طفيفا، لا يرى لنفسه قدراً، واللازم منتف فالملزوم مثله.هـ.

ثم إن البشر لابد أن تعتريه أحكام البشرية، كالغضب وشبهه، كما بيَّنه الحق تعالى بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

قلت: الطيف - بسكون الياء -: مصدر طاف به الخيال يطيف طيفاً، أو مخفف؛ من طيِّف؛ كهين ولين وميت. ومن قرأ (طائف): فاسم فاعل، والمراد به: لَمَّةُ الشيطان ووسوسته. وحذف مفعول (تذكروا)؛ للعموم على ما يأتي في المعنى. وقوله: (فإذا هم مبصرون): أتى بإذا الفجائية؛ ليقتضي سرعة تيقظهم، وبالجملة الإسمية ولم يقل: تذكروا فأبصروا؛ ليفيد أنهم كانوا على البصري، وإنما السِّنَة طرقتهم ثم رجعوا عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين اتَّقوا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿إذا مسَّهُم طائفٌ من الشيطان﴾ أي: لَمَّةٌ منه، كما في الحديث: «إنَّ للشَّيطَانِ لَمَّةً وللملَكِ لَمَةَ...»[1] إلخ، فإذا أخذتهم تلك السنة وغفلوا ﴿تذكَّروا﴾ عقابَ الله وغضبه، أو ثواب الله وإنعامه، أو مراقبته والحياء منه، أو منته وإحسانه، أو طرده وإبعاده، أو حجبه وإهماله، أو عدواة الشيطان وإغواءه، كلٌّ على قدر مقامه، فلما تذكروا ذلك ﴿فإذا هم مبصرون﴾ بسبب ذلك التذكر، أي: فإذا هم على بصيرة من ربهم التي كانوا عليها قبل المس، أو: فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين في الغفلة، كما قال تعالى: ﴿وإخوانهم يَمدُّونهم في الغَي﴾ أي: وإخوان الشياطين، الذين لم يتقوا، يمدونهم، أي: ينصرونهم، ويكونون مدداً لهم في الضلال والغي؛ بالتزيين والحمل عليه، ﴿ثم لا يُقصرون﴾؛ لا يُمسكون عن إغوائهم حتى يُوردوهم النار، أو: لا يقصر الكفار عن غيهم وضلالهم حتى يهلكوا.

الإشارة: البصيرة حارسة للقلب، الذي هو بيت الرب، فإذا نامت طرقها الشيطان، فإن كان نومها خفيفاً أحسّت به وطردته، وهذه بصيرة المتقين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾، وإذا كان نومها ثقيلاً سرق الشيطان ما فيها، ولم تفطن به، وهذه بصيرة الغافلين، الذين هم إخوان الشياطين.

---

(١) أخرجه الترمذي في (تفسير سورة البقرة، آية: ﴿الشيطان يعدكم الفقر...﴾.) من حديث عبدالله بن مسعود. والمراد باللَّمَّة: النزول والقرب، والمراد بها: ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك. فأما كان من خطرات الخير فهو من الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. راجع: النهاية (لمم ٤/٢٧٣).

قال القشيري: إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسّهم طائف الشيطان، فإن الشيطانَ لا يَقْرَبُ قلباً في حال شهوده الله؛ لأنه يخنس عند ذلك، ولكل عازمٍ فترة، ولكلّ عالمٍ هفوة، ولكل عابد شدة، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقفة، ولكل عارفٍ حجبة. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الحِدَّةُ تعتري خيار أمتي»(١). فأخبر بأن خيار الأمة، وإن جلت رتبتهم، لا يتخلصون عن حدة تعتريهم في بعض أحوالهم، فتخرجهم عن دوام الحلم. هـ. وكأنه يشير إلى أن طائف الشيطان يمس الواصلين والسائرين، وهو كذلك بدليل أول الآية في قوله: ﴿ وإما ينزغنك... ﴾ الآية، ومسه للسائر أو الواصل زيادة به، وترقية له، وتحويش له إلى ربه، والله تعالى أعلم.

ثم ردَّ الله على من طلب الآيات، فقال:

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا لم تأتهم ﴾ أي: الكفار، ﴿ بآية ﴾؛ بمعجزة مما اقترحوا، أو من القرآن حين يتأخر الوحي، ﴿ قالوا لولا ﴾؛ هلا ﴿ اجتبيتها ﴾ أي: تخيرتها وطلبتها من ربك، أو هلا اخترعتها وتقولتها من نفسك كسائر ما تقرأ ؟ ﴿ قل إنما أتبع ما يُوحى إليَّ من ربي ﴾ فلا أطلب منه آية، ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٢)، أو: لا أخترع القرآن من عند نفسي، بل أتبع ما يُوحى إليَّ من ربي.

﴿ هذا ﴾ القرآن ﴿ بصائرُ ﴾ للقلوب ﴿ من ربكم ﴾، أي: من عند ربكم، بها تُبصر الحق وتُدرك الصواب، ﴿ وهُدىً ورحمةٌ لقوم يؤمنون ﴾؛ وإرشاد أو طمأنينة لقلوب المؤمنين.

الإشارة : قد تقدم مراراً ما في طلب الآيات من ضعف اليقين، وعدم الصدق بطريق المقربين، وإنما على الأولياء أن يقولوا: ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ بطريق المخصوصين. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالإنصات للقرآن، الذي هو أعظم الآيات، فقال:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا قُرئ القرآنُ ﴾، مطلقاً، ﴿ فاستمعوا له وأنصتُوا ﴾؛ لكي تعتبروا وتتدبروا، فإنما نزل لذلك، وهل على الوجوب أو الاستحباب ـ وهو الراجح؟ قولان، وقيل: الاستماع المأمور به

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٤/١١) عن ابن عباس رضي الله عنه، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير(ح٣٨٠٨).
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

لقراءة الإمام في الصلاة، وقيل: في الخطبة، والأول الراجح، لوجهين: أحدهما: عموم اللفظ، ولادليل على تخصيصه، والثاني: أن الآية مكيّة، والخطبة إنما شُرعت بالمدينة. وقوله تعالى: ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾ أي: بسبب ما تكتسبه القلوب من الرقة والخشية عند استماع القرآن، قال بعضهم: الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن؛ لهذه الآية. قاله ابن جزي.

الإشارة: الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب، لاسيما لمن سمعه بلا واسطة، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم، وكل واحد ينال من لذه شهود المتكلم على قدر رفع الحجاب عن المستمع، والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالذكر القلبي، فقال:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ﷺ ولمن تبعه: ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ أي: في قلبك؛ بحركة لسان القلب، أو في نفسك؛ سراً بحركة لسان الحس، ﴿ تضرُّعاً وخِيفَةً ﴾ أي: متضرعًا وخائفا، ﴿ ودونَ الجهر من القول ﴾ أي: متكلمًا كلاماً فوق السر ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، ولا حجة فيه لمن منع الذكر جهراً؛ لأن الآية مكية حين كان الكفر غالبًا، فكانوا يسبون الذاكر والمذكور، ولما هاجر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة، جهر الصحابةُ بالتكبير والذكر. فالآية منسوخة. انظر: الحاوي في الفتاوي للإمام السيوطي. فقد أجاب عن الآية بأجوبة.

فقوله: ﴿ بالغُدوِّ والآصال ﴾ أي: في الصباح والعشي، حين تتيقظ من نومك الشبيه بالبعث، وحين تريد النوم الشبيه بالموت، وقيل: المراد صلاةَ العصر والصبح، وقيل: صلاة المسلمين، قبل فرض الخمس، وقيل: للاستغراق، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما محل الاشتغال، فأولى غيرهما. ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكر الله.

﴿ إن الذين عند ربك ﴾؛ يعني ملائكة الملأ الأعلى، ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويُسبحونه ﴾، يُنزهونه عما لا يليق به، ﴿ وله يسجدون ﴾ أي: يخصونه بالعبادة والتذلل، لا يشركون به غيره، وهو تعريض بالكفار،

وتحريض للمؤمنين على التشبه بالملأ الأعلى، ولذلك شرع السجود عند قراءتها. وعن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ، فسَجَدَ، اعتزَلَ الشيطانُ يبْكِي، يقولُ: ياويلَهُ؛ أُمِرَ هذا بالسُّجُودِ فسَجَدَ فَلَهُ الجنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فعصَيْتُ فَلِيَ النارُ»(١).

الإشارة: اعلم أن الذكر على خمسة أقسام: ذكر اللسان فقط؛ لعوام المسلمين، وذكر اللسان مع القلب؛ لخواص الصالحين وأول المتوجهين، وذكر القلب فقط؛ للأقوياء من السائرين، وذكر الروح؛ لخواص أهل الفناء من المُوحدين، وذكر السر؛ لأهل الشهود والعيان من المتمكنين ، وفي قطع هذه المقامات يقع السير للسائرين، فيترقى من مقام، إلى مقام، حتى يبلغ إلى ذكر السر، فيكون ذكر اللسان في حقه غفلة.

وفي هذا المقام قال الواسطي رضي الله عنه: الذاكرون في حال ذكره أشد غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره سواه. وفيه أيضا قال الغزالي: ذكر اللسان يُوجب كثرة الذنوب. وقال الشاعر:

مَا إنْ ذَكَرْتُكَ إلاَّ هَمَّ يَلْعَنُنِي ... سِرِّي، وقَلْبِي، ورُوحِي، عِنْدَ ذِكْرَاكَ
حَتَّى كَأنَّ رَقِيباً مِنْكَ يهْتِفُ بِي: ... إيَّاكَ، ويْحَكَ، والتَّذْكَارَ إيَّاكَ
أَمَا تَرَى الحَقَّ قَدْ لاَحَتْ شَوَاهِدُهُ ... ووَاصَلَ الكُلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

وقوله تعالى: ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ ... الآية، قال القشيري: أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية؛ كي لا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خواص عباده، يلقاهم بخصائص عين الجمع، ويحفظ عليهم حقائق عين الفرْق، لئلا يُخِلُّوا بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة. هـ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان ـ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.





مدنية. وآياتها: ست وسبعون آية، نزلت كلها فى غزوة بدر الكبرى، حين اختلف الصحابة - رضى الله عنهم - فى قسمة الغنائم، وهى الأنفال. ووجه المناسبة لما قبلها: تحريض المؤمنين على الطاعة، والانقياد في شأن الغنائم وغيرها حتى يتشبهوا بالملائكة فى سرعة الانقياد والخضوع لله تعالى، فى قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ الآية[1].

قال الحق جل جلاله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يسألونك عن ﴾ قسمة ﴿ الأنفال ﴾ وهى الغنائم، سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله تعالى، وزيادة فضل، كما يسمى ما يشترطه الإمام للشجاع المقتحم خطراً، نفلاً؛ لأنه عطية له زيادة على سهمه، وكما سمي يعقوب عليه السلام نافلة؛ لأنه عطية زائدة على ولد إبراهيم عليه السلام، حيث كان حفيده. ثم أجابهم الحق تعالى فقال: ﴿ قل الأنفالُ لله والرسول ﴾ أى: أمْرها إلى الله ورسوله، يقسمها رسول ﷺ حيث يأمره الله تعالى، وفى الوضع الذى يعينه له.

وسبب نزولها: اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم، هل فى المهاجرين لفقرهم، أو فى الأنصار لنصرهم، أو فيهما معاً. قال ابن جزى: وذلك أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة مع النبى ﷺ فى العريش تحرسه وتؤنسه، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس، ورأت كل فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها، اختلفوا فيما بينهم. فنزلت الآية. هـ.

(١) الآية: ٢٠٦ من سورة الأعراف.

وقيل: شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم، وكان المال قليلاً، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردءاً لكم، وفئة تنحازون إلينا، فلا تختصوا بشيء دوننا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. ولهذا قيل: لا يلزم الإمام الوفاء بما وعد، وهذا قول الشافعي رضي الله عنه.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ قُتل أخي عُمَيْرٌ، وقتلتُ سَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وأخذتُ سَيْفَهُ، وأتيتُ به رسول الله ﷺ، واستوهبته منه، فقال: «لَيْسَ هَذَا لِي، ولكن ضَعْهُ في القَبَضِ(١)»، فطَرَحْتُهُ، وفي قلبي مَالَا يَعْلَمُهُ إلا الله من قَتْلِ أخِي وأخْذِ سَلَبِي، فَمَا جَاوَزْتُها إلاّ قليلاً حتى نزلت سُورَةُ الأنْفَالِ، فقال لي رسول الله ﷺ : «سألْتَنِي السَّيفَ ولَيْسَ لِي، وإنَّهُ قد صَارَ لِي فاذْهَبْ فَخُذْهُ»(٢).

﴿ فاتقوا الله ﴾ في المشاجرة والاختلاف، ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي: أصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والموادة وسلامة الصدور، والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله تعالى ورسوله، ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما يأمركم به ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الاستماع والاتباع، أو إن كنتم كاملي الإيمان؛ فإن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال الثلاث: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

ثم ذكر شروط كمال الإيمان، فقال: ﴿ إنما المؤمنون ﴾ الكاملون في الإيمان: ﴿ الذين إذا ذُكر الله وَجِلتْ قلوبهم ﴾؛ خافت واقشعرت لذكره؛ استعظاماً له وهيبة من جلاله، وقيل: هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له: اتق الله، فينزع عنها خوفًا من عقابه، ﴿ وإذا تُليت عليهم آياته ﴾ القرآنية ﴿ زادتهم إيمانًا ﴾ أي: يقينًا وطمأنينة بتظاهر الأدلة التي اشتملت عليها، أو بالعمل بموجبها. وهو دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناء على أن العمل داخل فيه، والتحقيق: أن العمل خارج عنه، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية، وسيأتي في الإشارة الكلام عليه.

ومن أوصاف أهل الإيمان: التوكل على الله والاعتماد عليه، كما قال: ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وقد تقدم في «آل عمران» الكلام على التوكل(٣)، ثم وصفهم بإقامة الدين فقال: ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم

(١) القبض ـ بالتحريك: بمعنى المقبوض، وهو ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقسَم. انظر: النهاية (قبض).
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٨٠ وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧٠) وسعيد بن منصور (٢٦٨٩) والطبري في التفسير، وبنحوه أخرجه أبو داود في (الجهاد، باب في النفل) والترمذي في (التفسير ـ سورة الأنفال).
(٣) راجع إشارة الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

ينفقون ﴾ في الواجب والتطوع. ﴿ أولئك هم المؤمنون حقًا ﴾ ؛ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أعمال الجوارح التي هي العيار عليها، كالصلاة والصدقة، ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي: كرامات وعلو منزلة، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، ﴿ ومغفرة ﴾ لما فرط من ذنوبهم، ﴿ ورزقٌ كريم ﴾ أعده لهم في الجنة، لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

الإشارة: الأنفال الحقيقة هي المواهب التي ترد على القلوب، من حضرة الغيوب؛ من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، لاتزال تتوالى على القلوب، حتى تغيب عما سوى المحبوب، فيستغنى غناء لا فقر معه أبداً، وهذه غنائم خصوص الخصوص، وغنائم الخصوص: هي القرب من الحبيب، ومراقبة الرقيب، بكمال الطاعة والجد والاجتهاد، وهذه غنائم العباد والزهاد، وغنائم عوام أهل اليمين: مغفرة الذنوب، والستر على العيوب، والنجاة من النار، ومرافقة الأبرار، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ عِنْدَ نومه: أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ الذي لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إليْه، غفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ، وإنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ، وعَدَدَ الرِّمَالِ وعَدَدَ أيَّامِ الدُّنْيَا»[1].

قال الشيخ زروق: وهذه هي الغنيمة الباردة، وهذه الأمور بيد الله وبواسطة رسول الله ﷺ وهو معنى قوله: ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾، ثم دل على موجباتها فقال: ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم... ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ زادتهم إيمانا ﴾ : اعلم أن الإيمان على ثلاثة أقسام: إيمان لايزيد ولا ينقص، وهو إيمان الملائكة، وإيمان يزيد وينقص، وهو إيمان عامة المسلمين، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والرسل، ومن كان على قدمهم من العارفين الروحانيين الراسخين في علم اليقين، ومن تعلق بهم من المريدين السائرين، فهؤلاء إيمانهم دائماً في الزيادة، وأرواحهم دائماً في الترقي في المعرفة، يزيدون بالطاعة والمعصية؛ لتيقظهم وكمال توحيدهم، وفي الحكم: «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». وقال أيضا: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارا» والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على الخروج إلى غزوة بدر، فقال:

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في (الدعوات ـ باب ١٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قلت : (كما أخرجك) : خبر عن مبتدأ محذوف، أى: هذه الحال، وهى عزلهم عن تولية الأنفال فى كراهتهم لها، كحال إخراجك فى الحرب فى كراهتهم لها، أو حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيلك للغزاة، مثل حالهم فى كراهية خروجك، أو صفة لمصدر الفعل المقدر فى قوله: ﴿لله والرسول﴾، أى: الأنفال تثبت الله وللرسول ﷺ، مع كراهتهم، ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعنى المدينة؛ لأنها مسكنه أو بيته منها، وجملة: (وإن فريقا) حال من أخرجك، أى: أخرجك فى حال كراهية فريق من المؤمنين.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ : قد كره أصحابك قسمتك للأنفال كما كرهوا إخراجك ﴿ ربُّك من بيتك بالحق﴾ لقتال العدو، والحال أن ﴿ فريقًا من المؤمنين لكارهون ﴾ خروجك لذلك، وتلك الكراهية من قِبل النفس وطبع البشرية، لا من قِبل الإنكار فى قلوبهم لأمر الله ورسوله، فإنهم راضون مستسلمون، غير أن الطبع ينزع لحظّه، والعبد مأمور بمخالفته وجهاده.

وذلك الفريق الذى كره خروجك للقتال ﴿ يُجادلونك في الحق ﴾ أى: يخاصمونك فى إيثارك الجهاد لإظهار الحق، حيث أرادوا الرجوع للمدينة، وقالوا: إنا لم نخرج لقتال، قالوا ذلك ﴿ بعد ما تبيّن ﴾ لهم أنهم منصورون أينما توجهوا، بإعلام الرسول لهم، لكن الطبع البشري ينزع إلى مواطن السلامة، ﴿ كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أى: يكرهون القتال كراهة من يُساق إلى الموت، وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، إذ رُوى أنهم كانوا رَجّالة، وما كان فيهم إلا فارسان، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يخرج لقصد الجهاد، وإنما لملاقاة عير قُرَيْشٍ، لمّا سمع أنها قدمت من الشام، وفيها تجارةٌ عظيمةٌ، ومعها أربعُون راكبًا، فيهم أبُو سُفْيان، وعمرو بنُ العاصِ ، ومخرقة بن نوفل، وعمرو بن هِشَام، فأراد رَسُول الله ﷺ أن يتعرض لها ويأخذها غنيمة، حيث أخبره جبريل بقدومها من الشام، فأخبرَ رسولُ الله ﷺ المسلمينَ، فأعْجَبَهُم تلقيها، لكثرةِ المال وقلة الرجال، فلما خرجُوا، بلَغَ الخَبرُ أبا سفيان، فسلك بالعير طريق السّاحلِ، واستأجر من يذهب إلى مكة يستنفرها، فلما بلغهم خروج رسول الله ﷺ لعيرهم، نادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة، النَّجاءَ النجاءَ، على كل صَعْبٍ وذَلُولٍ، عِيرُكُمْ وأموالكمْ إن أصابَهَا مُحمّدٌ لن تُفلِحُوا بعدها أبدًا.

وقــد رأت، قبل ذلك بثلاث ليال، عاتكةُ بنت المطلب، رؤيا؛ وهو أن رجلاً تمثل على جبــل قبيــس فنادى: يا آل لكع، أخرجوا إلى مصارعكم، ثم تمثل على الكعبة، فنادى مثل ذلك، ثم أخذ حجراً فضرب به، فلم يبق بيت فى مكة إلا دخله شيء من ذلك الحجر، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم؟ لنتربص ثلاثاً، فإن لم يظهر ما تقول لنكتبن عليكم يا بنى هاشم أنكم أكذب بيت فى العرب، فلما مضت ثلاث ليال جاء رسولُ أبى سفيان ليستنفرهم.

فخرج أبو جهل بجموع أهل مكة، ومضى بهم إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذَفِران، فنزل عليه جبريل بالوعد بإحدى الطائفتين: إما العيرُ وإما قُرَيْش، فاستشار فيه أصحابه، فقال بعضهم: ما خرجنا لقتال ولا تهيأنا له، وردد عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليكَ بالعيرِ ودَعِ العدو، فغضب رسولُ الله ﷺ، فقام أبوبكر وعُمَرُ فأحْسَنَا، ثم قام سَعْد بن عُبَادة فقال: انظُر في أمْرِكَ، وامْض، فوالله لو سِرْتَ إلى عَدَنٍ ما تَخَلَّفَ رجلٌ مِنْ الأنْصار، ثم قام المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال: إمْضِ يا رسول الله لما أمركَ ربك، فإنا معك حيثُما أحببتَ، لا نقولُ كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(1)، ولكن اذهب أنت وربكَ فقاتِلاَ إنا معكما مقاتلونَ، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال: أشيرُوا علَيَّ أيها الناسُ، يريدُ الأنصار؛ لأنهم كانوا عددهم، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم بُرءاء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألاَّ يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سَعْدُ بنُ مُعاذٍ وقال: لكأنَّكَ تُرِيدُنَا يا رسولَ الله؟ فقال: أجَلْ، فقال: قدْ آمنَّا بِكَ وصدَّقْناكَ، وشَهِدْنا أنَّ ماجئتَ بِهِ هو الحقُّ، فأعطيْناكَ على ذلكَ عهودَنَا ومَوَاثِيقَنَا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ، فامْضِ يارَسُولَ الله لما أرَدْتَ، فوالذي بعثَكَ بالحقِّ لو اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هذا البَحْرَ فخُضتَه لخضْنَاهُ معَكَ، ما تَخلَّفَ منَّا رَجلٌ واحدٌ، وما نكْرَهُ أنْ تَلْقَى بِنَا عدُوَّنَا، وإنا لَصُبُرٌ عِنْدَ الحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللقاء، ولعلَّ الله يُرِيكَ منا ما تقرُّ به عينُكَ، فَسِرْ بنا على بَرَكَةِ الله، فنشَّطَهُ قَوْلُه، ثم قال: «سِيرُوا علَى بَرَكَةِ الله، وأبْشِرُوا، فإنَّ الله قد وَعَدَنِي إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، والله لكأنِّي أنْظُرُ إلى مَصَارِعِ القَوْمِ».

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل بأصحابه آخر مياه من ميـاه بدر، فبُنِي له هناك عريش، فجلس فيه هو وأبو بكر، فلما انتشب القتال أخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فلم تبق عين من الكفار إلا وقع فيها شيء منها، ونزلت الملائكة في العنان، أي: السماء، فقُتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، وقيل: إن رسول الله ﷺ لما فرغ من غزوة بدر، قيل له: عليك بالعير، فقال العباس ـ وهو في وثاقه: لا يصلح، فقيل له: لِمَ؟ فقال له: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله، ثم رجع ﷺ إلى المدينة منصوراً فرحاً مسروراً، وقد أنجزه الله ما وعده.

الإشارة: من حكمته تعالى الجارية في عباده أن كل ما يثقل على النفوس ويشق عليها في بدايته تكون عاقبته الفتح والنصر، والهناء والسرور، فكل ما تكرهه النفوس فغايته حضرة القدوس، وما تحقق سير السائرين إلا

---

(1) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

بمحاربة نفوسهم ومخالفة عوائدهم. وفي الحديث عنه ﷺ، قال لابن عباس في حديث طويل: «وفِي الصَّبْرِ علَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ» . والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية قصة بدر، فقال:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت : (وإذ): ظرف لاذكر، محذوفة، و(أنها لكم): بدل اشتمال من (إحدى الطائفتين)، والشوكة: الحدة، مستعارة من واحد الشوك، وسميت الحرب شوكة لحدة سلاحها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكروا ﴿ إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾؛ قريشاً، أو عِيرَهم، وعدكم ﴿ أنها لكم، وتَودون ﴾؛ وتتمنون ﴿ أنَّ غير ذات الشوكة ﴾ أي: ذات الحرب ﴿ تكونُ لكم ﴾ وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، ﴿ ويريد الله أن يُحق الحق ﴾ أي: يُظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، ﴿ بكلماته ﴾ أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد، أو بنفوذ كلماته الصادقة بهلاكهم، ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم.

ومعنى الآية: أنكم تُريدون أن تُصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق، وما يحصل لكم من فوز الدارين. وإنما فعل ما فعل من سوقكم إلى القتال؛ ﴿ ليُحق الحق ويُبطل الباطل ﴾ أي: ليُظهر الدين ويبطل الكفر.

قال البيضاوي: وليس بتكرار؛ لأن الأول لبيان المراد، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار ذات الشوكة وقصره عليها. هـ. وقال ابن جزي: ليس تكراراً للأول؛ لأن الأول مفعول يريد، وهذا تعليل لفعل الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة، وبالحق الثاني الإسلام، فيكون المعنى: أنه نصرهم ليظهر الإسلام، ويؤيد هذا قوله: ﴿ ويُبطل الباطل ﴾ أي: يُبطل الكفر، ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك، فإن الله لابد أن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره الكافرون.

الإشارة: وعد الله المتوجهين إليه بالوصول إلى سر الخصوصية، وهى الولاية، لكن بعد المجاهدة والمحاربة للنفوس؛ لأن الحضرة لايدخلها إلا أهل التهذيب والتدريب، وترى كثيراً من الناس يتمنون أن تكون لهم من غير حرب ولا قتال، ويريد الله أن يحق الحق بكشف الحجب عن القلوب، حتى لايشاهدوا إلا الحق، ويبطل الباطل، وهو السِّوى، ولا يكون في العادة إلا بعد موت النفوس وتهذيبها وتطهيرها بالرياضة على شيخ عارف. قال الششترى مترجماً عن لسان الحقيقة:

إِنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتك شَرْطٌ		لا يَنَالُ الوِصَالَ مَنْ فِيه فَضْلَه

ثم ذكر إمدادهم بالملائكة، فقال:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (إذ): بدل من (إذ يعدكم)، أو متعلق بقوله: (ليحق الحق)، أو باذكر.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا حين كنتم ﴿ تستغيثون ربكم ﴾ وتدعون بالغوث والنصر، وذلك أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لمّا علموا ألاّ محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون: ربنا انصرنا على عدوك، ياغياث المستغيثين أغثنا.

وعن عمر: رضي الله عنه (أنه ﷺ نَظَرَ إلى المُشْرِكِينَ وهُمْ أَلفٌ، وإلى أَصْحَابه وهُمْ ثَلاثُمائةٍ، فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ ومدَّ يديه يدعوه: «اللهم أَنْجِزْ لِي ما وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إن تَهْلكْ هذه العصابة لم تُعْبَد فى الأَرْضِ» ، فمازَالَ كَذَلكَ حتى سَقَطَ رِدَاؤُه، فقال أَبُو بكرٍ: يا نَبِيَّ الله، كفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ، فإنَّه سيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ)[1] . وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لايقفون مع ظاهر الوعد والوعيد، لسعة دائرة علمهم، بل لايزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفاً على شروط أخفاها الحق تعالى؛ لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط.

ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال: ﴿ فاستجاب لكم أني مُمدكم ﴾؛ مقويكم ومكثركم ﴿ بألفٍ من الملائكة مُردفين ﴾ يتبع بعضهم بعضاً، ويتبع المؤمنين، فكانوا خلفهم ردْءاً لهم، فمن قرأ بفتح الدال

(١) أخرجه مسلم فى (الجهاد ـ باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر).

فهو اسم مفعول، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل، وصح معنى القراءتين، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضا، فمنهم تابعون ومتبوعون، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين، فكانوا مقدمة الجيش، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم، فكانوا ساقة للجيش.

ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله: ﴿ وما جعله الله ﴾ أي: الإمداد، ﴿ إلا بُشرى ﴾ أي: بشارة بالنصر، ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾، لا يتوقف على سبب، ﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يغلب، ﴿ حكيم ﴾ في تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية، فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والتأهب، وسائط، لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها، فحُكم الأزل جلّ أن يضاف إلى العلل.

الإشارة: إظهار الفاقة والابتهال لايقدح في صحة التوكل على الكبير المتعال، بل هو شرف للإنسان، وتقريب من الكريم المنان، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى الله في كل شيء، والتعلق به في كل حال، ولو وعده بالنصر أو الإجابة، لايقطع عنه السؤال، عبوديةً وتملقاً بين يدي الحبيب.

وقد اختلف الصوفية: أي الحالين أشرف: هل الدعاء والتضرع؟ أو السكوت والرضى تحت مجاري الأقدار؟ وقال بعضهم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، صاحب رضى بقلبه، ليجمع بين الأمرين. قال القشيري: والأَوْلى أن يُقال: إن الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال الدعاءُ أفضلُ، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل، وإنما يُعرف ذلك في الوقت؛ لأن علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء؛ فالدعاء منه أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم. هـ. وقد تقدم في آل عمران إشارة الإمداد[1]. وبالله التوفيق.

ثم ذكر تأمينهم، فقال:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾

---

(١) راجع إشارة الآية ١٢٥ من سورة آل عمران.

قلت : (إذ) : بدل ثان من (إذ يعدكم) ، أو متعلق بالنصر، لِمَا في (عند الله) من معنى الفعل، أو بإضمار اذكروا. ومن قرأ بضم الياء، فهو من أغشى، أي: غطى، ومن قرأ بالتشديد، فهو من غشي المضعف، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين، الكاف الأول والنعاس الثاني، ومن قرأ بالفتح والتخفيف، فهو من غشى يغشى؛ المتعدى إلى واحد، و(أمنة) : مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا ﴿ إذ يُغشيكم ﴾، أي: حين كان يغشيكم ﴿ النُعاسَ ﴾ وأنتم فى القتال، حين ينزل عليكم الأمْن من العدو بعد شدة الخوف، وذلك لأجل الأمن الذى نزل من الله عليكم بعد شدة خوفكم. قال ابن مسعود ﷺ : النعاس عند حضور القتال علامة أمْنٍ مِنَ العدو.

ثم ذكّرهم بمنة أُخرى، فقال: ﴿ ويُنزل عليكم من السماء ماء ليُطهركم به ﴾ من الحدث والجنابة، ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أي: وسوسته وتخويفه إياهم من العطش، رُوى أنهم نزلوا فى كثيب رمل دهس، تسوخ فيه الأقدام، على ماء قليل، وناموا فاحتلم أكثرهم، فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تُنصرون وأنتم تصلون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟، فأشفقوا، فأنزل الله المطر، فمُطروا ليلاً حتى جرى الوادى، فاتخذوا الحياض على عدوته، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذى بينهم وبين العدو، حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الدهوسة، وهذا معنى قوله: ﴿ وليَربطَ على قلوبكم ويُثبتَ به الأقدام ﴾ أي: وليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف الله وزوال ماوسوس إليهم الشيطان، وذهاب الكسل عنها. ﴿ ويُثبت به الأقدام ﴾ حتى لا تسوخ فى الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى مداخص الحرب.

واذكروا أيضا: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ أي: أثبت أقدامكم حين أُوحي إلى الملائكة أنى معكم فى نصر المؤمنين وتثبيتهم، ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ بتكثيرعددهم، أو بالبشارة لهم، أو بمحاربة أعدائهم، على قول من قال: إنهم باشروا القتال. ﴿ سأُلقي فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ والجزع، حتى لايثبتوا لقتالكم، يحتمل أن يكون من خطاب الله للملائكة، أو استئناف؛ إخباراً للمؤمنين عما يفعله بعدوهم عاجلاً وآجلا. ثم قال للملائكة أو للمؤمنين: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ أي: أعاليها التى هى المذابح والرؤوس، ﴿ واضربوا منهم كل بَنَان ﴾ أي: أصابعهم، أي: جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم .

الإشارة : كان شيخ شيخنا يُشير على الفقراء، إذا كثرت عليهم الخواطر والهواجس، بالنوم، ويقول: من تشوش خاطره فليرقد حتى يشبع من النعاس، فإنه يجد قلبه؛ لأن النعاس أمنة من الله يذهب به رجز الشيطان وثقله، ويربط على القلوب فى الحضرة؛ لأنه زوال، وإذا زال العبد ظهر الحق وزهق الباطل.

وقوله تعالى: ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ : هو ماء الغيب الذي يطهر القلوب من شهود السوى، ويذهب به رجز الشيطان، وهى ظلمة الأكوان، التى تنعقد فى القلب من حب الهوى الذى هو من تزيين الشيطان، ويثبت به الأقدام، حتى تثبت عند مصادمة أنوار الحضرة، التى هى تجلى الذات، فلا يثبت لها إلا الشجعان والأبطال وأكابر الرجال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر علة أمرهم بقتل الكفار، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: (ذلكم) : مبتدأ حُذف خبره، أى: ذلكم العقاب أو العذاب، أو خبر، أى: الأمر ذلكم، أو منصوب بمضمر يفسره فذوقوه، و(أن للكافرين): عطف على (ذلكم)، أو نصب على المفعول معه، وقرئ بالكسر؛ استئنافاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ الضرب لأعناق الكفار، أو الأمر به ﴿ بانهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ شاقوا ﴾ أى: خالفوا ﴿ الله ورسوله ﴾، وصاروا كأنهم فى شق وهو فى شق؛ مبالغة فى المخالفة والمباعدة، ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ ويبعد عنهما ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ لكل من خالفه أو خالف رسوله، وهو تقرير للتعليل، أو وعيد بما أعد الله لهم فى الآخرة بعد ماحاق بهم فى الدنيا، ﴿ ذلكم ﴾ العذاب ﴿ فذوقوه ﴾ وباشروا مرارته، ﴿ وأنَّ للكافرين عذابَ النار ﴾، والمعنى: ذُوقوا ماعجل لكم من النقمة فى الدنيا مع ما يحل عليكم فى الآخرة من عذاب النار، ووضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على أن الكفر سبب العذاب العاجل والآجل.

الإشارة: مخالفة الله ورسوله توجب الطرد والبعاد، وموافقة الله ورسوله توجب القربة والوداد، وهذه الموافقة التي توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء: امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، والاستسلام لقهره، والاقتداء بنبيه ﷺ والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه، وبأضداد هذه الأشياء يحصل للعبد المخالفة التي توجب طرده وبُعده، وهي مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، والغفلة عن ذكره، والتسخط عند نزول قهره، وعدم الاقتداء بنبيه ﷺ؛ بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة، حتى يُفضى به الحال إلى المشاققة والمباعدة، ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ . وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الفرار في الحرب، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: (زحفا): مصدر، وزحف الصبي إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المقابل للقتال؛ لأنه يتدفع للقتال شيئًا فشيئًا، ونصبه على الحال من فاعل «لقيتم»، أو «من الذين كفروا»، و(متحرفًا) و(متحيزًا): حالان، و(إلا) ملغاة، ووزن متحيز: متفيْعل، لا متفعل، وإلا لكان متحوزًا؛ لأنه من حاز يحوز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ﴾ زاحفين لهم، تدبون إليهم ويدبون إليكم، تريدون قتالهم متوجهين إليهم، ﴿ فلا تُولوهم الأدبار ﴾ بالانهزام عنهم، فإنه حرام، وهو من الكبائر، ويفيد بألا يكون الكفار أكثر من ثلثي المسلمين، فإن زادوا على ثلثي المسلمين حلَّ الفرار، وأن يكون المسلمون مسلحين، وإلا جاز الفرار ممن هو بالسلاح دونه، ﴿ ومن يُولِّهم يومئذ دُبُره إلا متحرفاً لقتال ﴾، وهو أن يكرّ راجعًا أمام العدو ليرى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو من مكائد الحرب، ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أي: منحازًا إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم، فإن كانت الجماعة حاضرة في الحرب، أو قريبة، فالتحيز إليها جائز باتفاق، واختلف في التحيز إلى المدينة والإمام والجماعة إذا لم يكن شيء من ذلك حاضرًا.

ويُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أنا فئة لكل مسلم. ورُوي عن ابن عمر: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ، ففَرُّوا إلى المدينة، فقلت: يارَسُولَ الله، نحن الفَرَّارُونَ، فقال: «أَنْتُمْ الكَرَّارُونَ، وأنا فِئَتُكُمْ»(١).

فمن فرَّ من الجهاد بالشرط المتقدم ﴿ فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنمُ وبئس المصيرُ ﴾، ومن هنا يفهم أنه من الكبائر. قال البيضاوي: وهذا إذا لم يزد العدو على الضعف، لقوله: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ... ﴾(٢) الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب. هـ.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه بالمجاهدة والمكابدة: إذا لقيتم أعداءكم من القواطع؛ كالحظوظ، والشهوات، وسائر العلائق، فاثبتوا حتى تظفروا، ولا ترجعوا وتولوهم الأدبار فيظفروا بكم، إلا متحرفًا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٧٠) وأبو داود في (الجهاد ـ باب في التولي يوم الزحف) والترمذي وحسنه في (الجهاد ـ باب ماجاء في الفرار يوم الزحف).

(٢) الآية ٦٦ من سورة الأنفال.

لقتال، بإيثار بعض الرخص، ليقوى على ما هو أشد منها مشقة عليها، أو متحيزاً إلى جماعة من أكابر العارفين، فإنهم يُغنونه بالمشاهدة عن المجاهدة، إذا ملكهم زمام نفسه، وفعل كل ما يُشيرون به عليه، فإن ذلك يُفضي به إلى الراحة بعد التعب، والمشاهدة بعد المجاهدة، إذ لا تجتمع المجاهدة فى الظاهر مع مشاهدة الباطن عند أهل الذوق.

قال القشيرى ـ بعد كلامه على الآية: فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء يُنفقون على مريديهم من هِمَمِهم؛ يجبرون كَسْرَهم وينوبون عنهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم، ومَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقه، أو خالَفَ شيخاً وهو يعرف فضلَه وحقَّه، فقد باءَ من الله بسخطٍ، والله تعالى حسيبُه فى مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه. هـ.

ثم عزلهم عن الحول والقوة، فقال:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: فلَمْ تقتلوا الكفار بحولكم وقوتكم وذلتكم، وقلة عُدتكم وعَددكم، وكثرة عدد عدوكم وعُدتهم، ﴿ ولكنَّ الله قتلهمْ ﴾ بواسطة مباشرتكم، حيث أيدكم وسلطكم عليهم، وإمداد الملائكة لكم، وإلقاء الرعب فى قلوب عدوكم.

قال البيضاوى: رُوى أنه لما أطلّتْ قريش من العقنقل ـ اسم جبل ـ قال ﷺ: «هذهِ قُرَيْشٌ جاءَتْ بخُيَلائهَا وفَخْرِهَا، يُكَذِّبُون رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ إنّي أسْألُكَ مَا وَعَدْتَنِي» ، فأتَاهُ جِبْرِيلُ، وقَالَ لَه: خُذْ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَارْمِهِمْ بهَا، فلمَّا التَقَى الجَمْعَانِ تناول كفًا من الحَصْبَاءِ فَرَمَى بها فى وُجُوهِهِم، وقال: «شَاهَتْ الوُجُوه» ، فَلَمْ يَبْق مُشْرِكٌ إلا شُغِلَ بعينيه، فانْهَزَمُوا. وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قتلتُ وأسرتُ، فنزلت الآية، والفاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلَمْ تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، ﴿ وما رميتَ ﴾ يا محمد رمياً توصلها إلى أعينهم، ولم تقدر عليه ﴿ إذْ رميتَ ﴾ أى: حين ألقيت صورة الرمى، ﴿ ولكنَّ الله رَمَى ﴾، أتى بما هو غاية الرمى، فأوصلها إلى أعينهم جميعًا، حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم. هـ. فالرمى، حقيقة، إنما وقع من الله تعالى، وإن ظهر حساً من النبى ﷺ.

وإنما فعل ذلك ليقطع طرفا من الكفار، ويحد شوكتهم، ﴿ وليُبلي المؤمنين منه بلاءً حسنًا ﴾ أي: ليختبر المؤمنين منه اختبارًا حسنا، ليظهر شكرهم على هذه النعمة، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة؛ بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، ﴿ إن الله سميع ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم، ﴿ عليم ﴾ بنياتهم وأحوالهم. ﴿ ذلكم ﴾ أي: البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي، واقع لا محالة، أو الأمر ذلكم، ﴿ وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أي: مضعف كيد الكافرين، ومبطل حيلهم، أي: المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم: فلَمْ تقتلوا نفوسكم بمجاهدتكم؛ إذ لاطاقة لكم عليها، ولكن الله قتلها بالنصر والتأييد، حتى حييت بمعرفته، ويقول للشيخ : وما رميت القلوب بمحبتي ومعرفتي، ولكن الله رمى تلك القلوب بشيء من ذلك، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية، لا تأثير لك في شيء من ذلك.

حُكي أن الحلاج، لما كان محبوساً للقتل، سأله الشبلي عن المحبة، فقال: الغيبة عما سوى المحبوب، ثم قال: يا شبلي، ألست تقرأ كتاب الله؟ فقال الشبلي: بلى، فقال: قد قال الله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، يا شبلي؛ إذا رَمَى اللهُ قَلْبَ عَبْدِه بِمَحَبَّةٍ من حُبِّه، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب.هـ. والمقصود بذلك: تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. والله تعالى أعلم.

ولما أرادت قريش الخروج إلى غزوة بدر، تعلقوا بأستار الكعبة، وطلبوا الفتح، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهْدى الفئتين، وأكرم الحزبين، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم: ﴿ إن تستفتحوا ﴾ أي: تطلبوا الفتح، أي: الحكم على أهْدى الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين، ﴿ فقد جاءكم ﴾ الحكم كما طلبتم، فقد نصر الله أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، وهو محمد ﷺ وحزبه، ﴿ وإن تنتهوا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول، ﴿ فهو خيرٌ لكم ﴾؛ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين، ﴿ وإن تعودوا ﴾ لمحاربته ﴿ نعد ﴾ لنصره، ﴿ ولن تغني ﴾؛ تدفع ﴿ عنكم فئتكم ﴾؛ جماعتكم ﴿ شيئاً ﴾ من المضار ﴿ ولو كثُرت ﴾ فئتكم، إذ العبرة بالنصرة لا بالكثرة، ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾ بالنصر والمعونة.

ومن قرأ بالفتح؛ فعلى حذف الجار، أي: ولأن الله مع المؤمنين، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال، والرغبة عما يختاره الرسول، فهو خير لكم، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار، أو تهييج العدو، ولن تغني، حينئذٍ، عنكم كثرتكم؛ إذ لم يكن الله معكم بالنصر، فإنه مع الكاملين في إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: إن تستفتحوا أيها المتوجهون، أي: تطلبوا الفتح من الله في معرفته، فقد جاءكم الفتح، حيث صح توجهكم وتركتم حظوظكم وعلائقكم، لأن البدايات مَجْلاةُ النهايات، من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو علامة القبول آجلاً، وإن تنتهوا عن حظوظكم وعوائقكم فهو خير لكم، وبه يقرب فتحُكم، وإن تعودوا إليها نعد إليكم بالتأديب والإبعاد، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً في دفع التأديب، أو البعد، ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين الكاملين في الإيمان؛ بالنصر والرعاية.

ثم أمر بالسمع والطاعة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿ورسولَه﴾ فيما ندبكم إليه، من الجهاد وغيره، ﴿ولا تَولوا﴾ أي: تُعرضوا عن الرسول ﴿وأنتم تسمعون﴾ القرآن يأمركم بالتمسك به، والاقتداء بهديه. والمراد بالآية: النهي عن الإعراض عن الرسول. وذكْرُ طاعة الله إما هو للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول، لقوله: ﴿من يُطع الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾(١)، ثم أكد النهي بقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ بآذاننا، كالكفرة والمنافقين، ادَّعوا السماع، ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماعاً ينتفعون به، فكأنهم لا يسمعون رأساً.

الإشارة: لما غاب عليه الصلاة والسلام بقي خلفاؤه في الظاهر والباطن؛ وهم العلماء الأتقياء، والعارفون الأصفياء. فمن تمسك بهم، واستمع لقولهم، فقد تمسك بالرسول ﷺ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عنه ﷺ، فمن تمسك بما جاءت به العلماء، فاز بالشريعة المحمدية، وكان من الناجين الفائزين. ومن تمسك بالأولياء العارفين، واستمع لهم، وتبع إرشادهم، فاز بالحقيقة الربانية، وكان من المقربين. ومن سمع منهم الوعظ والتذكير،

(١) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

ثم صرفه عن نفسه إلى غيره، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وكان من شر الدواب التى أشار إليهم تعالى بقوله:

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ شر الدوابّ عند الله﴾، وهو كل من يدب على وجه الأرض، ﴿الصمُّ﴾ عن سماع الحق، ﴿البُكمُ﴾ عن النطق به، ﴿الذين لا يعقلون﴾ الحق ولا يعرفونه، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها؛ لإبطالهم ما مُيزوا به وفُضلوا لأجله، وهو استعمال العقل فيما ينفعهم من التفكر والاعتبار. قال ابن قتيبة: نزلت هذه الآية فى بنى عبد الدار، فإنهم جدوا فى القتال مع المشركين، يعنى يوم بدر، وحكمها عام.

﴿ولو علِمَ الله فيهم خيراً﴾، سعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات، ﴿لأسمعهُم﴾ سماع تفَهُّم، ﴿ولو أسمعهم﴾، مع كونه قد علم الأخير فيهم، ﴿لتولَّوا﴾ عنه، ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق والقبول، ﴿وهم مُعرضون﴾ عنه، لعنادهم، وقيل: إنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يُحيي لهم قُصى بن كلاب، ويشهد له بالرسالة، حتى يسمعوا منه ذلك، فأنزل الله: ﴿ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم﴾ كلامه بعد إحيائه، ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم مُعرِضُون﴾، لسبق الشقاوة فى حقهم.

الإشارة: اعلم أن الأمر الذى شرف به الآدمي وفضل غيره هو معرفة خالقه، واستعمال العقل فيما يقربه إليه، وسماع الوعظ الذى يزجره عن غيه، فإذا فقد هذا كان كالبهائم أو أضل، ولله در ابن البنا، حيث يقول فى مباحثه:

وَاعْلَمْ أنّ عُصْبَةَ الجُهَّالِ بَهَائِمٌ فى صُوَرِ الرِّجَالِ

واعلم أيضا أن بعض القلوب لا تقبل علم الحقائق، فأشغلها بعلم الشرائع، ولو علم فيها خيراً لأسمعها تلك الأسرار، ولو أسمعها، مع علمه بعدم قبولها، لتولت عنها وأعرضت؛ لضيق صدرها وعدم التفرغ لها.

ثم دل على ما فيه حياة القلوب، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله ﴾ أي: أجيبوه فيما دعاكم إليه، ﴿ وللرسول ﴾ فيما دلكم عليه من الطاعة والإحسان، ﴿ إذا دعاكم لما يُحييكم ﴾ من العلوم الدينية؛ فإنها حياة القلب، كما أن الجهل موته، أو ﴿ إذا دعاكم لما يُحييكم ﴾ الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، من العقائد والأعمال، أو من الجهاد، فإنه سبب بقائكم؛ إذ لو تركتموه لغلبكم العدو وقتلكم، أو الشهادة، لقوله تعالى: ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1]، ووحد الضمير في قوله: ﴿ إذا دعاكم ﴾ باعتبار ما ذكر، أو لأن دعوة الله تُسمع من الرسول.

وفي البخاري: أن الرسول ﷺ دعا أُبيّ بْن كَعْب، وهو في الصَّلاة، فلم يجب، فلما فرغ أجاب، فقال له ﷺ: «ما منَعكَ أن تجيبني؟ فقال: كُنْتُ أُصلِّي، فقال: ألمْ تَسْمَع قوله: ﴿استَجِيبُوا للهِ وللرسُولِ﴾.»[2] فاختلف فيه العلماء، فقيل لأن إجابته ﷺ لا تقطع الصلاة، فيُجيب، ويبقى على صلاته، وقيل: إن دعاءه كان لأمر لا يقبل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كإنقاذ أعمى وشبهه.

ثم قال تعالى: ﴿ واعلموا أنَّ الله يَحُولُ بين المرء وقلبه ﴾؛ فينقله من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن اليقين إلى الشك، ومن الشك إلى اليقين، ومن الصفاء إلى الكدر، ومن الكدر إلى الصفاء. قال البيضاوي: هو تمثيل لغاية قربه من العبد؛ كقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[3]، وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب، مما عسى أن يغفل عنها صاحبها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه؛ فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويحول بينه وبين الكفر، إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان، إن قضى شقاوته. هـ. ﴿ و ﴾ اعلموا أيضاً ﴿ أنه إليه تُحشرون ﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم وعقائدكم.

الإشارة: قد جعل الله، من فضله ورحمته، في كل زمان وعصر، دعاة يدعون الناس إلى ما تحيا به قلوبهم، حتى تصلح لدخول حضرة محبوبهم، فهم خلفاء عن الله ورسوله، فمن استجاب لهم وصحبهم حيي قلبه، وتطهر سره ولبه، ومن تنكب عنهم ماتت روحه في أودية الخواطر والأوهام.

---

(١) من الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.
(٢) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الأنفال ــ باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول..) وفيه أن المدعو هو «أبو سعيد المعلي» وليس «أُبي» أما حديث أُبيّ فأخرجه الترمذي في: (فضائل القرآن ــ باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب) وأحمد في المسند ٥/١١٤ والدرامي في (فضائل القرآن ــ باب فضل فاتحة الكتاب) والحاكم في المستدرك (١/٥٥٨) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأُبي بن كعب ولأبي سعيد بن المعلي. راجع الفتح ٨/١٥٨.
(٣) الآية ١٦ من سورة ق.

وقوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يَحولُ بين المرء وقلبه ﴾ ؛ حيلولة الحق تعالى بين المرء وقلبه هو تغطيته وحجبه عن شهود أسرار ذاته وأنوار صفاته، بالوقوف مع الحس، وشهود الفرق بلا جمع، ويعبر عنه أهل الفن بِفَقْدِ القلب، فإذا قال أحدهم: فقدتُ قلبي، فمعناه: أنه رجع لشهود حسه ووجود نفسه، ووجدان القلب هو احتضاره بشهود معاني أسرار الذات وأنوار الصفات، فيغيب عن نفسه وحسه، وعن سائر الأكوان الحسية، وفقدان القلب يكون بسبب سوء الأدب، وقد يكون بلا سبب؛ اختباراً من الحق تعالى، هل يفزع إليه في فقده أو يبقى مع حاله.

وقد تكلم الغزالي على القلب فقال، في أول شرح عجائب القلب من الإحياء: إن المطيع بالحقيقة لله هو القلب، وهو العالم بالله، والعامل لله، وهو الساعي إلى الله، والمتقرب إليه، المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع، والقلب هو المقبول عند الله، إذا سَلِمَ من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً في غير الله، وهو المطالب والمخاطب، وهو المعاتب والمعاقب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله، فيفلح إذا زكاه، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه. ثم قال: وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا جهله فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه، جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾(1) الآية. هـ.

وقد أنشد من وجد قلبه، وعرف ربه، وغني بما وجد، فقال:

أنَا القُرآن وَالسَّبْعُ المَثَانِي	وروحُ الرُّوحِ لا روح الأوَاني
فـؤادي عند معلـوم مقيم	تناجيه وعندكم لساني
فَلاَ تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي	وعُدْ عن التنعم بالأواني
فأَسْرَارِي تراءت مبهمات	مُسَتَّرَةً بأنوار المَعَاني
فَمَنْ فَهِمَ الإشَارَةَ فليَصُنْهَا	وإلاَّ سوف يقتل بالسنانِ
كحَلاَّجِ المحبة إذْ تبدَّتْ	له شمسُ الحقيقة بالتداني

(1) الآية ١٩ من سورة الحشر.

ومن أسباب تشتت القلب وفقده دخولُ الفتنة عليه، الذى أشار إليه بقوله:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت : دخلت النون في (لاتصيبن)؛ لأنه في معنى النهي، على حد قوله: ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ ﴾[1]. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واتقوا فتنة ﴾، إن نزلت، ﴿ لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾، بل تعم الظالم وغيره، ثم يبعث الناس على نيتهم، وذلك كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة فى الأمر بالمعروف، واقتراف الكبائر، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وعن الفرائض، وغير ذلك من أنواع الذنوب، وفي الحديث: «لتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ، أو ليَعُمَّنَّكُمْ اللهُ بِعَذَابِه»[2]. أو كما قال ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثُر الخبث»[3].

قال القشيرى ، فى معنى الآية: احذروا أن ترتكبوا زلّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمُّ شؤمها مَنْ تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يُؤْخَذ بجُرْم من أذنب، ولكن قد ينفرد واحدٌ بجرم فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْم، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بحكم ذلك الجرم، فبعد ألا يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً فى الحال، بل تصيب أيضًا ظالماً فى المستقبل؛ بسبب تعصبه لهذا الظالم، ورضاه به. هـ. وسيأتى تمامه فى الإشارة.

وحكى الطبرى أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل.هـ. قال تعالى: ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن ارتكب معاصيه وتسبب في فتنة غيره.

الإشارة : فى القشيرى، لما تكلم على تفسير الظاهر، قال: وأما من جهة الإشارة فإن العبدَ إذا باشر زلّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة، وهي العقوبة المعجلة، وتصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلبُ إذا حصلت

---

(١) من الآية ١٨ من سورة النمل.

(٢) أخرجه بلفظ مقارب الإمام أحمد فى المسند (٥/٣٨٨). والترمذى فى (الفتن ـ باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وحسنه. من حديث حذيفة بن اليمان. ولفظ الترمذي: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

(٣) أخرجه البخارى فى (المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش مطولاً. وفيه السائلة: زينب، وليست عائشة ـ رضي الله عن أزواجه نبينا الطاهرات.

منه فتنة، وهو همه بما لا يجوز، تَعدّتْ فتنته إلى السر وهى الحُجْبَةُ. وكذلك المُقَدَّمُ فى شأنه، إذا فعل مالا يجوز، انقطعت البركات التى كانت تتعدى منه إلى مُتّبعِيه وتلامذتِه، فكان انقطاع تلك البركات عنهم نصيبهم من الفتنة، وهم لم يعملوا ذنبًا، ويقال: إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكيرعلى الأصاغر أصابتهم فتنة بتَرْكِهم الإنكار عليهم فيما فعلوا من الإجرام.

ثم قال: ويقال: إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخصة الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا بما فوق الكفاية - وإن كانت من وجه حلال - تعدت فتنتُه إلى من يتخرج على يديه من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة فى الدنيا، وتَرْكِ التقلل، فيؤديه إلى الانهماك فى أودية الغفلة فى الأشغال الدنيوية. والعابد إذا جَنَحَ إلى سوء ترك الأوراد تعدّى ذلك إلى ما كان ينشط فى المجاهدة به، ويتوطّن الكسل، ثم يحمله الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات، فيصير كما قيل:

إن الشـــبابَ والفراغ والجِـدَةْ		مَفْسَدَةٌ للمــرء أى مفسـدة(1)

فهذا يكون نصيبهم من الفتنة، والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظ له، نظر إليه المريدُ فتتداخله فتنة فَتْرَةٌ فيما هو به من صدق المنازلة، فيكون ذلك نصيبه من فتنة العارف. وبالجملة: إذا غفل المَلِكُ، وتشاغَل عن سياسة رعيته، تَعَطّلَ الجندُ والرعية، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيّة، وفى معناه أنشدوا:

رُعَاتُك ضَيّعوا - بالجهل منهم		غُنَيْمـــاتٍ فَساسَتْها ذِئابُ.

انتهى كلامه رضي الله عنه.

ثم ذكّرهُمْ بالنعم، فقال:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾ أى: اذكروا هذه النعمة، حيث كنتم بمكة وأنتم قليل عَددكم مع كثرة عدوكم، ﴿ مستضعفون في الأرض ﴾ أى: أرض مكة، يستضعفكم قريش ويعذبونكم ويضيقون عليكم، ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناسُ ﴾ أى: قريش، أو من عداهم، ﴿ فآواكم ﴾ إلى المدينة، وجعلها لكم مأوىً

(1) البيت لأبى العتاهية.. انظر: (نهاية الأرب ٣/ ٨٠ ومعاهد التنصيص ٢/ ٨٣).

تتحصنون بها من أعدائكم، ﴿ وأيدكم ﴾ أي: قواكم ﴿ بنصره ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر، ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾؛ من الغنائم، ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم.

والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة؛ فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم، يخافون أن يتخطفهم الناس من كثرة الفتن، فكان القوى يأكل الضعيف منهم، فآواهم الله إلى الإسلام، فحصل بينهم الأمن والأمان، وأيدهم بنصره، حيث نصرهم على جميع الأديان، وأعزهم بمحمد ﷺ، ورزقهم من الطيبات، حيث فتح عليهم البلاد وملكوا ملك فارس والروم، فملكوا ديارهم وأموالهم، ونكحوا نساءهم وبناتهم، لعلهم يشكرون.

الإشارة: التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله، فهم قليل في كل زمان، مستضعفون في كل أوان، حتى إذا تمكنوا وتهذبوا، وطهروا من البقايا، منّ عليهم بالنصر والعز والتأييد كما وعدهم بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ... ﴾ الآية[1]، والغالب عليهم شكر هذه النعم، لِما خصهم به من كمال المعرفة. والله تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن الخيانة، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ﴾؛ بتضييع أوامره وارتكاب نواهيه، ﴿ والرسول ﴾؛ بمخالفة أمره وترك سنته، أو بالغلول في الغنائم، أو بأن تبطنوا خلاف ما تظهرون.

قيل: نزلت في أبي لبابة في قصة بَنِي قُرَيْظَةَ. روى أنه ﷺ حاصرهم إحْدَى وعشرين ليلةً، فَسألوا الصُّلْحَ كما صالَحَ إخْوَانَهُمْ بَنِي النَّضِير، علَى أَنْ يصيروا إلى إخوانهم بأذْرِعاتٍ وأريحا من الشّام، فأبَى إلا أن يَنْزِلُوا علَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فأبَوْا وقَالُوا: أرْسِلْ لنا أبا لُبَابَةَ، وكان مُنَاصِحاً لهمْ؛ لأنَّ عيالَهُ ومَالَهُ في أيْدِيهِمْ، فبَعَثَهُ إليْهِمْ، فقالوا: ما تَرَى؟ هَلْ نَنْزِلُ على حُكْمِ سَعْدٍ؟ فأشارَ إلى حلْقِهِ، أنهُ الذَّبْحُ، فقال أبو لُبَابَة: فمازالَت قَدَمَاى حتَّى علِمْتُ أنِّى قَدْ خُنْتُ اللهَ ورسولَهُ، فنزل وشدَّ نَفْسَهُ إلى ساريةٍ في المسجد، وقال: والله لا أذُوقُ طعاماً ولا شَرَاباً حتى أمُوتَ، أوْ يَتوبَ اللهُ علَيَّ، فَمَكَثَ سَبْعَةَ أيامٍ حتى خَرَّ مَغْشِياً علَيْهِ، ثم تَابَ اللهُ عليْهِ، فَقِيلَ لَهُ: قد تِيبَ علَيْكَ فَحُلَّ نفسك، فقال:

---

(١) الآية ٥ من سورة القصص.

لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء رسولُ الله ﷺ فحلَّه، فقال: إنَّ من تَمام تَوْبَتِي أن أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فيها الذَّنب، وأنْ أنخلِعَ من مَالِي، فقال ﷺ: «يَجْزِيكَ الثُّلثُ أنْ تَتَصدَّقَ بِهِ»(١).

ثم قال تعالى: ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ فيما بينكم، أو فيما أسر الرسول إليكم من السر فتفشوه، ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هي من شأن اللئام، كما قال الشاعر:

لا يَكْتمُ السرَّ إلا كلُّ ذِي ثِقَةٍ		فالسرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

أو: وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادُكُم فتنةٌ ﴾؛ لأنه سبب الوقوع في الإثم والعقاب، أو محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، كما فعل أبو لبابة. ﴿ وأنَّ الله عنده أجرٌ عظيم ﴾ لمن آثر رضا الله ومحبته عليهم، وراعى حُدود الله فيهم، فعلِّقوا هممكم بما يؤديكم إلى أجره العظيم، ورضاه العميم، حتى تفوزوا بالخير الجسيم.

الإشارة: خيانة الله ورسوله تكون بإظهار الموافقة وإبطان المخالفة، بحيث يكون ظاهره حسن وباطنه قبيح، وهذا من أقبح الخيانة، وينخرط فيه إبطان الاعتراض على المشايخ وإظهار الوفاق، وهو من أقبح العقوق لهم، وأما خيانة الأمانة فهي إفشاء أسرار الربوبية لغير أهلها، فمن فعل ذلك فسيف الشريعة فوق رأسه، إذا كان سالكاً غير مجذوب، لأن من أفشى سر الملك استحق القتل، وكان خائناً، ومن كان خائنًا لا يُؤمن على السر، فهو حقيق أن ينزع منه، إن لم يقتل أو يتب، ولله در القائل:

سَأَكْتُم عِلْمِي عَنْ ذَوِي الجَهْلِ طَاقَتِي(٢)		وَلاَ أَنْثُرُ الدُّر النفيس على الْبَهَمْ

فإنْ قَدَّرَ اللهُ الكريمُ بلطْفِهِ		وَلاَقَيْتُ أهلاً للعلوم وللحِكَمْ

بَذَلْتُ عُلومِي واسْتَفَدتُ عُلُومَهُمْ		وإلاَّ فمخزونٌ لَدَيَّ ومُكْتَتَمْ

(١) أخرجه عن قتادة ـ مرسلاً ـ ابن جرير في التفسير، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن جرير.

(٢) إذا لم يعلم الجاهل وكتمنا عنه العلم، فما فائدة العلم إذن..؟!

ثم دلهم على ما فيه دواء القلوب ومحو العيوب، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله﴾، كما أمركم، ﴿يجعل لكم فرقانًا﴾؛ نورًا في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح. **قال ابن جزي:** وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة. هـ. أو: نصرًا يُفرق بين المحق والمبطل؛ بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجًا من الشبهات، أو نجاة مما تحذرون في الدارين من المكروهات، أو ظهورًا يشهر أمركم ويثبت صيتكم، من قولهم: سطع فرقان الصبح، أي: نوره، ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي: يسترها، فلا يفضحكم يوم القيامة، ﴿ويغفرْ لكم﴾؛ يتجاوز عن مساوئكم، أو يكفر صغائركم ويغفر كبائركم، أو يكفر ما تقدم ويغفر ما تأخر، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾، ففضله أعظم من كل ذنب، وفيه تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، لا أن تقواهم أوجبت ذلك عليه، كالسيد إذا وعد عبده أن يعطيه شيئًا في مقابلة عمل أمره به، مع أنه واجب عليه لا محيد له عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الفرقان الذي يلقيه الله في قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية، التي ترد على القلوب من حضرة الغيوب، وهي ثلاثة أقسام: **وارد الانتباه:** وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة، فيترك غفلته وهواه، وينهض إلى مولاه، **ووارد الإقبال:** وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب، **ووارد الوصال:** وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان، ونور الشهود، أو بين ظلمة سحاب الأثر وشهود شمس العرفان.

وإلى هذه الواردات الثلاثة أشار في الحكم بقوله: «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا، أورد عليك الوارد ليسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

ثم ذكّر نبيه ﷺ بما فعل معه من الحفظ والرعاية من أعدائه اللئام، فقال:

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر، يا محمد، نعمة الله عليك بحفظه ورعايته لك ﴿إذ يمكُر بك الذين كفروا﴾ من قريش، حين اجتمعوا في دار الندوة ﴿ليُثْبِتُوكَ﴾ أي: يحبسوك في الوثاق والسجن، ﴿أو يقتلوك﴾ بسيوفهم، ﴿أو يُخرجوك﴾ من مكة.

وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم للنبي ﷺ، خافوا على أنفسهم، واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البَختري: أرى أن تحبسوه في بيت، وتسدوا منافذه، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه فيها، حتى يموت، فقال الشيخ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: أرى أن تحملوه على جمل، فتخرجوه من أرضكم، فلا يضركم ما صنع، فقال الشيخ: بئس الرأي، يُفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً، فتضربوه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإن طلبوا العقل عقلناه. فقال الشيخ: صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريلُ النبي ﷺ وأخبره الخبر، وأمره بالهجرة، فبيت عليّاً رضي الله عنه على مضجعه، وخرج مع أبي بكر إلى الغار، ثم سافر مهاجراً إلى المدينة(١).

قال تعالى: ﴿ويمكرون ويمكر اللهُ﴾؛ برد مكرهم عليهم، أو مجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم، بأن أخرجهم إلى بدر، وقلل المسلمين في أعينهم، حتى تجرءوا على قتالهم، فقُتلوا وأُسِروا، ﴿والله خيرُ الماكرين﴾؛ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن، للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداء؛ لما فيه من إيهام الذم. قاله البيضاوي.

الإشارة: وإذ يمكر بك أيها القلب الذين كفروا، وهم القواطع من العلائق والحظوظ والشهوات، ليحبسوك في سجن الأكوان، مسجوناً بمحيطاتك، محصوراً في هيكل ذاتك، أو يقتلوك بالغفلة والجهل وتوارد الخواطر والأوهام، أو يُخرجوك من حضرة ربك إلى شهود نفسك، أو من صحبة العارفين إلى مخالطة الغافلين، أو من حصن طاعته إلى محل الهلاك من موطن معصيته، أو من دائرة الإسلام إلى الزيغ والإلحاد، عائذاً بالله من المحن، والله خير الماكرين، فيرد كيد الماكرين، وينصر أولياءه المتوجهين والواصلين. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير، وأبو نعيم في الدلائل (باب عصمة رسول الله ﷺ حين تعاهد المشركين على قتله) عن ابن عباس، وأخرجه عبدالرزاق، في المصنف: (المغازي، باب من هاجر إلى الحبشة) عن عروة بن الزبير. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (باب خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر إلى المدينة) عن عائشة رضي الله عنها..

ثم ذكر مساوئ أهل المكر، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت : «إذا»: ظرفية شرطية، خافضة لشرطها، معمولة لجوابها، أي: قالوا وقت تلاوة الآيات: لو نشاء ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا ﴾ القرآنية ﴿ قالوا قد سمعنا ﴾ ما تتلوه علينا، ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾ أي: أخبارهم المسطورة أو أكاذيبهم المختلقة. قال البيضاوي: وهذا قول النَّضْر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاصهم، أي: يقص عليهم أخبار فارس والروم، فإذا سمع القرآن يقص أخبار الأنبياء قال: لو شئتُ لقلتُ مثل هذا، أو قول الذين ائتمروا في شأنه: وهذا غاية مكائدهم، وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك لسارعوا إليه، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلَبوا، خصوصاً في باب البيان؟ هـ. بالمعنى.

الإشارة: هذه المقالة بقيت سُنةً في أهل الإنكار على أهل الخصوصية، إذا سمعوا منهم علوماً لدنية، أو أسراراً ربانية، أو حِكماً قدسية، قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وهم لا يقدرون على كلمة واحدة من تلك الأسرار، وهذا الغالب على المعاصرين لأهل الخصوصية، دون من تأخر عنهم، فإنهم مغرورون عنده، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(١).

ثم ذكر استعجالهم للعذاب؛ عناداً وعتواً، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلت : «الحق»: خبر كان.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ قالوا اللهم إن كان هذا ﴾ الذى أتى به محمد ﴿ هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماءِ ﴾ ؛ كأصحاب لوط، ﴿ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ، قيل: القائل هذا هو النَّضْر بن الحارث، وهو أبلغ فى الجحود. رُوى أنه لما قال: «إن هذا إلا أساطير الأولين»، قال له النبى ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال هذه المقالة. والذى فى صحيحى البخارى ومسلم: أن القائل هو أبو جهل[1]، وقيل: سائر قريش لمَّا كذبوا النبى ﷺ دعوا على أنفسهم، زيادة فى تكذيبهم وعتوهم. وقال الزمخشرى: ليس بدعاء، وإنما هو جحود، أى: إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا، لكنه ليس بحق فلا نستوجب عقاباً. بالمعنى.

الإشارة: قد وقعت هذه المقالة لبعض المنكرين على الأولياء، فعجلت عقوبته، ولعل ذلك الولى لم تتسع دائرة حلمه ومعرفته، وإلا لكان على قدم نبيه ﷺ؛ حيث قال الله تعالى فى شأنه:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان الله ليُعذبهم وأنت ﴾ موجود ﴿ فيهم ﴾ ، ونازل بين أظهرهم، وقد جعلتك رحمة للعالمين، خصوصاً عشيرتك الأقربين، ﴿ وما كان الله مُعذِّبَهم وهم يستغفرون ﴾ قيل: كانوا يقولون: غفرانك اللهم، فلما تركوه عُذبوا يوم بدر، وقيل: وفيهم من يستغفر، وهو من بقى فيهم من المؤمنين، فلما هاجروا كلهم عُذبوا، وقيل: على الفرض والتقدير، أى: ما كان الله ليعذبهم لو آمنوا واستغفروا.

قال بعض السلف: كان لنا أمانان من العذاب: النبى ﷺ والاستغفار، فلما مات النبى ﷺ ذهب الأمان الواحد وبقى الآخر[2]، والمقصود من الآية: بيان ما كان الموجب لإمهاله لهم والتوقف على إجابة دعائهم، وهو وجوده ﷺ أو من يستغفر فيهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ أى: وأىُّ شىء يمنع من عذابهم؟ وكيف لايعذبون ﴿ وهم يصُدُّون ﴾ الناس ﴿ عن المسجد الحرام ﴾ ؟ أى: يمنعون المتقين من المسجد الحرام، ويصدون رسوله عن

---

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الأنفال) ومسلم فى (صفات المنافقين، باب فى قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رسول الله ﷺ باقٍ فينا بهديه وسنته، ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾.

الوصول إليه. ﴿ وما كانوا أولياءَهُ ﴾ المستحقين لولايته مع شركهم وكفرهم، وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام؛ فنصد من نشاء ونُدخل من نشاء. قال تعالى: ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ﴾ أى: ما المستحقون لولايته إلا المتقون، الذين يتقون الشرك والمعاصى، ولا يعبدون فيه إلا الله، ويعظمونه، حق تعظيمه. ﴿ ولكنَّ أكثرهم لايعلمون ﴾ أن لا ولاية لهم عليه، وإنما الولاية لأهل الإيمان، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ويعاند، أو أراد به الكل، كما يراد بالقلة العدم. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد جعل الله رسوله ﷺ أمانًا لأمته مادام حيًا، فلما مات ﷺ بقيت سنته أمانًا لأمته، فإذا أُميتت سنته أتاهم ما يوعدون من البلاء والفتن، وكذلك خواص خلفائه، وهم العارفون الكبار، فوجودهم أمان للناس، فقد قالوا: إن الإقليم الذى يكون فيه القطب لا يصيبه قحط ولابلاء، ولا هرج ولا فتن؛ لأنه أمان لذلك الإقليم، خلافة عن رسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تلاعبهم بالدين، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان صلاتهم ﴾ التى يصلــونها فى بيت الله الحرام، ويسمونها صلاة، أو ما يضعون موضعها، ﴿ إلا مكاءً ﴾ أى: تصفيرًا بالفم، كما يفعله الرعاة، ﴿ وتصديةً ﴾ أى: تصفيقًا باليد، الذى هو من شأن النساء، مأخوذ من الصدى، وهو صوت الجبال والجدران. قال ابن جزى: كانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون، ليخلطوا عليهم صلاتهم.

وقال البيضاوى: رُوى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبى ﷺ أن يُصلى، يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً، ومساق الآية: تقرير استحقاقهم العذاب المتقدم فى قوله: ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. هـ.

قال تعالى: ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ الذى طلبتم، وهو القتل والأسر يوم بدر، فاللام للعهد، والمعهود: (أو ائتنا بعذاب أليم)، أو عذاب الآخرة، ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أى: بسبب كفركم اعتقادًا وعملاً.

الإشارة: وما كان صلاة أهل الغفلة عند بيت قلوبهم إلا ملعبة للخواطر والهواجس، وتصفيقًا للوسواس والشيطان، وذلك لخراب بواطنهم من النور، حتى سكنتها الشياطين واستحوذت عليها، والعياذ بالله، فيقال لهم: ذوقوا عذاب الحجاب والقطيعة، بما كنتم تكفرون بطريق الخصوص وتبعدون عنهم. والله تعالى أعلم.

ولما سلمت عير قريش من النبي ﷺ، ووقعت غزوة بدر، وكان مات فيها صناديدهم، حبس أبو سفيان ذلك المال، وأنفقه في حرب رسول الله ﷺ، فأنزل الله في ذلك وفي غيره، ممن أنفق في إعانة الكفار على حرب المسلمين قوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدوا﴾ بذلك ﴿عن سبيلِ الله﴾، ويُحاربون الله ورسوله. قيل: نزلت في أصحاب العير؛ فإنه لما أُصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا، وقيل: في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم، كل يوم، عشر جزر، وقيل: في أبي سفيان، استأجر ليوم أُحد ألفين من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية.

قال تعالى: ﴿فسينفقونها﴾ بتمامها، ﴿ثم تكون عليهم حسرةً﴾ يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة، فيصير إنفاقها ندماً وغماً، لفواتها من غير حصول المقصود، وجعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها؛ مبالغةً. قال البيضاوي: ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق بدر، والثاني عن إنفاقهم فيما يُستقبل، وهو إنفاق غزوة أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق، ومساق الثاني لبيان عاقبته، وهو لم يقع بعد.هـ. قلت: وهذا الأخير هو الأحسن.

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿والذين كفروا﴾ أي: الذين ثبتوا على الكفر منهم؛ إذ أسلم بعضهم، ﴿إلى جهنم يُحشرون﴾؛ يضمون ويُساقون، ﴿ليَميزَ الله الخبيثَ من الطيِّبِ﴾؛ الكافرين من المؤمنين، أو الفساد من الصلاح، أو ما أنفقه المشركون في عدواة رسول الله ﷺ، وما أنفقه المسلمون في نصرته، أي: حشرهم إليه ليفرق بين الخبيث والطيب، ﴿ويجعل الخبيثَ بعضَهُ على بعض فيركُمَه﴾ أي: يجمعه، أو يضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكموا من فرط ازدحامهم، ﴿فيجعَلَهُ في جهنم﴾ كله، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، والإشارة تعود على الخبيث؛ لأنه بمعنى الفريق الخبيث، أو على المنفقين ليصدوا عن سبيل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنفق ماله في لهو الدنيا وفرجتها، من غير قصدٍ حسن، بل لمجرد الحظ والهوى، تكون عليه حسرة وندامة، تنقضي لذاته وتبقى تبعاته، وهو من كفران نعمة المال، فهو معرض للزوال، وإن بقي فهو استدراج، وعلامة إنفاقه في الهوى: أنه إن أتاه فقير يسأله درهمًا منعه، وينفق في النزهة والفرجة الثلاثين والأربعين، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه، والعياذ بالله.

ثم ندب إلى التوبة، فقال:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل للذين كفروا﴾؛ كقريش وغيرهم: ﴿إن ينتهوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول بالدخول في الإسلام، ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ من ذنوبهم، ولو عظمت، ﴿وإن يعودوا﴾ إلى الكفر وقتاله ﴿فقد مضت سُنّتُ الأولين﴾ أي: مضت عادتي مع الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير والهلاك، كعاد وثمود وأضرابهم، وكما فعل بهم يوم بدر، فليتوقعوا مثل ذلك، وهو تهديد وتخويف.

الإشارة: قل للمنهمكين في الذنوب والمعاصي: لا تقنطوا من رحمتي، فإني لا يتعاظمني ذنب أغفره، فإن تنتهوا أغفر لكم ما قد سلف. وأنشدوا:

يستوجب العَفْوَ الفتى، إذا اعترف ... بما جَنَى، وما أتى، وما اقْتَرفْ

لقوله: (قُل للذين كفروا ... إنْ ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلفْ)

وللشافعي رضي الله عنه:

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي، فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي، كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

فَمَا زِلْتَ ذَا جُودٍ وَفَضْلٍ وَمِنَّةٍ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

فإن لم ينته المنهمك في الهوى فقد مضت سُنة الله فيه؛ بالطرد والإبعاد، ويخاف عليه سوء الختام، والعياذ بالله.

ثم أمر بجهاد من لم ينته عن كفره، فقال:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: وقاتلوا من لم ينته عن كفره ﴿ حتى لا تكونَ فتنة ﴾، أي: حتى لايوجد منهم شرك، فهو كقوله عليه الصلاة السلام: «أُمرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتّى يقُولُوا: لا إله إلاّ الله»[1]. ﴿ ويكون الدين كلُّه لله ﴾ بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق، ﴿ فإن انتهوا ﴾ عن الكفر وأسلموا، ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾؛ فيجازيهم على انتهائهم، وقرأ يعقوب بتاء الخطاب؛ على معنى: ﴿ فإن الله بما تعملون ﴾ يا معشر المسلمين؛ من الجهاد، والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ﴿ بصير ﴾ فيجازيكم، ويضاعف أجوركم بمن أسلم على أيديكم.

﴿ وإن تَولَّوا ﴾، ولم ينتهوا عن كفرهم، ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾؛ ناصركم، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم، ﴿ نِعْمَ المولى ﴾؛ فلا يضيع من تولاه، ﴿ ونِعْمَ النصير ﴾؛ فلا يغلب من نصره.

الإشارة: يؤمر المريد بجهاد القواطع والعلائق والخواطر، حتى لا يبقى في قلبه فتنة بشيء من الحس، ويكون القلب كله لله، فإن انتهت القواطع فإن الله بصير به، يجازيه على جهاده، ومجازاته: إدخاله الحضرة المقدسة، مع المقربين، وإن لم ينته فليستمر على مجاهداته وانقطاعه إلى ربه، وليستنصر به في مجاهدته، فإن الله مولاه وناصره، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم ذكر قَسْمَ الغنائم التي تنشأ عن القتال، فقال:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ) ومسلم في (الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت : (فأن لله) : مبتدأ حُذف خبره، أي: فكون خمسه لله ثابت، أو خبر، أي: فالواجب كون خمسه لله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واعلموا أنما غَنِمتُم من شيء ﴾ مما أخذتموه من الكفار؛ قهراً بالقتال، لا الذى هربوا عنه بلا قتال، فكله للإمام فَىء، يأخذ حاجته ويصرف باقيه فى مصالح المسلمين، ولا الذى طرحه العدو خوف الغرق، فلواجده، بلا تخميس، وكذا ما أخذه من كان ببلاد العرب على وجه التلصيص، فأما ما أخذه بالقتال: فلله ﴿ خُمُسَه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابن السبيل ﴾؛ الجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[1]، وإنما المراد: قسم الخمس على الخمسة الباقية.

واختلف العلماء فى الخمسة، فقال مالك: الرأى للإمام، يلحقه ببيت الفَىء، ويعطى من ذلك البيت لقرابة رسول الله ﷺ ما رءاه، كما يعطى منه اليتامى والمساكين وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه عليهم، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي : يعطى للخمسة المعطوفة على (الله)، ولا يجعل لله سهماً مختصاً، وإنما ذكر ابتداء تعظيماً، لأن الكل ملكه، وسهم الرسول يأخذه الإمام، يصرفه فى المصالح، فيعطى للأربعة المعطوفة على الرسول، ويفضل أهل الحاجة. وقال مالك: لا يجب التعميم، فله أن يعطى الأحوج، وإن حرم غيره، ومبنى الخلاف: هل اللام لبيان المصرف أو للاستحقاق، كما فى آية الزكاة.

وقال أبو حنيفة : على ثلاثة أسهم، لليتامى والمساكين وابن السبيل، قال: وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام. وقال أبو العالية : يقسم على ستة، أخذاً بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة، وسهم الرسول فى مصالح المسلمين، وسهم ذوى القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال البيضاوي : وذوو القربى: بنو هاشم، وبنو المطلب، لما روى: أنه ﷺ قسم سهم ذوي القربى عليهما، فقال عثمان وجبير بن مطعم: هؤلاء إخوانك بنوهاشم لاننكر فَضْلَهُمْ لمكانك الذى جعلك اللهُ منْهُمْ، أرأيت إخواننا من بني المطلب، أعْطيْتهمْ وحرمْتنا، وإنَّما نحنُ وهُمْ بمنْزلةٍ واحدةٍ؟ فقَالَ عليه الصلاة والسلام: «إنَّهُمْ لَمْ يُفارقُونَا في جاهليةٍ ولا إسلام» وشبَّكَ بيْنَ أصابعه[2]. وقيل: بنو هاشم وحدهم. قلت : وهو مشهور مذهب مالك ـ وقيل: جميع قريش. هـ.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.
(٢) أخرجه أبو داود فى (الخراج ـ باب فى بيان مواضع قسم الخمس) وابن ماجه فى (الجهاد ـ باب قسمة الخمس) من حديث جبير بن مطعم، وفى البخارى بعضه، راجع صحيح البخارى (فرض الخمس ـ باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام).

ثم قال تعالى: ﴿ إنْ كنتم آمنتم بالله ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء، فسلموه إليه، واقنعوا بالأخماس الأربعة، ﴿ وما ﴾ وكذا إن كنتم آمنتم بما ﴿ أنزلنا على عبدنا ﴾ محمد ﷺ من القرآن، في شأن الأنفال، ومن النصر والملائكة، ﴿ يوم الفرقان ﴾؛ يوم بدر، فإنه فرّق فيه بين الحق والباطل، ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾؛ المسلمون والكفار، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾؛ فيقدر على نصر القليل على الكثير، بالإمداد بالملائكة، وبلا إمداد، ولكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والوسائط، والله حكيم عليم.

الإشارة: واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم اللدنية، والمواهب القدسية، والأسرار الربانية، بعد مجاهدة العلائق والعوائق، حتى صار دين القلب كله لله، فلله خمسه؛ فناء، وللرسول؛ بقاءً، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ تعظيماً وآداباً. يعني: أن العلم بالله يقتضي القيام بهذه الوظائف: الفناء في الله بالغيبة عما سواه، وشهود الداعي الأعظم، وهو رسول الله، والأدب مع عباد الله، ليتحقق الأدب مع الله. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم بيّن يوم الفرقان، فقال:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾

قلت: (إذ): بدل من (يوم الفرقان)، أو ظرف لالتقى، أو لاذكر، محذوفة، والعدوة مثلث العين: شاطئ الوادي، و(الدنيا) أي: القربى، نعت له، و(القصوى): تأنيث الأقصى، وكان قياسه: قلب الواو ياء، كالدنيا والعليا؛ تفرقة بين الإسم والصفة، فجاء على الأصل،كالقود، وسُمع فيه: «القصيا» على الأصل، وهو شاذ. و(الركب): مبتدأ، و(أسفل): ظرف خبره.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا ﴿ إذ أنتم بالعُدْوَة الدنيا ﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، ﴿ وهم ﴾ أي: كفار قريش، ﴿ بالعُدْوَة القصوى ﴾ أي: البعيدة منها، ﴿ والركبُ ﴾ أي: العير التي قصدتكم، ﴿ أسفل منكم ﴾ أي: في مكان أسفل منكم، يعني الساحل، ثم جمع الله بينكم على غير ميعاد، ﴿ ولو تواعدتُم ﴾ لهذا الجمع، أنتم وهم للقتال، ثم علمتم حالكم وحالهم ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ ؛ هيبة منهم؛ لكثرتهم وقلتكم، لتتحققوا أن ما اتفق لكم من الفتح والظفر ليس إلا صنيعًا من الله تعالى خارقًا للعادة، فتزدادوا إيمانًا وشكرًا، ﴿ ولكن ﴾ الله جمع بينكم من غير ميعاد؛ ﴿ ليقضيَ اللهُ أمرًا كان مفعولاً ﴾ ؛ سابقًا في الأزل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه في ذلك اليوم، لا يتخلف عنه ساعة.

﴿ ليَهلِكَ من هلك عن بينة ويحيى مَنْ حَيَّ عن بينة ﴾ ، أي: قدّر ذلك الأمر العجيب ليموت من يموت عن بينة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة، فكل من عاينها ولم يؤمن قامت الحجة عليه. أو ليهلك بالكفر من هلك عن بينة وحجة قائمة عليه، ويحيى بالإيمان من حي به عن بينة من ربه، ﴿ وإنَّ الله لسميعٌ عليمٌ ﴾ بكفر من كفر وإيمان من آمن، فيجازي كلاً على فعله. ولعل الجمع بين وصف السمع والعلم؛ لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

واذكر أيضا ﴿ إذْ يُريكَهُمُ الله فيُ منامك قليلاً ﴾ ، كان ﷺ قد رأى الكفار في نومه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فقويت نفوسهم وتجرءوا على قتالهم، وكانوا قليلاً في المعنى، ﴿ ولو أراكَهُمْ كثيراً ﴾ في الحس ﴿ لفشِلْتم ﴾ لجبنتم، ﴿ ولتنازعتم في الأمر ﴾ ؛ في أمر القتال، وتفرقت آراؤكم، ﴿ ولكنَّ الله سلّم ﴾ أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع؛ ﴿ إنه عليمٌ بذات الصدور ﴾ أي: يعلم ما يكون فيها من الخواطر وما يغير أحوالها.

﴿ و ﴾ اذكر أيضا ﴿ إذْ يُريكُموهم ﴾ أي: يريكم الله الكفار، ﴿ إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ ، حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة، تثبتاً وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ، ﴿ ويُقلِّلكم في أعينهم ﴾ ، حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور ـ بفتح الهمزة والكاف ـ جمع آكل ـ، أي: قدر ما يكفيهم جذور في أكلهم .

قال البيضاوي : قللهم في أعينهم قبل التحام القتال؛ ليجترءوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثّرهم حين رأوهم مثليهم؛ لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الوقعة، فإن البصر، وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ، مع التساوي في المرئي. هـ.

وإنما فعل ذلك في الجهتين؛ ﴿ ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي: ليظهر الله أمراً كان سبق به القضاء والقدر، فكان مفعولاً في سابق العلم، لا محيد عنه، ومن شأن الحكمة إظهار الأسباب والعلل، كما أن من شأن القدرة إبراز ما سبق في الأزل، وإنما كرره؛ لاختلاف الفعل المعلل به؛ لأن الأول علة لالتقائهم من غير ميعاد، وهنا لتقليلهم في أعين الكفرة، أو للتنبيه على أن المطلوب من العبد هو النظر إلى سابق القدر، ليخف عليه ما يبرز منه من الشدائد والأهوال، ولذلك قال أثره: ﴿ وإلى الله تُرجعُ الأمور ﴾، وإذا كانت الأمور كلها راجعة إلى الله تعالى فلا يسع العبد إلا الرضا والتسليم لكل ما يبرز منها، **فكل ما يبرز من عند الحبيب حبيب**. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح والأسرار بالعُدوة القريبة من بحر الحقائق، ليس بينها وبينه إلا إظهار أدب العبودية، وهو الذي بين بحر الحقيقة والشريعة، والأنفس وسائر القواطع بالعدوة القصوى منه، والقلب، الذي هو الركب المتنازع فيه، بينهما، أسفل من الروح، وفوق مقام النفس، الروح تريد أن تجذبه إليها ليسكن الحضرة، والنفس وجنودها تريد أن تميله إليها ليسكن وطن الغفلة معها، والحرب بينهما سجال، تارة ترد عليه الواردات الإلهية، التي هي جند الروح، فتنزل عليه بغتة من غير ميعاد، فتجذبه إلى الحضرة.

وتارة ترد عليه الخواطر والهواجم الردية فتحطه إلى أرض الحظوظ بغتة، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً في سابق علمه، فإذا أراد الله عناية عبد قلّل عنه مدد الأغيار، حتى يراها كلا شيء، وقواه بمدد الأنوار حتى يغيب عنه كلُ شيء، فتذهب عنه ظلمة الأغيار، وإذا أراد الله خذلان عبد قطع عنه مدد الأنوار، وقوى عليه مدد الأغيار، حتى ينحط إلى الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله من سوء القضاء والقدر، وإليه الإشارة بقوله: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) الآية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يقوى مدد الأنوار، وهو الصبر والذكر، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت : (بطراً ورئاء) : مصدران في موضع الحال، أي: بطرين ومرائين، أو مفعول لأجله، و(يصدُّون) : عطف على (بطرا) ؛ على الوجهين، أي: صادين، أو للصد.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً ﴾ ؛ جماعة من الكفار عند الحرب، ﴿ فاثبتُوا ﴾ للقائهم، ولا تفروا، ﴿ واذكروا الله ﴾ في تلك الحال سراً داعين له، مستظهرين بذكره، متوجهين لنصره، معتمدين على حوله وقوته، غير ذاهلين عنه بهجوم الأحوال وشدائد الأهوال؛ إذ لا يذكر الله تعالى في ذلك الحال إلا الأبطال من الرجال، ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ بالظفر وعظيم النوال. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي ألا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه بشراشره[1]، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في جميع الأحوال. هـ.

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فإن الطاعة مفتاح الخيرات، ﴿ ولا تنازعوا ﴾ باختلاف الأراء، كما فعلتم في شأن الأنفال، ﴿ فتفشلوا ﴾ وتجبنوا، ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ أي: ريح نصركم بانقطاع دولتكم، شبه النصر والدولة بهبوب الريح؛ من حيث إنها تمشي على مرادها، لا يقدر أحد أن يردها، وقيل: المراد بها الريح حقيقة، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثه الله من ناحية المنصور تذهب إلى ناحية المخذول. وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُورِ»[2]. ﴿ واصبرُوا إن الله مع الصابرين ﴾ بالمعونة والكلاءة والنصر .

﴿ ولاتكونُوا كالذين خرجُوا من ديارهم ﴾، يعني: أهل مكة، خرجوا ﴿ بطراً ﴾ أي: فخراً وأشَراً ﴿ ورئاء الناس ﴾؛ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسولُ أبي سفيان، يقول لهم: ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نأتي بدراً، ونشرب بها الخمور، وتغني علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فتسمع بنا سائر العرب، فتهابنا، فوافوها، ولكن سُقوا بها كَأس المنايا، وناحت عليهم النوائح؛ مما نزل بهم من البلايا، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، لأن النهي عن الشيء أمرٌ بضده. ﴿ ويصدّون عن سبيل الله ﴾ أي: خرجوا ليصدوا الناس عن طريق الله، باتباع طريقهم، ﴿ والله بما يعملون محيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه.

الإشارة : خاطب الله المتوجهين إليه، السائرين إلى حضرته، وأمرهم بالثبوت ودوام السير، وبالصبر ولزوم الذكر عند ملاقاة القواطع والشواغب، وكل ما يصدهم عن طريق الحضرة، وذلك بالغيبة عنه والاشتغال بالله عنه،

(١) أي: بجملته، واحده: شُرْشُرة.
(٢) أخرجه البخاري في (الاستسقاء ـ باب قول النبي ﷺ: «نُصرت بالصبا») ومسلم في (الاستسقاء ـ باب ريح الصباء والدبور). عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وعدم الإصغاء إلى خوضه وتكديره، فمن صبر ظفر، ومن دام على السير وصل، وأمرهم أيضًا بطاعة الله ورسوله، ومن يدلهم على الوصول إليه، ممن هو خليفة عنه في أرضه، وأمرهم بعدم المنازعة والملاججة، فإن التنازع يُوجب تفرق القلوب والأبدان، ويوجب الفشل والوهن، ويذهب بريح النصر والإعزاز، كما أن الوفاق يوجب النصر ودوام العز.

ونهاهم عن التشبه بأهل الخوض والتكدير، ممن أولع بالطعن والتنكير، بل يكونون على خلافهم مخلصين في أعمالهم وأحوالهم، دالين على الله، داعين إلى طريق الله، يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، وهذه صفة أهل الله. نفعنا الله بذكرهم. آمين .

ثم ذكر الباعث على خروج الكفار لغزوة بدر، فقال :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإذْ زيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾ السيئة، ومن جملتها: خروجهم إلى حربك؛ بأن وسوس لهم، ﴿ وقال لا غالبَ لكم اليومَ من الناس وإني جارٌ لكم ﴾ ، قيل: قال لهم ذلك مقالة نفسانية، بأن ألقى في رُوعهم، وخيَّل إليهم أنهم لا يُغلبون ولا يطاقون، لكثرة عَددهم وعُددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه في ذلك قربة مجيرة لهم من المكاره.

﴿ فلما تراءاتِ الفئتان ﴾ أي: تلاقى الفريقان، ورأى بعضهم بعضاً، ﴿ نكصَ على عقبيه ﴾ ، رجع القهقهرى، أي: بطل كيده، وعاد ماخيل لهم أنه مجير لهم سبب هلاكهم، ﴿ وقال إني بريء منكم إني أرى مالا تَرْون إني أخافُ الله ﴾ ، أي: تبرأ منهم وخاف عليهم، وأيس من حالهم، لمّا رأى إمداد المسلمين بالملائكة.

وقيل: إن هذه المقالة كانت حقيقة لسانية . رُوي أن قريشًا، لما اجتمعت على المسير إلى بدر، ذكرت ما بينهم وبين بني كنانة من العداوة، فهموا بالرجوع عن المسير، فمثَّل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك الكناني، وقال: لا غالب لكم اليوم وإني جارٌ لكم، وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبيه، وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فقال له: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى مالا ترون، ودفع في صدر الحارث، فانطلق وانهزموا، فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم النَّاسَ سُرَاقَةُ، فبلغه ذلك، فقال: والله ماشعرت بسيركم حتى بلغني هزيمتكم! فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

وعلى هذا، يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿ إني أخافُ الله ﴾ أي: أخاف أن يصيبني مكروهاً من الملائكة، أو يهلكني، ويكون هذا الوقت هو الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم ير قبله. والأول: ما قاله الحسن، واختاره ابن حجر. وقال الورتجبي: أي: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحققاً في خوفه ما عصى الله طرفة عين. هـ.

وذكر ابن حجر عن البيهقي، عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ، قال: هبت ريح شديدة، فلم أر مثلها، ثم هبت ريح شديدة، وأظنه ذكر ثالثة، فكانت الأولى جبريل، والثانية ميكائيل، والثالثة إسرافيل، وكان ميكائيل عن يمين النبي ﷺ، وفيها أبوبكر، وإسرافيل عن يساره، وأنا فيها . وعن عليّ أيضاً: قيل لي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف ويشهد القتال. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ والله شديدُ العقاب ﴾، يجوز أن يكون من كلام إبليس، وأن يكون مستأنفا.

الإشارة: عادة الشيطان مع العوام أن يُغريهم على الطعن والإنكار على أولياء الله، وأيذائهم لهم، فإذا رأى غيرة الله على أوليائه نكص على عقبيه، وقال: إني منكم بريء؛ إني أرى مالا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب.

ثم ذكر مقالة المنافقين في شأن المسلمين، حيث خرجوا لغزوة بدر، فقال:

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكروا ﴿ إذْ يقول المنافقون ﴾ من أهل المدينة، أو نفر من قريش كانوا أسلموا وبقوا بمكة، فخرجوا يوم بدر مع الكفار، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن ربيعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، ﴿ و ﴾ هم ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي: شك؛ لم تطمئن قلوبهم، بل بقي فيها شبهة، قالوا: ﴿ غرَّ هؤلاء دِينُهم ﴾ أي: اغتر المسلمون بدينهم، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله: ﴿ ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيزٌ ﴾ أي: غالب لايذل من استجار به، وإن قلّ، ﴿ حكيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل، ويعجز عن دركه الفهم.

الإشارة: إذا عظم اليقين في قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام، تستغرب العادة إدراكها، أو يغلب العطب فيها، فيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: غرَّ هؤلاء طريقتهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز

لايُغلبُ، ولا يُغلبُ من انتسب إليه، وتوكل في أموره عليه، حكيم فلا يَخرج عن حكمته وقدرته شيء، أو عزيز لايُذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ به، والتجأ إلى ذِماره(١)، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، قاله في الإحياء. ثم قال: وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد هو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهار. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عاقبة أهل النفاق والريب، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: جواب (لو) محذوف، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، و(الملائكة): فاعل (يتوفى) فلا يوقف على ما قبله، ويرجحه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير (الله)، و(الملائكة): مبتدأ، و(يضربون): خبر، والجملة: حال من (الذين كفروا)، والرابط: ضمير الواو، وعلى هذا فيوقف على ما قبله، وعلى الأول (يضربون): حال من الملائكة، و(ذوقوا): عطف على (يضربون) على حذف القول، أي: ويقولون ذوقوا. و(ذلك): مبتدأ، و(بما قدمت): خبر، و(أن الله): عطف على «ما»؛ للدلالة على أن مقيدة بانضمامه إليه. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يا محمد، أو يا من تصح منكم الرؤية، حال ﴿الذين كفروا﴾ حين تتوفاهم ﴿الملائكة﴾ ببدر، أو مطلقاً، وهم ﴿يضربون وجوهَهم وأدبارَهم﴾، أو حين يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم، حال كونهم الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم، أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، فيعمونهم بالضرب، أو يضربون وجوههم وظهورهم، أو أستاههم، لرأيت أمرًا فظيعًا. ﴿و﴾ يقولون لهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أي: باشروا ﴿عذابَ الحريق﴾ يوم القيامة؛ بشارة لهم بما يلقون من العذاب في الآخرة. وقيل: تكون معهم مقامع من حديد، كلما ضربوا التهبت النار منها، ﴿ذلك﴾ العذاب إنما وقع بكم ﴿بما﴾؛ بسبب ﴿قدمت أيديكم﴾ أي: بما كسبتم من الكفر والمعاصي، ﴿وأنَّ الله ليسَ بظلامٍ للعبيد﴾؛ حتى يعذب بلا سبب، أو يهمل العباد بلا جزاء.

الإشارة: قد ذكر الحق جل جلاله حال الكاملين في العصيان في هذه الآية، وذكر في سورة النحل الكاملين في الطاعة، بقوله ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ...﴾ الآية(٢) وسكت عن المخلطين، ولعلهم يرون طرفاً من هذا أو طرفاً من هذا. والله تعالى أعلم.

---

(١) الذِّمار: الحوزة والحَرَمُ والأهل.. انظر: اللسان (ذمر). (٢) الآية ٣٢ من سورة النحل.

ثم ذكر حال المتقدمين من الجبابرة، فقال:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت : (كدأب): خبر عن مضمر، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقتهم، التي دأبوا فيها، أي: داموا عليها، (ذلك): مبتدأ، و(بأنّ الله): خبر، وقال سيبويه: خبر، أي: الأمر ذلك، والفاء سببية.

يقول الحق جل جلاله : عادة هؤلاء الكفرة العاصين المعاصرين لك، في استمرارهم على الكفر والمعاصي، كعادة ﴿ آلِ فرعون والذين ﴾ مضوا ﴿ مِنْ قبلهم ﴾، ثم فسر دأبهم فقال: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ الدالة على توحيده، المنزلة على رسله، ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ كما أخذ هؤلاء، ﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾؛ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ ذلك ﴾ العذاب الذى حل بهم، بسبب ذنوبهم وكفرهم؛ لأن ﴿ الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قوم ﴾ فيبدلها بالنقمة، ﴿ حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ﴾ أي: حتى يبدلوا ما بأنفسهم، من حال الشكر إلى حال الكفر، أو من حال الطاعة إلى حال المعصية، كتغيير قريش حالهم: من صلة الرحم، والكف عن التعرض لإيذاء الرسول ومن تبعه، بمعاداة الرسول، والسعي في إراقة دم من تبعه، والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة، ﴿ وأنّ الله سميعٌ ﴾ لما يقولون، ﴿ عليم ﴾ بما يفعلون.

دأبهم في ذلك التغيير ﴿ كَدأب آلِ فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آلَ فرعون ﴾ لمّا بدلوا وغيّروا، ولم يشكروا ما بأيديهم من النعم، ﴿ وكلٌّ ﴾ من الفرق المكذبة ﴿ كانوا ظالمين ﴾؛ فأغرقنا آل فرعون، وقتلنا صناديد قريش؛ بظلمهم، وما كنا ظالمين.

الإشارة: إذا أنعم الله على قوم بنعم ظاهرة أو باطنة، ثم لم يشكروا الله عليها، بل قابلوها بالكفران، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان، فاعلم أن الله تعالى أراد أن يسلبهم تلك النعم، ويبدلها بأضدادها من النقم، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود، فمن أعطي ولم

يشكر، سُلب منها ولم يشعر، والشكر: ألا يُعْصَى الله بنعمه، كما قال الجنيد رضي الله عنه . والله تعالى أعلم

ومن جملة كفران النعم، نقض العهد، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت : (فهم لا يؤمنون) : جملة معطوفة على جملة الصلة، والفاء للتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، و(الذين عاهدت) : بدل بعضٍ من (الذين كفروا)، و(فشرد) : جواب (إما)، والتشريد: تفريق على اضطراب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ شَّر الدوابِّ عند الله﴾ منزلة ﴿الذين كفروا﴾، تحقق كفرهم، وسبق به القدر، ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أبداً؛ لِمَا سبق لهم من الشقاء. نزلت في قوم مخصوصين، وهم بنو قريظة، ﴿الذين عاهدتَّ منهم﴾ أي: أخذت عليهم العهد ألا يعاونوا عليك الكفار، ﴿ثم ينقُضُون عهدَهم في كل مرةٍ﴾ أي: يخونون عهدك المرة بعد المرة، فأعانوا المشركين بالسلاح يوم أُحد، وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم، فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعبُ بن الأشرف في ملأ منهم إلى مكة، فحالفوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقتل مقاتلتهم وسبا ذراريهم، ﴿وهم لا يتقون﴾ شؤم الغدر وتبعته، أو: لا يتقون الله في ذلك الغدر ونصرته للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة السلام: ﴿فإمَّا تَثقفنهُمْ﴾ أي: مهما تصادفهم وتظفر بهم ﴿في الحربِ فشرِّدْ بهم﴾ أي: فرِّق عنك من يُناصبك بسبب تنكيلهم وقتلهم، أو نكِّل بهم ﴿من خَلْفَهم﴾؛ بأن تفعل بهم من النقمة ما يزجرُ غيرهم؛ ﴿لعلهم يذكّرون﴾ أي: لعل من خلفهم يتعظون فينزجروا عن حربك.

﴿وإما تَخافنَّ من قوم﴾ معاهدين ﴿خيانةً﴾ أي: نقض عهد بأمارات تلوح لك، ﴿فانبذْ إليهم﴾ أي: فاطرح إليهم عهدهم ﴿على سواءٍ﴾ أي: على عدل وطريق قصد في العداوة، ولاتناجزهم بالحرب قبل العلم بالنبذ، فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في العلم بنقض العهد، فتستوي معهم في العلم بنقض العهد، ﴿إنَّ الله لا يُحب الخائنين﴾ أي: لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال.

﴿ ولا تحسبن ﴾ ، يامحمد، ﴿ الذين كفروا سبقُوا ﴾ قدرتنـــا، ونجوا من نكالنا؛ ﴿ إنهم لا يُعجزُون ﴾ أى: لا يفوتون فى الدنيا والآخرة، فلا يعجزون قدرتنا، أو لايجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، بل الله مُحيط بهم أينما حلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرفُ الإنسان وكمالهُ فى خمسة أشياء: الإيمان بالله، وبسائر ما يتوقف الإيمان عليه، والوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود. وذله وخستُه فى خمسة أشياء: الكفر والجحود، ونقض العهود، وتعدى الحدود، وعدم الرضى بالموجود، والجزع على المفقود.

وقال القشيرى فى قوله تعالى: ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب... ﴾ الآية: أى: إنْ صَادَفْتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبُهم نقضُ العهد، فاجعلهم عِبْرَةً لمن يأتي بعدهم، لئلا يسلكوا طريقَهم، فيستوجبوا عقُوبتهُم. كذلك مَنْ فَسَخَ عقده مع الله بقلبه، برجوعه إلى رُخَصِ التأويلات، ونزوله إلى السكون مع العادات، يجعله الله نكالاً لمن بعده، بحرمان ما كان خوَّلَه وتنغيصه عليه. ثم قال عند قوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾: يريد، إذا تحقَّقْت خيانة قوم منهم، فَصَرِّح بأن لا عهدَ بينك وبينهم، فإذا حصلت الخيانة زال سمتُ الأمانة، وخيانةُ كل أحدٍ على ما يليق بحاله. هـ.

ثم أمر بالاستعداد للحرب لمن نقض العهد، فقال:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأعدوا لهم ﴾ ، أى: لناقضى العهد، أو لمطلق الكفار، ﴿ ما استطعتم من قوة ﴾ ، أى: ماقدرتم عليه من كل ما يتقوى به فى الحرب. وعن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ألاَ إنَّ القوةَ الرَّمْيُ»(١) قالها ثلاثاً، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر؛ لأنه أعظم القوى، ﴿ و ﴾ أعدوا لهم أيضا ﴿ من رباط الخيل ﴾ أى: من الخيل المربوطة للجهاد، وهو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله، بمعنى مفعول، أو مصدر، أو جمع ربيط؛ كفصيل وفصال.

(١) أخرجه مسلم فى (الإمارة ـ باب فضل الرمى) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

والمراد : الحث على استعداد الخيل العتاق التي تربط وتعلف بقصد الجهاد، وهو من جملة القوة، فهو من عطف الخاص على العام، للاعتناء بأمر الخيل لما فيها من الإرهاب. ولذلك قال: ﴿ تُرهبون به ﴾ أي: تخوفون بذلك الأعداء، أو بما ذكر من الخيل المربوطة، ﴿ عدو الله وعدوكُم ﴾، يعني: كفار مكة، ﴿ وآخرين من دُونهم ﴾ أي: من غيرهم من الكفرة، كفارس والروم وسائر الكفرة، ﴿ لا تعلمونَهم ﴾ أي: لاتعرفونهم اليوم، ﴿ اللهُ يعلمهم ﴾، وسيمكنكم منهم، فتقاتلونهم وتملكون ملكهم، ﴿ وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله ﴾، في شأن الاستعداد وغيره؛ مما يستعان به على الجهاد، ﴿ يُوفَّ إليكم ﴾ جزاؤه، ﴿ وأنتم لا تُظلمون ﴾ بتضييع عمل أو نقص أجر، بل يضاعفه لكم أضعافاً كثيرة، بسبعمائة أو أكثر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وأعدوا، لجهاد القواطع والعلائق التي تعوقكم عن الحضرة، ما استطعتم من قوة، وهو العزم على السير من غير التفات، ومن رباط القلوب في حضرة الحق، تُرهبون به عدو الله، وهو الشيطان، وعدوكم، وهي النفس، وآخرين من دونهم: الحظوظ واللحوظ وخفايا خدع النفوس، لا تعلمونهم، الله يعلمهم؛ كالرياء والشرك الخفي، فإنه يدب دبيب النمل، وما تنفقوا من شيء يُوفَّ إليكم أضعافاً مضاعفة، بالعز الدائم والغنى الأكبر، وأنتم لا تُظلمون.

وقال الورتجبي : أعلم الله المؤمنين والعارفين استعداد قتل أعداء الله، وسمى آلة القتال بقوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه، بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطاً، حتى يقول في سره: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلي قلب وليه بتفريجه من شرور مُعارضيه ومنكريه، وذلك سهم رمى نفوس الهمة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه حين قال: «شاهت الوجوه»، وهذا الرمي من الله بقوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾.

سمعت أن ذا النون المصري رضي الله عنه كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت الله، فنزل عن دابته وسجد، فهُزم المشركون في لحظة، وأُخذوا جميعاً، وأُسروا، وقُتلوا.

وأيضا: وأعدوا، أي: اقتبسوا من الله قوة من قوى صفاته لنفوسكم حتى يقويكم في محاربتها. قال أبو علي الروذباري، في قوله: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾، فقال: القوة هي الثقة بالله، قيل ظاهر الآية: إنه الرمي بسهام القِسي. وفي الحقيقة: رمي سهام الليالي في الغيب؛ بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحق؛ معتمداً عليه، راجعاً إليه عما سواه هـ.

ثم بيّن أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات بقوله: ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾، أي: قواك بقوته الأزلية، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بيّن سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبة الله ومحبة رسوله، بعد تباينها بتفرقة الهموم فى أودية الامتحان، بقوله: ﴿ وألّف بين قلوبهم ﴾ . وقال القشيري: الإشارة بقوله: ﴿ ترهبون ﴾: إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمةٍ ينالها، أو إشفاء صدر عن قضية حقد، بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا. هـ.

ثم دلّ على الصلح لمصلحة، فقال:

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم ﴾ أى: وإن مالوا للصلح ﴿ فاجْنَحْ لها ﴾ أى: فصالحهم، ومل إلى المعاهدة معهم، وتوكل على الله؛ فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعاً، فإن الله يعصمك من مكرهم؛ ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾(١)، ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقوالهم، ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم.

﴿ وإنْ يُريدُوا أن يخدعُوك ﴾ بعد الصلح ﴿ فإنَّ حَسْبَكَ الله ﴾ أى: فحسبك الله وكافيك شرهم، ﴿ هو الذى أيدَكَ ﴾ أى: قواك ونصرك ﴿ بنصرِه ﴾؛ تحقيقاً، ﴿ وبالمؤمنين ﴾؛ تشريفاً، أو ﴿ بنصره ﴾ قدرةً ﴿ وبالمؤمنين ﴾ حكمةً، والقدرة والحكمة منه وإليه، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد، وقالوا: العطف يقتضى المغايرة.

﴿ وألّفَ بين قلوبهم ﴾ مع ما كان فيها فى زمن الجاهلية من العصبية والضغائن والتهالك على الانتقام، حتى لايكاد يأتلف فيهم قلبان، ثم صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ. قال تعالى: ﴿ لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعاً ﴾، فى إصلاح ما بينهم، ﴿ ما ألّفتَ بين قلوبهم ﴾؛ لتناهى عدواتهم إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح

(١) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة بينهم، ﴿ ولكنَّ الله ألفَ بينهم ﴾ بقدرته البالغة؛ فإنه المالك للقلوب يُقلبها كيف يشاء. ﴿ إنه عزيز ﴾ تام القدرة، لا يُعصى عليه ما يريده، ﴿ حكيم ﴾ يعلم كيف ينبغي أن يفعل ما يريده.

قيل: إن الآية نزلت في الأوس والخزرج، كان بينهم إحنٌ وضغائن لا أمد لها، ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك، وألفَّ بينهم بالإسلام، حتى تصادقوا وصاروا أنصار الدين. وبالله التوفيق.

الإشارة: وإن مالت النفس وجنودها إلى الصلح مع صاحبها؛ بأن ألقت السلاح، ومالت إلى فعل كل ما فيه خير وصلاح، وعقدت الرجوع عن هواها، والدءوب على طاعة مولاها، فالواجب عقد الصلح معها، وتصديقها فيما تأمر به أو تَنْهَى عنه، مما يرد عليها، مع التوكل على مولاها، فإن خدعت بعد ذلك، أو رجعت إلى مألوفها، فالله يكفي أمرها، ويقوى صاحبها على ردها، إما بسبب شيخ كامل، أو أخ صالح، فإن الصحبة فيها سر كبير، لاسيما مع أهل الصفاء، الذين صفت قلوبهم، وألف الله بينهم بالمحبة والوداد، وحسن الظن والاعتقاد، وإما بسابق عناية ربانية وقوة إلهية. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (حسبك): مبتدأ، و(الله): خبر، ويصح العكس، و(من اتبعك): إما عطف على (الله)، أي: كفاك الله والمؤمنون، أو في محل نصب على المفعول معه، أو في محل جر؛ عطف على الضمير، على مذهب الكوفيين، أي: حسبك وحسب من اتبعك الله، والأول: أصح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبي حَسْبُكَ الله ﴾ أي: كافيك الله، فلا تلتفت إلى شيء سواه، أي: لَمّا مَنَنْتُ عليك بائتلاف قلوب المؤمنين في نصرتك، فلا تلتفت إليهم في محل التوحيد، فإني حسبك وحدي بغير معاونة الخلق، فينبغي أن تفرد القدم عن الحدوث في سيرك مني إليّ، وأنا حسب المؤمنين عن كل ما دوني، وإن كان مَلَكًا مقربًا أو نبيًا مرسلاً، ولا ينبغي في حقيقة التوحيد النظر إلى غيري، وإنما أيدتك بواسطة المؤمنين، وذَكَرتُهم معي؛ تشريفاً لأمتك، وستراً لقدرتي، وإظهاراً لكمال حكمتي، وإلا فقدرتي لا يفوتها شيء، ولا تتوقف على شيء؛ «جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل».

قال البيضاوي: نزلت الآية تأييداً في غزوة بدر، وقيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه، فنزلت. ولذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في إسلامه.

الإشارة: ماخوطب به النبي ﷺ يخاطب به ورثته الكرام، من الاكتفاء بالله وعدم الإلتفات إلى ما سواه، وتصحيح عقد التوحيد، والاعتماد على الكريم المجيد. والله تعالى أعلم.

ثم أمره بالتحريض على الجهاد، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قلت : التحريض: هو الحث على الشيء والمبالغة في طلبه، وهو من الحرض، الذي هو الإشفاء على الهلاك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها النبي حرّض المؤمنين ﴾ أي: حثهم ﴿ على القتال ﴾ أي: الجهاد. ثم أمرهم بالصبر والثبات للعدو بقوله: ﴿ إن يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا ﴾، وهذا خبر بمعنى الأمر، أي: يقاتل العشرون منكم المائتين، والمائة الألف، وليثبتوا لهم، ولا يصح أن يكون خبرًا محضا، إذ لو كان خبراً محضناً لَمَا تخلف في الواقع، ولو في جزئية؛ إذ خبره تعالى لا يخلف.

قال الفخر الرازي: حَسُن هذا التكليف لما كان مسبوقًا بقوله: ﴿ حسْبُك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾، فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلاً؛ لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إذايته. هـ.

وإنما كان القليل من المومنين يقاوم الكثير من الكفار ﴿ بأنهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾، أي: لأنهم جهلة بالله واليوم الآخر، فلا يثبتون ثبات المؤمنين، رجاء الثواب والترقي في الدرجات، قتلوا أو ماتوا، بخلاف الكفار؛ فلا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

ولمَّا كلفهم بهذا في أول الاسلام، وشقّ ذلك عليهم، خفف عنهم فقال: ﴿ الآنَ خففَ الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفًا ﴾؛ فلا يقاوم الواحدُ منكم العشرة، ولا المائةُ الألفَ، ﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يَغْلِبُوا مائتين،

وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾؛ أمرهم بمقاومة الواحد لاثنين. وقيل: كان فيهم قلة، فلما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة؛ للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد، والضعف: ضعف البدن، لاضعف القلب.

قال بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: لما نزل التخفيف ذهب من الصبر تسعة أعشار، وبقي العشر. ولذلك قال تعالى هنا: ﴿ والله مع الصابرين ﴾، أي: بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلب من يقاومهم ولو كثر عدده؟.

الإشارة: ينبغي لأهل التذكير أن يُحرضوا الناس على جهاد نفوسهم، الذي هو الجهاد الأكبر، وإنما كان أكبر؛ لأن العدد الحسي يقابلك وتقابله، بخلاف النفس فإنها جاء تحت الرماية خفية عدو حبيب، فلا يتقدم لجهادها إلا الرجال، فينبغيَ للشيوخ أن يحضوا المريدين على جهادها، ويهونوا لهم شأنها؛ فإنّ النفس لا يهول أمرها إلا قبل رمي اليد فيها، فإذا رميت يدك فيها بالعزم على قتلها ضعفت ولانت، وسهل علاجها، وإذا خِفت منها، وسوّفت لها، طالت عليك وملكتك. ولابد في جهادها من شيخ يريك مساوئها، ويعينك بهمته على قتلها، وإلاّ بقيتَ في العنَتِ معها، والشغل بمعاناتها حتى تموت بلا حصول نتيجة جهادها، وهي المعرفة بسيدها وخالقها. والله تعالى أعلم.

ثم عاتبهم على أخذ الفداء من الأسارى، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ماكان لنبي أن يكونَ له أسرى ﴾ يقبضها ﴿ حتى يُثخِنَ ﴾ أي: يبالغ ﴿ في الأرض ﴾؛ بالقتل حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويعز الإسلام ويستولي أهله. ﴿ تُريدون ﴾ بقبض الأسارى ﴿ عَرَضَ الدنيا ﴾؛ حطامها بأخذ الفداء منهم، ﴿ والله يُريدُ الآخرة ﴾ أي: يريد لكم ثواب الآخرة، الذي يدوم ويبقى، أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه، ﴿ والله عزيز ﴾ يغلب أولياءه على أعدائه، ﴿ حكيم ﴾ يعلم ما يليق بكمال حالهم ويخصهم بها، كما أمر بالإثخان، ومنَعَ مِنْ أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنّ لما تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين.

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام أُتِيَ يوم بدر بِسَبْعِينَ أسيرا، فيهم العبَّاسُ وعَقِيلُ بن أَبِي طَالِب. فاستأذن فِيهِمْ؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: قَوْمُكَ وأهلُك، اسْتَبْقِهِمْ، لعلَّ الله يَتُوب عَلَيْهِمْ، وخُذْ مِنْهُمْ فِدْيةً تُقَوِّي بِها أصْحَابَك. وقال عمر

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : اضْرِبْ أعنَاقَهُمْ، فإنهم أئِمَّةُ الكُفْر، وإنّ الله أغْنَاكَ عَنِ الفِدَاءِ، فمكّني من فُلاَن ـ لنسيبٍ له ـ ومكّنْ عَلِيّا وحَمْزَةَ مِنْ أخويهما، فَلْنَضْرِبْ أعْنَاقَهُمْ، فلم يَهْوَ ذلك رسولُ الله ﷺ، وقال: «إنّ الله لَيُلِينُ قُلوبَ رِجالٍ حتّى تكُونَ ألْيَنَ مِنَ اللّين، وإنّ الله لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حتّى تكُونَ أشَدَّ من الحِجَارَةِ، وإن مَثَلَكَ يا أبا بَكْرٍ مَثَلُ إبراهيم، قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[1]، ومَثَلَكَ يا عُمَرُ مَثَلُ نوح، قال: ﴿رَبِّ لاَتَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّارا﴾»[2]. فخيّر أصحابه، فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبوبكر يَبْكِيَانِ، فقال: يارسول الله: أخْبِرْنِي، فَإنْ أجِدْ بُكاء بَكَيْتُ، وإلا تَبَاكَيْتُ؟ فقال: «أبْكِي على أصْحَابِكَ في أخْذِهِمُ الفداء، ولقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدْنَى مِنْ هذِهِ الشَجَرَة»[3] لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ.

والآية دليل على أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يجتهدون، وإنه قد يكون الخطأ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري: أخذ النبي ﷺ يوم بدرٍ منهم الفداء، وكان ذلك جائزاً لوجوب العصمة، ولكن لو قتلهم كان أوْلى. هـ. **وقال ابن عطية**: إنما توجه العتاب للصحابة على استبقاء الرجال دون قتلهم، لاعلى الفداء؛ لأن الله تعالى قد كان خيّرهم، فاختاروا الفداء على أن يقتل منهم سبعين، كما تقدم في سورة آل عمران[4]. ثم قال: والنبي عليه الصلاة والسلام خارج عن ذلك الاستبقاء. انظر تمامه في الحاشية.

فإن قلت: إذا كان الحق تعالى خيّرهم فكيف عاتبهم، وهم لم يرتكبوا محظورا؟ **فالجواب**: أن العتاب تابع لعلو المقام، فالخواص يُعاتبون على المباح، إن كان فعله مرجوحاً، والحق تعالى إنما عاتبهم على رغبتهم في أمر دنيوي، وهو الفداء، حتى آثروا قتل أنفسهم على أخذه، ويدل عليه قوله: ﴿ تُريدون عَرَضَ الدنيا ﴾، وهذا إنما كان في بعضهم، وجلهم إنما اختاروا الفداء استبقاء لقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى في تمام عتابهم: ﴿ لولا كتابٌ من الله سبق ﴾ أي: لولا حكم الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو أنه سيحل لكم الغنائم، أو ما سبق في الأزل من العفو عنكم، ﴿ لمسّكم فيما أخذتُم ﴾؛ من الفداء أو من الأسارى، ﴿ عذابٌ عظيم ﴾. رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال، حين نزلت: «لو نزل العذاب ما نجا منه غيرُ عمر وسعد بن معاذ»؛ وذلك لأنه أيضا أشار بالإثخان.

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.
(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٨٣) والترمذي ببعض الاختصار في (تفسير سورة الأنفال) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في (المغازي، ٣/٢١) وكذلك أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/١٣٨) كلهم عن ابن مسعود. وأخرجه بنحوه مسلم في (الجهاد ـ باب الإمداد بالملائكة) من حديث ابن عباس عن سيدنا عمر ـ رضي الله عن الجميع.
(٤) عند تفسير قوله تعالى: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) الآية ١٦٥.

ثم أباح لهم الغنائم وأخذ الفداء فقال: ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ من الكفار، ومن جملته: الفدية، فإنها من الغنائم، ﴿ حلالاً طيباً ﴾ أي: أكلاً حلالاً، وفائدته: إزاحة ما وقع في نفوسهم بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على المتقدمين. رُوِيَ أنه لما عاتبهم أمسكوا عنها حتى نزلت: ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾، ووصفه بالطيب؛ تسكيناً لقلوبهم، وزيادة في حليتها. وفي الحديث عنه ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قَبْلِي: أُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وخُصِصْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ»(١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفته، ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي: يغفر لكم ما فرط، ويرحمكم بإباحة ما حرم على غيركم؛ توسعةً عليكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينبغي للفقير المتوجه أن يكون له أتباع يتصرف فيهم ويستفيد منهم، عوضاً عن الدنيا، حتى يبالغ في قتل نفسه وتموت، ويأمن عليها الرجوع إلى وطنها من حب الرئاسة والجاه، أو جمع المال، والتمتع بالحظوظ، فإن تعاطي ذلك قبل موت نفسه كان ذلك سبب طرده، وتعجيل العقوبة له، حتى إذا تداركه الله بلطفه، وسبقت له عناية من ربه، فيقال له حينئذ: لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أخذت عذاب عظيم.

ثم بشّر الأسارى بخلف ما أخذ منهم من الفداء بأكثر منه، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: (أسْرى): جمع أسير، ويجمع على أسارى. وقرئ بهما، و(خيراً مما): اسم تفضيل، وأصله: أَخْيَر، فاستغنى عنه بخير، وكذلك شر، أصله: أشر، قال في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر		عن قولهم: أخيرُ منه وأشر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبي قلْ لمن في أيديكم من الأسرى ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء: ﴿ إنْ يعلم الله في قلوبكم خيراً ﴾ أي: إيماناً وإخلاصاً يكون في المستقبل، ﴿ يؤتكم خيراً ﴾ أي: أفضل وأكثر ﴿ مما أُخذ منكم ﴾ من الفداء.

---

(١) أخرجه البخاري في (أول كتاب التيمم) ومسلم في (المساجد) من حديث جابر بن عبدالله ـ بلفظ: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، بدل: «وخصصت بجوامع الكلم»، وقد جاءت هذه العبارة بنحوها في رواية عند مسلم عن أبي هريرة، وفيها: (فضلت على الأنبياء بست) وساق الخمس السابقة.

رُوي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه؛ كلّفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه، وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد؛ تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت، فقال له عليه الصلاة والسلام: وأين الذهب الذي دفعتَهُ لأم الفَضْل وقتَ خُرُوجك، وقلت لها: لا أدْري ما يصيبني في وَجْهي هذا، فإن حَدَثَ بي حدثٌ فهو لكِ، ولعبدِ الله، وعُبيد الله والفضل، وقُثَم، قال له وما يُدْريكَ؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشْهَدُ أنكَ صادِقٌ، وأن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، واللهِ لم يطلعْ عليه أحدٌ إلا الله، ولقد دفعته إليها في سَوَادِ اللَّيْلِ.

قال العباس: فأبْدلَني الله خيراً من ذلك، أعطاني رسول الله ﷺ من المال الذي قدم من البحرين ما لم أقدر على حمله، ولي الآن عشرون عبداً، إن أدناهم يضرب - أي: يتجر - في عشرين ألفا، وأعطاني زمزم، ما أحب أنّ لي بها جميعَ أموالِ أهلِ مكة، وأنا أنتظرُ المغفرة مِنْ ربكم، يعني: الموعود بقوله تعالى: (يغفر لكم والله غفور رحيم)(١).

﴿ وإنْ يُريدوا ﴾؛ الأسارى ﴿ خيانتك ﴾؛ بنقض ما عهدوك به، ﴿ فقد خانوا الله من قبلُ ﴾؛ بالكفر والمعاصي﴿ فأمْكَنَ منهم ﴾ وأمكنك من ناصيتهم، فقبضوا وأسروا ببدر،﴿ والله عليمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء، ﴿ حكيمٌ ﴾ فيما دبر وأمضى.

الإشارة: يقال للفقراء المتوجهين إلى الله، الذين بذلوا أموالهم ومهجَهم، وقتلوا نفوسهم في طلب محبوبهم: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً، كصدق وإخلاص، يؤتكم أفضل مما أخذ منكم، من ذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس. وهو الغناء الأكبر، والسر الأشهر، الذي هو الفناء في الله، والغيبة عما سواه، وثمرته: المشاهدة التي تصحبها المكالمة، وهذا هو الإكسير والغنا الكبير، فكل من باع نفسه في طلب هذا فقد ربحت صفقته وزكت تجارته، مع غفران الذنوب، وتغطية المساوئ والعيوب. وبالله التوفيق.

ثم بيَّن فضائل المهاجرين والأنصار، ومنزلة من آمن ولم يهاجر، والذين هاجروا بعد الحديبية، تتميمًا للتحريض على الجهاد، فبدأ أولاً بالمهاجرين والأنصار، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٣ / ٣٢٤) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي. والطبري في تفسير الآية، عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين آمنو وهاجروا ﴾ أوطانهم فى الخروج مع رسول الله ﷺ، لنصرة الدين بالجهاد، ﴿ وجاهدوا بأموالهم ﴾ فصرفوها فى الإعداد للجهاد، كالكراع والسلاح، وأنفقوها على المجاريح، ﴿ وأنفسهم في سبيل الله ﴾، بمباشرة القتال، ﴿ والذين آووا ﴾ رسول الله ومن هاجر معه، وواسوهم بأموالهم، ﴿ ونصروا ﴾ دين الله ورسوله، ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ فى التعاون والتناصر، أو فى الميراث.

وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، حتى نسخ بقوله: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾(١).

ثم ذكر من لم يهاجر فقال: ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيء ﴾، لا فى النصرة، ولا فى الميراث، ﴿ حتى يُهاجروا ﴾ إليكم، ﴿ وإنِ استنصروكُم ﴾ على المشركين ﴿ في ﴾ إظهار ﴿ الدين فعليكم النصرُ ﴾ أى: فواجب عليكم نصرهم وإعانتهم، لئلا يستولى الكفر على الإيمان، ﴿ إلا على قومٍ ﴾ كان ﴿ بينكم وبينهم ﴾ عهد و﴿ ميثاقٌ ﴾، فلا تنقضوا عهدهم بنصرهم، فإن الخيانة ليست من شأن أهل الإيمان. ﴿ والله بما تعملون بصيرٌ ﴾ لا يخفى عليه من أوفى ومن نقض.

﴿ والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾ فى الميراث. ويدل بمفهومه، على منع التوارث والموازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿ إلا تفعلوه ﴾ أى: إلا تفعلوا ما أُمرتم به من موالاة المؤمنين ونصرتهم، أو نصرة من استنصر بكم ممن لم يهاجر، ﴿ تكن فتنةٌ في الأرضِ ﴾، با ستيلاء المشركين على المؤمنين، ﴿ وفسادٌ كبير ﴾ بإحلال المشركين أموال المؤمنين وفروجهم، أو: إلا تفعلوا ما أمرتم به من حفظ الميثاق، تكن فتنة فى الأرض، فلا يفى أحد بعهد أبداً، وفساد كبير بنهب الأموال والأنفس.

الإشارة: أهل التجريد، ظاهراً وباطناً، هم الذين آمنوا وهاجروا حظوظهم، وجاهدوا نفوسهم بسيوف المخالفة، وآووا من نزل أو التجأ إليهم من إخوانهم أو غيرهم، أو آووا أشياخهم وقاموا بأمورهم، ونصروا الدين بالتذكير

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

والإرشاد والدلالة على الله، أينما حلوا من البلاد، أولئك بعضهم أولياء بعض فى العلوم والأسرار، وكذلك فى الأموال. فقد قال بعض الصوفية: (الفقراء: لا رزق مقسوم، ولا سر مكتوم). وهذا فى حق أهل الصفاء من المتحابين فى الله.

والذين آمنو ولم يهاجروا هم أهل الأسباب من المنتسبين، قد نهى الله عن موالاتهم فى علوم الأسرار وغوامض التوحيد؛ لأنهم لا يطيقون ذلك؛ لشغل فكرتهم بالأسباب أو بالعلوم الرسمية، نعم، إن وقعوا في شبهة أوحيرة، وجب نصرهم بما يزيل إشكالهم، لئلا تقع بهم فتنة أو فساد كبير فى اعتقادهم. والله تعالى أعلم.

ثم أثنى على المهاجرين والأنصار، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٧٤) ﴾

قال البيضاوي: لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام ـ أى: مهاجرين، وأنصار، ومن آمن ولم يهاجر ـ بيّن أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم، بتحصيل مقتضاه من الهجرة، والجهاد، وبذل المال، ونصرة الحق، ووعد لهم الوعد الكريم، فقال: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾؛ لا تبعة له، ولا فتنة فيه. ثم ألحق بهم فى الأمرين من يلتحق بهم ويتسم بسمتهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ... ﴾

أى: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار.هـ.

ثم نسخ الميراث المتقدم، فقال:

﴿ ... وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (٧٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله ﴿وأولُوا الأرحامِ﴾ من قرابة النسب، ﴿بعضُهم أولَى ببعضٍ﴾ فى التوراث من الأجانب، وظاهره: توريث ذوى الأرحام، كالخال والعمة وسائر ذوى الأرحام، وبه قال أبو حنيفة، ومنعه مالك، ورأى أن الآية منسوخة بآية المواريث التى فى النساء، أو يراد بالأولية: غير الميراث، كالنصرة وغيرها. وقوله: ﴿فى كتابِ الله﴾ أى: فى القرآن، أو اللوح المحفوظ. ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ من أمر المواريث وغيرها، أو عليم بحكمة إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً، وبالقرابة ثانيا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس ثلاثة: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فالعوام: هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية، والخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية، ولم ينهضوا إلى مقام التجريد. وخواص الخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهراً وباطناً، خربوا ظواهرهم، وعمّروا بواطنهم، وهم الذين خاضوا بحار التوحيد، وذاقوا أسرار التفريد. وهم الذين أشار المجذوب الى مقامهم بقوله:

يافارئين علم التوحيد   هـذا البحور إلىَّ تفْبى

هذا مقام أهل التجريد   الـواقفـين مع ربـي

فأهل التجريد، كالمهاجرين والأنصار، وأهل الأسباب من أهل النسبة، كمن لم يهاجر من الصحابة، ومن تجرد بعدُ ودخل معهم، التحق بهم. قال تعالى: ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾، ومن لا نسبة له كمن لا صحبة له، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليماً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين*.

* * *

* كُتب في آخر المجلد الأول من النسخة الأصلية: هذا آخر السفر الأول من (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، ووافق الفراغ من تبييضه سادس عشر من جمادى الأولى، سنة ست عشر ومائتين وألف، يتلوه سورة التوبة بحول الله وقوته.
انتهى، بحوله وقوته، عشية يوم استخراجه من مبيضته؛ الجمعة ثالث وعشرين من جمادى الأولى، أيضا، من تلك السنة المذكورة قبل. ونسأله الإعانة على التمام، بجاه النبي ـ عليه السلام ـ صلى الله عليه ـ على مر الليالي والأيام.





(مدنية) . ولها أسماء أُخر: سورة براءة؛ لتبرئها من المنافقين، والمُقَشْقِشَة. أى: المبرئة من النفاق، والبَحوث؛ لبحثها عن أحوال المنافقين، والمبعثرة والمنقرة والمثيرة، والحافرة؛ لأنها بعثرت ونقرت وأثارت وحفرت عن أحوال المنافقين، والمخزية والفاضحة، والمنكلة، والمشردة، والمدمدمة، وسورة العذاب؛ لأنها أخزت المنافقين، وفضحتهم، ونكلتهم، وشردتهم، ودَمْدَمت عليهم، وذكرت ما أعد الله لهم من العذاب.

وآياتها: مائة وثلاثون، وقيل: وتسع وعشرون. ومناسبتها: قوله: ﴿إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١)، فذكر في هذه السورة نقض ذلك الميثاق.

واتفقت المصاحف والقراء على ترك البسملة فى أولها، فقال عثمان رضي الله عنه: أشبهت معانيها معانى الأنفال، أى: لأن فى الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذها. وكانتا تدعى القرينتين فى زمن رسول الله ﷺ، فلذلك قَرَنْتُ بينهما ووضعتهما فى السبع الطوال(٢)، وكان الصحابة قد اختلفوا: هل هما سورة واحدة أو سورتان؟ فتركت البسملة بينهما لذلك. وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف، فلذلك لم تبدأ بالأمان. وقال البيضاوى: لما اختلف الصحابة فى أنهما سورة واحدة، وهى سابعة السبع الطوال، أو سورتان، تركت بينهما فرجة، ولم تُكتب بسم الله. هـ.

ثم ابتدأ بنقض عهود المشركين، فقال:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

قلت: (براءة): خبر عن مضمر، أى: هذه براءة، و(مِنَ): ابتدائية، متعلقة بمحذوف، أى: واصلة من الله، و(إلى الذين): متعلقة به أيضاً، أو مبتدأ لتخصيصها بالصفة، و(إلى الذين): خبر.

* بداية المجلد الثانى فى النسخة الأصلية. (١) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٥٧) وأبو داود فى (الصلاة، باب من جهر ببسم الله الرحمن الرحيم) والترمذى فى (التفسير، سورة التوبة) والحاكم فى (٢/٢٢١) وصححه ووافقه الذهبى.

يقول الحق جل جلاله: هذه ﴿ براءة ﴾ أي: تبرئة ﴿ من الله ورسوله ﴾ واصلة ﴿ إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾، فقد تبرأ الله ورسوله من كل عهد كان بين المشركين والمسلمين، لأنهم نكثوا أولاً، إلا أناساً منهم لم ينكثوا، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، وسيأتي استثناؤهم. قال البيضاوي: وإنما علقت البراءة بالله وبرسوله، والمعاهدة بالمسلمين؛ للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرسول؛ فإنهما برئا منها. هـ.

وقال ابن جزي: وإنما أسند العهد إلى المسلمين؛ لأن فعل الرسول ﷺ لازم للمسلمين، وكأنهم هم الذين عاهدوا المشركين، وكان النبي ﷺ قد عقد العهد مع المشركين إلى آجال محدودة، فمنهم من وفّى، فأمر الله أن يتم عهده إلى مدته، ومنهم من نقض أو قارب النقض، فجعل له أجل أربعة أشهر، وبعدها لا يكون له عهد. هـ. وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ آمنين لا يتعرض لكم أحد، وبعدها لا عهد بيني وبينكم. وذكر الطبري: أنهم أسلموا كلهم في هذه المدة ولم يسح أحد. هـ.

وهذه الأربعة الأشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأنها نزلت في شوال، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر؛ لما روى (أنها لمَّا نزلت أرسل رسولُ الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكباً العَضْبَاء ليقْرأَهَا عَلى أهل المَوْسِمِ، وكان قد بعث أبا بكْرٍ رضي الله عنه أميراً على الموسم، فقيل: لَوْ بعثْتَ بها إلَى أبي بكْرٍ؟ فقال: «لا يُؤدِّي عَنِّي إلا رجلٌ منِّي» فَلَمَّا دَنَا عَلِيٌّ رضي الله عنه سَمِعَ أبُوبَكْرٍ الرُّغَاءَ، فوَقَفَ، وقَالَ: هذا رُغَاء نَاقَة رَسُول الله ﷺ، فوقف، فلمَّا لَحِقَهُ قال: أَمِيرٌ أوْ مأمُورٌ؟ قال: مأمورٌ. فلما كان قبل التَّرْوِيَة خَطَبَ أبو بكر رضي الله عنه، وحَدَّثهمْ عَنْ مَنَاسِكِهِم، وقَامَ عَلِيٌّ - كرم الله وجهه - يَوْمَ النَّحر، عند جَمْرَةِ العَقَبةِ، فقال: يا أيُّها النَّاس، إني رَسُولُ رسول الله ﷺ إليكم، فقالُوا: بماذا؟ فَقَرأَ عليهمْ ثَلاثين أوْ أرْبَعين آيةً من أول السورة، ثم قال: أُمِرْتُ بأرْبَعٍ: ألا يَقْرَب البَيْتَ بعد هذا مُشْرِكٌ، ولايَطُوف بالبَيْت عُرْيَانٌ، ولا يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وأنْ يتمَّ إلَى كُلِّ ذي عَهْدٍ عَهْدُهُ.)[1].

ولعل قوله ﷺ: «ولا يؤدي عني إلا رجل مني» خاص بنقض العهود؛ لأنه قد بعث كثيراً من الصحابة ليؤدوا عنه، وكانت عادة العرب ألاَّ يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها. قاله البيضاوي مختصرا.

ثم قال تعالى لأهل الشرك: ﴿ واعلموا أنكم غير مُعجزي الله ﴾ أي: لا تفوتونه، وإن أمهلكم، ﴿ وأن الله مُخزي الكافرين ﴾ في القتل والأسر في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصلاة ـ باب ما يستر من العورة) ومسلم في (الحج ـ باب لا يحج البيت مشرك) كلاهما من حديث أبي هريرة، وليس فيه ذكر قوله ﷺ: (لا يؤدي عني إلا رجل مني)، وقد جاءت في رواية عند أحمد في المسند (٣/١) والترمذي في (تفسير سورة التوبة).

الإشارة: قد وقع التبرؤ من أهل الشرك مطلقًا، أما الشرك الجلي فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان، وأما الشرك الخفي فقد تبرأ منه مقام الإحسان، ولا يدخل أحدٌ مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء، ولا يستند إلى شيء، إلا على من بيده ملكوت كل شيء، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب، ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب، حتى لا يبقى في نظره إلا الكريم الوهاب، فمن أصرَّ على شركه الجلي أو الخفي فإن الله يمهل ولا يهمل، فلابد أن يلحقه وباله: إما خزى في الدنيا، أو عذاب في الآخرة، كلٌّ على ما يليق به.

وقال القشيري: إنْ قَطَعَ عنهم الوصلة فقد ضَرَبَ لهم مدةً على وجه المُهْلَة، فأمَّنهم في الحال؛ ليتأهبوا لتَحَمُّلِ مقاساة البراءة فيما يستقبلونه في المآل. والإشارةُ فيه: أنهم إنْ أقلعوا في هذه المهلة عن الغيِّ والضلال، وجدوا في المآل مافقدوا من الوصال، وإنْ أبَوْا إلا التمادي في تَرْكِ الخدمة والحرمة، انقطع ما بينه وبينهم من الوصلة .هـ. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بإظهار تلك البراءة للناس، فقال:

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قلت: (وأذان): مبتدأ، أو خبر، على ما تقدم في براءة، وهو فَعال بمعنى إفعال؛ كالعطاء بمعنى الإعطاء، أي: وإعلام من الله ورسوله واصل إلى الناس، ورفع «رسوله»؛ إما عطف على ضمير بريء، أو على محل «إن» واسمها، أو مبتدأ حُذف خبره، أي: ورسوله كذلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأذانٌ من الله ورسوله﴾ واصل إلى الناس، يكون ﴿يومَ الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه. ولما روى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقف يوم النحر، عند الجمرات، في حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[1]، وقيل: يوم عرفة؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الحج عرفة»[2]. ووصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر.

---

(١) أخرجه البخاري في (الحج ـ باب الخطبة أيام منى) عن نافع عن ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/٣٠٩) وأبو داود في (المناسك، باب من لم يدرك عرفة) والترمذي في (الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج)، كذلك أخرج الحديث النسائي وابن ماجه من حديث عبدالرحمن بن يعمر.

وذلك الإعلام بأنّ ﴿ الله بريء من المشركين ورسولُه ﴾ - عليه الصلاة والسلام - كذلك. قال **البيضاوى**: ولا تكرار؛ فإن قوله: ﴿براءة من الله﴾: إخبار بثبوت البراءة، وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك، ولذلك علقه بالناس ولم يخص بالمعاهدين. هـ. ﴿ فإن تُبْتُم ﴾ يا معشر الكفار ورجعتم عن الشرك، ﴿ فهو ﴾ أي: الرجوع ﴿ خيرٌ لكم ﴾، ﴿ وإن توليتم ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة وأصررتم على الكفر ﴿ فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله ﴾؛ لا تفوتونه طلبا، ولا تعجزونه هرباً في الدنيا، ﴿ وبشِّر الذين كفروا بعذابٍ أليم ﴾ في الآخرة.

ولما أمر بنقض عهود الناكثين استثنى من لم ينقض فقال: ﴿ إلا الذين عاهدتُّم ﴾ أي: لكن الذين عاهدتم ﴿ من المشركين ﴾، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، ﴿ ثم لم يَنقُصُوكم شيئاً ﴾ من شروط العهد، ولم ينكثوا، ولم يقتلوا منكم، ولم يضروكم قط، ﴿ ولم يُظاهروا عليكم أحدا ﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم، ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى ﴾ تمام ﴿ مُدتهم ﴾، وكانت بقيت لهم من عهدهم تسعة أشهر. ولا تجروهم مجرى الناكثين؛ ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾، وهو تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى. قاله البيضاوى.

الإشارة: من أعظم شؤم الشرك: أن الله ورسولَه تبرآ من أهله مرتين: خاصة وعامة، فيجب على العبد التخلص منه خفياً أو جلياً، ويستعين على ذلك بصحبة أهل التوحيد الخاص، حتى يُخلصوه من أنواع الشرك كلها، فإن صدر منه شيء من ذلك فليبادر بالتوبة، فإن تولى وأصر على شركه، كان ذلك سبب هوانه وخزيه، وبالله التوفيق.

ثم أمر بجهاد المشركين، بعد الأربعة الأشهر التي أمهلهم فيها، فقال:

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا انسلخَ الأشهرُ ﴾ أي: انقضى الأشهر ﴿ الحُرم ﴾ وهي الأربعة التي أمهلهم فيها، فمن قال: إنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فهي الحرم المعروفة، زاد فيها شوال، ونقص رجب، وسميت حُرماً؛ تغليباً للأكثر، ومن قال: إنها ذو الحجة إلى ربيع الثاني، فسميت حرماً؛ لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ. وغلط من قال: إنها الأشهر الحرم المعلومة؛ لإخلاله بنظم الكلام ومخالفته للإجماع؛ لأنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم. انظر البيضاوى.

فإذا انقضت الأربعة التي أمهلتهم فيها ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ الناكثين ﴿ حيثُ وجدتُموهم ﴾ من حل أو حرم، ﴿ وخُذوهم ﴾ أساري، ويقال للأسير: أخيذ، ﴿ واحْصُروهم ﴾؛ واحبسوهم، ﴿ واقعدُوا لهم كل مرْصَد ﴾؛ كل ممر وطريق؛ لئلا ينبسطوا في البلاد، ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الشرك وآمنوا، ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾؛ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم؛ ﴿ فخلُّوا سبيلهم ﴾ أي: فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك.

وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله، بل يقاتل؛ كما فعل الصديق رضي الله عنه بأهل الردة. والآية: في معنى قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، ويُقِيمُوا الصَّلاَةَ، ويُؤتُوا الزَّكَاةَ...» الحديث(١).

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، هو تعليل لعدم التعرض لمن تاب، أي: فخلوهم؛ لأن الله قد غفر لهم، ورحمهم بسبب توبتهم.

الإشارة: فإذا انقضت أيام الغفلة والبطالة التي احترقت النفس فيها، فاقتلوا النفوس والقواطع والعلائق حيث وجدتموهم، وخذوا أعداءكم من النفس والشيطان والهوى، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد يتعرضون فيه لكم، فإن أذعنوا، وانقادوا، وألقوا السلاح، فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم.

ولما أمر بقتال المشركين وأخذهم أينما ثُقفوا، استثنى من أتى يطلب الأمان، فقال:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت: «أحد»: فاعل بفعل يفسره: «استجارك».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنْ ﴾ أتاك ﴿ أحدٌ من المشركين ﴾ المأمورين بالتعرض لهم، حيثما وجدوا، ﴿ استجارَكَ ﴾؛ يطلب جوارك، ويستأمنك، ﴿ فأجِرْهُ ﴾ أي: فأمنْهُ؛ ﴿ حتى يسمع كلامَ الله ﴾ ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، لعله يُسلم، ﴿ ثم أبلغْهُ مأمنه ﴾ أي: موضع أمنه إن لم يسلم، ولا تترك أحداً يتعرض له حتى يبلغ محل أمنه؛ ﴿ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾ أي: ذلك الأمر الذي أمرتك به بسبب أنهم قوم لا علم لهم بحقيقة الإيمان، ولا ما تدعوهم إليه، فلابد من إيجارهم، لعلهم يسمعون ويتدبرون؛ فيكون ذلك سبب إيمانهم.

---

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ومسلم في (الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: وإن استجارك ـ أيها العارف ـ أحد من عوام المسلمين ممن لم يدخل معكم بلاد الحقائق، وأراد أن يسمع شيئاً من علوم القوم، فأجره حتى يسمع شيئاً من علومهم وأسرارهم، فلعل ذلك يكون سبباً فى دخوله فى طريق القوم. ولا ينبغى للفقراء أن يطردوا من يأتيهم من العوام، بل يتلطفوا معهم، ويسمعوهم ما يليق بحالهم؛ لأنّ العوام لاعلم لهم بما للخواص، فإنّ أطلعوا على ما خصهم الله به من العلوم دخلوا معهم، إن سبق لهم شيء من الخصوصية.

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي الله عنه: لا ينبغى لأهل الخصوصية أن يدخلوا بلد العموم إلا فى جوار أحد منهم، وإلا أنكرته البلد؛ لأن البلد أمّ تغير على غير أبنائها، ولا ينبغى أيضا للعموم أن يدخلوا بلد الخصوص إلا فى جوار رجل منهم، وإلا أنكرته البلد. هـ. بالمعنى.

ثم استبعد الحق أن يكون للمشركين عهد مع المسلمين، فقال:

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (إلا الذين): محله النصب على الاستثناء، أو جر على البدل من «المشركين»، أو رفع على الانقطاع، أى: لكن الذين عاهدتم فما استقاموا لكم، و(الإل): القرابة والحلف، وحذف الفعل فى قوله: (كيف وإن يظهروا عليكم)؛ للعلم به بما تقدم، أى: كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم.. إلخ

يقول الحق جل جلاله، فى استبعاد العهد من المشركين والوفاء به: ﴿كيف يكونُ للمشركين عهدٌ عند الله وعندَ رسوله﴾؟ مع شدة حقدهم وعداوتهم للرسول وللمسلمين، مع ما تقدم لهم من النقض والخيانة فيه، ﴿إلا الذين عاهدتُم عند المسجد الحرام﴾ قيل: هم المستثنون قبلُ. وقال ابن اسحاق: هى قبائل بنى بكر، كانوا

دخلوا وقت الحديبية، في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأُمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس: هم قريش، وقال مجاهد: خزاعة، وفي هذين القولين نظر؛ لأن قريشاً وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان؛ لأنهم أسلموا في الفتح، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى في شأن من استثنى: ﴿ فما استقاموا لكم ﴾ على العهد ولم يغدروا، ﴿ فاستقيمُوا لهم ﴾ على الوفاء، أي: تربصوا بهم وانتظروا أمرهم، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم، ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ الذين إذا عاهدوا وفوا، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال: ﴿ كيف ﴾ يصح منهم الوفاء بعهدكم ﴿ و ﴾ هم ﴿ إن يظهرُوا عليكم ﴾ ويظفروا بكم في وقعة ﴿ لا يرقُبوا ﴾ أي: لا يراعوا ﴿ فيكم إلاً ﴾؛ قرابة أو حلفًا، وقيل: ربوبية، أي: لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولايخافون عقابه، ﴿ ولا ذمَّةً ﴾ أي: عهدا، أو حقًا يعاب على إغفاله، ﴿ يرضونكم بأفواههم ﴾؛ بأن يعدوكم بالإيمان، والطاعة، والوفاء بالعهد، في الحال، مع استبطان الكفر والغدْر، ﴿ وتأبى ﴾ أي: تمنع ﴿ قلوبهم ﴾ ماتفوه به أفواههم، ﴿ وأكثرهُم فاسقون ﴾ متمردون، لاعقيدة تزجرهم، ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر؛ لما في بعض الكفرة من التمادي على العهد، والتعفف عما يجر إلى أحدوثة السوء. قاله البيضاوي.

﴿ اشْتَروا بآيات الله ﴾ أي: استبدلوا بها ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ أي: عرضًا يسيرا، وهو اتباع الأهواء والشهوات، ﴿ فصدُّوا عن سبيله ﴾؛ دينه الموصل إليه، أو بيته بصد الحجاج عنه. ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أيْ: قبُح عملهم هذا، أو ساء ماكانوا يعملون من كونهم ﴿ لايرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة ﴾؛ فيكون تفسيراً لعملهم السوء، لا تكريراً. وقيل: الأول في الناقضين العهد، وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبوسفيان وأطعمهم.

وقوله تعالى: ﴿ في مؤمن ﴾: فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هي لأجل الإيمان فقط، وقوله أولاً: ﴿فيكم﴾، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم، فزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿في مؤمن﴾. قاله ابن عطية.

﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ في الشرارة والقبح. ﴿ فإن تابوا ﴾ عن الكفر، ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾؛ لهم ما لكم وعليهم ماعليكم، ﴿ ونفصّلُ الآيات لقوم يعلمون ﴾، حث على تأمل مافصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينبغي للخواص أن يثقوا بمحبة العوام، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم، فإن محبتهم على الحروف، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم، وأطماعهم، نكثوا وأدبروا، فللعارف غنيٌ بالله عنهم. وفي ذلك

يقول سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ:

مَا الفَخْـرُ إلاَّ لأَهْلِ العِلْمِ، إنَّهُمُ عَلَى الهُدَى لمن استَهْدَى أدلاَّءُ

وَقَدْرُ كل أمرئ مَا كَانَ يُحْسِنهُ والجَاهِلُون لأهْلِ العِلْمِ أعــــداءُ

ثم ذكر حكم من نقض العهد، فقال:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن نكثُوا أيمانَهم ﴾ أي: نقضوها ﴿ من بعدِ عهدهم ﴾ أي: من بعد ماأعطوكم من العهود على الوفاء بها، ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام، ﴿ فقاتلُوا أئمةَ الكفرِ ﴾ أي: فقاتلوهم لأنهم أئمة الكفر، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير؛ للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر، فهم أحِقاء بالقتل، وقيل: المراد رؤساء المشركين، والتخصيص: إما لأن قتلهم أهم، وهم أحق به، أو للمنع من مراقبتهم، ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ على الحقيقة، وإلاَّ لم يقدروا أن ينكثوها، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر لاتلزم، وهو ضعيف؛ لأن المراد نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بأيمان. قاله البيضاوي. **قلت:** وما قالته الحَنَفِيَّةُ هو مذهب المالكية، إذا حنث في حال الكفر، ثم أسلم، فلا يلزمه شيء. وقرأ ابن عامر بكسر الهمزة، أي: لا إيمان لهم صحيحاً يعصم دماءهم.

﴿ لعلهم ينتهون ﴾ أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، كما هي طريقة أهل الإخلاص، لا إيصال الإذاية لهم، أو مقابلة عداوة.

ثم حضّ على قتالهم فقال: ﴿ ألاَ تقاتِلُون قوما نكثُوا أيمانهم ﴾ التي حلفوها للرسول ﷺ وللمؤمنين على ألايعاوِنوا عليهم، فعاونوا بني بكر على خزاعة، ﴿ وهمّوا بإخراج الرسول ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة

على ما مرّ، ﴿ وهم بدءوكم أول مرة ﴾ بالمعاداة والمقاتلة؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدأهم بالدعوة، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم، ﴿ أتخشونهم ﴾ أي: أتهابون قتالهم حتى تتركوا أمري، ﴿ فالله أحقُّ أن تخشَوه إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن قضية الإيمان ألا يُخَاف إلا منه.

ثم وعدهم بالنصر فقال: ﴿ قاتلُوهم يُعذِّبْهُم الله بأيديكم ويُخْزِهِمْ ﴾؛ يُهنهم بالقتل والأسر، ﴿ وينصرْكُم عليهم ﴾، فيمكنكم من رقابهم، ويملككم أموالهم ونساءهم، ﴿ ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين ﴾، يعني: بني خزاعة شفوا صدورهم من بني بكر؛ لأنهم كانوا أغاروا عليهم وقتلوا فيهم. وقيل: بطوناً من اليمن قدموا مكة وأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبشروا، فإن الفرج قريب. ﴿ ويُذْهِبْ غيظَ قلوبهم ﴾؛ بما لقوا منهم حين أغاروا عليهم، وقد أوفى الله بما وعدهم؛ بفتح مكة وهوازن.

والآية من المعجزات. قاله البيضاوي. وهذا يقتضي أن هذا التخصيص كان قبل الفتح، فيلتئم مع ما بعده، ويبعد التئامه مع ما قبله من البراءة، ونبذ العهد والإعلام بذلك؛ لكونه بعد الفتح، والله أعلم. قاله المحشي. ويمكن الجواب بأن يكون صدر السورة نزل بعد الفتح، وبعضها؛ من قوله: (وإن أحد من المشركين..) إلخ نزل قبل الفتح، فإن الآيات كانت تنزل متفرقة فيقول ﷺ: «اجعلوا هذه الآية في محل كذا». والله تعالى أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن بعض المشركين يتوب من كفره بقوله: ﴿ ويتوبُ اللهُ على من يشاءُ ﴾ هدايته، فيهديه للإيمان، ثمّ يتوب عليه، وقد كان ذلك في كثير منهم. ﴿ والله عليمٌ ﴾ بما كان ويكون، ﴿ حكيم ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق حكمته.

الإشارة: من رجع عن طريق القوم، ونقض عهد الأشياخ، ثم طعن في طريقهم، لا يرجى فلاحه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أعني في طريق الخصوص؛ لأنه جمع بين نقض العهد والطعن على الأولياء، وقد قال تعالى: «من آذى لي ولياً فقد آذنني بالحرب». ومن رجع عنها؛ لضعف ووهن، مع بقاء الاعتقاد والتسليم، فربما تقع الشفاعة منهم فيلحق بهم، بخلاف الأول، فقد تقدم عن القشيري، في سورة آل عمران، أنهم يريدون الشفاعة فيه، فيخلق الله صورة على مثله، فإذا رأوها تركوا الشفاعة فيه، فيبقى مع عوام أهل اليمين. فانظره[1]. وبالله التوفيق.

---

(١) راجع إشارة الآية ٩٠ من سوررة آل عمران.

ثم عاتبهم على تأخر بعضهم عن الجهاد، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: «أم»: منقطعة، بمعنى الهمزة؛ للإنكار والتوبيخ على الحسبان، والخطاب للمؤمنين أو المنافقين، والوليجة: البطانة والصحبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أم حسبتم ﴾ أي: أظننتم ﴿ أن تُتركوا ﴾ من غير اختبار، ﴿ ولمّا يعلمِ الله الذين جاهَدوا منكم ﴾ أي: ولم يتبين الخُلَّص منكم، وهم الذين جاهدوا، من غيرهم، والمراد: علمَ ظهور، أي: أظننتم أن تتركوا ولم يظهر منكم المجاهد من غيره. قال البيضاوي: نفى العلم، وأراد نفي المعلوم؛ للمبالغة، فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. هـ. بل يختبركم حتى يظهر الذين جاهدوا منكم.

﴿ ولم يتخذُوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وَلِيجَةً ﴾، بطانة، أي: جاهدوا، وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي: أصحاب سرٍ يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم، والتعبير بـ(لما): يقتضي أن ظهورَ ذلك متوقع، ﴿ واللهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾: تهديد لمن يفعل ذلك.

الإشارة: إفراد المحبة لله ولأولياء الله من أعظم القربات إلى الله، وأقرب الأمور الموصلة إلى حضرة الله، والالتفات إلى أهل الغفلة؛ بالصحبة والمودة، من أعظم الآفات والأسباب المبعدة عن الله، والعياذ بالله. وفي الحديث: «المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِه» ، و«المَرْءُ مع مَنْ أَحَبَّ» ، و«مَنْ أَحَبَّ قَوْماً حُشِرَ مَعَهم.» إلى غير ذلك من الآثار في هذا المعنى.

ثم نهى عن دخول المشركين المساجد، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان للمشركين﴾ أي: ما صح لهم ﴿أن يعمرُوا مساجدَ الله﴾ أي: شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وقيل: هو المراد، وإنما جمع؛ لأنه قبلة المساجد وإمامها، فأمره كأمرها، ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد، أي: ليس لهم ذلك، وإن كانوا قد عمروه تغلباً وظلماً، حال كونهم ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، أي: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متباينين: عمارة بيت الله، وعبادة غير الله، ﴿أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم﴾ في الدنيا والآخرة؛ لما قارنها من الشرك والافتخار بها، ﴿وفي النار هم خالدون﴾، لأجل كفرهم.

﴿إنما يَعْمُرُ مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾، أي: إنما تستقيم عمارتها بهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها: تزيينهابالفرش، وتنويرها بالسرج، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها مما لم تبن له؛ كحديث الدنيا.

وعن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «إنَّ بُيُوتِي في أرْضِي المَسَاجِدُ، وإنَّ زُوَّارِي فيها عُمَّارُهَا، فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهرَ فِي بيْتِه، ثُم زَارَنِي فِي بيْتِي، فَحَقٌ علَى المَزُورِ أنْ يُكْرِم زائره». ووقف عبد الله بن مسعود على جماعة في المسجد يتذاكرون العلم فقال: بأبي وأمي العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتاب الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتم، أحبكم الله وأحب من أحبكم. هـ.

وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ؛ لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتمامه الإيمانُ به، ولدلالة قوله: ﴿وأقام الصلاة وآتي الزكاة﴾ عليه. قاله البيضاوي.

﴿ولم يخش﴾ في أموره كلها ﴿إلا الله﴾، فهذا الذي يصلح لعمارة بيت الله، ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، وعبَّر بعسى، قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخًا لهم على القطع بأنهم مهتدون؛ فإن كان اهتداء هؤلاء، مع كمالهم، دائراً بين عسى ولعل، فما ظنك بأضدادهم؟، ومنعًا للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فيتكلوا عليها. وفي الحديث عنه ﷺ: «مَنْ رأيْتُمُوه يَتَعَاهَدُ المسجدَ فاشهدوا لَهُ بالإيمان»، ثم تلا الآية(١).

الإشارة: مساجد الحضرة محرمة على أهل الشرك الخفي والجلي، لا يدخل الحضرة إلا قلب مفرد، فيه توحيد مجرد، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلب مطمئن بالله، غائب عما سواه، قد رفض الركون إلى الأسباب، وأفرد

(١) أخرجه الترمذي في (التفسير ـ سورة التوبة) وابن ماجه في (المساجد ـ باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) والدارمي في (الصلاة ـ باب المحافظة على الصلوات) من حديث أبي سعيد الخدري.

الوجهة لمسبب الأسباب، قطع الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوار الحقائق. إنما يعمر مساجد حضرة القدوس من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام صلاة القلوب، وآتى زكاة النفوس، ولم يراقب أحداً من المخلوقين، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين.

ولما افتخر قوم من قريش بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، بيّن الله تعالى أن الجهاد أفضل من ذلك، فقال:

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

قلت: السقاية والعمارة: مصدران، فلا يشبهان بالجثة، فلابد من حذف، أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أجعلتم ﴾ أهل ﴿ سقاية الحاجّ، و ﴾ أهل ﴿ عمارة المسجد الحرام ﴾ من أهل الشرك المحبطة أعمالُهم، ﴿ كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ من أهل الإيمان، ﴿ وجاهد في سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله، المثبتة أعمالهم، بل ﴿ لايستوون عند الله ﴾ أبداً؛ لأن أهل الشرك الذين حبطت أعمالهم في أسفل سافلين، إن لم يتوبوا، وأهل الإيمان والجهاد في أعلى عليين.

ونزلت الآية في علي ـ كرم الله وجهه ـ والعباس وطلحة بن شيبة، افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وعندي مفاتحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي رضي الله عنه: لقد أسلمت وجاهدت مع رسول الله ﷺ، فبيّن الله تعالى أن الإيمان والجهاد أفضل، ووبخ من افتخر بغير ذلك فقال: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي: الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ومعاداة الرسول ﷺ، وداموا على ذلك، وقيل: المراد بالظالمين: الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً ﴾، وأعلى رتبة، وأكثر كرامة، ﴿ عند الله ﴾، ممن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم،

﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ بكل خير، الظافرون بنيل الحسنى والزلفى عند الله، دون من عداهم ممن لم يفعل ذلك.

ثم زاد في كرامتهم فقال: ﴿ يُبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ﴾ أي: تقريب وعطف منه ﴿ ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها ﴾ أي: في الجنان ﴿ نعيم مقيم ﴾ ؛ دائم، لانفاد له ولا انقطاع. وتنكير المبشر به؛ إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف، حال كونهم ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾، أكد الخلود بالتأبيد؛ لأنه قد يطلق على طُول المكث، ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ يُستحقر دونه مشاق الأعمال المستوجبة له، أو نعيم الدنيا؛ إذ لا قدر له في جانب نعم الآخرة.

الإشارة: لا يستوي من قعد في وطنه مع عوائده وأسبابه، راكناً إلى عشائره وأحبابه، واقفاً مع هواه، غافلاً عن السير إلى مولاه، مع من هاجر وطنه وأحبابه، وخرق عوائده وأسبابه، وجاهد نفسه وهواه، سائراً إلى حضرة مولاه، لا يستوون أبداً عند الله؛ لأن هؤلاء مقربون عند الله، والآخرون في محل البعد عن الله، ولو كثر علمهم وعملهم عند الله، شتان بين من همته القصور والحور، وبين من همته الحضور ورفع الستور، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وجنات المعارف لهم فيها نعيم لأرواحهم، وهو الشهود والعيان، لا يحجب عنهم طرفة عين، إن الله عنده أجر عظيم، لا يخطر على قلب بشر. لا حرمنا الله من ذلك.

ثم نهى عن موالاة أهل الغفلة وإن قربُوا نسبا، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم ﴾؛ الذين بقوا على كفرهم ﴿ أولياءَ ﴾؛ توالونهم بالمحبة والطاعة، ﴿ إن استحبوا الكفر ﴾ واختاروه على الإيمان. نزلت في شأن المهاجرين؛ فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجارتنا، وبقينا ضائعين. وقيل: نزلت فيمن ارتد ولحق بمكة، فنهى الله عن موالاتهم. ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾؛ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

﴿ قل إن كـان آباؤكـم وأبناؤكُم وإخـوانكُم وأزواجكم وعـشـيـرتُكم ﴾ أي: أصـحـابكم، أو أقرباؤكم، ﴿ وأموال اقترفتُموها ﴾؛ اكتسبتموها، ﴿ وتجارة تخشَوْنَ كسادَها ﴾ أي: فوات وقت إنفاقها، ﴿ ومساكنُ ترضونها ﴾؛ لحسنها وسعتها، فإن كان ذلك ﴿ أحبَّ إليكم من الله ورسوله ﴾ أي: من الإيمان بالله وصحبة رسوله، ﴿ وجهادٍ في سبيله ﴾، فآثرتم ذلك، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة، ﴿ فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمره ﴾ أي: بعقوبة عاجلة أو آجلة، أو بنصر وفتح على المؤمنين، كفتح مكة وغيرها، والمراد بالمحبة: الاختيارية دون الطبيعة؛ فإنها لاتدخل تحت التكليف، والتحفظ عنها؛ لأن حب الأوطان والعشائر طبيعي، والحب المكلف به اختياري، بحيث يجاهد نفسه في إبدال الطبيعي بالاختياري.

ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله: ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ لايرشدهم ولا يوفقهم. وفي الآية تهديد عظيم، وقلَّ من تحفظ عنه. قاله البيضاوي.

الإشارة: الهجرة من أوطان الغفلة واجبة، ومفارقة الأصحاب والعشائر؛ الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى الله فريضة، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه، كائنة ما كانت، وما رأينا وليًا قط أنتج في بلده، إلا القليل، فلما هاجر ﷺ من وَطنه إلى المدينة. وحينئذ نصر الدين، بقيت سنة في الأولياء، لا تجد ولياً يعمر سوقُه إلا في غير بلده، ويجب عليه أيضاً أن يعتزل من يشغله عن الله من الآباء والأبناء والأزواج والعشائر، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن الله، بعد أن يقيم في أولاده حقوق الشريعة، فاللبيب هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة، فلا يضيع من يعول، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها، ويذكر الله مع ذلك، فيخالطهم بحسه، ويفارقهم بقلبه، فإن لم يستطع وأراد دواء قلبه فليخير الزوجة، ويُوكل من ينوب عنه في القيام بحقوق العيال، حتى يقوى قلبه ويتمكن مع ربه، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١).

ولإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه:

هَجَرْتُ الخَلْقَ طُرّاً في رِضَاكا وأيْتَمْتُ البَنينَ لِكَيْ أَرَاكَا
فَلَـوْ قَطَّعْتَنِـي إرْباً فَإرْباً لَمَا حَنَّ الفُؤَادُ إلى سِوَاكَا

وبالله التوفيق

(١) الآيتان: ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

ثم ذكّرهم بالنعم، فقال:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: (ويوم حنين): عطف على (مواطن)، أو منصوب بفعل مضمر، وهذا أحسن؛ لأن قوله: (إذ أعجبتكم كثرتكم) خاص بيوم حنين. انظر: ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله، في تذكيرهم بالنعم: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ أي: في مواقف الحرب ومداحضها في مواضع كثيرة، ﴿و﴾ نصركم أيضاً ﴿يوم حنين﴾، وهي غزوة كانت بعد فتح مكة، متصلة بها، في موضع يقال له: حنين، سمي باسم رجل كان يسكنه، وهو واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون، وكانوا اثني عشر ألفا: عشرة آلاف من الذين حضروا فتح مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، قاتلوا هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من قبائل العرب. وكانوا ثلاثين ألفاً، فلما التقوا مع بعض المشركين قال بعض المسلمين: لن نُغلبَ اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابهم، واعتمادهم على كثرتهم، فانهزموا حتى وصل جُلهم إلى مكة، وبقي رسول الله ﷺ في مركزه، ليس معه إلا عمه العباس، آخذاً بلجامه، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك شهادة على تناهي شجاعته ﷺ، فقال للعباس ـ وكان صيّتاً ـ: صِحْ بالناس، فنادى: ياعبادَ الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقاً واحداً، يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين، فقال -عليه الصلاة والسلام-: هذا حين حَمِيَ الوَطِيس[1]، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم، وقال: شاهت الوجوه، ثم قال: انهزموا وربِّ الكعبة، فانهزموا[2].

(١) الوطيس: حفرة تحتفر تحت الأرض، فتوقد فيها النار ويصغّر رأسها، ويخرق فيها خرق للدخان. ثم يوضع فيها اللحم، ويسد، ثم يؤتى من الغد واللحم غابٌ لم يحترق، ولحمها شواء، وهي مجاز في شدة الحرب.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم في (الجهاد ـ باب غزوة حنين) من حديث سيدنا العباس رضي الله عنه.

فأشار تعالى إلى مقالتهم معاتباً لهم عليها بقوله: ﴿ إِذْ أعجبتكُم كثرتُكم فلم تُغن عنكم شيئاً ﴾ أي: فلم تُغن تلك الكثرة عنكم شيئاً من الإغناء، أو من أمر العدو. وهذه المقالة صدرت من غير النبي ﷺ كما تقدم؛ لأنه معصوم من الإعجاب، وإن ثبت أنه قال ذلك فليس على وجه الإعجاب، بل على وجه الإخبار، وعلى ذلك جرى الحكم في المذهب: من حرمة الفرار عند بلوغ اثني عشر ألفا، وكان المسلمون يومئذ اثني عشر ألفاً بالطلقاء؛ وهم مسلمة الفتح: وكانوا ألفين، وسُموا بالطلقاء؛ لمنّ النبي ﷺ عليهم، يقال لمن أطلق من أسر: طليق، وجمعه على طلقاء نادر؛ لأنه يشترط في فعيل، الذي يجمع على فعلاء، أن يكون بمعنى فاعل، كظريف وشريف، لا بمعنى مفعول، كدفين ودفنى، وسخين وسخنى، ومنه. طليق.

ثم قال تعالى: ﴿ وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ ﴾؛ برحبها، أي: ضاقت على كثرة اتساعها، فلم تجدوا فيها مكاناً تطمئن إليه نفوسكم من الدهش، ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾؛ هاربين عن رسول الله ﷺ، ﴿ ثم أنزل الله سكينته ﴾ أي: طمأنينته ﴿ على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ بعد انهزامهم، فرجعوا وقاتلوا، أو على من بقي مع الرسول ﷺ، ولم يفروا. وإعادة الجار؛ للتنبيه على اختلاف حالهما.

﴿ وأنزل جنوداً ﴾ من الملائكة ﴿ لم تروها ﴾ بأعينكم، وكانوا خمسة آلاف، أو ثمانية، أو ستة عشر، على اختلاف الأقوال. ﴿ وعذّبَ الذين كفروا ﴾ بالقتل والأسر والسبي، ﴿ وذلك جزاءُ الكافرين ﴾ أي: ما فعل بهم هو جزاء كفرهم في الدنيا، ﴿ ثم يتوبُ الله من بعد ذلك على من يشاء ﴾ منهم، بالتوفيق للإسلام، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم بالتوفيق والهداية.

رُوِي أن أناساً منهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ وأسْلَمُوا، وقالوا: يارسولَ الله، أنْتَ خيرُ الناس وأبرهم، وقد سُبي أهْلُونا وأولادُنا، وأُخِذَتْ أموالُنَا -وقد سُبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم مالا يحصى، فقال: «اختاروا، إما سَبْيَكُمْ، وإما أمْوَالَكُم» . فقالوا: ماكُنَّا نَعدلُ بالأحْسَابِ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ هؤلاء جاءُونا تائبين، وأنا خَيَّرْتُهم بين الذَّراري والأمْوَالِ، فلَمْ يَعْدِلُوا بالأحْسَابِ شيئاً، فمَنْ كان بيدِه سبي فطابتْ نفسُه أنْ يردَّه فشأنُه، ومَنْ لا، فليُعطِنَا، وليكُنْ قرْضاً علَيْنَا حتّى نُصيب شيئاً فنُعْطيه مثله» ، فقالوا: رضينا وسَلَّمْنَا، فقال: «إنِّي لا أدْرِي، لعَلَّ فِيكُمْ مَنْ لا يَرْضَى، فارجعوا حتى يرفع إليَّ عُرَفَاؤكُم أمركم» فرفعوا إليه أمْرَهمْ، وقالوا: قد رَضُوا، فردَّ السبي إليهم، وقسم الأموال في المؤلفة قلوبهم[١]، ترغيباً في تسكين قلوبهم للإسلام. والغزوة مطولة في كتب السيرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) القصة أخرجها البخاري في (المغازي باب قول الله تعالى : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) عن عروة عن المسور ومروان.

الإشارة: لقد نصركم الله، يا معشر المريدين، على جهاد نفوسكم وتيسير أموركم، في مواطن كثيرة، إذا رجعتم إلى ربكم، واعتزلتم من حولكم وقوتكم في جميع أموركم، فمن علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية، ما تعذر مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. فمن رجع إلى نفسه، أو استند إلى عقله وحدسه، لم تغن عنه شيئا، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ورجع من حيث جاء، فإن انتبه، ورجع إلى ربه، أنزل سكينة عليه، وأيده باليقين، ورجا أن يدرك أمله من رب العالمين.

قال الورتجبي: قوله تعالى: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله)، سكينته -عليه الصلاة والسلام- زيادة أنوار كشف مشاهدة الله، له، حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفائيته الأزلية، وأمنه من مكره، لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحر القدم لم ير للحدث أثرا، ورأى الحدثان متلاشية في فيض العظمة، ففزع منه به، فآواه الله منه إليه، حتى سكن به عنه. هـ.

ثم أمر بمنع المشركين من دخول البيت الحرام، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس﴾ أي: عين الخبث، مبالغة في خبثهم، إما لخبث باطنهم بالكفر، أو لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ولا يتوقون منها، فهم ملابسون لها غالباً. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن أعيانهم نجسة كالكلاب. قاله البيضاوي. ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾، وهو نص على منع المشركين - وهم عبدة الأوثان - من المسجد الحرام، وهو مجمع عليه، وقاس مالك على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة في الكفار، خاصةً بالمسجد الحرام، فمنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة، وأباح دخول غيره، وقصرها أبو حنيفة على موضع النهي، فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام وأباح لهم دخول سائر المساجد، وأباح دخول أهل الكتاب في المسجد الحرام وغيره. قاله ابن جزي.

قوله تعالى: ﴿بعدَ عامهم هذا﴾ يعني: سنة تسع من الهجرة، حين حج أبو بكر بالناس، وقرأ عليٌّ رضي الله عنه عليهم سورة براءة.

﴿ وإن خفتم عيلةً ﴾ أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾؛ من عطائه وتفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، ومازال كذلك إلى الآن.

وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك، وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام، ﴿ إن الله عليمٌ ﴾ بأحوالكم، ﴿ حكيم ﴾ فيما يعطي ويمنع.

الإشارة: بيوت الحضرة - وهي القلوب المقدسة - لا ينبغي أن يدخلها شيء من شرك الأسباب، أو الوقوف مع رفق الأصحاب، أو الركون إلى معلوم حتى يفرد التعلق بالحي القيوم، ولاينبغي أيضا أن يدخلها شيء من نجاسة حس الدنيا وأكدارها وأغيارها، فيجب على أربابها الفرار من مواطن الكدر، والعزلة عن أربابها؛ لئلا يدخل فيها شيء من نجاستها، فتموت بعد حياتها، وكان عيسى -عليه الصلاة والسلام- يقول لأصحابه: (لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى ياروح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها). فإن خفتم عيلة؛ بالفرار منهم واعتزال نجاستهم، فسوف يغنيكم الله من فضلِ غيْبه إن شاء، في الوقت الذي يشاء، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ أي: لأنهم فقدوا طهارة الأسرار، فبقوا في مزابل الظنون والأوهام، فمُنِعُوا قُربانَ المساجد التي هي مساجدُ القرب، وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار، فطالعوا الحقَّ فرْدًا فيما ينشيه من الأمرِ ويُمضيه من الحُكْم.هـ.

ثم أمر بجهاد أهل الكتاب، فقال:

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله للمؤمنين: ﴿ قاتلوا ﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ الذين لايؤمنون بالله ﴾ على مايجب له، لإشراكهم عُزير وعيسى، ولتجسيمهم، ﴿ ولا باليوم الآخر ﴾؛ لأنهم ينكرون المعاد الجسماني،

فإيمانهم في الجانبين كلا إيمان، ﴿ولا يحرّمون ما حرّمَ الله ورسولُه﴾ محمد ﷺ؛ لأنهم يحلون الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وغير ذلك مما حرمته الشريعة المحمدية، ﴿ولا يَدِينُون دينَ الحق﴾ أي: لا يدخلون في الإسلام، الذي هو الدين الحق، الناسخ لسائر الأديان ومبطلها.

ثم بيّن الذين أمر اللهُ بقتالهم بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾؛ وهم اليهود والنصارى. وحين نزلت خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك لقتال النصارى، ووصل إلى أوائل بلد العدو، فصالح أهل أدرج وأيلة، وغيرهما، على الجزية وانصرف، وذلك امتثال للآية.

قال تعالى: فقاتلوهم ﴿حتى يُعطوا الجزية﴾ أي: ما تقرر عليهم أن يعطوه، وقدْرها عند مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهما على أهل الورق، يؤخذ ذلك من كل رأس، واتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى، ويلحق بهم المجوس؛ لقوله ﷺ: «سنُّوا بهم سُنَّةَ أَهْلِ الكتاب»(1)؛ لأن لهم شبهة كتاب، فألحقوا بهم. واختلفوا في قبولها من عَبدة الأوثان؛ قال مالك: تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين.

وقوله تعالى: ﴿عن يدٍ﴾ أي: يباشر إعطاءها بيده، لايبعثها مع أحد، أو لا يمطل بها، كقولك: يداً بيد، أو عن استسلام وانقياد، كقولك: ألقى فلان بيده. ﴿وهم صاغرون﴾؛ أذلاء محقورون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: تؤخذ الجزية من الذمي، وتوجأ عنقه، أي: تصفع.

الإشارة: يؤمر المريد بقتل نفسه وحظوظه وهواه، وأعظمها: حب الدنيا والرئاسة والجاه، ولايزال يخالف هواها، ويعكس مراداتها، ويحملها مايثقل عليها، حتى تنقاد إليه بالكلية، بحيث لايثقل عليه شيء، ويستوي عندها العز والذل، والفقر والغنى، والمدح والذم، والمنع والعطاء، والفقد والوجد، فإن استوت عندها هذه الأحوال فقد أسلمت وأعطت مايجب عليها، فيجب حفظها ورعايتها، وتصديقها فيما يرد عليها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الباعث على جهاد أهل الكتاب، وهو فساد اعتقادهم، فقال:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ

---

(1) أخرجه مالك في الموطأ (الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) والشافعي في مسنده (الجزية) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٨٩)، والبغوي في شرح السنة (١١/١٦٩) عن عبدالرحمن بن عوف.

ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قلت: (عزيز): (مبتدأ)، و(ابن الله): خبر، فمن نونه جعله مصروفاً؛ لأنه عنده عربي، ومن حذف تنوينه: إما لمنعه من الصرف؛ للعلمية والعجمة عنده، وإما لالتقاء الساكنين؛ تشبيهاً للنون بحروف اللين، وهو ضعيف، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالت اليهودُ عُزيرٌ ابنُ الله﴾، قال ابن عباس: هذه المقالة قالها أربعة منهم، وهم: سَلاَم بن مِشْكَم، ونُعْمَانُ أولُقْمَانُ بْنُ أَوْفَى، وشاس بن قيس، ومَالِكُ بْنُ الصَّيْف[1]. وقيل: لم يقلها إلا فنحاص، ونسب ذلك لجميعهم؛ لسكوتهم عنه. **قال البيضاوي**: إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم، أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوارة، وهو ـ أي عزير ـ لما أحياه الله بعد مائة عام، أملى عليهم التوارة حفظاً، فتعجبوا من ذلك، وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قُرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. هـ.

﴿وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله﴾، هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أب، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وتقدم الرد عليهم، وسبب إدخال هذه الشبهة عليهم، في سورة المائدة.[2]

قال تعالى: ﴿ذلك قولُهم بأفواههم﴾ من غير دليل ولا برهان، بل قالوا به من عندهم ﴿يُضاهِئونَ﴾ أي: يشابهون في هذه المقالة ﴿قولَ الذين كفروا من قبلُ﴾، يعني: قدماءهم، على معنى أن الكفر قديم فيهم. **قال ابن جزي**: فإن كان الضمير لليهود والنصارى، أي: المتقدمين، فالإشارة بقوله: (الذين كفروا من قبل) للمشركين من العرب، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر، أو للصابئين، أو لأمم تقدمت، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي ﷺ؛ من اليهود والنصارى، فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/٣٦).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾ الآية ٧٢.

﴿ قَاتَلَهُم اللهُ ﴾ أي: أهلكهم ودمرهم؛ لأن من قاتله الله هلك، فيكون دعاء، أو تعجباً من شناعة قولهم، ﴿ أَنَّى يُؤفكون ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿ اتخذوا أحبارهَم ﴾ أي: علماءَهم ﴿ ورهبانَهم ﴾؛ عُبّادَهم ﴿ أرباباً من دون الله ﴾؛ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وفي السجود لهم، ﴿ والمسيحَ ابنَ مريَم ﴾؛ بأن جعلوه ابن الله، ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً ﴾ وهو الله الواحد الحق، وأما طاعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسائر من أمر بطاعته، فهو في الحقيقة طاعة لله، ﴿ لا إله إلا هو ﴾؛ تقرير للتوحيد، ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾؛ تنزيهاً له عن أن يكون معه شريك.

﴿ يريدون أن يُطفِئُوا ﴾ أي: يُخمدوا ﴿ نورَ الله ﴾؛ القرآن أو الإسلام بجملته، ﴿ بأفواههم ﴾ كقولهم فيه: سحر، وشعر، وغير ذلك، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا، ﴿ ويأبى اللهُ ﴾؛ لا يرضى ﴿ إلا أن يُتمَّ نورَه ﴾ بإعلاء التوحيد، وإظهار الإسلام، وإعزاز القرآن وأهله، ﴿ ولو كَرِهَ الكافرون ﴾ ذلك، فإن الله لا محالة يتم نوره، ويظهر دينه.

﴿ هو الذي أرسلَ رسولَهُ ﴾ محمداً ﷺ ﴿ بالهدى ودين الحق لِيُظهِرَهُ على الدين كله ﴾، الضمير في «يُظهره»: للدين الحق، أو للرسول ﷺ، واللام في «الدين»: للجنس، أي: على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم، وقد أنجز وعده، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها، حتى عم المشارق والمغارب، ﴿ ولو كَرِهَ المشركون ﴾ ذلك الإظهار، فيظهره الله رغماً عن أنفهم. وقيل: يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السلام، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة: من انطمس نور بصيرته نسب لله مالا يليق بكمالاته، ومن لم تنهضه سوابق العناية وقف مع الوسائط، ولم ينفذ إلى شهود الموسوط، وقد عيَّر الله قوماً وقفوا مع الوسائط فقال: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾، وقال، في شأن الواسطة العظمى؛ غيرةً على القلوب أن تقف مع غيره: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾(١)، ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾(٢)، ودخل بعض العارفين على إنسان وهو يبكي، فقال: وما يبكيك؟ فقال له: مات أستاذي، فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت؟.

فالوسائط؛ كالأنبياء والأولياء، إنما هم مُوَصِّلُونَ إلى الله، دالون عليه، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى الله فقد اتخذه رباً عند الخواص.

(١) من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران.　　(٢) من الآية ١٢ من سورة هود.

وقال الورتجبي على هذه الآية: غيَّر الحق تعالى من بقي في رؤية المقتدَى بهِ دون رؤية الحق، وإن كان وسيلة منه، فإن في إفراد القدم من الحدوث، النظر إلى الوسائط، وهو شرك، وتصديق ذلك تمام الآية؛ ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ﴾. غيرةُ الوحدانية ما أبقت في البيّن غيراً من الشواهد والآيات وجميع الخلق. قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾(١). ولما رأى ﷺ غيرة القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز في المدح فقال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح».

ثم قال الورتجبي: قال بعضهم في هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحق من غير مظانه، وطُرق الحق واضحة لمن كُحل بنور التوفيق، ويبصر سبل التحقيق، ومن أعمِيَ عن ذلك كان مردوداً عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلة عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزوّاقين من أهل الناموس المتزينين بزي المشايخ والعارفين المتحققين، وتخلفَ خلْفَ الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة، يُضْحك اللهُ الدهرَ من جهلهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن من لم يذق طعم وِصَال الله، وقلبه معلق بغير الله، هو من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمريد خيراً هداه إلى صحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء. ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم، لكفيهم شقاوتهم، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين. قال الله في شأنهم: ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوارُ شموس الصفات، التي تبرز من جباه وجوههم، ولئالىء خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوحدانية وسموات القيومية، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق): إن الله سبحانه سن سنة أزلية: ألا يجد أحدٌ سبيله إلا من يُقيض له أستاذاً عارفًا بالله، ويسرّ دينه وربوبيته، فيدله إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه، إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء بغير علة ولا سبب، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب، وصيره شفيعاً للجنايات، لا شريكاً في الهدايات، هداه نور القرآن، وبيّنه حقيقة البيان، مع إظهار البرهان. قيل: جعل الله الوسائط طريقًا لعباده إليه، وبعثهم أعلاماً على الطرق ونوراً يهتدى بهم، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين، قال الله تعالى: (أرسل رسوله بالهدى ودين الحق). انتهى كلامه.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

ثم ذكر مساوئ الأحبار والرهبان، تنفيراً من طاعتهم، وذماً لمن اتخذهم أربابا، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: (يحمى عليها): الجار والمجرور: نائب الفاعل، وأصله: يوم تحمي النار الشديدة الحمى عليها، فجعل الإحماء للنار؛ مبالغةً، ثم حذفت النار، وأسند الفعل إلى الجار والمجرور؛ تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموالَ الناس بالباطل ﴾؛ يأخذونها بالرشا في الأحكام، وسمى أخذ المال أكلاً؛ لأنه الغرض الأعظم منه، ﴿ ويصدُّون عن سبيل الله ﴾ أي: يعوقون الناس عن الدخول في دينه، ﴿ والذين يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ﴾ أي: يدخرونها ﴿ ولايُنفقونها ﴾ أي: الأموال المفهومة من الذهب والفضة، أو الكنوز، أو الفضة، واكتفى بذكرها عن الذهب؛ إذ الحُكم واحد، ﴿ فبشِّرْهم بعذابٍ أليم ﴾؛ وهو الكي بها، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم، بالحرص على المال وجمعه، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال، ويقتنونها ولا يؤدون حقها، ويكون اقترانه بأكلة الرشا من أهل الكتب؛ للتغليظ. ويدل عليه: أنه لما نزلت على رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فقال: «إنَّ الله لم يفرض الزكاة إلا ليطَّيبَ بها ما بقي من أموالكم.»[1] وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ما أدى زكَاته فلَيْسَ بكنْزٍ»[2]. وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد: كل ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز، وحمل الآية عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود في (الزكاة، باب في حقوق المال) والحاكم في المستدرك (١/٤٠٩) من حديث ابن عباس، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (كتاب الزكاة ٤/٨٣) وابن عدي في الكامل في (ترجمة سويد بن عبد العزيز ٣/١٢٦٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً وأخرجه موقوفاً البخاري (٢/٢٧١).

ثم ذكر وعيدهم فقال: ﴿يوم يُحمَى عليها﴾ أي: على الأموال المكنوزة ﴿ في نار جهنم﴾ أي: يوم توقد النار ذات الحمى الشديد عليها، حتى تكون صفيحة واحدة، ﴿فتُكوى بها جباهُهم وجنوبهم وظهورهُم﴾، خصهم بالعذاب، لأنهم كانوا يعرضون عن السائل، ويُولون ظهره، فيعرضون عنه بجباههم وجنوبهم. أو لأنها أشرف الأعضاء، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع، التى هى مقادم الإنسان؛ مؤخره وجنباه.

يقال لهم: ﴿هذا ما كنزتم لأ نفسكم﴾ أي: لمنفعتها، وكان عينَ مضرتها وسببَ تعذيبها، ﴿فذُوقوا ما كنتم تكنِزُون﴾ أى: وبال كنزكم، أو ما كنتم تكنزونه. وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاَحِب ذهبٍ ولا فضةٍ لايُؤدى منها حقَّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحتْ له صفائح من نَار، فأحمى عليها فى نار جهنم، فيُكوى بها جبينُه وجنبه وظهرُه، كلما بردت أُعيدت له، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله: إما إلى الجنة وإما إلى النار». رواه مسلم بطوله[1].

قال ابن عطية: روى أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد ذم الله تعالى كسب الذهب والفضة، فلوعلمنا أىّ المال خير حتى نَكْسِبه؟ فقال عمر: أنا أسأل لكم رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «لِسَان ذَاكِر، وقَلْب شاَكِر، وزَوْجَة تُعين المرء على دِينِه»[2]. ورُوي أن النبى ﷺ قال، لما نزلت الآية: «تباً للذَّهَبِ والفِضَّة»[3]. فحينئذ أشفق أصحابه، وقالوا ما تقدم. هـ. ولابن حجر:

من خيرمايتخذ الإنسانُ   فى دنياه كيما يستقيمَ دينُه.
قلبٌ شكور، ولسانٌ ذاكر،   وزوجـةٌ صــالحة تُعينُه.

وهو نظم لهذا الحديث، وقد تكلم عليه في الجامع وشرحِه . قاله المحشى.

الإشارة: هذه الآية تغبُر فى وجوه علماء السوء، الذين يتساهلون فى أكل الدنيا بالعلم، كقبض الرشا، وقبض ما فوق أجرته فى الأحكام، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم، مع أنه واجب عليه، حيث تعين عليه بنصب الإمام له، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها، فترى

(١) أخرجه مسلم فى (الزكاة، باب إثم مانع الزكاة) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٧٨ ـ ٢٨٢) والترمذى فى (التفسير ـ سورة التوبة) وابن ماجه فى (النكاح باب أفضل النساء) عن ثوبان.
(٣) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد فى المسند (٥/٣٦٦) عن عبدالله بن أبى الهذيل.

أحدهم ينفق في نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة، وإذا أتاه فقير يسأله درهماً أو درهمين، تَمَعَّرَ(١) وجهه، وتغير لونه، فبشرهم بعذاب أليم. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر وعيد من لم يزك كنزه، ذكر الحول التي تجب به الزكاة، فقال:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قلت: (عند الله): معمول لعدة؛ لأنها مصدر، و(في كتاب الله): صفة لاثني عشر، و(يوم): متعلق بالثبوت المقدر في الخبر، أي: ثابتة في كتاب الله يوم خلق الأكوان والزمان، وقوله: (منها): أي: الأشهر، ثم قال: (فيهن). وضابط الضمير إن عاد على الجماعة المؤنثة، حقيقة أو مجازاً، إن كانت أكثر من عشرة، قلت: منها وفيها، وإن كانت أقل من عشرة، قلت: منهن وفيهن، قال تعالى: ﴿ يأكُلُهنّ ﴾(٢) وقال هنا: (فيهن). انظر الإتقان. و(كافة): حال من الفاعل أو المفعول.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ عِدةَ الشهور ﴾ في كل سنة ﴿ عند الله ﴾؛ في علم تقديره، ﴿ اثنا عشرَ شهراً ﴾: أولها المحرم، وآخرها ذو الحجة. وأول من جعل أولها المحرم: عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه.

وهذه العدة ثابتة ﴿ في كتاب الله ﴾؛ اللوح المحفوظ، أو في حكمه، أو القرآن، ﴿ يومَ خلقَ السموات والأرض ﴾، أي: هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة، ﴿ منها ﴾ أي: الأشهر ﴿ أربعة حُرُم ﴾؛ واحد فرد، وهو رجب، وثلاثة سَرْد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ﴿ ذلك الدين القيِّم ﴾ أي: تحريم الأشهر الحرم هو الدين القويم، دين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وتمسكت به العرب حتى غيَّره بعضهم بالنسيء، ﴿ فلا تظلمُوا فيهن أنفسكم ﴾؛ بهتك حرمتها والقتال فيها، ثم نسخ بقوله: ﴿ وقاتلوا المشركين كافةً ﴾ أي: في الأزمنة كلها؛ ﴿ كما يُقاتلونكم كافة ﴾؛ لأنهم، إن قاتلتموهم فيها قاتلوكم فهذا نسخ لتحريم القتال في الأشهر الحرم.

(١) أي يتغير، وأصله: قلة النضارة وعدم إشراق اللون، من قولهم: مكانٌ أمعر، وهو الجدب الذي لا خصب فيه ... انظر النهاية في غريب الحديث (معر)، واللسان (معر).
(٢) من الآية ٤٦ من سورة يوسف.

وقال عطاء: لا يحل للناس أن يغزوا في الأشهر الحرم، ولا في الحَرَم، إلا أن يُبدأوا بالقتال، ويرده غزوه ﷺ حُنيناً والطائف في شوال وذي القعدة. ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالنصر والمعونة، وفيه بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم.

الإشارة: أهل الفهم عن الله: الأزمنةُ كلها عندهم حُرُم، والأمكنة كلها عندهم حَرَامٌ، فهم يحترمون أوقاتهم، ويغتنمون ساعاتهم لئلا تضيع. قال الحسن البصري: أدركتُ أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهيمكم، يقول: كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليه نفعه، كذلك لايحبون أن يخرجوا ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه وقال الجنيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الوقت إذا فات لايُستدرك، وليس شئ أعز من الوقت. هـ.

وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من عمل صالح، يتوصل به إلى مُلْك كبير لا يفنى، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير، وإلى هذا الإشارة بقوله: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بتضييعها في غير ما يقرب إلى الله. ثم أمر بجهاد القواطع، التي تترك العبد في مقام الشرك الخفي، وبشرهم بكونه معهم بالنصر والتأييد، والمعونة والتسديد.

ثم عاب على المشركين ما أحدثوا من النسيء، فقال:

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قلت: (النسيء): التأخير، يقال بالهمزة ويقلبها ياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما النسيءُ ﴾، وهو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات، وكانت محرمة عليهم في الأشهر الحرم، فيشق عليهم تركها، فيجعلونها في شهر حرام، ويحرمون شهراً آخر بدلاً منه، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر، حتى يُكملوا في العام أربعة أشهر محرمة، وإنما ذلك ﴿ زيادةٌ في الكفر ﴾؛ لأنه تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم، ﴿ يُضَلُّ به الذين كفروا ﴾ عن الحق، ضلالاً زائداً على ضلالهم، أو يضلهم الله بذلك، ﴿ يُحلونه عاماً ﴾ أي: يحلون الشهر الحرام عاماً، ويحعلون مكانه آخر، ﴿ ويحرمونه عاما ﴾، فيتركونه على حرمته، فكانوا تارة ينسئون وتارة يتركون.

قيل: أول من أحدث ذلك: جُنَادة بن عوف الكنانى؛ كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادى من قابل: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه، فتتبعه العرب.

ثم حرّموا شهراً آخر مكان المحرم ﴿ ليواطئُوا ﴾؛ ليوافقوا ﴿ عِدَّةَ ما حرَّمَ الله ﴾، وهى الأربعة الحرم، ﴿ فيُحلّوا ما حرّم اللهُ ﴾ عليهم من القتال فى الأشهر الحرم، ﴿ زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالهم ﴾ أى: خذلهم وأضلهم، والمُزين حقيقة: الله، أو الشيطان؛ حكمةً وأدباً. ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى طريق الرشد، ماداموا على غيهم، حتى يسلكوا سبيل نبيه ﷺ.

الإشارة: إنما تأخير التوبة واليقظة، وترك السير إلى مقام التصفية والترقية، زيادة فى البعد والقسوة، يضل به الذين هجروا طريق التربية والتصفية، عن مقام أهل الإحسان والمعرفة، فتارة يُحلون المقام مع النفس الأمارة، ويقولون: قد انقطعت التربية، وعُدِمَ الطبيبُ الذى يداويها ويخرجها عن وصفها، وتارة يُحرمون المقام معها والاشتغال بحظوظها وهواها، ويقولون: البركة لا تنقطع، والمدد لا ينعدم، ليوافقوا بين الأمر بمجاهدتها فى قوله: ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾، وبين من قال: قد انقطعت التربية، زُين لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدى القوم الكافرين إلى السير والوصول إلى ربهم.

ثم عاتبهم على التأخر عن الجهاد فى غزوة تبوك، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

قلت: (اثاقلتم): أصله: تثاقلتم، أدغمت التاء فى الثاء، وجلبت الهمزة للساكن، وقرئ على الأصل، وضمن معنى الإخلاد، فعُدِّى بإلى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ﴾؛ للجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿ اثاقلتم ﴾ أى: تباطأتم وأخلدتم ﴿ إلى الأرض ﴾ كسلاً وفشلاً، وكان ذلك فى غزوة تبوك، أُمروا بها بعد رجوعهم من الطائف، فى وقت عسر، وحر، وبُعد الشقة، وكثرة العدو، فشق عليهم ذلك، ﴿ أرضيتم

بالحياة الدنيا﴾ وكدرها، ﴿من الآخرة﴾، بدل الآخرة ونعيمها، ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أى: التمتع بها فى جانب الآخرة، ﴿إلا قليلٌ﴾؛ مستحقر، لسرعة فنائه ومزجه بالكدر.

﴿إلاَّ تنفرُوا﴾ مع رسوله إلى ما استُنْفِرْتُم إليه، ﴿يُعذِّبكم عذاباً أليماً﴾ فى الدنيا والآخرة؛ فى الدنيا: بالإهلاك بأمرٍ فظيع، كقحط وظهور عدو، وغير ذلك من المهلكات، وفى الآخرة: بعذاب النار. ﴿ويستبدلْ﴾ مكانكم ﴿قوماً غيركم﴾ فى الدنيا، يكونون مطيعين لله ورسوله، كأهل اليمن وأمثالهم، ﴿ولا تضرُّوه شيئاً﴾؛ إذ لا يقدح تثاقلكم فى نصر دينه شيئاً، فإنه الغنى عن كل شيء، فى كل وقت. وقيل: الضمير للرسول ﷺ؛ فإن الله وعده بالعصمة والنصرة، ووعده حق، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد، كمافعل معه فى الغار والهجرة، على ما يأتى.

الإشارة: ما لكم إذا قيل لكم: انفروا إلى من يُعرفكم بالله، ويعلمكم كيف تجاهدون نفوسكم فى طلب مرضاة الله، اثاقلتم وأخلدتم إلى أرض الحظوظ والشهوات، أرضيتم بالحياة الدنيا الدنية، بدل الحياة الأبدية، فى الحضرة القدسية؟ أرضيتم بحياة الأشباح بدل حياة الأرواح؟ فما متاع الحياة الدنيا الفانية فى جانب الحياة الأبدية فى الحضرة العلية، إلا نزر قليل حقير ذليل، إلا تنفروا لجهاد نفوسكم، يعذبكم عذاباً أليماً، بغم الحجاب، وشدة التعب والنصب، وتوارد الخواطر والهموم، وترادُف الأكدار والغموم، ويستبدل قوماً غيركم يكونون عارفين بالله، مَرْضيين عند الله، راضين عن الله، والله على كل شيء قدير.

ثم ذكر نصرته لرسوله بلا سبب، فقال:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: «إن»: شرط، وجوابه محذوف، دلّ عليه قوله: ﴿فقد نصره الله﴾ أى: إن لم تنصروه فسينصره الله، الذى نصره حين أخرجه الذين كفروا، حال كونه ثانى اثنين، فدل بنصره فى الماضى على نصره فى المستقبل، وإسناد الإخراج إلى الكفرة؛ لأن هممهم بإخراجه أو قتله كان سبباً لإذن الله له فى الخروج، و(إذ هما): بدل من (أخرجه)؛ بدل البعض، و(إذ يقول): بدل ثان، و(كلمة الله): مبتدأ، و(العليا): خبر. وقرأ يعقوب: بالنصب؛ عطفًا على ﴿كلمة الذين كفروا﴾، والأول: أحسن؛ للإشعار بأن كلمة الله عالية فى نفسها، فاقت غيرها أم لا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إلاَّ تنصروهُ ﴾؛ تنصروا محمداً، وتثاقلتم عن الجهاد معه، فسينصره الله، كما نصره حين ﴿ أخرجه الذين كفروا ﴾ من مكة، حال كونه ﴿ ثاني اثنين ﴾ أي: لم يكن معه إلا رجل واحد، وهو الصدِّيق، ﴿ إذْ هما في الغار ﴾؛ نقب في أعلى غار ثور، وثور جبل عن يمين مكة، على مسيرة ساعة. ﴿ إذْ يقولُ لصاحبه ﴾: أبي بكر رضي الله عنه: ﴿ لا تحزنْ إنّ الله معنا ﴾ بالعصمة والنصرة.

رُوي أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول الله ﷺ، حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١) فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه.

﴿ فأنزل اللهُ سكينَتَهُ ﴾ أي: أمَنَةَ الذي تسكن إليه القلوب، ﴿ عليه ﴾ أي: على رسوله ﷺ، أو على صاحبه، ﴿ وأيَّدَه بجنودٍ لم ترَوْها ﴾، يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو يوم بدر وأحد وغيرهما، فتكون على هذا: الجملة معطوفة على: (فقد نصره الله). ﴿ وجَعَلَ كلمةَ الذين كفروا ﴾ وهي الشرك، أو دعوى الكفر، ﴿ السفلى. وكلمةُ الله ﴾ التي هي التوحيد، أو دعوة الإسلام، ﴿ هي العُلْيَا ﴾؛ حيث خلص رسوله ﷺ من بين الكفار، ونقله إلى المدينة، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر، ﴿ والله عزيزٌ ﴾؛ غالب على أمره، ﴿ حكيم ﴾ في أمره وتدبيره.

الإشارة: ماقيل في حق الرسول ﷺ يقال في حق ورثته، الداعين إلى الله بعده؛ من العارفين بالله، فيقال لمن تخلف عن صُحْبة وليِّ عصره وشيخ تربية زمانه: إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه، وأغناه عن غيره، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه، كما هي سنة الله في أوليائه، لأن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، فمن دخل مع الخصوص قطعاً أنكرته العموم، فتخرجه ثاني اثنين هو وقلبه، فيأوي إلى كهف الأنس بالله، والوحشة مما سواه، فيقول لقلبه: لا تحزن إنّ الله معنا، فينزل الله عليه سكينة الطمأنينة والتأييد، وينصره بأجناد أنوار التوحيد والتفريد، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى، وكلمة الداعين إلى الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

(١) أخرجه البخاري في (فضائل أصحاب النبي، باب مناقب المهاجرين) ومسلم في: (فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه).

ثم نهضهم إلى الجهاد، فقال:

﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت: (يُهلكون): حال من فاعل (يحلفون)، أو بدل منه. قال في القاموس: (الشقة)ـ بالضم والكسر: البُعد والناحية يقصدها المسافر، والسفر البعيد والمشقة. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ انفرُوا ﴾ للجهاد مع الرسول ﷺ، حال كونكم ﴿ خفافاً ﴾؛ نشاطاً، ﴿ وثقالاً ﴾؛ كسالى لمشقته، أو (خفافا) لمن قلّ عياله، (وثقالا) لمن كثر عياله، أو خفافاً لمن كان فقيراً، وثقالاً لمن كان غنياً، أو خفافاً ركباناً، وثقالاً مشاة، أو خفافاً بلا سلاح، وثقالاً بالسلاح، أو خفافاً شباباً، وثقالاً شيوخاً، أو خفافا أصحاء، وثقالا مرضى. ولذلك قال ابنُ أمّ مكتوم لرسول الله ﷺ: أعلَيَّ الغزو يارسول الله؟ قال: «نعم»، حتى نزل: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾(١). ﴿ وجاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ أي: بما أمكن؛ إمَّا بهما أو بأحدهما، ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ مِنْ تركه، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ما في ذلك من الأجر العظيم والخير الجسيم، أي: لو علمتم ذلك ما قعدتم خلف سرية.

ثم عاتب من أراد التخلف، فقال: ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ من الدنيا، ﴿ وسفراً قاصداً ﴾؛ متوسطاً أو قريبا، ﴿ لاتَّبعوك ﴾ أي: لو كان مادعوا إليه أمراً دنيوياً كغنيمة كبيرة، أو سفرا متوسطا، لاتبعوك ولوافقوك على الخروج، ﴿ ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ ﴾ أي: المسافة التي تقطع بمشقة، وذلك أن الغزوة ـ أي: تبوك ـ كانت إلى أرض بعيدة، وكانت في شدة الحر، وطيب الثمار، فشقت عليهم. ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي: المتخلفون إذا رجعت من تبوك، معتذرين، يقولون: ﴿ لو استطعنا ﴾ الخروج ﴿ لخرجنا معكم ﴾، لكن لم تكن لنا استطاعة من جهة العُدة والبدن وهذا إخبار بالغيب قبل وقوعه. ﴿ يُهلِكُون أنفسَهم ﴾ بوقوعها في العذاب، ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ في ذلك؛ لأنهم كانوا مستطيعين الخروج، وإنما قعدوا كسلاً وجُبْناً، والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٦١ من سورة النور.

الإشارة: انفروا إلى جهاد أنفسكم وقطع علائقكم وعوائقكم، لكي تستأهلوا لدخول حضرة ربكم، وسافروا إلى من يعينكم ويقوى مدد أجناد أنواركم، وهم المشايخ العارفون، فسيروا إليهم خفافاً وثقالاً، نُشّاطاً وكُسّالاً، والغالب أن النفس يشق عليها ما يكون سبباً في قتلها، فلا ينفر إليها خفافاً أول مرة إلا النادر.

ثم أمر ببذل الأموال والمُهج في طريق الوصول إلى حضرة الله، وعاتب من تخلف عن ذلك وطلب الراحة والبقاء في وطن نفسه. قال القشيري: أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره على جميع أحوالهم، ﴿خفافا﴾ أي: في حال حضور قلوبكم، فلا يمسُّكم نَصَبُ المجاهدات، ﴿وثقالا﴾ أي: إذا رُدِدْتم إليكم في مقاساة نصب المكابدات. فإنّ البيعة أُخِذَتْ عليكم في المنشط والمكره. هـ. ومثله عند الورتجبي عن أبي عثمان قال: خفافاً وثقالاً؛ في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت، كما روى عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعنا رسول الله على المنشط والمكره. هـ.

ثم عاتب رسولَه ﷺ لشدة قربه، وعظيم منزلته، وتَلَطَّفَ له على إذنه للمنافقين في التخلف، فقال:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ ملاطفاً له في الكلام: ﴿ عفا اللهُ عنك لِمَ أذِنْتَ لهم ﴾، لِمَ بادرت إلى الإذن إلى المنافقين في التخلف، واستكفيت بالإذن العام في قولنا: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾[1]، فإن الخواص من المقربين لا يكتفون بالإذن العام، بل يتوقفون إلى الإذن الخاص. ولذلك عوتب يونس عليه السلام. والمعنى: لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتذروا لك بأكاذيب؟ وهلا توقفت ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ في الاعتذار، ﴿ وتعلمَ الكاذبين ﴾ فيه.

قال ابن عطية: قوله: ﴿ الذين صدقوا ﴾ يريد: في استئذانك، وأنك لو لم تأذن لهم لخرجوا معك، وقوله: ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يريد: أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدِّك، وهم كَذَبة، قد عزموا على

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة النور.

العصيان، أذِنْتَ أو لم تأذن. هـ. قال ابن جزى: كانوا قد قالوا: استأذنوه فى القعود، فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن قعدنا، وإنما كان يظهر الصادق من الكاذب لو لم يأذن لهم، فحينئذ كان يقعد العاصى والمنافق، ويسافر المطيع الصادق.هـ.

﴿ لا يستأذنُك الذين يؤمنون بالله واليومِ الآخر أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أى: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا، بل الخُلّص منهم يُبادرون إليه، ولا يوقفُونه على الإذن فيه، فضلاً عن أن يستأذنوا فى التخلف عنه، ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾؛ فيثيبهم ويقربهم، وهى شهادة لهم بالتقوى وَعِدَةٌ لهم بثوابه.

﴿ إنما يستأذِنُكَ ﴾ فى التخلف ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾، وخصص ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ إشعاراً بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه: الإيمان وعدم الإيمان بهما، ﴿ وارتابتْ قلوبهم ﴾ أى: شكّت فى الإيمان والبعث، ﴿ فهم في ريبهم يتردّدُونَ ﴾: يتحيرون. ونزلت الآية فى عبدالله بن أُبىّ والجدّ بن قَيْس، وأمثالهما من المنافقين.

الإشارة: لا ينبغى للعارفين بالله؛ الداعين إلى الله، أن يأذنوا لمن استأذنهم فى التخلف عن الجهاد الأكبر، ويرخصون له فى البقاء مع النفس والهوى، وجمع حطام الدنيا، شفقةً ورحمةً؛ لأن الشفقة فى هذا المعنى لا تليق بأهل التربية، فقد قالوا: الشفقة والرطوبة لا تليق بشيوخ التربية، بل لا يليق بهم إلا الأمر بما تموت به النفوس، وتحيا به الأرواح، وإن كان فيه حتفُهم. وقد قالوا أيضاً: إذا كان الشيخ يحرش على المريد[1]، ويقدمه للمهالك فى نفسه أو ماله أو جاهه، فهو دليل على أنه يحبه وينصحه، وإذا كان يرخص له في أمور نفسه، ويأمره بالمقام معها، فهو غير ناصح له.

وأما الإذن فى التجريد وعدمه: فإن رآه أهلاً له؛ لنفوذ عزمه، فيجب عليه أن يأمره به، وإن رآه لا يليق به؛ لعوارض قامت به، منعه منه، حتى ينظر ما يفعل الله به، وسأل رجلٌ القطبَ ابنَ مشيش، فقال له: ياسيدى؛ أستأذنك فى مجاهدة نفسى؟ فقال له: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين. إنما يستئذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون﴾.

(١) أى: يدفعه.

ثم ذكر سبب تخلفهم، وهو عدم الإرادة، فقال:

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: (مازادوكم إلا خبالاً) قال بعضهم: هو استثناء منقطع، أي: مازادوكم شيئاً، لكن خبالاً يُحْدِثُونه فى عسكركم بخروجهم. قال ذلك؛ لئلا يلزم أن الخبال واقع فى عسكر المسلمين، لكن خروجهم يزيد فيه. وفيه نظر؛ لأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعاً، ويمكن هنا أن يكون متصلاً؛ لأن غزوة تبوك خرج فيها كثير من المنافقين، فحصل الخبال، فلو خرج هؤلاء المستأذنون فى التخلف، القاعدون، لزاد الخبالُ بهم.

وقوله: (ولأوضعوا) أى: أسرعوا، والإيضاع: الإسراع، و(خلالكم) : ظرف، أى: لأسرعوا بينكم بالمشى بالنميمة، وجملة: (يبغونكم) : حال من فاعل «أوضعوا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أرادوا﴾؛ أراد المنافقون ﴿الخروج﴾ إلى الغزو معكم، وكانت لهم نية فى ذلك ﴿لأعدُّوا له عُدَّةً﴾ أى: لاستعدوا له أهبتَهُ قَبل أوانه. فما فعلوا، ﴿ولكن﴾ تثبطوا؛ لأنه تعالى كره ﴿انبعاثهم﴾، أى: نهوضهم للخروج، ﴿فثبَّطَهم﴾ أى: حبسهم وكسر عزمهم، كسلاً وجبناً، ﴿وقيلَ﴾ لهم: ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ من النساء والصبيان وذوى الأعذار، وهو ذم لهم وتوبيخ. والقائل فى الحقيقة هو الله تعالى، وهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود، وبناه للمجهول تعليماً للأدب. قال البيضاوى: هو تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج فى قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول لهم. هـ.

﴿لو خرجوا فيكم﴾ مازادكم خروجهم شيئاً ﴿إلا خبالاً﴾؛ فساداً وشراً. والاستثناء من أعم الأحوال، فلا يلزم أن يكون الخبال موجوداً، وزاد بخروجهم، أو إذا وقع خبال بحضور بعضهم معكم مازادكم هؤلاء القاعدون بخروجهم إلا خبالاً زائداً على ما وقع. ﴿ولأوْضَعُوا﴾ أى: لأسرعوا ﴿خِلالكُم﴾ أى: فيما بينكم، فيسرعون فى المشى بالنميمة والتخليط والهزيمة والتخذيل، ﴿يبغونَكُم الفتنة﴾ أى: حال كونهم طالبين لكم الفتنة، بإيقاع

الخلل بينكم، حتى تختلف قلوبكم ورأيكم، فيذهب ريح نصركم، ﴿ وفيكم ﴾ قوم ﴿ سمَّاعُونَ لهم ﴾؛ فيقبلون قولهم، إما بحسن الظن بهم، أو لنفاق بهم، فيقع الخلل بسبب قبول قولهم، أو فيكم سماعون لأخباركم فينقلونه إلى غيركم، ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾؛ فيعلم ضمائرهم، وما ينشأ عنهم، وسيجازيهم على فعلهم.

﴿ لقد ابْتَغَوُا الفتنة ﴾ أي: تشتيت أمرك وتفريق أصحابك ﴿ من قبلُ ﴾ أي: من قبل هذا الوقت، كرجوعهم عنك يوم أُحد، ليوقعوا الفشل في الناس، ﴿ وقلَّبُوا لك الأمورَ ﴾ أي: دبروها من كل وجه، فدبروا الحيل، ودوروا الآراء في إبطال أمرك، فأبطل الله سعيهم، ﴿ حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله ﴾ أي: علا دينه، ﴿ وهم كارهون ﴾ أي: على رغم أنفهم، والآيتان تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم. انظر البيضاوي.

الإشارة: الناس على ثلاثة أقسام: قسم أقامهم الحق تعالى لخدمة أنفسهم وحظوظهم؛ عدلاً. وقسم أقامهم الحق تعالى لخدمة معبودهم؛ فضلاً. وقسم اختصهم بالتوجه إلى محبوبهم؛ رحمة وفضلاً.

فالأولون: أثقلهم بكثرة الشواغل والعلائق، ولو أرادوا الخروج منها لأعدوا له عدة بالتخفيف والزهد، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقيل: اقعدوا مع القاعدين، أقامهم لإصلاح عالم الحكمة، وأما أهل الخدمة: فرآهم لم يصلحوا لصريح معرفته، فشغلهم بخدمته، ولو أرادوا الخروج من سجن الخدمة إلى فضاء المعرفة لأعدوا له عدة؛ بصحبة أهل المعرفة الكاملة. وأما أهل التوجه إلى محبته وصريح معرفته فلم يشغلهم بشيء، ولم يتركهم مع شيء، بل اختصهم بمحبته، وقام لهم بوجود قسمته، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[1]. وكل قسم لو دخل مع من فوقه على ما هو عليه، لأفسده، ومازاده إلا خبالاً وشرا. والله تعالى أعلم.

ولما دعا النبي ﷺ الناس إلى غزوة تبوك، قال له الجدُّ بنْ قيْس ـ من كبار المنافقين ـ: ائْذَنْ لي في القعود، ولا تفتني برؤية بنات بني الأصفر، فإني لا أصبر على النساء، فأنزل الله في شأنه[2]:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) الآية ٧٤ من سورة آل عمران.
(٢) أخرجه مطولاً ابن جرير في التفسير (١٠/١٠٤) وذكره الواحدي في الأسباب (٢٥٢)، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم من يقولُ ائذن لى﴾ فى القعود، ﴿ولا تفتِنّي﴾؛ ولا توقعنى فى الفتنة، أى: فى العصيان والمخالفة، بأن تأذن لى، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف، أذِنَ أو لم يأذن، أو فى الفتنة؛ بسبب ضياع المال والعيال؛ إذ لا كافل لهم بعدى، أو فى الفتنة بنساء الروم، كما قال الجَدُّ بنُ قَيْس: قد علمت الأنصار أنى مُولع بالنساء، فلا تفتنى ببنات بنى الأصفر، ولكنى أُعينك بمال، واتركنى.

قال تعالى: ﴿ألاَ فى الفتنةِ سقطُوا﴾ أى: إن الفتنة هى التى سقطوا فيها، وهى فتنة الكفر والنفاق، لا ما احترزوا عنه، ﴿وإنّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، أى: دائرة بهم يوم القيامة، أو الآن؛ لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها، ومن أعظم أسبابها: بغضك وانتظارهم الدوائر بك.

﴿إن تُصِبْكَ حسنة﴾؛ كنصر أو غنيمة فى بعض غزواتك، ﴿تسؤهم﴾؛ لفرط حسدهم وبغضهم، ﴿وإن تُصبْك﴾ فى بعضها ﴿مصيبة﴾؛ ككسر أو شدةٍ كيوم أحد، ﴿يقولوا قد أخذنا أمْرَنا من قبلُ﴾ أى: يتبجحوا بتخلفهم أو انصرافهم، واستحمدوا رأيهم فى ذلك، ﴿ويتولّوا﴾ عن متحدثِهم ومجمعهم، أو عن رسول الله ﷺ، ﴿وهم فَرِحُون﴾ مسرورون بما صنعوا من التخلف عن الجهاد.

الإشارة: ومن ضعفاء اليقين من يستأذن المشايخ فى البقاء مع الأسباب وفتنة الأموال، ويقول: لا تفتنى بالأمر بالتجريد، فإنى لا أقدر عليه، ويرضى بالسقوط فى فتنة الأسباب والشواغل، فإن ضم إلى ذلك الإنكار على أهل التجريد، بحيث إذا رأى منهم نكبة أو كسرة من أجل التجريد، والخروج عن عوائد الناس وما هم عليه، فرح، وإذا رأى منهم نصراً وعزاً انقبض، ففيه خصلة من النفاق، والعياذ بالله.

ثم رد عليهم، بقوله:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد: ﴿ لن يصيبنا ﴾ من حسنة أو مصيبة، ﴿ إلا ماكتبَ اللهُ لنا ﴾ فى اللوح المحفوظ، لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم، ﴿ هو مولانا ﴾ ؛ متولى أمرنا وناصرنا، ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى: وإليه فليفوض المؤمنون أمورهم؛ رضاً بتدبيره؛ لأن مقتضى الإيمان ألا يتوكل إلا على الله؛ إذ لا فاعل سواه، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ هلْ تربّصُون ﴾ أى: تنتظرون ﴿ بنا إلا إحدى الحُسنيين ﴾ أى: إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى: إما النصر وإما الشهادة، ﴿ ونحنُ نتربصُ بكم ﴾ أيضاً إحدى العاقبتين السُوأتين: إما ﴿ أن يصيبكُم اللهُ بعذابٍ من عنده ﴾ بقارعة من السماء، ﴿ أو بأيدينا ﴾ أى: أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر، ﴿ فتربصُوا ﴾ ما هو عاقبتنا، ﴿ إنا معكم مُتربّصُون ﴾ ما هو عاقبتكم.

الإشارة: ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب، والسكون إلى رب الأرباب، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختيار، وظلمة الأكدار والأغيار: **أحدها**: تحقيق العلم بسابقية القضاء والقدر، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. قال تعالى: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ﴾، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾[1]، وليتأمل قول الشاعر:

مَالاَ يُقَدَّرُ لايَكُونُ بِحِيلَةٍ	أبَداً، ومَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ	وأَخُو الجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ

وقد ورد عن سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: سبع آيات: من قرأها أو حملها معه؛ لو انطبقت السماء على الأرض؛ لجعل الله له فرجاً ومخرجاً من أمره، فذكر هذه الآية: ﴿ قل لن يصيبنا ﴾، وآية فى سورة يونس: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ . . . ﴾ الآية[2]، وآيتان فى سورة هود: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ . . ﴾، الآية[3]، ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم . . . ﴾ الآية[4]، وقوله تعالى: ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[5]، ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[6] و ﴿ ولئن سألتهم . . . ﴾ فى الزمر إلى قوله: ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[7]، ونظمها بعضهم فقال:

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٠٧ من سورة يونس.
(٣) الآية ٦ من سوة هود.
(٤) الآية ٥٦ من سورة هود.
(٥) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت.
(٦) الآية ٢ من سورة فاطر
(٧) الآية ٣٨ من سورة الزمر.

عليك بقل، وإن، وما، إني، في هود وكأيـن، ما يفتحْ، ولئن؛ مكمـــلا

وإنما أشار ﵁ إلى معنى الآيات لا إلى لفظها؛ لأنها كلها تدل على النظر لسابق القدر، والتوكل على الواحد القهار.

الأمر الثاني: تحقق العبد برأفته ـ تعالى ـ ورحمته، وأنه لايفعل به إلا ما هو في غاية الكمال في حقه، إن كان جمالا فيقتضي منه الشكر، وإن كان جلالا فيقتضي منه الصبر، وفيه غاية التقريب والتطهير وطي المسافة بينك وبين الحبيب. وفي الحكم: «خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجودَ فاقتك، وتُرَدُّ فيه إلى وجود ذلتك، إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك، الفاقة أعياد المريدين». إلى غير ذلك من كلامه في هذا المعنى.

الأمر الثالث: تحققه بخالص التوحيد؛ فإذا علم أن الفاعل هو الله ولا فاعل سواه؛ رضي بفعل حبيبه، كيفما كان، كما قال ابن الفارض ﵁:

أحبايَ أنتمْ، أحسَنَ الدهرُ أم أسا فكونــوا كما شئتمْ أنا ذلك الخِلّ

وكما قال صاحب العينية:

تلَذُّ لِيَ الآلام إذْ كُنْتَ مُسْـقِمِي وإنْ تَخْتَبِرني فَهْيَ عِنْدِي صَنَائِعُ

تَحَكَّم بِمَــا تَهْوَاهُ فِيَّ فَإنَّنِـــي فَقِيرٌ لسُـلْطَــانِ المَحَبَّـةِ طَـائِـعُ

فهذه الأمور الثلاثة، إذا تفكر فيها العبد دام حبوره وسروره، وسهلت عليه شئونه وأموره.

وقوله تعالى: (قل هل تربصون بنا...) الآية، مثله يقول أهل النسبة لأهل الإنكار: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، إما حسن الختام بالموت على غاية الإسلام، يموت المرء على ما عاش عليه، وإما الظفر بمعرفة الملك العلام على غاية الكمال والتمام، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده؛ بسبب إذايتكم، أو بدعوة من عندنا إذا أَذِنَ لنا. وبالله التوفيق.

ثم* ذكر سبب إبطال عملهم وصدقاتهم، فقال:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

* تفسير قوله تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً..﴾ الآية ٥٣، لايوجد في النسخ الخطية التي بين أيدينا.

قلت: (أن تقبل): بدل من ضمير (منعهم)، أو على حذف الجار، و(إلا أنهم كفروا): فاعل، أي: وما منع قبول نفقاتهم، أو من قبول نفقاتهم، إلا كفرهم بالله وبرسوله، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله تعالى و(أنهم) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما منعهم ﴾؛ وما منع المنافقين من قبول نفقاتهم وأعمالهم ﴿ إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾؛ إلا كفرُهم بالله وبرسوله، أو: ما منعهم الله من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم بالله وبرسوله، وكونهم ﴿ لا يأتونَ الصلاةَ إلا وهم كُسَالى ﴾؛ متثاقلين، ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارِهُون ﴾ أي: لا يُعطون المال إلا في حال كراهيتهم للإعطاء؛ لأنهم لايرجون ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقاً.

الإشارة: لا يتقبل الله إلا عمل المخلصين، إما إخلاص العوام؛ لقصد الثواب وخوف العقاب، أوإخلاص الخواص؛ لإظهار العبودية وإجلال الربوبية، وعلامة الإخلاص: وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل، أو قبلها، والغيبة عنه بعد الوقوع، والله تعالى أعلم.

ثم نهى عن الاغترار بحال المنافقين، فقال:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلا تُعْجِبْكَ ﴾، أيها الناظر إلى المنافقين، كثرةُ ﴿ أموالُهم ولا أولادُهم ﴾؛ فإن ذلك استدراج ووبال لهم ﴿ إنما يريد الله ليعذبَهم بها في الحياة الدنيا ﴾؛ بسبب ما يكابدون في جمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الأمراض والمصائب، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها، مع كونهم لا يرجون خلَفها ﴿ وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم كافرون ﴾؛ فلا يستوفون التمتع بها في الدنيا؛ لقصر مدتها، ولا يجدون ثواب ما أعطوا منها؛ لعدم إيمانهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة، لصعوبة خروج أرواحهم، والعياذ بالله.

الإشارة: ينبغي لمريد الآخرة ألا يستحسن شيئاً من الدنيا، التي هي مدْرَجة الاغترار، بل ينبغي له أن ينظر إليها وإلى أهلها بعين الغض والاحتقار، حتى ترتفع همته إلى دار القرار، وينبغي لمريد الحق ـ تعالى ـ ألا يحقر

شيئاً من مصنوعاته، ولا يصغر شيئاً من تجلياته، إذ ما في الوجود إلا تجليات العلي الكبير، إما من مظاهر اسمه الحكيم، أو اسمه القدير، فيعطي الحكمة حقها والقدرة حقها، ويتلون مع كل واحدة بلونها، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وصف نفاق المنافقين، فقال:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: الفَرَقُ: الخوف، و(مُدَّخَلاً): أصله: متدخلا، مفتعل من الدخول، قلبت التاء دالاً وأدغمت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويحلفون﴾ لكم ﴿بالله إنهم لمنكم﴾ أي: من جملة المسلمين، ﴿وما هم منكم﴾؛ لكفر قلوبهم، ﴿ولكنهم قوم يَفْرَقُون﴾: يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية وخوفا ﴿لو يجدون ملْجأً﴾ أي: حصناً يلتجئون إليه، ﴿أو مَغَارات﴾؛ غيراناً، ﴿أو مُدَّخَلاً﴾؛ ثقباً أو جحراً يَنْجَحِرُون فيه. وقرأ يعقوب: «مُدْخَلاً»؛ بضم الميم وسكون الدال، أي: دخولا، أو مكاناً يدخلون فيه، ﴿لولّوا إليه وهم يجمحون﴾ أي: يُسرعون إسراعاً لايردهم شيء كالفرس الجموح.

الإشارة: قد يتطفل على القوم من ليس منهم، فيظهر الوفاق ويبطن النفاق، كحال أهل النفاق، فينبغي أن يستر ويُحلَم عليه، كما فعل عليه الصلاة والسلام ـ بالمنافقين، تلطف معهم في حياتهم، والله يتولى سرائرهم، وبالله التوفيق .

ثم شرع يتكلم في مساوئ المنافقين، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (لو): شرطية، و(أنهم): قال سيبويه: مبتدأ، والخبر محذوف: ولو رضاهم ثابت أو موجود.. الخ. وقال غيره: فاعل بفعل محذوف؛ ولو ثبت رضاهم، وجواب (لو): محذوف، أي: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم﴾ ؛ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾ أي: يعيبك، ويعترض عليك ﴿فى﴾ قسم ﴿الصدقات﴾، ﴿فإن أُعطُوا منها رَضُوا﴾ وفرحوا، ﴿وإنْ لمْ يُعْطَوا منها﴾ شيئًا ﴿إذا هم يَسْخَطُون﴾. والآية نزلت فى ابن أُبيّ؛ رأس المنافقين، قال: ألا تَرَوْنَ إلى صاحبِكُمْ إنّما يقْسِم صَدَقَاتِكُمْ فى رُعاةِ الغَنَم، ويزْعُمُ أنَّهُ يعْدِل. **وقيل:** فى ذى الخُويْصِرةَ رأس الخوارِج، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فاستعطف قلوب أهل مكة، فآثرهم بالعطاء، فقال: اعْدِلْ يارَسُولَ الله، فقال: «ويلَك، إنْ لَمْ أعْدِلْ فمنْ يعْدِل؟»(١).

قال تعالى: ﴿ولو أنهم رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسولُه﴾ أى: بما أعطاهم الرسول من الغنيمة، وذَكَرَ الله؛ للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان بأمر الله ووحيه، فكأنه فعله هو. ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أى: كفانا فضلُه، ﴿سيؤتينا اللهُ من فضله ورسولُهُ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما أتانا، ﴿إنا إلى الله راغبُون﴾ فى أن يُغنينا من فضله وجوده. فلو فعلوا هذا لكان خيراً لهم من اعتراضهم عليك، الموجب لهم المقت والعذاب.

الإشارة: لا يكون المؤمن كاملاً حتى يستوى عنده المنع والعطاء، والفقد والوجد، والفقر والغنى، والعز والذل. وأما إن كان فى حالة العطاء والوجد يفرح، وفى حالة المنع والفقد يسخط، فلا فرق بينه وبين أهل النفاق، إلا من حيث التوسم بالإيمان، ولو أنه رضى بما قسم الله له، واكتفى بعلمه، ورغب الله فى زيادته من فضله، لكان خيراً له وأسلم. والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم بيّن مصرف الصدقات الواجبة؛ قطعاً لأطماع من لايستحقها، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما﴾ تدفع ﴿الصدقاتُ﴾ الواجبة -أى: الزكاة- لهؤلاء الثمانية، وهذا يُرَجِّحُ أن لَمْزَهم كان فى قسم الزكاة لا فى الغنائم، واختصاص دفع الزكاة بهؤلاء الثمانية مجمع عليه، واختلف: هل يجب تعميمهم؟ فقال مالك: ذلك إلى الإمام، إن شاء عمم وإن شاء خصص، وإن لم يلها الإمام؛ فصاحب المال

(١) أخرجه البخارى فى (المناقب، باب علامات النبوة) ومسلم فى (الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) من حديث أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه-.

مخير، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، وأفتى به بعض الشافعية، وقال الشافعي: يجب أن تقسم على هذه الأصناف بالسواء، إن وجدت.

أولها: الفقير: وهو من لاشيء له، وثانيها: المسكين: وهو من له شيء لا يكفيه. فالفقير أحوج، وهو مشتق من فقار الظهر، كأنه أصيب فقاره، والمسكين من السكون، كأن العجز أسكنه. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾(١)، فسماهم مساكين مع ملكهم السفينة، وأنه ﷺ سأل المسكنة؛ وقيل بالعكس، لقوله تعالى: ﴿أو مسكينا ذا متربة﴾(٢). وقيل: هما سواء. ﴿والعاملينَ عليها﴾ أي: الساعين في تحصليها وجمعها، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق، ولابأس أن يعلف خيلهم منها، ويضافون منها بلا سَرف. ﴿والمؤلفةِ قلوبُهم﴾ قال مالك: هم كفار ظهر ميلهم للإسلام، فيعطون ترغيباً في الإسلام. وقيل: قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة، فيعطون ليتمكن الإسلام في قلبهم، وحكمُهم باق، وقيل: أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم.

﴿وفي الرقَاب﴾ أي: في فك الرقاب، يشترون ويعتقون. ﴿والغارِمينَ﴾، أي: مَنْ عليهم دَيْن، فيعطى ليقضي دينه، ويشرط أن يكون استدانه في غير فساد ولا سَرف، وليس له ما يبيع في قضائه. ﴿وفي سبيلِ الله﴾ يعني: الجهاد، فيعطى منها المجاهدون وإن كانوا أغنياء، ويشترى منها آلة الحرب، ولا يبنى منها سور ولا مركب. ﴿وابنِ السبيل﴾ وهو الغريب المحتاج لما يوصله لبلده، ولم يجد مسلفا، إن كان مليًا ببلده، وإلا أعطى مطلقاً.

فرض الله ذلك ﴿فريضةً من الله﴾ أي: حقاً محدوداً عند الله. **قال ابن جزي**: ونصبه على المصدر ـ يعني: لفعل محذوف كما تقدم ـ فإن قيل: لِمَ ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين؟ فالجواب: أنه خص مصرف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بقوله: (ومنهم من يلمزك في الصدقات..) . هـ. ﴿والله عليمٌ حكيم﴾؛ يضع الأشياء في مواضعها.

الإشارة: إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين، الذين افتقروا من السِّوى، وسكنوا في حضرة شهود المولى. وفي الحكم: «ورود الفاقات أعياد المريدين، ربما وجدت من المزيد في الفاقة مالاتجده في الصوم والصلاة، الفاقات بسُطُ المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك. ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾».

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١٦ من سورة البلد.

وقال الهروى: الفقر صفة مهجورة، وهو ألذُّ ما يناله العارف، لكونها تدخله على الله، وتجلسه بين يدى الله، وهو أعم المقامات حكماً؛ لقطع العوائق، والتجرد من العلائق، واشتغال القلب بالله. قيل: الفقير الصادق لا يملِك ولا يُملَك. وقال الشبلي: الفقير لا يستغني بشيء دون الله. وقال الشيخ ابن سبعين رضي الله عنه: الفقير هو الذى لا يحصره الكون. هـ. يعني: لخروج فكرته عن دائرة الأكوان. وقال القشيرى: الفقير الصاددق عندهم: مَنْ لا سماء تُظله، ولا أرض تُقِلُّه، ولا سهم يتناوله، ولا معلومَ يشغله، فهو عبدُ الله بالله. هـ.

وقال السهروردى فى عوارفه: الفقر أساس التصوف، وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر؛ لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد، مع زيادة أحوال لابد منها للصوفي، وإن كان فقيراً زاهداً. وقال بعضهم: نهاية الفقر بداية التصوف؛ لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني، والخروج من كل خلق دني، لكنهم اتفقوا ألاَّ دخول على الله إلا من باب الفقر، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم.

وقال أبو إسحاق الهروى أيضًا: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف؛ فليختَرْ سبعاً على سبع، فإن الصالحين اختاروها حتى بلَغوا سنام الخير. اختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع؛ والدُّون على المرتفع، والذلّ على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. هـ. وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى؛ حذراً أن يدخله؛ فيفسد عليه فقره، كما يحترز الغنى من الفقر؛ حذراً أن يفسد عليه غناه.

قال بعض الصالحين: كان لى مال، فرأيت فقيراً فى الحرم جالساً منذ أيام، ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أُعينه بهذا المال؛ فألقيته في حجره، وقلت: استعنْ بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لى: اشتريتُ هذه الجلسة مع ربى بما ملكت، وأنت تفسدها عليَّ؟ ثم انصرف وتركنى ألقُطها. فوالله ما رأيت أعز منه لمَّا بدَّدَها، ولا أذل مني لما كنت ألقطها. هـ.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء؛ أصبح حزيناً، وإذا لم يصبح عنده شيء؛ أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إنى إذا لم يصبح عندى شيء فلى برسول الله ﷺ أسوة، وإذا أصبح لى شيء لم يكن لى برسول الله ﷺ أسوة حسنة. هـ. وجمهور الصوفية: يفضلون الفقير الصابر على الغنى الشاكر، ويُفضلون الفقر فى الجملة على الغنى؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختاره، وما كان ليختار المفضول. وشذ منهم يحيى بن معاذ الواعظ وأحمد بن عطاء.

قال القشيري: كان ابن عطاء يُفضل الغني على الفقر، فدعا عليه الجنيد فأُصيب عقله ثلاثين سنة، فلما رجع إليه عقله قال: إنما أصابني ما أصابني بدعاء الجنيد. وتكلم يحيي بن معاذ، ففضل الغني على الفقر، فأعطاه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم، فدعا بعض المشايخ عليه، فقال: لابارك الله له فيها، فخرج عليه اللص فنهبه إياها. هـ. وحكى عن أبي يزيد البسطامي: أنه قال: أُسرى بروحي، فرأيت كأني واقف بين يدى الله، فسمعت قائلاً يقول: يا أبا يزيد، إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا، فقلت: يامولاى وأى شيىء ليس عندك، ولك خزائن السماوات والأرض؟ فسمعت: ياأبا يزيد، ليس عندي ذل ولا فقر، فمن أتاني بهما بلّغته. هـ.

وقال في الإحياء: الفقر المستعاذ منه: فقر المضطر، والمسئول هو: الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله عز وجل. هـ. قلت: والأحسن أن المستعاذ منه هو: فقر القلوب من اليقين، فيسكنها الجزع والهلع، والفقر المسئول هو: التخفيف من الشواغل والعلائق، والله تعالى أعلم.

وقد تكلم القشيرى هنا على أخذ الزكاة وتركها، فقال: من أهل المعرفة من رأى أنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أوْلى، قالوا: لأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك مِلْكاً للفقير، فهو أحل له من المتطوع به. ومنهم من قال: الزكاة المفروضة لأقوام مستحقة، ورأوا الإيثار على الإخوان أوْلى، فلم يزاحموا أرباب السهمان، وتحرجوا من أخذ الزكاة، ومنهم من قال: إن ذلك وسخ الأموال، وهو لأصحاب الضرورات. وقالوا: نحن آثرنا الفَقْرَ اختياراً.. فلَمْ يأخذوا الزكاة المفروضة. هـ .

وقوله تعالى: (والعاملين عليها) : هم: المستعدون للمواهب بالتفرغ والتجريد، (والمؤلفة قلوبهم) على حضرة محبوبهم، والجادُّون في فك الرقاب من الجهل والغفلة؛ وهم أهل التذكير، الداعون إلى الله، (والغارمين) أى: الدافعون أموالهم ومهجهم في رضى محبوبهم، فافتقروا فاستحقوا حظهم من المواهب والأسرار، و(في سبيل الله) أي: والمجاهدون أنفسهم في مرضاة الله، (وابن السبيل) : السائحين في طلب معرفة الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نوعاً آخر من مساوئ المنافقين، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

قلت: (قل أُذُنُ خير): من قرأ بالإضافة؛ فـ(لكم): متعلق بالاستقرار، أي: هو أذن خير كائن لكم. ومن قرأ بالتنوين؛ فـ(خير): خبر عن «أذن»؛ خبر ثان، ومن قرأ: «ورحمة»؛ بالرفع فعطف على (أذن خير)، ومن قرأ بالجر، فعطف على «خير» المجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومنهم الذين يُؤذون النبيَّ ويقولون﴾ فيه: ﴿هو أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه؛ حقاً كان أو باطلاً، فإذا حلفنا له أنا لم نقل شيئاً صدقنا. والقائل لهذه المقالة: قيل: هو نَبْتَل بْن الحَارِث، وكان من مردة المنافقين. وقيل: عتاب بن قشير، في جماعة، قالوا: محمد أُذن سامعه، نقول ماشئنا، ثم نأتيه فيصدقنا فيما نقول. قال البيضاوي: سمي بالجارحة للمبالغة؛ كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً. هـ.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قل أُذُنُ خيرٍ لكم﴾ أي: هو لكم سماع خير وحق، فيسمع الخير والحق ويبلغه لكم، أو قل: هو أذنٌ خيرٌ لكم من كونه غير أُذن؛ لأن كونه أذنا يقبل معاذيركم؛ ولو كان غير أذن لكذبكم وفضحكم. وفي (الوجيز) أي: مستمع خير وصلاح، لا مستمع شر وفساد.

قال البيضاوي: وهو تصديق لهم بأنه أذن، لكن لا على الوجه الذي ذموا به - يعني من تنقصه بقلة الحزم والانخداع - بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يؤمنُ بالله﴾؛ يصدق بالله وبما له من الكمالات، ﴿ويؤمنُ للمؤمنين﴾؛ ويصدقهم؛ لما يعلم من خلوصهم، واللام مزيدة؛ للتفرقة بين إيمان التصديق وإيمان الإذعان والأمان، ﴿ورحمةٌ للذين آمنوا منكم﴾ أي: هو رحمة لمن أظهر الإيمان منكم، بحيث يقبله ولايكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم؛ جهلاً بكم، بل رفقاً بكم وترحماً عليكم. قاله البيضاوي.

وفي ابن عطية: وخص الرحمة بالذين آمنوا؛ إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا. وفي الوجيز: وهو رحمة لهم، لأنه كان سبب إيمانهم. هـ. فظاهره أن الإيمان الصادر منهم كان حقيقياً، وهو حُسْنُ خلافٍ ظاهر. قال البيضاوي: أي: هو رحمة لمن وفقه الله للإيمان منكم.

﴿والذين يُؤذون رسول الله﴾ بأي نوع من الإيذاء، ﴿لهم عذابٌ أليم﴾ موجع بسبب إيذائه.

الإشارة: تعظيم الرسول ﷺ ومدحه وذكر محاسنه، من أجلّ القربات وأعظم الطاعات؛ لأن تعظيمه ناشئ عن محبته، ومحبته عقد من عقود الإيمان، لا يتم الإيمان إلا بها، والإخلال بهذا الجانب من أعظم المعاصي عند الله، ولذلك قبح كفر المنافقين واليهود، الذين كانوا يؤذون جانب النبوة، وماعابه به المنافقون في هذه الآية هو عين الكمال عند أهل الكمال.

قال القشيري: عابوه بما هو أمارة كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه؛ لحُسْن خُلُقه، يسمع ما يقال له، وقد قال ﷺ: «المُؤمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، والمنافق خِبٌّ لَئِيمٌ»(١). قالوا: من الفاضل؟ قالوا: الفَطِنُ المُتَغَافِل، وأنشدوا:

وإذا الكـريمُ أتيتَه بخـديعةٍ ... فرأيتَه فيمـــا تَرُومُ يُســارِعُ

فاعلمْ بأنَّك لم تُخادِعْ جاهلاً ... إنَّ الكريمَ ـ بفضله ـ يتخادع(٢). هـ.

وكل ولى يتخلق بهذا الخلق السني؛ الذى هو التغافل والانخداع فى الله، وكان عبد الله بن عمر يقول: (من خدعنا فى الله انخدعنا له). ورأى سيدنا عيسى عليه السلام رجلاً يسرق، فقال له: سرقت يافلان؟ فقال: والله ماسرقت، فقال عليه السلام: (آمنتُ بالله وكذبتُ عينى). فمن أخلاق الصوفي أن يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين، كيفما كانوا، ورحمة للذين آمنوا، فمن آذى من هذا وصفه فله عذاب أليم. وبالله التوفيق.

ومن مساوئ المنافقين أيضا: أنهم يرضون الناس بسخط الله، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت: إنما وحدّ الضمير فى (يُرضوه) إما لأن رضى أحدهما رضى الآخر، فكأنهما شيء واحد، أو لأن الكلام إنما هو فى إيذاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإرضائه، فذكر الله تعظيماً لجانب الرسول، أو لأن التقدير: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك؛ فهما جملتان. والضمير فى (أنه من يُحَادِدِ): ضمير الشأن، و(فأن): إما تأكيد

(١) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب فى حسن العشرة) والترمذى فى (البر والصلة، باب ما جاء فى البخيل) عن أبى هريرة، بلفظ: «الفاجر» بدل المنافق.

(٢) البيتان منسوبان إلى عبدالمجيد بن إسماعيل الرومى، راجع النجوم الزاهرة ٢٧٢/٥.

لأن الأُولى، وجملة (فله): جواب، أو تكون بدلاً منها، أو في موضع خبر عن مبتدأ محذوف، أي: فحقٌ، أو واجب له نار جهنم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يحلفون بالله** ﴾ أي: المنافقون، ﴿ **لكم** ﴾ أيها المؤمنون، حين يعتذرون في التخلف عن الجهاد وغيره، ﴿ **ليُرضُوكم** ﴾ أي: لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم، ﴿ **والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوه** ﴾ بالطاعة والوفاق، واتباع ما جاء به، ﴿ **إن كانوا مؤمنين** ﴾ صادقين في إيمانهم. ﴿ **ألم يعلموا أنه** ﴾ أي: الأمر والشأن، ﴿ **من يُحادد اللهَ ورسولَه** ﴾ يعاديهما، ويخالف أمرهما ﴿ **فأنّ له** ﴾، فواجبٌ أن له ﴿ **نارَ جهنم خالداً فيها، ذلك الخِزيُ** ﴾ أي: الهول ﴿ **العظيم** ﴾، والهلاك الدائم، والعياذ بالله.

الإشارة: من أرضى الناسَ بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس في رضى الله أرضاهم عليه، ورَضي عنه، فمن أقر منكراً؛ حياء أو خوفاً من الناس، فقد أسخط مولاه، ومن أنكر منكراً، ولم يراقب أحداً، فقد أرضى مولاه، ومن راقب الناس لم يراقب الله، ومن راقب الله لم يراقب الناس، (والله ورسوله أحق أن يُرضوه إن كانوا مؤمنين). وتأمل قول الشاعر:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غمّاً وفَازَ باللـذاتِ الجسُـور

وبالله التوفيق.

ومن أخلاقهم أيضا: الخوف من الفضيحة، والاستهزاء بالدين، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قلت: الضمائر في «عليهم»، و«تنبئهم» و«قلوبهم»، تعود على المنافقين؛ خلافاً للزمخشري في الأولين، فقال: يعود على المؤمنين، وتبعه البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يحذَرُ المنافقون أن تُنزّلَ عليهم** ﴾ أي: في شأنهم، ﴿ **سورةٌ** ﴾ من القرآن على النبي ﷺ، ﴿ **تنبئهم** ﴾ أي: تخبرهم، أي: المنافقين، ﴿ **بما في قلوبهم** ﴾ من الشك والنفاق، وتهتك أستارهم،

وكانوا يستهزؤون بأمر الوحي والدين، فقال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿قل﴾ لهم: ﴿استهزءوا﴾؛ تهديداً لهم، ﴿إن الله مُخرِجٌ ما تحذَرُون﴾ من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم

﴿ولئن سألتهم﴾ عن استهزائهم، ﴿ليقولن إنما كنا نخوضُ ونلعبُ﴾ فيما بيننا. رُوى أن ركباً من المنافقين مروا على رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات!! فأخبر الله نبيه، فدعاهم فقال: «قلتم: كذا وكذا؟» فقالوا: لا، والله، ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكنا كنا في شيء مما يخوض فيه الركب، ليقصر بعضنا على بعض السفر[1].

قال تعالى: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾، توبيخاً لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهزاء به، ﴿لا تعتذروا﴾ أي: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة؛ ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول والطعن عليه، بعد إظهار إيمانكم الكاذب. ﴿إن نعفُ عن طائفةٍ منكم﴾؛ بتوبتهم وإخلاصهم، حيث سبق لهم ذلك؛ كان منهم رجل اسمه مَخشي، تاب ومات شهيداً. أو لكفهم عن الإيذاء، ﴿نُعذّب طائفةً بأنهم كانوا﴾ في علم الله ﴿مجرمين﴾؛ مُصرين على النفاق، أو مستمرين على الإيذاء والاستهزاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسباب المقت والبعد من الله، والإصرار على ذلك شؤمه سوء الخاتمة، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكاشفوا بأسرارهم، وقد يُطلع الله أولياءه على ذلك، وقد لا يطلعهم، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهم بكشف أسرارهم لتخلقهم بالرحمة الإلهية. والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين أيضاً: أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، كما قال تعالى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/١٧٣) عن قتادة.

أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت : قال في الأساس: ومن المجاز: نَسِيتُ الشيء: تركتُه، (نَسُوا الله فَنَسِيَهم) . قال في المشارق: ونسي بمعنى ترك، معناه مشهور في اللغة، ومنه: (نسوا الله فنسيهم) أي: تركوا أمره فتركهم. وقوله: (كالذين من قبلكم) : خبر، أي: أنتم كالذين، أو مفعول بمحذوف، أي: فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم من بعض﴾ أي: متشابهة في الكفر والبعد عن الإيمان، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم في النفاق والكفر، وهو نفي لأن يكونوا مؤمنين. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله: ﴿إنهم لمنكم﴾ وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين. وهو قوله: ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾؛ كالكفر والمعاصي، ﴿ وينهَون عن المعروف ﴾؛ كالإيمان والطاعة، ﴿ ويقبِضُون أيديَهم ﴾ عن الإعطاء والمبار، وهو كناية عن البخل والشح. ﴿ نَسُوا الله ﴾ أي: غفلوا، أي: أغفلوا ذكره، وتركوا طاعته، ﴿ فنسيَهم ﴾؛ فتركهم من لطفه ورحمته وفضله، ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾؛ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

﴿ وعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والكفارَ ﴾ أي: المجاهرين بالكفر، ﴿ نارَ جهنم خالدين فيها ﴾ أي: مقدرين الخلود. قال ابن جزي: الأصل في الشر أن يقال: أوعد، وإنما يقال فيه: «وعد» إذا صرح بالشرّ. هـ. ﴿ هي حَسْبُهُم ﴾ أي: جزاؤهم عقاباً وعذاباً، وفيه دليل على عظم عذابها، ﴿ ولعنهم الله ﴾؛ أبعدهم من رحمته، وأهانهم، ﴿ ولهم عذابٌ مقيم ﴾ لاينقطع، وهو العذاب الذي وعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق، والخوف من المؤمنين.

﴿ كالذين من قبلكُم ﴾ أي: أنتم كالذين من قبلكم، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم، ﴿ كانوا أشدَّ منكم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً ﴾، وهو بيان لتشبيههم بهم، وتمثيل حالهم بحالهم، ﴿ فاستمتعوا بخلاقِهم ﴾ أي: نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها، فأملوا بعيداً وبنوا مشيداً، فرحلوا عنه وتركوه، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى مافاتهم رجعوا، ﴿ فاستمتعتُم ﴾ أنتم ﴿ بخلاقكم ﴾ أي: بنصيبكم مما خلق الله لكم وقدره لكم في الأزل، ﴿ كما استمتع الذين من قبلكُم بخَلاقِهم ﴾، ثم تركوا ذلك ورحلوا عنه، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.

قال البيضاوي : ذمَّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخْدِجَة من الشهوات الفانية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيرة؛ تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.

﴿ وخُضتُم ﴾ في الباطل ﴿ كالذي خاضُوا ﴾ أي: كخوضهم، أو كالخوض الذي خاضوه، وقيل: كالذين خاضوا فيه، فأوقع الذم على الجمع. ﴿ أولئك حبِطت أعمالُهم في الدنيا والآخرة ﴾ أي: لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين، ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾؛ الكاملون في الخسران، خسروا الدنيا والآخرة.

الإشارة: ينبغي لأهل الإيمان الكامل أن يتباعدوا عن أوصاف المنافقين؛ فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمدّون أيديهم بالعطاء والإيثار، ويذكرون الله على سبيل الاستهتار، حتى يذكرهم برحمته. ويتشبهون بمن قبلهم من الصالحين الأبرار، فقد استمتعوا بلذيذ المناجاة، وحلاوة المشاهدات، وبلطائف العلوم والمكاشفات، أولئك الذين ثبتت لهم الكرامة من الله في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الفائزون.

ثم هدد المنافقين بإهلاك من قبلهم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله، في شأن المنافقين: ﴿ ألم يأتهم نبأُ ﴾: خبر ﴿ الذين من قبلِهمْ ﴾، كيف دمرهم الله وأهلكهم، حيث خالفوا رسلهم، ﴿ قوم نوح ﴾؛ أغرقهم بالطوفان، ﴿ و ﴾ قوم ﴿ عادٍ ﴾؛ أهلكهم بالريح، ﴿ وثمودَ ﴾؛ أهلكهم بالصيحة، ﴿ وقوم إبراهيمَ ﴾؛ أهلك نمرود ببعوض، وأهلك أصحابه به، أرسل عليهم سحابة من البعوض فخرطتهم، ودخلت بعوضة في دماغه فأكلت دماغه، حتى هلك، ﴿ وأصحابِ مدْينَ ﴾، وهم قوم شعيب، أُهلكوا بالنار يوم الظلة، ﴿ والمؤتفكاتِ ﴾؛ مدائن قوم لوط، ائتفكت بهم، أي: انقلبت، فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارات من سجيل. ﴿ أتتهم رسلُهم ﴾ أي: كل واحدة منهن أتاها رسول ﴿ بالبينات ﴾؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿ فما كان اللهُ ليظلمهم ﴾ أي: لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس، كالعقاب بلا جرم. ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يَظلمُون ﴾؛ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

الإشارة: ينبغي للمؤمن المشفق على نفسه أن يتحرى مواطن الهلكة، فيجتنبها بقدر الإمكان؛ فينظر ما فعل الله بأهل المخالفة والمعاصي، فيهرب منها بقدر إمكانه، وينظر ما فعل بأهل طاعته وطاعة رسوله من النصر والعز في الدارين، فيبادر إليها فوق ما يطيق، ويعظم الرسل، ومن كان على قدمهم ممن حمل الأمانة بعدهم، ويشد يده على صحبتهم وخدمتهم؛ فهذا يسعد سعادة الدارين. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضداد المنافقين، فقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ﴾ أى: أصدقاء ﴿بعض﴾، وهذا فى مقابلة قوله: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾، وخص المؤمنين بالوصف بالولاية، ﴿يأمرون بالمعروف وينهونْ عن المنكر﴾؛ ضد ما فعله المنافقون، ﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾؛ ضد قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ في سائر الأمور، ضد قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ لا محالة؛ لأن السين مؤكدة للوقوع، ﴿إن الله عزيزٌ﴾؛ غالب على كل شيء، لايمتنع عليه ما يريده، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها.

ثم ذكر ما أعد لهم فقال: ﴿وعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةٍ﴾ أى: تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش. وفى الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر»(١). وفى حديث آخر: «إنَّ فى الجَنَّة غُرفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أعدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَعَامَ، وألانَ الكَلاَمَ، وبذلَ السلام، وتَابَعَ الصِيَامَ، وصلَّى بالليْل والنَّاسُ نِيَامٌ» (٢).

وذلك ﴿فى جناتِ عَدْنٍ﴾، أى: إقامةٍ وخلود. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «جنات عدن: دار الله، التى لم ترها عين، ولا تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون، والشهداء. يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك.»(٣) قاله البيضاوى. ثم قال: ومرجع العطف فيها ـ أى: فى قوله: ﴿ومساكنَ طيبة﴾ ـ يحتمل

(١) أخرجه بسياق أخر مطولاً، البزار كما فى كشف الأستار (٣/٥١)، وعزاه فى الفتح السماوى (٢/٦٨٦) لابن أبي حاتم وابن مردويه كلهم عن الحسن عن عمران بن حصين وأبى هريرة.
(٢) أخرجه الامام أحمد في المسند (٥/٣٤٣) والطبراني في الكبير (٣/٣٤٢) وعبدالرزاق في المصنف (١١/٤١٨) والبغوى فى التفسير (٦/٣٠٦) عن أبي مالك الأشعري.
(٣) أخرجه البزار، (كشف الأستار ٤/١٩٢) وابن جرير في التفسير (١٠/١٨٠)، من حديث أبي الدرداء.

أن يكون لتعدد الموعود لكل واحد له، أي: فكل مؤمن ومؤمنة له جنات ومساكن، أو للجميع؛ على سبيل التوزيع، أي: فالجنات والمساكن معدة للجميع، ثم يقسمونها على حسب سعيهم في الدنيا، أو إلى تغاير وصفه ـ أي: الموعود ـ فكأنه وصفه أولاً بأنه جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها؛ لتميل إليه طباعهم أول مايقرع أسماعهم. ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش، معرى عن شوائب الكدرات التي لاتخلو عن شيء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار رب العالمين، لايعتريهم فيها فناء ولا تغيير.

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿ ورضوانٌ من الله أكبرُ ﴾؛ لأنه المبْدأ لكل سعادة وكرامة، والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه ﷺ: «إن اللهَ تعالى يقُولُ لأهْلِ الجنَّةِ: هَلْ رَضيتُم؟ فيقُولُون: ومَالَنَا لاتَرْضَى وقَدْ أعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أحداً منْ خلْقك، فيقُول: أنا أُعْطيكُمْ أفضَلَ منْ ذلك. قَالُوا: وأيّ شَيءٍ أفْضَلُ مِنْ ذلكَ؟ قَالَ: أُحلّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أسْخَطُ عَلَيْكُمْ أبَداً»[1] ﴿ ذلك ﴾ أي: الرضوان، أو جميع ماتقدم، ﴿ هو الفوزُ العظيم ﴾ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها. هـ.

الإشارة: قد أعد الله لأهل الإيمان الحقيقي؛ الذين بذلوا مهجهم وأموالهم في مرضاته، جنات المعارف، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم والحِكَم، ومساكن طيبة، هي: عكوف أرواحهم في الحضرة، متلذذين بحلاوة الفكرة والنظرة، في محل المشاهدة والمكالمة، والمساررة والمناجاة، ورضوان من الله، الذي هو نعيم الأرواح، أكبر من كل شيء؛ لأن نعيم الأرواح أجلّ وأعظم من نعيم الأشباح، حتى إن المقربين ليضحكون على أهل اليمين، حين يرونهم يلعبون مع الولدان والحور، كما ذكر الغزالي. وأما المقربون فيشاركونهم في ذلك، ويزيدون عليهم بلذة الشهود.

قال القشيري، عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾[2]: إنه لا تنافي بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم وبين شهود مولاهم، كما أنهم اليوم مستلذون بمعرفته بأي حالةٍ هم فيها، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم بحظوظهم في معارفهم. انتهى لفظه، وهو حسن. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب صفة الجنة والنار) وفي مواضع أخرى، ومسلم في (الجنة، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) الآية ٥٥ من سورة «يس».

ثم أمر نبيه بالإغلاظ على المنافقين، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يا أيها النبيُّ جاهد الكفار** ﴾ بالسيف، ﴿ **والمنافقين** ﴾ باللسان؛ بإلزام الحجة وبإقامة الحدود؛ ما لم يظهر عليهم مايدل على كفرهم، فإن ظهر عليهم ذلك فحكمهم كحكم الزنديق، فيقتل على المشهور. ﴿ **واغلُظْ عليهم** ﴾ بالقول والفعل، إن استوجبوا ذلك، ولاتراقبهم، ﴿ **ومأواهم جهنمُ وبئس المصير** ﴾ أي: المرجع، مصيرهم.

﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾، رُوي: أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين، ينزل عليه القرآن، ويعيب المتخلفين، فقال الجُلاس بن سُوَيد: لئن كان ما يقول محمد في إخواننا حقاً لنحن شرٌّ من الحمير، فبلغ النبي ﷺ؛ فاستحضره، فحلف بالله ما قال، فنزلت، فتاب الجُلاس وحَسُنَتْ توبته[1].

قال تعالى: ﴿ **ولقد قالوا كلمةَ الكفر** ﴾، يعني: ما تقدم من قول الجُلاس، أو قول ابن أُبيّ: سمِّنْ كلبك يأكُلْك، أو: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة﴾... الآية. ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾؛ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام، ولم يقل: بعد إيمانهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم: آمنا، ولم يدخل في قلوبهم، ﴿ **وهَمُّوا بما لم ينالوا** ﴾ من قتل النبي ﷺ وهو: أن خمسة عشر منهم توافقوا، عند مَرْجعه من تبوك، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي، إذا وصل إلى العَقَبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة تقعقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا[2]. أو: هموا بإخراجه من المدينة، أو إخراج المؤمنين، أو هموا بأن يتوّجوا عبد الله بن أُبيّ، وإن لم يرض رسول الله ﷺ، فلم ينالوا شيئًا من ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (باب مرجع النبي ﷺ من تبوك) عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٥/٤٥٣ عن أبي الطفيل. والبيهقي في الدلائل (باب رجوع النبي ﷺ من تبوك) عن عروة.

﴿ وما نَقَمُوا ﴾ أي: وما عابوا وكرهوا ﴿ إلا أن أغنَاهم الله ورسولُهُ من فضله ﴾ الذى حقهم أن يشكروا عليه، وذلك أن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، فى ضَنَكٍ من العيش، فلما قَدِمَهم رسول الله ﷺ استغنوا بالغنائم، وقُتِل للجُلاس مَولىً، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثنى عشر ألفاً، فأُعطيت له، فاستغنى.

﴿ فإن يتوبُوا يَكُ خيراً لهم ﴾، وهذا حمل الجلاس على التوبة، والضمير يعود على الرجوع المفهوم من التوبة، ﴿ وإن يتولوا ﴾ عنك؛ بالإصرار على النفاق، ﴿ يعذبهم اللهُ عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ﴾؛ بالقتل والنار، ﴿ ومالهم فى الأرض من ولىٍ ولا نصير ﴾ ينجيهم من العذاب.

الإشارة: كفار الخصوصية على قسمين : قِسْم أظهروا الإنكار على أهلها، وقسم أبطنوه وأظهروا الوفاق، ففيهم شبه بأهل النفاق، فينبغى الإعراض عن الجميع، والاشتغال بالله عنهم، وهو جهادهم والإغلاظ عليهم، فعداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً. وقد تَصْدر عنهم فى جانب أهل الخصوصية مقالات ثم ينكرونها، وقد يَهُموا بما لم ينالوا من إذايتهم وقتلهم، لو قدروا. والله يتولى الصالحين.

ونزل فى ثعلبة بن حاطب، قوله تعالى:

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ومنهم من عاهدَ اللهَ ﴾ وقال: ﴿ لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقنَّ ولنكونَنَّ من الصالحين ﴾، وهو ثعلبة بن حاطب، أتى النبى ﷺ وقال: ادْعُ الله أن يرزقنى مالاً. فقال له النبى ﷺ: «يا ثعلبة، قليلٌ تُؤدى شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لاتُطيقه». فراجعه، وقال: والذى بعثك بالحق، لئن رزقنى الله مالاً لأعطين كلَّ ذى حقٍّ حقَّه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنَمتْ كما تنمو الدود، حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه النبى ﷺ، فقيل: كثر ماله حتى لايسعه واد، فقال: «ياويْحَ ثعلبة». فبعث له مُصدقين لأخذ الصدقات؛ فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومروا بثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه الكتابَ الذى فيه الفرائض، فقال: ما هذه صدقة، ماهذه إلا أخت الجزية، فارجعا حتى أرى رأيى، فنزلت فيه الآية، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: إن الله منعنى أن أقبل منك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال له ﷺ: «هذا منك؛ فقد أمرتُك فلم

تطعني» ، فقُبض الرسول ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر، فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمرُ في خلافته، فلم يقبلها منه، وهلك في زمن عثمان، بعد أن لم يقبلها منه(١).

وهذا معنى قوله: ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾ أي: منعوا حق الله منه، ﴿ وتولوا ﴾ عن طاعة الله، ﴿ وهم معرضون ﴾ أي: وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، ﴿ فأعقبهم ﴾ أي: فأردفهم ﴿ نفاقا في قلوبهم ﴾؛ عقوبة على العصيان بما هو أشد منه، أو فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً متمكناً في قلوبهم وسوء اعتقاد. قال البيضاوي: ويجوز أن يكون الضمير للبخل، والمعنى: فأورثهم البخلُ نفاقاً متمكناً في قلوبهم ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾، أي: يلقون الله بالموت، والمراد: يلقون جزاءه أو عقابه. وذلك ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ أي: بسبب إخلافهم ماوعدوه من التصدق والصلاح، ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أي: وبكونهم كاذبين فيه؛ فإن خلف الوعد متضمن للكذب، مستقبح من الوجهين.

﴿ ألم يعلموا ﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله، ﴿ أن الله يعلم سرهم ﴾ أي: ما أسروا في أنفسهم من النفاق، ﴿ ونجواهم ﴾؛ ما يتناجون فيه، فيما بينهم، من المطاعن وتسمية الزكاة جزية، ﴿ وأنَّ الله علامُ الغيوب ﴾؛ فلا يخفى عليه شيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الحكَم العطائية: «من تمام النعمة عليك: أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك». وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ الرِّزْقِ ما يَكفِي، وخَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ»(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: «ما طَلَعَت شمسٌ إلا وبِجَنْبَيْهَا ملكان يُنادِيَان، يُسمعان الخَلائقَ: أيها النَّاس، هلُمُّوا إلى ربِّكم، ما قَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مما كَثُرَ وألْهَى»(٣). وقال بعض العارفين: كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا، ابتلى بأحد وجهين: إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات، أو رغبة في غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/٢٦٠) والبيهقي في الدلائل(باب قصة ثعلبة بن حاطب ٥/٩٠) وابن جرير في التفسير (١٠/١٨٩) . كذلك البغوي وغيره، كلهم عن أبي أمامة الباهلي، وذكر الحافظ ابن الحجر في الكافي الشاف: أن إسناد هذه القصة ضعيف جداً. راجع: الكافي الشاف (٢/٢٩٢) والإصابة (١/٤٠١) والحاوي للسيوطي (٢/١٨٣).

وثعلبة بن حاطب ـ المذكور في القصة شهد بدراً. وقد قال ﷺ: «لايدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية». وحكى ﷺ عن رب العزة أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فمن هذا شأنه، كيف يزول به الأمر إلى ما آل إليه مانزلت فيه الآيات؟ وقد استشهد ثعلبة يوم أحد، وفي القصة المذكورة أنه هلك في عهد عثمان. وهذا دليل على أن القصة غير صحيحة أصلاً، راجع في هذا : الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب. .

(٢) أخرجه أحمد ١/١٧٢، عن سعد بن مالك. وأخرجه ابن حبان ـ بتقديم وتأخير ـ عن سعد بن أبي وقاص (الإحسان ٢/٨٩ ح ٨٠٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٩٧) وابن حبان (٢٤٧٦ موارد) والحاكم (٢/٤٤٥)، وصححه ووافقه الذهبي كلهم عن أبي الدرداء. وقال الهيثمي (٣/١٢٢) : رجاله رجال الصحيح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الغِنَى بكَثْرَةِ العَرَضِ، إنما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ». وغنى النفس عن الدنيا: شرف الأولياء المختارين، وعز أهل التقوى المؤمنين المحسنين. ولقد صدق قول الشاعر:

غِنَى النَّفْسِ ما يُغْنِيك عَنْ سَدِّ خَلَّةٍ		فإن زِدتَ شَيْئاً عَادَ ذَلِكَ الغِنَى فَقْرا.

وقد قيل: من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عيني قلبه. وقالت الجارية المجنونة لعبد الواحد بن زيد: يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ثم مال إلى الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيراناً والهاً، فإن كان له عند الله تعالى نصيب، عاتبه وحياً في سره، فقال: عبدي؛ أردتُ أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي، وأجعلك دليلاً لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرضٍ من أعراض الدنيا وتركتني؛ فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، عبدي؛ ارجِعْ إلى ماكنت عليه، أرجعْ بك إلى ما كنت تعرفه .هـ. وقد تقدمت الحكاية. وفي بعض الكتب: إن أهون ما أصنع بالعالِم، إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي. هـ.

ثم ذم المنافقين بعيب آخر، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (٨٠) ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ حُذف خبره، أي: منهم الذين، أو خبر عن مبتدأ، أو منصوب على الذم، أو بدل من ضمير سرهم. وأصل المطوعين: المتطوعين، فأدغمت التاء في الطاء، و(جهدهم): مصدر جهد في الأمر: بالغ فيه.

يقول الحق جل جلاله: ومنهم ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ﴿المُطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات﴾، روي أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَم، وقال: كان لي ثمانيةُ آلافٍ، فأقرضت ربي أربعة، وأمسكتُ لعيالي أربعة. فقال رسول الله ﷺ: «بارَكَ اللهُ لكَ فِيما أعْطَيْتَ وفِيما أمْسَكْتَ». فبارك الله له حتى صالحته إحدى زوجتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدّق عاصم بن عدي بثمانية أوسق تمراً، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينْثُرَه على تَمْرِ الصدقات،

فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل، فنزلت الآية(١).

ونزلت فى أبى عقيل: ﴿ والذين لا يجدُونَ إلا جُهْدَهُم ﴾ ؛ إلا طاقتهم، ﴿ فيسْخَرُونَ منهم ﴾ ؛ يستهزءون بهم. قال تعالى: ﴿ سخر الله منهم ﴾ ؛ جازاهم على سخريتهم، كقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٢)، ﴿ ولهم عذابٌ أليم ﴾ على كفرهم.

﴿ استَغْفِرْ لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ ، يريد به التساوى بين الأمرين فى عدم الإفادة، كما نص عليه بقوله: ﴿ إن تستغفر لهم سبعينَ مرة فلن يغفرَ اللهُ لهم ﴾ ، رُوى أن عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ- وكان من خيار المسلمين ـ سأل رسول الله ﷺ، فى مرض أبيه، أن يستغفر له، ففعل، فنزلت: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾(٣) ، وذلك لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فَهِمَ من السبعين العدد المخصوص، وقال: ولو علمت أنى إن زدت على السبعين غُفر له، لزدت(٤). فبيّن له أن المراد به التكثير، دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثير؛ لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكأنه العدد بأسره قاله البيضاوى.

﴿ ذلك ﴾ أى: عدم قبول استغفارك بسبب أنهم ﴿ كفروا بالله ورسوله ﴾ أى: ليس لبُخل منا، ولا تقصير فى حقك، بل لعدم قابليتهم؛ بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ؛ المتمردين فى كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك فى كفره، المطبوع عليه، لا ينقلع ولا يهتدى، والتنبيه على عذر الرسول فى استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم، مالم يعلم أنهم مطبُوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم؛ لقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ... ﴾ الآية(٥). قاله البيضاوى.

الإشارة: من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم، حتى يسخر منهم، سخر الله منه، وأبعده من رحمته، فلا تنفع فيه شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وفى

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٦٠) عن قتادة.
(٢) من الآية ١٥ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٦ من سورة المنافقون.
(٤) أخرجه بسياق آخر، البخارى فى (تفسير سورة التوبة). ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) عن ابن عمر.
(٥) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

بعض الأخبار: «من تتبع عورة أخيه المؤمن تتبع الله عورته حتى يفضحه، ولو في جوف بيته». ومن اشتغل بإذاية الأولياء، ولم يتب، مات على سوء الخاتمة، وذلك جزاء من حارب الله ـ والعياذ بالله ـ.

ثم ذكر تخلف المنافقين عن الجهاد، فقال:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: (خلافَ رسول الله): منصوب على الظرفية، أي: بعده، يقال: أقام خلاف الحي، أي: بعدهم، وقيل: مصدر خالف، فيكون مفعولاً لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فرِحَ المُخَلَّفون﴾ أي: الذين خلفهم الله عن الغزو، وأقعدهم عنه، ولذلك عبّر بالمخلفين دون المتخلفين، فرحوا ﴿بمقعدهم خلافَ رسولِ الله﴾ أي: بعده في غزوة تبوك، ﴿وكَرِهُوا أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾؛ إيثاراً للراحة والدَّعة على طاعة الله ورسوله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه؛ ببذل الأموال والمهج، وأما المنافقون فآثروا الراحة وقعدوا، ﴿وقالوا لا تَنفِروا في الحرِّ﴾، قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر.هـ. ﴿قلْ نارُ جهنم أشدُّ حراً﴾، وقد آثرتموها بهذه المخالفة، ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أن مآلهم إليها، أو كيف هي؟... ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

﴿فليضْحَكُوا قليلاً وليبكُوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسِبُون﴾، وهو إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أي: سيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً؛ لما يرون من سوء العاقبة، وأتى به على صيغة الأمر؛ للدلالة على أنه حَتْمٌ واجب وقوعه. قال ابن جزي: أمرٌ بمعنى الخبر، فضحكهم القليل في الدنيا مدة بقائهم فيها،

ويكاؤهم الكثير في الآخرة، أي: سيضحكون قليلاً في الدنيا، ويبكون كثيرا في الآخرة، وقيل: هو بمعنى الأمر، أي: يجب أن يكونوا يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً في الدنيا، لما وقعوا فيه.هـ.

﴿ فإن رَّجَعك اللهُ إلى طائفةٍ منهم ﴾ أي: فإن ردك الله من الغزو إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين - يعني منافقيهم - وكانوا اثني عشر رجلاً ممن تخلف من المنافقين، وإنما لم يقل: إليهم؛ لأن منهم من تاب من النفاق، وندم على التخلف، ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تُقاتلوا معي عدواً ﴾ ؛ عقوبة لهم، وفيها خزي وتوبيخ لهم، ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أوَّلَ مرةٍ ﴾، يعني: عن تبوك، وهو تعليل لعدم خروجهم معه في المستقبل، ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ أي: المتخلفين، أي: لعدم تأهلهم للجهاد كالنساء والصبيان.

الإشارة: من قلّ إيقانه، وضعف نور إيمانه، فرح ببقائه، مع متابعة هواه وتيسير أمور دنياه، وكره ارتكاب مشاق المجاهدة، واقتحام حَرّ المخالفة والمكابدة، وثبط من رآه يروم تلك الوجهة، ويريد أن يتأهب لدخول ميدان تلك الحضرة؛ فسيَنْدم قريباً، حين يفوز الشجعان بحضرة الوصال، ويتأهلون لمشاهدة الكبير المتعال، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم، و إنما الصبر عند الصدمة الأولى.﴿ والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعيمِ ﴾(١). وبالله التوفيق.

ثم نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين، فقال:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلت: (أبدا): ظرف لمات، أي: مات في مدة لا حياة بعدها؛ فإن حياة الكافر للتعذيب، وهي كلا حياة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ ولا تُصلِّ على أحدٍ ﴾ من المنافقين إذا مات على كفره، بحيث (مات أبدا) أي: موتة لا حياة بعدها. نزلت في عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين، فإنه لما مرض، دعا رسولَ الله ﷺ، فسأله أن يستغفر له ويكفنه في ثوبه الذي يلي جسده، ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصه ليُكفن فيه، وذهب ليصلي عليه، فنزلت. وروي أن رسول الله ﷺ لما تقدم للصلاة عليه جذبه جبريل بثوبه، وتلى عليه الآية

(١) الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة الواقعة.

فانصرف، ولم يصل عليه. وقيل: صلى عليه ثم نزلت. وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ لما تقدم للصلاة عليه جَذَبَهُ عمر، فقال: كيف تصلي عليه وقد نهاك ربك عن الصلاة على المنافقين؟ فقال: «إنَّمَا خَيَّرَنِيَ...» الحديث[1].

قال البيضاوي: وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه، ونهي عن الصلاة عليه؛ لأن الضنة بالقيمص كانت مُخِلة بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباس العباس قميصه حين أُسر ببدر[2]، والمراد من الصلاة: الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: (مات أبدا)؛ يعني: الموت على الكفر، فإن إحياء الكافرين للتعذيب، دون التمتع، فكأنه لم يحيى.هـ.

واستدل ابن عبد الحكم، بهذه الآية، على وجوب الصلاة على المؤمنين، وقرر اللخميُّ وجه الدليل منها بطريق النهي عن الشيء أمر بضده؛ لأن ضد النهي عن الصلاة أمر بها. وأبطله المازري قائلاً: وإنا هو من دليل الخطاب، ومفهوم المخالفة، وبيان عدم صحة كونها من باب النهي عن الشيء، أنّ شرط ذلك اتحاد متعلق الأمر والنهي، كقولك لزيد: لا تسكن، ومعناه تحرك، ومتعلقهما هنا مختلف، فمتعلق النهي: المنافقون، ومتعلق الأمر: المؤمنون. وكذا رد كونها دالة مفهوم المخالفة. انظر الحاشية الفاسية.

ثم قال تعالى: ﴿ ولاَ تَقُمْ على قبره ﴾ أي: ولا تقف على قبره للدفن، أو الزيارة، ثم علل النهي فقال: ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا ﴾، والحال أنهم ﴿ فاسقون ﴾؛ خارجون عن دائرة الإسلام.

ثم نهى عن الاغترار بمالهم فقال: ﴿ ولاَ تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم إنما يريد اللهُ أن يُعذِّبهم بها في الدنيا وتزهَق أنفسُهم وهم كافرون ﴾، وقد تقدم، وإنما كرره؛ للتأكيد، وهو حقيق به، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس مجبولة على حبهما، فكرر النهي عن الاغترار بهما، ويجوز أن تكون هذه في فريق آخر غير الأول. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) وتمام الحديث: «إنما خيرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم..﴾ الآية، وسأزيد على سبعين» فصلى عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾.

(٢) أخرج البخاري في (الجهاد، باب الكسوة للأسارى) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ـ قال: (لما كان يوم بدر أتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له. قميصاً، فوجدوا قميص عبدالله بن أبيّ يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذى ألبسه).

الإشارة: إذا حصل للعبد القرب من الحبيب قربت منه الأشياء كلها، ورغبت في خلّته الملائكةُ والجنُ والإنسُ والروحانيون، فإذا مات صلت على جسده أجناد الأرض، وعلى روحه أجناد السماء، وفرحت بقدومه الملائكة والروحانيون، وربما شفعه الله في أهل عصره أجمعين، وإذا حصل للعبد البعد من ربه بعدت عنه الأشياء كلها، ورفضت جسده وروحه الجن والإنس والملائكة، فلا يصل عليه أحد، ولا يقف على قبره بشر، فالحذر الحذر من كل مايبعد من حضرة الحبيب من المخالفات والإصرار على الزلات، فإنه بريد الكفر الذي هو البعد الكبير- والعياذ بالله -. والبدارَ البدارَ إلى مايقرب من الحبيب، من أنواع الطاعات، والمسارعة إلى الخيرات، وسائر الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة. وبالله التوفيق.

ثم أشار إلى تخلفهم عن الجهاد مع قدرتهم عليه، فقال:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا أنزلتْ سورةٌ ﴾، أو بعضها، في شأن الجهاد قائلة: ﴿ أن آمنوا بالله ﴾ وحده، ﴿ وجاهدوا مع رسوله ﴾ ﷺ، ﴿ استأذنَك ﴾ في التخلف ﴿ أُولوا الطوْلِ منهم ﴾ أي: أولوا الغنى والسعة، ﴿ وقالوا ذَرْنا نكن مع القاعدين ﴾؛ الذين قعدوا لعذر، ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالِف ﴾؛ مع النساء، جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة؛ للذي لاخير فيه. ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ بالكفر والنفاق، ﴿ فهم لايفقهون ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة.

﴿ لكنِ الرسولُ والذين آمنوا معه جاهدُوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، ﴿ وأولئك لهم الخيراتُ ﴾؛ منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل: الحُور، لقوله: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾(١). ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾؛ الفائزون بالمطالب

(١) الآية ٧٠ من سورة الرحمن.

البهية والمراغب السنية. ﴿ أعدَّ اللهُ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوزُ العظيم ﴾؛ بيان لبعض الخيرات الأخروية.

الإشارة: إذا ظهر الدعاة إلى الله يُشوقون الناس إلى حضرة الله؛ ترى من صُرِفَ عنه عِنَانُ العناية، ولم يضرب له مع السابقين بسهم الهداية، يميل إلى التقاعد إلى وطن الراحة، والميل إلى ما ألفه من سيىء العادة، يستأذن أن يتخلف مع النساء والصبيان، ويتنكب طريق الأقوياء من الشجعان، فإن تخلف هذا مع عوام الضعفاء فقد تقدم لهذا الأمر من يقوم به من الأقوياء، اختارهم الله لحضرته، وقواهم على مكافحة مشاهدته ومحبته، جاهدوا نفوسهم فى معرفة محبوبهم، وبذلوا أموالهم ومهجهم فى الوصول إلى مطلوبهم، (وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون).

ثم ذكر اعتذار الأعراب، فقال:

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ﴾

قلت: (المُعَذِّرُون): أصله: المعتذرون، نقلت حركة التاء إلى العين، وأدغمت التاء فى الذال. وقرأ يعقوب: «المُعْذِرُونَ»: اسم مفعول، من أعذر، إذا بالغ فى العذر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء المُعذِّرون من الأعراب ﴾ يعتذرون فى التخلف عن الغزو؛ ﴿ ليُؤْذَنَ لهم ﴾ فى القعود، قيل: هم أسد وغطفان؛ استأذنوا فى التخلف؛ معتذرين بالجهْد وكثرة العيال. قيل: كاذبين، وقيل: صادقين. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك غارت طيِّىء على أهالينا ومواشينا، وقيل: نزلت فى قوم من غِفار. ﴿ وقَعَدَ الذين كذَبُوا اللهَ ورسوله ﴾ من غير هؤلاء، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا فى تخلفهم، فكذبوا فى دعواهم الإيمان بالله ورسوله، يقال: كذبت فلاناً ـ بالتخفيف، أى: أخبرته بالكذب. ثم ذكر وعيدهم فقال:﴿ سيُصيبُ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم ﴾؛ فى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالنار.

الإشارة: المتخلفون عن طريق الخصوص على ثلاثة أقسام:

قسم: أقروا بها، وعرفوا صحتها، ثم شحوا بأنفسهم وبخلوا بأموالهم، فاعتذروا فى التخلف عنها بأعذار باطلة، فهؤلاء لا حجة لهم عند الله، وقوم أقبح منهم، لم يلتفتوا إلى من جاء بها ولم يرفعوا بذلك رأساً. قال تعالى فى مثلهم: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

وقسم: أقروا بها، وطلبوا الدخول فيها، لكن غلبتهم الأقدار، وأظهروا غاية الاعتذار، وتحقق عذرهم عند الواحد القهار، وإليهم الإشارة بقوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: جواب «إذا» يحتمل أن يكون (تولوا)، وجملة (قلتَ): حال من الكاف في (أتوك)، أي: أتوك قائلاً: لاأجد.. إلخ، ويحتمل أن يكون الجواب: «قلتَ»، و(تولوا) استئناف لبيان حالهم حينئذ، و(من الدمع): للبيان، وهي، مع المجرور، في محل نصب على التمييز، فهو أبلغ من تفيض دمعُها؛ لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً، و(حزنا): علة، أو حال، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله، و(ألا يجدوا): متعلق به، أي: حزناً على ألاّ يجدوا ماينفقون، و(إنما السبيل) راجع لقوله: (ما على المحسنين من سبيل).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ليس على الضُعفاءِ﴾، كالهرْمى، ﴿ولا على المرضى﴾، كالزَّمْنَى ومن أضناه المرض، ﴿ولا على الذين لايجدون ماينفقون﴾ في الغزو ﴿حَرَجٌ﴾ أي: لا حَرج على هؤلاء في التخلف عن الغزو، ﴿إذا نَصَحُوا لله ورسوله﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية. قيل: نزلت في بني مُقَرن، وهم ستة أخوة صحبوا النبي ﷺ، وقيل: في عبدالله بن مُغَفل.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وضع المحسنين موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، غير معاتبين في ذلك، ﴿والله غفور رحيم﴾ بالمسيء فكيف بالمحسنين؟ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوْكَ لتحملَهم﴾ معك إلى الغزو، وهم البكاؤون؛ سبعة من الأنصار: مَعْقِل بن يسَار، وصَخْر بن خنساء، وعبدالله بن كعب، وسالم بن عُمَيْر، وثَعْلَبة بن غَنَمة[1]،

(١) في الأصل: خثمة.

وعبدالله بن مُغفَّل(١)، وعُلَيَّة بن زيد. أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المَرْقُوعة، والنِّعال المَخْصُوفَة، نغزوا معك، فقال: لا أجد، فتولّوْا وهم يبكون(٢). وقيل: هم بنو مُقَرِّن، وقيل: أبو موسى وأصحابه، وعليه اقتصر البخارى.

﴿ قلتَ لا أجِد ما أحملكم عليه ﴾، وليس عندى ما أحملكم عليه، ﴿ تولَّوا ﴾ عنك ﴿ وأعيُنهم تفيضُ من الدمع ﴾ أى: يفيض دمعها؛ ﴿ حزناً ﴾ على ﴿ ألاَّ يجدوا ما يُنفقون ﴾ فى غزوهم.

زاد البخارى: فلما رجع أبو موسى وأصحابه، أُتِي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنَهْب إبل(٣)، فدعاهم وحملهم عليها، فقالوا: يارسول الله، إنَّكَ حلَفْتَ ألا تَحْمِلَنَا، فخفنا أن نكون أغفلناك يمينك، فقال: «ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإنّى والله، ما أحلِفُ على يَمِينٍ فأرَى خيْراً منْها إلاّ كَفّرْتُ عن يَمِينى وأتَيْتُ الذى هُوَ خيْر»(٤). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ إنما السبيلُ ﴾ أى: الحرج والمعاتبة ﴿ على الذين يستأذنونَك ﴾ فى القعود، ﴿ وهم أغنياءُ ﴾؛ واجدون للأهبة، ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾؛ كالنساء والصبيان، وهو استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة، والانتظام فى جملة النساء والصبيان؛ إيثاراً للدعة والكسل، ﴿ وطَبَعَ اللهُ على قلوبهم ﴾ بالكفر والغفلة، حتى غفلوا عن وخامة العاقبة، ﴿ فهم لايعلمون ﴾ ما يؤول إليه حالهم من الندم والأسف.

الإشارة: كل من لم ينهض إلى صحبة الخصوص؛ الذين جعلهم الله أدوية القلوب، توجه العتاب إليه يوم القيامة، إذ لا يخلو من لم يصحبهم من عيَب أو نقص أو خاطر سوء، حتى ربما يلقى الله بقلب سقيم.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: من لم يتغلغل فى علمنا هذا، مات مصراً على الكبائر وهو لايشعر. وقال الغزالى: دواء القلوب واجب عيناً على كل مسلم، فكل من قصر فى ذلك عُوقب يوم القيامة، إلا من حبسه عذر صحيح: من مرض مزمن، أو كبر سن، أو فقر مدْقِع. قال تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله)، فإن أحبوا أولياء الله، وصدقوهم وعظموهم، ودلّوا الناس على صحبتهم، فهؤلاء محسنون، (ما على المحسنين من سبيل والله غفور) لضعفهم، (رحيم) بهم.

---

(١) فى الأصول: معقل.
(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٠/١٤٦) وذكره الواحدى فى الأسباب (٢٦٢) عن محمد بن كعب القرظى.
(٣) نهب أى: غنيمة. (٤) أخرجه البخارى فى (المغازى، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن).

وقال الورتجبي: (إذا نصحوا لله ورسوله) أي: إذا عرّفوا عبادَ الله طريق الله، والأسوة بسنة رسوله الله. هـ. وقد قال الحواريون: ياروح الله، ما النصيحة لله؟ قال: تقديم حق الله على حق الناس. هـ. ولاحرج أيضا على من لم يجد ما ينفق على الأشياخ من الأموال، فإن من أعطى نفسه كفته عنْ إعطاء المال. قال تعالى: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) إلى الحضرة (قلت لا أجد ما أحملكم عليه)؛ فإن بذل الأموال مع المهج أنهض من أحدهما، (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون)؛ ليتحببوا به في قلوب المشايخ. قال بعض المشايخ: أردنا أن نَجعل من يسوق مع من لايسوق على حد سواء، فلم يعتدلوا.هـ.

وقوله تعالى: (حزناً ألا يجدوا ما ينفقون)، ليس حزنهم على فوات الدنيا، وإنما حزنهم على تخلفهم عن رسول الله، وعن صحبة أهل الكمال. وقال القشيري: شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهم، أو بسببهم، شُغْلٌ، فتَمَنّوا أن لو أزيحت علتهم، لا ميلاً إلى الدنيا؛ ولكن لئلا يعود إلى قلب الرسول من فعلهم كراهةٌ، ولقد قيل:

مَنْ عفَّ خفَّ على الصديق لِقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملولُ. هـ[1]

ولما رجع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غزوة تبوك، جاء المنافقون يعتذرون بالأعذار الكاذبة، ففضحهم الله بقوله:

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾

---

(١) في القشيري: (مُمَجّ مملُول) قلت: والبيت ورد غير منسوب في عيون الأخبار (١٩١/٣) وورد: (أنشد ثعلب) في أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

قلت: مفعول (نبأ) الثاني: محذوف، أي: نبأنا جملة من أخباركم، و(جزاء): مصدر لمحذوف، أي: يجازون جزاء، أو علة، أي: للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يعتذرون إليكم ﴾ يعني: المنافقين، ﴿ إذا رجعتم إليهم ﴾ من تبوك، ﴿ قلْ ﴾ لهم: ﴿ لا تعتذروا ﴾ بالمعاذير الكاذبة؛ لأنه ﴿ لن نُؤمنَ لكم ﴾ أي: لن نصدقكم فيها؛ لأنه ﴿ قد نبأنا اللهُ من أخباركم ﴾؛ أعلمنا بالوحي، على لسان نبيه ﷺ، ببعض أخباركم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد.

﴿ وسَيَرَى اللهُ عملكم ورسولُه ﴾: هل تتوبون من الكفر، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة، ﴿ ثم تُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ وهو الله، والأصل: ثم تردون إليه؛ فوضع هذا الوصف موضع الضمير؛ للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلانيتهم، لا يعزب عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم، ﴿ فينبئكم ﴾ أي: يخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾؛ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ من غزوكم؛ ﴿ لتُعرِضُوا عنهم ﴾ أي: عن عتابهم، ﴿ فأعْرِضُوا عنهم ﴾؛ لاتوبخوهم؛ ﴿ إنهم رِجْسٌ ﴾؛ لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود من العتاب: التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة، ﴿ ومأواهم جهنمُ ﴾ أي: منقلبهم إليها، والمعنى: أن النار كفتهم عتابا، فلا تتكلفوا عتابهم، وذلك ﴿ جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والنفاق.

﴿ يحلفُون لكم لِتَرْضَوا عنهم ﴾ بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق، وإشراكهم في الغنائم، ﴿ فإن تَرْضَوْا عنهم ﴾ بذلك ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، أو إن أمكنهم أن يُلَبسوا عليكم لايمكنهم أن يلبسوا على الله؛ فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية: النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد يظهر لهذه الطائفة منافقون، إذا ظهر على أهل الله عز أو نصر جاءوا يعتذرون عن تخلفهم عنه، ويحلفون أنهم على محبتهم؛ فلا ينبغي الاغترار بشأنهم، ولا مواجهتهم بالعتاب؛ بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة في الله عنهم، فسيرى الله عملهم ورسوله، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بما كانوا يعملون.

ثم ذكر منافقي البادية، فقال:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الأعرابُ ﴾، وهم سكان البادية، قال ابن عزيز: يقال: رجل أعرابي، إذا كان بدوياً. وإن لم يكن من العرب، ورجل عربي، إذا كان منسوباً إلى العرب، وإن لم يكن بدويا. أهل البوادي من المنافقين هم ﴿ أشدُّ كفراً ونفاقاً ﴾ من أهل الحاضرة، وذلك لتوحشهم وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم، وقلة استماعهم للكتاب، ﴿ وأجدرُ ﴾ أي: أحق ﴿ ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل اللهُ على رسوله ﴾ من الشرائع وفرائضها وسننها، لبُعدهم عن مجالس العلم، ﴿ والله عليمٌ حكيم ﴾؛ يعلم كل واحد من أهل الوبر والمدر، حكيم فيما يدبر من إسكان البادية، أو الحاضرة، ويختار لكل واحد بحكمته البالغة ما يليق به، وسيأتي بقية الكلام على سكنى الحاضرة أو البادية في الإشارة، إن شاء الله.

﴿ ومن الأعرابِ من يتخذ ﴾ أي: يعُد ﴿ ما ينفقُ ﴾ من الزكاة وغيرها في سبيل الله، ﴿ مغْرَماً ﴾ أي: غرامة وخسراناً؛ إذ لا يحتسبه عند الله، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفقه لرياء أو تقية، فيثقل عليه ثقل المغرم الذي ليس بحق، ﴿ ويتربصُ بكم الدوائرَ ﴾ أي: دوائر الزمان ونُوبه، أو ينتظر بكم مصائب الزمان، لينقلب الأمر عليكم؛ فيتخلص من الإنفاق الذي كلف به.

قال تعالى: ﴿ عليهم دائرةُ السَّوْءِ ﴾، وهو دعاء عليهم بنحو ما يتربصونه ـ أي: عليهم يدور من الدهر ما يسُوءهم ـ أو جعل الله دائرة السوء نازلة بهم. قال ابن عطية: كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله ـ عز وجل ـ فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله: ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾[1]، ﴿ ويل للمطففين ﴾[2]، وهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى.هـ. أو إخبار عن

(١) الآية الأولى من سورة الهمزة.
(٢) الآية الأولى من سورة المطففين.

وقوع ما يتربصونه عليهم. قال البيضاوى: الدوائر فى الأصل: مصدر أضيف إليه السوء؛ للمبالغة، كقولك: رَجلُ صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السُّوء» هنا، وفى الفتح[1] بضم السين. هـ. ﴿ والله سميعٌ ﴾ لما يقولونه عند الإنفاق، ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه من الرياء وغيره.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذُ ما ينفق ﴾ أى: يعد ما ينفقه من الزكاة وغيرها ﴿ قربات عند الله ﴾؛ تقربهم إليه زلفى؛ لإخلاصهم فيها. ﴿ وصلوات الرسول ﴾ أى: ويتخذ ما ينفق سببَ صلوات الرسول؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يدعو للمتصدقين، ويقول: اللهم صل على فلان، ويستغفر لهم. ولذلك سُن للمصدّق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته، لكن ليس له أن يصلى عليه، كما كان يفعل ﷺ؛ لأن ذلك منصبه، فله أن يتفضل به على غيره.

﴿ ألا إنها ﴾ أى: نفقاتهم، ﴿ قُرْبة لهم ﴾ تقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم، ﴿ سيُدخلهم اللهُ فى رحمته ﴾، وعد من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم، أو سيدخلهم فى جنته التى هى محل رحمته وكرامته، والسين لتحقق وقوعه. ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾؛ يغفر ما فرط من الخلل، ويتفضل برحمته على ما نقص عن درجات الكمال. قيل: إن الآية الأولى نزلت فى أسد وغطفان وبنى تميم؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون مغرماً. والثانية نزلت فى عبد الله ذى البجادين وقومه؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وصلوات الرسول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ورد الترغيب فى سكنى المدن؛ لأنها محل العلم وسماع الوعظ، وفيها من يستعان بهم على الدين، وورد الترغيب أيضاً فى سكنى الجبال والفرار بالدين من الفتن، وخصوصاً فى آخر الزمان. ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكنى البوادى؛ كأبى ذر، وسلمة بن الأكوع، وغيرهما ـ رضى الله عنهم ـ.

والتحرير فى المسألة: أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد، فمن كان مراده تحقيق الشريعة، وتحرير مسائل العلم الظاهر، والقيام بوظائف الدين، ولم يجد فى البادية من يعينه على ذلك؛ فسكنى المدن أفضل له، ومن كان مراده تصفية قلبه وتحقيق علم الطريقة، وتهيئة القلب لإشراق أنوار الحقيقة، فالاعتزال فى البوادى، وقرون الجبال، أوفق له، إن وجد من يستعين بهم على ذلك؛ لأن شواغل المدن وعوائدها كثيرة، وقد كثرت فيها الحظوظ والأهوية؛ فلا تجد فيها إلا من هو مفتون بدنيا أو مبتلىً بهوى، بخلاف أهل البادية، هذه العوائد فيهم قليلة، وجُلّ أهلها على الفطرة.

وأيضاً: هم مفتقرون إلى من يسوسهم بالعلم أكثر من غيرهم، فمن تصدى لتعليمهم وتذكيرهم لا يعلم قدره إلا الله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: [أرحم الناس بالناس: من يرحم من لا يرحم نفسه]. أى: من يرحم

(١) فى قوله تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء..﴾ الآية ٦ من سورة الفتح.

الجاهل الذي لا يرحم نفسه؛ بأن يعلمه ما ينفع به نفسه ويرحمها. وقال الغزالي في الإحياء: يجب على العلماء أن يبعثوا من يعلم الناس في البوادي؛ فإن أخلّوا بذلك الأمر عاقبهم الله، فمن تعرض لتعليمهم قام بهذا الواجب. والله تعالى أعلم. وأما ما يذكر حديثاً: «أمتي في المدن، وقليل في البادية»، فلم يصح، بل قال - عليه الصلاة والسلام - للرجل الذي أراد أن ينتقل إلى المدينة: «اعبد الله حيثما كنت، فإن الله لن يترك من أعمالك شيئاً». وكذلك قوله: إذا أراد الله بعبد خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة؛ لم أقف عليه حديثا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر فضل السابقين إلى الإسلام، فقال:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قلت: (السابقون): مبتدأ، (والذين اتبعوهم): عطف عليه، وجملة (رضي الله عنهم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والسابقُون الأولون ﴾ إلى الإسلام ﴿ من المهاجرين ﴾؛ وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة، ﴿ و ﴾ من ﴿ الأنصار ﴾؛ وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة، أو أهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين، أو الذين أسلموا حين قدم عليهم مُصعب بن عُمير.

﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾؛ اللاحقين بالسابقين من الفريقين، أو من الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة، ﴿ رَضِيَ اللهُ عنهم ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ﴿ ورَضُوا عنه ﴾ بما نالوا من نِعَمه الدينية والدنيوية، ﴿ وأعدّ لهم جنات تجري تَحْتَها الأنهارُ ﴾ وقرأ ابن كثير: «من تحتها»، كما هي في مصحف أهل مكة. ﴿ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ أي: الفلاح الدائم الكبير.

الإشارة: لكل زمان سابقون، قد شمروا عن ساق الجد والاجتهاد، ورفضوا كل ما يقطعهم عن محبوبهم من العشائر والأولاد، قد خرقوا عوائد أنفسهم، فأبدلوا العز بالذل، والجاه بالخمول، والغنى بالفقر، والرفعة بالتواضع، والرغبة بالزهد، وشغل الظاهر بالتفرغ؛ ليتفرغ بذلك الباطن. وسافروا في طلب محبوبهم، وصحبوا المشايخ، وخدموا الإخوان، حتى ارتفعت عنهم الحجب والأستار، وتمتعوا بمشاهدة الكريم الغفار؛ فتهيئوا لتذكير العباد، وحييت بهم الأقطار والبلاد. وفي مثلهم يقول الشاعر:

تَحْيَـا بِكُم كُل أرضٍ تَنْزلُون بها كأنَّكُم فى بِقاع الأرض أمْطَـار
وتَشْتَهِـي العينُ فيكـم مَنْظرًا حسنًا كأنَّكـم فى عُيـون النـاس أقْمَارُ.

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

ثم ذكر بقية من المنافقين، فقال:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وممن حولكم ﴾، يا أهل المدينة، ﴿ من الأعراب منافقون ﴾ ساكنون حولكم، وهم: جُهينة، ومُزينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كانوا نازلين حول المدينة، أما أسلم وغفار فتابوا، ودعا لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها» وأما الباقى فأسلم بعضهم.

قال تعالى: ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ قوم ﴿ مَرَدُوا ﴾ أى: استمروا ﴿ على النفاق ﴾، واجترءوا عليه، وتمرنوا وتمهروا فيه، ﴿ لا تعلمُهم ﴾ أى: لا تعرفهم يا محمد بأعيانهم، وهو بيان لمهارتهم وتنوقهم فى تحرى مواقع التهم إلى حد قد خفى عليك حالهم، مع كمال فطنتك وحِذْقِ فراستك، ﴿ نحنُ نعلمهم ﴾، ونطلع على أسرارهم، إن قدروا أن يُلبسوا عليك فلا يقدرون أن يلبسوا علينا، ﴿ سنعذّبهم مرتين ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان فى الحرب، أو بإقامة الحدود وعذاب القبر، أو بتسليط الحُمى عليهم مرتين فى السنة، ﴿ ثم يُرَدُّون إلى عذاب عظيم ﴾ بعد الموت، وهو عذاب النار.

الإشارة: قد جعل الله ـ سبحانه ـ بحكمته وقدرته، فى كُلّ عصر وأوان بحرين: بحراً من النور وبحراً من الظلمة، من عصر النبى ﷺ إلى قيام الساعة، فلابد فى كل عصر من نور وظلمة، وإيمان وكفران، ونفاق وإخلاص، وصفاء وخوض، فأهل النور نورهم فى الزيادة إلى قرب قيام الساعة، وأهل الظلمة كذلك، إذ لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها، ولا يظهر شرف النور إلا بوجود الظلمة، ولا شرف الصفاء إلا بوجود الخوض، ولا فضل العلم إلا بوجود الجهل، وهكذا جعل الله من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار إلى الواحد الحق، فمن رام انفراد أحدهما فى الوجود فهو جاهل بحكمة الملك الودود. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر من كمل صفاؤه من السابقين، ومن كمل خوضه من المنافقين، ذكر من جمع بين الصفاء والخوض، فقال:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ قوم ﴿آخرونَ اعترفوا بذُنوبهم﴾؛ وهو التخلف عن الجهاد، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسَهم على سواري المسجد، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله ﷺ، فلما قدِم رسولُ الله ﷺ دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، على عادته، فرآهم وسأل عنهم، فذُكر له سببهم، فنزلت الآية فأطلقهم(1).

﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ بعمل سيىء ﴿وآخر سيئاً﴾ بعمل صالح، خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب، بآخر سيىء وهو التخلف وموافقة أهل النفاق، أو خلطوا عملاً صالحا، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول، وغيره من الأعمال، بآخر سيىء، وهو تخلفهم عن تبوك. ﴿عَسَى اللهُ أن يتوبَ عليهم﴾ أي: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله: ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾، والرجاء في حقه تعالى واجب. ﴿إن الله غفور رحيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليهم.

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية. وقال القشيري: قوله: ﴿وآخر سيئا﴾ بعد قوله: ﴿عملاً صالحا﴾، دليل على أن الزَّلَّة لاتحبطُ ثوابَ الطاعة؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً، وهو كذلك. انتهى. قُلْتُ: وما ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، ولايعارضه حديث مسلم: «أنَّ رَجُلاً قَالَ: واللهِ لايَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وإنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ الذي يتَألَّى(2) علَيَّ ألاَّ أغفِرَ لفُلاَنٍ، وإنِّي غفَرْتُ لَه وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»(3) أو كما قال؛ لأن هذا الرجل كان من بني إسرائيل، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا؛ لأن هذه الأمة المحمدية قد وضع الله عنها أثقال بني إسرائيل، فهي ملة سمحة، ولعل هذا الرجل أيضا كان قانطاً من رحمة الله ومكذباً بها، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة: الناس ثلاثة: سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون، والمخلطون راجون، والمنهمكون هالكون، إلا من تاب وعمل صالحا، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم، وصفاؤهم على كدرهم، إن هفوا رجعوا قريبا، فقد تمر عليهم السنين الطويلة ولايكتب عليهم ملك الشمال شيئاً؛ وذلك ليقظتهم، لا لعصمتهم،

(1) أخرجه البيهقي في الدلائل (باب حديث أبي لبابة وأصحابه ٥/٢٧٢) وابن جرير في التفسير (١١/١٠) عن ابن عباس - رضي الله عنه.
(2) يتألى: يحلف. والألية: اليمين.. انظر النهاية (ألى ١/٦٢).
(3) أخرجه مسلم في (البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله) من حديث جُندب - رضي الله عنه.

والمخلطون هم الذين يكثر سقوطهم ورجوعهم، عسى الله أن يتوب عليهم. والمنهمكون هم المصرون على الفواحش، فإن سبقت لهم عناية رجعوا، وإن لم تسبق لهم عناية فهم مُعرضون لنقمة الله وحلمه. والله تعالى أعلم.

ولما تاب اللهُ على المتخلفين، وأطلقهم رسول الله ﷺ من الوثاق، قالوا: يارسول الله، هذه أمْوَالنَا التى خلفتنا، خُذها فتصدّق بِها وطهّرْنا، فقال عليه الصلاة السلام: «مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً». فأنزل الله فى ذلك:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿ خُذ من أموالهم ﴾ التى عرضوها عليك، ﴿ صدقةً ﴾، وهو الثلث، فأخذ عليه الصلاة السلام من أموالهم الثلث، وترك لهم الثلثين، أو: خذ من أموالهم صدقة، وهى الزكاة المفروضة، والضمير لجميع المسلمين. من صفة تلك الصدقة: ﴿ تُطَهِّرهم ﴾ أنت يا محمد بها من الذنوب، أو حب المال المؤدى بهم إلى البخل، الذى هو أقبح الذنوب. وقرئ بالجزم؛ جواب الأمر.

﴿ وتُزكِّيهم ﴾ أى: تنمى بها حسناتهم، أو ترفعهم ﴿ بها ﴾ إلى درجات المخلصين، ﴿ وَصَلِّ عليهم ﴾ أى: ترحم عليهم، وادع لهم بالرحمة، فكان عليه الصلاة السلام يقول لمن أتاه بصدقته :«اللهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ». فأتى أبو أوفى بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»(١).

﴿ إن صلاتك سكَنٌ لهم ﴾؛ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، لتحققهم بقبول دعائه عليه الصلاة السلام. قال القشيرى: انتعاشهم بهِمّتك معهم أتم من استقلالهم بأموالهم . هـ. وجمع الصلوات؛ لتعدد الموعد لهم، وقرأ الأَخَوَانِ وحفص بالتوحيد. ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ أى: سميع باعترافهم عليم بندامتهم.

﴿ ألمْ يعلموا أن الله هو يقبلُ التوبَة عن عباده ﴾ إذا صحت، والضمير إما للتوب عليهم، والمراد أن يُمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقتهم، أو لغيرهم، والمراد به التحضيض على التوبة، ﴿ و ﴾ أنه هو الذى ﴿ يأخذُ الصدقات ﴾؛ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدى بدله، ﴿ وأن الله هو التوابُ الرحيمُ ﴾ أى: من شأنه قبول توبة التائبين، والمتفضل عليهم بجوده وإحسانه.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ومسلم فى (الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته) من حديث عبدالله بن أبى أوفى.

الإشارة: أخذ المشايخ من أموال الفقراء سبب في غناهم، واتساع حالهم حساً ومعنى، وقد قالوا: إذا أراد الله أن يغنى فقيرا سلط عليه ولياً يأخذ ماله، أو أمره شيخه بإعطاء ماله، فإن ذلك عنوان على غناه. وقد ذكر ذلك شيخ أشياخنا سيدى على الجمل العرانى فى كتابه. وقد رأيت فى مناقب شرفاء وزان: أن الشيخ مولاى التهامى أرسل إلى أخيه مولاى الطيب، وكان من خواص تلامذته، أن يدفع إليه جميع ماله ليصنع به كسوة للمرابطين، فأرسل له جميع ما يملك، حتى كسوة الدار وأثاث البيت، فكان ذلك سبباً فى فيضان ماله، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها مِلكٌ من أملاك مولاى الطيب، حتى إلى بلاد الجزائر وما والاها، وذلك بسبب تجارة شيخه له. والله تعالى أعلم.

ثم هدد أهل التخليط، فقال:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل اعملوا﴾ ما شئتم من خير أو شر، ﴿فسيرى اللهُ عملكُم﴾؛ فإنه لا يخفى عليه؛ خيراً كان أو شراً، ﴿و﴾ سيرى ذلك أيضا ﴿رسولُه والمؤمنون﴾، فيظهر لهم ما يبدو منكم، فإن الطول يفضح صاحبه. ﴿وستُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة﴾؛ بالموت، ﴿فيُنبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ فيخبركم بما عملتم؛ بالمجازاة عليه.

الإشارة: كل من ظهر بدعوى أو تعرض لمقام من المقامات يقال له: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)، فإن كان أمره مبنياً على أساس الإخلاص والتقوى ثبت وانتهض، وشعشع نوره، وإن كان مبنياً على غير أساس، افتضح وكَسَفَ نوره، وسيرد الجميع إلى عالم الغيب والشهادة، فيجازى كلاً بعمله.

ثم نزل فى شأن الثلاثة الذين خُلِّفُوا قوله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قلت: الإرجاء هو التأخر، يقال: أرجاه ـ بالهمز وتركه ـ: أخره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وآخرون﴾ من المتخلفين، تخلفوا من غير عُذر، ولم يعتذروا بشيء، ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أي: مؤخرون ﴿لأمرِ الله﴾ فى شأنهم؛ ﴿إما﴾ أن ﴿يُعذِّبهم﴾ على تخلفهم عن الجهاد مع

رسوله، ﴿ وإما ﴾ أن ﴿ يتوب عليهم ﴾ حيث تابوا وندموا، والترديد باعتبار العباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادته تعالى، ﴿ والله عليمٌ ﴾ بأحوالهم، ﴿ حكيم ﴾ فيما فعل بهم.

والمراد بهؤلاء الثلاثة: كَعْب بن مالك، وهِلال بن أمية، ومُرَارَة بن الربيع، أمر رسولُ الله ﷺ الناس ألا يُسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله، فرحمهم[1]، وسيأتي تمام قصتهم وتوبة الله عليهم بعدُ، إن شاء الله.

الإشارة: وآخرون مؤخرون عن صحبة المشايخ العارفين، حتى ماتوا مفروقين، إما أن يعذبهم على ما أصروا من المساوئ والذنوب، وإما أن يتوب عليهم بفضله وكرمه، إنه عليم لايخفى عليه ما أسروا، حكيم فيما قضى عليهم من أمر الحجاب بعدله وقضائه.

ثم ذكر أهل مسجد الضرار، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

قلت: قرأ نافع وابن عامر: بغير واو[2]؛ مبتدأ حذف خبره، أي: معذبون، أو في: (لاتقم فيه أبدا)، أو في قوله: (لايزال)، أو صفة لقوله: (وآخرون)، على من يقول: إن «المُرْجَوْن» غير الثلاثة المخلفين، بل في المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنيانهم مسجد الضرار. ومن قرأ بالواو فعطف على قوله: (آخرون)، أو مبتدأ حُذف

(١) أخرج قصتهم البخاري في (المغازي، باب حديث كعب بن مالك) ومسلم في (التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك) من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه.

(٢) في قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا....﴾.

خبره، أي: وممن وصفنا: الذين، أو منصوب على الذم، و(ضرارا) وما بعده: علة، وأصل (هار): هائر، فأخرت الهمزة، ثم قلبت ياء، ثم حذفت؛ لالتقاء الساكنين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و﴾ منهم ﴿الذين اتخذوا مسجداً ضِرَارًا وكُفراً﴾ أي: لأجل المضارة بالمؤمنين وللكفر الذي أسروه، وهو تعظيم أبي عامر الكافر، ﴿ وتفريقا بين﴾ جماعة ﴿ المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون في مسجد قباء.

رُوِي أن بَنِي عَمْرِو بن عوف لمَّا بَنَوا مسجد قُباء سألوا رسُولَ الله ﷺ أن يأتيهمْ فيصلي فيه، فأتاهمْ فصلَّى فيه، فَحسَدَتهم إخْوانُهُم ؛بنو غَنْم بن عوفٍ، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب، إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة، فصل لنا فيه حتى نتخذَهُ مصلىً، وكان ذلك قبل خروجه لتبوك، فقال لهم: «إني علَى جَنَاحِ سفَرٍ، وإذَا قَدِمْنَا، إنْ شَاءَ اللهُ، صلَّيْنَا فيه» . فلما قدم أتوه، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت الآية، فدعا مالك بن الدُّخْشُم، ومَعْن بن عدي، وعامر بن السَّكَن، فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه؛ ففعلوا، واتخذوا مكانه كناسة(١) .

ثم أشار إلى قصدهم الفاسد، فقال: ﴿ وإرصاداً لمن حاربَ اللهَ ورسُولَهُ﴾ أي: واتخذوه انتظاراً ليؤمهم فيه من حارب الله ورسوله، يعني: أبا عامر الراهب، فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فانهزم مع هوازن، ثم هرب إلى الشام؛ ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، فمات بِقِنَّسْرِين(٢) طريداً وحيداً. وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة: الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق.

وقوله: ﴿ من قبلُ﴾ : متعلق بحارب، أي: حارب من قبل هذا الوقت، أو باتخذوا، أي: اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف؛ لأنه قبيل غزوة تبوك. ﴿ وليَحْلِفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين. ﴿ واللهُ يشهدُ إنهم لكاذبون﴾ في حلفهم.

ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال: ﴿ لاتَقُمْ فيه أبداً﴾ للصلاة؛ إسعافاً لهم، ﴿ لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم﴾ من أيام وجوده، ﴿ أحقُّ أن تقومَ فيه﴾ أي: أولى بأن تصلي فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ في أيام مُقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الاثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. وقيل: مسجد الرسول ﷺ؛ لقول أبي سعيد: سألت رسول الله ﷺ عنه؟ فقال: «مَسْجِدُكُمْ هذَا؛ مَسْجِدُ المَدِينَةِ»(٣).

(١) انظر تفسير البغوي ٤/٩٣ ـ ٩٤ وأسباب النزول للواحدي (٢٦٤).
(٢) قنسرين: مدينة قريبة من حلب من جهة حمص.
(٣) أخرجه مسلم في (الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة).

﴿فيه رجال يُحبون أن يتطهروا﴾، كانوا يستنجون بالماء، ويجمعون بين الماء والحجر، أو يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة، طلباً لمرضات الله تعالى، أو من الجنابة، فلا ينامون عليها، ﴿والله يُحبّ المُطَّهّرين﴾؛ يرضى عنهم، ويُدْنيهم من جنابه إدْناء المحب لحبيبه.

وقيل: لما نَزَلَتْ مشى رسول الله ﷺ، ومعه المُهاجِرُون، حتى وقف على باب مسجد قُبَاءَ، فإذا الأنصارُ جلُوسٌ، فقال: «أمُؤْمِنُون أَنْتُم؟ فَسَكَتُوا، فأعادها، فقال عُمر: إنهم مُؤْمِنُونَ وأنَا معَهُم، فقال عليه الصلاة والسلام: أتَرْضَوْنَ بالقَضَاءِ؟ فقالوا: نَعَمْ، قال: أتَصبِرُونَ على البَلاءِ؟ قالوا: نعم، قال: أتَشكُرُونَ في الرَّخَاءِ؟ قالوا: نَعَمْ، فقال عليه الصلاة والسلام: مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ. فَجلَس، ثُمَّ قال: يا مَعْشَرَ الأنْصارِ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أثْنَى عليْكُمْ، فما الذي تَصْنَعُونَ عند الوُضُوءِ وعِنْدَ الغائط؟ فقالوا: يارسول الله، نُتْبِعُ الغَائِطَ الأحْجَارَ الثَّلاثَةَ، ثم نُتْبِعُ الأحْجَارَ المَاءَ. فقال: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّون أنْ يَتَطَهَّرُوا﴾»(١).

﴿أفمن أسَّسَ بُنْيانه على تقوى من الله ورضوانٍ﴾؛ بأن قصد به وجه الله، وابتغاء مرضاته، فَحَسُنَت النية في أوله، ﴿خيرٌ أمْ مَنْ أسس بنيانه على﴾ قصد الرياء والمنافسة، فكأنه بنى على ﴿شفا﴾ أي: طرف ﴿جُرُفٍ﴾: حفرة ﴿هارٍ﴾ أي: واهٍ ضعيف، أشرف على السقوط، أو ساقط، ﴿فانهارَ به في نار جهنم﴾ أي: طاح في جهنم، وهذا ترشيح للمجاز، فإنه لما شبهه بالجرف وصفه بالانهيار، الذي هو من شأن الجرف، وقيل: إن ذلك حقيقة، وإنه سقط في جهنم، وإنه لم يزل يظهر الدخان في موضعه إلى قيام الساعة.

والاستفهام للتقرير، والذي أُسس على التقوى والرضوان: هو مسجد قباء، أو المدينة، على ما تقدم، والذي أسس على شفا جرف هارٍ هو مسجد الضرار، وتأسيس البناء على التقوى هو تحسين النية فيه، وقصد وجه الله، وإظهار شرعه، والتأسيس على شفا جرف هار هو فساد النية وقصد الرياء، والتفريق بين المؤمنين، وذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البالغ. قاله ابن جزي. ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة.

﴿لايزالُ بُنيانُهُمُ﴾ أي: مبنيهم، مصدر بمعنى المفعول، ﴿الذي بَنَوْا رِيبَةً﴾ أي: شكاً ونفاقاً ﴿في قلوبهم﴾، والمعنى: أن بناءهم هذا لايزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لمَّا هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لايزول رسمه من قلوبهم، ﴿إلا أن تَقَطَّعَ﴾ أي: تتقطع ﴿قلوبُهم﴾

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: لم أجده هكذا، وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدر الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله (ورب الكعبة)، وروى بقيته ابن مردويه. انظر الفتح السماوي (٢/ ٧٠٤).

بالموت، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك، أو لايزال بنيانهم ريبة، أي: شكاً في الإسلام بسبب بنيانه، لاعتقادهم صواب فعلهم، أو غيظاً بسبب هدمه، ﴿ والله عليمٌ ﴾ بنياتهم، ﴿ حكيم ﴾ فيما أمر من هدم بنيانهم.

الإشارة: من اراد ان يؤسس بنيان اعماله واحواله على التقوى والرضوان، فليؤسسه على الإخلاص والنية الحسنة، ومتابعة السنة المحمدية، فإنها لا تنهدم ابداً، ومن اراد ان يؤسسها على شفا جرف هارٍ فليؤسسها على الرياء والسمعة، وقصد الكرامات وطلب الأعواض، فإنها تنهدم سريعاً ولا تدوم، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر كرامة أهل الإخلاص، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: جملة (يقاتلون): حال من (المؤمنين)؛ بياناً للشراء، أو استئنافاً؛ لبيان ما لأجله الشراء، وقيل: «يقاتلون»: بمعنى الأمر، و(وعداً): مصدر لما دل عليه الشراء، فإنه في معنى الوعد، أي: وعدهم وعداً حقاً لاخلف فيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة ﴾ أي: عوضهم في بذل مُهجهم وأموالهم في سبيله الجنة ونعيمها، ومن جملته: النظر إلى وجهه الكريم. قال بعضهم: فانظر.. ماأكرمه سبحانه، فإنَّ أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة. هـ.

ثم بيَّن وجه الشراء فقال: ﴿ يُقاتِلون في سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿ فيَقتلون ﴾ الكفارَ، ﴿ ويُقتلون ﴾ شهداء في سبيل الله. وقرأ الأَخَوَانِ بتقديم المبني للمفعول؛ لأن الواو لا ترتب، وأنَّ فعل البعض قد يسند إلى الكل، أي: فيموت بعضهم ويجاهد الباقي. وعد ذلك لهم ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾؛ لا خلف فيه، مذكوراً ذلك الوعد ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ أي: إن الله بيَّن في الكتابين أنَّ الله اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة،

كما بيّنه في القرآن، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. ﴿ومن أوْفَى بعهده من الله﴾؟ هو مبالغة في الإنجاز، أي: لاَ أحد أوفى منه بالعهد، ﴿فاستبشرُوا ببيعكُم الذي بايعتم به﴾ أي: فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب، كما قال: ﴿وذلك هو الفوزُ العظيم﴾. قال بعضهم: ناهيك من بيع، البائع فيه رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

الإشارة: قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة، فمن باع نفسه لله؛ بأن خالف هواها وخرق عوائدها، وسعى في طلب مولاها، عوضه جنة المعارف، معجلة، وزاده جنة الزخاف، مؤجلة. ومن باع ماله؛ بأن أنفقه في مرضاة الله، وبخل بنفسه، عوضه جنة الزخارف، مؤجلة.

قال في الإحياء ـ في باب الذكر وفضيلته ـ: وأنه يوجب الأنس والحب، فإذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله هو الذي يفارقه عند الموت، فلا يبقى معه في القبر أهل، ولا مال، ولا ولد، ولا ولاية، ولايبقى معه إلا ذكر الله، فإن كان في أنس به تمتع به، وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلّي بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه، عما به أنسُه.

ثم قال: ولأجل شرف ذكر الله عظمت رتبة الشهادة؛ لأن المطلوب هو الخاتمة، ومعنى الخاتمة: وداع الدنيا كلها، والقدوم على الله، والقلب مستغرق بالله، منقطع العلائق عن غيره، والحاضرُ صَفَّ القتال قد تجرد قلبه لله، وقطع طمعه من حياته، حباً لله وطمعاً في مرضاته، وحالة الشهيد توافق معنى قولك: (لا إله إلا الله)، فإنه لامقصود له سوى الله. هـ. فما يجده أهل التملق من لذيذ الحلاوة في مناجاتهم، وأهل الشهود في حال غيبتهم في محبوبهم، ليس هو من نعيم الدنيا، بل من نعيم الجنة، قدّمه الله لأوليائه، وهو معنى جنة المعارف المعجلة؛ عوضاً لمن باع نفسه لله.

قال بعض العارفين: النفوس ثلاثة: نفس معيبة، لا يقع عليها بيع ولا شراء، وهي نفس الكافر، ونفس تحررت؛ لا يصح بيعها، وهي نفس الأنبياء والمرسلين، لأنها خُلقت مطهرة من البقايا، ونفس يصح بيعها وشراؤها، وهي نفس المؤمن، فإذا باعها لله، واشتراها الحق تعالى منه، وقع عليها التحرير، وذلك حين تتحرر من رقّ الأكوان، وتتخلص من بقايا الأثر.

وقال بعض أهل التحقيق: اشترى الله تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب؛ لأن القلب حر لا يقع عليه البيع؛ لأنه لله؛ فلا يباع ولا يشترى، أما سمعت قول رسول الله ﷺ: «القلبُ بيت الرب».

أي: لأنه محل مناجاته، ومعدن معرفته، وخزانة سره، فليس للشيطان عليه من سبيل. **قال تعالى:** ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١). وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشترى. هـ.

ثم بيّن أوصاف البائعين، فقال:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

قلت: (التائبون): خبر، أي: هم التائبون، أو مبتدأ حُذِفَ خبره، أي: التائبون في الجنة وإن لم يجاهدوا، لقوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾(٢)، أو خبره ما بعده، أي: التائبون عن الكفر، على الحقيقة، هم الجامعون لهذه الخصال.

يقول الحق جل جلاله، في وصف البائعين أنفسهم وأموالهم: هم ﴿التائِبُون﴾ عن الكفر والمعاصي والهفوات والغفلات، ﴿العابدون﴾ لله، مخلصين له الدين، ﴿الحامدون﴾ إلله في السراء والضراء وعلى كل حال، ﴿السائحون﴾ أي: الصائمون، لقوله عليه الصلاة والسلام: «سِيَاحةُ أُمتِي الصوم»(٣)، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملكوت والجبروت. أو السائحون للجهاد، أو لطلب لعلم، أو لزيارة المشايخ والإخوان.

﴿الراكعون الساجدُون﴾ في الصلاة، ﴿الآمِرُونَ بالمعروف﴾ أي: بكل ما هو معروف محمود، كالإيمان والطاعة، ﴿والناهُون عن المنكر﴾ أي: كل ما هو منكر في الشرع، كالكفر والمعاصي، ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أي: لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع. **قال البيضاوي:** وعطف قوله: ﴿والناهون عن المنكر﴾ دون ما قبله؛ للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة؛ كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وعطف أيضًا قوله: ﴿والحافظون لحدود الله﴾؛ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل، وهذا مجملها، وقيل:

(١) من الآية ٦٥ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ٩٥ من سورة النساء.
(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١١/٣٥) موقوفاً على السيدة عائشة، بلفظ «سياحة هذه الأمة الصيام»، وأخرجه مرفوعاً، عن عبيد بن عمير، بلفظ: (سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»).

للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع، من حيث إن السبعة هو العدد التام، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه، ولذلك سمي واو الثمانية. هـ. بالمعنى.

﴿ وبشّر المؤمنين ﴾ الموصوفين بهذه الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم؛ للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به؛ للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد جمعت هذه الآية معارج الترقي من البداية إلى النهاية، فأول المقامات: التوبة، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاها، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة، التي هي عمل الشريعة، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق، ولاحت لها أنوار التحقيق، حمدت الله وشكرته؛ تقييداً لتلك النعمة، ثم تسيح فكرتها في ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت، ثم ترد إلى مراسم الشريعة، **إذ منتهى الكمال: التزام الشرائع،** فتركع وتسجد البشرية، أدباً في عالم الأشباح، ويركع القلب ويسجد في مسجد الحضرة في عالم الأرواح، فحينئذ تصلح للوعظ والتذكير، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهرين؛ لأهل التشريع، والباطنين؛ لأهل التحقيق، فالأول يسمى وعظاً وتذكيراً، والثاني يسمى تربية وترقية، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود، ووفى بالعهود، فيبشر حينئذ بالسعادة العظمى والمقام الأسنا.

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ السائحون ﴾ أي: الصائمون، ولكن عن شهود غير الله، المُمْتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله. ويقال: السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها؛ بالتفكُّر في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِئها، والتحقق بحِكَم خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون رَوْحَ الوصال، ويعيشون بنسيم الأُنْسِ؛ بالتحقيق بشهود الحق. انتهى.

وانظر الورتجبي؛ فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة، ثم التوبة الصادقة تستدعي العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية، فإذا تمت له نعمة العبودية اقتضت حمد الله تعالى، فيحمده تعالى معترفاً بعجزه عن القيام بحمده؛ كما في حديث: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١)، ثم الحمد والذكر يقتضي حبس النفس عَنْ مألوفاتها حين عاين حِمَى هلال جماله في سماء الإيقان. ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: «صُومُوا لِرُؤيَتِهِ»،

(١) أخرجه مسلم في (الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود) من حديث السيدة عائشة ـ رضي الله عنها.

ولايكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله: «وأفْطِرُوا لِرُؤيتِهِ»، فالسائحون طيارون بقلوبهم في أقطار الغيب، وذلك يقتضى الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة، فيركع شوقاً لجماله، وخضوعاً لجلاله، وعند ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات، فيسجد لكل الجهات؛ (فأينما تولوا فثم وجه الله)[1] . وهذا السجود يقتضى الغربة، والغربة تقتضي المشاهدة، والمشاهدة تُصير شاهدها متصفاً بصفاتها، فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته صار متصفاً بوصف الربوبية، متمكناً فى العبودية، فيحكم بحكم الله، ويعدل بعدل الله، فيصفهم الله بهذه النعوت، قال: (الآمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق، والناهون لهم عن متابعة الشهوات، والحافظون لحدود الله، القائمون فى مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية؛ لأنهم فى محل التمكين على أسوة مراتب النبى ﷺ، مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله». انتهى.

ثم نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين، وينخرط فيهم من تخلف عن تبوك من المنافقين، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان﴾ ينبغى ﴿للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الذين ماتوا على الشرك، ﴿ولو كانوا أُولي قُرْبَى﴾ أى: من قرابتهم، ﴿من بعد ماتبيَّن لهم أنهم أصحابُ الجحيم﴾؛ لموتهم على الشرك. رُوى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب، لما حضرته الوفاة: «قُلْ: لا إِلَهَ إِلا الله، كلمة أُحَاجُّ لَكَ بها عنْدِ الله». فأبى، فقال: «والله لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عنك»، فكان يستغفر له حتى نزلت الآية[2].

وقيل: إن النبى ﷺ استأذن ربه أن يستغفر لأمه، فنزلت، وقيل: إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لآبائهم، فنزلت، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم؛ إذ لم يتحقق أنهم أصحاب الجحيم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان.

ثم رفع إيهام النقض باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر، فقال: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه﴾، وقيل: إنه ﷺ قال فى شأن عمه: «لأستغفرن لك، كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فنزلت:

---

(١) من الآية ١١٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار، باب: قصة أبى طالب) ومسلم فى (الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت).

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾. والموعدة التي وعدها إياه قوله: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(١). أي: لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان، فإنه يجب ما قبله.

والمعنى: لا حجة لكم في استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك لم يكن إلا لوعد تقدم بقوله: ﴿لأستغفرن لك..﴾ إلخ. ﴿فلما تبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله﴾؛ بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن، ﴿تبرأ منه﴾؛ بأن قطع استغفاره له، ﴿إن إبراهيم لأواهٌ﴾ أي: لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، أو كثير الدعاء، أو مؤمن، أو فقيه، أو كثير الذكر لله، أو كثير التأوه من خوف الله، ﴿حليمٌ﴾؛ صبور على الأذى، والجملة: لبيان ما حمله على الاستغفار.

الإشارة: الشفاعة لاتكون فيمن تحقق غضب الله عليه، فإن ذلك من سوء الأدب، كالدعاء بالمحال، وأما من لم يتحقق غضبه عليه فالشفاعة فيه مرغب فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا»(٢)، والاستغفار شفاعة. وقد ورد في الخبر: «مَن استَغْفَرَ للمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ خمْسًا وعشْرِينَ مرَّةً كُتِبَ مِن الأَبْدَالِ».

والشفقة مطلوبة، مالم يظهر مراد الله من خلقه، فإن برز من عنصر القدرة شيء من القهريات، فالتسليم لمراده تعالى أحسن، فالله أرحم بعباده منك أيها الشفيق، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(٣)، وبالله التوفيق.

ثم عذر نبيه في استغفاره لعمه قبل النهي، أو من استغفر من المسلمين لأسلافهم المشركين، فقال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾؛ أي: يسميهم ضلالاً، ويؤاخذهم مؤاخذتهم، ﴿بعد إذ هداهم﴾ للإسلام، ﴿حتى يبين لهم ما يتقونَ﴾ أي: حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، فإن خالفوا بعد

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.
(٢) أخرجه البخاري في (الأدب، باب: تعاون المؤمنين) ومسلم في (البر والصلة، باب: استحباب الشفاعة) من حديث أبي موسى الأشعري، وبقية الحديث: (ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء).
(٣) الآية ٧٦ من سورة هود.

البيان، أضلهم وآخذهم إن لم يتوبوا. قال البيضاوي: وكأنه بيان عذر الرسول في قوله لعمه: «لأستغفرن لك»، ولمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل: إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر، ولم يعلموا بالنسخ والمنع. وفي الجملة: دليل على أن الغافل غير مكلف. هـ. وقال ابن جزي: نزلت في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين من غير إذن، فخافوا على أنفسهم من ذلك، فنزلت الآية تأنيساً لهم، أي: ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يُبَيِّن لكم المنع من ذلك. هـ. ﴿إن الله بكل شيءٍ عليمٌ﴾؛ فيعلم أمرهم قبل النهي وبعده.

﴿إن اللهَ له ملكُ السمواتِ والأرضِ﴾، يتصرف فيهما وفي ساكنهما كيف يشاء، ﴿يُحيي﴾ من يريد إبرازه لعالم الشهادة، ﴿ويُميت﴾ من يريد رده لعالم الغيب، أو يحيي قلوباً بالإيمان والمعرفة، ويميت قلوباً بالكفر والغفلة. ﴿وما لكم من دون الله من وليٍ ولا نصير﴾.

قال البيضاوي: لمَّا منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، وتضمن ذلك وجوب التبري منهم رأساً، بيَّن لهم أن الله تعالى مالك كل موجود، ومتولي أمره والغالب عليه، ولايتأتى لهم ولاية ولانصرة إلا منه، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا مما عداه، حتى لايبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه. هـ.

الإشارة: وما كان الله ليضل قوماً عن السير إلى حضرته، أو الترقي في العلوم والمعارف بعد الوصول، حتى يُبين لهم مايتقون من سوء الأدب على لسان الشارع أو المشايخ، فإذا تبين لهم ذلك ثم ارتكبوه وأصروا عليه، أضلهم، وأتلفهم عن الوصول إلى حضرة قدسه، فإنَّ كل طاعة وحسن أدب يقرب من الحضرة، وكل معصية وسوء أدب يبعد عن الحضرة، وقد قالوا: من أساء الأدب على البساط، طُرد إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب، طُرد إلى سياسة الدواب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توبته على الثلاثة المُرجون، فقال:

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

قلت: في «كاد» ضمير الشأن، أو يرتفع بها قلوبُ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد تابَ اللهُ على النبيِّ﴾ أي: برأه وطهره من الذنوب، كقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(١)، ﴿و﴾ تاب على ﴿المهاجرين والأنصارِ﴾ مما عسى أن يكون ارتكبوه؛ إذ لا يخلو العبد من ذنب أو عيب. وقيل: هو حض على التوبة، وإظهار لفضلها، بأنها مقام الأنبياء والصالحين. وقيل: تاب عليهم من نقص المقامات التي ترقوا عنها، إلى ما هو أكمل منها، فما من أحد إلا وله مقام يستنقص بالنسبة إلى ما فوقه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ذَكَرَ توبة من لم يذنب؛ لئلا يستوحش من أذنب، لأنه ذكر النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار، ولم يذنبوا، ثم قال: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا﴾، فذكر من لم يذنب؛ ليُؤنس من قد أذنب، فلو قال أولاً: لقد تاب على الثلاثة لتفطرت أكبادهم. هـ.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين اتبعُوه في ساعة العُسْرَة﴾، يعني: حين محاولة غزوة تبوك. والساعة هنا بمعنى الحين والوقت، والعسرة: الشدة والضيق، أي: الذين خرجوا معه وقت العُسْرة والضيق، فقد كانوا في عسرة الظَّهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة الزاد؛ حتى قيل: إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة واحدة. ﴿من بعد ما كادَ يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول ﷺ، لِما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر، ﴿ثم تاب عليهم﴾؛ كرره للتأكيد، وللتنبيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر، ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾؛ حيث قَبِلَهُم، وتاب عليهم، وتاب على الثلاثة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق، ولاقصد للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتب عليهم، وأمر الناس ألا يكلموهم، وأن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك خمسين ليلة، ثم أنزل الله توبتهم. وقد وقع حديثهم في البخاري ومسلم(٢) وكتب السير.

ومعنى قوله: ﴿الذين خُلِّفُوا﴾ أي: تخلفوا عن الغزو. وقال كعب بن مالك: خلفوا عن قبول العذر، وليس بالتخلف عن الغزو، ويقوى ذلك كونه جعل: ﴿حتى إذا ضاقتْ عليهم الأرضُ﴾ غاية للتخلف، أي: خلفوا عن قبول العذر، وأخروا ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها وسعتها، وذلك لإعراض الناس

(١) من الآية ٢ من سورة الفتح.
(٢) انظر البخاري في (تفسير سورة التوبة، باب: قوله تعالى: (وعلى الثلاثة الين خُلِّفوا..)، ومسلم في (التوبة، حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه).

عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة. ﴿ وضاقتْ عليهم أنفسُهم ﴾؛ من فرط الوحشة والغم، ﴿ وظنّوا ﴾ أى: علموا ﴿ أن لا ملجأ مِنَ الله ﴾ أى: من سخطه ﴿ إلا إليه ﴾ أى: إلا إلى استغفاره والرجوع إليه، ﴿ ثم تاب عليهم ﴾؛ بالتوفيق بالتوبة، ﴿ ليتوبوا ﴾ بإظهارها والدوام عليها، وليعدوا من التوابين، ﴿ إن الله هو التوابُ ﴾ لمن تاب، ولو عادوا فى اليوم سبعين مرة، ﴿ الرحيمُ ﴾؛ متفضل عليهم بالنعم التى لا تحصى.

الإشارة: قال الورتجبى: التوبة توبتان: توبة العبد، وتوبة الله، توبة العبد: الرجوع من الزلات إلى الطاعات، وتوبة الله: رجوعه إلى العبد بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب.

إذا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمُ وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ.

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القربة، فتوبته للنبى ﷺ من غيبته عن المشاهدة؛ باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات؛ أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنة الله فى الأنبياء والأولياء، إذا ذابوا فى مقام الامتحان، وبقوا فى الحجاب عن مشاهدة الرحمن، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم؛ فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم. **قال تعالى:** ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾(١)، **وقال تعالى:** ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ... ﴾ الآية(٢). ثم قال عن بعضهم: توبة الأنبياء فى مشاهدة الخلق فى وقت الإبلاغ؛ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون فى مواضع الغيبة؛ لأنهم فى عين الجمع أبدا. هـ.

قال المحشي: وحاصله: توبة الله المذكورة وهْبِيَّةٌ، وهى فى كل أحد على حسب ما يليق بمقامه، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى، أو من شعور بخلق؛ لأجل الإبلاغ، إلى الغيبة عن ذلك، وكذلك أبداً كأهل الجنة. هـ.

ثم حضّ على الصدق، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾؛ بالمحافظة على ما أمركم به، والانكفاف عما نهاكم عنه، ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الشورى. (٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

قال ابن جزي: ويحتمل أن يريد به صدق اللسان؛ إذ كان هؤلاء قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان، وهو الصدق في الأقوال والأعمال والمقاصد والعزائم، والمراد بالصادقين: المهاجرين، لقوله في الحشر: ﴿ للفقراء المهاجرين.... ﴾ : إلى قوله ﴿ وأولئك هم الصادقون ﴾(١) . وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: (نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا)؛ أي: تابعين لنا. هـ. زاد السهيلي: ولمّا استحق الصادقون أن تكون الخلافة فيهم، استحق الصِّدِّيقُ أن تكون الخلافة له، مادام حيا؛ إذ كان صديقاً. هـ.

الإشارة: الصدق سيف حازم، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويكون في الأقوال، وهو صيانتها من الكذب، ولو أدى إلى التلف. وفي الأفعال، وهو صيانتها من الرياء وطلب العوض. وفي الأحوال، وهو تصفيتها من قصد فاسد، كطلب الشهرة، أو إدراك مقام من المقامات، أو ظهور كرامات، أو غير ذلك من المقاصد الدنية. **قال القشيري:** الصادقون هم السابقون الأولون، كأبي بكر وعمر وغيرهما، **والصدق: استواء السِّرِّ والعلانية**، وهو عزيز، وكما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتم. هـ.

ثم عاتب الحق تعالى أهل المدينة ومن جاورها على التخلف عن الغزو، فقال:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

قلت: (ولا يرغبوا): منصوب بالعطف، أو مجزوم بالنهي، والوادي: أصله: فاعل، من وَدِيَ، إذا سال، وهو منقوص، وهو في اللغة: كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل.

---

(١) الآية ٨ من سورة الحشر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان﴾ يصح ﴿لأهل المدينة﴾، ولا لمن ﴿حولهم من الأعراب، أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ فى غزوة ولا سرية ولا غيرهما، وهو نهى بصيغة النفى؛ للمبالغة. ﴿ولا﴾ ينبغى لهم أن ﴿يَرْغَبُوا بأنفسهم عن نفسه﴾؛ بأن يصونوها من اقتحام المشقات والمتاعب التى تحملها نبى الله ﷺ، حيث قعدوا عنه، ولم يكابدوا معه ما كابده من الأهوال.

رُوى أن أبا خَيْثمة دخل بستانه، بعد خروجه -عليه الصلاة والسلام- لتبوك، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له فى الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظِلّ ظَلِيلٌ، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ فى الضِّحِّ[1] والريح، ما هذا بخير، فقام، فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح، فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يقطع السراب، فقال: كن أبا خيثمة، فكانهُ[2]، ففرح به رسول الله ﷺ، واستغفر له[3].

ثم علل النهى بقوله: ﴿ذلك﴾؛ إشارة إلى النهى عن التخلف المفهوم من الكلام، ﴿بأنهم﴾؛ أى: بسبب أنهم ﴿لا يُصيبهم﴾ فى سفرهم ﴿ظمأ﴾ من حر العطش، أو عطش، ﴿ولا نَصَبٌ﴾؛ تعب، ﴿ولا مَخمَصةٌ﴾؛ مجاعة، ﴿فى سبيل الله﴾، ﴿ولا يطئون﴾ يدوسون بأرجلهم أو بدوابهم ﴿مَوْطِئًا﴾؛ مكاناً ﴿يغيظ الكفار﴾ أى: يغيظهم ذلك الوطء، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾؛ كالقتل، والأسر، والنصب، وكل ما ينكبهم، ﴿إلا كُتب لهم به عملٌ صالحٌ﴾، أى: إلا استوجبوا به ثواباً جزيلاً. وذلك مما يوجب النهوض إلى الغزو معه ﷺ؛ فإن ﴿الله لا يُضيع أجرَ المحسنين﴾ على إحسانهم. وهوتعليل لقوله: ﴿إلا كتب لهم..﴾ الخ.

وفيه تنبيه على أن الجهاد إحسان، أما فى حق الكفار؛ فلأنه سعى فى تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب المُداوى للمجنون، وأما فى حق المؤمنين؛ فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم على الإسلام. قاله البيضاوى.

﴿ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً﴾ فى أمر الجهاد، ولو علاقة سيف، ﴿ولا كبيرةً﴾؛ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه فى جيش العسرة، ﴿ولا يقطعُون وادياً﴾ فى سيرهم، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل، ﴿إلا كُتبَ لهم﴾ ذلك، ولم يضعْ منه شيء، ﴿ليجزيَهم اللهُ﴾ بذلك ﴿أحسنَ ما كانوا يعملون﴾، أى: جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم. قاله البيضاوى.

---

(١) الضِّحّ ـ بالكسر: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض... راجع النهاية ٨٧.
(٢) أى: فكان هو.
(٣) أخرجه بنحوه البيهقى فى الدلائل (باب لحوق أبى ذر وأبى خيثمة برسول الله ﷺ بعد خروجه). وانظر الفتح السماوى (٢/ ٧٠٧ ـ ٧٠٨).

الإشارة: لا ينبغي للفقراء أن يتخلفوا عن أشياخهم إذا سافروا لحج أو غزو أو تذكير أو زيارة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيقعدون في الراحة والدعة؛ وشيخهم في التعب والنصب،؛ لأن مايصيبهم من مشاق السفر زيادة في ترقيهم ومعرفتهم، وتقوية لمعانيهم، إلى غير ذلك من فوائد السفر، فهو في حق السائرين أمر مؤكد، فكلما سار البدن في عالم الشهادة سار القلب في عالم الغيب، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

ولما ذَمّ الله تعالى من تخلف عن تبوك، ووسمه بالنفاق، لم يقدر أحد بعد ذلك على التخلف، فخفف عنهم بقوله:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان المؤمنون﴾ يستقيم لهم أن ينفروا ﴿كافةً﴾؛ جميعاً لنحو غزو، أو طلب علم، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإنه يخل، ويوهن للإسلام. قال ابن عباس: هذه الآية في البعوث إلى الغزو والسرايا، أي: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين في السرايا، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله ﷺ بنفسه، ولذلك عاتبهم في الآية المتقدمة على التخلف عنه. فالآية الأولى في الخروج معه ﷺ، وهذه في السرايا التي كان يبعثها، وقيل: هي ناسخة لكل ماورد من الأمر بخروج الجميع، فهي دليل على أن الجهاد فرض كفاية.

﴿فلولا﴾: فهلا ﴿نَفَرَ من كل فرقة﴾؛ جماعة كبيرة، كقبيلة أو بلدة، ﴿طائفة﴾ قليلة منها؛ ﴿ليتفقَّهوا في الدين﴾، أما إذا خرجوا للغزو؛ فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقهون، مع أن مشاق السفر تشحذ الأذهان، وترقق البشرية، فتستفيد الروح حينئذ علوماً لدنية، وأسراراً ربانية، من غير تعلم، وهذا هو العلم الذي يصلح للإنذار.

قال في الإحياء: التفقه: الفقه عن الله؛ بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع، ويحمل على التقوى وملازمتها، وهذا مقتضى الآية. فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذي يحصل به الإنذار، لا الفقه المصطلح عليه. هـ. وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿ولِيُنذِرُوا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾، أي: وليجعلوا غاية سعيهم ومُعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر؛ لأنه أهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. قاله البيضاوي. وقوله: ﴿لعلهم يَحذَرُون﴾، أي: لعلهم يخافون مما حُذِروا منه.

قال البيضاوى: وقد قيل: للآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل فى المتخلفين ما نزل؛ تسابق المؤمنون إلى النفير، وانقطعوا عن التفقه، فأُمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة هو الأصل، والمقصود من البعثة، فيكون الضمير فى ﴿ ليتفقهوا ﴾، و﴿ لينذروا ﴾: للفرق البواقى بعد الطوائف النافرة للغزو، وفى ﴿ رجعوا ﴾: للطوائف النافرة، أى: ولينذروا البواقى من قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصَّلوا أيام غيبتهم من العلوم. هـ. وتقدير الآية على هذا: فلولا نفر من كل فرقةٍ طائفةٌ، وجلس طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم الخارجين للغزو إذا رجعوا إليهم من غزوهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيرى: لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفَقُّه فى الدِّين لتعطَّل عليهم المعاش، ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية. ويقال: المسلمون على مراتب: فعوامُّهم كالرعية للمَلِك؛ وكَتَبَةُ الحديث كخزنة المَلِك. وأهلُ القرآن كحفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال. والفقهاء بمنزلة الوكلاء؛ إذ الفقيه يوقِّع الحكم عن الله. وعلماءُ الأصول كالقُوَّادِ وأمراء الجيوش. والأولياءُ كأركان الباب. وأربابُ القلوب وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه. فشغل قوماً بحفظ أركان الشرع، وآخرين بإمضاء الأحكام، وآخرين بالردِّ على المخالفين، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعل قوماً مُفْرَدين لحضور القلب؛ وهم أصحاب الشهود، ليس لهم شُغْلٌ، يراعون مع الله أنفاسَهم، وهم أصحاب الفراغ، لايستفزُّهم طلبٌ، ولا يهزُّهم أمر، فهم بالله لله، بمحو ما سوى الله، وأمَّا الذين يتفقهون فى الدِّين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله بمَنْ كان يَفْهَمُ عن الله. هـ.

قوله: وأما الذين يتفقهون.. إلخ، الداعون إلى الله على الحقيقة هم العارفون بالله، وهم أصحاب الشهود، الذين وصفهم قبل، وأما الفقهاء فى الدِّين فإنما يدعون إلى أحكام الله، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته؛ فدعواهم ضعيفة التأثير، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدى العارفين.

وقال الورتجبى، فى قوله تعالى: (ليتفقهوا فى الدين): قال المرتعش: السياحة والأسفار على ضربين: سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام فى الخلق يهديهم لأخلاقه وشمائله. وسياحة هى سياحة الحق، وهى رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم، فهذا بركته تعم البلاد والعباد. هـ.

ثم أمر بجهاد الأقرب فالأقرب، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنو قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾، أي: جاهدوا الأقرب فالأقرب بالتدريج، كما أمر رسوله ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل: هم يهود حوالي المدينة، كقريظة والنضير وخيبر، وقيل: الروم بالشام؛ وهو قريب من المدينة، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام، وكانت العراق حينئذ بعيدة. ﴿ وليجدوا فيكم غِلْظَة ﴾؛ شدة وصبراً على قتالهم، ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالإعانة والنصر والحراسة.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ والتذكير أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب على التدريج، قال الرفاعي رضي الله عنه: إذا أراد الله أن يرقي عبداً إلى مقامات الرجال؛ كلفه بأمر نفسه أولاً، فإذا أدب نفسه واستقامت معه، كلفه بأهله؛ فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه بأهل بلده، فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه جهة من البلاد، فإن هو نصحهم، وساسهم، وأصلح سريرته مع الله، كلفه رتبة ما بين السماء والأرض، فإن لله خلقاً لا يعلمهم إلا الله، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل القطب الغوث، وهناك يطلعه الله على بعض غيبه. انتهى.

والغلظة التي تكون في المذكر، إذا رأى منكراً، أو ذُكر له وأراد النهي عنه. وأما في الترغيب والإرشاد فينبغي أن يُغلب جانب اللطافة واللين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المنافقين عند نزول الوحي، لأن السورة جُلها في فضيحتهم، فقال:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ ﴾ من القرآن، ﴿ فمنهم ﴾؛ فمن المنافقين ﴿ من يقولُ ﴾؛ إنكاراً واستهزاءً: ﴿ أيكم زادتْهُ هذه ﴾ السورة ﴿ إيماناً ﴾، كما يزعم أصحاب محمد: أن القرآن يزيدهم إيماناً، فلا زيادة فيه، ولا دليل أنه من عند الله. قال تعالى في الرد عليهم: ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾؛ لتنوير قلوبهم، وصفاء سرائرهم، فتزيدهم إيماناً وعلماً؛ لما فيها من الإنذار والإخبار، ولانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم، ﴿ وهم يستبشرون ﴾ بنزولها؛ لأنها سبب لزيادة إيمانهم، وارتفاع درجاتهم، بخلاف قلوب المنافقين؛ فلظلمانيتها وخوضها لم تزدهم إلا خوضا، كما قال تعالى:

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾؛ كفر وشك، ﴿ فزادتهم رجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ أي: كفراً بها، مضموماً إلى الكفر بغيرها، الذي كان حاصلاً فيهم، ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ أي: وتحكم ذلك في قلوبهم حتى ماتوا عليه.

﴿ أوَ لاَ يَرَوْنَ ﴾ أي: المنافقون، ﴿ أنهم يُفتَنُون ﴾ أي: يُبتلون ويُختبرون بأصناف البليات، كالأمراض والجوع، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات، أو يفضحون بكشف سرائرهم. يفعل ذلك بهم ﴿ في كل عامٍ مرةً أو مرتين، ثم لا يتوبون ﴾؛ لا ينتهون من نفاقهم وكفرهم، ﴿ ولا هم يذَّكَّرون ﴾؛ يعتبرون.

﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ نظر بعضُهم إلى بعضٍ ﴾، يريدون الهرب، يقولون: ﴿ هل يراكم من أحدٍ ﴾ إذا قمتم، فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا. قال البيضاوي: تغامزوا بالعيون، إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً؛ لما فيها من عيوبهم. هـ. قال ابن عطية: المعنى: إذا ما أنزلت سورة فيها فضيحتهم، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يفْهم من تلك النظرة: التقرير: هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أمركم؟ وقوله: ﴿ ثم انصَرَفُوا ﴾، أي: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حينما بيِّن لهم كشف أسرارهم، يقع لهم ـ لا محالة ـ تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لهم، فهم، إذ يصممون على الكفر، ويرتبكون فيه، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال، التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. هـ.

والتحقيق: أن معنى ﴿ انصرفوا ﴾: قاموا عن مجلس النبي ﷺ؛ مخافة الفضيحة. ﴿ صَرَفَ اللهُ قلوبَهم ﴾ عن الإيمان؛ دعاء عليهم، أو إخبار، فيستوجبون ذلك؛ ﴿ بأنهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾؛ لا يفهمون عن الله؛ ولا عن رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبرهم.

الإشارة: زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون على حسب التصفية والتطهير من الأغيار، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له عن أسرار القرآن. قال بعضهم: كنتُ أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، فجاهدت نفسي

وطهرتها، فصرت كأني أسمعه من النبي ﷺ، يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم منَّ عليَّ اللهُ بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له نعيماً لا أصبر عليه. هـ. بلفظه.

مثل هذا يزيده القرآن إيقاناً، ويستبشر قلبه عند سماعه، وأما من كان مريض القلب بحب الدنيا، مَغْمُوراً بالشكوى والأوهام والخواطر، فلا يزيده القرآن إلا بُعداً؛ حيث لم يتدبر فيه، ولم يعمل بمقتضاه، وإذا حضر مثلُ هذا الغافل مجلسَ وعظ أو تذكير أو ذكر لم يطق الجلوس، بل نظر: هل يراه من أحد؟ ثم انصرف، صرف الله قلبه عن حضرة قدسه؛ لعدم فهمه عن ربه. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بذكر محاسن نبيه ـ عليه الصلاة والسلام؛ لما ظهر عليه في هذه السورة من الرحمة والرأفة بالمؤمنين، ومن العفو والصفح عن المعتذرين، فقال:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

قلت: «عزيز»: صفة «لرسول»، و«ما عنتم»: فاعله، و«ما»: مصدرية، أي: عزيز عليه عَنَتُكُمْ، أو عزيز: خبر مقدم، و«ما عنتم» مبتدأ، والعنت: المشقة والتعب.

يقول الحق جل جلاله، مخاطباً العرب، أو قريش، أو جميع بني آدم: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم﴾؛ محمدٌ ﷺ، أي: من قبيلتكم، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته، وتفهمون خطابه، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط: بفتح الفاء، أي من أشرافكم. قال ﷺ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيشاً مِنْ كِنَانَةَ، واصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأنَا مُصْطَفَى من مُصْطَفَيْن».

﴿عزيزٌ عليه﴾، أي: شديد شاق عليه ﴿ما عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودنياكم. ﴿حريصٌ عليكم﴾ أي: على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم، ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾ أي: شفيق بهم، قدّم الأبلغ منهما؛ لأن الرأفة شدة الرحمة؛ للفاصلة. وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.

﴿فإن تولَّوا﴾ عن الإيمان بك، بعد هذه الحالة المشهورة، التي منّ الله عليهم بها، ﴿فقلْ حسبيَ اللهُ﴾ أي: كافيني أمركم، فإن قلت ذلك؛ فإنه يكفيك شأنهم ويعينك عليهم، أو فإن أعرضوا فاستعن بالله وتوكل عليه، فإنه كافيك، ﴿لا إله إلا هو﴾؛ فلا يُتوكل إلا عليه، ﴿عليه توكلتُ﴾؛ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه، ﴿وهو ربُّ العرشِ العظيم﴾، أي: المُلك العظيم، أو الجسم الأعظم المحيط، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.

وعن أُبَي: آخر مانزل هاتان الآيتان. وعن النبي ﷺ: «ما نَزَل القرآنُ عليَّ إلاَّ آيةً آيةً، وحرفاً حرفاً، ما خَلاَ سورة براءة، و(قل هو الله أحد) فإنهما أُنْزِلَتَا عليَّ ومَعَهُما سبْعون ألف صفٍ من الملائكة»[1] قاله البيضاوي. وهاتان الآيتان أيضاً مما وجدتا عند خزيمة بن ثابت، بعد جمع المصحف، فألحقتا في المصحف، بعد تذكر الصحابة لهما وإجماعهم عليهما. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي لورثته -عليه الصلاة والسلام- الداعين إلى الله، أن يتخلقوا بأخلاقه ﷺ، فيشق عليهم ماينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره، وييسرون ولا يعسرون عليهم، ويحرصون على الخير للناس كافة، ويبذلون جهدهم في إيصاله إليهم، ويرحمونهم ويشفقون عليهم، فإن أدبروا عنهم استغنوا بالله وتوكلوا عليه، وفوضوا أمرهم إليه، من غير أسف ولا حزن.

وقال الورتجبي: قوله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هوانا واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم: شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف. قال سهل: شديد عليه غفلتكم عن الله ولو طرفة عين. ثم قال في قوله تعالى: (فإن تولوا فقل حسبي الله...) الآية: سلّى قلبه بإعراضهم عن متابعته، مع كونه حريصاً على هدايتهم، أي: ففي الله كفاية عن كل غير وسِوَى.

قال القشيري: أمَره أن يَدْعُو الخلْقَ إلى التوحيد، ثم قال له: فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا، بنعت التجريد. ويقال: قال له: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾، ثم أمره أن يقول: حسبي الله. قوله تعالى: ﴿حسبك﴾: عين الجمع، وقوله: ﴿حسبي الله﴾ فَرْق، بل هو الجمع، أي: قُلْ، ولكن بنا تقول، فنحن المتولون عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد؛ فأنت بنا، ومَحْوٌ عن غيرنا. هـ

وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

❁ ❁ ❁

(٢) عزاه في الفتح السماوي، للثعلبي، من حديث السيدة عائشة، و قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: (إسناده واه)، وقال الولي العراقي: هو منكر جداً. وقال التفتازاني في حاشيته على الكشاف: هذا يخالف ما ثبت في أحاديث صحيحة وردت في أسباب نزول كثير من الآيات، فإنها نزلت منفردة. وذلك يدل على أن السورة لم تنزل جملة، ولو لم لم تكن إلا آية: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا..» لكفى. هـ. راجع الفتح السماوي (٢/٧١١)



مكية . وهي مائة وتسع آيات. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾[1] مع قوله: ﴿ أكان للناس عَجَبًا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ ، فقد تعجبوا منه مع كونهم يعرفون أمانته وصدقه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

قلت : (عجباً) خبر كان، واسمها: (أن أوحينا)، ومن قرأ بالرفع فالأمر بالعكس، أو كان تامة، واللام متعلقة بعجباً، وهو مصدر للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم، يتوجهون نحوه بإنكارهم واستهزائهم.

قال في المغني: المصدر الذي ليس في تقدير حرف الموصول وصلته لايمنع التقديم عليه، على أن السعد قال في المطوّل: إن معمول المصدر إذا كان ظرفًا أو شبهه، الأظهر أنه جائز التقديم، قال تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾[2]، ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة ﴾[3] ومثل هذا كثير في الكلام، وليس كل ما أول بشيء حكمُه حكم ما أول به، مع أن الظرف مما يكفيه رائحة الفعل؛ لأن له شأنًا ليس لغيره؛ لتنزله من الشيء منزلة نفسه؛ لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه، ولهذا اتسع في الظروف ما لم يتسع في غيرها. هـ.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المجتبى المختار ﴿ تلك ﴾ الآيات التي تنزل عليك هي ﴿ آياتُ الكتاب الحكيم ﴾ ، الذي اشتمل على الحكم الباهرة والعبر الظاهرة، أو المحكم الذي لم ينسخ منه شيء بكتاب آخر بعده، أو كلام حكيم. ﴿ أكانَ للناس ﴾ أي: كفار قريش وغيرهم ﴿ عَجَبًا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ ولم يكن من عظمائهم؟ والاستفهام للإنكار، والرد على من استبعد النبوة، أو تعجب من أن يبعث الله رجلاً من وسط الناس.

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات.
(٣) من الآية ٢ من سورة النور.

قيل : كانوا يقولون: العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب. وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة.

هذا .. وأنه ـ عليه الصلاةوالسلام ـ لم يكن يقْصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه، إلا في المال، وخفةُ الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك ـ أي: خفافًا من المال ـ وقيل: تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً، كما سبق في سورة الأنعام. قاله البيضاوي.

ثم فسّر الوحي المذكور فقال: ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أي: أوحينا إليه بأن أنذر الناس أي: خوفهم من غضب ربهم، ﴿ وبشّرِ الذين آمنوا ﴾، عمم الإنذار، إذ ليس من أحد إلا وفيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به، قاله البيضاوي.

أي: بشر المؤمنين بأنّ ﴿ لهم قَدَمَ صدْقٍ عند ربهم ﴾ أي: سابقة ومنزلة رفيعة. سميت قَدَمًا لأن السبق يكون بها، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعْطى باليد، وأضيفت إلى الصدق لتحققها وللتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. قال ابن جـزي: أي: عمل صالح قدموه، وقال ابن عباس: السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ. هـ. وقال ابن عطية: والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجل صدقٍ ورجل سوْءٍ. هـ.

﴿ قال الكافرون إنَّ هذا ﴾ الكتاب، أو ما جاء به الرسول، ﴿ لسحر(١) مبين ﴾ أي: بيِّن ظاهر، وقرأ ابن كثير والكوفيون: «لساحر»، على أن الإشارة إلى الرسول، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة، معجزة لهم عن المعارضة، وكلامهم هذا يحتمل أن يكون تفسيراً لما ذكره قبلُ من تعجبهم، أو يكون مستأنفاً.

الإشارة: تعجبُ الناس من أهل الخصوصية سُنّة ماضية، فكما خفي عن أعين الكفار سر النبوة، خفي عن أعين الخفافيش سر الخصوصية، فلا يطلع عليها إلا من سبق له قدم صدق عند ربه، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية؛ فلم يدل عليها إلا من أراد أن يوصله إلى مشاهدة عظمة الربوبية.

قال في لطائف المنن: فأولياء اللّه أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم، وسمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإنّ الله تعالى معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟، وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي «لساحر» بالألف وكسر الحاء. وقرأ الباقون «لسحر» بغير ألف، إشارة إلى الوحي. انظر الإتحاف (٢/١٠٤).

ثم فسر عظمة ربوبيته، فقال:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إن ربكم ﴾ الذى يستحق العبادة وحده هو ﴿ الله ﴾ الذى أظهر الكائنات من العدم إلى الوجود، وبه رد على من أنكر النبوة، كأنه يقول: إنما أدعوكم إلى عبادة الله الذى خلق الأشياء، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟ ثم فصّل ذلك فقال: ﴿ الذى خلق السماوات والأرض ﴾ التى هى أصول الكائنات، ﴿ فى ﴾ مقدار ﴿ ستة أيام ﴾ من أيام الدنيا، ولم يكن حينئذ ليل ولا نهار، والجمهور: أن ابتداء الخلق يوم الأحد. وفى حديث مسلم: يوم السبت، وأنه خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق به، كاستواء الملك على سريره ليدبر أمر مملكته، ولذلك رتب عليه: ﴿ يُدبّر الأمرَ ﴾، وقد تقدم الكلام عليه فى الأعراف(١).

قال البيضاوى: يُدبر أمر الكائنات على ما تقتضيه حكمته، وسبقت به كلمته، بتحريك أفلاكها، وتهيىء أسبابها، والتدبير: النظر فى عواقب الأمور لتجيء محمودة العاقبة. هـ.

﴿ ما من شفيع ﴾ تُقبل شفاعته ﴿ إلا من بعد إذْنِه ﴾ له في الشفاعة، وهو تقرير لعظمته وعزة جلاله، ورد على من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء. ﴿ ذلكم الله ﴾ أى: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية هو ﴿ الله ربكم ﴾ لا غير؛ إذ لايشاركه أحد فى شيء من ذلك، ﴿ فاعبدوه ﴾ : أفردوه بالعبادة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى: تتفكرون أدنى تفكر، فتعرفون أنه المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه من الأصنام.

﴿ إليه مرجعكم ﴾ بالبعث ﴿ جميعاً ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، ويعاقبكم على شرككم، ﴿ وعد الله حقاً ﴾ : مصدر مؤكد لنفسه؛ لأن قوله: ﴿ إليه مرجعكم ﴾ وعدٌ من الله. ﴿ إنه يبدأ الخلق ﴾ بإظهاره فى الدنيا ﴿ ثم يُعيده ﴾ بعد إهلاكه في الآخرة. ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، تعليل للعودة؛ وهي البعثة،

---

(١) راجع تفسير الآية: ٥٤ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ بالقسط ﴾ أى: بالعدل؛ بأن يعدل فى جزائهم، فلا يظلم مثقال ذرة، أو بعدلهم وقيامهم على العمل فى أمورهم، أو بإيمانهم؛ لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم. وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم ﴾ بسبب كفرهم وشركهم ـ الذى هو الظلم العظيم ـ لكنه غيّر النظم للمبالغة فى استحقاقهم العذاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، وأما العقاب فإنما هو واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فإنه إنما ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

والآية كالدليل لقوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾ ، فإنه لمّا كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم، كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ: «أنه يبدأ» بالفتح، أى: لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً بما نصب «وعد الله». قاله البيضاوى.

الإشارة: تقدم بعض إشارة هذه الآية فى الأعراف، وقال الورتجبى هنا: جعل العرش مرآت تجلى قدسه ومأوى أرواح أحبابه لقوله: ﴿ ثم استوى . . . ﴾ الآية، ثم قال: ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: «فاعبدوه». وقال القشيرى: «ذلكم الله ربكم» تعريف، وقوله: ﴿ فاعبدوه ﴾ تكليف، فحصولُ التعريف بتحقيقه، والوصولُ إلى ماوَرَدَ به التكليف بتوفيقه. هـ. وقال فى قوله: ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾: الرجوع يقتضى ابتداء، والأرواح قبل حصولها فى الأشباح كان لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحِبّيه وذويه، وأنشدوا:

أيا قادماً من سَفْرةِ الهَجْرِ مَرْحَبَا أنَا ذاكَ لا أنْساكَ مَا هبّت الصّبا. هـ.

وفى الإحياء: كل من نسى الله أنساه ـ لا محالة ـ نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلى أُفق الملأ الأعلى، وخان فى الأمانة التى أودعها له تعالى، وأنعم بها عليه، وكان كافراً لنعمته، ومتعرضاً لنقمته؛ فإن البهيمة تتخلص بالموت، وأما هذا فعنده أمانة سترجعُ ـ لا محالة ـ إلى مُودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إما مظلمة مُنكسة، وإما زاهرة مشرقة، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة؛ إذ المرجع ومصير الكل إليه، إلا أنها ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليين، إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(١) فبيّن أنهم عند ربهم منكسون منحوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله تعالى فيمن حرَمَهُ توفيقه، ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال والنزول فى منازل الجُهال. هـ.

(١) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

قلت: ظاهر كلامه: أن الروح لاترجع إلى وطنها وتتصل بحضرة ربها إلا بعد خراب هذا البدن، والحق أنها ترجع لأصلها، وتتصل بحضرة ربها مع قيام هذا البدن؛ إذا كمل تطهيرها وتمت تصفيتها من بقايا الحس، وانقطع عنها علائق هذا العالم الجسماني، فتتصل حينئذ بالعالم الروحاني، مع قيام العالم الجسماني، كما هو مقرر عند أهل التحقيق، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إيجاد النيرين، فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «ضياء»: مفعول ثان، أي: ذات ضياء، وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء كسياط، والياء منقلبة عن الواو، وفي رواية عن ابن كثير بهمزتين في كل القرآن على القلب، بتقديم اللام على العين، والضمير في «قدره» للشمس والقمر، كقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾[1]، أو للقمر فقط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ أي: ذات ضوء وإشراق أصلي، ﴿ والقمرَ نوراً ﴾ أي: ذا نور عارض، مقتبس من نور الشمس عند مقابلته إياها، ولذلك يزيد نورهُ وينقص، فقد نبه سبحانه بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها، والقمر نوراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، فالنور أعم من الضياء، والضياء أعظم من النور. ﴿ وقدّره منازلَ ﴾ أي: قدر سير كل واحد منهما منازل، أو القمر فقط، وخصصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به. ولذلك علله بقوله: ﴿ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ﴾ أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي في معاملتكم وتصرفاتكم:

﴿ ماخلق اللهُ ذلك ﴾ الذي تقدم من أنواع المخلوقات ﴿ إلا بالحق ﴾ أي: ملتبساً بالحق، مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة، لا عبثاً عارياً عن الحكمة، أوْ ما خلق ذلك إلا ليُعرف فيها، فما نُصبت الكائنات لتراها، بل لترى

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

فيها مولاها. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الحق الذي خلق الله به كل شيء كلمة «كن». قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾[1]. هـ. وهو بعيد هنا.

﴿ نُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يعلمون ﴾[2] فإنهم المنتفعون بالنظر فيها والاعتبار بها.

ثم بيّن وجه الاعتبار فقال: ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ أي: تعاقبهما بالذهاب والمجيء، أو بالزيادة والنقصان، ﴿ وما خلقَ اللهُ في السموات والأرض ﴾ من أنواع الكائنات وضروب المخلوقات، ﴿ لآياتٍ ﴾ دالة على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته، ﴿ لقوم يتقون ﴾ الله، ويخشون العواقب، فإن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر، بخلاف المنهمكين في الغفلة والمعاصي، الذين أشار إليهم بقوله:

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي: لا يتوقعونه، أو: لا يخافون بأسه لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها، ﴿ ورَضُوا بالحياة الدنيا ﴾: قنعوا بها بدلاً من الآخرة لغفلتهم عنها، ﴿ واطمأنوا بها ﴾ أي: سكنوا إليها مقصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، وسكنوا فيها سكون من يظن أنه لا يزعج عنها، ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ المتقدمة الدالة على كمال قدرتنا، ﴿ غافلون ﴾: لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون؛ لانهماكهم في الغفلة والذنوب.

قال البيضاوي: والعطف إما لتغاير الوصفين، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً، والانهماك في الشهوات، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً، وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين: من أنكر البعث ولم يُرد إلاَّ الحياة الدنيا، وبالآخرين من ألهاه حبُّ العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له. هـ.

﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ أي: بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي. قال ابن عطية: وفي هذه اللفظة رد على الجبرية، ونص على تعلق العقاب بالتكسب. هـ

الإشارة: هو الذي جعل شمس العيَان مشرقة في قلوب أهل العرفان، لاغروب لها مدى الأزمان، وجعل قمر توحيد الدليل والبرهان نوراً يهتدي به إلى طريق الوصول إلى العيان، وقدَّر السير به منازل ـ وهي مقامات اليقين ومنازل السائرين ـ ينزلون فيها مقاماً مقاما إلى صريح المعرفة، وهي التوبة والخوف، والرجاء والورع، والزهد والصبر، والشكر والرضى والتسليم والمحبة، والمراقبة والمشاهدة. ما خلق الله ذلك إلا بالحق، ليتوصل به إلى الحق. إن في اختلاف ليل القبض ونهار البسط على قلب المريد لآيات دالة له على السير، لقوم يتقون السّوى، أو شواغل الحس.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بياء الغيب (يفصل). والباقون بنون العظمة (نفصل) انظر الإتحاف (٢/ ١٠٤).

إن الذين لا يرجون الوصول إلينا لقصر همتهم، ورضوا بالحياة الدنيا وشهواتها، واطمأنوا بها ولم يرحلوا عنها، إذ لا يتحقق سير السائرين إلا بمجاهدة تركها والرحيل بالقلب عنها، والذين هم عن آياتنا غافلون؛ لانهماكهم في الهوى والحظوظ، أولئك مأواهم نار القطيعة وغم الحجاب، بما كانوا يكسبون من الاشتغال بالحظوظ والشهوات. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾

قلت: (تجري): جملة استئنافية، أو خبر ثان لإنّ، أو حال من الضمير المنصوب في ﴿يهديهم﴾. و(دعواهم): مبتدأ، و(سبحانك): مقول للخبر ـ أي: قولهم سبحانك. والتحية مأخوذة من تمني الحياة والدعاء بها، يقال: حياه تحية، ويقال للوجه: مُحيا لوقوع التحية عند رؤيته، و(آخر): مبتدأ، و(أن الحمد لله): خبر، وأن مخففة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يَهْديهم ربُّهم﴾ أي: يسددهم ﴿بإيمانهم﴾؛ بسبب إيمانهم إلى الإستقامة والنظر، أوْ إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أوْ إلى إدراك الحقائق العرفانية، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ عَمِلَ بما علِم أورثه الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»، أو لما يشتهونه في الجنة، ﴿تجرى من تحتهم الأنهارُ﴾ الأربعة، ﴿في جنات النعيم﴾، ﴿دعْواهم فيها﴾ أي: دعاؤهم فيها: ﴿سبحانك اللهم﴾ أي: اللهم إنا نسبحك تسْبيحاً. ورُوي: أن هذه الكلمة هي ثمر أهل الجنة، فإذا اشتهى أحدهم شيئاً قال: سبحانك اللهم، فينزل بين يديه. رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة.

﴿وتحيتُهم فيها سلام﴾ أي: ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم، أوتسليم الله تعالى عليهم فيها سلام، ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي: وخاتمة دعائهم في كل موطن حمده تعالى وشكره. والمعنى: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمته وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال، وقدّسوه عند مشاهدته عن كل تماثيل وخيال، فحيّاهم بسلام من عنده، وعند ما منحهم سلامه وأحلّ عليهم رضوانه، وأدام لهم كرامته وجواره، وأراهم وجهه، حمدوه بما حمد به نفسه، فكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم، وخاتمة دعائهم في كل موطن حمده وشكره على ما مكنهم فيه، من رؤية وجهه الكريم، ودوام النعيم المقيم، وسمى دعاء لأنه يستدعي المزيد من فضله. قاله المحشي.

الإشارة: إن الذين استكملوا الإيمان، وأخلصوا الأعمال، يهديهم ربهم إلى من يوصلهم إلى جنة حضرته، ببركة إيمانهم، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم، في جنات مشاهدة طلعته، والتنعم بأنوار معرفته، فإذا عاينوا ذلك أدهشتهم الأنوار، فبادروا إلى التنزيه والتقديس، فيجيبهم الحق تعالى بإقباله عليهم بأنوار وجهه، وأسرار ذاته، فيحمدونه ويشكرونه على ما أولاهم من سوابغ نعمته، والسكون في جوار حضرته، منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر، آمين.

ولمّا تعجب الكفار من بعث الرسول منهم، وكفروا به، استعجلوا ما خوفهم به من العذاب، فأنزل الله جواباً لهم:

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (استعجالهم): نصب على المصدر، أي: استعجالاً مثل استعجالهم بالخير. **قال البيضاوي:** وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم.هـ. (فَنَذَر): عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية، كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي بل نمهلهم فنذر .. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو يعجلُ اللهُ للناس الشرَّ﴾ حيث يطلبونه، كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١)، ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾(٢) ﴿استعجالهم بالخير﴾؛ كما يعجل الله لهم الخير حين يسألونه ﴿لَقُضِي إليهم أجلُهم﴾ أي: لأميتوا وأهلكوا من ساعتهم، وقرأ ابن عباس ويعقوب: «لقَضَى» بالبناء للفاعل، أي: لقضى الله إليهم أجلهم، ولكن من حلمه تعالى وكرمه يمهلهم إلى تمام أجلهم، ﴿فنذرُ الذين لايرجون لقاءنا﴾ استدراجاً وإمهالاً ﴿في طغيانهم يعمهون﴾: يتحيرون. والعمه: الخبط في الضلال، وهذا التفسير أليق بمناسبة الكلام. وقيل: نزلت في دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده بالشر، أي: لو عجل اللهُ للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعاً، فهو كقوله ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾(٣) ويكون قوله: ﴿فنذر....﴾ الخ استئنافاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من حلمه تعالى وسعة جوده أنه لا يعامل عبده بما يستحقه من العقاب، ولا يعاجله بما يطلبه إن لم يكن فيه سداد وصواب، حُكي أن رجلا قال لبعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ : قل لربي: كم أعصيه وأخالفه ولم يعاقبني، فأوحى الله إلى ذلك النبي: ليعلم أني أنا وأنت أنت . هـ. بل من عظيم كرمه تعالى أنه قد يعامل

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.
(٢) من الآية ٧٧ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

السائرين بعكس ما يستحقونه في جانب المخالفة؛ فقد تهوي بهم أنفسهم إلى مقام الخفض فيرتفعون، وإلى مقام البُعد فيقتربون، وهذا في قوم سبقت لهم العناية، فلم تضرهم الجناية، وحفت بهم الرعاية، فلم تستهوهم الغواية، إذا صدرت منهم المخالفة ندموا وانكسروا. والغالب فيمن كان تحت جناح الأولياء الكبار أن يسلك به هذا المسلك العظيم وما ذلك على الله بعزيز.

وإذا كان الحق تعالى يُعجل الخير ويمهل الشر، كان الواجب على العبد شكره على الدوام، لا الإعراض عنه ونسيانه، كما نبه عليه تعالى بقوله:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قلت : (لجنبه): متعلق بحال محذوفة، أي: مضطجعاً لجنبه، و(كأن) مخففة

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضرُّ ﴾ في بدنه أو ماله أو أحبابه، ﴿ دعانا ﴾ لإزالته مخلصاً فيه، وتضرع إلينا حال كونه مضطجعاً ﴿ لجَنْبه أو قاعداً أو قائماً ﴾، وفائدة الترديد تقسيم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار، ﴿ فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ ﴾ أي: مضى على طريقه واستمر على كفره، ولم يشكر الله على دفعه، أو مرّ عن موقف الدعاء، ولم يرجع إليه. ﴿ كأن لم يَدْعُنَا ﴾ أي: كأنه لم يدعنا ﴿ إلى ﴾ كشف ﴿ ضُرّ مسَّهُ ﴾ قط ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾[1] ﴿ كذلك زُيِّن للمسرفين ﴾ أي: مثل هذا التزيين زين للمسرفين ﴿ ماكانوا يعملون ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن شكر المنعم عند المسرات وذهاب العاهات.

وفي الآية تهديد لمن تشبه بهذه الحالة، بل الواجب على العبد دوام التجائه إلى ربه، والشكر له عند ظهور إجابته وإسدال عافيته.

الإشارة: من حسن الأدب؛ السكون تحت مجاري الأقدار والتسليم لأحكام الواحد القهار، «فليس الشأن أن تُرزق الطلب، إنما الشأن أن تُرزق حسن الأدب»، وحسن الأدب: هو الفهم عن الله؛ فإذا شرح صدرك للدعاء، فادع ولا تكثر، فإن المدعو قريب، ليس بغافل فيُنبه، ولا ببعيد فتنادي عليه، فإذا دعوته وأجابك فاشكره، وإن أخرَّ عنك

(١) الآية ٨ من سورة الزمر.

الإجابة فاصبر، فقد ضمن الإجابة فيما يريد، لا فيما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد . والله تعالى أعلم.

ثم هدد من أساء الأدب، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد أهلكنا القرونَ من قبلكم ﴾ يا أهل مكة، ﴿ لَمَّا ظلمُوا ﴾ بالكفر وتكذيب الرسل، ﴿ وجاءتهم رسلُهم بالبينات ﴾ : بالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي: ما استقام لهم أن يؤمنوا، لما سبق لهم من الشقاء ولفساد استعدادهم، أو ما كانوا ليؤمنوا بعد أن هلكوا لفوات محله، ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء، وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم عليه، بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ـ ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ أي: نجزي كل مجرم، أو نجزيهم، ووضع المظْهر موضع المضمر؛ للدلالة على كمال جرمهم، وأنهم أعلام فيه. قاله البيضاوي.

﴿ ثم جعلناكم ﴾ يا أمة محمد ﴿ خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ من بعد إهلاكهم، فقد استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها، استخلاف من يختبر ﴿ لننظُرَ ﴾ أي: لنظهر ما سبق به العلم، فيتبين في الوجود، ﴿ كيف تعملون ﴾ ، أخيراً أم شراً؟ فنعاملكم على مقتضى أعمالكم.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إنما جعلنا خلفا لينظر كيف عملنا، فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية»، وكان أيضا يقول: (قد استخلفتَ يا ابن الخطاب، فانظر كيف تعمل) .

الإشارة: ما هلك من هلك إلا لإخلاله بالشرائع أو بالحقائق، فالشرائع، صيانة للأشباح، والحقائق صيانة للأرواح، فمن قام بالشرائع كما ينبغي صان نفسه من الآفات الدنيوية والأخروية، ومن قام بالحقائق على ماينبغي، صان روحه من الجهل بالله في هذه الدار، وفي تلك الدار، ومن قام بهما معاً صان جسمه وروحه، وكان من المقربين، ومن قام بالشرائع دون الحقائق صان جسمه وترك روحه معذبةً في هذه الدار بالخواطر والوساوس والأوهام، وفي تلك الدار بالبعد والمقام مع العوام. ومن قام بالحقائق دون الشرائع فإن كان دعوى عُذب جسمه وروحه لزندقته، وإن كان حقاً عذب جسمه هنا بالقتل، كما فُعل بالحلاج، والتحق بالمقربين في تلك الدار.

ويقال لأهل كل عصر: ولقد أهلكنا القرون من قبلكم بالبُعد وغم الحجاب، لما ظلموا بالوقوف مع الحظوظ والشهوات، وجاءتهم رسلهم التي توصلهم إلى ربهم ـ وهم أولياء زمانهم ـ بالآيات الواضحة على صدقهم، ولو لم يكن إلا هداية الخلق على يديهم ـ فأنكروهم، وما كانوا ليؤمنوا بهم لِمَا سبق لهم من البُعد، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم، لننظر كيف تعملون مع شيوخ التربية في زمانكم، هل تنكرونهم أو تقرونهم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال أهل الإنكار، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم ﴾ يعني كفار قريش ﴿ آياتُنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ من المشركين ﴿ ائتِ بقرآن غير هذا ﴾ أي: بكتاب آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب، والعقاب بعد الموت، أو ما ذكره من سب آلهتنا، وعيب ديننا، أو اجعل هذا الكلام الذى من قِبَلك على اختيارنا، فأحل ما حرمته، وحرم ما أحللته؛ ليكون أمرنا واحداً وكلمتنا متصلة، ﴿ أو بَدِّله ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى.

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد: ﴿ ما يكون ﴾: ما يصح ﴿ لي أن أبدّله من تلقاء نفسي ﴾: من قِبل نفسي، وإنما اكتفى بالجواب المذكور عن التبديل؛ لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر، قل لهم: ﴿ إنْ ﴾ أي: ما ﴿ أتبعُ إلا مايُوحى إليَّ ﴾، لا أقدر أن أقول شيئاً من عندي. قال البيضاوي: هو تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره في أمر لم يستبد بالتصرف فيه بوجه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات لبعض، ورد لما عرّضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه، ولذلك قيد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿ إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم ﴾ يوم القيامة، وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح. هـ.

﴿ قل لو شاءَ اللهُ ﴾ ﴿ ما ﴾ أرسلني إليكم، ولا ﴿ تلوتُه عليكم، ولا أدراكم ﴾ أي: أعلمكم ﴿ به ﴾ على لساني. وفي قراءة ابن كثير: «ولأدراكم»، بلام التأكيد، أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري.

والمعنى أنه الحق لا شك فيه، لو لم أُرسَل به أنا لأرسل به غيري. وحاصل المعنى: أن الأمر بمشيئة الله لا بمشيئتي، حتى أجعله على نحو ما تشتهون. ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ فقدْ لبثتُ فيكم عُمُراً ﴾ منذ أربعين سنة ﴿ من قبله ﴾ أي: من قبل نزول هذا القرآن، لا أتلوه ولا أعلم منه شيئًا، وفيه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يدرس فيها علماً، ولا يشاهد عالِماً، ولم ينشد قريضاً ـ أي شعراً ـ ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً أعجزت فصاحتُه كل منطيق، وفاق كل منظوم ومنثور، واحتوى على قواعد علْمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، عُلم أنه معلم به من عند الله. قاله البيضاوي.

فكل من له عقل سليم أدرك حقِّيته، ولذلك قرعهم بقوله: ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر، فتعلموا أنه ليس من طوْق البشر، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار.

الإشارة: إذا ظهر أهل التربية الداعون إلى الله بطريق صعبة على النفوس، يُسيرون الناس عليها، كخرق العوائد وتخريب الظواهر والتجريد، قال من لا يرجو الوصول إلى الله ـ لغلبة الهوى عليه: ائتونا بطريق غير هذا لنتبعكم عليه، يكون سهلاً على النفوس، موافقًا لعوائدنا، أو بدلوا هذا بطريق أسهل، وأما هذا الذي أتيتم به، فلا نقدر عليه، وربما رموه بالبدعة، فيقولون لهم: ما يكون لنا أن نبدله من تلقاء أنفسنا، إن نتبع إلا ما سلك عليه أشياخنا وأشياخهم، فما ربوْنا به نُربِّي به من تبعنا، فإن خالفنا طريقهم خفنا من عقاب الله، حيث غششنا من اتبعنا، وقد مكثنا معكم قبل صحبة أشياخنا سنين، فلم تروا علينا شيئاً من ذلك حتى صحبناهم، فدل ذلك على أنه موروث عن أشياخهم وأشياخ أشياخهم، أفلا تعقلون؟.

ثم سجل بالظلم على من كذَب أو كذّب، فقال:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فمن أظلم ﴾ لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ بأن تقوّل على الله ما لم يقل، وهذا بيان لبراءته مما اتهموه به من اختراعه القرآن، وإشارة إلى كذبهم على الله في نسبة الشركاء له

والولد، ﴿ أو كذَّب بآياته ﴾ فكفر بها، فلا أظلم منه ﴿ إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ لا يُفلح المجرمون ﴾ أي: لا يظفرون ببغيتهم، ولاتنجح مساعيهم؛ لاشراكهم بالله. كما قال تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهُم ﴾ من الجمادات التي لا تقدر على ضر ولا نفع، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومُعاقباً حتى تكون عبادته لجلب نفع أو دفع ضر. ﴿ ويقولون هؤلاء ﴾ الأوثان ﴿ شفعاؤنا عند الله ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا، أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد للأشياء، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لايضر ولاينفع. ﴿ قل أتنبِّئون اللهَ ﴾ أتخبرونه ﴿ بما لا يعلم ﴾ وجوده ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ وهو أن له شريكاً فيهما يستحق أن يعبد. وفيه تقريع وتهكم بهم.

قال ابن جزي: هو رد عليهم في قولهم بشفاعة الأصنام، والمعنى: أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة لله الذي هو عالم بما في السموات والأرض، وكل ما ليس بمعلوم له فهو عدم محض، ليس بشيء، فقوله: ﴿ أتنبئون الله ﴾ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكم، أي: كيف تعلمون الله بما لا يعلم. هـ. قال ابن عطية: وفي التوقيف على هذا أعظم غلبةٍ لهم، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر أن نخبر الله بما لا يعلم.

ثم نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ أي: تنزيهاً له وتعاظم ﴿ عما يشركون ﴾ أي: إشراكهم، أو عن الشركاء الذين يشركونهم معه. وقرأ الأخوان: بالتاء، أي: عما تشركون أيها الكفار.

الإشارة: في هذه الآية زجر كبير لأهل الدعوى، الذين ادعوا الخصوصية افتراء، ولأهل الإنكار الذين كذبوا من ثبتت خصوصيته، وتسجيل عليهم بالإجرام، وبعدم النجاح والفلاح، وفيها أيضاً: زجر لمن اعتمد على مخلوق في جلب نفع أو دفع ضر، أو اغتر بصحبة ولي يظن أنه يشفع له مع إصراره وعظيم أوزاره. والله تعالى أعلم.

ثم إن اختلاف الناس على الأنبياء وتكذيبهم وإشراكهم؛ إنما هو أمر عارض، حصل لهم باندراس العلم وقلة الإنذار، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان الناسُ إلا أمةً واحدةً ﴾ موحِّدين، على الفطرة الأصلية، أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم، إلى أن قتل قابيل أخاه هابيل، أو بعد الطوفان إلى زمان اختلافهم، أو الأرواح

حيث استخرجهم واستشهدهم، فاتفقوا على الإقرار، ثم اختلفوا في عالم الأشباح باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل فتبعتهم طائفة وكفرت أخرى. ﴿ ولولا كلمة سبقتْ من ربك ﴾ في اللوح المحفوظ، بتأخير الحكم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنه يوم الفصل والجزاء، ﴿ لقُضي بينهم ﴾ عاجلاً ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ بإهلاك المبْطِل وإبقاء المحق.

الإشارة: اختلاف الناس على الأولياء كاختلافهم على الأنبياء، أمر سبق به الحكم الأزلي لا محيد عنه، فمن طلب اتفاقهم عليه فهو جاهل بالله وبطريق أهل الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اقتراحهم الآيات، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقولون ﴾ ؛ يقول الكفار: ﴿ لولا ﴾، هلاّ ﴿ أُنزلَ عليه آيةٌ ﴾ ظاهرة ﴿ من ربه ﴾ تدل على صدقه، يعاينها الناس كلهم، فتلجئهم إلى الإيمان به، وهذا الأمر على هذا الوجه لم يكن لنبي قط، إنما كانت الآية تظهر معرَّضة للنظر، فيهتدي بها قوم، ويكفر بها آخرون، ﴿ فقلْ ﴾ لهم: ﴿ إنما ﴾ علم ﴿ الغيب لله ﴾ مختص به، فلم أُطلَع عليه حتى أعلم وقت نزولها، ولعله علم ما في نزولها من الضرر لكم فصرفها عنكم، ﴿ فانتظروا ﴾ نزول ما اقترحتموه، ﴿ إني معكم من المنتظرين ﴾ لذلك، وهذا وعد قد صدقه الله بنصرته ـ عليه الصلاة السلام ـ وأخذهم ببدر وغيره، أو من المنتظرين لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

الإشارة: مازالت العامة تطلب من مشايخ التربية الكرامات، فجوابهم ما قال تعالى لنبيه ﷺ: (قل إنما الغيب لله) فانتظروا ما يظهر على أيديهم من الهداية والإرشاد، وإحياء البلاد والعباد بذكر الله، وهذا أعظم الكرامة، فإن إخراج الناس عن عوائدهم وعن دنياهم خارق للعادة، سيما في هذا الزمان الذي احتوت فيه الدنيا على القلوب، فلا ترى عالماً ولا صالحاً ولا منتسبًا إلا وهو مغروق في بحر ظلماتها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم ذكر جزئيات من الآيات لمن فهم واعتبر، فقال:

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت: (جاءتها): جواب «إذا»، وجملة (دعوا): بدل من «ظنوا» بدل اشتمال؛ لأن دعاءهم من لوازم الظن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا أذقنا الناسَ رحمةً ﴾، كصحة وعافية وخصب ﴿ من بعد ضراء مسَّتْهم ﴾، كمرض أو قحط ﴿ إذا لهم مكرٌ في آياتنا ﴾ بالطعن فيها، والاحتيال في دفعها، فقد قحط أهل مكة حتى أكلوا الجلود والميتة، ثم رحمهم بالغيث، فطعنوا في آياته بالتكذيب، وكادوا رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ قل اللهُ أسرعُ مكراً ﴾ منكم، فقد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم؛ لأنه متيقن واقع لا محالة، وكل آت قريب.

﴿ إنَّ رسلنا ﴾ الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ فتجازيكم عليه. قال البيضاوي: هو تحقيق للانتقام، وتنبيه على أن ما يدبرون في إخفائه لم يَخْفَ على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله. وعن يعقوب: «يمكرون» بالياء ليوافق ما قبله. هـ. **قال ابن جزي:** هذه الآية للكفار، وتتضمن النهي لمن كان كذلك من غيرهم، والمكر هنا: الطعن في آيات الله وترك شكره، ومكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم، سماه مكراً مشاكلة لفعلهم، وتسمية للعقوبة باسم الذنب. هـ.

فنزول الرحمة بعد الشدة آية تدل على كمال قدرته. وقد وَرَدَ أنه لما نزل بهم القحط التجئوا إليه ﷺ وقالوا: يا محمد؛ إنك جئت تأمر بمكارم الأخلاق، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله يغيثنا، فدعا، فنزل عليهم الغيث، فكانت معجزة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ثم ذكر آية أخرى فقال: ﴿ هو الذي يُسيركم ﴾ بقدرته ﴿ في البرِّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك ﴾: السفن، ﴿ وجَرَيْنَ بهم ﴾ بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم، ففيه التفات. ومقتضى القياس: وجرين بكم ﴿ بريحٍ طيبةٍ ﴾: لينة الهبوب، ﴿ وفَرِحُوا بها ﴾ لسهولة السير بها، ﴿ جاءتها ريحٌ عاصفٌ ﴾ أي: شديد الهبوب، ﴿ وجاءهم الموجُ من كل مكانٍ ﴾ من كل جهة لهيجان البحر حينئذ، ﴿ وظنوا أنهم أُحيطَ بهم ﴾ أي: أهلكوا، أو سُدت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو.

قال ابن عطية : ركوب البحر وقت حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه، وكذا لضرورة المعاش بالصيد ويتصرف للتجر، وأما ركوبه لطلب الدنيا والاستكثار فمكروه عند الأكثر. قلت : ما لم يكن لبلد تجرى فيه أحكام الكفار على المسلمين وإلاّ حرم. ثم قال: وأما ركوبه وقت ارتجاجه فممنوع، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجاجه فقد برئتْ منه الذمة» وقال النبي ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً».

وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: لولا هذه الآية، لضربت عنق من يركب البحر. فقال ابن عباس: إني لأعلم كلمات من قالهن عند ركوب البحر وأصابه عطب فعليّ ديته، قيل: وما هي؟ قال: اللهم يا من له السموات خاشعة، والأرضون السبع خاضعة، والجبال الراسية طائعة، أنت خير حفظاً وأنت أرحم الراحمين، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١) صلى الله على محمد النبي المصطفى، وعلى أهل بيته، وأزواجه وذريته، وعلى جميع النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢). قال بعض الفضلاء: جربته فصح. هـ.

ثم قال تعالى في وصف الكفار عند إحاطة البحر بهم: ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك؛ لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، قائلين: ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ الشدة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾، ﴿فلما أنجاهم﴾ إجابة لدعائهم ﴿إذا هم يبغون في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿بغير الحق﴾ أي: سارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي والفساد في الأرض بغير الحق، واحترز بقوله: ﴿بغير الحق﴾ عن تخريب المسلمين ديار الكفرة، وإحراق زروعهم، وقلع أشجارهم، فإنها إفساد بحق. قاله البيضاوي. قلت: وفي كونه بغياً نظر، والأظهر أن قوله: ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لا مفهوم له.

﴿يأيها الناس إنما بَغْيُكم على أنفسكم﴾ فإن وباله عائد عليكم، أو على أبناء جنسكم، وذلك ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ تتمتعون به ساعة، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ في القيامة، ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ بالجزاء عليه.

الإشارة: وإذا أذقنا الناس حلاوة المعرفة والعلم، بعد ضرر الجهل والغفلة، إذا لهم مكر في آياتنا وهم الأولياء والمشايخ، الذين فتح الله بسببهم عليهم ـ بالطعن عليهم والانتقال عنهم، كما يفعله بعض المريدين، أو جُلُّ طلبة

---

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.
(٣) الآية ٤١ من سورة هود.

العلم، بنسيان مشايخهم ونسيان العهد إليهم، قل الله أسرع مكراً بهم، فيريهم أن الأمداد باقية، تجرى عليهم استدراجاً، ثم يحبس ذلك عنهم فتيبس أشجار معانيهم، وتظلم قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿ هو الذي يُسيركم ﴾ إليه في بر الشريعة، وبحر الحقيقة، فيقع السير بينهما، فإذا كانت الشريعة أقوى نقص له منها وزاد في حقيقته، وإذا قويت حقيقته نقص له منها إلى شريعته، هكذا حتى تعتدلا، فتكمل تربيته، فإذا ركبوا سفن الأفكار وساروا بأرواحهم فى تيار البحار، فخاضوا بأفكارهم بحار التوحيد وأسرار التفريد، وجرت أفكارهم فى عالم الملكوت بريح طيبة ـ وهى ريح السلوك ـ جاءتها ريح عاصف، وهى الواردات الإلهية، تأتى من حضرة القهار، لا تصادم شيئاً إلا دمغته، فإذا خافوا على نفوسهم صدمات الجذب أو المحو؛ دَعوا الله مخلصين له الدين، فلما ردهم إلى السلوك اشتغلوا برياضة نفوسهم بالمجاهدة والمكابدة، فيفوا عليها كما بغت عليهم فى أيام غفلتهم. وبالله التوفيق.

ثم حذَّر من زهرة الدنيا، فقال:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما مَثَلُ الحياةِ الدنيا ﴾ فى سرعة تقضيها، وذهاب نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ﴿ كماء أنزلناه من السماءِ فاختلط ﴾ أي: اشتبك ﴿ به نباتُ الأرضِ ﴾ حتى اختلط بعضه ببعض، ﴿ مما يأكلُ الناسُ والأنعام ﴾ من الزرع والبقول والحشيش، ﴿ حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفها ﴾ أي: زينتها وبهجتها بكمال نباتها، ﴿ وازّينتْ ﴾ أي: تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة؛ كعروس أخذت من ألوان الثياب والحلى فتزينت بها.

﴿ وظنَّ أهلُها ﴾ أي: أهل الأرض ﴿ أنهم قادرُون عليها ﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها، ﴿ أتاها أمرُنا ﴾ أي: بعض الجوائح، كالريح والمطر، ﴿ ليلاً أو نهاراً فجعلناها ﴾ أي: زرعها ﴿ حصيداً ﴾: شبيهاً بما

حصد من أصله، ﴿ كأن لم تغنَ ﴾: كأن لم تقم ﴿ بالأمس ﴾، أو كأن لم يغن زرعها، أي: لم ينبت. والمراد: تشبيه الدنيا في سرعة انقضائها بنبات احضرّ ثم صار هشيماً، ﴿ كذلك نُفصِّلُ الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ويتدبرون عواقب الأمور، فيعلمون أن الدنيا سريعة الزوال، وشيكة التغير والانتقال، فيزهدون فيها ويجعلونها مزرعة لدار السلام، التي هي دار البقاء.

وهي التي دعا إليها عباده بقوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ أي: السلامة من الفناء وجميع الآفات، أو دار الله الذي هو السلام. وتخصيص هذا الاسم للتنبيه على ذلك، أو دار يُسلم اللهُ والملائكةُ فيها على من يدخلها، وهي الجنة، ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ توفيقَه ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾، التي توصل إليها وإلى رضوانه فيها، وهو الإسلام والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المُصِرّ على الضلالة لم يرد الله رشده. قاله البيضاوي.

الإشارة: ماذكره الحق تعالى في هذه الآية هو مثال لمن صرف همته إلى الدنيا، وأتعب نفسه في جمعها، فبنى وشيد وزخرف وغرس، فلما أشرف على التمتع بذلك اختطفته المنية، فلا ما كان أمّل أدرك، ولا إلى ما فاته من العمل الصالح رجع.

وفي بعض خطبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «أما رأيتم المؤاخَذينَ على الغرة، المزعَجين بعد الطمأنينة، الذين أقاموا على الشبهات، وجنحوا إلى الشهوات، حتى أتتهم رسلُ ربهم، فلا ما كانوا أمَّلوا أدركوا، ولا ما فاتهم رجعوا، قدموا على ما قدَّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفع الندم وقد جف القلم». وقال أيضا ﷺ: «لا تخدعنكم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عالية، فكأنْ قد كشف القناع، وارتفع الارتياب ولاقى كل امرىء مستقره، وعرف مثواه ومنقلبه».

ورُوي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: شهدت مجلساً من مجالس رسول الله ﷺ، إذ أتاه رجل أبيض، حسن الشعر واللون، فقال: السلام عليك يا رسول الله، قال: وعليك السلام. قال: يارسول الله، ما الدنيا؟ فقال: حلم النائم، وأهلها مجازَون ومعاقبون. قال: يارسول الله، فما الآخرة؟. قال: الأبد، فريق في الجنة، وفريق في السعير، قال: يارسول الله، فما الجنة؟ قال: ترك الدنيا بنعيمها أبداً، ثم قال: فما خير هذه الأمة؟ قال: الذي يعمل بطاعة الله، قال: فكيف يكون الرجل فيها؟ ـ أي في الدنيا ـ قال: متشمراً كطالب قافلة، قال: وكم القرار بها؟ قال: كقدر المتخلف عن القافلة، قال: فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال كغمضة عين. ثم ذهب الرجل فلم يُر، فقال ﷺ: «هذا جبريل، أتاكم يزهدكم في الدنيا».

وقال الورتجبي عند قوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ : الله تعالى يدعو العبادَ من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية، لئلا يفتتنوا بزخرفها وغرورها، وليصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته. هـ.

قال المحشي: قلت : وذلك أن أعلى اللذات التحقق بصفات الربوبية، وهي محبوبة للقلب والروح بالطبع، لما فيه من المناسبة لها. ولذلك قال: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[1] ، ثم المناسب إنما هو بقاء لا فناء فيه، وعز لا ذل فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمال لا نقص فيه، وأمن لا خوف فيه، وهذا كله من أوصاف الربوبية، وحق كل عبد أن يطلب ملكًا عظيما لا آخر له، ولا يكون ذلك في الدنيا لانصرافها وشوبها بآلام مكدّرات، وإنما ذلك في الآخرة، ولكن الشيطان بتلبيسه وحسده يدعو إلى مالا يدوم من العاجلة، متوسلاً بما في الطبع من العجلة، والله يدعو إلى المُلك الحقيقي، وذلك بالزهد في العاجل والراحة منه عاجلاً، ليكون ملكا في الدنيا، وبالقرب من الله والرغبة في التحقق به وبأوصافه ليكون ملكاً في الآخرة.

وفي الطيبي: قيل لابن أدهم: مالنا ندعو فلا نجاب؟ فقال: لأنه دعاكم فلم تُجيبوه، ثم قرأ: ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ ، ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[2] . هـ.

ثم فسر ما دعا إليه، فقال:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ للذين أحسنوا ﴾ فيما بينهم وبين ربهم بتوحيده وعبادته، وفيما بينهم وبين عباده بكف أذاهم وحمل جفاهم، لهم ﴿ الحسنى ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجهه الكريم، أو الحسنى: ما يثيب به على العمل، والزيادة: ما يزيد على ما يستحق العبد تفضلاً كقوله: ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾[3] ، أو الحسنى: مثل حسناتهم، والزيادة: التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة أو أكثر، ﴿ ولا يرهقُ وجوهَهم ﴾ : لا يغشاها ﴿ قَترٌ ﴾ : غبرة فيها سواد تغير الوجه ﴿ ولا ذِلَّةٌ ﴾ أي: هوان، والمعنى لايرهقهم ما يرهق أهل النار، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من خزي وسوء حال، ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ : دائمون، لا زوال لهم عنها، ولا انقراض لنعيمها، بخلاف الدنيا وزخارفها فقد تقدم مثالها .

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.
(٢) الآية ٢٦ من سورة الشورى.
(٣) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

الإشارة: للذين أحسنوا بالانقطاع إلى الله والزهد فيما سواه، الحسنى، وهى المعرفة، وزيادة، وهى الترقى فى المقامات، والعروج فى سماء المشاهدات، والازدياد من الأسرار والمكاشفات، وترداف المناجاة والمكالمات، ولايغشى وجوههم قتر ولا ذلة، بل وجوههم بنور البقاء ضاحكة مستبشرة، وهم خالدون فى نعيم الفكرة والنظرة.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: (والذين): مبتدأ على حذف مضاف، أى: جزاء الذين كسبوا، و(جزاء): خبر. أو على تقدير «لهم»، أو معطوف على (للذين أحسنوا) على مذهب من يُجوز: فى الدار زيد والحجرةِ عمرو. أو (جزاء): مبتدأ، و(بمثلها): خبر، والجملة حينئذ كبرى. ومن قرأ (قِطَعًا) بفتح الطاء فجمع قطيع، وهو مفعول ثان، و(مظلماً): حال من الليل، ومن قرأ (قِطْعاً) بالسكون فمصدر، و(مظلما) نعت له، أو حال منه أو من الليل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ كالكفر والشرك، وما يتبعهما من المعاصى، جزاؤهم ﴿ سيئة بمثلها ﴾ لا يزاد عليها، فلا تضاعف سيئاتهم، عدلاً منه سبحانه، ﴿ وترهقُهم ذِلةٌ ﴾ أى: هوان عند حشرهم للنار، ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ يعصمهم من عذاب الله وغضبه، ﴿ كأنما أغشيت وجوهُهم قِطَعاً من الليل مظلما ﴾ أى: يحشرون مسودة وجوههم، كأنما أُكسِيَتْ وجوههم قِطَعًا كثيرة من الليل المظلم، أو قِطْعًا مظلماً من الليل، ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قال البيضاوى: هذا مما يحتج به الوعيدية ـ يعنى المعتزلة ـ فى تخليد العصاة. والجواب: أن الآية فى الكفار؛ لاشتمال السيئات على الكفر والشرك، ولأن الذين أحسنوا يتناول الكثير من أهل القبلة، فلا يتناوله قسيمه. هـ.

الإشارة: جزاء المعاصى البُعد والهوان، وتسْويد وجوه القلوب والأبدان، كما أن جزاء الطاعة التقريب والإبرار، وتنوير وجوه القلوب والأسرار والإحسان، وفى ذلك يقول ابن النحوى فى منفرجته:

وَمَعَاصِـي اللهِ سَـماجَتُها تَزْدَانُ لِذِي الخُلُقِ السَّمِجِ[1]

وَلِطَـاعَتِـهِ وَصَبَاحَـتِها أَنْـوارُ صَـبَاحٍ مُنْبَلِجِ

---

(١) سماجتها: من سمج ـ بالضم ـ أى: قبح ـ وتزدان، أى: تتزين وتحسن، والسمج: القبيح.

قيل لبعض الصالحين: ما بال المجتهدين من أحسن الناس خَلْقاً؟ قال: لأنهم خلَوْا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. هـ. نعم، إن صحب المعصيةَ توبةٌ وانكسارٌ، وصحب الطاعة عز واستكبارٌ، انقلبت حقيقتهما، فقد تُقرب المعصية وتبعد الطاعة. وفي الحكم: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» وقال أيضاً: «وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول».

ثم ذكر موطن وعد المحسنين ووعيد المسيئين، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: (مكانكم): مفعول، أي: الزموا مكانكم، و(أنتم) تأكيد للضمير المنتقل إليه، و(شركاؤكم) عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم جميعاً ﴾ يعني فريق الحسنى، وفريق النار، ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾: الزموا ﴿ مكانكم ﴾ من الخزي والهوان، حتى تنظروا ما يُفعل بكم، ﴿ أنتم وشركاؤُكم ﴾ معكم، تمثل حينئذ معهم، ﴿ فزيّلْنا ﴾: فرّقنا ﴿ بينهم ﴾ وقطعنا الوُصل التي كانت بينهم، ﴿ وقال شركاؤهم ﴾، ينطقها الله تعالى تكذيباً لهم فتقول: ﴿ ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾، وإنما عبدتم في الحقيقة أهواءكم؛ لأنها الأمارة لكم بالإشراك. وقيل المراد بالشركاء: الملائكة والمسيح.

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾، فإنه العالم بحقيقة الحال، ﴿ إن كنا ﴾ أي: إنه الأمر والشأن كنا ﴿ عن عبادتكم لغافلين ﴾، لم نأمركم بها ولم نرضها. قال ابن عطية: وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى، بدليل القول لهم: ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾. ودون فرعون، ومن عُبد من الجن، بدليل قوله: ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم. هـ.

﴿ هنالك تبلُوا ﴾: في ذلك المقام تبلوا ﴿ كلُّ نفسٍ ما أسلفتْ ﴾ أي: تختبر ما قدمت من الأعمال خيراً أو شراً؛ فتعاين نفعه وضرره، وقرأ الأخوان: «تتلوا» من التلاوة، أي: تقرأه في صحائف أعمالها، أو من التلو، أي: تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار. والمعنى: تفعل بها فعل المختبر لحالها المعرِّف لسعادتها وشقاوتها،

فتعرف ما أسلفت من أعمالها، ﴿ وردُّوا إلى الله ﴾: إلى جزائه إياهم بما أسلفوا، ﴿ مولاهُمُ الحقّ ﴾ أى متولّى أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مَولى بافترائهم، ﴿ وضلَّ ﴾ أى: ضاع وغاب ﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدّعون أنها آلهة.

الإشارة: من أحب شيئاً كان عبداً له، ومن عبد شيئاً حُشر معه. رُوى: أن الدنيا تبعث على صورة عجوز شمطاء زرقاء، تنادى: أين أولادى وأحبابى؟ ثم تذهب إلى جهنم فيذهبون معها. فمن عبد دنياه وهواه وقف موقف الهوان، ومن أحب مولاه ولم يحب معه شيئاً سواه، وقف موقف العز والتقريب فى مواطن الإحسان. فهناك تفضح السرائر، وتكشف الضمائر، وتظهر مقامات الرجال، ويفتضح من أسر النقص وادعى الكمال فيرتفع المقربون إلى شهود مولاهم الحق، ويبقى المدعون مع حظوظهم فى حجاب الحس والخلق. والله تعالى أعلم.

ثم عرفهم من يستحق العبادة، فقال:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ من يرزقُكُم من السماء ﴾ بإنزال الأمطار، وإنبات الحبوب، فإن الأرزاق تحصُل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما؛ توسعة عليكم، أو من السماء لأهل التوكل، ﴿ و ﴾ من ﴿ الأرض ﴾ لأهل الأسباب. وقل لهم أيضا: ﴿ أمَّن يملك السمع والأبصار ﴾ أى: من يستطيع خلقَهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها، وسرعة انفعالهما من أدنى شىء، أو مَن أمرُهما بيده، إن شاء ذهب بهما؟ وقل لهم أيضا: ﴿ ومن ﴾ يقدر أن ﴿ يُخرج الحىَّ من الميت ويخرجُ الميت من الحىِّ ﴾، فيخرج الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان؟ وهكذا.

وقل لهم أيضا: ﴿ ومن يُدبِّرُ الأمرَ ﴾ أى: ومن يلى تدبير العالم، من عرشه إلى فرشه؟ وهو تعميم بعد تخصيص، ﴿ فسيقولون الله ﴾، لا محيص لهم عن الإقرار بسواه؛ اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك؛ لفرط وضوحه. ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ عقاب الله وغضبه؟ بسبب إشراككم معه ما لا يشاركه فى شىء من ذلك، ﴿ فذلكم الله ربكم الحقُّ ﴾ أى: المتولى لهذه الأمور هو ربكم، الذى يستحق أن تعبدوه، الثابت ربوبيته، لأنه هو

الذى أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم، دون من تعبدونه من الأوثان. ﴿ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال ﴾ أى: ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق - الذى هو عبادة الله - وقع فى الضلال.

قال ابن عطية: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسئلة - التى هى توحيد الله تعالى - وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول التى الحقّ فيها فى طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال تعالى فيها: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[1] . هـ.

﴿ فأنَّى تُصْرَفُون ﴾ عن الحق إلى الضلال.

﴿ كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ أى: كما حق الحق فى الاعتقادات؛ ﴿ كذلك حقتْ ﴾ أى: وجبت وثبتت - ﴿ كلمتُ ربك ﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾، وذلك فى قوم مخصوصين. قال البيضاوى: أى: كما حقت الربوبية لله، أو أن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة الله وحكمه ﴿ على الذين فسقوا ﴾: تمردوا فى كفرهم، وخرجوا عن حد الإصلاح ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾، وهو بدل من الكلمة، أو تعليل لها، والمراد بها العِدَة بالعذاب. وقرأ نافع وابن عامر: «كلمات» بالجمع هنا، وفى آخر السورة، وفى غافر[2] . هـ.

الإشارة: قل من يرزقكم من سماء الأرواح علوم الأسرار والحقائق، ومن أرض النفوس علوم الشرائع والطرائق؟ أمّن يملك السمع والأبصار فيصرفهما إلى سماع الوعظ والتذكار، ونظر التفكر والاعتبار؛ ليلتحق صاحبهما بالمقربين الأبرار؟وقدّم السمع لأنه أنفع لإيصال النفع إلى القلب من البصر. أم من يخرج الحى من الميت، فيخرج العارف من الجاهل، والذاكر من الغافل، أو يخرج القلب الحى من الميت؛ بحيث يحييه بالمعرفة بعد الجهل؟ ومن يدبر الأمر لخواص عباده؟ أى: تدبيراً خاصاً، بحيث يقوم لهم بتدبير شئونهم، حيث لم يدبروا معه. فمن لم يدبر دبر له، فالفاعل لهذه الأمور هو الحق المنفرد بالوجود، فكل ما سواه باطل، كما قال القائل:

أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّه بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ

قال ﷺ « أَصْدَقُ كَلِمَة قَالَهَا الشاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ ... »الخ[3] . فكل من صُرف عن شهود الحق إلى نظر السّوى فهو فى ضلال. قال تعالى ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾، لكن من حقت عليه

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة. (٢) فى قوله تعالى: ﴿وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ الآية /٦.
(٣) راجع إشارة الآية ١٥٠ من سورة البقرة.

كلمة الشقاء لا يؤمن بأهل الفناء والبقــاء، فلا يزال في تعب وشقاء، إذ لا طريق إلى شهود الحق وإفراده بالوجود إلا بصحبة أهل الفناء والبقاء، الموصوفين بالكرم والجود، واعلم أن كل من لم يصل إلى مقام الشهود، فهو ضال عندهم في مذهبهم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر عجز آلهتهم، احتجاجاً عليهم، فقال:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلت: من قرأ (يَهَدّى)[1] بفتح الهاء، فأصله: يهتدي، نقلت حركة التاء إلى الهاء، وأدغمت في الدال. ومن قرأ بكسر الهاء فعلى التقاء الساكنين، حين سكنت التاء لتدغم، ومن كسر الياء فعلى الاتباع، ومن قرأ بالاختلاس فإشارة إلى عروض الحركة، ومن قرأ: «يهْدي» بالسكون، فمعناه يهدى غيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ هل من شركائكم من يبدأُ الخلق ﴾ بإظهاره للوجود ﴿ ثم يُعيده ﴾ بالبعْث. فإن قلت كيف يحتج عليهم بالإعادة، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب: أنها لظهور برهانها وتواتر أخبارها كأنها معلومة عندهم، فلو أنصفوا ونظروا لأقروا بها، ولذلك أُمر الرسول بأن ينوب عليهم في الجواب، فقال: ﴿ قل اللهُ يبدأُ الخلق ثم يُعيده ﴾؛ لأن لجاجهم وجحودهم لا يتركهم يعترفون بها، ولذلك قال لهم: ﴿ فأنى تُؤفكون ﴾: تُصرفون عن سواء السبيل. و﴿ قل ﴾ لهم أيضا: ﴿ هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ بنصب الدلائل، وإرسال الرسل، والتوفيق للنظر والتدبر؟ ﴿ قل اللهُ يهدى للحق ﴾. قال البيضاوي: وهدى كما يعدى بإلى؛ لتضمنه معنى الانتهاء، يعدى باللام للدلالة على منتهى غاية الهداية. انظر تمامه.

﴿ أفمن يَهدى إلى الحق ﴾ وهو الله ﴿ أحقُ أن يُتبع أمَّن لا يهدى ﴾ إلى شيء، فأولى ألا يهدى غيره ﴿ إلا أن يُهدى ﴾؟ أي: إلا أن يهديه غيره، وهي معبوداتهم، كالملائكة والمسيح وعزير، فلا يستطيعون أن يهدوا أنفسهم إلا أن يهديهم الله. وحمل ابن عطية الآية على الأصنام، وقال: معنى قوله: ﴿ أمن لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ هي

---

(١) في قوله تعالى: «أمن لا يهدي». وقد قرأ حفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ أبو بكر بكسر الياء والهاء، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال. وقرأ قالون وأبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال، واختلف في الهاء عنهما.. انظر الإتحاف (٢/١٠٩).

عبارة عن أنها لا تنتقل إلاَّ أن تنقَل. قال: ويحتمل أن يكون ما ذكره الله من تسبيح الجمادات؛ هو اهتداؤه. ويحتمل أن يكون الاستثناء فى اهتدائها إشارة إلى مناكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى فى هذه السورة. هـ. ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أى: أيُّ شيء حصل لعقولكم، فكيف تحكمون بشيء يقتضى العقل بطلانه بأدنى تفكر؟.

الإشارة: فى الآيـة تحريض على رفع الهمة عن السِّوى، إلى من بيده البدء والإعادة، والإرشاد والهداية، إلا من جعل على يديه الإرشاد والهداية، وهم الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء، فالخضوع إليهم خضوع إلى الله على الحقيقة، واتباعهم اتباع لله على الحقيقة، وكل من تبع غيرهم فإنما يتبع الظن والهوى دون الحق، كما أبان ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما يتبع ﴾ أكثر المشركين فى اعتقادهم ﴿ إلا ظنًّا ﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد، والخالق على المخلوق، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر: الجميع، أو من ينتسب منهم إلى تمييز ونظر، ولم يرض بالتقليد الصرف، ﴿ إن الظنَّ لا يغنى من الحق ﴾؛ من علم التحقيق ﴿ شيئا ﴾، أو ﴿ من ﴾ الاعتقاد ﴿ الحق شيئا ﴾ من الإغناء. قال البيضاوى: وفيه دليل على أن تحصيل العلم فى الأُصول واجب، وأن الاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. هـ. وعدم الاكتفاء بالظن إنما هو فى الأصول، وأما الفروع فالظن فيها كاف. ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾، هذا وعيد لهم على اتباعهم الظن، وإعراضهم عن النظر والاستدلال، وعلى عدم اتباعهم من يدلهم على الحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس على قسمين: أهل تصديق وإيمان، وأهل شهود وعيان. فأهل التصديق والإيمان هم عامة أهل اليمين، وهم أكثر المسلمين من العلماء والصالحين، يستندون فى معرفتهم بالله إلى الدليل والبرهان، فتارة يقوى عندهم الدليل فيترقَّون عن اتباع الظن إلى الجزم والتصميم، وتارة يضعف فيرجعون إلى اتباع الظن الراجح.

وأما أهل الشهود والعيان، فقد غابت عنهم الأكوان فى شهود المكوِّن، فصاروا يستدلون بالله على وجود غيره، فلا يجدونه، حتى قال بعضهم: لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده، محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مُذْ عَرَفْتُ الإلَـهَ لَـمْ أَرَ غَـيْرًا ... وَكَذَا الغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

مُذْ تَجَمَّعْتُ مَاخَشِيتُ افْتِرَاقًا ... فَأَنَا اليَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

وقال آخر:

عجبتُ لِمَنْ يبْغِي علَيْكَ شِهادَةً وأَنْتَ الَّذِى أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِد

وقال فى الحكم: «شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا .. فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه!».

ولا مطمع لأحد فى التطهير من الظنون والأوهام إلا بصحبة شيخ كامل عارف بالله، فيلقى إليه نفسه، فلايزال يسير به، حتى يقول له: ها أنت وربك، فحينئذ ترتفع عنه الشكوك والظنون والأوهام، ويبلغ فى مشاهدة الحق إلى عين اليقين وحق اليقين. وأما قول الجنيد رضي الله عنه: (أدركت سبعين صديقا، كلهم يعبدون الله على الظن والوهم، حتى الشيخ أبا يزيد، ولو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه). فقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: معنى كلامه: أنهم ظنوا وتوهموا أنهم بلغوا إلى مقام النهاية، بحيث لا مقام فوق ذلك، ولو أدرك أحدُهم صبياً لنبههم على أن ما فاتهم أكثر مما أدركوا ولا نقادوا له. هـ بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أن اتباع الظن غير كاف، ذكر ما يجب اتباعه وهو القرآن، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: «تصديق»: مصدر، والعامل فيه «كان» محذوفة، أو «أنزل»، و«لا ريب»: خبر ثالث لها، و«من رب العالمين»: خبر آخر، أى: كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل، و«لا ريب»: اعتراض، أو بالفعل المعلل بهما - وهو «نزل» - ويجوز أن يكون حالاً من «الكتاب»، أو من الضمير فى «فيه»، و«أم»: منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام الإنكارى، و«كيف» خبر كان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفترى من دون الله ﴾ أى: ما صح له أن يفترى من الخلق، إذ لا قدرة له على ذلك، ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديقَ الذى بين يديه ﴾ من الكتب، أو: ولكن أنزله تصديقاً

لما سلف قبله من الكتب الإلهية، المشهود على صدقها؛ لأنه مطابق لها، فلا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً عيار عليها، شاهد على صحتها؟ ﴿ وتفصيلَ الكتابِ ﴾ أي: وأنزله تفصيلَ ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع، التي تضمنها الكتاب، ﴿ لا ريبَ فيه ﴾ : لا ينبغي أن يرتاب فيه؛ لما احتفت به من شواهد الحق، وارتياب الكفار فيه كلا ريب. كائناً ﴿ من ربِّ العالمين ﴾، أو نزل منه.

﴿ أمْ ﴾ : بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ محمد من عند نفسه؟ ﴿ قل فأتُوا ﴾ أنتم ﴿ بسورةٍ مثله ﴾ في البلاغة وحسن النظم، وجودة المعنى، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة، ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ : منْ قدرتم عليه من الجن والإنس، يُعينكم على ذلك، ﴿ من دون الله ﴾ فإنه وحده قادر على ذلك، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه مفترىً.

﴿ بل كذّبوا ﴾ أي: سارعوا إلى التكذيب ﴿ بما لم يُحيطُوا بعلمه ﴾ وهو القرآن، بحيث لم يستمعوه، ولم يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، حتى يعلموا أحق هو أم لا، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً، من ذكر البعث والجزاء، وسائر ما يخالف دينهم، ﴿ ولمَّا يأتهم تأويلُهُ ﴾ أي: ولم يقفوا بعدُ على تأويله، ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو لم يأتهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب، حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب، والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجئوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه، ويتصفحوا معناه.

ومعنى التوقع في ﴿ لمَّا ﴾ : أنه قد ظهر بالآخرة إعجازه؛ لمَا كـرر عليهم التحدّي؛ فزادوا أذْهانهـم في معارضته؛ فتضاءلت دونها، أو لمَا شاهدوا وقوع ما أُخبر به طبق ما أُخبر مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. قاله البيضاوي. قال ابن جزي: لمَا يأتهم مافيه من الوعيد لهم، أي: وسيأتيهم يوم القيامة أو قبله. ﴿ كذلك كذّبَ الذين مِن قبلهم ﴾ أنبياءهم، ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين ﴾، فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

﴿ ومنهم ﴾ من المكذبين ﴿ من يؤمن به ﴾ أي: يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو مَن يؤمن به ويتوب عن كفره، ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أولا يؤمن فيما يستقبل فيموت على كفره، ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ : بالمعاندين أو المصرّين.

الإشارة : إذا تطهرت القلوب من الأغيار، وتصفّتْ من الأكدار، أوحي إليها بدقائق العلوم والأسرار، وما كان لتلك العلوم أن تُفترى من دون الله؛ ولكن تكون تصديقاً لما قبلها من علوم القوم وأسرارها، التي يهبها الله لأوليائه، وفيها تفصيل طريق السير، وما أوجبه الله على المريدين من الآداب، وشروط المعاملة، فمن طعن في ذلك فليأت بشيء من ذلك من عند نفسه، ويستعنْ على ذلك بأبناء جنسه، بل كـذّب بمالم يُحط به علمُه، ولم يبلغه عقلُه

وفهمه، فإن كشفت عند الله الحقائق ظهر تأويل ما ينطق به أهل الحقائق، ومن الناس من يؤمن بهذه الأسرار، ومنهم من لا يؤمن بها ويطعن على أهلها، حتى ربما رموهم بالزندقة لأجلها، وربك أعلم بالمفسدين.

ثم أمر نبيه بالبراءة ممن كذبه، فقال:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾

قلت : «من» الموصولة لفظها مفرد، ومعناها واقع على الجمع أو غيره، فإن عاد الضمير عليها جاز فيه مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، فقوله: ﴿ومنهم من يستمعون﴾ راعى جانب المعنى، وقوله: ﴿ومنهم من ينظر﴾ راعى جانب اللفظ، فإن راعى أولاً اللفظ جاز أن يرجع إلى مراعاة المعنى، كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا ﴾[1] وأما إن راعى أولاً المعنى فلا يرجع إلى مراعاة اللفظ، لأن مراعاة المعنى أقوى. انظر الإتقان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كذبوك ﴾؛ كذبك قومك بعد إلزام الحجة لهم ﴿ فقل ﴾ لهم: ﴿ لى عملى ولكم عملكم ﴾ أى: فتبرأ منهم وقل لهم: لى جزاء عملى، ولكم جزاء عملكم، حقا كان أو باطلا، ﴿ أنتم بريئون مما أعملُ وأنا برئٌ مما تعملون ﴾، لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم، ولأجل ما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل: إنه منسوخ بآية السيف.

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ إذا قرأت القرآن، أو علمت الشرائع، ولكن لا يقبلون، كالأصم الذى لا يسمع أصلاً، ﴿ أفأنت تُسمع الصُّمَّ ﴾ تقدر على إسماعهم ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أى: ولو انضم إلى صممهم فَقْدُ عقولهم، فهو أحرى فى عدم الاستماع.

قال البيضاوى: وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام هو فهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا توصف به - أى: بالاستماع - البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل وتدبره. وعقولهم لما كانت مؤوفة - أى: قاصرة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد بعدت أفهامهم عن فهم الحِكَم والمعانى الدقيقة، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق. هـ.

(١) من الآية ١٦ من سورة سيدنا (محمد ﷺ).

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي: يعاينون دلائل نبوتك، ولكن لايصدقون، كأنهم عمي عنها، ﴿ أفأنت تهدي العُمْيَ ﴾ : تقدر على هدايتهم ﴿ ولو كانوا لا يُبصرون ﴾ أي: وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار، والعمدة في ذلك البصيرة، فإذا فقدت فلا اعتبار ولا استبصار، ولذلك يَحدس الأعمى المتبصر، ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري.

﴿ إنَّ الله لا يظلم الناسَ شيئاً ﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ﴿ ولكن الناس أنفسَهم يظلمون ﴾ بإفسادها وإهمالها، وتفويت منافعها عليهم. وفيه دليل على أن للعبد كسباً، وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكلية، كما زعمت الجبرية، ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بمعنى: أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله، لا يظلمهم به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. قاله البيضاوي.

الإشارة: إذا رأى أهل الوعظ والتذكير قوماً غرقوا في بحر الهوى، وأخذتهم شبكة الدنيا واستحوذت عليهم الغفلة، فذكّروهم وبذلوا جهدهم في نصحهم، فلم يقلعوا، فليتبرؤوا منهم، وليقولوا: نحن براءٌ مما تعملون، وأنتم بريئون مما نعمل. ومنهم من يستمع إلى وعظك أيها الواعظ، ولكن لا يتعظ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من يشاهد كرامتك وخصوصيتك ولكن لا يهتدي، أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون؟ ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا﴾، بل في كل زمان يبعث من يذكر ويداوي أمراض القلوب، (ولكن الناس أنفسهم يظلمون)، حيث حادوا عنهم، وأساؤوا الظن بهم، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وقت مجيء تأويل ما كذبوا به، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: ﴿ كأن لم يلبثوا ﴾ : حال، أي: نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. أو صفة ليوم، والعائد محذوف، أي: كأن لم يلبثوا قبله، أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله. وجملة: ﴿يتعارفون﴾: حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كأن لم يلبثوا﴾، أو لتعلق الظرف، والتقدير: يتعارفون يوم نحشرهم. وإما: شرط،

و﴿نرينك﴾ فعله، ﴿أو نتوفينك﴾: عطف عليه. ﴿فإلينا﴾ جواب ﴿نتوفينك﴾، وجواب الأول محذوف، أى: إن أريتك بعض عذابهم فى الدنيا فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ نحشرُهم ﴾ ونجمعهم للحساب، فتقصر عندهم مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ، ﴿ كأن لمْ يلبثوا إلا ساعةً من النهار ﴾ يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا ، أو فى القبور؛ لهول ما يرون، حال كونهم ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أى: يعرف بعضهم بعضاً، كأن لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا فى أول حشرهم، ثم ينقطع التعارف؛ لشدة الأمر عليهم لقوله: ﴿ ولا يسئل حميمٌ حميماً . يُبصرونهم ﴾[1].

﴿ قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاءِ الله ﴾ خسراناً لاربح بعده، ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ إلى طريق الربح أصلاً، أو إلى طريق توصلهم إلى معرفة الله ورضوانه، لترك استعمال ما منحوه من العقل فيما يوصل إلى الإيمان بالله ورسله، فاستكسبوا جهالات أدت بهم إلى الرّدى والعذاب الدائم.

﴿ وإما نُرِيَنَّكَ ﴾ أى: مهما نبصرنك ﴿ بعضَ الذى نعدُهم ﴾ من العذاب فى حياتك، كما أراه يوم بدر، ﴿ أونتوفينَّك ﴾ قبل أن نريك ﴿ فإلينا مَرْجعُهم ﴾ فنريكه فى الآخرة، ﴿ ثم اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون ﴾ ، فيجازيهم عليه حينئذ، فالترتيب إخبارى.

وقال البيضاوى، تبعاً للزمخشرى: ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها، وهو العقاب، ولذلك رتبها على الرجوع بثم، أو مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة. هـ.

﴿ ولكلِّ أمة ﴾ من الأمم الماضية ﴿ رسولٌ ﴾ يبعثه إليهم، يدعوهم إلى الحق، ﴿ فإذا جاء رسولُهم ﴾ بالمعجزات ،فكذبوه، ﴿ قُضِىَ بينهم بالقسط ﴾: بالعدل، فأنجى الرسولَ ومن تبعه، وأهلك المكذبين ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾، حيث أعذر إليهم على ألسنة الرسل. وقيل معناه: لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه. كقوله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[2] فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر أو بالإيمان ﴿ قضى بينهم ﴾ بإنجاء المؤمنين وعقاب الكافرين، كقوله: ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴾[3].

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ الذى تعدنا، استبعاداً له واستهزاء به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيه، وهو خطاب منهم للنبى ﷺ.

---

(١) من الآيتين ١٠ – ١١ من سورة المعارج.
(٢) الآية ٧١ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٦٩ من سورة الزمر.

الإشارة: أهل الغفلة إذا بعثوا أو ماتوا ندموا على ما فوّتوا، وقصر بين أعينهم ماعاشوا في البطالة والغفلة، كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار. فالبدار البدار أيها الغافل إلى التوبة واليقظة، قبل أن تسقط إلى جنبك، فتنفرد رهيناً بذنبك.

فأما أهل اليقظة - وهم العارفون بالله - فقد حصل لهم اللقاء، قبل يوم اللقاء، قد خسر الوصول من كذّب بأهل الوصول، وما كان أبداً ليهتدي إلى الوصول إلا بصحبة أهل الوصول. وإما نرينك أيها العارف بعض الذي نعدهم من الوصول لمن تعلق بك، أو نتوفينك قبل ذلك، فإلينا مرجعهم فنوصلهم بعدك بواسطة أو بغيرها. ولكل أمة رسول يبعثه الله يُذكر الناس ويدعوهم إلى الله، فإذا جاء رسولهم قُضى بينهم بالقسط، فيوصل من تبعه ويبعد من انتكبه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم أجاب عن قولهم متى هذا الوعد، فقال:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٤٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٥٢) ﴾

قلت: قدّم في الأعراف[1] النفع، وهنا الضر؛ لأن السؤال في الأعراف عن مطلق الساعة المشتملة على النفع والضر، وهنا السؤال عن العقاب الذي وعدهم به، بدليل قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه﴾. وقوله: ﴿إلا ما شاء الله﴾ منقطع، ويصح الاتصال. وقوله ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ وضع المظهر موضع المضمر، أي: ماذا تستعجلون منه؟. والجملة الاستفهامية جواب الشرط، كما يقال: إن أتيتك ماذا تعطيني؟، أو محذوف، أي: إن أتاكم ألكم منه منعة أو به طاقة فماذا تستعجلون منه؟

وقال الواحدي: الاستفهام للتهويل والتفظيع، أي: ما أعظم ما تستعجلون منه، كما تقول: أعلمت ماذا تجنى على نفسك؟. ﴿أثم إذا ما وقع﴾، دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة، أي: إن استعجلتم ثم وقع بكم العذاب آمنتم به حين لا ينفعكم.

(١) في قوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً..﴾ الآية ١٨٨.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا أملكُ لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾، فكيف أملك لكم ما تستعجلون من طلب العذاب؟ ﴿إلا ما شاءَ اللهُ﴾: لكن ما شاء الله من ذلك يكون، أو: لا أملك إلا ما ملكني ربي بمشيئته وقدرته، ﴿لكلِّ أمةٍ أجلٌ﴾ مضروب إلى هلاكهم، ﴿إذا جاء أجلُهُمْ فلا يستأخرون﴾ عنه ﴿ساعةً﴾، ﴿ولا﴾ هم ﴿يستقدمون﴾ عنه، فلا تستعجلوا، فسيحين وقتكم وينجز وعدكم، ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابُه﴾ الذي تستعجلون ﴿بياتاً﴾ أي: وقت بيات واشتغال بالنوم، ﴿أو نهاراً﴾ حين تشتغلون بطلب معاشكم، ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾؟ أيّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم، لأنه في معنى أخبروني، و«المجرمون» وضع موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب، لا أن يستعجلوه. قاله البيضاوي.

﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ أي: أثُم تؤمنون إذا وقع العذاب وعاينتموه، حين لا ينفعكم إيمانكم، ﴿آلآن﴾ أي: فيقال لكم الآن آمنتم حين فات وقته، ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ تكذيبًا واستهزاء، ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ بعد هلاكهم: ﴿ذُوقُوا عذابَ الخُلد﴾ أي: العذاب المؤلم الذي تخلدون فيه، ﴿هل تُجزَوْنَ إلا بما كنتم تكسِبُون﴾ من الكفر والمعاصي.

الإشارة: لا يشترط في الولي أن يكاشف بالأمور المغيبة حتى يحترز من المكاره أو يجلب المنافع، إذ لم يكن ذلك للنبي، فكيف يكون للولي؟ بل هو معرض للمقادير الجارية على الناس، يجري عليه مايجري عليهم، نَعمْ.. باطنه محفوظ من السخط أو القنط، يتلقى كل ما يلقى إليه بالرضا والتسليم. فمن شرط ذلك فيه فهو محروم من بركة أولياء زمانه. والله تعالى أعلم.

ثم استخبروا عن العذاب أوالوحي، هل هو حق أم لا؟ كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (أحق): مبتدأ، و الضمير فاعله سد مسد الخبر، و(إى): حرف جواب، بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه، فيقال: إى والله، ولا يقال «إى» وحْده.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ويستنبؤنَكَ ﴾ أى: يستخبرونك ﴿ أحقٌ هُو ﴾ أى: ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة. قيل: قاله حيى بن أخطب لما قدم مكة. ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ إى وربى إنه لحقٌ ﴾ أى: العذاب الموعود لحق، أو ما ادعيته من النبوة لثابت، والأول أرجح لقوله: ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ : بفائتين العذاب الموعود.

﴿ ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ ﴾ بالشرك أو التعدى على الغير ﴿ ما فى الأرض ﴾ من خزائنها وأموالها ﴿ لافتدتْ به ﴾ : لجعلته فدية لها من العذاب، ﴿ وأسرُّوا الندامة ﴾ أى: أخفى رؤساء هؤلاء الكفار الندامة خوف الشماتة والتعيير من سفلتهم، ﴿ لمّا رأوا العذاب ﴾ ، أو جميعهم، لأنهم بهتوا بما عاينوا، مما لم يحتسبوا من فظاعة الأمر وهوله، فلم يقدروا أن ينطقوا، وقيل أظهروها، من قولهم: أسر الشيء: أظهره، ومنه: أسارير الوجه، ﴿ وقُضِى بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون ﴾ ، ليس تكراراً ؛ لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم، والثانى فى جزاء المشركين على شركهم. قاله البيضاوى.

الإشارة: كثير من الناس من يستخبر عن شيخ التربية، أحق وجوده أم لا؟ قل: إي وربى إنه لحق، ولا يخلو منه زمان، إذ القطب والعدد الذى يقوم الوجود بهم لا ينقطع، والقطبانية لاتدرك من غير تربية أصلاً، وما أنتم بفائتين عنه إن طلبتموه بصدق الاضطرار. ولو أن لكل نفس ظلمت نفسها ـ حيث بقيت بعيبها رغم حجابها حتى لقيت مولاها ـ ما فى الأرض جميعا لافتدت به من البعد وغم الحجاب، وفوات القرب من الأحباب، وقد قضى بين الخلائق بالحق، فارتفع المقربون الذين لقوا الله بقلب سليم، وانحط الغافلون، الذين لقوا الله بقلب سقيم، وندموا على ترك صحبة من يخلصهم من عيبهم، فإن كانت لهم رئاسة علم أو صلاح أضمروا ذلك عمن قلدهم، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾.

ولذلك قال:

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبيدا، يتصرف فيهم تصرف المالك فى ملكه، فلا يتطرقه ظلم ولا جور. ويحتمل أن يكون تقريراً لقدرته على الإثابة والعقاب، ﴿ ألاَ إن وعد الله حقٌ ﴾ أى: ما وعد به من الثواب والعقاب، لاخلف فيه، ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لقصور

عقولهم، فلا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ﴿هو يُحيي ويُميت﴾ يحيي من يريد إظهاره للدنيا، ويميت من يريد نقله للآخرة، ﴿وإليه تُرجعون﴾ بالموت والنشور؛ لأن من قدر على الإيجاد والإعدام في الدنيا قدر عليها في العقبى؛ لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. هـ. من البيضاوي.

الإشارة: ما وعد به الحق سبحانه القاصدين إليه من الوصول والمعرفة به حق، إن وفوا بشرطه، وهو صحبة من يوصل إليه، مع الصدق والتعظيم، وإخلاص القصد، هو يحيي قلوباً بمعرفته، ويميت قلوباً بالغفلة والجهل به، وإليه ترجعون، فيظهر العارف من الجاهل والذاكر من الغافل.

فهذه موعظة لمن اتعظ، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (بفضل الله) يتعلق بمحذوف، يفسره ما بعده، أي: ليفرحوا بفضل الله، أو بقوله «فليفرحوا». وكرر قوله: (فبذلك) تأكيداً، والفاء بمعنى الشرط، كأنه قال: إن فرحوا بشيء فبهما فليفرحوا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ يعني القرآن العظيم، ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ من الشك والجهل، ﴿وهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾ هداية في بواطنهم بأنوار التحقيق، ورحمة في ظواهرهم بآداب التشريع.

قال البيضاوي: قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية[1]، الكاشفة عن محاسن الأعمال وقبائحها، والراغبة في المحاسن، والزاجرة عن القبائح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين؛ حيث أنزلت عليهم فنجوا من ظلمات الضلال بنور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان. والتنكير فيها للتعظيم. هـ.

﴿قل بفضل اللهِ وبرحمته﴾ أي: بمطلق الفضل والرحمة، ﴿فبذلك فليفرَحُوا﴾ لا بغيره، أو الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن. وقرأ يعقوب بتاء الخطاب، ورُوي مرفوعاً، ويؤيده قراءة من قرأ: «فافرحوا»، ﴿هو خيرٌ

(١) في الأصول: «العلمية» والمثبت هو الذي في البيضاوي؛ وهو أنسب بالسياق.

مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا، فإنها إلى الزوال، وقرأ ابن عامر: «تجمعون» بالخطاب، على معنى: فبذلك فليفرح المؤمنون، فهو خير مما تجمعون أيها المخاطبون.

الإشارة: قد جعل الله في خواصِّ أوليائه موعظة للناس بما يسمعون منهم من التذكير والإرشاد، وشفاء لما في الصدور، لما يسري منهم إلى القلوب من الإمداد، وما يكتسبه مَنْ صحبهم مِنْ أنوار التحقيق، وهدى إلى صريح العرفان وإشراق أنوار الإحسان، ورحمة بسكون القلوب والطمأنينة بذكر علام الغيوب، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، ففضل الله: أنوار الإسلام والإيمان، ورحمته: أنوار الإحسان، أوفضل الله: أحكام الشريعة، ورحمته: الطريقة والحقيقة، أو فضل الله: حلاوة المعاملة، ورحمته: حلاوة المشاهدة، أو فضل الله: استقامة الظواهر، ورحمته: استقامة البواطن، أو فضل الله: محبته، ورحمته: معرفته. إلى غير ذلك مما لا ينحصر، ولم يقل: فبذلك فلتفرح يا محمد؛ لأن فرحه ﷺ بالله، لا بشيء دونه.

ولما كانت موعظة القرآن العظيم مشتملة على التحليل والتحريم، رد الله تعالى على من افترى خلافه، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: (ما أنزل): نصب بأنزل أو بأرأيتم؛ لأنه بمعنى أخبروني.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل أرأيتم ﴾: أخبروني ﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ بقدرته، وإن سترها بالأسباب العادية، وقوله: «لكم» دل على أن المراد منه: ما حلّ، ولذلك وبّخ على التبعيض بقوله: ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ كالبحائر وأخواتها، ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾(١).

﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ آللهُ أذنَ لكم ﴾ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك عنه، ﴿ أم على الله تفترون ﴾ في نسبة ذلك إليه؟، ﴿ وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذبَ يومَ القيامة ﴾، أيُّ شيء ظنهم يفعل بهم، أيحسبون

---

(١) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

أنه لا يجازيهم عليه؟ وفيه تهديد عظيم لهم، ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾، حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وشرع لهم الأحكام، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ هذه النعمة.

قال ابن عطية: ثنّى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة، ثم استدرك من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره، ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم، والآية بعد هذا تعم جميع فضل الله، وجميع تقصير الخلق في شكره، لا رب غيره. هـ.

الإشارة: الوقوف مع حدود الشريعة، والتمسك بالسنة النبوية قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، والاهتداء بأنوار الطريقة تخلية وتجلية، هو السير إلى أسرار الحقيقة، فمن تخطى شيئاً من ذلك فقد حاد عن طريق السير. وبالله التوفيق.

ثم هددهم بمراقبته عليهم، فقال:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

قلت: الضمير في «منه» يعود على القرآن، وإن لم يتقدم ذكره؛ لدلالة ما بعده عليه، كأنه قال: وما تتلو شيئاً من القرآن، وقيل: يعود على الشأن، والأول أرجح؛ لأن الإضمار قبل الذكر تفخيم للشيء. قاله ابن جزي. قلت: والأحسن أن يعود على الله تعالى؛ لتقدم ذكره قبل، ومن قرأ: «ولا أصغر»، «ولا أكبر» بالفتح فعطف على «مثقال» ممنوع من الصرف، أو مبني مع «لا»، ومن قرأ بالرفع فعطف على موضعه، أو مبتدأ، و«إلا في كتاب»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما تكون في شأن﴾ أي: أمر من الأمور، والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وجميع الخلق، ولذلك قال في آخرها. «ولا تعملون من عمل»، ومعنى الآية: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، ﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ أي: وما تتلو شيئاً من القرآن، أو وما تتلو من الله من قرآن، أي: تأخذه عنه. ﴿ولاتعملون من عمل﴾ أي عمل كان، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم[1]، ولذلك ذكر الحق تعالى، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير، أي: لا تعملون شيئاً

(١) أي: رأس المخاطبين، وهو رأس الوجود، سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾: رقباء مطلعين عليه ظاهراً وباطناً، ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾: حين تخوضون فيه وتندفعون إليه، يقال: أفاض الرجل في الأمر: إذا أخذ فيه بجد واندفع إليه، ومنه: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾(١)، ﴿ وما يَعْزُبُ عن ربك ﴾ أي: ما يغيب عنه ﴿ من مثقال ذرةٍ ﴾: ما يوازن نملة، ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ والمراد: لا يغيب عنه شيء في الوجود بأسره، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما. قال في الكشاف: فإن قلت: لِمَ قدّم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ(٢)؟ فالجواب: أن السماء قدمت في سبأ لأن حقها التقديم، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادةُ على أهل الأرض. هـ. ﴿ ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا في كتاب مبين ﴾ أي: اللوح المحفوظ، أو علمه تعالى المحيط، المُبيِّن للأشياء على ما هي عليه.

الإشارة: هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر. فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص.

فأما مراقبة الظواهر: فهي اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتجُ له الحياء من الله، فيستحيي أن يسئ الأدب معه وهو بين يديه، وفي بعض الأخبار القدسية: «إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم، فالخَلَلُ في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟» .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أفضل الناس إيماناً من يعلم أن الله معه في كل مكان» أو كما قال ﷺ: ورُوي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرّ براعي غنم، فقال له: أعطنا شاة من غنمك، فقال له: ليست لي. فقال له: قل لصاحبها أكلها الذئب، فقال له الراعي: وأين الله؟!. ورُوِيَ أن رجلاً خلا بجارية فراودها على المعصية، وقال لها: لا ترانا إلا الكواكب، فقالت له: وأين مُكوكبُها؟.

وأما مراقبة القلوب فهي: تحقيق العبد أن الله مطلع على قلبه، فيستحي منه أن يجول فيما لا يعني، أو يدبر مالا يفيد ولا يجدي، أو يهم بسوء أدب؛ فإنْ جال في ذلك استغفر وتاب.

وأما مراقبة السرائر فهي: كشف الحجاب عن الروح، حتى ترى الله أقرب إليها من كل شيء، فتستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار، فالتوبة لاتفارق أهل المراقبة مطلقاً، وقد تقدم في أول سورة النساء(٣) بعض الكلام على المراقبة، فمن لم يُحكِم أمر المراقبة، لم يذق أسرار المشاهدة.

---

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة. (٢) في قوله تعالى «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض...» الآية: ٣.
(٣) راجع إشارة الآية الأولى من سورة النساء.

فالمراقبة مفتاح المشاهدة، والمشاهدة مفتاح المعرفة، والمعرفة هي الولاية، التي أشار إليها بقوله:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: «الذين آمنوا»: صفة للأولياء، أو منصوب على المدح، أو مرفوع به على تقدير: «هم»، أو مبتدأ، و«لهم البشرى»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألا إن أولياءَ الله ﴾ الذين يتولونه بالطاعة، وهو يتولاهم بالكرامة ﴿ لا خوفٌ عليهم ﴾ من لحوق مكروه، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ بفوات مأمول.

ثم فسرهم بقوله: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولي ـ أعني الولاية العامة ـ وسيأتي بقية الكلام في الإشارة إن شاء الله، ﴿ لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا ﴾ وهو ما بشّر به المتقين في كتابه، على لسان نبيه ﷺ من الحفظ والعز والكفاية، والنصر في الدنيا وما يثيبهم به في الآخرة، أوْ ما يُريهم من الرؤيا الصالحة يراها أو تُرى له. رُوِي ذلك عن رسول الله ﷺ[1]، أو محبة الناس للرجل الصالح، أو ما يتحفهم به من المكاشفات، أو التوفيق لأنواع الطاعات، أو بشرى الملائكة عند النزع، أو رؤية المقعد قبل خروج الروح، ﴿ وفي الآخرة ﴾ هي الجنة أو تلقّي الملائكة إياهم عند الحشر بالبشرى والكرامة.

﴿ لاتبديلَ لكلماتِ الله ﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا اختلاف لمواعيده، واستدل ابن عمر بالآية على أن القرآن لا يقدر أحد أن يُغيره، ﴿ ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ الإشارة إلى كونهم مبشّرين في الدارين، أو لانتفاء الخوف والحزن عنهم مع ما بُشروا به، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الولاية على قسمين: ولاية عامة، وولاية عرفية خاصة، فالولاية العامة، هي التي ذكرها الحق تعالى، فكل من حقق الإيمان والتقوى؛ فله من الولاية على قدر ما حصّل منها، والولاية الخاصة خاصة بأهل الفناء والبقاء، الجامعين بين الحقيقة والشريعة، بين الجذب والسلوك، مع الزهد التام والمحبة الكاملة، وصحبة من

---

(١) عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قال: «هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلم أوتُرى له»، أخرجه أحمد في المسند (٥/٣١٥)، والترمذي في: (الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات) وابن ماجه في (الرؤيا ح ٣٨٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/٣٤٠) والدارمي في: (الرؤيا).

تحققت ولايته. فقد سئل - عليه الصلاة السلام - عن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال: «الذين نَظَروا إلَى بَاطِن الدنيَا، حينَ نَظَرَ النَّاسُ إلى ظَاهِرِهَا، واهتَمُّوا بآجِلِ الدُّنْيَا حِين اهتَمَّ النَّاسُ بعاجِلِهَا؛ فأَماتُوا منها ما خَشُوا أن يُميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركُهُم، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه، خَلَقَت الدنيا في قلوبهم فما يجددونها وخربت بينهم فما يعمرونها، وماتت في صدورهم فما يُحيُونها، بل يهدمُونها، فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، نظروا إلى أهلها صرْعي قد حلَّت بهم المَثُلات، فما يرون أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يجدون»

وفى حديث آخر: قيل: يارسول الله مَنْ أولياءُ الله؟ قال «المتحابُّون فى الله» . وقال القشيرى ﷺ: علامة الولى ثلاث: شغله بالله، وفراره إلى الله، وهمه الله. هـ

وقال أبو سعيد الخراز ﷺ: إذا أراد الله أن يوالى عبداً من عباده فتح عليه باب ذكره، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب، ثم رُفع إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا عاين ذلك بقى بلا هو، فحينئذ يفنى نفسَه ويبرأ من دعاويها. هـ.

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية، فمَن لا فناء له لا محبة له، ومن لا محبة له لا ولاية له. وإلى ذلك أشار ابن الفارض ﷺ، فى تائيته بقوله:

فلمْ تهوَني ما لم تكنْ فىَّ فانيًا ولم تَفْنَ ما لَمْ تجتَلِ فيكَ صُورتي

وقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا﴾ أي: إيمان الخصوص، ﴿وكانوا يتقون﴾ ما سوى الله؛ فلا يطمئنون إلى شيء سواه، ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا﴾ حلاوة الذوق والوجدان، مع مقام الشهود والعيان، ﴿وفي الآخرة﴾ بإدراك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر ببال من المعارف والأسرار، فمن أدرك هذا فليوطن نفسه على الإنكار.

ولذلك سلّى نبيه، وينسحب على ورثته مما يلقونه من أهل الإنكار، فقال:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: (إن) استئناف، ومن قرأ بالفتح فعلى إسقاط لام العلة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ولا يحزُنْكَ قولُهم﴾ فى جانب الربوبية، أو فى جانبك بالطعن والشتم والتهديد، فالعاقبة لك بالنصر والعز؛ فإن الله يُعز أولياءه، ﴿إنَّ العزَّةَ لله جميعاً﴾ أى: إن الغلبة لله جميعاً،

لا يملك غيرُه منها شيئاً، فهو يقهرهم وينصرك عليهم، ﴿ هو السميع ﴾ لأقوالهم، ﴿العليم﴾ بمكائدهم، فيجازيهم عليها.

الإشارة: الداخل على الله منكور، فكل من رام الخصوصية فليعوِّلْ على الطعن والإنكار، وليتسلَّ بما تسلى به النبي المختار، ولينتظر العز والنصر من الواحد القهار، فإن الأمر كله بيده كما قال:

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: (وما يتبع): يحتمل الاستفهام، فتكون منصوبة بيتبع، أي: أيُّ شيء يتبعون ما يتبعون؟ إلا الظن، ويحتمل النفي، أي: ما يتبع الذين يدعون الشركاء يقيناً؛ إن يتبعون إلا الظن، أو تكون «إن» تأكيداً لها، و«إلا الظن» إبطال لنفي «ما».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألا إن لله مَن في السموات ومن في الأرض ﴾ من الملائكة والثقلين ملكاً وعبيداً، فلا يصلح أحد منهم للألوهية، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات لا تصلح للربوبية، فأحرى الجامدات التي يدعونها آلهة، ﴿ وما يتبعُ الذين يدعُون من دون الله شركاءَ ﴾ أي: أيُّ شيء يتبعون، تحقيراً لهم، أو ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء يقيناً، ﴿ إن يتبعون إلاالظنَّ ﴾ وما سولت لهم أنفسهم، ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾: يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزِرون[1] ويقدرون أنها شركاء تقديراً باطلا، بل الواجب أن يعبدوا من عمت قدرته ونعمه على خلقه، ولذلك قال: ﴿ هو الذي جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه ﴾ راحة لأبدانكم، ﴿ والنهارَ مبصراً ﴾ طلبًا لمعاشكم، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته، ليدلَّهم على تفرده باستحقاق العبادة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سماع تدبر واعتبار.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الله، محبة أو خوفاً أو طمعاً فيه، فقد أشرك مع الله، ولم يتبع إلا الظن والوهم، وفي الحِكَم: «ماقادك شيء مثلُ الوهم، أنت حرٌ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع، فكيف يترك العبد سيده الذي بيده ملك السموات والأرض، ويتعلق بعبيد مثله حقير؟. يترك الملك الكبير ويتعلق بالعبد الصغير.

---

(١) حزر الشيء: قدره تخميناً.

هو الذي جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عن التعلق بالغير، ونهار البسط لتبصروا في انتشاركم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، إن كنتم تسمعون به ومنه، فتنزهونه عما لا يليق به، كما قال تعالى:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

قلت: (عندكم): متعلق بالاستقرار، و(من سلطان) فاعل به؛ لأن المجرور والظرف إذا نفي يرفع الفاعل بالاستقرار، و(متاع): خبر، أي: ذلك متاع... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا ﴾ أي: المشركون ومن تبعهم: ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ أي: تبنّاه كالملائكة وغيرهم، ﴿ سبحانه ﴾ أي: تنزيهاً له عما يقول الظالمون، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصوّر منه الولد، ﴿ هو الغني ﴾ عن كل شيء، مفتقر إليه كلُّ شيء، والولد مسبب عن الحاجة، والحق تعالى ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وعبيداً، فلا يفتقر إلى اتخاذ الولد، وهو الغني بالإطلاق، لا يحتاج إلى من يعينه، وواجب الوجود لا يفتقر إلى من يخلفه في ملكه. ﴿ إن عندكم ﴾ أي: ما عندكم ﴿ من سلطان ﴾ أي: برهان ﴿ بهذا ﴾، بل افتريتموه من عندكم، ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾، وهو توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم، وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لابد فيها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ. قاله البيضاوي.

قلت: والتحقيق أن إيمان المقلِّد صحيح، وأن تقليد الأنبياء والرسل والكتب السماوية صحيح مكتفٍ عن الدليل.

ثم هدد أهل الشرك فقال: ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذبَ ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، ﴿ لا يُفلحون ﴾: لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنة، إنما ذلك الافتراء ﴿ متاع في الدنيا ﴾ يقيمون به رئاستهم في الكفر، فيتمتعون به قليلاً، أو لهم تمتع في الدنيا مدة أعمارهم، ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ بالموت، فيلقون الشقاء المؤبد، ﴿ ثم نُذيقهم العذابَ الشديدَ بما كانوا يكفرون ﴾.

الإشارة: إظهار الكائنات من الغيب إلى الشهادة كلها على حد سواء في الاختراع والافتقار، ليس بعضها أقرب من بعض، وأما قوله: ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الخَلْقُ عِيَالُ اللهِ وأحبُّ الخلْقِ إلى الله أنْفَعُهمْ لعِيَاله» فمعناه أنهم في حفظه وكفالته مفتقرون إليه في إيصال المادة، كافتقار الولد إلى أبيه.

وأما قرب العبد من ربه بطاعته فمعناه قرب محبة ورضا، لا قرب مسافة أو نسب؛ إذ أوصاف العبودية غير مجانسة لأوصاف الربوبية، بل هي بعيدة منها مع شدة قربها، ولذلك قال في الحِكَم: «إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك.. » الخ»، وقد تشرق على العبد أنوار الربوبية فتكسوه حتى يغيب عن حسه ورسمه فلا يرى إلا أنوار ربه، فربما تغلبه الأنوار، فيدّعي الاتحاد أو الحلول، وهو معذور عند أهل الباطن لسكره، وقد رفع التكليف عن السكران، فإذا صحَى وبقِي على دعواه قُتل شرعاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بعض قصص الأنبياء عليهم السلام، تسلية لرسوله ﷺ، فقال:

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: (وشركاءكم): مفعول معه، أو بفعل محذوف أي: اعزموا أمركم وأجمعوا شركاءكم ومن قرأ: «اجمعوا» بهمزة وصل، فشركاءكم: معطوف، و«غمة»: خفيًا، وفي الحديث: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ».

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ أي: خبره مع قومه، قيل: اسمه عبدالغفار، وسمي نوحاً لكثرة نَوْحه من هيبة ربه، ﴿إذ قال لقومه ياقوم إن كان كَبُرَ﴾ أي: عظُم وشقّ ﴿عليكم مقامي﴾ أي: كوني بين أظهركم، وإقامتي بينكم مدة مديدة أُذكركم بالله، أو قيامي عليكم لوعظكم، أو نفسي ووجودي معكم، كقولك: فعلت كذا لمكان فلان، أي: له، أي: لو صعب عليكم وجودي بينكم، ﴿وتذكيري﴾ لكم ﴿بآيات الله﴾ أدعوكم بها إلى الله، ﴿فعلى الله توكلتُ﴾ : وثقت به، فلا أبالي ببعدكم عني وتخويفكم إياي، ﴿فأجمِعوا أمركم﴾ أي: اعزموا عليه، ﴿وشركاءكم﴾ مع شركائكم، أو وأمر شركائكم، أو أجْمِعوا أمركم واتفقوا عليه وأجمِعوا شركاءكم. والمعنى: أنه أمرهم بالعزم والإجماع على قصده، والسعي في إهلاكه، على أي وجه يمكنهم؛ لشدة ثقته بالله وعدم مبالاته بهم.

﴿ثم لا يكن أمرُكم﴾ في قصد إهلاكي ﴿عليكم غُمَّة﴾ : مستوراً خفياً، بل اجعلوه ظاهراً مكشوفاً تتمكنون فيه، لأن من يكتم أمراً ويخفيه لا يقدر أن يفعل ما يريد، أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً، أي: لايلحقكم غم إذا

أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ثم اقْضُوا﴾ أي:أنفذوا قضاءكم ﴿إليَّ﴾ فيما تريدون. وقرأ السري بن يَنْعَم: «أفضوا» بالفاء وقطع الهمزة، أي: انتهوا إليَّ بشرِّكم، ﴿ولا تُنظرون﴾ : ولاتمهلون.

﴿فإن توليتم﴾ : أعرضتم عن تذكيري، ﴿فما سألتكم من أجر﴾ يوجب توليكم وإعراضكم لثقله عليكم. واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني إذا توليتم عني، ﴿إن أجْرِيَ﴾ : ما ثوابي على الدعوة والتذكير ﴿إلا على الله﴾ لا تعلق لي بشيء دونه، آمنتم أو توليتم، ﴿وأُمرتُ أن أكون مِنَ المسلمين﴾ المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره، ولا أرجو غيره.

﴿فكذَّبوه﴾ : فأصروا على تكذيبه بعد إلزامهم الحجة، وتبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمرُّدهم فلا جرَم حقت عليهم كلمة العذاب، فهلكوا بالغرق، ﴿فنجيناه ومن﴾ آمن ﴿معه في الفلك﴾، وكانوا ثمانين، ﴿وجعلناهم خلائفَ﴾ عمروا الأرض بعد الهالكين وخلفوهم فيها، ولم يُعقب منهم إلا أولاد نوح عليه السلام، ﴿وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا﴾ بالطوفان، ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ المنذَرين﴾، تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول، وتسلية له. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين، فلا يبالي بهم ولو أجمعوا على كيده، إذ ليس بيدهم شيء، وإنما أمْرهم بيد الله، ويقول لهم كما قال نوح عليه السلام: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم.) وكما قال هود عليه السلام: ﴿فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم﴾[1]. وفي الحديث: «لَو اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلّهُمْ عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْكَ، جَفّتِ الأقْلامُ وطُويت الصُّحُفُ». وقال أيضا ﷺ: «لا يَكْمُلُ إيمانُ العَبْدِ حَتَّى يَكون النَّاسُ عِنْدَه كالأَباعِد». يعني: لا يهابهم ولا يراقبهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما بين نوح وموسى ـ عليهما السلام ـ من الأنبياء، على سبيل الإجمال، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

(١) الآيتان ٥٥ – ٥٦ من سورة هود.

قلت : (بما كذبوا به) ذكر هنا الرابط، وحذفه فى سورة الأعراف، إشارة إلى جواز الأمرين، وإليه أشار فى الألفية، بقوله:

كذَا الذى جرّ بما الموْصُولَ جرّ ك «مرّ بالّذِى مررْتُ فَهْوَ بر»(١)

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ : من بعد نوح عليه السلام ﴿ رسلاً ﴾ ، كهود وصالح وإبراهيم وغيرهم ﴿ إلى قومهم ﴾ ، كل رسول إلى قومه ، ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ : بالمعجزات الواضحات المثبتة لدعواهم ، ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ ، فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر، ولسبق شقاوتهم، فما آمنوا ﴿ بما كذّبوا به من قبل ﴾ مجيئهم المعجزات، يعنى أنهم طلبوا المعجزات ليؤمنوا، فلما جاءتهم استمروا على تكذيبهم، ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ فلا تنفع فيهم معجزة ولا تذكير، وفيه دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله، مع إثبات كسب العبد، لقيام عالم الحكمة ـ الذى هو رداء لتصرف القدرة ـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما بعث الله فى كل أمة رسولاً يذكرهم ويدعوهم إلى الله، بعث الله فى كل عصر وليّاً عارفًا، يدعو الخلق إلى معرفة الله وتوحيده الخاص، فمن سبقت له العناية آمن به من غير طلب آية، ومن سبق له الخذلان لا يصدق به ولو رأى ألف برهان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعثة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ، مفصلة لما فيها من التأسى والتسلية ، فقال:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثم بعثنا ﴾ ، من بعد هؤلاء الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ﴾ التسع، ﴿ فاستكبروا ﴾ عن اتباعها، ﴿ وكانوا قوماً مجرمين ﴾ معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم، واجترؤوا على ردها، ﴿ فلما جاءهم الحقُ من عندنا ﴾ وعرفوه، وهو بعثة موسى عليه السلام، لتظاهر المعجزات على يديه، القاهرة المزيحة للشك، ﴿ قالوا ﴾ من فرط تمردهم: ﴿ إنّ هذا ﴾ الذى جئت به ﴿ لسحرٌ مبين ﴾ : ظاهر.

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى أتقولون للحقّ لمَّا جاءكم ﴾ إنه سحر، فكيف يقدر السحرة على مثله؟ ﴿ أسحرٌ هذا ﴾ : أيتوهم أحد أن يكون هذا سحراً؟ ﴿ ولا يُفلح الساحرون ﴾ أى: لو كان سحراً لاضمّحلّ، ولم يُبطل سحرَ

---

(١) انظر باب الموصول (حذف العائد).

السحرة، والعالم بأن الساحر لا يُفلح لا يستعمل السحر، فهذا كله من كلام موسى عليه السلام، أو من تمام قولهم؛ إن جعل قوله: «أسحرٌ هذا» محكيًا لقولهم، كأنهم قالوا: أجئتنا بالسحر لتطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون، والأول أرجح.

﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ : لتصرفنا ﴿ عما وجدنا عليه آباءَنا ﴾ من عبادة الأصنام، ﴿ وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض ﴾ : الملك فيها، سمي الملك كبرياء لاتّصاف الملوك بالتكبر، ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ : بمصدّقين.

الإشارة: السحر على قسمين: سحر يسحر القلوب الى حضرة الرحمن، وسحر يسحرها إلى حضرة الشيطان، فالسحر الذي يسحر إلى حضرة الرحمن: هو ما جاءت به الأنبياء والرسل، وقامت به الأولياء بعدهم من الأمور التي تقرب إلى الحضرة، إمّا ما يتعلق بالظواهر، كتبيين الشرائع، وإمّا ما يتعلق بالبواطن، كتبيين الطرائق والأمور التي تُشرق بها أسرارُ الحقائق، وأما السحر الذي يسحر إلى حضرة الشيطان: فكل ما يشغل عن ذكر الرحمن، ولذلك قال عليه السلام: «اتَّقُوا الدُّنْيَا فَإنَّها أسْحَرُ مِنْ هَارُوت ومَارُوت».

ثم ذكر معارضة فرعون، فقال:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: (ما جئتم به) موصولة على من قرأ: «السحر» بلا استفهام، ومن قرأ بالاستفهام فـ«ما» مبتدأ، و(جئتم) خبرها، و(السحر): بدل منه، أو خبر لمحذوف، أي: أهو السحر؟ أو مبتدأ حذف خبره، أي: السحر هو.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال فرعونُ ﴾ لما أراد معارضة موسى عليه السلام: ﴿ ائتوني بكلِّ ساحرٍ ﴾ وفي قراءة الأخوين: «سحّار»، ﴿ عليم ﴾ : حاذق في فنه، ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾، ﴿ فلما ألقوْا ﴾ حبالهم وعصيهم، فانقلبت حيّات في أعين الناس، يركب بعضها بعضاً، ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ماجئتم به السحرُ ﴾ أي: الذي جئتم به هو السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً من معجزات العصا. وقرأ البصري: «آلسحر» أي: أيّ شيء جئتم به السحر هو؟ ﴿ إن الله سيُبْطِلُه ﴾ : سيمحقه، أو سيظهر بطلانه، ﴿ إن الله لا يُصلح عملَ المفسدين ﴾ لا يثبته ولا يديمه، وفيه دليل على أن السحر تمويه لا حقيقة له، ﴿ ويُحقُّ الله الحقَّ بكلماته ﴾ السابقه الأزلية، أو بأوامره وقضاياه، ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك.

الإشارة: الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوذة سحرية، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ، تظهر ثم تبطن، وليس في الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد، فهي ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. وهي أيضاً

أشبه شيء بالظلال، والظلال لا وجود لها من ذاتها، وإنما تابعة لشواخصها، ولذلك قالوا: ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التَّسْيار، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار في بحار معاني الأسرار، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها، فالعارف لا يحجبه عن الله شيء؛ لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية في كل شيء، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من تبع موسى، فقال:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: الضمير في «ملئهم» يعود على فرعون، وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو باعتبار آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومُضَر، أو على الذرية، أو على «قومه»، و(أن يفتنهم) بدل من فرعون، أو مفعول بخوف، وأفرد ضمير الفاعل، فلم يقل: أن يفتنوهم؛ للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسبب فرعون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فما آمنَ لموسى﴾ أي: صدّقه في أول مبعثه ﴿إلا ذريةٌ﴾: إلا شباب وفتيان ﴿من قومه﴾: من بني إسرائيل، آمنوا ﴿على خوفٍ من فرعونَ وملئهم﴾ أي: مع خوف من فرعون وقومه، أو على خوف من فرعون وملأ بني إسرائيل؛ لأن الأكابر من بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان خوفاً من فرعون، وهذا أرجح. خافوا ﴿أن يفتنهم﴾: يعذبهم حتى يردهم عن دينهم، ﴿وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض﴾: لغالب فيها، ﴿وإنه لَمِن المسرفين﴾ في الكفر والعُتُوّ حتى ادعى الربوبية، واسترقّ أسباط الأنبياء.

الإشارة: أهل التصديق بأهل الخصوصية قليل في كل زمان، وإيذاء المنتسبين لهم سنة جارية في كل أوان، فكل زمان له فراعين يؤذون المنتسبين، والعاقبة للمتقين.

ثم أمرهم بالتوكل والثبات، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقال موسى ﴾ لقومه، لمَّا رأى خوفهم من فرعون: ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ﴾ أي: ثِقُوا به واعتمِدُوا عليه، ولا تُبالوا بغيره، ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ مستسلمين لقضاء الله، أو منقادين لأحكامه، قائمين بطاعته بعد تحصيل الإيمان به، وقال لهم ذلك مع علمه بإيمانهم وإسلامهم؛ إنهاضاً لهم وتحريضاً على الصبر، كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا .

﴿ فقالوا على الله توكلنا ﴾ لأنَّا مؤمنون مخلصون، ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنةً ﴾ أي: موضع فتنة ﴿ للقوم الظالمين ﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي: من كيدهم، أو من شؤم مشاهدتهم. وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً لتُجاب دعوته؛ لأنه يتسبب في نجاح أمره، ثم يدعو. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التوكل هو ثمرة الإيمان ونتيجته، فكلما قوي الإيمان واشتدت أركانه قوي التوكل وظهرت أسراره، وكلما ضعف الإيمان ضعف التوكل، فالتوغل في الأسباب نتيجة ضعف الإيمان، والتقلل منها نتيجة صحة التوكل والإيقان، والتوكل: أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك. قال تعالى: ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾[1] والتوكل قد يوجد مع الأسباب، ومع التجريد أنفع، وقد تقدم الكلام عليه في آل عمران[2] . وبالله التوفيق.

ثم أمر بني إسرائيل باتخاذ المساجد، وجعلها في البيوت خوفاً من فرعون، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تَبوءا ﴾ أي: اتخذا ﴿ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ للصلاة والعبادة، وقيل: أراد الإسكندرية، وهي من مصر، ﴿ واجعلوا ﴾ أنتما وقومكما ﴿ بيوتكم ﴾ التي تسكنون فيها ﴿ قبلةً ﴾ : مصلًى ومساجد. رُوي أن فرعون أخافهم، وهدم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة، فأمروا بإخفائها وجعلها في بيوتهم، وتكون متوجهة نحو القبلة ـ يعني مكة ـ وكان موسى يصلي إليها.

فإن قلت: لِمَ خُصَّ موسى وهارون بالخطاب في قوله: ﴿ أن تَبوءا ﴾، ثم خُوطب بها بنو إسرائيل في قوله: ﴿ واجعلوا بيوتكم ﴾؟، فالجواب: أن التبوأ واتخاذ المساجد مما يتعاطاه رؤوس القوم للتشاور، بخلاف جعل البيوت قبلة فمما ينبغي أن يفعله كل أحد.

(١) الآية ٩٦ من سورة النحل.

(٢) عند إشارة قوله تعالى : ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ الآية ١٥٩.

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ في تلك البيوت، أمروا بذلك أول مرة لئلا تظهر عليهم الكفرة ويفتنونهم عن دينهم، ﴿ وبشِّر المؤمنين ﴾ بالنصر والعز في الدنيا، وبالجنة في العقبى.

الإشارة: اتخاذ الأماكن للعبادة والعزلة مطلوب عند القوم، وفي الحِكَم: «ما نفع القلبَ شيءٌ مثلُ عزلةٍ يدخل بها ميدان فكرة»، وأصلهم في ذلك: اعتزاله ﷺ في غار حراء في مبدأ الوحي، فالخلوة للمريد لابد منها في ابتداء أمره، فإذا قوِي نوره ودخل مقام الفناء؛ صلح له حينئذ الخلطة مع الناس، بحيث يكون جسده مع الخلق وقلبه مع الحق، فإن لله رجالاً أشباحهم مع الخلق تسعى، وأرواحهم في الملكوت ترعى. وقال بعضهم: [الجسدُ في الحانوت والقلب في الملكوت]. فإذا رجع إلى البقاء لم يختَر حالاً على حال؛ لأنه مع الله على كل حال، وهذا من أقوياء الرجال. نفعنا الله بهم.

ثم ذكر دعاء موسى على فرعون، فقال:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت: اللام في (ليُضلوا) لام كي، متعلقة بآتيت محذوفة، أو بالمذكورة، ولفظ (ربنا) تكرار، أو تكون لام الأمر، فيكون دعاء عليهم بلفظ الأمر، بما علم من قرائن أحوالهم أنه لا يكون غيره. ﴿فلا يؤمنوا﴾: جواب الدعاء، أو عطف على (ليضلوا).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأهُ زينةً ﴾: ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوها، ﴿ وأموالاً ﴾: أنواعًا من المال ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ استدراجًا، ﴿ ربنا ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ ليَضلوا عن سبيلك ﴾ طغيانًا وبطرًا بها، وصرفها في غير محلها، أو ربنا اجعلهم ضالين عن سبيلك، كقول نوح عليه السلام: ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾[1] لما أيس من إيمانهم، ﴿ ربنا اطمسْ على أموالهم ﴾ أي: أهلكها وامحقها، ﴿ واشدُدْ على قلوبهم ﴾ بالقسوة، واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان، ﴿ فلا يؤمنوا حتى يرَوا العذابَ الأليم ﴾ أي: إن تطمس على أموالهم وتشدد على قلوبهم لا يؤمنوا إلا قهرًا.

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح.

وفي الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم بالمعصية، أو الكفر، وقد فعله سعد بن أبي وقاص على الذى شهد فيه بالباطل، ووجْهُ جوازه مع استلزامه وقوع المعاصي: أنه لم يُعتبر من حيث تأديته إلى المعاصي، ولكن من حيث تأديته إلى نِكاية الظالم وعقوبته، وهذا كما قيل فى تمنى الشهادة أنه مشروع، وإن كان يؤدى إلى قتل الكافر للمسلم، وهو معصية ووهن فى الدين، ولكن الغرض من تمنى الشهادة ثوابُها، لا نفسها.

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ قد أجيبَت دعوتُكما ﴾ يعنى موسى وهارون، وكان يؤمّن على دعاء أخيه، ﴿ فاستقيما ﴾ أى: اثبتا على ما أنتما عليه من الاستقامة والدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا، فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته، روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة، ﴿ ولا تتبعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون ﴾ : طريق الجهلة فى استعجال الأشياء قبل وقتها، أو فى عدم الوثوق والاطمئنان بوعدنا، وقرأ ابن ذكوان: «ولا تتبعان» بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، وهو قليل، قال ابن مالك:

ولَمْ تَقَـعْ خَفِيفَـةٌ بَعْـدَ الأَلِـفْ[1].

ويحتمل أن تكون نون الرفع، و«لا» نافية، أى: والأمر لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون.

الإشارة: دعاء الأولياء على الظالم مشروع بعد الإذن الإلهامى على ما يفهمونه، وقد مكث الشيخ أبو الحسن سنين لم يدع على ابن البراء[2]؛ حتى كان سنة فى عرفة، فقال: الآن أُذن لى فى الدعاء على ابن البراء.... الخ.

فإن لم يكن إذن فالصبر أولى، بل الأولى الدعاء له بالهداية، حتى يأخذ الله بيده؛ وهذا مقام الصديقين، فإذا وقع الدعاء مطلقًا وتأخرت الإجابة فلا يستعجل، فيكون تبع سبيل الذين لا يعلمون، وفى الحكم: «لا يكن تأخُّرُ أمدِ العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فقد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار أنت لنفسك، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد»، وقال أيضا: «لا يشككنَّك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه؛ لئلا يكون ذلك قدْحًا فى بصيرتك، وإخماداً لنور سريرتك». وبالله التوفيق.

ثم أجاب دعاءهما، فقال:

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾

---

(١) عجز البيت: لكن شديدةٌ وكسرها أُلِف.

(٢) هو أبو القاسم ابن البراء، قاضي تونس عند دخول الشيخ الشاذلي إليها. وقد رأى ابنُ البراء إقبالَ الناس على الشاذلي، فسعى فى الكيد له واتهامه عند السلطان بالعمل على قلب نظام الحكم. ولكن الله نجاه من كل هذه المكائد.

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قلت : (فأتبعهم) أي: تبعهم، يقال: تبع وأتبع، لغتان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحرَ ﴾ أي: جوزناهم في البحر يبساً، حتى بلغوا الشط الآخر حافظين لهم. رُوي أن بني إسرائيل حين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب ﷺ قد دخل مصر في نيف وسبعين من ذريته، فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور.

﴿ فأتْبَعهم ﴾ : فأدركهم ﴿ فرعونُ وجنودهُ ﴾ ، رُوي أنهم كانوا ثمانمائة ألف أدهم، سوى ما يناسبها من أواسط الخيل. تبعهم ﴿ بغياً وعَدْواً ﴾ : باغين وعادين عليهم. مستمراً على بغيه ﴿ حتى إذا أدركه الغرقُ قال آمنتُ أنه ﴾ أي: بأنه ﴿ لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ ، فآمن حين لا ينفع الإيمان بمعاينة الموت، ومن قال بصحة إيمانه فغلطٌ؛ كالحاتمي[(١)] فإنه قال في الفصوص: إنه من الناجين، وذلك من جملة هفواته.

قال تعالى لفرعون: ﴿ الآنَ ﴾ أي: أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك، ﴿ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ مدة عمرك ﴿ وكنتَ من المفسدين ﴾ : الضالين المضلين، ﴿ فاليوم نُنجّيك ﴾ أي: ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، ونجعلك طافياً على وجه الماء، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك الناس، فيتحققوا بغرق من معك، حال كونك ﴿ ببدنك ﴾ عارياً عن الروح، أو عرياناً بلا لباس، أو بدرعك، وكانت له دُروع من ذهب يعرف بها، وكان مظاهراً بينها.

﴿ لتكونَ لمنَ خلفَك آيةً ﴾ : لمن وراءك علامة يعرفون أنك من الهالكين، والمراد: بنو اسرائيل؛ إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيّل إليهم أنه لا يهلك، حتى كذبوا موسى ﷺ حين أخبرهم بغرقه، إلى أن عاينوه منطرحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعُوا مآل أمرك، فيكون ذلك عبرة ونكالاً للطغيان، أوْ حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور، بعيد عن مظانّ الربوبية، أو آية تدل على كمال قدرته وإحاطة علمه وحكمته، فإن إفراده بالإلقاء إلى الساحل دون غيره؛ يفيد أنه مقصود لإزاحة الشك في أمره.

﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ ، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، والإخبار بهذا الأخذ الذي وقع في قعر البحر من أعلام النبوة؛ إذ لا يمكن أن يخبر بها إلاّ عَلاّمُ الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يخلو منه مكان. والله تعالى أعلم.

---

(١) أي: الشيخ محيي الدين بن عربي.

الإشارة: كل من دخل بحر التوحيد علماً - وهو فرعون برؤية نفسه -، ولم يصحب من يغيبه عنها غرق في بحر الزندقة والدعوى، فإن رجع إلى الإيمان بعد معاينة الهلاك بسيف الشريعة قيل له: الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين؟ فإن تاب حقيقة رُجي له النجاة، وإن قتل كان آية ونكالاً لمن خلفه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكّر بنى إسرائيل بما أنعم عليهم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: (مُبوّأ): ظرف بمعنى منزل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد بوأنا ﴾ أي: أنزلنا ﴿ بنى إسرائيلَ مُبوأ صِدْقٍ ﴾ أي: منزل صدق، أي: منزلاً صالحاً مرْضياً يصدق فيه ظن قاصده وساكنه، فما ظن فيه من الكمالات وجدها صدقاً وحقاً، والمراد به: الشام وقراها، ﴿ ورزقناهم من الطيباتِ ﴾ من اللذائذ، وكانوا متفقين على دينهم، وعلى ظهور دين الإسلام، ﴿ فما اختلفوا ﴾ في أمر دينهم ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ ، بأن قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، ثم طغوا وعصوا، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته، ﴿ إن ربك يقضى بينهم يومَ القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، فيميز المحقّ من المبْطل بالإنجاء والإهلاك.

الإشارة: قد يمد الله عباده بأنواع النعم، ثم يبعث لهم من يذكرهم بأيام الله، ويعرفهم به، فإذا اختلفوا عليه ظهر الشاكر من غيره، فيغير عليهم تلك النعم، فيوصل إليه أهل التصديق والاستماع والاتباع، ويبعد أهل الإنكار والابتداع. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالسؤال لأهل العلم لمن وقعت له شُبهة، فقال:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإن كنتَ﴾ يا محمد ﴿فى شكٍ مما أنزلنا إليك فاسألِ الذين يقرؤن الكتاب من قَبلكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به: من وقع له شك، فإن الملك إذا أراد أن يُعرض بأحد، خاطب كبير القوم وهو يريد غيره، فهو كقول العامة: الكلام مع السارية وافهمى ياجارية.

وأما النبى ﷺ فهو بعيد من الشك؛ لأنه عين اليقين، وهو الذى علَّم الناس اليقين، ولذلك قال ـ عليه الصلاة السلام ـ لما نزلت: «لا أَشُكُّ ولا أَسأل»(١) والمراد بالذين يقرءون الكتاب: من أسلم منهم، كعبد الله بن سلام وغيره، أو فإن كنت أيها المستمع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان فاسأل... الخ، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها، بالرجوع إلى أهل اليقين إن كانت فى التوحيد، أو إلى أهل العلم إن كانت فى الفروع.

قال ابن عطية: الخواطر التى لا ينجو منها أحد، هى خلاف الشك الذى يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. هـ. أى: فإنها معفوٌ عنها.

ثم قال تعالى: ﴿لقد جاءك الحقُّ من ربك﴾ واضحًا لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة ﴿فلا تكوننَّ من المُمتَرين﴾: الشاكين بالتزلزل على ما أنت عليه من الجزم واليقين، ﴿ولاتكونَنَّ من الذين كذَّبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾، وهذا كله يجرى على ما تقدم من أنه لكل سامع. وقال البيضاوى: هو من باب التهييج والتثبيت، وقطع الأطماع عنه، كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيرا للكافرين﴾(٢) هـ.

الإشارة: لا تنقطع عن العبد الأوهام والشكوك والخواطر، حتى يدخل مقام الإحسان ويكاشف بمقام الشهود والعيان، بالغيبة عن حس الأكوان، بسطوع أنوار المعانى عند غيبة الأوانى، ومن غاب عن حس نفسه غاب عنه حس جميع الأكوان؛ وذلك بصحبة أهل العرفان، الذين سلكوا الطريق حتى أفضوا إلى عين التحقيق، فزاحت عنهم الشكوك والأوهام، وانحلت عنهم الشُبه، وزالت عن قلوبهم الأسقام، واطلعوا على تأويل المتشابه من القرآن، فبصحبة هؤلاء ترتفع الخواطر والشكوك، ويرتفع العبد إلى حضرة ملك الملوك، فجلوس ساعة مع هؤلاء تعدل عبادة سنين. وفى بعض الآثار: (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) قلت: وقد منَّ الله علينا بمعرفتهم وصحبتهم، بعد أن تحققنا بخصوصيتهم، فلله الحمد وله الشكر.

ثم أخبر عمن سبق له الشقاء، فلا ينفع فيه سؤال ولا صحبة، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١١/١٦٨)، عن قتادة وسعيد بن جبير، وزاد المناوى فى الفتح السماوى (٢/٧١٦) عزوه لعبدالرزاق فى تفسيره.
(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين حقتْ﴾ أي: ثبتت ﴿عليهم كلمتُ ربك﴾ بأنهم لا يؤمنون، أو بأنهم مخلدون في العذاب ﴿لا يؤمنون﴾ أبداً؛ إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه، ﴿ولو جاءتهم كلُ آية﴾ وعاينوها فإن السبب الأصلي لإيمانهم هو تعلق إرادته تعالى، وقد أرادَ خلافه، فلا يؤمنوا ﴿حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾ وحينئذ لا ينفعهم، كما لم ينفع فرعون، وبالله التوفيق.

الإشارة: من انتكبه التوفيق لا يصدق بأهل التحقيق، ولو رأى منهم ألف كرامة، فلا تنفك عنه الشكوك والأوهام؛ حتى يفضي إلى شرب كأس الحِمام، فيلقى الله بقلب سقيم، وربما مات على الشك، فيلحقه العذاب الأليم، عائذاً بالله من ذلك.

ثم وبخ من فوت إيمانه عن وقته، فقال:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت: (فلولا) تحضيضية، و(إلا قوم يونس): استثناء منقطع، ويجوز الاتصال؛ فيكون الاستثناء من معنى النفي الذي تضَمَّنَهُ حرف التحضيض؛ لأن المراد بالقُرى: أهلها، كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى الماضية فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، ويؤيده قراءةُ الرفع. و«يونس»: عجمي مثلث النون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلولا كانت﴾ هلاَّ وجُدت ﴿قريةٌ﴾ من القرى التي أهلكناها ﴿آمنتْ﴾ قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر الإيمان إلى نزوله كما فعل فرعون، ﴿فنفَعَها﴾ حينئذ ﴿إيمانُها﴾ بأن يقبله الله منها؛ فيكشف عنها العذاب، ﴿إلا﴾ لكن ﴿قومَ يونسَ لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزى في الحياة الدنيا﴾، فرفعنا عنهم العذاب حين آمنوا بعد أن ظهرت مخايله، فنجوا ﴿ومتعناهم إلى حين﴾: إلى تمام آجالهم.

رُوي أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذبوه وأصروا على تكذيبه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث، فلما دنا الموعد وأغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها، فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والضجيج، وأخلصوا التوبة والإيمان، وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف العذاب عنهم، وكان يوم عاشوراء ويوم الجمعة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يعْتني بتربية إيمانه وتقوية إيقانه قبل فوات إبَّانه، وهو انصرام أجله. وتربيته تكون بصحبة أهل اليقين، فإن لم يعثر بهم فبمطالعة كتبهم، والوقوف على أخبارهم ومناقبهم، مع دوام التفكر والاعتبار،

والإكثار من الطاعة والخضوع والافتقار، والتمسك بالذل والانكسار. قال تعالى في بعض الأخبار: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، وبالله التوفيق.

كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو شاء ربُّك ﴾ هداية الخلق كلهم ﴿ لآمَن من في الأرض كلُّهم جميعاً ﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد، لكن حكمته اقتضت وجود الخلاف، فمن رام اتفاقهم على الإيمان فقد رام المحال، ولذلك قال: ﴿ أفأنت تُكرهُ الناسَ ﴾ بالقهر على ما لم يشأ الله منهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ كلهم.

قال البيضاوي: وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء، وإيلاؤها حرف الاستفهام الإنكاري، وتقديم الضمير على الفعل، للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روى أنه ـ عليه الصلاة السلام ـ كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الاهتمام به، فنزلت، ولذلك قرره بقوله: ﴿ وما كانَ لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ ؛ بمشيئته وألطافه وتوفيقه؛ فلا تجهد نفسك في هداها، فإنه إلى الله تعالى. ﴿ ويجعلُ الرِّجس ﴾ : العذاب أو الخذلان فإنه سببه ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ : لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائل القرآن وأحكامه؛ لِما على قلوبهم من الطبع. ويؤيد الأول قوله ﴿قل انظروا...﴾ الخ. هـ.

الإشارة: في الآية تسلية لأهل التذكير حين يرون الناس لم ينفع فيهم تذكيرهم، وفيها تأديب لمن حرص على هداية الناس كلهم، أو يتمنى أن يكونوا كلهم خصوصاً، فإن هذا خلاف حكمته تعالى. قال تعالى: ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾(١) فالداعون إلى الله لا يكونون حرَصا على الناس أبداً، بل يدعون إلى الله، ويذكِّرون بالله، وينظرون ما يفعل الله اقتداء بنبي الله، بعد أن علمه الله كيف يكون مع عباد الله. والله تعالى أعلم.

ثم أمر باستعمال العقل في التفكر والاعتبار، فقال:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : (ماذا) إن كانت استفهامية علقت (انظروا)عن العمل، وإن كانت موصولة فمفعول به، و(ما تغنى الآيات) : يحتمل الاستفهام فى محل نصب بتغنى، أو النفى. «ثم ننجى» معطوف على محذوف دل عليه: (إلا مثل أيام) أى: فكانت عادتنا معهم أن نهلك المكذبين، ثم ننجى رسلنا ومن آمن معهم. و«كذلك» مصدر معمول لننجى، و(حقاً) اعتراض بينهما، وهو مصدر لفعل محذوف، أى: مثل ذلك الإنجاء ننجى المؤمنين يحق ذلك حقاً، وعلى هذا يوقف على: (الذين آمنوا)، ثم يبتدأ بقوله: (كذلك حقاً..) الخ. وقيل: خبر عن (الذين آمنوا) أى: والذين آمنوا مثلهم فى الإنجاء، وهو ضعيف.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ﴾ للمشركين الذين طلبوا منك الآية: ﴿ انظروا ماذا في السموات والأرضِ ﴾ من الآيات والعِبَر، وعجائب الصنع ليدلكم علي وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، ثم بيّن أن الآيات لا تفيد من سبق عليه الشقاء، فقال: ﴿ وما تغنى الآياتُ والنُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ فى علم الله وحكمه، ثم هددهم بالهلاك فقال: ﴿ هل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أى: مثل وقائعهم ونزول العذاب بهم؛ إذ لا يستحقون غيره، فهو من قولهم: أيام العرب، لوقائعها.

﴿ قل ﴾ لهم :﴿ فانتظروا ﴾ هلاككم ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ لذلك، أو فانتظروا هلاكى إنى معكم من المنتظرين هلاككم، ﴿ ثم نُنَجِّي رُسُلَنا ﴾ أى: عادتنا أن ننجى رسلنا ﴿ والذين آمنوا ﴾ معهم من ذلك الهلاك، ﴿ كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ من أصحاب محمد ﷺ حين نُهلك المجرمين؛ حقًا واجبًا علينا كما هى عادتنا مع من تحبب إلينا بالإيمان والطاعة.

الإشارة : أمر الحق ـ جل جلاله ـ أهل النظر والاستبصار بأن ينظروا ماذا فى السموات والأرض من الأسرار والأنوار، أمرهم أن يشاهدوا أسرار الذات وأنوار الصفات، دون الوقوف مع الأجرام الحسّيات، أمرهم أن ينظروا المعانى خلف رقة الأوانى، لا أن يقفوا مع الأوانى، وإليه أشار ابن الفارض فى خمريته، حيث قال:

وَلُطْفُ الأَوانِى ـ فى الحقيقة ـ تَابِعٌ لِلطْفِ المَعَانى، والمَعَانى بِها تَسْمُو

فالأكوان كلها أوانى حاملة للطف المعانى، وأصل الأوانى معانى، تحسست وتكثفت فمَنْ لطّف الأوانى وذوّبها بفكرته رجعت معانى، واتصلت المعانى بالمعانى، وغابت حينئذ الأوانى، ولا يعرف هذا إلا من صحب أهل المعانى، وهم أهل الفناء والبقاء، ومن لم يصحبهم فحسبه الوقوف مع الأجرام الحسية، ويستعمل فكرة التصديق والإيمان، وهى عبادة التفكر والاعتبار والأولى فكرة أهل الشهود والاستبصار، وفى أمثالهم قال الشاعر:

هُم الرِّجالُ وعَيْنٌ أن يُقالَ لِمَن لَمْ يَتَّصِفْ بِمعَانِى وَصْفِهِم رَجُلُ

وقد ذكر فى الحِكَم هذه الإشارة فقال: «أباح لك أن تنظر ما فى المُكَوَّنات، وما أباح لك أن تَقِفَ مع ذوات المكونات، (قل انظروا ماذا فى السموات) فتح لك باب الأفهام، ولم يقل: انظروا السموات؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام» .

ومن سبق له في العلم القديم الخذلان لا يخرج عن دائرة الأكوان، فلا يؤمن بوجود أهل الشهود والعيان، فما ينتظر مثل هذا إلا ما نزل بأمثاله، من هجوم الحِمام قبل خروجه من سجن الأجرام، فإنه لا ينجو من سجن الأكوان إلا من صحب أهل العرفان، الذين أفضوا إلى فضاء الشهود والعيان، وقليل ما هم.

ثم أمر نبيه بالتبرء من الشرك وأهله، فقال:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قلت: (وأن أقم): عطف على (أن أكون) وإن كان بصيغة الأمر؛ لأنَّ الغرض وصل «أن» بما يتضمن معنى المصدر ليدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك، سواء الخبر منها والطلب، والمعنى: وأمرت بالإيمان والاستقامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد لأهل مكة أو لجميع الناس: ﴿ يا أيها الناسُ إن كنتم في شك من ديني ﴾ ؛ بأن شككتم في صحته حتى عبدتم غير الله، ﴿ فلا أعبدُ الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبدُ اللهَ الذي يتوفاكم ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً، فاعرضوها على العقل السليم، وانظروا فيها بعين الإنصاف، لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم، الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خص التوفي بالذكر لأنه أليق بالتهديد، انظر البيضاوي. ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ بالله وحده، الذي دل عليه العقل ونطق به الوحي.

﴿ وأنْ أقِمْ وجهَكَ للدين حنيفاً ﴾ ؛ مائلاً عن الأديان الفاسدة، أي: أمرت بالاستقامة بذاتي كلها في الدين والتوغل فيه، بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح، أو: أن أقيم وجهي في الصلاة باستقبال القبلة. وقيل لي: ﴿ ولا تكوننَ من المشركين ﴾ بالله في شيء، ﴿ ولا تَدْعُ من دون الله مالا ينفعُكَ ولا يضُرُّكَ ﴾ بنفسه ولابدعوته، ﴿ فإن فعلتَ ﴾ ودعوتَه ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ ، وهو تنفير وتحذير للغير من الميل إليه.

ثم بيَّن من يستحق العبادة والدعاء ، وهو الله تعالى فقال: ﴿وإن يمسسك الله﴾ أي: يصيبك ﴿بضر فلا كاشف له﴾ : لا رافع له ﴿ إلا هُو ﴾ أي: الله، ﴿ وإن يُردك بخيرٍ فلا رادَّ ﴾ : لا دافع ﴿ لفضله ﴾ الذي أرادك به.

قال البيضاوي: ولعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر، مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده. هـ.

﴿ يصيب به ﴾ بذلك الخير ﴿ من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾، فتعرّضوا لخيره بالتضرع والسؤال، ولا يمنعكم من ذلك ما اقترفتم من العصيان والزلل، فإنه غفور رحيم.

الإشارة: ينبغي لمن تمسك بطريق الخصوص، وانقطع بكليته إلى مولاه، أن يقول لمن خالفه في ذلك: إن كنتم في شك من ديني - من طريقي - فلا أعبدُ ما تعبدون من دون الله، من متابعة الهوى والحرص على الدنيا، ولكن أعبدُ الله الذي يتوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأن أقيم وجهي للدين حنيفًا مائلاً عن دينكم ودنياكم، كما قال القائل:

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُم ودِينَهُم   شُغْلاً بِذِكْرِكَ يا دِيني ودُنْيَائِي

وقال آخر:

تَرَكْتُ للنَّاسِ مَا تَهْوَى نُفُوسُهُم   مِنْ حُبِّ دُنْيَا ومِنْ عِزٍّ ومِنْ جَاهِ
كَذَاكَ تَرْكُ المَقَامَاتِ هُنَا وهُنَا   والقَصْدُ غَيْبَتُنَا عمَّا سِوَى اللَّهِ.

﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾، وهو ما سوى الله، فليس بيد أحد ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، قال في الحكم: «لا ترفعنَّ إلى غيره حاجة هو مُوردها عليك، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعا؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه؛ فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟!».

قال بعضهم: من اعتمد على غير الله فهو في غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم، ولا يدوم شيء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، في كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى داود ﷺ: يا داود أما وعزتي وجلالي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي، أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا، أما وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق، دوني، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخطتُ الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك. هـ

وقال بعضهم: قرأت في بعض الكتب: أن الله عز وجل يقول: [وعزتي وجلالي، وجودي وكرمي، وارتفاعي فوق عرشي في علو مكاني، لأقطعن آمال كل مؤمِّل لغيري بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة بين

الناس، ولأنحينّه من قربي، ولأقطعنه من وصلي، أيؤمّل غيري في النوائب، والشدائد بيدي، وأنا الحي، ويُرجى غيري ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتح الأبواب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني، ومن ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجاني بعظيم جرمه فقطعت رجاءه مني؟ ومن ذا الذي قرع بابي فلم أفتح له؟ جعلت آمال خلقي بيني وبينهم متصلة، فقطعت بغيري، وجعلت رجاءهم مدخُوراً لهم عندي؛ فلم يرضوا بحفظي، وملأت سمواتي بمن لايملُّون تسبيحي من ملائكتي، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقَتْه نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحدٌ غيري؟ فما لي أراه بآماله مُعرضاً عني؟ ومالي أراه لاهياً إلى سواي، أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته منه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطية قبل المسألة ثم أُسأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني خلقي؟ أليس الدنيا والآخرة لي؟ أوَليس الفضل والرحمة بيدي؟ أوَليس الجود والكرم لي؟ أوَليس أنا محل الآمال؟ فمن ذا الذي يقطعها دوني؟ وما عسى أن يؤمِّل المؤملون لو قُلت لأهل سمواتي وأهل أرضي: أمِّلوني، ثم أعطيتُ كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع، ما انتقص ذلك من ملكي عضو ذرَّة، وكيف ينقص ملك كامل أنا فيه؟. فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويابؤسَ من عصاني ولم يراقبني، وثَبَ على محارمي ولم يستحِ مني. هـ

ثم أزاح عذرهم بإرسال النذير، فقال:

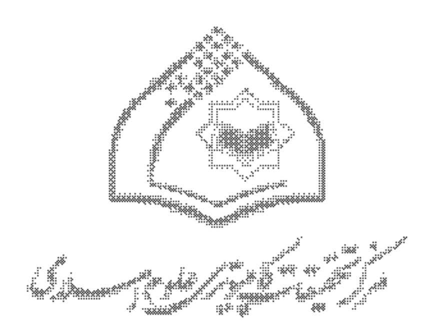
﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ الرسول أو القرآن، ﴿فمن اهتدى﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿فإنما يهتدى لنفسه﴾ ؛ لأن نفعه لها، ﴿ومن ضلَّ فإنما يضل عليها﴾ ؛ لأن وبال الضلال عليها، ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ أي: موكلٌ عليكم، فأقهركم على الإيمان، وإنما أنا بشير ونذير. وهو منسوخ بآية السيف. ﴿واتبع ما يُوحى إليك﴾ بالامتثال والتبليغ، ﴿واصبر حتى يحكم الله﴾ بينك وبين عدوك، بالأمر بالقتال ثم بالنصر والعز، ﴿وهو خير الحاكمين﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

الإشارة : يأيها الناس قد جاءكم من يعرفكم بالحق من ربكم، فمن اهتدى بمعرفته واتباعه نفع نفسه، حيث أخرجها من غم الحجاب، وشفاها من سقم الشك والارتياب، ومن ضل عن معرفته فوباله عليه، حيث ترك نفسه فى أودية الخواطـــر تجول، وحرمها من الله حقيقة الوصول. ويقال للعارف إذا أعرض الخلق عنه، ولم ينفع فيهـم تذكيره ووعظـه: اتبع ما يوحى إليك من وحى الإلهام، فإنه حق فى حق الخصوص؛ إذ لا يتجلى فى قلوبهم إلا ما هو حق، حيث تطهرت من خواطر الخلق. واصبر حتى يحكم الله بإرسال ريح الهداية، وهو خير الحاكمين. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

❁ ❁ ❁





سورة هود

مكيـة إلا قوله تعالى: ﴿ إن الحسنات يُذهبن السيئات ﴾ ؛ نزلت في نبهان التمار بالمدينة، وهي مائة وثلاث وعشرون آية. ووجه المناسبة لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ واتبع ما يُوحى إليك ﴾[1] ؛ وهو كتاب أحكمت آياته.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الر ﴾.

قال في القوت، في تفسير ﴿ الر ﴾ : هذه ثلاثة أسماء: (الله، لطيف، رحيم). وقيل: هي حرف من اسم الرحمن. قلت: أو مختصرة من الرسول؛ خطاباً للنبي ﷺ. ويمكن أن يشير بالحروف للعوالم الثلاثة؛ فالألف لوحدة الجبروت، واللام لتدفق أنوار الملكوت، والراء لسريان إمداد الرحموت في سائر الموجودات، وأعظمها وعنصرها: نزول الكتاب العزيز. ولذلك بدأ بذكره، فقال:

﴿ الر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾

قلت: (كتاب): خبر، أي: هذا كتاب. و(أحكمت): صفة. و(من لدن): خبر ثان، أو خبر «كتاب»، إن جعل مبتدأ، أو صفة له، إن كان خبراً. و(ألاّ تعبدوا): «أن»: مفسرة، أو مصدرية في موضع مفعول لأجله، أو بدل من الآيات، أو مستأنف. و(أن استغفروا): عطف عليه. و(حين): متعلق بمحذوف، أي: ألا إنهم يثنونها حين يستغشون... إلخ. و(يعلم): استئناف لبيان النقض عليهم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المصطفى، هذا الذي تقرؤه ﴿ كتابٌ أُحكمت آياته ﴾ ؛ أتقنت، ونظمت نظماً محكماً، لا يعتريه خلل من جهة اللفظ ولا المعنى، أو أحكمت من النسخ بشريعة أخرى، أو أحكمت

---

(١) من الآية: ١٠٩ من سورة يونس.

بالحُجج والبراهين، أو جعلت حكيمة؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم العملية. ﴿ثم فُصِّلتْ﴾؛ بُينت لاشتمالها على بيان العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار. أو فصلت سورة سورة؛ ليسهل حفظها، وفُصلت بالإنزال نجماً نجماً، في أزمنة مختلفة. أو فُصل فيها ولُخص ما يحتاج إليه من الأحكام. و(ثم): للتفاوت في الحكم؛ لأن الأحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له. نزل ذلك الكتاب ﴿من لَدنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾، ولذلك كان محكماً مفصلاً بالغاً في ذلك الغاية؛ لأن الحكيم الخبير لايخفى عليه ما يخل بنظم الكلام.

قائلاً ذلك الكتاب: ألا تعبدوا معه غيره. وقال في القوت: ﴿كتاب أُحكمت آياته﴾ يعني: بالتوحيد، ﴿ثم فصلت﴾ أي: بالوعد والوعيد. ثم قال: ﴿من لدن حكيم﴾ أي: بالإحكام للأحكام، ﴿خبير﴾ بالتفصيل للحلال والحرام. ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾؛ هذا هو التوحيد الذي أحكمه. ﴿إنني لكم منه نذير﴾ بالعذاب، ﴿وبشير﴾ بالثواب لمن آمن به. هذا هو الوعد والوعيد. قال البيضاوي: ﴿إنني لكم منه﴾ أي: من الله، (نذير وبشير) بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. ﴿وأن استغفروا ربكم﴾: عطف على «ألا تعبدوا»، ﴿ثم توبوا إليه﴾؛ ثم توصلوا إلى مطلبكم بالتوبة؛ فإن المعرض عن طريق الحق لابد له من رجوع. وقيل: استغفروا من الشرك، ثم توبوا إليه بالطاعة، ويجوز أن يكون «ثم»: للتفاوت بين الأمرين. هـ.

قال ابن جزي: (استغفروا ربكم) مما تقدم من الشرك والمعاصي، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة. هـ. وقال الواحدي: (استغفروا ربكم) من ذنوبكم السابقة، (ثم توبوا إليه) من المستأنفة متى وقعت. هـ. ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾؛ يحييكم حياة طيبة بالأرزاق والنعم والخيرات، فتعيشوا في أمن ودعة. ﴿إلى أجلٍ مسمىً﴾؛ تمام أجلكم، فلا يستأصلكم بالعذاب، أو يمتعكم بالرجاء فيه والرضا بقضائه؛ لأن الكافر قد يمتع بالأرزاق في الدنيا؛ استدراجاً، ﴿ويُؤتِ﴾ في الآخرة ﴿كلَّ ذي فضلٍ﴾؛ عمل صالحاً، ﴿فضلَه﴾ أي: جزاء فضله، فيُوفي ثواب عمله، أو يعطي كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة. وهو وعد للمؤمن التائب بخير الدارين.

﴿وإن تَولَّوا﴾ أي: وإن تتولوا عما أمرتكم به، ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾؛ يوم القيامة، أو يوم الشدة بالقحط والجوع، وقد نزل بهم حتى أكلوا الجيف. أو يوم بدر ﴿إلى الله مرجعُكم﴾ أي: رجوعكم في ذلك اليوم الكبير، أو بالموت، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾؛ فيقدر على بعثهم وعذابهم أشد العذاب. وكأنه تقرير لكبر اليوم.

﴿ألا إنهم يثْنُون صدورَ هم﴾؛ يلوونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولون ظهورهم إلى النبي ﷺ؛ لئلا يروه من شدة البغض والعداوة، ﴿ليستخفوا منه﴾ أي: من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو: من الله بسرهم، فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه. قيل: إنها نزلت في طائفة من المشركين، قالوا: إن أرخينا ستورنا، واستغشينا ثيابنا، وطوينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم ذلك؟

والحاصل : إن الإثناء إن كان عن الحق ـ فالضمير في: (منه)، يعود على الله، وإن كان عن النبي ﷺ فالضمير يعود عليه؛ وفي البخاري عن ابن عباس: (أنها نزلت فيمن كان يستحي أن يتخلّى أو يجامع فيفضي إلى السماء).

وقوله: ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾: يحتمل أن يكون عند النوم، فيكون الإثناء عن الحق، أو عن الله، أو عند مواجهة الرسول، فيكون الإثناء عن رؤيته ـ عليه الصلاة السلام، أو عن سماع القرآن. قال تعالى: ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ في قلوبهم، ﴿ وما يعلنون ﴾ بأفواههم، ـ فقد استوى في علمه سرهم وعلانيتهم، فكيف يخفى عليه أمرهم واستخفاؤهم منه؟ ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي: بالأسرار صاحبة الصدور، أو بحقائق الصدور وما احتوت عليه.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله: هذا كتاب أحكمت آياته بالتعريف بالذات، ثم فصلت ببيان الصفات، أو: أحكمت بتبيين الحقائق، ثم فصلت بتبيين الشرائع. أو: أحكمت ببيان ما يتعلق بعالم الأرواح من التعريف، ثم فصلت ببيان ما يتعلق بعالم الأشباح من التكليف، أو: أحكمت ببيان أسرار الملكوت، ثم فصلت ببيان أحكام الملك. ثم بيّن ما يتعلق بالذات فقال: ﴿ ألاّ تعبدوا إلا الله ﴾، وبيّن ما يتعلق بالصفات من التفصيل فقال: (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه)، أو: بيّن ما يتعلق بالحقائق، ثم ما يتعلق بالشرائع، وهكذا. فإن جمعتم بين الحقائق والشرائع يمتعكم متاعاً حسناً؛ بشهود ذاته، والتنزه في أنوار صفاته، إلى أجل مسمى، وهو: النزول في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويؤت كل ذي فضل من المعرفة جزاء فضله من الشهود، فمن تولى عن هذا خاف من عذاب يوم كبير، وهو: غم الحجاب، والتخلف عن الأحباب. ثم عاتب أهل الشهود حيث تركوا مقام المشاهدة وتنزلوا إلى مقام المراقبة، بقوله: (ألا إنهم يثنون صدورهم...) الآية.

ثم بيّن كمال علمه تكميلاً لقوله: (يعلم ما يسرون وما يعلنون)، فقال:

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ أي: كل ما يدب عليها؛ عاقلاً أو غيره، ﴿ إلا على الله رزقها ﴾؛ غذاؤها ومعاشها؛ لتكفله إياه بذلك؛ تفضلاً وإحساناً. وإنما أتى بعلى التي تقتضي الوجوب؛ تحقيقاً لوصوله، وتهييجاً على التوكل وقطع الوساوس فيه، ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾؛ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام. أو: مستقرها في الأرض بعد وجودها، ومستودعها: موادها قبل إيجادها. أو بالعكس: مستقرها: موادها في العلم قبل الظهور، ومستودعها: إقامتها في الدنيا بعد الوجود. ﴿ كلٌّ ﴾ واحد من الدواب على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ في كتاب مبين ﴾؛ مذكور في اللوح المحفوظ، أو في العلم القديم المبين للأشياء، قال البيضاوي: وكأنه أريد بالآية كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد. هـ.

الإشارة: هم الرزق، وخوف الخلق، من أمراض القلوب ، ولا ينقطعان عن العبد حتى يكاشف بعلم الغيوب وهو التوحيد الخاص؛ أعني: الرسوخ في الشهود والعيان. وإنما يضر العبدَ ما كان ساكناً، وأما الخواطر التي تلمع وتذهب، فلا تضر؛ لأن الإنسان خلق ضعيفاً.

واعلم أن الرزق على قسمين: رزق الأرواح، ورزق الأشباح. فرزق الأرواح معنوي، وهو: قوت الروح من المعرفة وعلم اليقين. ورزق الأشباح حسي، وهو: الطعام والشراب. وقد تكفل الله بالأمرين معاً، وأمر بالتسبب فيهما، قياماً برسم الحكمة. فالتكفل حقيقة، والتسبب شريعة، فالعامة اشتغلوا بالتسبب في الرزق الحسي والبحث عنه، ولم يعبأوا بالرزق المعنوي، ولا عرفوه؛ من شدة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق المعنوي لماتت أرواحهم. والخاصة اشتغلوا بالتسبب في الرزق المعنوي والبحث عنه، ولم يعبأوا بالرزق الحسي من شدة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق الحسي لهلكت أشباحهم. وخاصة الخاصة يتسببون في الرزق الحسي والمعنوي، وليس هم مع إرادتهم في واحد منهما، وإنما هم أبداً مع إرادة مولاهم راتعين أبداً، حيث دفعتهم إرادة سيدهم في الحسي أو في المعنوي من غير تبرم ولا التفات لغيره، كما قال القائل(١) .

أرانِيَ كالآلاتِ وهْوَ مُحَرِّكِي ... أنا قلمٌ، والاقتدارُ أصـــابعُ

العامة قد حُجبوا عن الله بإرادتهم للرزق الحسي، حيث صار الرزق الحسي هو حظ النفوس. صاروا مع حظ نفوسهم لاغير، والخاصة وجدوا الله في طلبهم للرزق المعنوي، لأنه حق الله، لا حظ للنفس فيه، لأجل ذلك لمَّا كانوا لله كان الله لهم. وخاصة الخاصة ليس هم مع إرادتهم في شيء، بل هُم بالله في الأحوال كلها لا بنفوسهم. قد انمحت إرادتهم في إرادة الله، فصارت إرادتهم إرادة الله، وفعلهم فعله. وهذا المقام يقال له: التمكين بالتلوين. هـ. قاله شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رضي الله عنه في كتابه، نفعنا الله بهم جميعاً.

قوله تعالى:﴿ ويعلم مُستقرها ومُستودعها ﴾ أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها في المقام، أو مستقرها في الفناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين، أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح. وأنشدوا:

كُـلُّ شيْءٍ سَـمِعْتَهُ أوْ تَـراهُ ... فَـهْـوَ لِلقَبْضَتَيْن يُشِـيرُ
ضع قميصي عن العيون ترى ما ... غـاب عنك فـقـد أتاك البشــير

(١) وهو الشيخ عبدالكريم الجيلي، في العينية.

فالمراد بالقبضتين: الحس والمعنى، وإن كانا في الأصل قبضة واحدة، لكن لما تجلت بالضدين سمَّاها قبضتين. فالحس رداء للمعاني. وسماه هنا قميصاً؛ لأنه يستر كالرداء، فإذا رفع القميص عن عيون البصيرة رأت ما غاب عنها من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وهذا معنى قوله: ضع قميصي عن العيون. إلخ... ورَفْعُ حجاب المعنى عن البصيرة هو بشير الولاية وعنوانها. والله تعالى أعلم.

ولما بيَّن كمال علمه ذكر كمال قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ وما بينهما وما فيهما ﴿في﴾ مقدار ﴿ستة أيام﴾ من أيام الدنيا، أو خلق العالم العلوي والسفلي في مقدار ذلك. وجمع السموات دون الأرض؛ لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وكان عرشه على الماء﴾ قيل: لم يكن بينهما حائل، وكان موضوعاً على متن الماء. واستدل به على إمكان الخلاء، وعلى أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل: كان الماء على متن الريح. والله أعلم بذلك. قاله البيضاوي.

قلت: الخلاء هو الفضاء الخارج عن دائرة الأكوان. وهو عند المتكلمين من جملة الممكنات، ووجه الاستدلال من الآية على إمكانه: أن العرش والماء لما كانا محصورين لزم أن يكون ماخرج عنهما خلاء، وكل ما سوى الله فهو ممكن. وعند الصوفية: هو أسرار الذات الأزلية الجبروتية، كما أن الأكوان هي أنوار الصفات الملكوتية، ولاشيء معه، ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. ونقل بعض أهل التاريخ: أن الله تعالى خلق بعد العرش ياقوتة صفراء، ذكروا من عظمتها وسعتها، ثم نظر إليها، فذابت من هيبته، فصارت ماء، فكان العرش مرتفعاً فوقها، ثم اضطرب ذلك الماء، فعلته زبدة، خلق منها الأرض، ثم ارتفع من الماء دخان خلق منه السموات[1]. هـ.

خلق ذلك ﴿ليبلُوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾ أي: ليختبركمْ اختباراً تقوم به الحجة عليكم، ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بالزهد في هذا العالم الفاني، وتعلق الهمه بالعالم الباقي قال البيضاوي: أي: يعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم، كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم، وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل

---

(١) كلام أهل التاريخ لابرهان عليه، والأصح: أن يرجع في هذا - إن أمكن معرفته - إلى علماء الطبيعة.. وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض..﴾ الآية ٥١ من سورة الكهف.

وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. ثم قال: فالمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح. ولذلك قال ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله.» والمعنى: أكمل علماً وعملاً. هـ.

قال المحشي: ويتجه كون المعنى: أيكم أكثر شكراً لله على تمهيد تلك المنافع والمصالح. والشكر يشمل الطاعات القلبية والبدنية. ويحتمل أنه كآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . وأن بقاء الدنيا وخلقها إنما هو للتكليف، فإذا لم يبق في الأرض من يعبد الله انقضت الدنيا، وجاءت الساعة، كما تقتضيه الأحاديث الصحاح[2] والمتبادر ماقدمناه، وحاصله: أنه خلق الأشياء من أجل ابن آدم، ولتدله على خالقه فيجني بها ثمار معرفته تعالى، ويعترف بشكره، وإفراد عبادته. وقد جاء. «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي».

قلت : فيكون المعنى: هو الذي أظهر الوجود من عرشه إلى فرشه، ليختبركم أيكم أحسن عملاً بالاشتغال بالله، والعكوف في حضرته دون الوقوف مع ظاهر الكون، والاشتغال بحسه، مع كونه خُلق من أجله. ثم قال: وقوله تعالى: (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت...) الآية، هو: تنبيه على أن إنكار الكفار للبعث بعد إقرارهم بأن الله تعالى خالق العالم، الذي هو أعظم من البعث، تناقض منهم؛ لأن إقرارهم بقدرته على الأكبر، ثم إنكارهم لما هو أيسر تناقض هـ أي: ولئن ذكرت لهم البعث بعد الموت لقالوا ما هذا إلا سحر ظاهر. أي: ما البعث أو القول به، أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة ساحر أي: القائل بهذا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في صحيح البخاري قال ﷺ: «كَانَ اللهُ ولا شَيء مَعَه، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» الحديث. فأخبر ﷺ أن الحق جل جلاله كان في أزله لاشيء معه، ثم أظهر الأشياء من نوره بنوره لنوره، فهو الآن على ما كان عليه. وعن أبي رَزِين: قلنا: يا رسُول الله! أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مافَوْقَهُ هَوَاءٌ، وما تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ»[3] والعماء هو: الخفاء، قال تعالى: ﴿ فعَمِيتْ عليهم الأَنباءُ ﴾[4] ، أي: خفيت. ويقال للسحاب عماء؛ لأنه يخفي ما فيه، وقال الششتري: في المقاليد[5] : كان في عمىً ، ما فوقه هوَاء وما تحته هواء. هي الوحدة المُصْمَتة الصَمَدية، البحر الطامس[6] الذي هو الأزل والأبد، فلم يكن موجود غير الوجود الذي هو هو. هـ.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) ومنها قوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله». أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، (كتاب تفسير القرآن، باب : ومن سورة هود) ، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه (المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية) . قلت: وهذا من حديث الصفات. نؤمن به ونكل علمه إلى الله تعالى.

(٤) من الآية: ٦٦ من سورة القصص.

(٥) اسمه كاملاً: المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية.

(٦) يقال: طريق طامس، أي: بعيد لامَسْلَكَ فيه.

والحاصل: أن الحق جل جلاله كان فى سابق أزله ذاتاً مـقدسة، لطيفة خفـية عن العقول، نورانيه متصفة بصفات الكمال، ليس معها رسوم ولا أشكال، ثم أظهر الحق تعالى قبضة من نوره حسية معنوية؛ إذ لا ظهور للمعنى إلا بالحس، فقال لها: كونى محمداً، فمن جهة حسها محصورة، ومن جهة معناها لا نهاية لها، متصلة ببحر المعانى الأزلى، الذى برزت منه، وما نسبتها من ذلك البحر من جهة حسها إلا كخردلة فى الهواء. وقد أشار ابن الفارض إلى وصف هذه الخمرة الأزلية ـ وهو تفسير للعماء المذكور قبلُ ـ فقال:

صـــفاءٌ ولا ماء، ولُطْفٌ ولا هَـواً ونـورٌ ولا نـارٌ، وروحٌ ولا جِسْمٌ

تَقَــدَّمَ كلَّ الكائنـــات حـــديثُها قديماً ولا شـكلٌ هنـاك، ولا رَسْـم

وقامت بها الأشـــياءُ ثُمَّ لحكـمةٍ بها احتَجَبَتْ عن كلّ من لا له فَهْمُ

فالأشكال والرسوم متفرعة من تلك القبضة المحمدية، والقبضة متدفقة من بحر الجبروت الذى لا نهاية له، فهى منه حقيقة، وما ظهر تحديدها إلا من جهة حسها. فهى كثلجة فى بحرٍ، ماؤها الباطنى متصل فى البحر، وظاهرها محدود محصور. فالأشكال كلها غريقة فى بحر الجبروت، ولذلك قال صاحب العينية(١):

هُوَ العَرْشُ والكُرسيُ والمَنْظَرُ البهي هُوَ السِّدْرَةُ التِى إِلَيْهَـا المَرَاجِـعُ

وقال أيضاً:

هُوَ المُوجِدُ الأَشْيَاءِ وهُوَ وُجُودُهَا وعَيْنُ ذَوَاتِ الكُلِّ وهُوَ الجَـوَامِـعُ

فَأَوْصَافُهُ والاسْـمُ والأَثَرُ الـذى هُوَ الكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ واللهُ جَامِعُ

فالأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فالحق تعالى كما كان لاشىء معه، فهو الآن كما كان. إذ التغير فى حقه تعالى مُحال، ولا يعلم هذه الأسرار إلا من صحب أهل الأسرار، وحسب من لم يصحبهم التسليم. كما رمزوا وأشاروا إليه:

وإن لَمْ تَرَ الهِــلاَلَ فَسَلِّمْ لأُنَاسٍ رأَوْهُ بالأبْصَـــارِ

وقوله تعالى: ﴿ لِيبلُوكم أيكم أحسنُ عملاً ﴾ أى: ليظهر منكم من يقف مع الأكوان، ومن ينفذ إلى شهود المكون. وهو الذى حسن عمله، وارتفعت همته. ولئن قلت أيها العامي: إنكم تحيون بالمعرفة من بعد موت قلوبكم بالجهل والغفلة إن صحبتمونى، ليقولن أهلُ الإنكار: إن هذا إلا سحر مبين.

---

(١) غفر الله له. ولولا الأمانة العلمية لحذفت هذه الأبيات.

ثم خوفهم بالعذاب الذي استعجلوه، فقال:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (يوم): معمول لخبر ليس، وهو دليل جواز تقديمه إن كان ظرفاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ الموعود في الدنيا، أو في الآخرة، ﴿إلى أمة﴾ أي: أوقات معدودة قلائل، ﴿ليقولن﴾؛ استهزاء: ﴿ما يحبسه﴾؟ أي: ما يمنعه من الوقوع الآن؟ ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ وينزل بهم كيوم بدر، أو يوم القيامة ﴿ليس مصروفاً عنهم﴾ ليس مدفوعا عنهم حين ينزل بهم، ﴿وحاق﴾؛ نزل وأحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾، وضع الماضي موضع الاستقبال؛ تحقيقاً للوقوع، ومبالغة في التهديد.

الإشارة: إمهال العاصي ليس بإهمال له؛ فإن الله تعالى يمهل ولا يهمل. فإمهاله إما استدراج، أو انتظار لتوبته، فليبادر العبد بالتوبة قبل الفوات، وبالعمل الصالح قبل الممات. فما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، وبالله التوفيق.

ومما وقع به الاختبار: الوقوف مع النعم دون شهود المنعم، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (ولئن): شرط وقسم، ذكر جواب القسم، واستغنى به عن جواب الشرط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولئن أذقنا الإنسانَ منا رحمةً﴾ أي: أعطيناه نعمة يجد لذتها. ﴿ثم نزعناها منه﴾ أي: سلبنا تلك النعمة منه ﴿إنه ليؤسٌ﴾؛ قنوط، حيث قلّ رجاؤه من فضل الله؛ لقلة صبره، وعدم ثقته بربه، ﴿كفور﴾: مبالغ في كفران ما سلف له من النعم، كأنه لم ير نعمة قط. ﴿ولئن أذقناه نعماءَ بعد ضراء مسته﴾؛ كصحة بعد سقم، وغنى بعد فقر، أو علم بعد جهل، ﴿ليقولن ذهب السيئاتُ﴾. أي: المصائب التي مستني، ﴿عني﴾، ونسي مقام الشكر. ﴿إنه لفرح﴾ أي: بطر متعزز بها، ﴿فخورٌ﴾ على الناس، متكبر بها، مشغول بذلك عن شكرها، والقيام بحقها. قال البيضاوي: وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم

والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفر والبطر بأدنى شيء؛ لأن الذوق: إدراك المطعم، والمس مبدأ الوصول إليه. هـ.

﴿ إلا الذين صبروا ﴾ على الضراء؛ إيماناً بالله، واستسلاماً لقضائه، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ شكراً لآلائه، سابقها ولاحقها، ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم، ﴿ وأجر كبير ﴾ أقله الجنة، وغايته النظرة. والاستثناء من الإنسان؛ لأن المراد به الجنس. ومن حمله على الكافر ـ لسبق ذكرهم ـ جعله منقطعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يكون شاكراً للنعم، صابراً عند النقم، واقفاً مع المنعم دون النعم. إن ذهبت من يده نعمة رَجَى رجوعها، وإن أصابته نقمة انتظر انصرافها. والحاصل: أنه يكون عبداً لله في جميع الحالات.

حُكي أن سيدنا موسى عليه السلام قال: يارب دلني على عمل إذا عملته رضيت عني. قال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجداً متضرعاً، فقال: يابن عمران؛ إن رضاي في رضائك بقضائي . هـ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولي، فمن استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صديقاً، وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ ربا سوائي. هـ. ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على الأذى، والدعاء في الرخاء. هـ.

من جملة الأذى: التكذيب والإنكار، كما أبان ذلك بقوله تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ فلعلك تارك بعض ما يُوحَى إليك ﴾، فلا تبلغه وهو ما فيه تشديد على المشركين، مخافة ردهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه. فالعصمة مانعة من ذلك. فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يترك شيئاً من الوحي إلا بلغه، ولكن الحق تعالى شجعه وحرضه على التبليغ في المستقبل، ولو قوبل بالإنكار.

ثم قال له: ﴿ وضائق به صدرُكَ ﴾؛ أي: ولعله يعرض لك في بعض الأحيان ضيق في صدرك، فلا تتلوه عليهم مخافة ﴿ أن يقولوا لولا أُنزل عليه كنز ﴾ ينفقه للاستتباع كالملوك، أو يستغني به عن طلب المعاش، ﴿ أو جاء معه ملكٌ ﴾ يشهد له، والقصد تسليته ﷺ عن قولهم، حتى يُبلغ الرسالة ولا يبالي بهم. وإنما قال: ﴿ضائق﴾؛ ليدل على اتساع صدره ﷺ، وقلة ضيقه في الحال. ﴿ إنما أنت نذير ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، ولا عليك، ردوا أو اقترحوا، فلا يضيق صدرك بذلك. ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

﴿ أمْ ﴾، بل ﴿ يقولون افتراه ﴾ أي: ما يوحى إليه، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ فأتوا بعشر سُورٍ مثلِه ﴾ في البيان وحسن النظم. تحداهم أولاً بعشر سور، فلما عجزوا سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة. وتوحيد المثل باعتبار كل واحد. ﴿ مُفتريات ﴾ ؛ مختلقات من عند أنفسكم، إن صح أني اختلقته من عند نفسي؛ فإنكم عرب فصحاء مثلي، ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ للمعاونة على المعارضة، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنه مفترى. ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ ؛ فإن عجزوا عن الإتيان، ﴿ فاعلموا ﴾ أيها الرسول والمؤمنون ﴿ أنما أُنزل بعلم الله ﴾ ؛ بإذنه، أو بما لا يعلمه إلا الله من الغيوب. والمعنى: دوموا على إيمانكم، وزيدوا يقيناً فيه.

قال البيضاوي: وجمع الضمير؛ إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا يتحدونهم، فكان أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل. أو للتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم. ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ﴾؛ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، لأنه العالم والقادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره. ﴿ وأن لا إله إلا هو ﴾؛ لظهور عجز آلهتهم. ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾؟ ثابتون على الإسلام، راسخون مخلصون فيه، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً.

ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين، والضمير في ﴿ يستجيبوا ﴾ لمن استطعتم، أي: فإن لم يستجيبوا لكم، أي: من استعنتم به على المعارضة لعجزهم، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة، ﴿ فاعلموا ﴾ أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ؛ لما فيه من معنى الطلب، والتنبيه على قيام الموجب، وزوال العذر. هـ. وقال في الوجيز: فإن لم يستجيبوا لكم؛ من تدعون إلى المعاونة، ولا تهيأ لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجة، ﴿ فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ﴾ أي: أنزل والله عالم بإنزاله، وعالم أنه من عنده، ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾؟ استفهام، معناه الأمر، كقوله: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾(١) . هـ.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة المائدة.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ والتذكير أن يعمموا الناس في التذكير، ولا يفرقوا بين أهل الصدق، وأهل التنكير. بل ينصحوا العباد كلهم، ولا يتركوا تذكيرهم، مخافة الرد عليهم، ولا تضيق صدورهم بما يسمعون منهم، اقتداء بنبيهم ﷺ. وقد قال لقمان لابنه حين أمره بالتذكير: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1]، فإن طلبوا من المذكر الدليل فليقل: إنما أنا نذير، والله على كل شيئ وكيل. فإن قالوا: هذا الذي تذكر كلنا نعرفه، فليقل: فأتوا بسورة من مثله، أو بعشر سور من مثله. والله تعالى أعلم.

ولا ينفع الوعظ والإنذار إن كانت همته كلها مصروفة للدنيا، كما قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: «ما صنعوا فيها»: الضمير يعود على الدنيا، والظرف يتعلق بصنعوا. أو يعود على الآخرة، ويتعلق الظرف بحبط، أي: حبط في الآخرة ما صنعوا من الأعمال في الدنيا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿من كان يريد﴾ بعمله ﴿الحياةَ الدنيا وزينتَها﴾، فكان إحسانه وبره رياء وسمعة، ﴿نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها﴾ أي: نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا، من الصحة والرئاسة، وسعة الأرزاق، وينالون ماقصدوا من حمد الناس، وإحسانهم وبرهم، ﴿وهم فيها لا يُبخسون﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم، فيحتمل: أن تكون الآية نزلت في أهل الرياء من المؤمنين الذين يراؤون بأعمالهم؛ كما ورد في حديث الغازي والغني القارئ المرائين، وأنهم أول من تُسعر بهم جهنم. ويحتمل أن تكون نزلت في الكفار، وهو أليق بقوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النارُ﴾؛ لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وحَبِطَ ما صنعوا فيها﴾ أي: في الدنيا، فكل ما صنعوا في الدنيا من الإحسان حبط يوم القيامة؛ لأنهم لم يريدوا به وجه الله. والعمدة في انتظار ثواب الأعمال هو الإخلاص، ﴿وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾؛ لأنه لم تتوفر فيه شروط الصحة التي من جملتها الإخلاص.

الإشارة: في الحديث: «مَنْ كَانَت الدُّنيا هَمَّه: فَرَّق اللهُ عليْه أمْرَه، وجعَل فقْرَه بيْنَ عيْنَيْه، ولم يأْته من الدُّنْيا إلا ما قُسم له. ومَن كَانَت الآخرةُ نيتَه: جمع اللهُ عليْه أمْرَه، وجعَل غِناهُ في قَلْبِه، وأتَتْه الدُّنْيا وهي صَاغِرَةٌ»[2].

---

(١) الآية: ١٧ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه الترمذي في [صفة القيامة، باب ٣٠] من حديث أنس بن مالك.؛ وابن ماجه: [الزهد، باب الهمّ بالدنيا] من حديث زيد بن ثابت.

قلت : ومن كان الله همه كفاه همّ الدارين. فطالبُ الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير. فارفع همتك أيها العبد عن الدار الفانية، وعلق قلبك بالدار الباقية، ثم ارفعها إلى شهود الذات العالية، ولا تكن ممن قصر همته على هذه الدار فتكن ممن ليس له في الآخرة إلا النار. وحصّن أعمالك بالإخلاص، وإياك وملاحظة الناس؛ فتبوأ بالخيبة والإفلاس، وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد من تقدم، فقال:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت : (أفمن كان): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: كمن كان يريد الدنيا وزينتها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفمن كان على بينة ﴾، طريقة واضحة ﴿ من ربه ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون، كمن ليس كذلك، ممن همه الدنيا؟! والمراد بالبينة: ما أدرك صحته العقلُ والذوق، أي: على برهان واضح من ربه، وهو الدليل العقلي، والأمر الجلي. أو برهان من الله يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، ﴿ ويتلوه ﴾ ؛ ويتبع ذلك البرهان ـ الذي هو دليل العقل، ﴿ شاهدٌ منه ﴾ أي: من الله يشهد بصحته، وهو: القرآن؛ لأنه مصباح البصيرة والقلب؛ فهو يشهد بصحة ما أدركه العقل من البرهان.

﴿ ومن قبله ﴾ أي: من قبل القرآن، ﴿ كتابُ موسى ﴾ يعني: التوراة، فإنها أيضا متلوة شاهدة بما عليه الرسول ومن تبعه من البينة الواضحة. أو البينة: القرآن، والشاهد: جبريل عليه السلام ، أو عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ، أو الإنجيل. وهو حسن، لقوله: ﴿ ومن قبله كتابُ موسى ﴾ ؛ فإن التوراة قبل الإنجيل. قال ابن عطية: وهنا اعتراض؛ وهو أن الضمير في «قبله» عائد على القرآن، فلِمَ لَمْ يذكر الإنجيل ـ وهو قبله ـ بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال عنه: أنه خصَّ التوراة بالذكر؛ لأن الملتين متفقتان على أنها[1] من عند الله، والإنجيل قد خالف فيها. فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الكتابين أولى. وهذا كقول الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾[2]. وقول النجاشي: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة». هـ. وإذا فسرنا الشاهد بالإنجيل سقط الاعتراض.

---

(١) في ابن عطية: مجتمعتان أنهما.
(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

ثم وصف التوراة بقوله: ﴿ إماماً ﴾ . أي: مؤتماً به في الدين، لأجله، ﴿ ورحمةً ﴾ على المنزل عليهم. ﴿ أولئك ﴾ أي: من كان على بينة من ربه، ﴿ يؤمنون به ﴾ أي: بالقرآن، ﴿ ومن يكفرْ به من الأحزاب ﴾: كأهل مكة، ومن تحزب منهم على رسول الله ﷺ، ﴿ فالنارُ موعده ﴾ يدخلها لا محالة، ﴿ فلا تكُ في مرية ﴾؛ شك ﴿ منه ﴾ أي: من ذلك الموعد، أو القرآن، ﴿ إنه الحقُ من ربك ﴾ الثابت وقوعه، ﴿ ولكن أكثرَ الناس لا يؤمنون ﴾؛ لقلة نظرهم، وإخلال فكرتهم.

الإشارة: لا يكون العبد على بينة من ربه حتى يتحقق فيه أمران، **أولهما**: التوبة النصوح، **والثاني**: الزهد التام. فإذا تحقق فيه الأمران كان على بينة من ربه. وهي درجات؛ أولها: بينة ناشئة عن صحيح النظر والاعتبار، وهي لقوم نظروا في الحجج والبراهين العقلية والدلائل السمعية، فأدركوا وجود الحق من طريق الإيمان بالغيب، وهم: أهل الدليل والبرهان. **وثانيها**: بينة ناشئة عن الرياضات والمجاهدات والاعتزال في الخلوات، فخرقت لهم العوائد الحسيات فرأوا كرامات وخوارق عادات، فأدركوا وجود الحق على وجه التحقيق والبيان، مع رقة الحجاب والوقوف بالباب. وهم: العُبّاد، والزهاد، والصالحون من أهل الجد والاجتهاد. **وثالثها**: بينة ناشئة عن الذوق والوجدان، والمكاشفة والعيان، وهي لقوم دخلوا في تربية المشايخ، فتأدبوا وتهذبوا، وشربوا خمرة غيبتهم عن حسهم ورسمهم؛ فغابوا عن الأكوان بشهود المكون. فهم يستدلون بالله على غيره. قدَّسوا الحق أن يحتاج الى دليل، وهؤلاء هم الأفراد وخواص العباد، وإليهم أشار الشاعر بقوله:

الطُرُقُ شتّى وطَريقُ الحَقّ مُفْرَدَةٌ		والسّالكون طَريق الحقّ أفرادُ
لا يُعرَفون ولا تُدرَى مَسَالِكُهُم		فَهُمْ على مَهَلٍ يَمْشُون قُصّادُ
والنّاسُ في غَفْلَةٍ عمّا يُراد بِهِم		فَجُلُّهُم عن سَبِيلِ الْحَقِ رُقّادُ

وقال في القوت: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي: من شهد مقام الله - عز وجل - بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. هـ. وقال الورتجبي: تقدير الآية على وجه الاستفهام: أفمن كان على بينة من ربه؛ كمن هو في الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وسره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك في هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿ ويتلوه شاهدٌ منه ﴾، والبينة: بصيرة المعرفة، والشاهد: بروز نور المشاهدة منه. وأيضاً: البينة: كلام المعرفة. والشاهد: الكتاب والسنة. ثم قال عن الجنيد: البينة: حقيقة يؤيدها ظاهر العلم. هـ.

والحاصل: أن البينة أمر باطني، وهي: المعرفة، إما بالبرهان، أو بالعيان، والشاهد الذي يتلو هو العلم الظاهر، فيتفق ما أدركه العقل أو الذوق مع ما أفاده النقل، فتتفق الحقيقة مع الشريعة. كلٌ في محله، الباطن منور بالحقائق، والظاهر مؤيد بالشرائع. وهذا غاية المطلوب والمرغوب. رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.

ثم ذكر وعيد من كذب بها فقال:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

قلت: (مثلا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن أظلمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن أسند إليه مالم يقله، وكذب بما أنزله، أو نسب لله ما لا يليق بجلاله. ﴿أولئك يُعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة، بأن يحبسُوا في الموقف، وتعرض عليهم أعمالهم على رؤوس الأشهاد، ﴿ويقولُ الأشهادُ﴾ من الملائكة والنبيين، أو كل من شهد الموقف: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ وهو تهويل عظيم لما يحيق بهم حينئذ، لظلمهم بالكذب على الله، ورد الناس عن طريق الله.

﴿الذين يصُدُّون عن سبيل الله﴾؛ عن دينه، ﴿ويبغونها عِوَجاً﴾؛ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب. أو يبغون أهلها أن يعوجوا عنها بالردة والكفر، أو يطلبون اعوجاجها بالطعن فيها. ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي: والحال أنهم كافرون بالبعث. وتكرير الضمير؛ لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴾ أي: ما كانوا ليعجزوا الله في الدنيا أن يعاقبهم. بل هو قادر على ذلك، وأخرهم ليوم الموعود، ليكون أشد وأدوم. ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ يمنعونهم من العقاب، ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ بسبب ما اتصفوا به، كما ذكره بقوله: ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾؛ لتصاممهم عن الحق، وبغضهم اهله. ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ حين اشتروا عبادة الأصنام بعبادة الله، ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من أن الأصنام تشفع لهم، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما أملوا، فلم يبق لهم سوى الحسرة والندامة. ﴿ لا جرم ﴾ لا شك، أو لابد ﴿ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾: فلا أحد أكثر خسراناً منهم؛ حيث حرموا النعيم المخلد، واستبدلوه بالعذاب المؤبد.

ثم ذكر ضدهم فقال: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا ﴾، أي: اطمأنوا أو خشعوا، أو تابوا ﴿ إلى ربهم. أولئك أصحابُ الجنة هم فيها خالدون ﴾؛ دائمون.

﴿ مَثَلُ الفريقين ﴾ المتقدمين؛ فريق الكافر، وفريق المؤمن: ﴿ كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع ﴾، فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط، والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة، كقوله: فالأيب الصَّابِح فالغانم[1] فهذا من بيان اللف والطباق. هـ. ﴿ هل يستويان ﴾: هل يستوى الفريقان؟ ﴿ مثلاً ﴾؛ أي: من جهة التمثيل، بل لا استواء بينهما، ﴿ أفلا تذكرون ﴾؛ تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم.

الإشارة: كل من ترامى على مراتب الرجال، أو ادعى مقاماً من المقامات وهو لم يدركه، يريد بذلك إمالة وجوه الناس إليه، يُفضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويقال له: ﴿ هؤلاء الذين كَذبوا على ربهم... ﴾ الآية. فكل آية في الكفار تجر ذيلها على عُصاة المؤمنين. وقد تقدم أمارات من كان عل بنية من ربه، فمن أدعى مقاماً من تلك المقامات وهو يعلم أنه لم يصله نادت عليه الآية.

---

(١) في الأصول: (القائم والصالح والأديب). والمثبت هو الذي في البيضاوي. والشاهد فيه عطف صفات موصوف واحد بالفاء.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء - عليهم السلام - تسلية لنبيه ﷺ وتتميماً لقوله: (فلعلك تارك)، (وضائق). فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: من قرأ: إني؛ بالكسر، فعلى إرادة القول، ومن قرأ بالفتح، فعلى إسقاط الخافض، أي: بأني، و (بادي الرأي): ظرف لـ (اتبعك)، على حذف مضاف أي: وقت حدوث أول رأيهم. وهو من البدء أي: الحدوث، أو من البُدُوّ، أي: الظهور. أي: اتبعوك في ظاهر الرأي دون التعمق في النظر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ فقال لهم: ﴿إني لكم﴾، أو بأني لكم ﴿نذير مبينٌ﴾ أي: بين ظاهر، أو أبين لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه، قائلا: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾، ولا تعبدوا معه غيره، ﴿إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ أليمٍ﴾؛ مُؤلم، وهو في الحقيقة صفة للعذاب، ووصف به زمانه على طريقة [جدّ جِدُّه، ونهاره صائم]؛ للمبالغة.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نَراكَ إلا بشراً مثلنا﴾؛ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوءة ووجوب الطاعة، ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذِلُنا﴾؛ أخساؤنا وسُقّاطنا؛ جمع أرذل. ﴿بادِيَ الرأي﴾؛ من أول الرأي من غير تفكر ولا تدبر، أي: اتبعك هؤلاء بادي الرأي من غير ترو. أو ظاهرا رأيهم خفيفًا عقلهم. وإنما استرذلوهم، لأجل فقرهم، جهلاً منهم، واعتقاداً أن الشرف هو المال والجاه. وليس الأمر كذلك. بل الشرف إنما هو بالإيمان والطاعة، ومعرفة الحق. وقيل: إنهم كانوا حاكة وحجامين. وقيل: أراذل في أفعالهم، لقوله: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(1). ثم قالوا: ﴿وما نَرى لكم﴾ أي: لك ولمتبعيك ﴿علينا من فضلٍ﴾ يؤهلكم للنبوءة، واستحقاق المتابعة. ﴿بل نظنكم كاذبين﴾؛ أنت في دعوى النبوءة، وهم في دعوى العلم بصدقك. فغلب المخاطب على الغائبين.

---

(1) الآية ١١٢ من سورة الشعراء.

الإشارة: تكذيب الصادقين سنة ماضية، وأتباع الخصوص موسومون بالذلة والقلة، وهم أتباع الرسل والأولياء، وهم أيضاً جُل أهل الجنة؛ لأن المصطفى ﷺ قال: «أَهْلُ الجنَّـةِ كُلُّ ضَعِيـفٍ مُسْتَضْعَفٍ»(١) وقالت الجنة: مَالِي لاَ يَدْخُلني إلا سُقَّطُ الناس؟ فقال لها الحق تعالى: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاء» حسبما في الصحيح.

ثم أجابهم بقوله:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت : «أنلزمكموها»: يصح في الضمير الثاني الوصل والفصل؛ لتقدم الأخص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ نوح لقومه: ﴿يا قوم أرأيتم﴾ : أخبروني، ﴿إن كنت علي بينة من ربي﴾ ؛ على طريقة واضحة من عند ربي، أو حجة واضحة شاهدة بصحة دعواي، ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ النبوة، ﴿فعميت﴾ ؛ خفيت ﴿عليكم﴾ فلم تهتدوا إليها، ﴿أنلزمكموها﴾ ؛ أنكرهكم على الاهتداء بها ﴿وأنتم لها كارهون﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها. ولم يؤمر بالجهاد، بل تركهم حتى نزل بهم العذاب.

الإشارة: طريقة أهل التذكير ـ الذين هم على بينة من ربهم ـ: أنهم يُذكرون الناس، ولا يكرهون أحداً على الدخول في طريقهم، إذا عميت عليهم. والله تعالى أعلم.

ثم قال:

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن نوح عليه السلام: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾ ؛ على التبليغ المفهوم من السياق، ﴿مالا﴾ : جُعلا أنتفع به، ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ ؛ فإنه المأمول منه. ثم طلبوا منه طرد الضعفاء ليجالسوه، فقال لهم: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم﴾ فيخاصمونى إن طردتهم، أو: إنهم ملاقوه

(١) أخرجه ابن ماجه في (الزهد، باب من لا يؤبه له) من حديث معاذ بن جبل.

فيفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ لقاء ربكم، أو بأقدارهم، أو تسفهون عليهم فتدعُوهم أراذل، أو قوماً جُهالاً استحكم فيكم الجهل وشختم فيه، فلا ينفع فيكم الوعظ والتذكير. ﴿ وياقوم من ينصرُني من الله ﴾: من يدفع انتقامه عني ﴿ إن طردتهم ﴾ وهم بتلك الصفة الكاملة من الإيمان والخوف منه؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ فتعلموا أن التماس طردهم، وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

الإشارة: قال القشيري: قوله تعالى: ﴿ لا أسألكم عليه مالا ﴾، فيه تنبيه للعلماء ـ الذين هم ورثة الأنبياء أن يتأدبوا بأنبيائهم، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم، ولا يرتفقوا منهم بتعليمهم، والتذكير لهم، وما ارتفق من المستمعين في بث فائدة يذكِّر بها من الدين، ويعظ بها المسلمين فلا يبارك الله فيما يُسمعون به عن الله، ولا ينتفعون به، ويحصلون به على سخط من الله هـ[1] .

قلت: هذا إن كان له تشوف وتطلع بذلك، بحيث لو لم يعط لم يُعلم، أو لم يُذكر. وأما إن كان يعلم ويذكر لله، ثم يتصدق عليه لله، فلا بأس به إن شاء الله. ومازالت الأشياخ والأولياء يقبضون زيارات الفقراء، وكل من يأتيهم، ويذكرونهم ويعرفونهم بالله، لأن ذلك ربح للمعطي وتقريب له. وما ربح الناس إلا من فلسهم ونفسهم؛ يذلوها لله، فأغناهم الله. وقد تقدم عند قوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ ...[2] بعض الكلام على هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

ولما قالوا له: لو كنت نبي الله، لأغناك الله عن التكسب، ولأعلمك بما يفعل أتباعك؛ فإنهم ما اتبعوك إلا في الظاهر دون الباطن، قال لهم:

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) ﴾

يقول الحق جل جلاله: قال نوح لقومه: ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائنُ الله ﴾ حتى أُنفق منها متى شئت، فأستغني عن مباشرة الأسباب، بل ما أنا إلا بشر، أو لا أدعي ما ليس لي فتنكروا قولي، أي: لا أفوه لكم، ولا أتعاطى غير ما ألهمني الله له، فلست أقول: عندي خزائن الله، أي: القوة التي توجد بها الأشياء بعد عدمها. أو: عندي خزائن الله التي ينزل منها الأشياء، كالريح والمياه ونحوها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾[3] فتبرأ عليه السلام من هذه الدعوى.

---

(١) بالمعنى. (٢) من الآية: ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٢١ من سورة الحجر.

ثم قال: ﴿ ولا أعلمُ الغيبَ ﴾ أي: ولا أقول: إني أعلم الغيب، فأعلم من أصحابي ما يسترونه عني في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر منهم. أو: لا أعلم أنهم اتبعوني في بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب ﴿ ولا أقولُ إني ملكٌ ﴾ حتى تقولوا: ما نراك إلا بشراً مثلنا. ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينُكم ﴾ أي: تحتقرهم. من زريت على الرجل: قصرت به. قلبت تاؤه دالاً؛ لتجانس الزاي للتاء(١)، والمراد بهم ضعفاء المؤمنين، أي: لا أقول في شأن من احتقرتموهم، لفقرهم: ﴿ لن يُؤتيهم الله خيراً ﴾ ؛ فإنّ ما أعد الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ من خير أو غيره. ﴿ إني إذاً ﴾ أي: إن قلتُ شيئاً من ذلك، ﴿ لَمِنَ الظالمين ﴾ .

قال البيضاوي : وإسناده إلى الأعين؛ للمبالغة، والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرأي من غير روية، مما عاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم، دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم. وقال أيضًا: وإنما استرذلوهم لفقرهم؛ لأنهم لمّا لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ(٢) بها أشرف عندهم، والمحروم منها أرذل. هـ.

الإشارة: لا يشترط في وجود الخصوصية ظهور الكرامة؛ فقد تظهر الكرامة على من لم تكمل له الاستقامة، فلا يشترط فيه الاطلاع على خزائن الغيوب، وإنما يشترط فيه التطهير من نقائص العيوب، لا يشترط فيه الإنفاق من الغيب، وإنما يشترط فيه الثقة بما ضمن له في الغيب. والله تعالى أعلم.

ثم استعجلوا العذاب، كما قال تعالى:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت : ﴿إن أردت﴾: شرط حذف جوابه؛ لتقدم ما يدل عليه، وكذا (إن كان الله يريد أن يُغويكم)، والتقدير: إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم. أي: فكذلك. فهو من تعليق الشرط، كقولك: إن دخلت الدار، إن كلمت زيداً، فأنتِ طالق. فلا تطلق إلا بهما، ثم استأنف: (هو ربكم).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قالوا يا نوحُ قد جادلتنا ﴾ : خاصمتنا ﴿ فأكثرت جِدالنا ﴾ : خصامنا ومخاطبتنا، ﴿ فأتِنا بما تَعِدُنا ﴾ من العذاب، ﴿ إن كنتَ من الصادقين ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك

---

(١) لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها.

(٢) في الأصول: (اللاحظ لها). والمثبت هو الذي في تفسير البيضاوي.

ووعظك لا يؤثر فينا. ﴿قال﴾ نوح ﷺ: ﴿إنما يأتيكم به اللهُ﴾ دونى ﴿إن شاءَ﴾ عاجلاً أو آجلا، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بدفع العذاب عنكم، أو الهرب منه حتى تعجزوا القدرة الإلهية، ﴿ولا ينفعكم نُصحي إن أردتُ أن أنصح لكم﴾، وأراد الله ﴿أن يُغويكم﴾، فإن النصح مع سابق الشقاء عنت. وهذا جواب لما أوهموا من أن جداله كلام لا طائل تحته، وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء، وأن خلاف مراد الله تعالى محال. ولذلك قيل: مراد الله من خلقه ما هم عليه. ثم قال: ﴿هو ربكُمْ﴾؛ خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وإليه تُرجعون﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ، والتذكير أن لا يملوا ـ ولو أكثروا ـ إذا قابلهم الناس بالبعُد والإنكار، وليقولوا: ولا ينفعكم نصحنا إن أردنا أن ننصحكم ﴿إن كان الله يريد أن يُغويكم...﴾ الآية.

ولما كان المقصود من القصة تسلية رسوله ﷺ خاطبه في أثنائها بقوله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمْ يقولون﴾؛ أي: كفار قريش: هذا الذي يقرؤه محمد علينا، ويقصه من خبر مَن قبلنا ﴿افتراه﴾ من عنده. ﴿قل﴾ لهم: ﴿إن افتريتُه﴾؛ تقديراً ﴿فعليَّ إجرامي﴾؛ أي: وباله عليَّ دونكم، ﴿وأنا بريء مما تُجرمون﴾؛ مما ترتكبون من الإجرام بتكذيبكم وكفركم.

الإشارة: ينبغي لمن قوبل بالتكذيب والإنكار أن يكتفي بعلم الله، ويقول لمن كذبه ما قال نبيه ﷺ لمن كذبه: (إن افتريته فعلي إجرامي...) الآية. وفي الحِكَم: «متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصـيبتك بـوجود الأذى منهم.».

قال الشـيخ زروق رضي الله عنه: وذلك لأن عدم قناعتك بعلمه يُصيبك في قلبك ودينك، وأذاهم يُصيبك في عرضك وبدنك ودنياك، وأيضاً: أذاهم يردك إليه، فهو فائدتك، وعدم القناعة بعلمه يردك إليهم، فهي مصيبة توجب ثلاثاً، هي علامة عدم القناعة بعلمه: أولها: التصنع والمراءاة، الثاني: طلب رضاهم بما أمكن في جميع الحالات. الثالث: إظهار علمه وعمله وحاله، ليعلموا برتبته.

والقناعة بعلمه علامتها ثلاث: أولها: قصد الإخلاص في كلٍّ، بحيث لا يبالي أين رآه الخلق، وكيف رأوه. الثاني: طلب رضاه بالعمل بطاعته، وترك مالا يرضيه، رضوا بذلك أو سخطوا. الثالث: الإكتفاء بعلمه فيما يجـري عليه من حـكمه وحـكمتـه، قال إبراهيم التيمي رضي الله عنه لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيَّ؟ فقال:

يقولون إنه مرائي، فقال: الآن طاب العمل. قال بشر الحافي: اكتفى - والله - بعلم الله. فلم يحب أن يدخل مع علم الله غيره، وقال أيضاً: سكون النفس لقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي. وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: من أحب أن يعرف بشيء من الخير، أو يذكر به، فقد أشرك مع الله في عبادته؛ لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لا تنشر علمك، ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدقك الله. وإن كان لام العلة موجوداً، فَعِلَّة تكون بينك وبين الله من حيث أمرك، خير لك من عِلَّة تكون بينك وبين الناس، من حيث نهاك. ولَعِلَّةٌ تردك إلى الله خير لك من علة تقطعك عن الله. هـ. المراد منه.

ثم تمم قصة نوح عليه السلام، فقال:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك ﴾ بعد هذا ﴿ إلا من قد آمن ﴾ قبل، وكان هذا الوحي بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى. فكان الرجل منهم يأتيه بابنه، ويقول: يابني لا تصدق هذا الشيخ، فهكذا عهد إليَّ أبي وجدّي. فلما نزل الوحي وأيس من إيمانهم دعا عليهم، وقال: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾(١). قال له تعالى: ﴿ فلا تبتئس ﴾: تحزن وتغتم ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ من التكذيب والإيذاء، أقنطه أولاً من إيمانهم، ونهاه أن يغتم لأجلهم.

ثم أمره بصنع السفينة، فقال: ﴿ واصنع الفلكَ بأعيُننا ﴾؛ بحفظنا ورعايتنا، أو بمرأى منا ومسمع غير محتاج إلى آلة حفظ وحرس، ﴿ ووحينا ﴾ إليك، كيف تصنعها، رُوي أنه لما جهل صنعها أوحى الله إليه: أن اصنعها على مثال جُؤجُؤ الطائر. وروي أيضاً: أنها كانت مربعة الشكل، طويلة في السماء، ضيقة الأعلى، وأن المراد منها إنما كان الحفظ، لا سرعة المشي. والأول أرجح. أعني: على صورة ظهر الطائر. قال في الأساس: عملت سفينة نوح عليه السلام

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

من ساج، وهو خشب أسود، رزان، لا تكاد الأرض تبليه، يجلب من الهند.هـ. وفي رواية أخرى: صنعها نوح عليه السلام، وجبريل يصف له، فكان أسفلها كأسفل السفن وأعلاها كالسقف، وداخلها كالبيت، ولها أبواب في جوانبها. هـ.

ثم إن نوحاً عليه السلام لما تحقق هلاك قومه، رق عليهم، فَهَمّ أن يُراجع الله في شأنهم، فقال له تعالى: ﴿ ولا تخاطبني ﴾ ، ولا تراجعني ﴿ في الذين ظلموا ﴾ ، ولا تدع باستدفاع العذاب عنهم؛ ﴿ إنهم مُغرقون ﴾ : محكوم عليهم بالغرق لا محالة. فلا سبيل إلى كفه.

﴿ ويصنعُ الفلكَ ﴾ ، حكى ما وقع بصيغة الحال؛ استحضاراً لتلك الحال العجيبة، ﴿ وكلما مرَّ عليه ملأٌ ﴾ : جماعة ﴿ من قومه سَخِرُوا منه ﴾ : استهزءوا به، لأنه كان يعمل السفينة في برية بعيدة من الماء. أو أن عزته تنفي صنعته، فكانوا يضحكون منه، ويقولون له: صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً. ﴿ قال ﴾ لهم: ﴿ إنْ تسخروا منا فإنا نسخرُ منكم كما تسخرون ﴾ ، فنسخر منكم حين يأخذكم في الدنيا الغرق، وفي الآخرة الحرق. ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيه ﴾ ، وهو: الغرق، والحرق بعده، ﴿ ويحلُّ ﴾ أي: ينزل ﴿ عليه عذاب مقيمٌ ﴾ : دائم، وهو النار يوم القيامة.

الإشارة: إذا تحقق الولي بإعراض الخلق عنه، وأيس منهم أن يتبعوه. فلا يحزن، ولا يغتم منهم، ففي الله غنى عن كل شيء، وليس يُغني عنه شيء. وفي إعراض الخلق راحة لقلب الولي ولبدنه، فإذا سخروا منه فليقل في نفسه: إن تسخروا منا اليوم، فنسخر منكم حين تحقق الحقائق، فيرتفع المقربون، ويتسفل الباطلون، وكان شيخ أشياخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه كثيراً ما يقول: ليت القيامة قامت، حتى يظهر الرجال من غيرهم. أو ما هذا معناه.

ثم ذكر مبدأ الطوفان، فقال:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠) ﴾

قلت: حتى: غاية لقوله: (ويصنع الفلك)، أو ابتدائية. و(اثنين) مفعول باحمل، و(أهلك): عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ حتى إذا جاء أمرُنا ﴾ بغرقهم، أو أمرنا للأرض بالفوران وللسحاب بالإرسال، ﴿ وفار التنورُ ﴾ ؛ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور. والتنور: تنور الخبز، ابتدأ منه النبوع، على خرق العادة، أرادت ابنته أن تسجره ففار الماء في النار، رُوِي أنه كان تنور آدم، خلص إلى نوح، فكان يوقد فيه، وقيل: كان في الكوفة في موضع مسجدها. وقيل: في الهند، وقيل: التنور: وجه الأرض(١) . قاله ابن عباس.

(١) ورجح الطبري القول الأول؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب.

فلما فار بالماء ﴿ قلنا احْمِلْ فيها ﴾؛ في السفينة، ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾؛ من كل نوع من الحيوان؛ ذكراً وأنثى - رُوِي أن نوحا عليه السلام وقف على باب السفينة، وحشر إليه الوحوش، فكان الذكر يقع في يمينه، والأنثى في شماله، وهو يُدخل في السفينة. وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه؛ فزجره نوح فلم ينعق، فدخل معه، فجلس عند مؤخرالسفينة. ورُوِي أن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزبل والعذرة، فأوحى الله إليه: أن امسح على ذنب الفيل، ففعل فخرج من أنفه خنزير وخنزيرة، فكفياه أمر ذلك الأذى. ورُوي أن الفأر آذى الناس، فأوحى الله إليه: أن امسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هرٌ وهرةٌ. فكفياه أمر الفأر[١]. انظر ابن عطية.

﴿ و ﴾ احمل أيضاً ﴿ أهْلَكَ ﴾ أي: امرأتك وبنيك ونساءهم، ﴿ إلا من سبقَ عليه القولُ ﴾ أنه من المغرقين يريد: ابنه كنعان وأمه واعلة، فإنهما كانا كافرين. ﴿ و ﴾ احمل ﴿ من آمن ﴾ بك. قال تعالى: ﴿ وما آمن معه إلا قليلٌ ﴾، قيل: كانوا تسعة وسبعين: زوجته المسلمة، وبنوه الثلاثة: حام وسام ويافث، ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. وفي بعض الآثار: أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش»[٢]. قاله ابن عطية. وسيأتي خلافه في سورة الصافات. وهو الراجح. وقال البيضاوي: روي أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها ثلاثين. وجعل لها ثلاثة بطون. فحمل في أسفلها الدواب والوحش، وفي وسطها الإنس، وفي أعلاها الطير. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حتى إذا جاء أمرنا بكمال الطهارة من العيوب، وفار تنور القلب بعلم الغيوب، وجرت سفينة الفكرة في بحار التوحيد، وأسرار التفريد، قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين؛ علم الشريعة والحقيقة، وعلم الحكمة والقدرة، وعلم الحس والمعنى، وعلم الأشباح والأرواح، وعلم الملك والملكوت. وتحمل من تمسك بها من أهل المحبة والوداد، إلا من سبق عليه القول بالمكث في مقام البعاد، وتحمل من آمن بخصوصيتها من العباد، فتقربه من مسلك التوفيق والتسديد، حين يمن الحق تعالى عليها بالقرب من أهل المحبة والوداد. وبالله التوفيق.

ثم أمرهم بالركوب في السفينة، فقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(١) هذه الأخبار ذكرها الطبري وغيره، وهي من الإسرائيليات التي ينبغي تنقية كتب التفسير منها.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٩ والترمذي وحسنه في (المناقب، باب فضل العرب) والحاكم في المستدرك (٢/٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبي، عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه.

قلت : (مَجْرِيها ومرساها) : مشتقان من الجرى والإرسال، أى: الثبوت، وهما إما ظرفان زمانيان، أو مكانيان، وإما مصدران، والعامل فيهما: ما فى (بسم الله) من معنى الفعل. وإعراب «بسم الله»: إما حال مقدرة من الضمير فى «اركبوا»، أى: اركبوا متبركين بسم الله، أو قائلين: بسم الله، وقت إجرائها وإرسائها. أو (مجراها ومرساها): مبتدأ، و(بسم الله): خبر. فيوقف على (فيها) ؛ أى: إجراؤها وإرساؤها حاصل بسم الله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقال ﴾ نوح لمن كان معه: ﴿ اركبوا ﴾ فى السفينة وسيروا فيها. رُوى أنهم ركبوا أول يوم من رجب، وقيل: يوم العاشر منه، واستوت على الجودى يوم عاشوراء، ﴿ بسم الله مَجْرِيها ومُرْساها ﴾ أى: متبركين بسم الله وقت إجرائها، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها، روى: أنه ﷺ كان إذا أراد أن يجرى السفينة قال: بسم الله، فتجرى، وإن أراد أن يوقفها قال: بسم الله، فتوقف. ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ ، فلولا مغفرته لما فرط منكم، ورحمته إياكم، لَما أنجاكم. فركبوا مسلمين وساروا .

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾، والموج: ما يرتفع من الماء عند اضطرابه، أى: كل موجة من الطوفان كالجبال فى تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء أطبق ما بين السماء والأرض، وكانت السفينة تجرى فى جوفه، لم يثبت. وكيف يكون الموج كالجبال؟ والمشهور أنه علا شوامخ الجبال، خمسة عشر ذراعاً، وإنْ صح ذلك فلعل ارتفاع الموج كالجبال كان قبل التطبيق.

﴿ ونادى نوحٌ ابنَه ﴾ ، كان كنعان. وقيل: كان لغير رشدة، وهو خطأ؛ لأن الأنبياء عُصمت من أن تزنى أزواجهم. والمراد بالخيانة فى قوله: ﴿ فَخَانَتَاهُما ﴾[1] ، فى الدين. ﴿ وكان في معزل ﴾ ؛ فى ناحية، عزل نفسه فيها عن أبيه، أو عن دينه، فقال له أبوه: ﴿ يابُنيَّ اركب معنا ﴾ فى السفينة، ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ فى الدين، أو فى الاعتزال عنا، وكان يظنه مؤمناً، لإخفاء كفره. ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمُني ﴾ ؛ يمنعنى ﴿ من الماء ﴾ ، فلا أغرق، ﴿ قال لا عاصمَ اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أى: إلا الراحم، وهو الله، فلا عاصم إلا أرحم الراحمين. أو: «لا عاصم»؛ لا ذو عصمة إلا من رحم الله، فلا معصوم إلا من رحمه الله. فالاستثناء حينئذ متصل. أو: لا عاصم اليوم من أمر الله لكن من رحمه الله فهو المعصوم. أو: لا ذو عصمة لكن الراحم يعصم من شاء، والاستثناء منقطع.

﴿ وحال بينهما الموجُ ﴾ ؛ بين نوح وابنه، ﴿ فكان من المغرَقين ﴾ ؛ فصار من المهلكين بالماء. رُوى أنه صنع بيتاً من زجاج، وحمل معه طعامه وشرابه، وصعد على وجه الماء فسلط الله عليه البول حتى غرق فى بوله[2] .
والله تعالى أعلم بشأنه.

---
(١) من الآية : ١٠ من سورة التحريم.
(٢) الآية صريحة فى أن الولد أراد أن يأوى إلى جبل يعصمه من الماء .. فماذا ينفع الزجاج هنا. وماذكره الشيخ المفسر لا دليل عليه.

الإشارة: إذا دخل العارف في بحر الفناء، وغاب عن حسه ورسمه، واتصل معناه ببحر معاني الأسرار، جرت سفينة فكرته في بحر الذات وأنوار الصفات، فقال لأصحابه: اركبوا فيها، بسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، حيث غطى وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته. فوصلكم بما منه إليه، لا بما منكم إليه. فصارت سفن الأفكار تجري بهم في موج كالجبال، وهي تيار بحر الذات. فالخمرة الأزلية الخفية الصافية بحر لا ساحل له، وما ظهر من أنوار الصفات أمواجه. فأنوار الآثار هي أمواج البحار، وما عظم من أمواجه يسمى التيار، ولذلك قيل: العارفون يغرقون في بحر الذات، وتيار الصفات، فتراهم إذا غرقوا في بحر الأسرار وتيار الأنوار، وساروا فيها بمدد أسرارهم، تلاطمت عليهم أمواجه. وهي تجري بهم في موج كالجبال، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، فآواه إلى جبل السنة المحمدية. فكان من الناجين.

وآخرون حال بينهم الموج، فكانوا من المغرقين، فالتبس الأمر عليهم، فقالوا بالحلول والاتحاد، أو نفي الحكمة والأحكام. وهذا في حق من ركب بلا رئيس ماهر، وإلا رده إلى سفينة النجاة، وهي: التمسك بالشريعة المحمدية في الظاهر، والتحقق بالحقيقة الأصلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر انتهاء الطوفان، فقال:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت: (بعدا): منصوب على المصدر، أي: أبعدوا بعداً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقيل ﴾ أي: قال الله: ﴿ يا أرضُ ابلعي ماءك ﴾ الذي خرج منك، فانفتحت أفواهاً، فرجع إليها ما خرج منها، ﴿ ويا سماءُ أقلعي ﴾: أمسكي عن الأمطار. رُوي أنها أمطرت من كل موضع، فبقي ما نزل منها بحاراً على وجه الأرض.

قال البيضاوي: نوديا بما ينادي به أولو العلم، وأمرا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما، بالأمر المطاع، الذي يأمر المنقاد لحكمه، المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمته، وخشية من أليم عقابه. والبلع: النشف، والإقلاع: الإمساك. هـ.

﴿ وغيضَ الماءُ ﴾: نقص ولم ينشف ما خرج منها، ﴿ وقُضيَ الأمرُ ﴾: وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين، ﴿ واستوتْ ﴾: استقرت السفينة ﴿ على الجُودي ﴾: جبل بالموصل. وقيل: بالشام. وتقدم أنه

نزل يوم عاشوراء، فصامه شكراً. وبقي ستة أشهر على الماء. ﴿ وقيل بُعْداً للقوم الظالمين ﴾؛ هلاكاً لهم. يقال: بعد، إذا بعد بعداً بعيداً، بحيث لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك. وخص بدعاء السوء.

والآية ـ كما ترى ـ في غاية الفصاحة؛ لفخامة لفظها وحسن نظمها، والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه، مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره؛ للعلم به، فإن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار. قاله البيضاوي.

فإن قلت: قد عم الغرق الدنيا كلها، مع أن دعوة نوح عليه السلام لم تكن عامة، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(١)؟ فالجواب: أن الكفر قد كان عم الموجودين في ذلك الزمان، مع تمكنهم من النظر والاستدلال على الصانع وتوحيده، ومع قدرتهم على الإتيان إلى نوح في أمر الشرائع، فقصروا في الجهتين. وأيضاً: لم تكن الأرض كلها معمورة بالناس، فكل من كان موجوداً سمع بدعوة نوح فجحدها. والله تعالى أعلم. وانظر ابن عطية عند قوله: ﴿ واصنع الفلك ﴾. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا توالت على القلب الواردات الإلهية السماوية، والأحوال النفسانية المزعجة، خيف على العقل الاختطاف والاصطلام، فقيل يا أرض النفس ابلعي ماءك واسكني، ويا سماء الواردات أقلعي، وغيض الماء، أي: نقص هيجان الحال، وقضى الأمر بالاعتدال، واستوت سفينة الفكرة على جبل العقل، فحاز الشرف والكمال؛ لكونه برزخاً بين بحرين، يعطي الحقيقة حقها والشريعة حقها، فيعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه. وقيل: بُعداً لمن تخلف عن هذا المقام، وظلم نفسه بإلقائها في سجن الهوى وغيهب الظلام. والله تعالى أعلم.

ولمّا غرق كنعان مع من غرق، استفهم نوح عليه السلام ربه عن الوعد الذي وعده بإنجاء أهله، كما قال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) من الآية: ١٥ من سورة الإسراء.

قلت: (وإنّ وعدك): عطف على (إن ابني). و(أنت أحكم): حال من الكاف. و(إني أعظك): مفعول من أجله، أي: كراهية أن تكون من الجاهلين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ونادى نوحٌ ربَّه﴾ بعد تعميم الغرق، أي: أراد النداء بدليل عطف قوله: ﴿فقال ربِّ إنَّ ابني من أهلي﴾، فإنه هو النداء، أو تكون فصيحة؛ جواباً عن مقدر، كأن قائلا قال: ماذا قال في ندائه؟ فقال: إن ابني من أهلي وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي، ﴿وإن وعدكَ الحقُّ﴾ لا يتطرقه الخلف، فما باله غرِق؟ ﴿وأنت أحكمُ الحاكمين﴾؛ لأنك أعلمهم وأعدلهم، فلم أعرف وجه حكمك عليه بالغرق. أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم، فلم أفهم حكمة غرقه.

﴿قال﴾ تعالى: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك﴾؛ لأنه خالفك في الدين، ولا ولاية بين الكافر والمؤمن، ﴿إنه عملٌ غير صالح﴾ أي: ذو عمل فاسد. جعل ذاته نفس العمل؛ مبالغةً. وقرأ الكسائي ويعقوب: (عَمِلَ) بلفظ الماضي. أي: عمل عملاً فاسداً، استحق به البعد عنك. أو: إنه ـ أي سؤالك ـ عملٌ غير صالح. ويقوى هذا قراءة ابن مسعود: «إنه عمل غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم». وقراءة الجماعة: ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ﴾ أصواب هو أم لا، حتى تقف على كنهه. وإنما سمى نداءه سؤالاً؛ لتضمنه معنى السؤال، بذكر الوعد واستنجازه واستفسار المانع.

ثم وعظه بقوله: ﴿إني أعظُكَ أن تكون من الجاهلين﴾ أي: إني أعظك؛ كراهة أن تكون من الجاهلين، الذين يسألون ما لا يوافق القدر. وقد استثنيته بقولي: ﴿إلا من سبق عليه القول﴾. وليس فيه وصفه بالجهل، بل وعظه لئلا يقع فيه، والحامل له على السؤال، مع أنه استثنى له؛ غلبة الشفقة على الولد، مع كونه لم يتحقق أنه ممن سبق عليه القول.

﴿قال﴾ نوح: يا ﴿رب إني أعوذُ بك أن أسألكَ﴾ في المستقبل ﴿ما ليس لي به علمٌ﴾؛ ما لا علم لي بصحته. ﴿وإلا تغفرْ لي﴾ ما فرط مني من السؤال، ﴿وترحمني﴾ بالتوبة؛ تفضلاً وإحساناً، وبالتوفيق والعصمة في المستقبل، ﴿أكن من الخاسرين﴾ بسوء أدبي معك.

الإشارة: قال الورتجبي: أدّب نبيه نوحاً عليه السلام بأن لا يسأل إلا ما وافق القدر. وكل دعاء لم يوافق مراده تعالى في سابق علمه لم يؤثر في مراد الداعي. وقوله: (إنه عمل غير صالح) أي: ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظه، وقال: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين)، الجاهل: من جهل قدر الله، أي: أنزهك عن سوء الأدب في السؤال، على غير قاعدة مرادك. هـ. وقال في الحكم: «ليس الشأن وجوب الطلب، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب».

ثم أمره بالنزول إلى الأرض من السفينة، فقال:

﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت : «تلك»: مبتدأ. و«من أنباء»: خبر. و«نوحيها» : خبر ثان، و«ما كنت تعلمها»: خبر ثالث، أو حال من الهاء، أي: حال كونها مجهولة عندك وعند قومك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قيل يا نوحُ اهبط﴾ من السفينة إلى عمارة الأرض ﴿بسلامٍ منّا﴾، أي: متلبساً بسلامة من المكاره، من جهة حفظنا ورعايتنا. أو مسلماً عليك.﴿ وبركات عليك﴾؛ وزيادات فى نسلك حتى تصير آدماً ثانيا. فالبركة هى: الخير النامى. أو: مباركاً عليك، ﴿ وعلى أمم ممن معكَ﴾ أى: هم الذين معك، أو ناشئة ممن معك، فقد تشعبت الأمم ممن معه من ذريته. والمراد: المؤمنون، بدليل قوله: ﴿ وأمم سنمتعهم﴾ فى الدنيا، ونوسع عليهم فيها، ﴿ ثم يمسُّهم منا عذاب أليم﴾ فى الآخرة، وهم الكفار ممن نشأ من ذريته. وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذاب: ما نزل بهم فى الدنيا.

﴿ تلك﴾ القصة، أو خبر نوح عليه السلام ، هى ﴿من أنباء الغيب﴾ أى: بعض أخبار الغيب ﴿ نُوحيها إليك﴾؛ لا طريق إلى معرفتها إلا الوحى، ﴿ ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُك من قبل هذا﴾ الوقت لولا إيحاؤنا إليك بها، فهى من دلائل نبوتك؛ لأنك لم تغب عنهم، ولم تخالط غيرهم، فتعين أنه من عند الله. فإن كذبوك ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ وأنت أعظمهم. فالعاقبة لك فى الدنيا بالنصر والعز، وفى الآخرة بالرفيق الأعلى. أو فاصبر على مشاق التبليغ مع إيذاية قومك، كما صبر نوح عليه السلام. إن العاقبة للمتقين بالنصر فى الدنيا، والجنة فى الآخرة.

الإشارة: يقال للمريد إذا تمكن من الفناء، وارتفعت فكرته عن عالم الأكوان: اهبط إلى مقام البقاء؛ لتقوم بآداب العبودية بعد مشاهدة عظمة الربوبية، انزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ فى اليقين، لا بقصد متابعة الشهوة والمتعة. اهبط بسلام منا؛ أى: بسلامة من الرجوع أو الشقاء، وبركات عليك وعلى من تبعك. ولذلك قيل: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وأمم قد ضلوا عن متابعتك، سنمتعهم فى الدنيا بمتابعة الهوى، ثم يمسهم منا عذاب الحجاب وسوء الحساب. تلك الواردات الإلهية نُوحيها إليك، ما كنت تعلمها أيها العارف من قبل هذا، أنت ولا من تبعك، فاصبر؛ فإن الجمال مقرون بالجلال، والعاقبة للمتقين. والله تعالى أعلم.

﴿ قال ﴾ هود عليه السلام: ﴿ إني أُشهد الله ﴾ على براءتي من شرككم، ﴿ واشهدوا أني بريء مما تُشركون من دونه فكيدوني ﴾ أي: اقصدوا كيدي وهلاكي، ﴿ جميعاً ﴾، أنتم وشركاؤكم، ﴿ ثم لا تنظرون ﴾؛ لا تؤخرون ساعة. وهذا من جملة معجزاته، فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة، والفتاك العطاش إلى إراقة دمه، بهذا الكلام، ليس إلا لتيقنه بالله، ومنعهم من إضراره ليس إلا لعصمته إياه. ولذلك عقبه بقوله: ﴿ إني توكلتُ على الله ربي وربكم ﴾، فهو تقرير له. والمعنى: أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني؛ فإني متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكي ومالككم، لا يحيق بي ما لم يرده، ولا تقدرون على ما لم يقدره.

ثم برهن عليه بقوله: ﴿ ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ﴾: إلا وهو مالك لها، قادرٌ عليها، يصرفها على مايريد بها. والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. قاله البيضاوي. وقال ابن جزي: أي: هي في قبضته وتحت قهره، وهذه الجملة تعليل لقوة توكله على الله، وعدم مبالاته بالخلق. هـ. ﴿ إن ربي عليّ صراطٍ مستقيم ﴾ أي: إنه على الحق والعدل، ولا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم. وقال في القوت: أخبر عن عدله في محله، وقيام حكمته، وأنه وإن كان آخذاً بنواصي العباد في الخير والشر، والنفع والضر؛ لاقتداره، فإن ذلك مستقيم في عدله، وصواب من حكمه. هـ.

﴿ فإن تولَّوا ﴾ أي: فإن تتولوا وتُعرضوا عما جئتكم به، ﴿ فقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم ﴾. أي: فقد أديت ما عليّ من الإبلاغ، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم؛ فقد جاءكم النذير، وقامت الحجة عليكم، وما بقي إلا هلاككم. ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يسكنون دياركم، ويعمرون بلادكم، فإن عتوا وطغوا سلك بهم مسلككم، ﴿ ولا تضرونه ﴾ بتوليكم عن الإيمان به، ﴿ شيئاً ﴾ من الضرر. أو لا تضرونه شيئاً إذا أهلككم واستخلف غيركم، ﴿ إن ربي على كل شيءٍ حفيظٌ ﴾؛ رقيب، فلا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم. أو حافظ مستول عليه، فلا يمكن أن يضره شيء. قاله البيضاوي.

الإشارة: ما يقال للأولياء إلا ما قيل للرسل، فإذا توجه العبد إلى مولاه، وسقط على من هو أهل للتربية، وترك ما كان عليه قبل من الانتساب إلى غيره، وخرق عوائد نفسه، أو أصابه شيء من المكاره، قال الناس: ما أعتراه إلا بعض الصالحين بسوء، فيقول لهم: إني أُشهد الله، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه. فإن أجمعوا على إضراره أو قتله قال لهم: فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون.

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾، وأنتم دواب مقهورون تحت قبضة الحق، ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾؛ لا ينتقم إلا من أهل الانتقام، «من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، فإن ذكرهم بالله ودلهم على الطريق، فكذبوه وأعرضوا عنه، قال: عسى أن يذهب بكم، ويستخلف قوماً غيركم، يكونون متوجهين إليه أكثر منكم، ولا تضرونه شيئا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نزول العذاب الذي وعدهم به، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: إنما قال هنا وفي قصة شعيب: (ولما)، بالواو، وفي قصة صالح ولوط: (فلما)، بالفاء؛ لأن قصة صالح ولوط ذكرهما بعد الوعيد، في بالفاء التي تقتضي التسبب، كما تقول: وعدته فلما جاء الوعيد كان.. الخ، بخلاف قصة هود وشعيب لم يتقدم ذلك فيهما، فعطف بالواو. قاله الزمخشري.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾: عذابنا، أو أمرنا بالعذاب، ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾، وكانوا أربعة آلاف، ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾، وهو ريح السموم، وكانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أمعاءهم. والتكرير؛ لبيان ما نجاهم منه، وإعلاماً بأنه عذاب غليظ، وتعديداً للنعمة في نجاتهم. ويحتمل أن يريد بالنجاة الأولى: من عذاب الدنيا، وهو الريح الذي نزل بقومهم، وبالنجاة الثانية: عذاب الآخرة، وهو العذاب الغليظ، ولذلك عطفه على النجاة الأولى التي أراد بها النجاة من الريح.

﴿ وتلك عادٌ ﴾؛ الإشارة إلى القبيلة، أو إلى قبورهم وآثارهم؛ تهويلاً وتهديداً، ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾؛ كفروا بها، ﴿ وعصوا رسله ﴾، والجمع إما لأنّ من عصى رسولاً فكأنما عصى الكل؛ لأنهم متفقون في الدعوة، مع أنهم أُمروا بطاعة كل رسول. وإمّا على إرادة الجنس، كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلا فرساً واحداً. ﴿ واتبعوا أمر كلِّ جبارٍ عنيد ﴾ يعني: كبراءهم الطاغين، والعنيد: الطاغي، والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم، ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامة ﴾ أي: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين؛ في الدنيا أهلكتهم، وفي الآخرة أحرقتهم.

﴿ ألا إن عاداً كفروا ربَّهم ﴾؛ جحدوه، أو كفروا نعمه. وفيه تشنيع لكفرهم وتهويل لأمرهم، بالإتيان بحرف التنبيه، وتكرار اسم عاد؛ ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ أي: هلاكاً لهم، دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا؛ للدلالة على أنهم كانوا مستحقين له، مستوجبين لما نزل بهم؛ بسبب ما حكى عنهم. وإنما كرر «ألا»، وأعاد ذكرهم؛ تفظيعاً لأمرهم، وحثّاً على الاعتبار بحالهم. ثم بيَّنهم بقوله: ﴿ قوم هود ﴾. فهو عطف بيان لعاد، وفائدته: تمييزهم عن عاد الثانية، التي هي عاد إرم، والإيماء إلى [استحقاقهم للبعد](١) بما جرى بينهم وبينه. قاله البيضاوي.

---

(١) في الأصول: [استحقارهم له]. والمثبت هو الذي في تفسير البيضاوي.

الإشارة: من أراد سلامة الدارين والظفر بقرة العين، فليتمسك بالإيمان بالله، وبكل رسول أتى من عند الله، وليتبع من يدعو إلى الله. وهم أهل المحبة والوداد، السالكون مناهج الرشاد والسداد. وليتجنب كل جبار عنيد، وهو: كل من يحول بينك وبين الله، ويغفلك عن ذكر الله. وقوله تعالى: (ألا بُعداً لعاد) وأخواتها، فيها تخويف لأهل القرب والوصال.

قال في الإحياء: ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة، ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض، فأولها: خوف الإعراض، وأشد منه: خوف الحجاب، وأشد منه: خوف الإبعاد، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين، أنه سمع: (ألابُعداً لعاد)، (ألا بُعداً لمدين)، وإنما تعظم هيبةُ البُعد وخوفُه في قلب من ألف القرب وذاقه، وتنعّم به. ثم قال: ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا: أن درجات القرب لا نهاية لها.هـ.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت: قال الشطيبي: صالح: هو ابن عبيد بن عابَر بن أرْفَخْشد بن سام بن نوح. وثمود هم أولاد ثمود بن عوص بن عاد بن إرم بن سام بن نوح . هـ. وفيه نظر؛ فقد ذكر البيضاوي في سورة الأعراف أن بين صالح ونوح تسعة أجداد، فانظره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُه هو أنشأكم من الأرض﴾ كونكم من الأرض؛ لأنه خلق آدم منها، والنطف التي هي مواد نسله أصلها منها، ﴿واستعمركم﴾؛ عمركم ﴿فيها﴾ وجعلكم تعمرونها بعد من مضى قبلكم، ثم تتركونها لغيركم. أو استبقاكم فيها مدة أعماركم، ثم ترحلون عنها. ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريبٌ﴾ من كل شيء، ﴿مجيبٌ﴾ لمن دعاه .

﴿ قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي: كنا نرجو أن ننتفع بك؛ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد، فتكون لنا سيداً، أو مُستشاراً في الأمور، وأن توافقنا على ديننا، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا منك؛ ﴿ أتنهانا أن نعبدَ ما يعبد آباؤنا ﴾ قبلنا لتصرفنا عن ديننا، ﴿ وإننا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه ﴾ من التوحيد، والتبرى من الأوثان، ﴿ مُريب ﴾: موقع في الريبة؛ مبالغة في الشك، ﴿ قال ياقوم أرأيتُم إن كنتُ على بينة ﴾؛ طريقة واضحة ﴿ من ربي ﴾ وبصيرة نافذة منه، ﴿ وآتاني منه رحمةً ﴾: نبوة، ﴿ فمن ينصرني من الله ﴾؛ من يمنعني من عذابه ﴿ إن عصيته ﴾ وأطعتكم في ترك التبليغ، وموافقتكم في الدين الفاسد، ﴿ فما تزيدونني ﴾ باستتباعكم ﴿ غير تخسير ﴾ بترك ما منحني الله به، والتعرض لغضبه، أوفما تزيدونني بما تقولون لي غير تخسير لكم؛ لأنه يجركم إلى الخسران. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل منّ وجهه الحق تعالى يدعو إلى الله فإنما يدعو إلى خصلتين: إفراد الحق بنعوت الألوهية، والقيام بوظائف العبودية؛ شكراً لنعمة الإيجاد، وتوالي الإمداد. فقول صالح عليه السلام: (اعبدوا الله مالكم من إله غيره)، هذا إفراد الحق بالربوبية، وقوله: (هو أنشأكم من الأرض)، هذه نعمة الإيجاد. وقوله: (واستعمركم فيها) هي: نعمة الإمداد، وقوله: (فاستغفروه ثم توبوا إليه)، هو القيام بوظائف العبودية؛ شكراً لتلك النعمتين. وفي قوله: (إن ربي قريب مجيب): ترهيب وترغيب.

وقوله تعالى: (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا): يؤخذ من الآية: أن شعاع الخصوصية، وآثارها، تظهر على العبد قبل شروق أنوارها، وهو جار في خصوص النبوة والولاية، فلا تظهر على العبد في الغالب حتى يتقدمها آثار وأنوار، من مجاهدة أو أنس، أو اضطرار أو انكسار، أو عرق طيب. والله تعالى أعلم. وكل من واجهه منهم تكذيب أو إنكار يقول: (أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي...) الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة الناقة، فقال:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت : «آية» : نصبت على الحال، والعامل فيها: معنى الإشارة . و(لكم) : حال منها، تقدمت عليها لتنكيرها. و(من خزى يومئذ) ـ حذف المعطوف، أي: ونجيناهم من خزى يومئذ، ومن قرأ بكسر الميم أعربه، ومن قرأ بالفتح بناه ؛ لاكتساب المضاف البناء من المضاف إليه. قاله البيضاوى. وقال فى الألفية:

وابْنِ، أو اعرِبْ ما كإِذْ قَدْ أُجْرِيا   واخترْ بنَا متْلُو فعْلٍ بُنيا

وقبل فعْـل معرب أو مُبْتَدا   أعْرِبْ، ومنْ بنَى فلَنْ يُفنَّدا

وثمود: اسم قبيلة، يصح فيه الصرف باعتبار الحى أو الأب الأكبر، وعدمه باعتبار القبيلة. وقد جاء بالوجهين فى هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله : قال صالح لقومه بعد ظهور آية الناقة، وقد تقدم فى الأعراف قصتها: ﴿ هذه ناقةُ الله لكم آيةً ﴾ تدل على صدقى، ﴿ فذروها تأكلْ في أرض الله ﴾ ؛ أى: ترعى نباتها وتشرب ماءها، ﴿ ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذابٌ قريب ﴾ : عاجل، لا يتأخر عن مسكم لها بالسوء إلا ثلاثة أيام. ﴿ فعقروها ﴾ وقسموا لحمها، ﴿ فقال ﴾ لهم: ﴿تمتعوا﴾: عيشوا ﴿ في داركم ﴾ ؛ منازلكم ﴿ ثلاثةَ أيام ﴾ ؛ الأربعاء والخميس والجمعة. وقيل: عقروها يوم الأربعاء، وتأخروا الخميس والجمعة والسبت، وهلكوا يوم الأحد. ﴿ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب ﴾ فيه، بل هو حق.

﴿ فلما جاء أمرُنا ﴾ : عذابنا، أو أمرنا بهلاكهم، ﴿ نجينا صالحاً والذين آمنوا معه ﴾، قيل: كانوا ألفين وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل: أربعة آلاف، وقال كعب: كان قوم صالح أربعة عشر ألفاً، سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. انظر القرطبى. قلت: وقول كعب: كان قوم صالح... إلخ، لعله يعنى الجميع: من آمن ومن لم يؤمن، فآمن ألفان وثمانمائة، وهلك الباقى. وكذا هود، أسلم أربعة آلاف، وهلك الباقى.

قال تعالى: فنجينا ﴿ صالحاً ﴾ ومن معه ﴿ برحمة منا ﴾ ، ونجيناهم ﴿ من خِزْيِ يومئذ ﴾ وهو: هلاكهم بالصيحة، أو من هوان يوم القيامة، ﴿ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ ؛ القادر على كل شيء، الغالب عليه، ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ ؛ باركين على ركبهم، ميتين، ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ : يعيشوا، أو يقيموا ﴿ فيها ﴾ ساعة، ﴿ ألا إن ثمودَ كفروا ربهم ﴾ ؛ جحدوه، ﴿ ألا بُعداً لثمود ﴾ ؛ هلاكاً وسحقاً لهم.

الإشارة : ما رأينا أحداً ربح من ولى وهو يطلب منه إظهار الكرامة، بل إذا أراد الله أن يوصل عبداً إليه كشف له عن سر خصوصيته، بلا توقف على كرامة. وقد يظهرها الله له بلا طلب؛ تأييدًا له، وزيادةً فى إيقانه، فإن طلب الكرامة، وظهرت له، ثم أعرض عنه ، فلا أحد أبعدُ منه. قال تعالى، فى حق من رأى المعجزة ثم أعرض: (ألا بعداً لثمود). وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة لوط، مع ما تقدمها من بشارة إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

قلت: «سلاماً»: منصوب على المصدر، أي: سلمنا سلاماً. ويجوز نصبه بقالوا؛ لتضمنه معنى ذكروا. (قال سلام): إما خبر، أي: أمرنا سلام، أو جواب سلام، وإما مبتدأ، أي: عليكم سلام. وكسر السين: لغة. وإنما رفع جوابه ليدل على ثبوت سلامه؛ فيكون قد حياهم بأحسن مما حيوه به. (فما لبث أن جاء)؛ «ما»: نافية «وأن جاء»: فاعل «لبث». ونكر وأنكر بمعنى واحد. والإيجاس: الإدراك أو الإضمار. و(من وراء إسحاق يعقوب): من قرأ بالنصب فبفعل دل عليه الكلام، أي: ووهبنا لها يعقوب. ومن رفعه فمبتدأ، أي: ويعقوب مولود من بعده. و(شيخاً): حال، والعامل فيه: الإشارة، أي: أشير إليه شيخاً. و(أهل البيت): نصب على المدح والاختصاص، أو على النداء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم﴾، وهم الملائكة، قيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: تسعة، جاءوه ﴿بالبشرى﴾؛ بالولد. فلما دخلوا عليه ﴿قالوا سلاماً﴾ أي: سلمنا عليك سلاماً، أو ذكروا سلاماً، ﴿قال سلام﴾ أي: عليكم سلام، ﴿فما لبث﴾ أي: أبطأ، ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾؛ مشوى بالرضف، أي: بالحجر المحمى. وقيل: حنيذ بمعنى يقطر ودكه[1]. كقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[2]، فامتنعوا من أكله، ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾؛ لا يمدون إليه أيديهم، ﴿نكرهم﴾ أي: أنكر ذلك منهم، ﴿وأوجس﴾: أدرك، أو أضمر ﴿منهم خيفة﴾ أي: خوفاً، خاف أن يريدوا به مكروهاً؛ لامتناعهم من طعامه، وكان من عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه.

والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه فأمنوه، وقالوا: ﴿لاتخفْ إنا﴾ ملائكة ﴿أرسلنا إلى قوم لوط﴾ لنعذبهم، وإنما لم نأكل طعامك؛ لأنا لا نأكل الطعام. ﴿وامرأته قائمة﴾ من وراء ستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة، ﴿فضحكتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو بهلاك

---

(١) الودك: دسم اللحم.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة الذاريات.

أهل الفساد، أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً، فإني لأعلم أن العذاب نازل بهؤلاء القوم. وقيل: معنى ضحكت: حاضت. يقال: ضحكت الشجرة: إذا سال صمغها. وقيل: ضحكت سروراً بالولد الذى بُشرت به. فيكون فى الكلام تقديم وتأخير، أى: فبشرناها فضحكت، وهو ضعيف.

قال تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاق يعقوبَ ﴾ ولد ولدها. وتوجيه البشارة إليها؛ لأنه من نسلها، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد، ﴿ قالتِ ياويلتا ﴾؛ يا عجباً، وأصله في الشر، فأطلق على كل أمر فظيع. وقرئ بالياء على الأصل، أى: ياويلتي ﴿ أألدُ وأنا عجوزٌ ﴾ ابنة تسعين، أو تسع وتسعين ﴿ وهذا بعلى ﴾: زوجى، وأصله: القائم بالأمر، ﴿ شيخاً ﴾؛ ابن مائة أو مائة وعشرين سنة، ﴿ إنَّ هذا لشيء عجيب ﴾ يتعجب منه؛ لكونه نشأ الولد من هرمين.

وهو استغراب من حيث العادة، لا من حيث القدرة، ولذلك قالوا: ﴿ أتعجبينَ من أمر الله ﴾؛ منكرين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي ومظهر المعجزات. وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع، ولذلك قالوا: ﴿ رحمةُ الله وبركاته عليكم أهلَ البيت ﴾ أى: بيت إبراهيم، فلا تستغرب ما يظهر منهم من خوارق العادات، لا سيما من نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، ﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ حميدٌ ﴾؛ فاعل ما يستوجب به الحمد، أو محمود على كل حال، ﴿ مجيد ﴾؛ كثير الخير والإحسان. أو ممجَّد بمعنى العلو والشرف التام. قال ابن عطية هنا: إن في الآية دليلاً على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق. وفيه نظر[1]. وسيأتى فى سورة الصافات ما هو الحق، إن شاء الله تعالى.

الإشارة: من شأن أهل الكرم والامتنان: المبادرة إلى من أتاهم بالبر والإحسان؛ إما بقوت الأرواح، أو بقوت الأشباح. من أتاهم لقوت الأرواح بادروه بإمداد الروح من اليقين والمعرفة، ومن أتاهم لقوت الأشباح بادروه بالطعام والشراب، كُلاً ما يليق به، ومن شأن الضيف اللبيب المبادرة إلى أكل ما قُدم إليه، من غير اختيار، إلا لمانع شرعى أو عادى. ومن شأن أهل التحقيق والتصديق ألا يتعجبوا مما يظهر من القدرة من الخوارق؛ إذ القدرة صالحة لكل شيء، حاكمة على كل شيء، هى تحكم على العادة، لا العادة تحكم عليها. وهذا شأن الصديقين؛ لا يتعجبون من شيء؛ ولا يستغربون شيئاً، ولذلك توجه الإنكار إلى سارة من الملائكة، ولم يتوجه إلى مريم؛ حيث سألت؛ استفهاماً، ولم تتعجب، ووصفت بالصديقية دون سارة. والله تعالى أعلم.

ولما تحقق إبراهيم عليه السلام بهلاك قوم لوط أسف عليهم، كما قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) راجع، مع تقريرنا بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

قلت : «لما»: حرف وجود لوجود، تفتقر للشرط والجواب. فشرطها: «ذهب»، وجوابها: محذوف، أي: جعل يجادلنا. والتأوه: التفجع والتأسف، ومنه قول الشاعر.

إذا ما قمتُ أرحلُها بليلٍ تأوَّهُ آهةَ الرجل الحزين(١)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الرَّوعُ ﴾، وهو ما أوجس في نفسه من الخيفة، ﴿ وجاءته البشرى ﴾ بدل الروع، جعل ﴿ يُجادلنا ﴾ أي: يخاصم رسلنا ﴿ في ﴾ شأن ﴿ قوم لوط ﴾، ويدافع عنهم، قال: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾(٢)، ﴿ إن إبراهيمَ لحليمٌ ﴾، غير عجول من الانتقام إلى من أساء إليه، ﴿ أواهٌ ﴾؛ كثير التأوه والتأسف على الناس، ﴿ منيب ﴾؛ راجع إلى الله. والمقصود من ذلك: بيان الحامل له على المجادلة، وهي: رقة قلبه وفرط ترحمه. قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿ يا إبراهيمُ أعرضْ عن هذا ﴾، الجدال؛ ﴿ إنه قد جاء أمرُ ربك ﴾ بهلاكهم، ونفذ قضاؤه الأزلي فيهم، ولا مرد لما قضى، ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾؛ غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

الإشارة: قال الورتجبي: قوله تعالى: (إن إبراهيم لحليم أواه)؛ حليم بأنه كان لا يدعو على قومه، بل قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣). وتأوه زفرة قلبه من الشوق إلى جمال ربه، هكذا وصف العاشقين. ثم قال: ومجادلته كمال الانبساط، ولم يكن جهلاً، ولكن كان مُشفقاً، باراً كريماً، رأى مكانة نفسه في محل الخلة والاصطفائية القديمة، وهو تعالى يُحب غضب العارفين، وتغير المحبين، ومجادلة الصديقين، وانبساط العاشقين حتى يحثهم على ذلك.

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ قال: «لما أُسري بي رأيت رجلاً في الحضرة يتذمر، فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: أخوك موسى يَتَذَمَّرُ عَلَى ربِّه ـ أي: يجترئ عليه انبساطاً ـ فقلت: وهل يليق له ذلك؟ فقال: يعرفه؛ فيتحمل عنه» . ثم قال: ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم. هـ . قال في الصحاح: يَتَذَمَّرُ على فلان: إذا تَنَكَّرَ له وأَوْعَدَهُ. قاله المحشي.

والحاصل أن ابراهيم عليه السلام حملته الشفقة والرحمة، حتى صدر منه ما صدر مع خلته واصطفائيته، فالشفقة والرحمة من شأن الصالحين والعارفين المقربين، غير أن العارفين بالله مع مراد مولاهم، يشفقون على عباد الله، مالم يتعين مراد الله، فالله أرحم بعباده من غيره . ولذلك قال لخليله، لما تعين قضاؤه: ﴿ ياإبراهيم أعرض عن هذا ﴾.

(١) عزاه القرطبي في تفسيره إلى المثقب العبْدي.
(٢) من الآية: ٣٢ من سورة العنكبوت.
(٣) من الآية: ٣٦ من سورة ابراهيم.

فالشفقة التى تؤدى إلى معارضة القدر لا تليق بأهل الأقدار، وفى الحكم «ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله». ولهذا قالوا: الشفقة لا تليق بالأولياء.

قال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ: ست خصال لا تحسن بستة رجال: لا يحسن الطمع في العلماء، ولا العجلة في الأمراء، ولا الشح في الأغنياء، ولا الكبر في الفقراء، ولا الشفقة في المشايخ، ولا اللؤم في ذوى الأحساب. وقولنا: الشفقة لا تليق بالأولياء، يعني إذا تعين مراد الله، أو إذا ظهرت المصلحة في عدمها، كأمر الشيخ المريد بما تموت به نفسه، فإذا كان الشيخ يحن على الفقراء في هذا المعنى لا تكمل تربيته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك لوط، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: «سيء»: مبني للمفعول، أصله: سَوِئ، نُقلت حركة الواو إلى السين بعد ذهاب حركتها، ثم قلبت الواو ياء. و(ذرعا): تمييز محول عن الفاعل، أي: ضاق ذرعه، وهو كناية عن شدة الانقباض عن مدافعة الأمر المكروه، وعجزه عن مقاومته. و(لو أن لي بكم قوة): إما للتمني فلا جواب له، أو محذوف، أي: لدفعت.

وفي (أَسْرِ) لغتان: قطع الهمزة، من الإسراء، ووصلها من السُّرى، وقرئ بهما معاً، و(إلا امرأتك) بالرفع؛ بدل من (أحد)، وبالنصب؛ منصوب بالاستثناء من (فأسر بأهلك). ومنشأ القراءتين: هل أخرجها معه، فالتفتت أم لا؟ فمن رفع ذهب إلى أنه أخرجها. ومن نصب ذهب إلى أنه لم يسر بها، وهما روايتان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما جاءت رسلنا ﴾، وهم الملائكة المتقدمون، ﴿ لوطاً سيء بهم ﴾ ساءه مجيئُهم؛ لأنهم أتوه في صورة غلمان حسان الوجوه، فظن أنهم بشر، فخاف عليهم من قومه أن يقصدوهم للفاحشة، ولا يقدر على مدافعتهم، ﴿ وضاقَ بهم ذرعا ﴾ أي: ضاق صدره بهم، ﴿ وقال هذا يومٌ عصيبٌ ﴾: شديد، من عصبه: إذا شده، ورُوي أن الله تعالى قال لهم: لا تهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شُر قرية في الأرض عملاً. قال ذلك أربع مرات. فدخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرتهم، ﴿ وجاءه قومُه يُهرَعُون ﴾؛ يُسرعون ﴿ إليه ﴾ كأنهم يُدفعون إليه دفعا، لطلب الفاحشة من أضيافه.﴿ ومن قبل ﴾ ذلك الوقت ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾؛ الفواحش، كاللواطة وغيرها، مستمرين عليها مجاهرين بها، حتى لم يستحيوا، وجاءوا يهرعون إليها.

﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي ﴾ تزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل، فلا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار، فإنه شرع طارئ؛ قال ابن جزى: وإنما قال لهم ذلك؛ ليقي أضيافه ببناته. قيل: ان اسم بناته، الواحدة: ريثا، والأخرى: غوثا. هـ. ولم يذكر الثالثة، فعرضهن عليهم[1]، وقال: ﴿ هنَّ أطهرُ لكم ﴾؛ أحَل لكم، أو أقل فحشا، كقولك: الميتة أطيب من المغصوب، ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الفواحش، ﴿ ولا تُخزون ﴾؛ لا تفضحوني ﴿ في ضيفي ﴾؛ في شأنهم، فإن افتضاح ضيف الرجل خزى له. ﴿ أليس منكم رجلٌ رشيدٌ ﴾؛عاقل يهتدي إلى الحق ويرعوى عن القبيح.

﴿ قالوا لقدْ علمتَ ما لنا في بناتك من حقٍّ ﴾؛ من حاجة، ﴿ وإنك لتعلم ما نُريد ﴾ وهو إتيان الذكران، ﴿ قال لو أن لي ﴾؛ ليت لي ﴿ بكم قوةً ﴾؛ طاقة على دفعكم بنفسي، ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾؛ أو ألجأ إلى أصحاب أو عشيرةٍ يحمونَني منكم، شبه ما يتمنع بهم بركن الجبل في شدته، قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطاً لَقَد كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»[2] يعني: الله تعالى.

(١) قال مجاهد وغيره: إن المراد ببناته ﷺ نساء أمته، وأضافهم إليه؛ لأن كل نبي أب لأمته.
(٢) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب: «ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون»).

رُوِى أنه أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادلهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب؛ ﴿ قالوا يالوطُ إنا رُسلُ ربك لن يصلُوا إليك ﴾ : لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا، فهونْ عليك ودَعْنا وإياهم. فخلاهم، فلما دخلوا ضرب . جبريل عليه السلام بجناحيه وجوههم، فطمس أعينهم، وأعماهم، فخرجوا يقولون: النجاء؛ النجاء في بيت لوط سـحرة، فقالت الملائكة للوط عليه السلام: ﴿ فأسْرِ بأهلك ﴾؛ سر بهم ﴿ بقطعٍ من الليل ﴾ : بطائفة منه ، ﴿ ولا يلتفت منكم أحدٌ ﴾ : لا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه؛ لئلا يرى ما يهوله. والنهى فى المعنى يتوجه إلى لوط، وإن كان فى اللفظ مسنداً إلى أحد .

﴿ إلا امرأتَك ﴾ ، اسمها: واهلة. أي: فلا تسر بها، أو: ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه إلا امرأتك؛ فإنها تنظر. رُوِى أنها خرجت معه، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت: ياقوماه، ؛ فأدركها حجر فقتلها، ولذلك قال: ﴿ إنه مُصيبُها ما أصابهم ﴾ من العذاب، ﴿ إن موعدَهُم ﴾ وقت ﴿ الصُبحُ ﴾ فى نزول العذاب بهم، فاستبطأ لوط وقتَ الصبح، وقال: هلا عُذبوا الآن؟ فقالوا: ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ .

﴿ فلما جاء أمْرنا ﴾ ؛ عذابنا، أو أمرنا به، ﴿ جعلنا ﴾ مدائنهم ﴿ عاليَها سافلَها ﴾ ، رُوِى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم، ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة، ثم قلبها بهم.

﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ ؛ على المدائن، أي: أهلها، أو على ما حولها . رُوِى أنه من كان منهم خارجَ المدائن أصابته الحجارة من السماء، وأما من كان فى المدائن، فهلك لمّا قلبت. فأرسلنا عليهم ﴿ حجارةً من سجيل ﴾ : من طين طبخ بالنار، أو من طين متحجر كقوله: ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾[1]، وأصلها: سنكين[2] ؛ ثم عرب، وقيل: إنه من أسجله إذا أرسله، أي: من مثل الشيء المرسل، وقيل: أصله من سجين، أي: جهنم، ثم أبدلت نونه لاماً، ﴿ منضود ﴾ : مضموم بعضه فوق بعض، معداً لعذابهم، أو متتابع يتبع بعضه بعضاً فى الإرسال ، كقطر الأمطار.

﴿ مُسوّمةً ﴾ أي: معلمة للعذاب، وقيل: معلمة ببياض وحمرة، أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسْم من يرمى به؛ فكل حجارة كان فيها اسم من ترمى به، وقوله: ﴿ عند ربك ﴾ ، أي: فى خزائن علمه وقدرته، ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ ، بل هى قريبة من كل ظالم.

قال ابن جزى : الضمير للحجارة، والمراد بالظالمين: كفار قريش، فهذا تهديد لهم، أي: ليس الرمي بالحجارة ببعيد منهم؛ لأجل كفرهم، وقيل: الضمير للمدائن، أي: ليست مدائنهم ببعيد منهم؛ أفلا يعتبرون بها. كقوله:

---

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الذاريات.
(٣) فى البيضاوي: «سنْكَ كِلْ».

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾[١] . وقيل: الظالمين على العموم. هـ. وقال البيضاوي: وعنه - عليه الصلاة والسلام: «أنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيل، فقال: يَعْنِي: ظَالِمِي أُمَّتِكَ، مَا مِنْ ظَالِمٍ منهم؛ إلاَّ وَهُوَ معرض لحَجَرٍ يَسْقُط عَلَيْه مِنْ سَاعَةٍ، إلى ساعة»[٢]. هـ.

الإشارة : الاعتناء بشأن الأضياف، وحفظ حرمتهم: من شأن الكرام، والاستخفاف بحقهم، والتجاسر عليهم، من فعل اللئام. وفي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ». والإسراع إلى الفواحش من علامة الهلاك، لا سيما اللواط والسفاح. والإيواء إلى الله والاعتصام به من علامة الفلاح، والبعد عن ساحة أهل الفساد من شيم أهل الصلاح، وكل من اشتغل بالظلم والفساد فالرمي بالحجارة إليه بالمرصاد.

ثم ذكر قصة شعيب، فقال:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

قلت : «مفسدين» : حال مؤكدة لمعنى عاملها، وهو: «لا تعثوا» . وفائدة ذكره: إخراج ما يُقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه السلام.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى مَدْيَنَ أخاهم شعيباً ﴾ ، أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين، وهي بلده، فسميت باسمه، ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده؛ ﴿ مالكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيالَ والميزان ﴾ ، وكانوا مطففين. أمرهم أولا بالتوحيد؛ فإنه رأس الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من: البخس المنافي للعدل، المخل بحكمة المعاوضة، ثم قال لهم: ﴿ إني أراكم بخير ﴾ ؛ بسعة كرخص الأسعار، وكثرة الأرزاق، فينبغي أن تشكروا عليها، وتتعففوا بها عن البخس، لا أن تنقصوا الناس حقوقهم، أو بسعة ونعمة، فلا

(١) من الآية: ٤٠ من سورة الفرقان.

(٢) عزاه في الفتح السماوي (٧٢١/٢) للثعلبي مرفوعاً، بغير إسناد.

تزيلوها بما أنتم عليه؛ فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ﴿ وإني أخاف عليكم عذابَ يوم محيط ﴾؛ يوم القيامة، فإنه محيط بكل ظالم، أو عذاب الاستئصال في الدنيا، ووصف اليوم بالإحاطة، وهي صفة العذاب؛ لاشتماله عليه.

﴿ وياقوم أوفوا المكيالَ والميزان بالقسط ﴾؛ بالعدل من غير زيادة ولا نقصان. صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهي عن ضده؛ مبالغةً، وتنبيهاً على أنهم لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بالزيادة، حيث لا يتأتى دونها، وقد تكون الزيادة محظورة، ولذلك أمرهم بالعدل في قوله: (بالقسط)، بلا زيادة ولا نقصان .

﴿ ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم ﴾ لا تنقصوهم حقهم، وهو تعميم بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في الميزان والمكيال وفي غيره، وكذا قوله: ﴿ ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين ﴾؛ فإن العثو ـ وهو الفساد ـ يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل: المراد بالبخس: المكس، كأخذ العشور في المعاملات، والعثو: السرقة وقطع الطريق والغارة، وأكده بقوله: ﴿ مفسدين ﴾ وفائدته: إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعل الخضر عليه السلام، وقيل: معناه: مفسدين أمر دينكم ومصالح آخرتكم. قاله البيضاوي.

﴿ بقيتُ الله ﴾؛ أي: ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن الحرام، ﴿ خيرٌ لكم ﴾ مما تجمعون بالتطفيف، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن الإيمان يقتضي الاكتفاء بالحلال عن الحرام. أو إن كنتم مؤمنين فالبقية خير لكم، فإن خيريتها تظهر باعتبار الثواب والنجاة من العذاب، وذلك مشروط بالإيمان، أو: إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم. وقيل: البقية: الطاعة، كقوله: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾[1] . وقرىء، «تقية الله» بالتاء المثناة، وهي تقواه التي تكف عن المعاصي، ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾؛ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم عليها، إنما أنا نذير وناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو: أحفظكم عن القبائح وأمنعكم منها. أو: لست بحافظ عليكم نعم الله إن سُلبت عنكم بسوء صنيعكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما أمر الحق تعالى بالوفاء في الموازين أمر بالوفاء في الأعمال والأحوال والمقامات. ولذلك قيل للجنيد في النوم: [أفضل ما يتقرب به إلى الله عمل خفي، بميزان وفي] ، فالوفاء في الأعمال: إتقانها في الظاهر، باستيفاء شروطها وآدابها، وإخلاصها في الباطن مع حضور القلب فيها. والوفاء في الأحوال: ألا تخرج عن قواعد الشريعة، بأن لا تكون محرمة ولا مكروهة، وأن يقصد بها موت النفوس وحياة الأرواح، والوفاء في المقام: ألا ينتقل عن مقام إلى غيره حتى يتحقق بالمقام الذي أنزل فيه. وفيه خلاف بين الصوفية: هل يصح الانتقال عن مقام قبل التحقق به، ثم يحققه في المقام الذي بعده، أم لا ؟ .

---

(١) من الآية: ٤٦ من سورة الكهف.

والمقامات التي ينزل فيها المريد: التوبة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والتوكل، والصبر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة بالفناء ثم البقاء، أو الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. فلا ينتقل من مقام إلى ما بعده حتى يحقق المقام الذي هو فيه، ذوقاً وحالاً. وقيل: يجوز أن ينتقل إلى ما بعده إذا كان ذا قريحة فتحقق له ما قبله. والله تعالى أعلم. وطريق الشاذلية مختصرة، تطوى عن المريد هذه المقامات، فينزل في أول قدم في مقام الإحسان، شعر أم لا، ثم يحصل الفناء ثم البقاء، إن وجد شيخاً كاملاً تربى على يد شيخ كامل، وإلا فلا.

وقول الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (عمل خفي)، اعلم أن الخفاء على ثلاثة أقسام: خفاء عوام الصالحين، وهو: إخفاء الأعمال عن الناس مخافة الرياء. وخفاء المريدين، وهو: الإخفاء عن ملاحظة الخلق ومراقبتهم، ولو كانوا بين أظهرهم، فإخفاؤهم قلبي لا قالبي. وخفاء العارفين الواصلين، وهو: الإخفاء عن رؤية النفس، فهم يغيبون عن أنفسهم ووجودهم، في حال أعمالهم، فليس لهم عن نفوسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما أجابه به قومه فقال:

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت: «تأمرك أن نترك»: على حذف مضاف، أي: تأمرك بتكليف أن نترك؛ لأن الرجل لا يُؤمر بفعل غيره. و(أن نفعل): عطف على (ما)؛ أي: أو نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك ﴾ التي تُكثر منها هي التي ﴿ تامرك ﴾ أن تأمرنا ﴿ أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ من الأصنام، وندخل معك في دينك المحدث، أجابوا به ما أمرهم به من التوحيد بقوله: ﴿ مالكم من إله غيره ﴾، على وجه التهكم والاستهزاء بصلواته. وكان كثير الصلاة، ولذلك جمعوها وخصوها بالذكر. وقرأ الأخوان وحفص بالإفراد المراد به الجنس.

ثم أجابوه عن نهيهم عن التطفيف وأمرهم بالإيفاء، فقالوا: ﴿ أو ﴾ نترك ﴿ أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ من البخس وغيره؟ وقيل: كانوا يقطعون الدراهم والدنانير، فنهاهم عن ذلك.. ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾، تهكموا به وقصدوا وصفه بضده، من خفة العقل والسفه؛ لأن العاقل عندهم هو الحريص على جمع الدنيا وتوفيرها، وهو الحمق عند العقلاء، أو إنك موسوم بالحلم والرشد؛ فلا ينبغي لك أن تنهانا عن تنمية أموالنا والتصرف فيها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنكار على من أمر بالخروج عن العوائد والتقلل من الدنيا من طبع أهل الكفر والجهل، وكذلك رميه بالحمق والسفه. فلا تجد الناس اليوم يعظمون إلا من أقرهم على توفير دنياهم ورئاستهم، والتكاثر منها، وأما من زهدهم فيها وأمرهم بالقناعة، فإنهم يرفضونه، ويحمقونه. وهذا طبع من طبع الأمم الخالية، الجاهلة بالله، وبما أمر به، وفي الحديث: «لتتبعنَّ سنن من قبلكُمْ شبراً بشبر، وذراعاً بذراعٍ، حتى لوْ دخلوا جحْرَ ضبٍّ لدخلتموه». وبالله التوفيق.

ثم ذكر موعظة شعيب لقومه، فقال:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

قلت: جواب «إن كنت»: محذوف، أي: فهل ينبغي أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ شعيب لقومه: ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي﴾، وهي النبوة والعلم والحكمة، ﴿ورزقني منه﴾؛ من عنده، وبإعانته، بلا كد في تحصيله، ﴿رزقاً حسناً﴾: حلالاً، إشارة إلى ما آتاه من المال الحلال. فهل يسع لي بعد هذا الإنعام، الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية، أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه، حتى لا أنهاكم عن عبادة الأوثان، والكف عن العصيان، والأنبياء لا يبعثون إلا بذلك، وهذا منه اعتذار لما أنكروا عليه من الأمر بالخروج عن عوائدهم، وترك ما ألفوه من دينهم الفاسد، أي: كيف أترك ما أمرني به ربي من تبليغ وحيه، وأنا على بينة منه، وقد أغناني الله عنكم وعن غيركم. ولذلك قال إثره: ﴿وما أريدُ أنْ أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي: وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه؛ لأستبد به دونكم، فتتهموني إن أردت الاستبداد به. يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مولٍ عنه، وخالفني عنه: إذا ولي عنه وأنت قاصده. ﴿إن أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعت﴾ أي: ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري لكم بالمعروف، ونهيي لكم عن المنكر جهد استطاعتي.

قال البيضاوي: ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة: أهمها وأعلاها: حق الله تعالى. وثانيها: حق النفس، وثالثها: حق الناس. هـ.

قلت: فحق الله: كونه على بينة من ربه، وحق النفس: تمكينه من الرزق الحسن. وحق الناس: نصحهم من غير طمع، ولا حظ.

ثم قال: ﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾؛ وما توفيقى لإجابة الحق، والصواب، إلا بهدايته ومعونته، ﴿ عليه توكلتُ ﴾؛ فإنه القادر على كل شيء، وما عداه عاجز بل معدوم، ساقط عن درجة الاعتبار. وفيه إشارة إلى محض التوحيد، الذى هو أقصى مراتب العلم بالله. ﴿ وإليه أُنيب ﴾؛ أرجع فى جميع أمورى. ﴿ وياقوم لايجرمنكم ﴾: لا يُكسبنكم ﴿ شقاقي ﴾: معاداتى، ﴿ أن يُصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح ﴾ من الغرق، ﴿ أو قومَ هودٍ ﴾ من الريح، ﴿ أو قومَ صالحٍ ﴾ من الصيحة، والمعنى: لا تخالفونى فيجركمْ ذلك إلى الهلاك كما هلك الأمم قبلكم، ﴿ وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد ﴾؛ زماناً ولا مكانا، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم، فاعتبروا بهم؛ إذ هم ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوئ، فلا يبْعد عنكم ما أصابهم. وإنما أفرد «بعيد»؛ لأن المراد: وما إهلاكهم، أو وما هم بشيء بعيد.

﴿ واستغفروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه ﴾ عما أنتم عليه؛ ﴿ إن ربي رحيم ﴾؛ عظيم الرحمة للتائبين، ﴿ ودود ﴾؛ متودد إليهم، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد تضمنت خطبة شعيب عليه السلام ست خصال، من اجتمعت فيه فاز بسعادة الدارين:

الأولى: فتح البصيرة، ونفوذ العزيمة، وتنوير القلب بمعرفة الله، حتى يكون على بينة من ربه.

الثانية: تيسير الرزق الحلال، من غير تعب ولا مشقة، يستعين به على طاعة ربه، ويقوم به بمؤنة أمره.

الثالثة: السعى فى إصلاح عباد الله وإرشادهم، ودعاؤهم إلى الله من غير طمع ولا حرف، ويكون حاله يصحح مقالَه، فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نهى عنه.

الرابعة: الاعتماد على الله والرجوع إليه فى توفيقه وتسديده، وفى أمر دنياه ودينه، بحيث لا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا منه.

الخامسة: الحذر والتحذير من مخالفة ما جاءت به الرسل من عند الله، والتمسك بما أمروا به من طاعة الله، والاعتبار بمن هلك قبله ممن خالف أمر الله.

السادسة: تحقيق التوبة والانكسار، والاكثار من الذكر والاستغفار. فذلك سبب المودة من الكريم الغفار. ولأجل هذه الخطبة سُمي شعيب خطيب الأنبياء. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: «أخاهم»: عطف على نوح في قوله: (ولقد أرسلنا نوحاً)، و(هوداً): بدل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى﴾ قبيلة ﴿عادٍ أخاهم هوداً، قال ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده، ﴿مالكم من إله غيرُهُ﴾ يستحق أن يعبد، ﴿إن أنتم إلا مُفترون﴾ على الله، باتخاذ الأوثان آلهة. ﴿ياقوم لا أسالكم عليه﴾: على التبليغ ﴿أجرا﴾ حتى يثقل عليكم، أو تتهموني لأجله، ﴿إنْ أجْرِيَ إلا على الذي فطرني﴾؛ خلقني. بهذا خاطب كل رسول قومه؛ إزاحة للتهمة، وتمحيصاً للنصيحة، فإنها لا تنجع مادامت مشوبة بالمطامع. ﴿أفلا تعقلون﴾: أفلا تستعملون عقولكم؛ فتعرفوا المحق من المبطل، والصواب من الخطأ.

﴿ وياقوم استغفروا ربكم﴾ من الشرك، ﴿ثم توبوا إليه﴾، ثم ارجعوا إليه بطاعته فيما أمر ونهى. أو: ثم توبوا من المعاصي؛ لأن التوبة من الذنوب لا تصح إلا بعد الإيمان، والتطهير من الشرك، ﴿يُرسل السماءَ عليكم مدراراً﴾ أي: كثير الدر، أي النزول، ﴿ويزدْكُم قوة إلى قوتكم﴾: يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها. وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل: حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي: وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب لنزول المطر. رُوي: أن عاداً كان المطر قد حُبس عنهم ثلاث سنين، فأمرهم بالتوبة والاستغفار، ووعدهم على ذلك بالمطر. هـ. ﴿ولا تتولّوا﴾: ولا تُعرضوا عما أدعوكم إليه، ﴿مجرمين﴾؛ مصرين على إجرامكم.

الإشارة: في تكرير القصص والأخبار وَعظ وتذكير لأهل الاعتبار، وزيادة إيقان لأهل الاستبصار، وتهديد وتخويف لأهل الإصرار، وحث على المبادرة إلى التوبة والاستغفار. قوله تعالى: (وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه)، أي: استغفروا ربكم من الشرك الخفي، ثم توبوا إليه من النظر إلى وجودكم، ورؤية أعمالكم، يرسل سحاب

الواردات الإلهية والعلوم الإلهامية على قلوبكم وأسراركم، مدراراً، ويزدكم قوة فى شهود الذات إلى قوتكم فى شهود الصفات، ولا تتولوا عن شهوده بشهود أثره، مجرمين معدودين فى زمرة المجرمين المصرين على الكبائر، وهم لا يشعرون.

وقال الورتجبي: استغفروا من النظر إلى غيرى، وتوبوا إلىّ من نفوسكم، ورؤية طاعتكم وأعواضها، يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ويزدكم، أى: يزد قوة أرواحكم فى طيرانها. انظر تمامه.

ثمّ ذكر ما أجابه به قومه، فقال:

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (إن نقول إلا اعتراك): الاستثناء مفرغ، و«اعتراك»: مقول لقول محذوف، أى: ما نقول إلا قولنا اعتراك، و(ما من دابة): «ما» نافية، و«من» صلة و«دابة» مبتدأ مجرور بمن الزائدة، وجملة (إلا هو آخذ): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا ياهود ما جئتنا ببينة ﴾؛ بمعجزة واضحة تدل على صدق دعواك، وهذا كذب منهم وجحود؛ لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. وفى الحديث: «ما منْ نَبِىٍّ إلاّ أُوتى من المعجزاتِ ما مثْلُه آمنَ عَليه البشرُ، وإنّما كانَ الذي أوتيته وحْياً أُوحى إلى، فأرجُو أنْ أكُونَ أكثرَهم تَابعاً يوم القِيامة»(١). كما فى الصحيح. ويحتمل أن يريدوا: ما جئتنا بآية تضطر إلى الإيمان بك، وإن كان قد أتاهم بآية نظرية. ولم يذكر فى القرآن معجزة معينة لهود عليه السلام، مع الاعتقاد أنه لم يخل من معجزة؛ لما فى الحديث.

ثم قالوا: ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا ﴾؛ بتاركى عبادتهم ﴿ عن قولك ﴾ أى: بسبب قولك، أو صادرين عن قولك، ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أبداً، وهو إقناط له عن الإجابة والتصديق. ﴿ إن نقول إلا اعتراك ﴾؛ أصابك ﴿ بعض آلهتنا بسوء ﴾؛ بجنون؛ لما سببْتها، ونهيت عن عبادتها، ولذلك صرت تهذو وتتكلم بالخرافات.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الاعتصام، باب قول النبى ﷺ بعثت بجوامع الكلم) ومسلم فى (الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ثم ذكر جواب قومه، فقال:

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

قلت: «سوف تعلمون»: ذكره هنا بغير فاء، وفي الأنعام بالفاء[1]؛ لأن الكلام في سورة الأنعام مع الأمة المحمدية، فأتى بالفاء لمطلق السببية، وهنا مع قوم شعيب عليه السلام، فحذفها ؛ لأنه أبلغ في التهويل. فكأن الجملة بيانية لجواب سائل قال: فما يكون بعد ذلك؟ فقال: سوف تعلمون... الخ .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا يا شعيبُ ما نفقه ﴾؛ ما نفهم ﴿ كثيراً مما تقول ﴾ من أمر التوحيد، وترك التبخيس، وما ذكرت من الدليل عليها؛ وذلك لانهماكهم في الهوى، وقصور عقلهم، وعدم تفكرهم. وقيل: قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم. ثم قالوا: ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ ؛ لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءاً ، أو: نراك ناحل البدن، أو: ضرير البصر. وضعفه ابن عطية[2]. ﴿ ولولا رهطك ﴾ أي: قومك، الذين هم باقون على ملتنا ، وكونهم في عزة عندنا، ﴿ لرجمْنَاك ﴾: لقتلناك بالحجارة. أو بأصعب وجه، ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾؛ فتمنعنا عزتك من رجمك.

قال البيضاوي: وهذا ديدن السفيه المحجوج، يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد. وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم من إيذائه عزة قومه. ولذلك قال: ﴿ يا قوم أرَهْطِي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظِهْرياً ﴾، وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر، بإشراككم به، والإهانة لرسوله. وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. والظهري: منسوب إلى الظهر، والكسر من تغيير البناء. هـ. قال ابن جزي: فإن قيل: إنما وقع الكلام فيه وفي رهطه، بأنهم هم الأعزة دونه، فكيف طابق جوابه كلامهم؟ فالجواب: أن تهاونهم به، وهو رسول الله، تهاون بالله. فلذلك قال: ﴿ أرهطي أعز عليكم من الله ﴾. هـ.

---

(١) في قوله تعالى: (قال ياقوم اعملوا على مكانتكم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون) الآية: ١٣٥.
(٢) قال ابن عطية: وهذا ضعيف، لاتقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم «ضعيفاً» أنه ضعيف الانتصار والقدرة.

﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها، فيجازى عليها بتمامها. ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾: على حالتكم من تمكنكم في الدنيا، وعزتكم فيها، ﴿ إني عامل ﴾ على حالي، ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾، يهينه في الدنيا والآخرة، ﴿ و ﴾ سوف تعلمون ﴿ من هو كاذب ﴾ مني ومنكم، ﴿ وارتقبوا ﴾؛ وانتظروا ما أقول لكم، ﴿ إني معكم رقيب ﴾: مرتقب لذلك. وهو فعيل بمعنى فاعل، كالصريح والرفيع. والله تعالى أعلم .

الإشارة: لا يفقه المواعظ والتذكير إلا أهل الإيمان والتنوير. وأما القلب القاسي بالكفر والمعاصي فلا يسمع إلا ما تسمعه البهائم من الناعق والراعي. فبقدر ما يرق القلب يتأثر بالمواعظ، وبقدر ما يغلظ باتباع الحظوظ والهوى؛ يغيب عن تدبر المواعظ. وسبب تنوير القلب ورقته: قربه من الله، وتعظيمه لحرمات الله، وتعظيم من جاء من عند الله من أنبيائه ورسله، وورثتهم القائمين بحجته، كالأولياء والعلماء الأتقياء. وسبب ظلمة القلب وقساوته: بعده من الله، وإهانته لحرمات الله، واتخاذه أمره ظهريا، وجعل ذكره نسياً منسيا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هلاك قوم شعيب، فقال:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾: عذابنا لقوم شعيب، ﴿ نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾، لا بعمل استحقوا به ذلك؛ إذ كل من عنده، ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ ﴾ قيل: صاح بهم جبريل فهلكوا، ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾: ميتين. وأصل الجثوم: اللزوم في المكان. ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ كأن لم يقيموا فيها ساعة، ﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمودُ ﴾، شبههم بهم؛ لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحة ثمود كانت من فوق، وصيحة مدين كانت من تحت، على ما قيل، ويدل عليه: التعبير عنهما بالرجفة في آية أخرى[1]، والرجفة في الغالب إنما تكون من ناحية الأرض. وفي البيضاوي خلاف هذا، وهو غير جيد.

قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين: أصحاب الأيكة، وأصحاب مدين، فأهلك أصحاب الأيكة بالظلة، على ما يأتي، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة؛ فهلكوا أجمعين. قيل: وآمن بشعيب من الفئتين: تسعمائة إنسان. وكان أهل الأيكة أهل غيطة وشجر، وكان شجرهم الدَّوم[2] ـ وهو شجر المُقْل.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾. الأعراف ٧٨، ٩١.
(٢) الدَّوم: شجر يشبه النخلة.

الإشارة: سبب النجاة من الهلاك في الدارين: توحيد الله، وتعظيم من جاء من عند الله. وسبب الهلاك: الإشراك بالله، وإهانة من عظمه الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رسالة موسى عليه السلام بعد شعيب؛ لأنه من تلامذته، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾؛ بمعجزاتنا الدالة على صدقه، ﴿ وسلطان مبين ﴾؛ وتسلط ظاهر على فرعون، أو برهان بيّن على نبوته. قال البيضاوي: والفرق بينهما: أن الآية تعم الأمارة والدليل القاطع، والسلطان يخص بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء. هـ. أرسلناه ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾؛ جماعته، ﴿ فاتبعوا أمرَ فرعون ﴾ أي: اتبعوا أمره بالكفر بموسى، أو: فما اتبعوا موسى الهادي إلى الحق، المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلالة والطغيان، الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل؛ لفرط جهالتهم، وعدم استبصارهم، ﴿ وما أمرُ فرعون برشيد ﴾ أي: ليس أمره برشد وصواب، وإنما هو غي وضلال.

﴿ يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة ﴾ إلى النار، كما يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال، ﴿ فأوردهم ﴾: أدخلهم ﴿ النار ﴾ ذكره بلفظ الماضي؛ مبالغة في تحققه، ونزّل النار لهم منزلة الماء، فسمى إتيانها موردا. ثم قال: ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أي: بئس الموْرِد الذي وردوه، فإنّ المورد إنما يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بضد ذلك. والآية كالدليل على قوله: ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾؛ فإنّ من هذا عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسير له، على أن المراد بالرشيد: ما يكون مأمون العاقبة حميدها. قاله البيضاوي. ﴿ وأُتبعوا في هذه لعنةً ويومَ القيامة ﴾ أي: تتبعهم اللعنة في الدارين ﴿ بئس الرفدُ المرفود ﴾: بئس العون المعان، أو العطاء المعطى. فالرفد: العطاء، والإرفاد: المعونة، ومنه: رفادة قريش، أي: معونتهم للفقراء في الحج بالطعام. والمخصوص بالذم محذوف، أي: رفدهم، وهو اللعنة في الدارين.

الإشارة: إذا أردتَ أن تعرف قدر الرجل في مرتبة الخصوصية؛ فاسأل عن إمامه الذي يقتدي به، فإن كان من أهل الخصوصية فصاحبه من الخصوص، إن دامت صحبته معه، وإن كان من العموم فصاحبه من العموم.

والمراد بالخصوصية: تحقيق مقام الفناء، ودخول بلاد المعاني. فكل من لم يحصل مقام الفناء، ولم يشهد إلا المحسوسات فهو من العوام، ولو بلغ من العلم والعمل ما بلغ، ولو رأى من الكرامات أمثال الجبال. فمن صحب مثل هذا الذي لم يفن عن نفسه، ولم يخرج عن دائرة حسه، لم يخرج من العمومية؛ لأن نفسه فرعونية. قال تعالى: ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾، وفي الخبر: «المَرْءُ على دين خليله» وقال الشاعر:

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقارَنِ يقْتَدي[1]

والله تعالى أعلم.

ثم وعظ نبيه بما جرى على الأمم المتقدمة آنفاً، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ﴾

قلت: (ذلك): مبتدأ. و(من أنباء): خبره و(نقصه): خبر ثان. وجملة: (منها قائم وحصيد): استئنافية لا حالية؛ لعدم الرابط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ النبأ الذي أخبرناك به في هذه السورة، هو ﴿ من أنباء القرى ﴾ الماضية المهلكة، ﴿ نقصه عليك ﴾، ونخبرك به؛ تهديداً لأمتك وتسلية لك. ﴿ منها ﴾ ما هو ﴿ قائم ﴾ البناء باقي الأثر، ﴿ و ﴾ منها ﴿ حصيد ﴾ أي: محصود عافي الأثر، كالزرع المحصود. أو: منها ما هو ساكن بقوم آخرين، قائم العمارة بغير من هلك، ومنها ما هو دارس عفى أثره، واندرست أطلالُه.

قال تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم، ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بأن عرضوها له؛ بارتكابهم ما يوجب هلاكهم، فعبدوا معي غيري، ﴿ فما أغنت عنهم ﴾: ما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم العذاب، ﴿ آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴾ من ذلك العذاب، ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾؛ حين جاءهم عذابه

---

(١) البيت منسوب إلى عدي بن زيد. انظر: نهاية الأرب ٣/٦٥ والعقد الفريد ٢/٣٦١.

﴿ وكذلك أَخْذُ ربك ﴾ أي: مثل ذلك الأخذ الوبيل أخذ ربك ﴿ إذا أَخَذَ القرى وهي ظالمةٌ ﴾ فلا يمهلها، وقد يمهلها ثم يأخذها. فكل ظالم معرض لذلك. وفي الحديث عنه ﷺ: «إنَّ اللهَ ليُمْلي للظَّالِمِ، حتى إذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْه». ثم قرأ: ﴿ وكذلك أخذ ربك .... ﴾ الآية. فالآية تعم قرى المؤمنين؛ حيث عبَّر بظالمة دون كافرة. قاله ابن عطية. ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾؛ وجيع عظيم، غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿ إن في ذلك ﴾ الذي نسرده عليك من قصص الأمم الدارسة، ﴿ لآية ﴾؛ لعبرة ﴿ لمن خاف عذابَ الآخرة ﴾ فيعتبر به ويتعظ؛ لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة. وأما من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتذكير؛ لفساد قلبه، وموت روحه.

﴿ ذلك ﴾ أي: يوم القيامة الذي وقع التخويف به، ﴿ يوم مجموعٌ له الناسُ ﴾: محشورون إليه أينما كانوا. وعبَّر باسم المفعول دون الفعل؛ للدلالة على الثبوت والاستقرار، ليكون أبلغ؛ لأن «مجموع» أبلغ من «يجمع». ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أي: تشهده أهل السموات وأهل الأرض؛ لفصل القضاء، ويحضره الأولون والآخرون، لاقتضاء الثواب والعقاب. فاليوم مشهود فيه. فحذف الظرف اتساعاً. ﴿ وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود ﴾ أي: إلا لانتهاء مدة معدودة في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر عنها، قد اختص الله تعالى بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار؛ لأنه يزهد في الدنيا الفانية، ويشوق إلى الدار الباقية، ويرقق القلب، ويستدعي مخافة الرب، فلينظر الإنسان بعين الاعتبار في الأمم الخالية، والقرون الماضية، والأماكن الدارسة؛ كيف رحل أهلها عن الدنيا أحوج ما كانوا إليها، وتركوها أحب ما كانت إليهم؟ وفي بعض الخطب الوعظية: أين الفراعين المتكبرة، وأين جنودها المعسكرات؟ أين الأكاسير المنكسرة؟ وأين كنوزها المقنطرات؟ أين ملوك قيصر والروم؟ وأين قصورها المشيدات؟ أين ملوك عدن، أهل الملابس والحيجان[1]؟ وأين ملوك اليمن، أهل العمائم والتيجان؟ قد دارت عليهم ـ والله ـ الأقدار الدائرات، وجرت عليهم برياحها العاصفات، وأسكنتهم تحت أطباق الرجام[2] المنكرات، وصيرت أجسامهم طعمة للديدان والحشرات، وأيمت منهم الزوجات، وأيتمت منهم البنين والبنات. أفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا. فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من العمل الصالح رجعوا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شأن ذلك اليوم المشهود، فقال:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ

(١) الحيجان: جمع غير قياسي للمِحْجَن، وهو: عصا مُعَقَّفة الرأس كالصولجان.
(٢) أي: الحجارة.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾

قلت: (يوم يأتي): العامل في الظرف: «لا تكلم»، أو: اذكر، مضمر. والضمير في «يأتي»: يعود على اليوم. وقال الزمخشري: يعود على «الله»؛ لعود الضمير عليه في قوله: (إلا بإذنه)، وضمير «منهم» على أهل الموقف المفهوم من قوله: (لا تكلم نفس).

يقول الحق جل جلاله: ﴿يوم يأتي﴾ ذلك اليوم المشهود، وهو: يوم الجزاء ﴿لا تكلم﴾، لا تتكلم ﴿نفس﴾ بما ينفع وينجي في جواب أو شفاعة ﴿إلا بإذنه﴾ تعالى، وهذا كقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾[1]، وهذا في موقف، وقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[2]، في موقف آخر. والمأذون فيه هي الجوابات الحقية، أو الشفاعات المرضية، والممنوع منه هي الأعذار الباطلة.

ثم قسَّم أهل الموقف، فقال: ﴿فمنهم شقي﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد؛ لكفره وعصيانه. ﴿و﴾ منهم ﴿سعيد﴾ وجبتْ له الجنة بمقتضى الوعد؛ لإيمانه وطاعته. ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾، الزفير: إخراج النفس، والشهيق: رده. ويستعملان في أول النهيق وآخره. أو الزفير: صوت المحزون، والشهيق: صوت الباكي. أو الزفير من الحلق، والشهيق من الصدر. والمراد بهما: الدلالة على شدة الكرب والغم، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه، وانحصرت فيه روحه، أو تشبيه حالهم بأصوات الحمير. قاله البيضاوي.

﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض﴾ أي: سموات النار وأرضها. وهي دائمة أبداً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾[3]، أو يكون عبارة عن التأبيد: كقول العرب: ما لاح كوكب وما ناح الحمام، وشبه ذلك بما يقصد به الدوام، وهذا أصح.

وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾، للناس هنا كلام واختلاف. وأحسن ما قيل فيه؛ ما ذكره البقاعي، قال: والذي ظهر لي ـ والله أعلم ـ أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين، وأن الشرك لا يغفر، والإيمان موجب للجنة، فكان

---

(١) من الآية: ٣٨ من سورة النبأ.
(٢) الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦ من سورة المرسلات.
(٣) من الآية: ٤٨ من سورة ابراهيم.

ربما يُظن أنه لا يمكن غير ذلك، كما ظنه المعتزلة، لاسيما إذا تأمل القطع في مثل قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾[١] ، مع تقييد غيره بالمشيئة في قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[١]، جاء هذا الاستثناء معلما أن الأمر فيه إلى الله كغيره من الأمور، له أن يفعل في كلها ما يشاء، وإن جُزم القول فيه، لكنه لا يقع غير ما أخبر به، وهذا كما تقول: اسكن هذه الدار عمرك إلا ما شاء زيد، وقد لا يشاء زيد شيئا. فكما أن التعليق بدوام السموات والأرض غير مراد الظاهر، كذلك الاستثناء، فلا يشاء الله قطع الخلود لأحد من الفريقين، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة. هـ.

وقال الجلال السيوطي، في «البدور السافرة في أمور الآخرة»: اعلم أن للعلماء في هذا الاستثناء أقوالاً، أشبهها بالصواب: أنه ليس باستثناء، وإنما «إلا» بمعنى «سوى»، كما تقول: لي عليك ألف درهم إلا ألفان، التي لي عليك، أي: سوى الألفين، والمعنى: خالدين فيها قدر مدة السموات والأرض في الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها، فلا منتهى له. وذلك عبارة عن الخلود. والنكتة في تقديم ذكر مدة السموات والأرض: التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولاً، ثم أردفه بما لا إحاطة للدهر به. والجرى على عادة العرب في قولهم في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده: لا آتيك مادامت السموات والأرض. هـ. ومثله لابن عطية. قال: ويؤيد هذا التأويل قوله بعد: ﴿عطاء غير مَجذُوذ﴾ أي: غير مقطوع، وهذا قول الفراء؛ فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بسوى، وسيبويه بلكن. هـ. وقال الورتجبي: قال ابن عطاء: (إلا ما شاء ربك) من الزوائد لأهل الجنة من الثواب. ومن الزوائد لأهل النار من العقاب. هـ. (إن ربك فعال لما يريد) من غير حجر ولا اعتراض.

﴿وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرض إلا ما شاء ربك﴾ كما تقدم. ﴿عطاء غير مَجذُوذ﴾: غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب غير مقطوع، وتنبيه على أن المراد من الاستثناء تعليم الأدب فقط. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب. وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، باليقين والاطمئنان، في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. وشقاوة الباطن بالبعد عن الله، وافتراقه عن حضرة مولاه.

قال في نوادر الأصول: الشقاوة: فراق العبد من الله، والسعادة اندساسه إليه. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في حزبه الكبير: والسعيد من أغنيته عن السؤال منك، والشقي حقاً من حرمته مع كثرة السؤال لك.

---

(١) الآية: ٤٨ من سورة النساء.

قال شيخ شيوخنا ـ سيدي عبد الرحمن الفاسي ـ في حاشيته عليه: ومدار السعادة: الجمع على الله والغيبة عمن سواه، فيفنى العبد عن وجوده، ويبقى بربه، فيشغله استغراقه في شهوده عن الشعور بغيريته، وينمحي عنه أمل شيء يرجى، أو خوف شيء يتقى، فليس له عن سوى الحق إخبار، ولا مع غيره قرار. وعندما حل بهذه الحضرة، وظفر بقرة عينه، وحياة روحه، وسر حياته، لا يتصور منه سول، ولا فوات مأمول.«أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك»، «اشْتَاقَتْ الجَنَّةُ إلى عَلِيٍّ وعَمَّارٍ وسَلْمَانَ وصهيب وبلال» كما في الأثر. نعم، إن رد إليه تصور منه الدعاء على وجه العبودية، وأداء الأمر وإظهار الفاقة، لا على وجه الاقتضاء والسببية. «جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل».

ثم قال: وعلى ما تقرر في السعادة، فالشقاوة: احتجاب العبد بوجوده عن شهوده، فلا يَنْفَكُّ عن أمل، ولا عن خوف عطب. فيستحثه الطبع للسؤال جلباً أو دفعا. وهو في ذلك في شقاء، سواء أعطي أو منع؛ لفقده قرةَ عينه وراحة قلبه، لأسْرِه في طبعه، ومكابدة أمره وهلعه. كما قال تعالى: ﴿إن الانسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين﴾[1]. فلم يستثن من كد الطبع ومكابدته غير أهل الصلاة الدائمة، وهم أهل الوجهة لله، المواجهين بعناية الله، المتحققين بذكر الله. وقد ورد: «هُمُ القَوْمُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ» فضلا عنهم. وعلى الجملة: فالمراد بالسعادة والشقاوة في كلامه ـ أي: الشاذلي ـ الباطنة لا الظاهرة، والقلبية لا القالبية. وإن كان قد تطلق على ذلك أيضًا، لكن لكل مقام مقال. وقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ﴾[2].

قال في نوادر الأصول: تَابِعُ القرآن قد أجير من شقاء العيش في الدنيا؛ لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها، وسيره في الأمور بقلبه في راحة؛ لأنه منشرح الصدر واسعه، وبدنه في راحة؛ لأنه ميسر عليه أمور الدنيا، تُهيأ له في يسر؛ لضمان الله،واكتنافه له. وكذا يجار في الآخرة من شقاء العيش في سجون النيران. أعاذنا الله من ذلك. هـ.

ثم حذَّر من الشرك، الذي هو سبب الخلود في النار، فقال:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)﴾

---

(١) الآيات: ١٩ ـ ٢٢ من سورة المعارج.
(٢) من الآية ١٢٣ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا تك﴾ يا محمد ﴿في مرية﴾. في شك ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون، أي: لا تشك في فساد ما هم فيه، بعد ما أنزل عليك من حال الناس، وتبيين ما لأهل السعادة الموحدين، مما لأهل الشقاء المشركين، ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبلُ﴾، وهو تعليل للنهي، أي: ما يعبدون عبادةً إلا كعبادة آبائهم. أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبد آباؤهم من الأوثان؛ تقليداً من غير برهان، وقد بلغك ما لحِق آباءهم من العذاب فسيلحقهم مثل ذلك؛ لاتفاقهم في سبب الهلاك. ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ حظهم من العذاب، كآبائهم، ﴿غير منقوص﴾ من نصيبهم شيء. فالتوفية لا تقتضي التمام. تقول: وفيته حقه، وتريد وفاء بعضه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فلا تكن أيها العارف في مرية مما يعبد هؤلاء العوام، من جمع الدنيا، والتكاثر منها، وصرف الهمة إلى تحصيلها، واستعمال الفكر في أسباب جمعها، وانهماك النفس في حظوظها وشهواتها. ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل، ممن سلك هذا المسلك الذميم، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص، بانحطاط درجتهم عن درجة المقربين. قال بعض الحكماء: دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثها كصوائب السهام، وشهواتها: كمشرب الشمام، وفتنتها كأمواج الطوام. هـ.

ولما ذكر رسالة موسى عليه السلام، وشأن فرعون ووبال من تبعه، ذكر نزول التوراة عليه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: (وإنّ كُلاً لما ليوفينهم): إن: مخففة عاملة، والتنوين في (كُلاً) عوض عن المضاف، و«ما»: موصولة، واللام: لام الابتداء، و(ليوفينهم): جواب لقسم محذوف، وجملة القسم وجوابه: صلة «ما»، أي: وإن كل الفريقين للذين، والله، ليوفينهم ربك أعمالهم. ومن قرأ: «لمّا»؛ بالتشديد، فعلى أن (إن) نافية، و«لما» بمعنى إلا، وقيل: غير هذا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾: التوراة، ﴿فاختُلف فيه﴾؛ فآمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف هؤلاء في القرآن، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لقُضي بينهم﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل من الهلاك، ونجاة المحق. ﴿وإنهم﴾ أي: قوم موسى، أو كفار قومك، ﴿لفي شك منه﴾ أي: التوراة، أو من القرآن، ﴿مريب﴾: موقع في الريبة. ﴿وإنَّ كُلاًّ﴾ من

الفريقين المختلفين، المؤمنين والكافرين، للذين ﴿ليوفينهم ربك﴾ جزاء أعمالهم، ولا يهمل منه شيئا. ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

الإشارة: الاختلاف على الأنبياء والأولياء سنة ماضية. ولولا أن الله سبحانه حكم في سابق علمه أنه لا يفضح الضمائر إلا يوم تُبلى السرائر، لفضح أسرار البطالين، وأظهر منار الذاكرين من السائرين أو الواصلين. لكنه سبحانه أخر ذلك بحكمته وحلمه، إلى يوم الدين. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن أصل الأعمال وأفضلها، وهي الاستقامة، فقال:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾

قلت: (ومن تاب): عطف على فاعل (استقم)؛ للفصل، (فتمسَّكم): جواب النهي. ويقال: ركِن يركَن: كعلِم يعلم، وركَن يركن: كدخل يدخل. و (ثم لا تنصرون): مستأنف لا معطوف، و(طرفي): منصوب على الظرفية. و(زلفا): جمع زلفة، كقربة، أزلفه: قربه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاستقمْ﴾ يا محمد ﴿كما أُمرت﴾، ﴿و﴾ ليستقم ﴿من تابَ معك﴾ من الكفر وآمن بك. وهي شاملة للاستقامة في العقائد؛ كالتوسط بين التشبيه والتعطيل، بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، وفي الأعمال؛ من تبليغ الوحي، وبيان الشرائع كما أنزل، والقِيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط. وهي في غاية العسر. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «شيَّبَتني هُود»[(١)] . قاله البيضاوي.

قال المحشي الفاسي: واللائق أن إشفاقه - عليه الصلاة والسلام - من أجل أمته لا من أجل نفسه؛ لأجل عصمته، وإنما أشفق عليهم لتوعد اللعين لهم بقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[(٢)] . هـ. قلت: ولايبعد

(١) الحديث كاملاً: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». أخرجه الترمذي وحسنه في (كتاب التفسير - سورة الواقعة) والحاكم في المستدرك (٢/٣٤٣) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في الدلائل (١/٣٥٧) والبغوي في شرح السنة (١٤/٣٧٢) وفي التفسير، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) من الآية: ١٦ من سورة الأعراف.

أن يكون أشفق ـ عليه الصلاة والسلام ـ من صعوبة استقامته التي تليق به، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب. ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره. وقد قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد تقدم كلام الإحياء في قوله: ﴿ألا بعدا لعاد﴾[1] .

ثم قال تعالى: ﴿ولا تَطْغَوا﴾؛ ولا تخرجوا عما حد لكم، ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، فيجازيكم على النقير والقطمير، وهو تهديد لمن لم يستقم، وتعليل للأمر والنهي. ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾: لا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون: هو الميل اليسير، كالتزيي بزيهم، وتعظيم ذكرهم، وصحبتهم من غير تذكيرهم ووعظهم. ﴿فتمسكُم النارُ﴾؛ لركونهم إليهم. قال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى منْ عالِمٍ يَزُورُ عَامِلاً[2] . هـ. وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك .هـ. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بالبقاءِ ـ أي: بأن قال: بارك الله في عمرك ـ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ في أَرْضِهِ»[3] وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت؟! فقال: دعه يموت. هـ. وهذا إغراق، ولعله في الكافر المحارب، والله أعلم.

قال البيضاوي: وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً موجباً للنار، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها؛ للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل؛ فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط، ظلم على نفسه أو غيره، بل ظلم في نفسه. هـ.

﴿ومالكم من دون الله من أولياء﴾؛ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، ﴿ثم لا تُنصرون﴾: ثم لا ينصركم الله إن سبق في حكمه أنه يعذبكم.

ولمّا كان الركون إلى الظلم، أو إلى من تلبس به فتنة، وهي تكفرها الصلاة، كما في الحديث[4]، أمر بها إثره، فقال: ﴿وأقم الصلاةَ طرفي النهار﴾ غدوة وعشية، ﴿وزُلَفاً من الليل﴾؛ ساعات منه قريبة من النهار. والمراد بالصلاة المأمور بها: الصلوات الخمس. فالطرف الأول: الصبح، والطرف الثاني: الظهر والعصر، والزلف من الليل: المغرب، والعشاء. ﴿إن الحسنات يُذهبن السيئات﴾؛ يكفرنها قال ابن عطية: لفظ الآية عام في

---

(١) راجع إشارة الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ من سورة نفسها.
(٢) المراد بالعامل هنا: الحاكم أو الوالي.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: لم أجده مرفوعاً، وإنما أورده ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، من قول الحسن البصري.
(٤) سيذكر الشيخ الحديث بعد قليل.

الحسنات خاص فى السيئات؛ لقوله ﷺ: «ما اجتنبتْ الكبائرُ»، ثم قال: وروى أن رسول الله ﷺ قال: «الجُمُعَةُ إلى الجُمعَةِ كفَّارَة، والصَّلوَاتُ الخَمسُ، ورَمَضَانُ إلَى رَمَضَانَ كفارة لِمَا بينهُمَا ما اجْتُنِبَت الكبائِر»[1] انظر تمامه فى الحاشية.

قال ابن جزى: رُوى أن رجلا قبَّل امرأة، [قلتُ: هو نبهان التمار]، فذكر ذلك للنبى ﷺ وصلَّى معه الصلاة، فنزلت الآية، فقال ﷺ: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا، فقال: «قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ بصلاتك معنا». فقال الرجل: أَلِيَ خاصةً، أو للمسلمين عامَّةً؟ فقال: «للمسلمين عامَّة»[2]. والآية على هذا مدنية. وقيل: إن الآية كانت قبل ذلك، وذكرها النبى ﷺ للرجل مستدلاً بها. والآية على هذا مكية كسائر السورة، وإنما تُذهب الحسناتُ ـ عند الجمهور ـ الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. هـ. قلت: وقيل: تكفر مطلقاً؛ اجْتُنِبَتْ الكبائر أم لا، وهو الظاهر، لأنه إذا حصل اجتناب الكبائر كفرت بلا سبب؛ لقوله تعالى: ﴿ إن تجتنبوا كبائر .... ﴾[3] الآية. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما اجتنبت الكبائر». معناه: أن الصلوات والجمعة مكفرة لما عدا الكبائر.

والحاصل: أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر بلا سبب؛ لنص الآية. ومن ارتكب الكبائر والصغائر وصلى، كفرت الصغائر دون الكبائر، وبهذا تتفق الآية مع الحديث. والله تعالى أعلم.

قال ابن عطية فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ... ﴾[4] الآية: الشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد. وقد روى: «أن الله يتحمل عن الشهيد مظالم العباد، ويجازيهم عنه». ختم الله لنا بالحسنى. انتهى.

﴿ ذلك ﴾ أى: ما تقدم من وعظ ووعد ووعيد، وأمر الاستقامة، أو القرآن كله، ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾: عظة للمتقين. وخص الذاكرين؛ لمزيد انتفاعهم بالوعظ، لصقالة قلوبهم. وفى الخبر: «لكل شيء مصقلة، ومصقلة القلوب ذكر الله». ﴿ واصبرْ ﴾ على مشاق الاستقامة، ودوامها ﴿ فإن الله لا يُضيع أجرَ المحسنين ﴾ وهم: أهل الاستقامة ظاهراً وباطنا.

الإشارة: الاستقامة على ثلاثة أقسام: استقامة الجوارح، واستقامة القلوب، واستقامة الأرواح والأسرار. أما استقامة الجوارح فتحصل بكمال التقوى، وتحقيق المتابعة للسنة المحمدية. وأما استقامة القلوب

(١) أخرجه مسلم فى: (الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة.. مكفرات) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البخارى فى (التفسير، سورة هود) ومسلم فى (التوبة، باب قوله: إن الحسنات يذهبن السيئات) من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنه. أما قول المفسر: [هو نبهان التمار] فقد جاء فى سياق آخر، للثعلبى فى تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨/٢٠٧: وهذا إن ثبت حمل على واقعة أخرى، لما بين السياق من المغايرة.

(٣) من الآية: ٣١ من سورة النساء.

(٤) من الآية: ١١١ من سورة التوبة.

فتحصل بتطهيرها من سائر العيوب، كالكبر والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد والحسد، وحب الجاه والمال، وما يتفرع عن ذلك من العداوة والبغضاء، وترك الثقة بمجيء الرزق، وخوف سقوط المنزلة، من قلوب الخلق، والشح والبخل، وطول الأمل، والأشر والبطر، والغل والمباهاة، والتصنع والمداهنة، والقسوة والفظاظة والغلظة، والغفلة والجفاء، والطيش، والعجلة، والحمية، وضيق الصدر، وقلة الرحمة. إلى غير ذلك من أنواع الرذائل.

فإذا تطهر القلب من هذه العيوب اتصف بأضدادها من الكمالات: كالتواضع لله، والخشوع بين يديه، والتعظيم لأمره، والحفظ لحدوده، والتذلل لربوبيته، والإخلاص في عبوديته، والرضى بقضائه، ورؤية المنة له في منعه وعطائه. ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة، واللين والرفق، وسعة الصدر والحِلم، والاحتمال والصيانة، والنزاهة والأمانة، والثقة والتأني، والوقار، والسخاء والجود، والحياء، والبشاشة والنصيحة. إلى غير ذلك من الكمالات.

وأما استقامة الأرواح والأسرار، فتحصل بعدم الوقوف مع شيء سوى الله تعالى، وعدم الالتفات إلى غيره حالا كان أو مقاما أو كرامة، أو غير ذلك: كما قال الششتري رضي الله عنه:

فلا تلتفِت في السَّير غيراً، وكلُّ ما		سوى الله غيرٌ، فاتخذْ ذِكرَه حِصْنا
وكلُّ مقامٍ لا تقُمْ فيهِ إنَّه		حجابٌ، فجِدَّ السَّير واستَنْجِد العَونا
ومهْما ترى كلَّ المراتِبِ تجْتَلي		عليْكَ فحلْ عنها، فعَن مِثْلِها حُلْنا
وقُلْ: ليس لي في غَير ذاتِكَ مَطْلَبٌ		فلا صورةٌ تجْلَى ولا طَرفَة تجْنا

وقوله تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا): هو نهي عن صحبة الغافلين والميل إليهم. قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق، والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق؛ فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لابد لي، قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لابد لي، قال: لا تعاملهم؛ لأن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لابد لي من معاملتهم؟ قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم هلكة. قلت: هذا لعله يكون؟ قال: يا هذا؛ أتنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة، وقلبك مع غير الله عز وجل!! هيهات! هذا ما لا يكون أبدا. هـ. ونقل الورتجبي عن جعفر الصادق: ولا تركنوا إلى نفوسكم فإنها ظلمة. هـ.

ثم ذكر سبب هلاك الأمم الماضية، وهو فشو الظلم، وعدم تغيير المنكر، فقال:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾

قلت: (لولا)، تحضيضية، ويقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف، كقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[1]، و«إلا قليلاً»: منقطع، ولا يصح اتصاله، إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. أي: ما كان في القرون الماضية أولو بقية إلا قليل. يقال: فلان من بقية القوم، أي: خيارهم، وإنما قيل فيه «بقية»؛ لأن الشرائع والدول تقوى أولاً ثم تضعف. فمن ثبت في وقت الضعف على ما كان في أوله، فهو بقية الصدر الأول. قاله ابن عطية. وقوله: «بظلم»: حال من «ربك»؛ أي: ما كان ربك ليهلك القرى ظالماً لهم، أو متعلق بيهلك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلولا﴾: فهلا ﴿كان من القرون من قبلكم﴾؛ كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكرهم، ﴿أولو بقية﴾ من الرأي، والعقل ينكرون عليهم، أي: فهلا وجد فيهم من فيه بقية من العقل والحزم والثبوت، ﴿ينهون عن الفساد في الأرض﴾، لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا كذلك، فأنكروا على أهل الفساد، واعتزلوهم في دينهم؛ فأنجيناهم. وفي هذا تحريض على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، وأنه سبب النجاة في الدارين. ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾: ما أنعموا فيه من الشهوات، واهتموا بتحصيل أسبابها، وأعرضوا عما وراء ذلك، ﴿وكانوا مجرمين﴾ كافرين. قال البيضاوي: كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم الماضية، وهو: فشو الظلم فيهم، واتباع الهوى، وترك النهي عن المنكرات مع الكفر. هـ.

﴿وما كان ربك ليُهلك القرى بظلم﴾ أي: متلبساً بظلم، ﴿وأهلُها مصلحون﴾، فيعذبهم بلا جرم، أي: ما كان ليعذبهم ظالماً لهم بلا سبب. أو ما كان ليهلك القرى بشرك وأهلها مصلحون فيما بينهم، لا يضمون إلى شركهم فساداً وبغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه. ومن ذلك قدَّم الفقهاءُ، عند تزاحم الحقوق، حقوق العباد. وقال بعضهم: [الذنوب ثلاثة: ذنب لا يغفره الله، وهو الشرك. وذنب لا يعبأ الله به، وهو ما كان بينه وبين عباده، وذنب لا يتركه الله، وهو حقوق عباده]. وقالوا: قد يبقى المُلك مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

الإشارة: أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض هم: أهل النور المخزون المستودع في قلوبهم من نور الحق، إذا قابلوا منكراً دمغوه بالحال أو المقال، وإذا قابلوا فساداً أصلحوه، وإذا قابلوا فتنة أطفأوها. وإذا قابلوا بدعة

---

(١) من الآية: ٣٠ من سورة يس.

أحمدوها. وإذا واجهوا ضالا أرشدوه، أو غافلا ذكروه، أو طالباً للوصول وصلوه، يمشون في الأرض بالنصيحة، لا يخافون في الله لومة لائم. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم: إنَّ أحبَّ عباد الله إلى الله الذين يُحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالنصيحة» أما كونهم يحببون الله إلى عباده؛ فلأنهم يذكرون لهم آلاءه وإحسانه وبره. والنفس تحب بالطبع من أحسن إليها. وأما كونهم يحببون عباد الله إلى الله؛ فلأنهم يردونهم عن غيهم وحظوظهم، التي تبعدهم عن ربهم. فإذا رجعوا إليه أحبهم.

وسئل ذو النون المصري رضي الله عنه عن وصف الأبدال، فقال: سألتَ عن دياجي الظلام؛ لأكشفُ لك عنهم، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم، تعظيمًا لربهم؛ لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله ـ تعالى ـ النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم من مخافته، وطهّر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حُللاً من نسج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي متعلقة بمواصلته، فهممهم إليه ثائرة، وأعينهم بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل منْ فقدي فداووه، أو مريض من فراقي فعالجوه، أو خائف مني فانصروه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فمنّوه، أو راحل نحوي فزودوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيسٌ من فضلي فرجّوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواصلوه، أ و معظم لقدرتي فعظموه، أو مسيء بعد إحساني فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه. هـ.

وهذا بقدر الله ومشيئته، كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

قلت: الاستثناء من ضمير «يزالون».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة ﴾، متفقين على الإيمان، أو الكفران، لكن مقتضى الحكمة وجود الاختلاف؛ ليظهر مقتضيات الاسماء في عالم الشهادة؛ فاسمه: الرحيم والكريم يقتضي وجود من يستحق الكرم والرحمة، وهم: أهل الإيمان. واسمه: المنتقم والقهار يقتضي وجود من يستحق الانتقام

والقهرية، وهم أهل الكفر والعصيان. قال البيضاوي: وفيه دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد، وأن ما أراد يجب وقوعه. هـ.

﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾؛ بعضهم على الحق، وهم أهل الرحمة والكرم، وبعضهم على الباطل، وهم أهل القهرية والانتقام. أو مختلفين في الأديان والملل والمذاهب، ﴿ إلا من رَّحم ربك ﴾؛ إلا ناساً هداهم الله من فضله، فاتفقوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وبما جاءوا به، وهم المؤمنون.

وقوله: ﴿ ولذلك خلقهم ﴾؛ إن كان الضمير للناس، فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة، أي: ولتكون عاقبتهم الاختلاف خلقهم، وإن كان الضمير يعود على «من»، فالإشارة إلى الرحمة، أي: إلا من رحم ربك وللرحمة خلقه. ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ الأزلية على ما سبق له الشقاء، أي: نفذ قضاؤه ووعيده في أهل الشقاء، أو هي قوله للملائكة: ﴿ لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين ﴾؛ أي: من أهل العصيان منهما، لا من جميعهما.

الإشارة: الاختلاف بين الناس حكم أزلي، لا محيد عنه. وقد وقع بين أهل الحق وبين أهل الباطل. فقد اختلفت هذه الأمة في الأصول والفروع. أما الأصول فأهل توحيد الدليل وقع بينهم تخالف في صفات الحق، كالمعتزلة والقدرية والجهمية والجبرية مع أهل السنة. وأما الفروع فالاختلاف بينهم شهير. فقد كان في أول الاسلام اثنا عشر مذهبًا. ولا تجد علمًا من علم الفروع إلا وبين أهله اختلاف، إلا أهل التوحيد الخاص، وهم: المحققون من الصوفية، فكلهم متفقون في الأذواق والوجدان، وإن اختلفت طرقهم، وكيفية سيرهم. فهم متفقون في النهايات، التي هي معرفة الشهود والعيان، على طريق الذوق والوجدان، وفي ذلك يقول ابن البنا ـ رحمه الله ـ:

مذاهبُ الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وأما قول من قال: [مازالت الصوفية بخير ما اختلفوا، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم]، فالمراد بالاختلاف: تغيير بعضهم على بعض، عند ظهور نقص أو عيب أو ذنب. فإذا اتفقوا وسكت بعضهم عن بعض فلا خير فيهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «خلاف أمتي رحمة». المراد: الاختلاف في الفروع كاختلاف المذاهب؛ ففي ذلك رخصة لأهل الاضطرار؛ لأن من قلد عالما لقي الله سالما. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة سرد قصص الأنبياء، فقال:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾

قلت: «وكُلاًّ» مفعول «نقص»، و«ما نثبت به»: بدل، أو «ما» مفعول «نقُصُّ» و«كلا»: مصدر. أي: ونقص

عليك كُلاً من الاقتصاص ما نثبت به فؤادك.

يقول الحق جل جلاله: وكل نبأ ﴿ **نقص عليك** ﴾ من أخبار الرسل، ونخبرك به ﴿ **ما نثبت به فؤادك** ﴾، ليزيدك يقيناً وطمأنينة وثباتاً بما تسمع من أخبارهم، وما جرى لهم مع قومهم، وما لقوا من الأذى منهم، فتتسلى بهم، وتثبت على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار. ﴿ **وجاءك في هذه** ﴾ السورة، أو الأنباء المقتصة عليك، ﴿ **الحق** ﴾ أي: ما هو حق، ﴿ **وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾، فيتحملون، ويصبرون لما يواجههم من الأذى والإنكار.

الإشارة: ذكر أحوال الصالحين، وسيرهم وكراماتهم؛ جند من جنود القلب، وذكر أشعارهم ومواجيدهم جند من جنود الروح، وقد ورد: أن عند ذكرهم تنزل الرحمة، أي: رحمة القلوب باليقين والطمأنينة. والله تعالى أعلم.

ثم أمره بتهديد من خالفه، فقال:

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

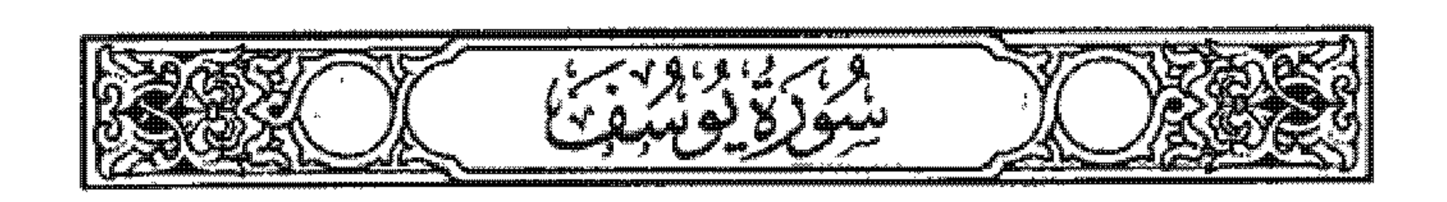
يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم** ﴾: حالكم ﴿ **إنا عاملون** ﴾ على حالنا، ﴿ **وانتظروا** ﴾ وقوع ما نزل بمن قبلكم ممن خالف رسوله؛ فإنه نازل بكم، ﴿ **إنا منتظرون** ﴾ ما وعدنا ربنا من النصر والعز.

﴿ **ولله غيبُ السموات والأرض** ﴾ لا يعلمه غيره؛ فلا يعلم غيب العواقب، ووقت وقوع المواعد إلا هو. ﴿ **وإليه يُرجع الأمرُ كلُّه** ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه، ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾؛ فإنه كافيك أمرهم وأمر غيرهم. وفي تقديم العبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل العابد دون البطال. ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ أنت وهم، فيجازي كلاً ما يستحقه. أو عما يعمل الكافرون، فيمهلهم ولا يهملهم.

الإشارة: (فاعبده وتوكل عليه): يقول تعالى: يا عبدي؛ قُم بخدمتي أقم لك بقسمتي، قف ببابي وانتسب لجنابي؛ أكفك شئونك، وتكن من أحبابي. أأدعوك لداري، وأمنعك من وجود إبراري، أأكلفك بخدمتي، ولا أقوم لك بقسمتي، فثقِ بي كفيلاً، واتخذني وكيلاً، أعطك عطاء جزيلا، وأمنحك فخراً جليلاً. قال القشيري: ويقال: إن التوكل: سكون القلب بضمان الربِّ. ويقال: سكون الجأش في طلب المعاش، ويقال: الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْده، أوالاكتفاء بالوعد عند فقد النقد. وسيأتي تمامه في سورة الفرقان، إن شاء الله. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

❁ ❁ ❁





مكية . وهى مائة وإحدى عشرة آية . وكأنها تتميم لما ذُكر قبلها من قصص الأنبياء، فهي من جملة ما يُثبّت به الفؤاد، ويقع به التسلية، مما يواجه به العبد من الأنكاد . وإنما أفردت بالسورة، لمزيد شرح وطول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قلت : (قرآنا) : حال، و(عربيا) : نعت له . و(لعلكم) : يتعلق بأنزلناه أو بعربيا . و (أحسن) : مفعول (نقصُّ)، و(بما أوحينا) : مصدرية، ويجوز أن يكون (هذا القرآن) : مفعولَ (نقصُّ)، و(أحسن القصص) : مصدر.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى، والمحبوب المنتقى، ﴿ تلك ﴾ الآيات التى تُتلى عليك هى ﴿ آيات الكتاب ﴾ المنزل عليك من حضرة قدسنا، ﴿ المبين ﴾ أى: الظاهر صدقه، الشهير شأنه . أو الظاهر أمره فى الإعجاز والبلاغة، الواضح معانيه فى الفصاحة، والبراعة . أو المبين للأحكام الظاهرة والباطنة . أو البَيِّنُ لمن تدبره أنه من عند الله . أو المبين لمن سأل تعنُّتاً من أحبار اليهود سؤالَهم؛ إذ رُوى أنهم قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً: لِمَ انتقل يعقوب من الشام؟ وعن قصة يوسف . فنزلت السورة .

﴿ إنا أنزلناه ﴾ أى: الكتاب، ﴿ قرآناً ﴾ أى: مقروءاً، أو مجموعاً، ﴿ عربيًا ﴾ بلغة العرب ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى: أنزلناه بلغتكم كى تفهموه وتستعملوا عقولكم فى معانيه؛ فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص، ولم يخالط من يعلم ذلك، معجز؛ إذ لا يتصور إلا بالإيحاء .

﴿ نحن نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص ﴾ ؛ أحسن الاقتصاص؛ لأنه اقتص على أبدع الأساليب، أو أحسن ما يُقص؛ لاشتماله على العجائب والحِكَم والآيات والعِبَر، ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ مشتملا على هذه السورة التى فيها قصة يوسف، التى هى من أبدع القصص، ﴿ وإن كنتَ من قبله لَمِنَ الغافلين ﴾ عن هذه

القصة، لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك. قال البيضاوي: وهو تعليل لكونه موحىً، و«إنْ» هذه: مخففة، واللام هي الفارقة. هـ.

الإشارة: ما نزل القرآن بلسان عربي مبين إلا لنعقل عظمة ربنا ونعرفه، وذلك لا يكون إلا بعد استعمال العقول الصافية، والأفكار المنورة، في الغوص على درر معانيه. فحينئذ تطلع على أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعلى أنوار الصفات، وأسرار الذات، وعلى توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات. قال تعالى: ﴿ مافرطنا في الكتاب من شيء ﴾(١)، لكن لا يحيط بهذا إلا أهل التجريد، الذين صفت عقولهم من الأكدار، وتطهرت من الأغيار، وملئت بالمعارف والأسرار. قال تعالى: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(٢). وهم: أهل العقول الصافية المتفرغة من شواغل الحس. والله تعالى أعلم.

ثم شرع في ذكر القصة، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦ ﴾

قلت: (إذ قال): معمول لا ذكر، أو بدل من (أحسن القصص)؛ إن جعل مفعولاً، بدل اشتمال، و(يا أبت): أصله: يا أبي، عوض من الياء تاء التأنيث؛ لتناسبهما في الزيادة، ولذلك قلبت في الوقف هاء، في قراءة ابن كثير وأبي عمر ويعقوب. وإنما أعاد العامل في «رأيتهم»؛ لطول الكلام، وجمع الشمس والقمر والكواكب جمع العقلاء؛ لوصفهم بصفاتهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إذ قال يوسفُ لأبيه ﴾ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم: ﴿ ياأبتِ إني رأيتُ ﴾ في النوم ﴿ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُم لي ساجدين ﴾. وقد ذكر البيضاوي حديثاً في تفسير هذه الكواكب فانظره. قيل: إن يوسف عليه السلام كان نائماً في حجر أبيه، فنظر فيه، وقال في نفسه: أترى هذا الوجه

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام. (٢) من الآية ٢٩ من سورة ص.

أحسن أم الشمس أم القمر؟ فإذا بيوسف قد انتبه من نومه، وقال: ﴿ يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا . . . ﴾ الخ، فلما قص الرؤيا على أبيه بكى، فقال يوسف: لم تبكي يا أبتي؟ قال: يابني لم يسجد مخلوق لمخلوق إلا عند المحنة، والبلاء، ألا ترى الملائكة لما أسجدهم الله لآدم، كيف ابتلي بالخروج من الجنة؟ ثم قال له: يابني؛ الشمس والقمر أنا وخالتك ـ وكانت أمه قد ماتت ـ والإحْدى عشر كوكبا إخوتك. هـ.

﴿ قال يا بُنيّ ﴾ ، وهو تصغير ابن، صغر للشفقة أو لصغر السن، وكان ابن ثنتي عشرة سنة، ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ ؛ فيحتالوا لإهلاكك حيلة. فَهِمَ يعقوبُ عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته، ويفوقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم. ومن خاف من شيء سلط عليه.

والرؤيا تختص بالنوم، والرؤية، بالتاء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والمصادِقة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت؛ لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. انظر تمامه فيه. وأخرج الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط، عن ابن عمر قال: لقي عمر علياً ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق، ومنها ما يكذب ، قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلئ نوما إلا عرج بروحه إلى السماء. فالتي لا تستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدُق، والتي تستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذبُ»[1] .هـ. فمنها ما تكون واضحة المعنى لا تحتاج إلى تعبير، ومنها ما تكون خفية تحتاج إلى تعبير. والمعبر يحتاج إلى علم وفراسة وزيادة إلهام، فعلم التعبير علم مستقل، قد أعطى الله منه ليوسف عليه السلام حظاً وافراً.

ولما قال يعقوب لابنه : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ قال: يا أبت، الأنبياء لايكيدون، قال له: ﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ ؛ ظاهر العداوة؛ لأجل ما فعل بآدم وحواء، فلا يألُوا جهدا في تسويلهم، وإثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد. قيل: لم يسمع كلام يوسف في رؤياه إلا خالته ـ أم شمعون ـ فقالت لإخوته: التعب عليكم، والإقبال على يوسف. فحركهم ذلك حتى فعلوا ما فعلوا. وقيل: أخبرت بذلك ولدها شمعون، فأخبر شمعون إخوته؛ فخلوا به وقالوا له: إنك لم تكذب قط. فأخبرنا بما رأيت في نومك، فأبى. فأقسموا عليه، فأخبرهم. فوقعوا فيما فعلوا به.

ثم قال له: ﴿ وكذلك ﴾ أي: وكما اجْتَباك لهذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس، ﴿ يجتبيك ربكُ ﴾ للنبوة والملك، أو لأمور عظام، ﴿ ويُعلمك ﴾ أي: وهو يعلمك ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ ؛ من تعبير

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٩٦ و ٣٩٧).

الرؤيا؛ لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة، وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة. أو يعلمك من تأويل غوامض علوم كتب الله، وسنن الأنبياء وحكم الحكماء. ﴿ ويُتمُّ نعمتَه عليك ﴾ بالنبوة، أو بأن يجمع لك بين نعمة الدنيا، ونعمة الآخرة، ﴿ وعلى آلِ يعقوبَ ﴾ يريد: سائر بنيه. ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب، ﴿ كما أتمها على أبويك من قبلُ ﴾؛ من قبلك، أو من قبل هذا الوقت. فأتمها على إبراهيم بالرسالة والخلة والإنجاء من النار، وإسحاق بالرسالة والإنقاذ من الذبح[1]، وهم: ﴿ إبراهيمَ وإسحاقَ ﴾، فهما عطف بيان لأ بويك، ﴿ إن ربك عليم ﴾ بمن يستحق الاجتباء، ﴿ حكيم ﴾ لا يخلو فعله من حكمة، نعمة كانت أو نقمة.

الإشارة: البداية مجلاة النهاية، يوسف عليه السلام نزلت له أعلام النهاية في أول البداية. وكذلك كل من سبق له شيء من العناية، لابد تظهر أعلامه في أول البداية؛ «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته». من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته.

وأوصاف النهاية تأتي على ضد أوصاف البداية؛ فكمال العز في النهاية لا يأتي إلا بعد كمال الذل في البداية. وتأمل قول الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِـزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المرءُ بِالذُّلِّ

وتأمل قضية سيدنا يوسف عليه السلام؛ ما نال العز والملك حتى تحقق بالذل، والملك وكمال الغنى في النهاية لا يأتي إلا بعد كمال الفقر في البداية، وكمال العلم لا يأتي إلا بعد إظهار كمال الجهل، وكمال القوة لا يأتي إلا بعد كمال الضعف .. وهكذا جعل الله تعالى بحكمته الأشياء كامنة في أضدادها؛ «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه». فالاجتباء يكون بعد الابتلاء، وإتمام النعم يكون بعد تقديم النقم، وذلك لتكون أحلى وأشهى، فيعرف قدرها ويتحقق منه شكرها، وهذا السر في تقديم أهوال يوم القيامة على دخول الجنة؛ ليقع نعيمها في النفس كل موقع. ولا فرق بين جنة الزخارف، وجنة المعارف. (حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات). والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) الثابت أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام. راجع التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

قلت : (يوسف) : عجمي، وفي سينه ثلاث لغات: الضم ـ وهو الأشهر ـ والفتح، والكسر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿لقد كان في يوسفَ وإخوته﴾ أي: في قصصهم ﴿آيات﴾ ؛ دلائل قدرة الله وحكمته، وعلامة نبوتك، حيث أخبرتَ بها من غير تعلم. ففي ذلك آيات ﴿للسائلين﴾ أي: لمن سأل عن قصتهم. والمراد بإخوته: علاته العشرة، والعلات: أبناء أمهات لأب واحد، فكانوا إخوته لأبيه، وهم: يهوذا، ورُوبيل، وشمعون، ولاوى، وريالون، ويشجر، ودنية من بنت خالته لِيًا، تزوجها يعقوب أولاً، فلما توفيت تزوج راحيل، فولدت له بنيامين، ويوسف. وقيل: جمع بينهما، ولم يكن الجمع حينئذ محرمًا. وأربعة آخرون من سُرِّيتين، وهم: دان، وتفثالى، وجاد، وآشر.

﴿إذ قالوا لَيُوسُفُ وأخوه﴾ بنيامين، وخُص بالإضافة؛ لأنه شقيقه، ﴿أحبُّ إلى أبينا منا ونحنُ عصبةٌ﴾ أي: والحال أنا جماعة أقوياء، فنحن أحق بالمحبة؛ لأنهما لا كفاءة فيهما. والعصبة: العشرة ففوق. ﴿إن أبانا لفي ضلال﴾ ؛ خطأ ﴿مبين﴾ ؛ ظاهر؛ لتفضيل المفضول. روى أنه كان أحب إليه؛ لما كان يرى فيه من مخايل الخير، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة، بحيث لم يصبر عنه، فتناهى حسدهم حتى حملهم على التعرض لقتله. وهكذا شأن الحسد يبلغ بصاحبه أمراً عظيما.

الإشارة : كان يعقوب عليه السلام لا يفارق يوسف ليلاً ولا نهاراً. وهكذا شأن المحبين. وأنشدوا:

وَلِي كَبِدٌ يَسْرِى إِلَيهِم سَلامُه بِجَمْرٍ تلظَّى، والفؤادُ ضِرامُه
وأجْفانُ عَيْنٍ لا تَمَلُّ من البُكَا وصَبٌ تَشَكَّى للحبيب غَرَامُه
فَأنتُم سُرورِى، أنتُم غايةُ المُنَى وقَلْبِي إليْكم والغرامُ زِمامُه
فَوَاللهِ ما أحبَبتُ ما عِشْتُ غَيرَكم لأن اشتياقى لا يحل اكتتامه. هـ.

قال الجنيد، رضي الله عنه : رأيت غلاماً حسن الوجه يعنف كهلاً حسنا، فقلت: ياغلام، لِمَ تفعل هذا؟ قال: لأنه يدعى أنه يهوانى، ومنذ ثلاث ما رآنى، قال: فوقعت مغشيا على، فلما أفقتُ ما قدرت على النهوض، فقيل لى فى ذلك، فقلت: ينبغى للمحب ألا يفارق باب محبوبه على أى حال. وأنشدوا:

لازِمِ البابَ إنْ عَشِقتَ الجَمَالا واهْجُرِ النَّوم إنْ أردتَ الوِصَالا
واجْعلِ الروحَ منك أوّل نَقْدٍ لحبيبٍ أنْوارُه تَتَلالا

قلت : فالحبيب غيور؛ لا يحب أن يرى في قلب حبيبه غيره . فإذا رأى فيه شيئاً أخرجه منه، وفرق بينه وبينه؛ غيرةً منه واعتناء به، وهو السر في افتراق يوسف من أبيه . والله تعالى أعلم.

ثم تعرضوا ليوسف، فقالوا:

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لما حركهم الحسد : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾؛ قيل: إنما قاله شمعون ودان، ورضي به الآخرون، ﴿ أو اطْرَحُوه أرضاً ﴾؛ أي : في أرض بعيدة يأكله السباع، أو يلتقطه أحد، فإن فعلتم ﴿ يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم ﴾ أي: يصفُ إليكم وجه أبيكم؛ فيقبل بكليته عليكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبته أحد، ﴿ وتكونوا من بعده ﴾؛ من بعد يوسف، أو الفراغ من أمره، أو قتله، أو طرحه، ﴿ قوماً صالحين ﴾ تائبين إلى الله عما جنيتم، مع محبة أبيكم. أو صالحين في أمور دنياكم، فإنها تنتظم لكم بخلو وجه أبيكم لكم، ﴿ قال قائل منهم ﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياء وقيل: روبيل: ﴿ لاتقتلوا يوسفَ ﴾؛ فإن القتل عظيم، ﴿ وألقوه في غيابة[1] الجُبِّ ﴾: في قعره، سمي به لغيبته عن أعين الناظرين. ومن قرأ بالجمع، فكان بتلك الجب غيابات، ﴿ يلتقطْه ﴾: يأخذه ﴿ بعضُ السيارة ﴾ أي: الذين يسيرون في الأرض، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ما يفرق بينه وبين أبيه ولابد، أو كنتم فاعلين بمشورتي.

الإشارة: إن أردت أن يخلو لك وجه قلبك فيخلو لك وجه حبيبك، حتى تشاهده عياناً وتعرفه إيقاناً، فاقتل كل ما يميل إليه قلبك ويعشقه من الهوى، واطرح عن عين بصيرتك رؤية السِّوى، ترى من أنوار وجهه وأسرار محاسنه، ما تبتهج به القلوب والأسرار، وتتنزه في رياض محاسنه البصائر والأبصار،وأنشدوا :

إنْ تَلاَشَى الكَوْن عَنْ عَيْنِ كَشْفِي شَاهَدَ القلبُ غَيْبَهُ في بَيَان

فَاطْرَحِ الكَوْنَ عن عِيَانِكَ وامْحُ نُقْطَةَ الغَيْنِ إنْ أرَدْتَ تَرَانِي

---

(١) قرأ الجمهور «غيابة» بالإفراد هنا وفي الموضع التالي في الآية (١٨) وقرأ نافع «غيابات» بالجمع في الموضوعين، وقد سار المفسر هنا على قراءة الجمهور، وسار في الموضع التالي على قراءة نافع.

ثم احتالوا على أبيهم في إرسال يوسف معهم، كما قال تعالى:

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قلت : (تأمننا): اجتمع نونان، فيجوز الادغام، وبه قرأ أبو جعفر، وقرأ الجماعة بالإشمام. وقوله: (يرتع ويلعب) : جواب الأمر، فمن قرأ بكسر العين فجزمه بحذف الياء، وهو من رعي الإبل، ومن قرأ بالإسكان فهو من الرتع، وهي الإقامة في الخصب والتنعم، والتاء على هذا أصلية. ووزن الفعل: يفعل، ووزنه على الأول يفتعل، قال ابن عطية: فيرتع على قراءة نافع من رعي الإبل، أي: يتدرب في رعي الإبل وحفظ المال. قال أبو علي: وقراءة ابن كثير: (نرتع) بالنون (ويلعب) بالياء، فنزعها حسن؛ لإسناد النظر في المال والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف لصباه، وقرأ أبو عمر وابن عامر: (نرتع ونلعب) ؛ بالنون فيهما، وإسكان العين والباء، من الرتوع، وهو: الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب، وقرأ عاصم والأخوان: (يرتع ويلعب) بإسناد ذلك كله إلى يوسف. هـ. **قلت** : وكذا قرأ نافع، غير أنه يكسر العين وهم يسكنون.

(ونحن عصبة) : حال، والرابط الواو، والعصبة: الجماعة من العشرة إلى فوق.

يقول الحق جل جلاله : قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ يا أبانا مالكَ لا تأمنّا على يوسف ﴾ أي: لم تخافنا عليه؟ ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ نشفق عليه، ونريد له الخير. أرادوا أن يستنزلوه عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. **قلت** : قد نصحوه في الحقيقة حيث تسببوا في ملكه وعزه. رُوي أنهم لما قالوا له: (مالك...) إلخ، اهتزت أركانه، واصفر لونه، واصطكت أسنانه، وتحركت جوانبه، كأنه علم بما في قلوبهم بالفراسة. ثم قالوا: ﴿ أرسلْه معنا غداً يرتع ﴾ : يتسع في أكل الفواكه ونحوها. أو يتعلم الرعاية، ﴿ ويلعبْ ﴾ بالاستباق والانتضال، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أن يناله مكروه.

﴿ قال ﴾ يعقوب : ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ لشدة مفارقته عليَّ، وقلة صبري عنه، ﴿ وأخافُ أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ : لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لقلة اهتمامكم به، وإنما خاف عليه من الذيب؛

لأن الأرض كانت مذأبة، وقيل: رأى في المنام أن الذئاب أحدقت بيوسف فكان يخافه، وإنما كان تأويلها: إحداق إخوته به حين أرادوا قتله. ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾: جماعة، ﴿إنا إذا لخاسرون﴾: مغبونون من القوة والحزم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسارة.

الإشارة: لم يسمح يعقوب عليه السلام بفراق حبيبه ساعة، وكذلك العبد لا ينبغي أن يغفل عن سيده لحظة؛ لأن الغفلة فراق، والذكر اجتماع، والعبد لا صبر له عن سيده. وأنشدوا:

فلأبكيَنَّ على الفراق كما بكى أسفا لفُرقةِ يوسفٍ يعقوبُ
ولأدْعُوَنَّكَ في الظلام كما دعا عند البلية ربَّهُ أيوبُ

وأنشدوا أيضاً في ذم الغفلة:

غَفَلْتَ عَنِ الْأَيَّامِ يَا أَخِي فَانْتَبِهْ وشَمِّرْ فإن الموتَ لا شك واقعْ
على أي شيءٍ هو حزنك قائم جنود المنايا تأتيك فانهض وسارعْ

قيل: إن بعض الصالحين رأى أستاذه في المنام، فقال له: يا أستاذ، أي الحسرات عندكم أعظم؟ قال: حسرة الغافلين. وأنشدوا:

تيقظ إلى التّذكار فالعمر قد مضى وحتى متَى ذا السكرُ من غفلة الهوى

ورأى ذو النون المصري بعض الصالحين في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه، وقال: يامدعي، ادعيت محبتي ثم غفلت عني. وأنشدوا:

تغافلت عن فهم الحقيقة بالهوى فلا أذنٌ تُصْغِي ولا عينٌ تَذرِفُ
ضعفت ولكن في أمانيك قوةٌ فيا تابعَ اللذاتِ كم تتخلفُ

ورأى عبد الله بن مسلمة والده في النوم، فقال له: يا أبت، كيف ترى حالك؟ فقال له: ياولدي عشنا غافلين. وأنشدوا:

غفلتَ وحادِي الموتِ يحدوك للبِلاَ وجسمك يا مغرور أصبح معتلا
وحتى متى ياصاح بابك مغلق أتاك نذير الموت والعمر قد ولّى

قيل : ما أصاب يعقوب ما أصابه في ولده إلا من أجل خوفه عليه، وغفلته عن استيداعه ربه، ولو استودعه ربه لحفظه، لكن لا ينفع حذر من قدر. (وكان أمر الله قدراً مقدورا).

ثم ذكر انصرافهم بيوسف، وما كان من شأنه، فقال:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت : (لمّا) حرف وجود لوجود، يطلب الشرط والجواب، وجوابها هنا محذوف؛ أي: فعلوا به ما فعلوا. وقيل: جوابها : (أجمعوا)، وقيل: (أوحينا)؛ على زيادة الواو فيهما. وجملة: (وهم لا يشعرون): حال من (تنبئنهم)، فيكون خطاباً ليوسف عليه السلام، أو من (أوحينا)؛ أي: وهم لا يشعرون حين أوحينا إليه. فيكون حينئذ الخطاب لسيدنا محمد ﷺ ، و(صبر جميل): مبتدأ، والخبر محذوف، أي: مثل. أو: خبر عن مبتدأ، أي: أمري صبر جميل. و (على قميصه): في موضع نصب على الظرف، أي: فوق قميصه. أو: حال من الدم؛ إن جوز تقديمها على المجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما ذهبوا﴾ بيوسف معهم ﴿وأجمعُوا﴾ أي: عزموا ﴿أن يجعلوه في غيابات[1] الجُبِّ﴾؛ وهو بئر بأرض الأردن، أو بين مصر ومدين، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب.

قال الفراء: كان حفره شداد بن عاد. فانظره. قال السدي: ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيما. فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه يا يعقوب، لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء. هـ. وكان إخوته سبعة من خالته الحرة، والباقون من سريتين له، كما تقدم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان يعقوب عليه السلام ينظر إلى يوسف عليه السلام حتى غاب عنه، وعن نظره، فلما علموا أنهم غيبوه عنه، وضعوه في الأرض وجروه عليها، ولطموا خده، فجرد شمعون سكينه وأراد ذبحه، فتعلق بذيل

(١) راجع التعليق على تفسير الآية ١٠، من نفس السورة .

روبيل وضربه، وكذلك جميع إخوته؛ إذا لجأ لِواحد منهم طرده، فضحك عند ذلك يوسف عليه السلام، فقال له يهوذا: ليس هذا موضع الضحك يا يوسف، فقال: من تعزز بغير الله ذل، ظننت أنه لا يصيبني وأنا بينكم مكروه لِما رأيت من قوتكم وشدتكم، فسلطكم الله على بشؤم تلك الفكرة؛ حتى لا يكون التوكل إلا عليه والتعزز إلا به. هـ. بالمعنى.

وقال الفراء: كانت زينب بنت يعقوب عليه السلام ـ أخت يوسف ـ وكانت رأت في منامها كأن يوسف وضع بين الذئاب وهم ينهشون، فانتبهت فازعة، ومضت إلى أبيها باكية، فقالت يا أبت، أين أخي يوسف؟ قال: أسلمته إلى إخوته، فمضت خلفه حتى لحقت به، فأمسكته، وتعلقت بذيله، وقالت: لا أفارقك اليوم يا أخي أبدا، فقال لها إخوتها: يا زينب، أرسليه من يدك، فقالت: لا أفعل ذلك أبدا؛ لأني لا أطيق فراق أخي، فقالوا: بالعشي نرده إليك ويأتيك. ثم أقبل يوسف عليه السلام يقبل رأسها ويديها، ويقول لها: يا أختاه دعيني أسير مع إخوتي أرتع وألعب، فذهب، وجلست تشيعه بعينها، ودموعها تتناثر مما رأت؛ خوفاً عليه. هـ.

فلما غابوا به عنها فعلوا به ما تقدم، وهموا بقتله، فقال لهم يهوذا: أما عاهدتموني ألا تقتلوه؛ فأتوا به إلى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها، فربطوا يده، ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم، ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، فقالوا: ادعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك. فلما بلغ نصفها ألقوه، وكان فيها ماء، فسقط، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي، فجاءه جبريل بالوحي، كما قال: ﴿ وأوحينا إليه . . . ﴾ الخ. وكان ابن سبع عشرة سنة، وقيل: كان مراهقا. وقال ابن عطية: كان ابن سبع سنين، أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ.

وفي القَصص: أن ابراهيم عليه السلام، حين ألقي في النار، جُرد من ثيابه، فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحق، وإسحق إلى يعقوب، فجعله في تميمة علقها على يوسف، فأخرجه جبريل وألبسه يوسف.

ثم قال له فيما أوحي إليه: ﴿ لتنبئنهم ﴾ أي: لتحدثنهم ﴿ بأمرهم هـذا ﴾؛ بما فعلوا بك، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنك يوسف، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم، وطول العهد المغير للحال والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر، حين دخلوا عليه ممتارين، فعرفهم وهم له منكرون، إلى أن قال لهم: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾(١) وفي رواية: أوحي إليه: يا يوسف لا تحزن على ما أصابك، فإنك تصل إلى ملك كبير، ويقف إخوتك بين يديك. بشره بما يؤول إليه أمره، إيناساً وتطييباً لقلبه. وقيل: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ متصل بقوله: ﴿ وأوحينا ﴾ أي: آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

(١) الآية ٨٩ من سورة يوسف.

﴿ وجاءوا أباهم عِشَاءً﴾ آخر النهار، وقرئ ﴿عُشى﴾ بضم العين والقصر، جمع أعشى، أي: عُشي من البكاء. فجاءوا إليه ﴿يبكُون﴾ أي: متباكين. روى أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال: يابني، أين يوسف؟ فقالوا: ﴿يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾؛ أي: نتسابق بأقدامنا في العَدْو، أو الرمي ﴿وتركنا يوسفَ عند متاعنا فأكله الذئبُ وما أنت بمؤمنٍ لنا﴾: بمصدق لنا، ﴿ولو كنا صادقين﴾؛ لسوء ظنك، وفرط محبتك ليوسف.

﴿وجاءوا على قميصِه﴾: فوق قميصه ﴿بدمٍ كذبٍ﴾، أي: ذي كذب بمعنى مكذوب فيه؛ لأنهم ذبحوا جدياً، ولطخوا قميصه بدمه. رُوِي أنه لما سمع بخبر يوسف صاح ودعا بقميصه فأخذه، وألقاه على وجهه، وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا! أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه.

وفي رواية أخرى: أنه لما رأى صحة القميص ضحك، فقالوا له: الضحك والبكاء من فعل المجانين! فقال: أما بكائي فعلى يوسف لما رأيت الدم، وأما ضحكي، فإني لما رأيت صحة القميص رجوت أن الحديث غير صحيح، ولذلك ﴿قال بل سوَلتْ لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: سهلت لكم، وهونت في أعينكم أمراً عظيماً حتى أقدمتم عليه. وقيل: لما سمع مقالهم غشي عليه إلى الصباح، وهم يبكون بأجمعهم، ويقولون بينهم: بئس ما فعلناه بيوسف ووالده، وأي عذر لنا عند الله. فلما أفاق نظر إلى أولاده وقال: هكذا يا أولادي كان ظني فيكم، بئس ما فعلتم، وبئس ماسولت لكم أنفسكم ﴿فصبر جميل﴾ أي: فأمري صبري جميل. وفي الحديث: «الصبرُ الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق»(١). ﴿واللهُ المستعانُ على ما تصفون﴾ أي: على احتمال ما تصفونه من هلاك ابني يوسف، وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم، إن صح أنهم تنبأوا. وقد تقدم في سورة البقرة الخلاف في نبوة الأسباط فراجعه(٢).

الإشارة: في هذه الآية رجاء كبير لأهل العصيان، وبشارة وتأنيس لمن أراد مقام الإحسان، بعد الإساءة والغفلة والنسيان، وذلك أن هؤلاء السادات فعلوا بيوسف عليه السلام ما فعلوا، فلما تابوا بعد هذا الفعل العظيم اجتباهم الحق تعالى، وتاب عليهم، وقربهم حتى صاروا أنبياء، على حد قول بعض العلماء. ولذلك قيل: [كم من خصوص خرجوا من اللصوص، وكم من عابد ناسك خرج من ظالم فاتك]. وفي الحكم: «من استغرب أن ينقذه الله من

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/١٦٦) عن حبان بن أبي جبلة، مرسلاً.

(٢) راجع تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الالهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا» . وللشافعي رضي الله عنه :

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

وهذا إنما يكون بالتوبة النصوح، والنهوض التام، والمجاهدة الكبيرة، كما فعل إبراهيم بن أدهم، والفضيل ابن عياض، والشيخ أبو يعزى، وغيرهم ممن كانوا لصوصاً فصاروا خصوصاً. قال النبي ﷺ : «مَنْ لم يَغْلِبْ نَفْسَه وهواهُ فَلَيْسَ لَهُ حظٌ في عُقْبَاه» . وأنشدوا:

جَنَيْنَا على النفس التي لك رُشْدُها بِطَبْعِ الْهَوَى فيها وتِيهٍ مِنَ الحِجَا

جَزَى الله خَيْراً مَنْ أَعَدَّ لدائه دَوَاءَ التُّقَى فَاسْتَعْمَلَ الْخَوْفَ وَالرَّجَا

جَبَانٌ وتَرْجُو أَنْ تُلَقَّبَ فَارِساً مَتَى شَابَهَ الْعَضْبُ اليَمَانِيُّ دُمْلُجَا

وفيها أيضا: تنويه بمقام الصابرين وعاقبة المتقين، فإن يعقوب عليه السلام، لما استعمل الصبر الجميل، جمع الله شمله بولده مع ما أعد له من الثواب الجزيل. ويوسف عليه السلام، لما صبر على ما أصابه من المحن؛ عوضه العز الدائم بترادف المنن. وفي الخبر: «أعلى الدرجات درجات الصابرين» . لكل عمل ثواب محدود، وثواب الصبرين غير محدود ولا معدود. قيل: إن الله تعالى أعطى لكل صابر قصراً في الجنة مسيرة الشمس أربعين يوماً، من درة بيضاء معلقة في الهواء، ليس تحته دعامة، ولا فوقه علاقة، وله أربعة آلاف باب، يدخل من كل باب سبعون ألف ملك، يسلمون على صاحبه ولا ترجع النوبة إليهم أبدا. هـ .

ثم ذكر خروج يوسف من البئر، وبيعه، ودخوله مصر، فقال:

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ

﴿ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت : (بضاعة) : حال من المفعول، أي: وأخفوه مبضَعًا به للتجارة. و(لنعلمه) : عطف على محذوف، أي: مكناه في الأرض ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه .. إلخ. و(دراهم) : بدل من (ثمن). قال الهروى: الأَشُدُّ: من خمسة عشر إلى أربعين سنة. وهو جمع شدة، مثل: نعمة وأنعم، وهي: القوة والجلادة في البدن والعقل.هـ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وجاءت سيارة ﴾ ؛ رفقة تسير من مدين إلى مصر، فنزلوا قريبًا من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿ فأرسلوا واردَهم ﴾ الذي يرد الماء، ويستقي لهم، وهو: مالك بن ذعر الخزاعي، ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أرسلها في الجب ليملأها، فتعلق بها يوسف، فلما رآه ﴿ قال يا بُشرى هذا غلام ﴾ ؛ نادى البشرى، بشارة لنفسه، أو لقومه، كأنه قال: تعال هذا أوانك. وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه على إخراجه فأخرجوه، ﴿ وأسَرُّوه ﴾ أي: أخفاه الوارد، وأصحابه عن الرفقة، وقالوا: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه بمصر، حال كونه ﴿ بضاعة ﴾ ؛ أي: متاعا مبْضعا به للتجارة، أي: يباع ويتجر بثمنه. ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ لم يخف عليه أسرارهم.

﴿ وشرَوه ﴾ أي: باعه السيارة من الرفقة، أو إخوته، فيكون الضمير راجع لهم. رُوي أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام ، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها، وأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا فاشتروه، وسكت يوسف خوفاً من أن يقتلوه. أو اشتروه من إخوته؛ لأن شرى قد يستعمل بمعنى اشترى. فاشتراه الرفقة منهم ﴿ بثمن بَخْس ﴾ ؛ أي: مبخوس، لزيفه أو نقصانه، ﴿ دراهم معدودة ﴾ قليلة، فإنهم يَزِنُون ما بلغ الأوقية، ويعدُّون ما دونها . قيل: كان عشرين درهمًا. وقيل: اثنين وعشرين. رُوي أن الذي اشتراه منهم مالك بن ذعر المتقدم، وكان صعلوكًا، فسأل يوسف أن يدعو له فدعا له فصار غنيًا. رُوي أنه قال لهم: بكم تبيعونه؟ فقالوا له: إن اشتريته بعيوبه بعناه لك. فقال: وما عيوبه؟ فقالوا: سارق كذاب، يرى الرؤيا الكاذبة. فقال لهم: بكم تبيعونه لي مع عيوبه؟ ويوسف عليه السلام ينظر إليهم ولا يتكلم، وهو يقول في نفسه: ما أظنه يقوم بثمني؛ لأنهم يطلبون أموالاً كثيرة. قال لهم مالك: معي دراهم قليلة تعد ولا توزن، فقالوا له : هاتها. فاشتراه منهم بتلك الدراهم المعدودة. قال ابن عباس: كانت سبعة عشر درهمًا، جعل له ذلك جزاء لما قوم نفسه، وظن أنهم يطلبون فيه الأموال. هـ. ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ : الراغبين عنه. يحتمل أن يكون الضمير لإخوته، وزهدهم فيه ظاهر. أو يكون للرفقة، فإن كانوا

بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق.

قال الفراء: لما اشتراه منهم مالك، قال لهم: اكتبوا لي كتابا بخطكم بأنكم بعتم مني هذا الغلام بكذا وكذا، فكتبوا له ذلك، فلما أراد الرحيل قالوا له: اربطه لئلا يهرب، فلما همّ بربطه قال له يوسف: خلني أودّع ساداتي؛ فلعلّي لاألقاهم بعد هذا اليوم. فقال له مالك: ما أكرمك من مملوك، حيث يفعل بك هذا وأنت تتقرب منهم. فقال له يوسف: كل أحد يفعل ما يليق به، فقال له: دونك، فقصدهم وهُم قيام صفاً واحداً، فلما دنا منهم بكوا وبكى يوسف عليه السلام، ثم قالوا: والله لقد ندمنا يايوسف على ما فعلنا، ولولا الخشية من والدنا لرددناك. هـ. ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه، فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه: «قطفير»، وكان الملك يومئذ «ريان بن الوليد العلقمي»، وقد آمن بيوسف، ومات في حياته.

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته ﴾ راعيل، أو زليخا، ﴿ أكرمي مثواه ﴾ ؛ اجعلي مقامه عندنا كريماً، والمعنى: أحسني تعهده، ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ في ضياعنا وأموالنا، نستظهر به في مصالحنا، ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي: نتبناه، وكان عقيما، لما تفرس فيه من الرشد. ولذلك قيل:(أفرس الناس عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ (١)، وأبو بكر حين استخلف عمر) (٢).

قال البيضاوي: رُوي أنه اشتراه العزيز وهو ابن تسع عشرة سنة، ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به مَنْ جعل شراءً غير الأول، فقيل: عشرون ديناراً، وزوجا نعل، وثوبان أبيضان. وقيل: ملؤه ـ أي وزنه ـ فضة، وقيل: ذهبا. هـ. وقيل: مسكاً وحريراً.

﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ﴾ أي: وكما مكنا محبته في قلب العزيز، أو كما مكناه في منزله، أو كما أنجيته، وعطفنا عليه العزيز، مكناه في الأرض، ليتصرف فيها بالعدل، ﴿ ولنُعلّمه من تأويل الأحاديث ﴾ ؛ أي: من تأويل كتب الله المتقدمة، أو من تأويل الأحكام الحادثة بين الناس ليحكم فيها بالعدل، أو من تعبير المنامات، ليستعد لها قبل حلولها. أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه: إقامته العدل، وتيسير أمور الناس، وليَعلَم معاني كُتب الله وأحكامه فينفذها، ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾ : لا يرده شيء، ولا ينازعه فيما يريد جبار ولا عنيد، أو: غالب

(١) من الآية ٢٦ من سورة القصص.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود وكذلك أخرجه الطبراني في الكبير (٨/١٨٥ ح ٨٨٢٩).

على أمر يوسف، فيدبر أمره بالحفظ والرعاية، والنصر والعز في عاقبة أمره، خلاف ما أراد به إخوته، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لا يفهمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ ؛ منتهى اشتداد جسمه، وكمال عقله. وتقدم تفسير الهروي له، وحده. وقيل: ما بين الثلاثين والأربعين، ﴿ آتيناه حُكماً ﴾ : حكمة، وهي النبوة. أو العلم المؤيد بالعمل. أو حُكمًا بين الناس بالعدل. ﴿ وعلما ﴾ يعني: علم تأويل الأحاديث، أو علماً بأسرار الربوبية، وكيفية آداب العبودية. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ إذا كمل عقلهم، وتوفر آدابهم، وكمل تهذيبهم، آتيناهم الحكمة وكمال المعرفة. وفيه تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه وإتقانه عمله في عنفوان شبابه.

الإشارة: من ظن انفكاك لطف الله عن قدره؛ فذلك لقصور نظره، لاسيما لطفه بالمتوجهين إليه، أو العارفين به الواصلين لحضرته. فكل ما ينزل بهم فإنما هو أقدار جارية، وأمداد سارية، وأنوار بهية، وألطاف خفية، تسبق لهم الأنوار قبل نزول الأقدار، فلا تحوم حول قلوبهم الأكدار، ولا تغير قلوبهم رؤية الأغيار، عند نزول شدائد الأقدار، يحفظ عليهم أسرار التوحيد، وينزل عليهم أنوار التأييد، عند نزول القضاء الشديد، والبلاء العتيد. ولابن الفارض رضي الله عنه :

أَحِبَّائِي أَنْتُمْ، أَحْسَنَ الدَّهْرُ أم أسا   فَكُونُوا كَمَا شِئْتُمْ أنا ذَلك الخِل

وقال صاحب العينية:

تَلَذُّ لِي الآلامُ إِذْ كُنْتَ مُسْقِمِي   وإنْ تَخْتَبِرْنِي فَهْيِ عِنْدِي صَنَائِعُ
تَحَكَّمْ بِما تَهْوَاهُ فِيَّ فَإِنَّنِي   فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ المَحَبَّةِ طَائِعُ

وقد جرت عادة الله تعالى أن يعقب الجلال بالجمال، والمحن بالمنن، والذل بالعز، والفقر بالغنى، فبقدر ما تشتد المحن تأتي بعدها مواهب المنن، وبقدر ما ينزل من الجلال يأتي بعده الجمال. سُنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. لاراد لما قضى، ولا معقب لما به حكم وأمضى.

قال تعالى: ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾ : قال بعض المفسرين: هذه الآية هي قطب هذه السورة، ثم قال: أراد آدم البقاء في الجنة، وما أراد الله ذلك، فكان الأمْر مُراد الله. وأراد إبليس أن يكون رأس البررة الكرام، وأراد الله أن يكون إمام الكفرة اللئام، فكان الأمر كما أراد الله. وأراد النمرود هلاك إبراهيم عليه السلام، ولم يرده الله، فكان الأمر كما

أراد الله. وأراد فرعون هلاك موسى عليه السلام، فأهلكه الله، ونجى موسى. وأراد داود أن يكون الملك لولده ميشا، وأراد الله أن يكون لسليمان عليه السلام، فكان كما أراد الله. وأراد أبو جهل هلاك سيدنا محمد ﷺ ونبوة الوليد بن المغيرة، فأهلك الله أبا جهل والوليد ونبأ محمداً ﷺ. وأراد المنذر بن عاد البقاء في الدنيا، فأهلكه الله وخرب ملكه. وأراد إرم العاتي، الذي بنى إرم ذات العماد، يحاكي بها الجنة، أن يسكنها خالداً فيها، فكذبه الله، وحال بينه وبينها، وغيبها عنه، حتى مات بحسرتها. هـ.

ثم ذكر مراودة زليخا ليوسف، وما كان من شأنهما، فقال:

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: المراودة: المطالبة، من راد يرود: إذا جاء وذهب لطلب الشيء، ومنه الرائد. و(هيت): اسم فعل معناه: تعال، أو أقبل، مبني على الفتح كأين، واللام للتبيين، كالتي في: سقيا لك، وقرأ ابن كثير: بالضم؛ تشبيهاً بحيث، ونافع وابن عامر بالفتح، وهي لغة فيه. وقرئ: «هِئْتُ» بالهمز؛ كجئت، من هاءَ يهيء: إذا تهيأ. و(معاذ الله): مصدر لمحذوف، أي: أعوذ بالله معاذاً. و(إنه): ضمير الشأن. و(لولا): حرف امتناع، وجوابها محذوف، أي: لخالطها، ولا يجوز أن يكون (وهَمَّ بها) جوابها؛ لأن حكمها حكم الشرط، فلا يتقدم عليها جوابها. قاله البيضاوي.

قلت : وبهذا يُرد على من وقف على (همت به)، كالهبطي ومن تبعه، إلا أن يُحمل على أنه ابتداء كلام مع حذف الجواب. واستحسنه البعض؛ ليكون همُّ يوسف خارجاً عن القسم، (وكذلك): في موضع المصدر، أي: ثبتناه مثل ذلك التثبيت لنصرف.. الخ، و(المخلصين) بالفتح: اسم مفعول من: أخلصه الله. وبالكسر: اسم فاعل بمعنى: أخلص دينه لله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وراودتْه ﴾ للفاحشة، أي: تمحلت وطلبت منه أن يوافقها ﴿ التي هو في بيتها ﴾ ؛ وهي زليخا. وترك التصريح بها؛ استهجاناً. فراودته عن نفسه، ﴿ وغلقتِ الأبوابَ ﴾، قيل: كانوا سبعة. والتشديد للتكثير، أو للمبالغة في الإيثاق، ﴿ وقالت هَيت لك ﴾ أي: أقبل وبادر، أو تهيأتُ لك. رُوي أنها تزينت بأحسن ما عندها، وقالت: تعال يا يوسف، ﴿ قال مَعَاذَ الله ﴾ ؛ أي: أعوذ بالله معاذاً، ﴿ إنه ﴾ أي: الشأن، ﴿ ربي أحسن مثواي ﴾ ؛ سيدي أحسن إقامتي وتربيتي، إذ قال لك أكرمي مثواي، فما جزاؤه أن أخونه في أهله، أو أنه تعالى ربي أحسن مَنزلي؛ بأن عطف عليّ قلبَ سيدي، ولطف بي في أموري، فلا أعصيه، ﴿ إنه لا يُفلحُ الظالمون ﴾ ؛ المجاوزون الإحسان إلى الإساءة، أو الزناة؛ فإن الزنى ظلم على الزاني والمزنيّ بأهله.

﴿ ولقد هَمّتْ به وهمَّ بها ﴾، قال ابن جزي: أكثَرَ الناسُ الكلامَ في هذه الآية، حتى ألفوا فيها التآليف، فمنهم مفرط ومُفرِّط؛ وذلك أن منهم من جعل همّ المرأة وهمّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته. وذكروا من ذلك روايات من جلوسه بين رجليها، وحله للتكّة، وغير ذلك مما لا ينبغي أن يقال به؛ لضعف نقله ولنزاهة الأنبياء عن مثله، ومنهم من قال: همت به لتضربه على امتناعه، وهمّ بها ليقتلها أو يضربها؛ ليدفعها. وهذا بعيد يرده قوله: ﴿ لولا أن رأى برهان رَبِّه ﴾. ثم قال: والصواب ـ إن شاء الله ـ: أنها همت به من حيث مرادُها، وهمّ بها كذلك، لكنه لم يعزم على ذلك، ولم يبلغ إلى حد ماذكر من حل التكّة، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه، ولم يتابعها، ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة، حتى محاها من قلبه، لمّا رأى برهان ربه. ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء؛ لأن الهم بالذنب ليس بذنب، ولا نقص في ذلك؛ لأن من همّ بذنب ثم تركه كتب له حسنة. هـ.

قلت : وكلامه حسن؛ لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها، وبمجاهدة مخالفتها فُضّل البشر على جنس الملائكة، وقال البيضاوي: والمراد بهمه: ميل الطبع، ومنازعة الشهوة، لا القصد الاختياري، وذلك مما لايدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل، لمن يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفته، كقوله: قتلته لو لم أخف الله.هـ. ومثله في تفسير الفخر، وأنه مال إليها بمقتضى الطبع، ومُنع منه بصارف العصمة، كالصائم يشتاق الماء البارد، ويمنعه منه صومه. ومثله أيضا في لطائف المنن: همت به همّ إرادة، وهمّ

بها همّ ميل لا همّ إرادة. قال المحشي الفاسي: وفيه نظر؛ لأن ذلك لا يتصور في النفوس المطمئنة. وإنما ذلك شأن أرباب التلوين والمجاهدة، دون أهل التمكين والمشاهدة، وخصوصاً الأنبياء؛ إذ صارت نفوسهم مشاكلة للروح، مندرجة فيها، ولذلك صارت مطمئنة، وميلها حينئذ إنما يكون للطاعة، وأما غير الطاعة، فهي بمنزلة القذر والنتن تشمئز منه، ولا يتصور بحال ميلها إليه. ثم أطال الكلام في ذلك.

قلت: أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة. وأما تفسيره بالخاطر فيتصور في المطمئنة وغيرها. وإنما سماه الله تعالى هماً في حق يوسف عليه السلام؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - لعلو منصبهم، وشدة قربهم من الحضرة، يشدد عليهم في مطالبة الأدب، فيجعل الخاطر في حقهم همّاً، وظنا. كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[1] فيمن خفف الذال، أو كما قال تعالى في حق يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2]؛ على أحد التفاسير. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لولا أن رأى برهانَ ربه﴾ لخالطها. والبرهان الذي رأى: قيل: ناداه جبريل: يا يوسف تكون في ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء. وقيل: رأى يعقوب عاضاً على أنامله، يقول: إياك يايوسف والفاحشة. وقيل: تفكر في قبح الزنى فاستبصر. وقيل: رأى زليخا غطت وجه صنمها حياءً منه، فقال: أنا أولى أن أستحي من ربي. ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه؛ ﴿لِنصرِفَ عنه السُّوءَ﴾؛ خيانة السيد، ﴿والفحشاءَ﴾، الزنى؛ ﴿إنه من عبادنا المخلَصين﴾ الذين أخلصناهم لحضرتنا. أو من الذين أخلصوا وجهتهم إلينا.

﴿واسْتَبَقَا البابَ﴾ أي: تسابقا إلى الباب، وابتدرا إليه، وذلك أن يوسف عليه السلام فرّ منها؛ ليخرج حين رأى البرهان، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، ﴿وقَدَّتْ قميصَه من دُبُرٍ﴾ أي: شقت قميصه من خلف لما اجتذبته لترده. والقَدُّ: الشق طولا، والقَطُّ: الشق عرضًا، ﴿وألفيا سيدها﴾: وصادفا زوجها ﴿لدى الباب﴾؛ وفيه إطلاق السيد على الزوج، وإنما أفرد الباب هنا، وجمعه في قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾ لأن المراد هنا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار. ﴿قالتْ﴾ لزوجها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم﴾؟ قالته إيهامًا أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقامًا لنفسها لما امتنع منها. ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾: طالبتني بالمواقعة بها. قال ذلك تبرئة لساحته، ولو لم تكذب عليه ماقاله.

---

(١) من الآية: ١١٠ من سورة يوسف.

(٢) من الآية/ ٨٧ من سورة الأنبياء.

﴿ وشَهِدَ شاهدٌ من أهلها ﴾، قيل: ابن عمها. وقيل: ابن خالها صبياً في المهد. وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف. وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم كرامة ليوسف عليه السلام،وعن النبي ﷺ: «تكلم في المهد أربعةٌ: ابنُ ماشطةَ ابنة فرْعَون، وشاهِدُ يُوسُفَ، وصاحِب جُرَيْجٍ، وعيسَى». وذكر مسلم في صحيحه ـ في قصة الأخدود ـ: «أن امرأة أتِي بها لتُطْرَح في النار، ومعها صبي يرضع، فقال لها: يا أمَهْ، أصبري، لا تجزعي. فإنك على الحق..»[1] وعدّ بعضهم عشرة تكلموا في المهد، فذكر إبراهيم عليه السلام، ويحيى ابن زكريا، ومريم، ونبينا محمد ﷺ، وطفلا في زمنه عليه السلام، وهو: مبارك اليمامة، وقد نظمهم السيوطي، وزاد واحداً، فقال:

تَكلــَّم في المَهْـدِ النَّبيُّ مُـحـمَّـدٌ ... ويحـيى وعـيسى والخليلُ ومـريمُ

وصَـبِيُّ جُـرَيْجٍ ثم شـاهِدُ يُوسُفٍ ... وطفلٌ لدى الأُخْـدُود يَرْوِيه مُـسْلِمُ

وطـــفلٌ عليْـه مُرَّ بالأمَـةِ الَّتي ... يُقـَالُ لهــا تَزْنِــي ولا تَتَكَـــلَّمُ

ومَاشِطَةٌ في عَـهْدِ فرعـونَ طِفْلُها ... وفي زَمَنِ الهـادي المُبَـارَكُ تُخْـتَمُ

وذكر ابن وهب عن أبي لهيعــة قال: بلغني أن المولود فيما تقـدم كان يولد في الليل، فيصـبح يمشي مع أمه.هـ. وضعف ابن عطية كون شاهد يوسف صبيًا بالحديث: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»، وبأنه لو كان الشاهد صبياً لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص. هـ. وقد يجاب بأن الحصر باعتبار بني إسرائيل، مع أن الوحي يتزايد شيئًا فشيئاً، فأخبر بثلاثة، ثم أخبر بآخرين، وبأن الاستدلال وقع بهما تحقيقاً للقضية.

ثم ذكر الحق تعالى ما قاله الشاهد، فقال: ﴿ إن كان قميصُه قُدَّ من قُبلٍ فصدقتْ وهو من الكاذبين ﴾؛ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قُدامه بالدفع عن نفسها. أو لأنه أسرع خلفها فعثر بذيله فانقدّ جيْبُه. ﴿ وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبر فكذبتْ وهو من الصادقين ﴾؛ لأنها جذبته إلى نفسها حين فرَّ منها. والجملة الشرطية محكية بالقول، أي: قال: إن كان... إلخ. وتسميتها شهادة؛ لأنها أدت مؤداها. والجمع بين «إنْ» و«كان»: على تأويل: إن يعلم أنه كان، ونحوه، ونظيره: قولك: إن أحسنتَ إليَّ فقد أحسنتُ إليك من قبل. فإن معناه: إن تمتن علي بإحسانك أمتن عليك بإحساني. ومعناه: إن ظهر أنه كان قميصه.. الخ.

---

(١) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود...) من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿ فلمّا رأى ﴾ زوجها قميص يوسف ﴿ قُدَّ من دبرٍ قال إنه ﴾ أي: قَوْلَكِ: ﴿ما جزاء... ﴾ الخ. ﴿ من كَيْدِكُنَّ ﴾؛ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها ولسائر النساء، ﴿ إن كَيْدَكُنَّ عظيم ﴾؛ لأن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً من النفس والشيطان؛ لأنهن يواجهن به الرجال، والنفس والشيطان يوسوسان مسارقة. ثم التفت العزيزُ إلى يوسف ﷺ وقال: ﴿ يوسفُ ﴾ أي: يا يوسف. وحذف النداء؛ إشارة إلى تقريبه وملاطفته، ﴿ أعْرِضْ عن هذا ﴾ الأمر واكتمه، ولا تذكره، ﴿ واستغفري ﴾ يازليخا ﴿ لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾؛ من القوم المذنبين، من خطأ؛ إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب. قاله البيضاوي.

الإشارة: إذا أراد الله أن يصافي عبده بخصوصية النبوة أو الولاية، كلأه بعين الرعاية، وجذبه إليه بسابق العناية؛ فإذا امتحنه أيدّه بعصمته، وسابق حفظه ورعايته. ولا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية؛ فالشهوة في البشر أمر طبيعي، وبمجاهدتها ظهر شرفه. لكن النفس المطمئنة لا تحتاج في دفعها إلى كبير مجاهدة.

والنفس اللوامة لابد في دفعها من المكابدة والمجاهدة؛ فالهواجس والخواطر ترد على القلوب كلها، لكن النفس المطمئنة لها قوة على دفعها، وقد تتصرف فيها بإمضاء ما قدره الله الواحد القهار عليها. ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾. وذلك كمال في حقهم لا نقصان؛ إذ بذلك تتميز قهرية الربوبية من ضعف العبودية، فما ظهرت كمالات الربوبية إلا بظهور نقائص العبودية. أما الإصرار على العيوب فلا يوجد مع الخصوصية مطلقا، وأما هجومها على العبد من غير إصرار فيكون مع وجود خصوصية النبوة والولاية، وقد تقع بها الزيادة إن صحبها الانكسار والإنابة. وفي الحكم: «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول». والله تعالى أعلم.

واعلمْ أن ما امتحن به الصديق عليه السلام مع العصمة، قد وقع مثله كثيراً في هذه الأمة المحمدية مع الحفظ والامتناع؛ ذكر الرصاع في كتاب التحفة: أن بعض الطلبة كان ساكناً في مدرسة فاس، فخرجت امرأة ذات يوم إلى الحمام بابنتها، فتلفَّتْ البنت وبقيت كذلك إلى الليل، فرأت باباً خلفه ضوء، فأتت إليه، فوجدت فيه رجلا ينظر في كتاب، فقالت: إن لم يكن الخير عند هذا فلا يكون عند أحد. فقرعت الباب، فخرج الرجل فذكرت له قصتها، وأنها خافت على نفسها. فرأى أنه تعيَّنَ عليه حفظها، فأدخلها وجعل حصيراً بينه وبينها، وبقي كذلك ينظر في كتابه، فإذا بالشيطان زين له عمله، فحفظه الله ببركة العلم، فأخذ المصباح، وجعل يحرك أصابعه واحداً بعد واحد حتى أحرقها، والبنت تنظر إليه وتتعجب، ثم خرج ينظر إلى الليل فوجده مازال، فأحرق أصابع اليد الأخرى، ثم لاح الضوء، فقال: اخرجي، فخرجت إلى دارها سالمة، فذكرت القضية لوالديها، فأتى أبوها إلى مجلس العلم، وذكر القصة للشيخ، فقال للحاضرين: أخرجوا أيديكم وأمنوا على دعائي لهذا الرجل، فأخرجوا أيديهم، وبقي رجل، فعلم الشيخ أنه صاحب القضية، فناداه، فأخبره، فذكر أنه زوجه الأب منها. هـ. مختصرا.

فمن ترك شيئاً لله عوضه الله مثله، أو أحسن منه. وكذلك فعل الحق تعالى بيوسف عليه السلام قد زوجه زليخا على ما يأتي إن شاء الله.

وحدثني شيخ شيخي مولاي العربي رضي الله عنه، أنه وقف على حكايات تناسب هذا؛ وهو أن رجلاً صالحاً تعلق قلبه بابنة الملك، فلما رأى نفسه أنه لا يقدر على تزوجها تلطف حتى دخل عليها في قبتها ليلاً، فوجدها نائمة على فراشها مُلقى على وجهها رداؤها، وشمعة تشعل عند رأسها، وأخرى عند رجلها، وطعام موضوع عندها. فكشف عن وجهها فرأى من الجمال ما أبهر عقله؛ فجعل يتردد في نفسه، ويخاصمها على فعل الفاحشة، فبينما هو كذلك إذ أبصر لوحاً فوق رأسها مكتوباً فيه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾(١)، فتاب لله تعالى عليه، وزجر نفسه عن هواها، فوضع يده في ذلك الطعام ليأكل منه، وترك فيه أثراً، فلما أفاقت البنت رأت أثر اليد في الطعام، فسألت أهل الدار، فكلهم قالوا: ما دخل عليك أحد منا، فتيقنت أن رجلاً دخل عليها، وكان يخطبها كثيرٌ ممن له الرئاسة والجاه، فخافت على نفسها من أن يطرقها أحد منهم فيغضبها، فقالت لأبيها: لابد أن تزوجني، فقال في نفسه: والله لا أزوجها الا لرجل صالح، فخرج مختفيا إلى المدرسة، فأتى بعض الناس، فقال: سمعت هنا برجل صالح، فأردت أن أزوره؛ فأشار إلى ذلك الرجل الذي دخل على بنته ثم سأل ثانياً، وثالثاً، فكلهم أشار إليه، فأتى إليه فقال له: إن لي بنتا جميلة خطبها مني كثير من الناس، فأردت أن أزوجكها، فجهزها بما يليق بها، وزوجها إياه. هـ.

وذكر ابن عرضون: أن رجلاً كان بالقيروان من العلماء الأتقياء، يقال له شقران، وكان جميل الصورة، فهوته امرأة، فأرسلت إلى عجوز، وأسرت إليها أمره على أن توصله إليها، فأتت إليه العجوز، وقالت: عندي ابنة مريضة، وأرادت أن توصي، وعسى أن تصل إليها وتدعو لها، فلبس ثيابه، ومشى معها إلى أن وصلت إلى الدارفأدخلته، فوجد صبية جميلة، فقالت له: هلُمّ، فقال: إني أخاف الله رب العالمين. فقالت له العجوز: هيهات ياشقران، والله لئن لم تفعل لأصيحنّ، وأقول: إنك دخلت علينا وعارضتنا، فقال لها: إن كان ولابد فدعيني حتى أدخل الحجرة، فقالت له: افعل ما بدا لك، فدخل الحجرة، فقال: اللهم إنها ما هوت مني إلا صورتي فغَيِّرها، فخرج من الحجرة، وقد ظهر عليه الجذام. فلما رأته، قالت: اخرج، فخرج سالماً. وهذه الحكاية مشهورة ببلاد القيروان. هـ.

قلت: وقد نزل بنا في حال شبابنا كثير مما يشبه هذا، فحفظنا الله بمنّه وكرمه وحسن رعايته. فلله المنة والحمد، لا أحصي ثناء عليه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة الطلاق.

ولما شاع خبر زليخا مع يوسف عليه السلام، عاب عليها بعض النسوة، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (نسوة): اسم جمع لامرأة. وتأنيثه غير حقيقي، ولذلك جرد فعله من التاء. و(في المدينة) متعلق بقال، أي: أشعن الخبر في المدينة، أو: صفة لنسوة، فيتعلق بالاستقرار. و(حبا): تمييز. و(حاشَ لله): قال أبو علي الفارسي: هي هنا فعل، والدليل على ذلك من وجهين، أحدهما: أنها دخلت على لام الجر، ولا يدخل حرف على حرف. والآخر: أنها حذف منها الألف، على قراءة الجماعة، والحروف لا يحذف منها شيء. وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل، والفاعل بحاش ضميرُ يوسف، أي: بعد يوسف عن الفاحشة لخوف الله.

وقال الزمخشري: حاش: وضع موضع المصدر، كأنه قال: تنزيهاً لله. وحذف منه التنوين؛ مراعاة لأصله من الحرفية. وقال البيضاوي: هو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوضع موضع التنزيه. واللام للبيان، كما في قولك: سقيالك. هـ. و(ليكونن): نون التوكيد الخفيفة كتبت بالألف؛ لشبهها بالتنوين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾: مصر، وكانوا خمسا: زوجة الحاجب، والساقي، والخباز، والسجان، وصاحب الدواب. قلن: ﴿امرأتُ العزيز تُراودُ فتاها﴾: خادمها ﴿عن نفسه﴾ أي: تطلب مواقعة غلامها إياها، ﴿قد شَغَفَها حُباً﴾؛ قد دخل شغافَ قلبها حُبُّه، وهو غلافه، ﴿إنا لنراها في ضلالٍ مبين﴾؛ في خطأ عن الرشد بيِّن ظاهر. ﴿فلما سمعتْ بمكرهنّ﴾؛ باغتيابهن. وسماه مكراً؛ لأنهن أخفينَه كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استَكْتمتْهن سرها فأفشينه. فلما بلغها إفشاؤه ﴿أرسلتْ إليهن﴾ تدعوهن. قيل:

دعت أربعين امرأة فيهن الخمس. ﴿ وأعتدتْ ﴾: أعدت ﴿ لهن مُتكأً ﴾ ؛ ما يتكئن عليه من الوسائد ونحوها. وقيل: المتكأ: طعام ، فإنهم كانوا يتكئون للطعام عند أكله، وقرئ في الشاذ: «مَتْكاً»، بسكون التاء وتنوين الكاف، وهو الأترج. ﴿ وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهن سِكّيناً ﴾ ليقطعن به. وهذا يدل على أن الطعام كان مما يقطع بالسكاكين كالأترج. وقيل: كان لحماً.

﴿ وقالت اخْرُجْ عليهن ﴾ ، فأسعفها؛ لأنه كان مملوك زوجها، فخرج عليهن، ﴿ فلما رأينه أكْبَرْنَه ﴾: عظمن شأنه وجماله الباهر، وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأيْتُ يُوسُفَ لَيْلَةَ المعراج كَالْقَمَرِ لَيْلَة البَدْرِ». وقيل: كان يُرى تلألؤ وجهه على الجدران. ﴿ وقطّعنَ أيْدِيَهُنَّ ﴾: جرحنها بالسكين؛ لفرط الدهشة. اشتغلن بالنظر إليه، وبُهِتْنَ من جماله حتى قطعن أيديهن، وهُنَّ لا يشعرن، كما يقطع الطعام. ﴿ وقُلْنَ حاشَ لله ﴾؛ تنزيهاً له عن صفات العجز عن أن يخلق مثله. أوتنزيها له أن يجعل هذا بشراً. اعتقدوا أن الكمال خاص بالملائكة، وكونه في البشر في حيز المحال، أو تعجباً من قدرته على خلق مثله. ﴿ ما هذا بشراً ﴾؛ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر. ﴿ إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريمٌ ﴾ على الله؛ لأن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة. من خواص الملائكة.

﴿ قالت ﴾ لهن: ﴿ فذلِكُنَّ الذي لُمتُنَّني فيه ﴾؛ توبيخاً لهن على اللوم، أي: فهو ذلك الغلام الكنعاني، الذي لمتنني في الافتتان به قبل أن ترونه. ولو كنتن رأيْتُنَّهُ لعذرتُنّني، ﴿ ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصمَ ﴾: فامتنع طلباً للعصمة. أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها؛ كي يعاونها على إلانة عريكته، ﴿ ولئن لم يفعلْ ما آمرُهُ ﴾ به ﴿ ليُسْجَنَنَّ وليكوناً من الصاغرين ﴾ الأذلاء، وهو من صغِر، بالكسر، يَصغَر صغاراً. فقلن له: أطع مولاتك.

﴿ قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه ﴾ من فعل الفاحشة؛ بالنظر إلى العاقبة. وإن كان مما يشتهيه النفس. لكن رُبَّ شَهْوَة ساعة أوْرَثَتْ حَزْنا طويلا. قيل: إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان اللائق به أن يسأل الله العافية، فالاختيار لنفسه أوقعه في السجن، ولو ترك الاختيار لكان معصوماً من غير امتحان بالسجن، كما كان معصومًا وقت المراودة، ﴿ وإلاّ تَصْرِفْ عني ﴾: وإن لم تصرف عني ﴿ كيدَهُنَّ ﴾ من تحبيب ذلك إليّ، وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة، ﴿ أصْبُ إليهن ﴾ ؛ أملْ إلى جانبهن بطبعي ومقتضى شهوتي، ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾؛ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه. فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به.

﴿ فاستجاب له ربه ﴾ : أجاب دعاءه الذي تضمنه كلامه، ﴿ فصرف عنه كيدهنَّ ﴾ حيث ثبته على العصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن،وآثرها على اللذة الفانية؛ ﴿ إنه هو السميع ﴾ لدعاء الملتجئين إليه، ﴿ العليم ﴾ بإخلاصهم أو بما يصلح بهم.

الإشارة: الحب إذا كان على ظاهر القلب، ولم يخرق شغافه، كان العبد مع دنياه، وآخرته، بين ذكر، وغفلة. فإذا دخل سويداء القلب، وخرق شغافه نسي العبد دنياه وأخراه، وغاب عن نفسه وهواه، وضل في محبة مولاه. ولذلك قيل لعاشقة يوسف: (إنا لنراها في ضلال مبين) أي: في استغراق في المحبة حتى ضل عنها ما دون محبوبها. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾(١) أي: وجدك ضالا في محبته، فهداك إلى حضرة مشاهدته ومقام قربه، فكان قاب قوسين أو أدنى. وعلامة دخول المحبة شغاف القلب أربعة أشياء: الاستيحاش، والإيناس، وذكر الحبيب مع الأنفاس، وحضوره مع الخواطر والوسواس. وأنشدوا:

تَاللهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا غَرِبت ... إلاَّ وذِكْرُكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسي

ولاَ جَلَسْتُ إلى قَومٍ أُحَدِّثُهم ... إلاَّ وأنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلاَّسي

ولا شَرِبْتُ لَذِيذَ المَاءِ مِنْ ظَمَأٍ ... إلاَّ رأيْتُ خَيَالاً مِنْكَ في الْكَاسِ

إنْ كَانَ لِلنَّاسِ وَسْوَاسٌ يُوَسْوِسُهُمْ ... فَأَنْتَ واللهِ وَسْوَاسِي وخَنَّاسي

لَولا نَسِيمٌ بِذِكْرَاكُمْ أُفِيقُ بِهِ ... لَكُنْتُ مُحْتَرِقًا مِن حَرِّ أَنْفَاسي

وقال آخر:

خَيَالُكَ في وَهْمِي، وذِكْرُكَ في فَهْمِي ... ومَثْوَاكَ فِي قَلْبِي، فَأَيْنَ تَغِيبُ؟

قوله تعالى: (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن....) الآية: أدهشتهم طلعة يوسف، وجماله الباهر. وزليخا لما استمرت معه لم تفعل شيئاً من ذلك. كذلك المريد إذا استشرف على أنوار الحضرة وجمالها، أدهشته وحيرته، فلولا التأييد الإلهي ما أطاقها، فإذا صبر على صدماتها واستمر مع تجليات أنوارها ذهب دهشه، واطمأن قلبه بشهود محبوبه من وراء أردية العز والكبرياء، وهذه هي الطمأنينة الكبرى والسعادة العظمى.

وقوله تعالى: (قال رب السجن أحب إليَّ)، هكذا ينبغي للعبد أن يكون؛ يختار ما يبقى على ما يفنى؛ فرب شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً، ورب صبر ساعة أورثت نعيماً جزيلا. وبالله التوفيق.

(١) الآية ٧ من سورة الضحى.

ثم ذكر سجن يوسف، وما يتبعه من إخراجه، وتمليكه وتمكينه، فقال:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: (ليسجننه) : مفسر للفاعل، أي: ظهر لهم سجنه؛ إذ الجملة لا تكون فاعلاً على المشهور، وجوزه بعضهم مستدلاً بالآية. وقيل: محذوف، أي: بدا لهم رأى ليسجننه. وقال الإمام القصار، الفاعل هو القسم المفهوم من اللام الموطئة له، أي: بدا لهم قسمهم ليسجننه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم بَدَا لهم﴾ أي: ظهر للعزيز وأهله، ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ الدالة على براءة يوسف؛ كشهادة الصبي، وقَدِّ القميص، وقطع الأيدي، واستعصامه منهن، فظهر لهم سجنه. وأقسموا ﴿ليَسْجُنُنَّهُ حتى حين﴾: حتى يظهر ما يكون منه؛ ليظن الناس أنها مُحقة فيما ادعت عليه. فخدعت زوجها حتى وافقها على سجنه. ورُوي أنه لما أدخل السجن ندمت زليخا على سجنه، وعيل صبرها على فراقه، فأرسلت إلى السجان ليطلقه، فأبى، فلبث فيه سبع سنين.

﴿ ودخلَ معه السجنَ فتيان﴾ أي: فسجنوه واتفق أنه دخل معه في ذلك اليوم رجلان آخران، من عبيد الملك: ساقيه وخبازه، اتهما أنهما أرادا أن يسُمّاه، ﴿قال أحدهما﴾ وهو الساقي: ﴿إني أراني﴾ في المنام ﴿أعصرُ خمراً﴾ أي: عنبا. وسماه خمراً: باعتبار ما يؤول إليه. رُوي أنه قال: رأيت كأن الملك دعاني وردني إلى قصره، فبينما أنا أدور في القصر، وإذا بثلاثة عناقيد من العنب، فعصرتها، وحملت ذلك إلى الملك لأسقيه له.

﴿ وقال الآخرُ ﴾ وهو الخباز: ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكلُ ﴾ : تنهش ﴿ الطيرُ منه ﴾، قال: رأيت كأن العزيز دعاني، وأخرجني من السجن، ودفع لي طيفورة عليها خبز، فوضعتها على رأسي، والطير تأكل منه. ﴿ نبئنا بتأويلهِ إنا نراك من المحسنين ﴾ ؛ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. وإنما قالا له ذلك؛ لأنهما رأياه في السجن يعظ الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، كان ﷺ إذا رأى محتاجاً طلب له، وإذا رأى مضيقاً وسع عليه؛ فقالا له: فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانهِ ﴾ في النوم، ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكُما ﴾ تأويله في الدنيا. أو: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة؛ لتأكلاه إلا أخبرتكما به، ما هو؟ وما لونه؟ وما صفته؟ وكم هو؟ قبل أن يأتيكما، إخباراً بالغيب، فيأتيهما كذلك؛ معجزة. وصفَ نفسه بكثرة العلم والمكاشفة؛ ليكون وسيلة إلى دعائهما إلى التوحيد.

ثم قال لهما: ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ بالوحي والإلهام. وليس ذلك من قبيل التكهن أو التنجيم. رُوي أنهما قالا له: من أين لك هذا العلم، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ ذلكما مما علمني ربي إني تركتُ ملّةَ ﴾ ؛ طريقة ﴿ قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة همْ كافرون ﴾ أي: علمني ذلك لأني تركت ملة أهل الكفر، ﴿ واتبعتُ ملة آبائي إبراهيمَ وإسحق ويعقوبَ ﴾، وإنما قال ذلك؛ تمهيدا للدعوة، وإظهاراً أنه من بيت النبوة؛ لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه، والوثوق به. ﴿ ما كان لنا ﴾ : ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿ أن نُشركَ بالله من شيء ﴾ أيّ شرك كان، ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ من فضل الله علينا ﴾ بالوحي ﴿ وعلى الناس ﴾ ببعثنا إليهم، وإرشادنا إياهم وتنبيهم عليه، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ هذا الفضل؛ فيُعرضون عنه. أو من فضل الله علينا بالوحي والإلهام، وعلى الناس بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها، ولا يستدلون بها، فيوحدون خالقها، فهم كمن كفر النعمة ولم يشكرها.

الإشارة: جرت عادة الحق ـ تعالى ـ في خلقه أنه لا يأتي الامتكان إلا بعد الامتحان، ولا يأتي السلوان إلا بعد الأشجان، ولا يأتي العز إلا بعد الذل، ولا يأتي الوجد إلا بعد الفقد. فبقدر ما يضيق على البشرية تتسع ميادين الروحانية، وبقدر ما تسجن النفس وتحبس عن هواها، تتسع الروح في مشاهدة مولاها.

وقوله تعالى: ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾: إشارة إلى أن امتحانه بالسجن كان لتكميل حقيقته وشريعته، فمن رأى أنه يحمل الطعام فإشارة إلى حمل لواء الشريعة، ومن رأى أنه يعصر خمراً فإشارة إلى تحقيق خمرة الحقيقة، فيكون من أهل مقام الإحسان، ولذلك قال: ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾، ثم ذكر نتيجة مقام الإحسان ـ وهو التوحيد الخاص ـ فقال: ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾. وذكر أن ذلك ناله من باب الكرم لا من باب العمل، فقال: ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى التوحيد، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: الإضافة فى (صاحبى السجن): على معنى (فى)؛ كقولك:

يا سَـــارِقَ اللّيــلةَ أهْــلَ الــدَّارِ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا صاحِبَى السجن ﴾ أى: ياساكنيه، أو يا صاحِبى فيه؛ ﴿ أأرباب متفرقون ﴾: متعددون، ﴿ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ ﴾ المتوحّد فى الألوهية، ﴿ القهارُ ﴾: الغالب على أمره، لايقاومه غيره، ﴿ ما تعبدون ﴾ أنتم ومن على دينكم من أهل مصر، ﴿ من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أى: ما تعبدون إلا مسميات أسماء من الحجارة والخشب، سميتموها آلهة من غير حجة تدل على استحقاقها للعبادة. والمعنى: سميتم آلهة مالا يستحق الألوهية، ثم عبدتموها. ﴿ ما أنزل اللهُ بها ﴾ أى: بعبادتها ﴿ من سلطان ﴾: من حجة ولا برهان. ﴿ إن الحُكْمُ ﴾ فى أمر العبادة ﴿ إلا لله ﴾؛ لأنه المستحق لها دون غيره، من حيث إنه الواجب لذاته، الموجد للكل، هو المالك لأمره، ﴿ أمَرَ ﴾ على لسان أنبيائه ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ ولا تعبدوا معه سواه ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ القويم الذى لا عوج فيه، ﴿ ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾ دلائل توحيده، فيتخبطون فى جهالتهم. قال البيضاوى: وهذا من التدرج فى الدعوة وإلزام الحجة؛ بيّن لهم أولاً: رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يُسمونها آلهة،

ويعبدونها لا تستحق الألوهية، ثم دل على ما هو الحق القويم، والدين المستقيم، الذي لا يقتضي العقلُ غيره، ولا يرتضي العلم دونه. هـ.

الإشارة: كل من لم يجمع قلبه على مولاه، واتبع حظوظه وهواه، فله أرباب متفرقون بقدر ما يميل إليه قلبُه من هذا العرض الفاني. قال ابن عطية: وقد ابتلي بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم.هـ. وفي الحديث: «خَابَ مَنْ رَجَى غيْرَ الله وضَلَّ سَعْيُه، وطَابَ وقْتُ مَنْ وثِقَ بالله» . ولله در القائل:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وحَّدَ الله رَبَّهُ ... وأَفْرَدَهُ أنْ يَجْتَدِي أَحَداً رِفْدَا

فَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي عَلَى الْحَقِّ وِقْفَةً ... أَمُوتُ بِهَا وَجْداً وأَحْيَا بِهَا وَجْدَاً

وَخَلِّ مُلوكَ الأرْضِ تَجْهد جُهْدَهَا ... فَهذا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

ثم فسر لهما الرؤيا، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

قلت : (منهما) : يتعلق بظن، والظن يحتمل أن يكون بمعنى اليقين؛ لأن قوله: (قضي الأمر) يقتضي ذلك، أو يبقى على بابه.

يقول الحق جل جلاله: قال يوسف: ﴿ **يا صاحبي السجن** ﴾ المستفتيان عن الرؤيا، ﴿ **أما أحدكُما** ﴾ وهو الساقي، ﴿ **فيسْقي ربه خمرا** ﴾ كما كان يسقيه قبلُ، ويعود إلى ما كان عليه، ﴿ **وأما الآخرُ فيُصلبُ فتأكلُ الطير من رأسه** ﴾، فقالا: كَذَبْنَا ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿ **قُضيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان** ﴾، سبق به القضاءُ في الأزل، وهو ما يؤول إليه أمركما، ولذلك وحده ولم يقل: قضي أمراكما. رُوي أنه لما دعاهما إلى التوحيد أسلم الساقي وأبى الخباز، فأُخرج بعد ثلاث وصُلب.

﴿ **وقال للذي ظنَّ أنه ناج منهما** ﴾ يوسف، أي: تيقن، أو غلب على ظنه أنه ناج منهما، إما عن وحي، على الأول، أو باجتهاد بسبب الرؤيا: ﴿ **اذكُرني عند ربك** ﴾؛ عند سيدك، وهو الملِك، وقل له: غلامٌ سُجِنَ ظُلْمًا،

لعله يُخلصني. قال ابن عطية: يحتمل أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق. أو يذكره بهما. هـ. وقال الورتجبي: يحتمل أن قوله: ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ : عرِّف له طريقتي مع الله حتى يعرفني أني رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليوحد الله تعالى، ويتخلص من كيد الشيطان، وما معه من الإنسان. هـ .

﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربه ﴾ أي: فأنسى الساقي أن يذكر يوسف لربه. أوْ أنسى يوسفَ ذكرَ الله حتى استغاث بغير، فأدبه، ﴿ فلبثَ في السجن ﴾، وفي الحديث عنه ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يَقُلْ: اذْكُرْنِي عند ربِّك، لَمَا لَبِثَ في السِّجْنِ سَبْعاً بَعْدَ الْخَمْسِ» .

روى أن جبريل عليه السلام أتاه بعد المقالة، فقال له: مَن أخرجك من الجُبِّ، وخلّصك من القتل، وعصمك من الفاحشة؟ فقال: الله. فقال: كيف تعتصم بغيره، وتثق بالمخلوق، وترفع قصتك إليه، وتترك ربك؟! قال: ياجبريل؛ كلمات جرت على لساني، وأنا تائب لا أعود لمثلها. هـ. والاستعانة بالمخلوق، وإن كانت جائزة شرعاً، لكنها لاتليق بمقام الأقوياء. ﴿ فلبث في السجن بِضع سنين ﴾ البضع: من الثلاث إلى التسع. روى أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين أولاً، ثم سجن بعد المقالة سبع سنين.

الإشارة: النسيان والغفلة التي لا تثبت في القلب، والخواطر التي ترد وتذهب من أوصاف البشرية التي لاتنافي الخصوصية، إذ لا انفكاك للعبد عنها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] فالطيف لا ينجو منه أحد؛ لأنه من جملة أوصاف العبودية التي بها تعرف كمالات الربوبية. وقد قال تعالى في حق سيد العارفين: ﴿ وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾[2]، فالعصمة التي تجب للأنبياء إنما هي مما يوجب نقصاً أو غضاً من مرتبتهم. وهذه الأمور إنما توجب كمالاً؛ لأنها بها يتحقق كمال العبودية التي هي شرف العبد. فافهم وسلم، ولا تنتقد، فإن هذه الأمور لايفهمها إلا العارفون بالله، دون غيرهم من أهل العلم الظاهر.

وقال الورتجبي: إن يوسف عليه السلام لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام، فأنساه الشيطان ذكر ربه، في سابق حكمه، على تقدير وقت إيمان الملك، فلبث في السجن إلى وقت إيمان الملك، فنسيان يوسف: احتجابه عن النظر إلى قدره السابق. هـ .

---

(١) من الآية ٢٠١ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

ثم ذكر سبب خروجه من السجن، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: يقال: عبرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ عبارة، وهو أفصح من عبّرت ـ بالتشديد ـ تعبيراً. واللام للبيان، أو لتقوية العامل؛ لضعف الفعل بتأخيره عن مفعوله. والأصل: تعبرون الرؤيا. وأصل (ادكر): اذتكر، فقلبت التاء دالاً مهملة، وأدغمت المعجمة فيها فبقيت دالاً. وإليه أشار ابن مالك بقوله:

في ادَّانَ وازْدَدْ وادَّكِرْ دالاً بقِي(١)

و(دأبا) حال، أي: دائبين، أو مصدر بإضمار فعله، أي: تدأبون دأباً. وفيه لغتان: السكون، والفتح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الملكُ﴾؛ وهو ملك مصر الذي كان العزيز وزيراً له، واسمه: «ريان بن الوليد». وقيل: «مصعب بن الريان»، وكان من الفراعنة ـ رُوي أن يوسف عليه السلام لما لبث في السجن سبْع سنين سجد، وقال: إلهي، خلصني من السجن. فكلما دعا يوسف أمنت الملائكة، فاتفق في الليلة التي دعا فيها يوسف أن رأى الملكُ تلك الرؤيا التي ذكرها بقوله: ﴿إني أرى﴾ في المنام ﴿سبع بقرات سِمَانٍ﴾ خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف ـ مهازيل ـ خرجن بأثرهن فابتلعت المهازيلُ السمان، ﴿وسبعَ سنبلات خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبُّها، ﴿و﴾ سبعا ﴿أُخر يابسات﴾ قد أدركت، فالْتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها. فلما رأى

(١) صدر البيت: (طاتا افتعال رُد إثْر مُطْبَق). انظر باب الإبدال.

ذلك انتبه مرعوباً، وجمع ندماءه، ودعا المفسرين، فقال: ﴿ يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ﴾؛ اعبروها، ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبُرون ﴾ أى: إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا.

﴿ قالوا ﴾: هذه ﴿ أضغاثُ أحلامٍ ﴾؛ تخاليطها، جمع ضِغْث، وأصله: ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جمعوا ﴿ أحلام ﴾؛ للمبالغة في وصف الحلم بالكذب. ثم قالوا: ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾، والمعنى: ليس لها تأويل عندنا؛ لأنها أكاذيب الشيطان، وإنما التأويل للمنامات الصادقة.

﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ من صاحبى السجن، وهو الساقى، وكان حاضراً ﴿ وادَّكَرَ بعد أمة ﴾ أى: وتذكر بعد جماعة من السنين، وهي سبع سنين، ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ إلى من عنده علمها، أو إلى السجن. رُوى أنه لما سمع مقالة الملك بكى، فقال الملك: مالك تبكي؟ قال: أيها الملك؛ إن رؤياك هذه لا يعبرها إلا الغلام العبراني الذى فى السجن، فتغير وجه الملك، وقال: إنى نسيته، وما ذكرته منذ سبع سنين، ما خطر لى ببال. فقال الساقي: وأنا مثلك، فقال له الملك: وما يدريك أنه يعبر الرؤيا؟ فحدثه بأمره، وأمر الساقى فقال له: امض إليه وسله، فقال: إني والله أستحي منه؛ لأنه أوصاني ونسيت، فقال له: لا تستح منه؛ لأنه يرى الخير والشر من مولاه فلا يلومك. فأتاه.

فقال: ﴿ يوسفُ ﴾ أى: يا يوسف، ﴿ أيها الصِّدِّيق ﴾: المبالغ فى الصدق. وإنما وصفه بالصِّدِّيقية لما جرب من أحواله، وما رأى من مناقبه، مع ما سمع من تعبير رؤياه ورؤيا صاحبه، ﴿ أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ أى: أفتنى فى رؤيا ذلك واعبرها لىَ، ﴿ لعلى أرجعُ إلى الناس ﴾ أى: أعـودُ إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد؛ إذ قيل: إن السجن كان خارج البلد. ﴿ لعلّهم يعلمون ﴾ تأويلها. أو يعلمون فضلك ومكانتك. وإنما لم يجزم بعلمهم؛ لأنه ربما اختُرِم دونه، أو لعلهم لا يفهمون ما يقول لهم.

﴿ قال ﴾ فى تعبيرها: ﴿ تزرعون سبعَ سنين دأبًا ﴾ أى: على عادتكم المستمرة من الخصب والرخاء. ﴿ فما حصدتمُ فذَرُوهُ ﴾: اتركوه ﴿ فى سُنْبُله ﴾؛ لئلا تأكله السوس، وهى نصيحة خارجة عن عبارة الرؤيا، ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ فى تلك السنين، أى: لا تدرسوا منه إلا ما تحتاجون إلى أكله خاصة، وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين. فعلمهم حيلة يبقى بها السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهو أن يتركوه فى سنبله غير مُدرَس؛ فإن الحبة إذا بقيت فى غشائها حُفظت بإذن الله.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شِدَادٌ﴾ أي: ذات شـــدة وجوع ﴿يأكُلْنَ ما قدمتم لهن﴾ أي: يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن. أسند الأكل إلى السنين مجازاً؛ تَطْبِيقًا بين المعبر والمعبر به، ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أي: مما تخزنون وتخبئُون للزراعة والبذر. ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناسُ﴾ أي: يغيثهم الله بالفرج من القحط، أو يغاث بالمطر، لكن مصر إنما تسقى من النيل. ﴿وفيه﴾ أيضا ﴿يَعْصِرُون﴾ العنب والزيتون؛ لكثرة الثمار. أو يعصرون الضروع لحلب اللبن؛ لأجل الخصب. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أوَّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع فى السنين المخصبة في السنين المجدبة. ولعله علم ما في السنة الثامنة من الخصب والرخاء بالوحي، أو بأن انتهاء الجدب لا يكون إلا بالخصب، وبأن سُنة الله الجارية أن يوسع على عباده بعد ما ضَيّق عليهم، لقوله ﴿فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الروح فى أصل نشأتها علامة دَرَّاكَةٌ، تكاشف بالأمور قبل وقوعها، إذا غابت عن إحساسها الذي حجبَها عن ذلك العلم، ولو كانت من كافر إذا غابت عن حسها بنوم، أو اصطلام عقل. فمن طهرها من دنس الشرك بالتوحيد، وغيبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد، رجعت إلى أصلها، وفاضت عليها العلوم التي كانت لها قبل التركيب في هذا القالب الحسي، علماً وكشفاً. ولا شيء أنفع لها في الرجوع من السهر والجوع. وفي الجوع أسرار كثيرة حسية، ومعنوية، وبسببه جمع الله شمل يوسف بأبيه وإخوته. وبه أيضا ملَّكَ اللهُ يوسف ونصره ومكنه في الأرض حتى ملك مصر وأهلها. ولذلك قال نبينا - عليه الصلاة والسلام -: «اللهم أعِنّي عَلَيْهِم - أي على قريش - بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»(٢).

وذكر الغزالي في الإحياء، في أسرا ر الجوع، أربعين خصلة. وفي بعض الأثر: (أن الله تعالى عذب النفس بأنواع من العذاب، ومع كل عذاب يقول لها: من أنا؟ فتقول هي: ومن أنا؟ حتى عذبها بالجوع، فقالت: أنت ربي سبحانك الواحد القهار). والممدوح منه؛ هو المتوسط دون إفراط ولاتفريط، كما قال البوصيري:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وِمِنْ شِبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَـــةٍ شَــرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ٥ من سورة الشرح.

(٢) أخرجه البخاري في أكثر من موضع، منها: (كتاب التفسير - سورة الروم).

ثم ذكر خروجه من السجن وتمكينه من الملك، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ولما جاء الرسول من عند يوسف بالتعبير، وسمعه الملك، تعجب منه، واستعظم علمه وعقله، وقال: لا ينبغي لمثل هذا أن يُسجن، ﴿ ائتوني به، فلما جاءه الرسولُ ﴾ ليخرِّجه، ﴿ قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النِّسوة اللاتي قطّعْنَ أيديهن ﴾: ما شأنهن حتى قطعن أيديهن، وهل رأين مني ميلاً إليهن. وإنما تأنى في الخروج، وقدّم سؤال النسوة، والفحص عن حاله؛ ليظهر براءة ساحته، وليعلم الملك أنه سُجن ظلماً، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يتقي مواضع التهم، ويجتهد في نفيها، وفي الحديث: «مَنْ كَان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلا يَقِفَنّ مَواقِفَ التُّهَم».

وفيه دليل على حلمه وصبره، وعدم اهتباله بضيق السجن؛ إذ لم يُجب الداعي ساعة دُعي بعد طول سجنه. ومن هذا المعنى تواضع معه نبينا ﷺ حيث قال: «لَو لَبِثْت فِي السِّجْنِ مَا لَبِث يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي»[1]. ولم يذكر امرأة العزيز كرماً، ومراعاةً للأدب، ورعياً لذمام زوجها، وستراً لها. بل ذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير يوسف ـ باب فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك...) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ حين قلن لي: أطع مولاتك. وفي عبارته تعظيم لكيدهن، والاستشهاد عليه بعلم الله، وبراءته مما قذف به، والوعيد لهن على كيدهن. ثم جمع الملك النسوة، وكُن ستًا أو سبعًا، مات منهن ثلاث ويوسف في السجن، وبقي أربع ومعهن امرأة العزيز. و﴿قال﴾ لهن: ﴿ما خطبكُنَّ﴾: ما شأنكن ﴿إذ راودتُنَّ﴾ أي: حين راودتن ﴿يوسفَ عن نفسه﴾، وأسند المراودة إلى جميعهن؛ لأن الملك لم يتحقق أن امرأة العزيز هي التي راودته وحدها. ﴿قلنَ حاشَ لله﴾، تنزيهاً لله أن يعجز عن خلق عفيف مثله، أو تنزيهاً ليوسف أن يعصيه؛ لأجل خوف الله. وهذه تبرئة ليوسف ولهن، أو لهن فقط. وتكون تبرئة يوسف في قولهن: ﴿ما علمنا عليه من سُوءٍ﴾: من ذنب.

﴿قالت امرأةُ العزيز الآن حَصْحَص الحق﴾ أي: تبين ووضح، أو ثبت واستقر، ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ في قوله: ﴿راودتني عن نفسي﴾ فلما رجع إليه الرسول، وذكر ما قالته النسوة، وما أقرت به امرأة العزيز، قال: ﴿ذلك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيب﴾ أي: فعلت ذلك التثبت والتأني في الخروج ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته ﴿بالغيب﴾ في حال غيبته، أو بظهر الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة، بل تعففت عنها. ﴿وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين﴾ أي: لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد؛ مبالغةً. وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها زوجها، وتوكيد لأمانته.

رُوي عن ابن عباس أنه لما قال: ﴿لم أخُنْـه بالغيب﴾ قال له جبريل عليه السلام: ولاحين هممت. فقال: ﴿وما أُبرئُ نفسي﴾ لا أنزهها في عموم الأحوال، أو لا أزكيها على الدوام. قاله تواضعًا وإظهاراً للعبودية، وتنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه، ولا العجب بحاله، بل إظهاراً لنعمة العصمة والتوفيق.

ثم قال: ﴿إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوء﴾ بحيث إنها مائلة بالطبع إلى الشهوات، فتهُم بها، وتستعمل القوى والجوارح في نيلها في كل الأوقات. ﴿إلا ما رحم ربي﴾: إلا وقت رحمة ربي بالعصمة والحفظ، أو: إلا ما رحم الله من النفوس فيعصمها من ذلك. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة، ﴿إن ربي غفور رحيم﴾، يغفر ما همت به النفوس، ويرحم من يشاء بالعصمة. أو يغفر للمستغفر ذنبه المعترف على نفسه، ويرحمه بالتقريب بعد تعرضه للإبعاد.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ذلك ليعلم أني لم أَخُنْه بالغيب﴾ إلى هنا، هو من كلام زليخا. والأول أرجح[1].

---

(١) ورجح الحافظ ابن كثير القول الثاني، وقال: إنه الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة.

﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي: أجعله خاصتي وخلاصتي، أو أجعله خالصا لنفسي. قال أولاً: ﴿ ائتوني به ﴾ فقط، فلما تبين له حاله وظهر كماله، قال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ رُوي أنه لما أراد أن يخرجه أرسل إليه بخلعة يأتي فيها، وكان بين السجن والبلد: أربعة فراسخ، فقال يوسف: لا أخرج من السجن حتى لا يبقى فيه أحد، فأمر الملك بخروج جميع مَن فيه. فلما خرج من السجن اغتسل وتنظف، ولبس ثياباً جددا، فلما دخل على الملك، قال: اللهم إني أسألك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟. فقال: لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لساناً، فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه، فقال: أحب أن أسمع رؤياي، فحكاها، ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها، فأجلسه على السرير، وفوض إليه أمره. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي: فلما أتوا به وكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء، ﴿ قال إنك اليومَ ﴾ عندنا ﴿ مكينٌ ﴾ أي: في مكانة ومنزلة، ﴿ أمين ﴾: مؤتمن على كل شيء، ثم فوض إليه أمر المملكة.

وقيل: توفي قطفير ـ أي: العزيز ـ فنَصَّبه منصبه، وزوجه من زليخا بعد أن شاخت، وافتقرت، فدعا الله تعالى فرد عليها جمالها وشبابها، فوجدها عذراء، وولد منها إفرائيم وميشا. ثم قال له الملك: ما ترى نصنع في هذه السنين المخصبة؟.

﴿ قال اجعلني على خزائنِ الأرض ﴾ أي: أرض مصر ألي أمرها. والخزائن: كل ما يخزن فيه طعام ومال وغيرهما. ﴿ إني حفيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها، ﴿ عليم ﴾ بوجوه التصرف فيها. قال البيضاوي: ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة، آثر ما تعم فوائده وعوائده، وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياســة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد: أن الملك أسلم على يديه.هـ. قلت: وقد تقدم عن الورتجبي ما يدل عليه.

وقال ابن عطية: وطلب يوسف للعمل إنماهو حسبة منه عليه السلام؛ لرغبته أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبي بكر رضي الله عنه في الخلافة، مع نهيه المستشيرَ له من الأنصار عن أن يتأمَّر على اثنين. فجائز للفاضل أن يعمل ويطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه. هـ. وفي «الاكتفاء في أخبار الخلفاء»: أن عمر أراد أبا هريرة على العمل، فامتنع، فقال له: أوليس يوسف خيراً منك، وقد طلب العمل؟ فقال: يوسف نبي بن نبي، وأنا ابن أميمةَ، فأنا أخاف ثلاثاً واثنين: أن أقول بغير علم، وأقضي بغير عدل، وأن يضرب ظهري، ويشتم عرضي، ويؤخذ مالي. هـ.

﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف ﴾ أي: ومثل ذلك الصنع الجميل الذي صنعنا بيوسف مكناه ﴿ في الأرض ﴾؛ أرض مصر، ﴿ يتبوأ منها حيثُ يشاءُ ﴾ : ينزل من بلادها حيث يريد هو، أو ينزل منها حيث نريد[1]، ﴿ نُصيب برحمتنا من نشاء ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿ ولا نُضيع أجر المحسنين ﴾، بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً. ويوسف أفضلهم في زمانه، فمكّنه الله من أرض مصر، حتى ملكها بأجمعها؛ وذلك أنه لما فوض إليه الملك اجتهد في جمع الطعام وتكثير الزراعات، حتى دخلت السنون المجدبة، وعم القحط مصر والشام، ونواحيهما، وتوجه الناس إليه، فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق لهم منها شيء، ثم في السنة الثانية بالحلي والحلل، ثم في السنة الثالثة بأمتعة البيوت، ثم في الرابعة بالدواب، ثم في الخامسة بالرباع والعقار، ثم في السادسة بأولادهم، ثم في السابعة برقابهم حتى استرقهم جميعا، ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك. فأعتقهم ورد إليهم أموالهم.

قال تعالى: ﴿ ولأجرُ الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الشرك والفواحش، فهو أحق بالرغبة وأولى بالطلبة. وقال ابن جزي في قوله: ﴿ نُصيب برحمتنا من نشاء ﴾: الرحمة هنا المراد بها الدنيا، وكذلك الأجر في قوله: ﴿ ولا نُضيع أجر المحسنين ﴾، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ ولأجرُ الآخرة خير ﴾ فأخبر تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها من يشاء من مؤمن وكافر، وطائع وعاصٍ، وأن المحسنين لابد من أجرهم في الدنيا. فالأول في المشيئة، والثاني واقع لا محالة. ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾، وفيه إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين الدنيا والآخرة.هـ.

الإشارة: في الآية ثلاث فوائد: الأولى: مدح التأني في الأمور، ولو كانت جلالية؛ لأنه يدل على كمال العقل والرزانة، وطمأنينة القلب. وذم العجلة؛ لأنها من خفة العقل والطيش، وعدم الصبر والاحتمال. يؤخذ ذلك من تأني يوسف عليه السلام في السجن بعد طول مدته. وفي الحديث: «التَّأنِّي مِنَ الله، والعَجَلَةُ من الشَّيْطَانِ»[2].

الثانية: عدم تزكية النفس، ودوام اتهامها، ولو بلغت من التصفية ما بلغت. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾[3]، وقال بعض الصوفية: وكيف يصح لعاقل أن يزكي نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾، والنفوس ثلاثة: أمارة، ولوامة، ومطمئنة. وزاد بعضهم: اللهامة من قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[4]..

---

(١) هذا المعنى على قراءة (نشاء) بالنون، وبها قرأ ابن كثير، انظر الإتحاف (٢/١٤٩).
(٢) أخرجه الترمذي في (كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة) بلفظ «الأناة»، من حديث سهل بن سعيد الساعدي، وأخرجه ـ بلفظ المفسر، البيهقي في: شعب الإيمان، من حديث أنس. وضعف السيوطي حديث البيهقي. انظر الجامع الصغير (ح/٣٣٩٠)
(٣) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام. (٤) الآية: ٨ من سورة الشمس.

الثالثة : تسلية أهل البلاء، إذا صحبهم الإحسان والتقوى، وبشارتهم بالعز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والنصر والتمكين فى الأرض بعد الاستضعاف والهوان، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ . وفى ذلك يقول الشاعر:

وكُلُّ عَـبْـــدٍ أرَادَ اللهُ عِـزَّتَــه فَـهُــوَ الْعَزِيزُ، وعزُّ اللهِ يغْشَاه
قَدْ لاحَ عِـزٌّ لَه فِي الأَرْضِ مُنْتَشِـرٌ فَـهُــوَ الحَـبِيبُ لِمَنْ نَادَاهُ لبَّاهُ
يا حُسْنَهُ ومَتى قَدْ طَالَ مَطْلَبُه تَاجُ البَـرية والرحمنُ صَفَّاه .

ولما أصاب أرض كنعان ما أصاب سائر البلاد، وسمع يعقوب عليه السلام بأن مَلِكَ مصر يبيع الطعام، أرسل بنيه ـ غير بنيامين ـ إلى مصر للميرة، كما قال تعالى:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ إلى مصر للميرة، ﴿ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ ، إنما أنكروه؛ لبعد العهد ولتغير سنه، ولأنهم فارقوه فى سن الحداثة، ولتوهمهم أنه هلك، أو لقلة تأملهم فى حاله؛ لشدة هيبتهم إياه، أو لأنه كان مُلثمًا. رُوِى أنهم دخلوا عليه فى قصر مُلْكه وهو فى هيئة عظيمة من الملك، والتاج على رأسه، فقال لهم بعد أن عرفهم: من أنتم، وما أمركم، وما جاء بكم إلى بلادى، ولعلكم عيون؟ فقالوا: معاذ الله، نحن بنوا أب واحد، وهو شيخ صدِّيق، نبى من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثنى عشر، فذهب أحدنا إلى البرية، فهلك. فقال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الحادى عشر؟ قالوا: عند أبيه يتسلّى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم؟ قالوا: لا يعرفنا هاهنا من يشهد لنا. قال: فَدَعُوا عندى بعضكم رهينة، وائتونى بأخ لكم من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا؛ فأصابت شمعون. وهذا معنى قوله: ﴿ ولما جَهَّزَهم بجَهَازهم ﴾ أعطاهم ما اشتروا منه من الطعام، وأوقر ركابهم، ﴿ قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ وهو: بنيامين

ـ بكسر الباء ـ على وزن إسرائيل، قاله في القاموس. وقيل: كان يوسف عليه السلام يعطى لكل نفس حملاً، ولا يزيد عليه، فسألوه حملاً زائداً لأخيهم من أبيهم؛ فأعطاهم، وشرط عليهم أن يأتوا به؛ ليعلم صدقهم. ثم قال لهم: ﴿ألا ترونَ أنى أُوفى الكيلَ وأنا خيرُ المنزلين﴾ للأضياف. قال لهم ذلك؛ ترغيباً فى رجوعهم، وقد كان أحسن ضيافتهم غاية الإحسان.

رُوى أنه عليه السلام نادى صاحب المائدة، وقال له: لا تنزل هؤلاء بدار الغرباء، ولا بدار الأضياف، ولكن أدخلهم دارى، وانصب لهم مائدة كما تنصبها لى، واحفظهم وأكرمهم. فسأله عنهم، فلم يجب، فبسط لهم الفرش والوسائد، فلما جن الليل أمر أن توضع بين أيديهم الموائد، والشماع، والمجامر، وهم ينظرون من كوة إلى دار الأضياف، وقد بلغ بهم الجهد، فكانوا يعطونهم قرصة شعير لكل أحد من الغرباء، وهم يرون ما بين أيديهم من الإكرام والطعام، وقد بلغ الحمل من الطعام ألفا ومائتى دينار. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الملك أكرمنا بكرامة ما أكرم بها أحداً من الغرباء! فقال شمعون: لعل الملك سمع بذكر آبائنا فأكرمنا لأجلهم. وقال آخر: لعله أكرم فقرنا وفاقتنا. ويوسف عليه السلام ينظر إليهم من كوة ويسمع كلامهم، ويبكى. ثم قال لولده ميشا: أشدد وسطك بالمنطقة واخدم هؤلاء القوم، فقال له: من هم يا أبت؟ فقال: هم أعمامك يابنى، قال: يا أبت هؤلاء الذين باعوك؟ قال: نعم، باعونى حتى صرت ملِك مصر، ماتقول يابنى، أحْسَنوا أم أساءوا؟ قال: بل أحسنوا، فما أقول لهم؟ قال: لا تكلمهم، ولا تُفش لهم سراً حتى يأذن الله بذلك، فبقوا فى الضيافة ثلاثاً أو أكثر، ثم جهزهم، وأرسلهم، وشرط عليهم أن يأتوا بأخيه بنيامين.

قال لهم: ﴿فإن لم تأتونى به فلا كيلَ لكم عندى ولا تقربون﴾. أى: لا تدخلوا ديارى ولا تقربوا ساحتى، ﴿قالوا سنُراود عنه أباه﴾ أى: سنجهد فى طلبه منه، ﴿وإنا لفاعلون﴾ ذلك، لا نتوانى فيه، ﴿وقال لفتيته﴾؛ لغلمانه الكيالين، وقرأ الأخوان وحفص: ﴿لفتيانه﴾، بجمع الكثرة: ﴿اجعلوا بضاعتَهم﴾ أى: ثمنهم الذى اشتروا به، ﴿فى رحالهم﴾؛ فى أوعيتهم. فأمر أن يجعل بضاعة كل واحد فى رحله، وكانت نعالا وأدماً. وإنما فعل ذلك يوسف تكرماً وتفضلاً عليهم، وترفقاً أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به إليه.

﴿لعلهم يعرفُونها﴾ أى: لعلهم يعرفون هذه اليد والكرامة فى رد البضاعة إليهم، فيرجعون إلينا. فليس الضمير للبضاعة؛ لأن ميز البضاعة لا يعبر عنه بلعل، وإنما المعنى: لعلهم يعرفون لها يداً وتكرمة، ويرون حقها ﴿إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يَرْجِعُون﴾، أى: لعل معرفتهم بهذه الكرامة تدعوهم إلى الرجوع. وقصد بذلك

استمالتهم والإحسان إليهم. أو: لعلهم يعرفون البضاعة، ولا يستحلون متاعنا فيرجعون به إلينا، وضعف هذا ابن عطية، فقال: وقيل: قصد يوسف برد البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن. وهذا ضعيف من وجوه. ثم قال: ولسرورهم بالبضاعة، وقولهم: ﴿ هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ﴾، يكشف أن يوسف لم يقصد هذا، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم كما تقدم.

الإشارة: قوله: ﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾، كذلك أهل الخصوصية من أهل مقام الإحسان، يعرفون مقامات أهل الإيمان ومراتبهم، وأهل مقام الإيمان ينكرونهم ولا يعرفون مقامهم، كما قال القائل:

تَرَكْنَا البُحُــورَ الزَّخِـرَاتِ وَرَاءَنَـا فَمِنْ أَيْنَ يَدْرِى النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا؟

فكلما علا بالولى المقام خفى عن الأنام، ولا يعرف مراتب الرجال إلا من دخل معهم، وشرب مشربهم، وإلا فهو جاهل بهم. وقوله تعالى: ﴿فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى﴾: كذلك الحق ـ جل جلاله ـ يقول لعبده: ائتنى بقلبك، فإن لم تأتنى به فلا أقبل طاعتك، ولا تقرب إلى حضرتى. قال النبى ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وَلا إلَى أَعْمَالِكُم، وإنَّما يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم ونِيَّاتِكُم». أو كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ : كذلك ينبغى للعبد أن يحتال على قلبه حتى يرده إلى ربه؛ وذلك بقطع العلائق، والفرار من الشواغل والعوائق، حتى تشرق عليه أنوار الحقائق.

وقوله تعالى: ﴿ اجعلوا بضاعتهم فى رِحَالِهِم ﴾ ... الآية. كذلك ينبغى للواعظ والمذكر أن يبشر الناس، وينمى بضاعتهم، وهو: الإيمان والمحبة لله ومعرفته، ويجعلها فى قلوبهم بحسن وعظه، ونور حاله، فيكون ممن ينهض الناس حاله، ويدل على الله مقاله. ولا يقنط الناس ويفلسهم من الإيمان والمحبة، بل ينبغى أن يجمع بين التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، ويغلب جانب الترغيب بذكر إحسان الله وآلائه.. لعلهم يعرفون ذلك إذا انقلبوا إلى أسبابهم، لعلهم يرجعون إلى الله فى غالب أحوالهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوعهم من مصر إلى أبيهم، فقال:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ

مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

قلت : (نكتل): أصله: نَكْتَيِل، بوزن نفتعل، من الكيل، قلبت الياء ألفاً لتحرك ما قبلها، ثم حذفت للساكنين. و(حفظا): تمييز، ومن قرأ بالألف فحال، كقوله: لله دره فارساً، أو تمييز، وهو أرجح. و(ما نبغى): استفهامية، أو نافية. و(نمير أهلنا): عطف على محذوف، أي: ردت فنستظهر بها ونمير.... إلخ. قال في القاموس: مار يَمير؛ بالكسر: جلَب الطعام. هـ. و (إلا أن يحاط): استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منا الكيلُ ﴾ أي: حكم بمنعه بعد هذا، إن لم نذهب بأخينا بنيامين، ﴿ فأرسِل معنا أخانا نكتلْ ﴾ أي: نرفع المانع من الكيل، ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ الأخوان بالياء: ﴿ يكتل ﴾ لنفسه، فنضم اكتياله إلى اكتيالنا، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه. ﴿ قال هل آمنكم عليه ﴾ أي: ما آمَنكم عليه ﴿ إلا كما أمِنتُكم على أخيه من قبلُ ﴾، وقد قلتم في يوسف: ﴿وإنا له لحافظون﴾، ﴿ فاللهُ خيرٌ حفظا ﴾[1]؛ فأثق به، وأفوض أمرى إليه، ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾، فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين.

﴿ ولما فتحوا متاعَهم ﴾: أوعيتهم، ﴿ وجدوا بضاعتَهم رُدّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى ﴾ أي: ما نطلب، فهل من مزيد على هذه الكرامة، أكرمنا وأحسن مثوانا، وباع منا، ورد علينا متاعنا، ولا نطلب وراء ذلك إحساناً. أو: ما نتعدى فى القول، ولا نزيد على ما حكينا لك من إحسانه. أو: ما نبغى على أخينا، ولا نكذب على الملك. ﴿ هذه بضاعتنا رُدّتْ إلينا ﴾، هو توضيح وبيان لقولهم:﴿ما نبغي﴾، أي: ردت إلينا فنتقوى بها. ﴿ ونمير

(١) قراءة حمزة والكسائي وحفص: «حافظاً» بالألف، وقرأ الآخرون: «حفظاً» بغير الألف، على المصدر، انظر الإتحاف (٢/ ١٥٠).

أهلنَا﴾ : نسوق لهم الميرة ـ وهو: الطعام حين نرجع إلى الملك،﴿ ونحـفظُ أخَـانا ﴾ من المكاره في ذهابنا وإيابنا.. ﴿ ونزدادُ كيلَ بعيرٍ﴾ بزيادة حِمل بعير أخينا، إذ كان يوسف عليه السلام لا يعطى إلا كيل بعير لكل واحد.

﴿ ذلك كيلٌ يسير ﴾ أي: ذلك الطعام الذي أتينا به شيء قليل لا يكفينا حتى نرجع ويزيدنا كيل أخينا. أوْ ذلك الحمل الذي يزيدنا لبعير أخينا ـ كيل قليل عنده، يسهل عليه لا يتعاظمه، فلا يمنعنا منه. كأنهم استَقلُوا ما كيل لهم؛ فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. وقيل: إنه من كلام يعقوب عليه السلام، والمعنى: أن حمل بعير شيء قليل لا يخاطَر لمثله بالولد.

﴿ قال لن أرْسِلَهُ معكم ﴾ ؛ لأني رأيت منكم ما رأيت، ﴿ حتى تُؤتون موثقاً من الله ﴾ ؛ حتى تعطـونِي ما أثق به من عهد الله، وتحلفوا ليَ الأيمان الموثقة ﴿ لتأتنني به ﴾ في كل حال، ﴿ إلا أن يُحاطَ بكم ﴾ ؛ إلا أن تغلبوا، ولا تطيقوا الإتيان به. أو: إلا أن تهلكوا جميعا ويحيط الموت بكم ﴿ فلما آتَوْهُ موثقَهم ﴾ ؛ عهدهم وحلفوا له، ﴿ قال ﴾ أبوهم : ﴿ الله على ما نقولُ ﴾ من طلب الموثق وإتيان الولد ﴿ وكيل ﴾ أي: مطلع رقيب، لا يغيب عنه شيء.

ثم وصاهم ﴿ وقال ﴾ لهم: ﴿ يابَني لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ . وكانت في ذلك العهد خمسا: باب الشام، وباب المغرب، وباب اليمن، وباب الروم، وباب طيلُون. فقال لهم: ليدخل كل أخوين من باب، خاف عليهم العين؛ لأنهم أهل جمال وأُبهة، مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة؛ فإذا دخلوا كبكبة واحدة أصابتهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك في المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، وللنفس آثار من العين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «العَيْنُ حَقٌ، تُدْخِلُ الرَّجُلَ القَبْرَ والجَمَلَ القِدْرَ»(١).

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ منها، بقوله: «اللهم إنِّي أَعُوذ بك من كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وعَيْنٍ لامَّة»(٢). ويؤخذ من الآية والحديث: التحصن منها قياماً برسم الحكمة. والأمر كله بيد الله. ولذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ مما قُضي عليكم بما أشرت به عليكم، والمعنى: أن ذلك لا يدفع من قدر الله شيئاً، فإن الحذر لا يمنع القدر، ﴿ إن الحُكْم إلا لله ﴾ فما حكم به عليكم لا ترده حيلة، ﴿ عليه توكلتُ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ أي: ما وثقت إلا به، ولا ينبغي أن يثق أحد إلا به. وإنما كرر حرف الجر؛ زيادة في الاختصاص؛ ترغيباً في التوكل على الله والتوثق به.

---

(١) قال في كشف الخفاء: (ح ١٧٩٧) رواه أبو نعيم عن جابر مرفوعاً، وحديث «العين حق» بدون الزيادة، متفق عليه. مكث أخرجه البخاري في (الطب، باب العين حق) ومسلم في (السلام، باب الطب والمرضى) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الأنبياء، باب ١٠) من حديث ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول ... وذكر الحديث.

الإشارة: رُوى أن إخوة يوسف لما رجعوا عنه صاروا لا ينزلون منزلا إلا أقبل عليهم أهل ذلك المنزل بالكرامات والضيافات، فقال شمعون: لما قدمنا إلى مصر ما التفت إلينا أحد، فلما رجعنا صار الناس كلهم يكرموننا؟ فقال يهوذا: الآن أثر الملك عليكم، ونور حضرته قد لاح عليكم. هـ. قلت: وكذلك من قصد حضرة العارفين لايرجع إلا محفوفاً بالأنوار، معموراً بالأسرار، مقصوداً بالكرامة والإبرار.

قوله تعالى:﴿ فأرسل معنا أخانا ... ﴾ إلخ،قال الأستاذ القشيرى: المحبة غيورٌ؛ لما كان ليعقوب تَسَلٍّ عن يوسف برؤية بنيامين، أبت المحبة إلا أن تُظهر سُلْطانها بالكمال، فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب بعين يوسف .هـ. قلت: وكذلك الحق تعالى غيور أن يرى فى قلب حبيبه شيئاً غيره، فإذا رأى ذلك أزاله عنه، وفرق بينه وبين ذلك الشيء، حتى لا يُحب شيئاً سوى محبوبه. هذا مما يجده أهل الأذواق فى قلوبهم.

وقوله تعالى فى وصية يعقوب:﴿ لا تدخلوا من باب واحد ﴾، فيه إشارة إلى أن الدخول على الله لا يكون من باب واحد بحيث يلتزم المريد حالة واحدة وطريقة واحدة؛ كالعزلة فقط، أو الخلطة فقط، أو الصمت على الدوام، أو ذكر الاسم على الدوام. بل لابد من التلوين قبل التمكين وبعده؛ فالعزلة على الدوام: مقام الضعف، والخلطة من غير عزلة بطالة. بل لا يكون عارفًا حتى يعرف الله، ويكون قلبه معه فى العزلة والخلطة، والصمت والكلام، والقبض والبسط، والفقد والوجد، ويترقى من ذكر الاسم إلى الفكرة والنظرة، كما هو مقرر عند أهل الفن.

وقوله تعالى: ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾، فيه تهييج على مقام التوكل، وحث على الثقة بالله فى جميع الأمور. وفى ذلك يقول الشاعر:

تَوَكَّلْ على الرَّحمنِ فى كُلِّ حَاجَةٍ وَثِقْ باللهِ، دبِّر الخلق أجمعْ

وضَعْ عنكَ هَمَّ الرِّزقِ؛ فالربُّ ضَامِنٌ وكفَّ عن الْكَوْنَينِ والخلق أربع

قوله : «والخلق أربع»: أراد العالم العلوى والسفلى، والدنيا والآخرة. وكلها أكوان مخلوقة يجب كف البصر والبصيرة عن الميل إليها، والوقوف معها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر رجوعهم إلى مصر، واتصال يوسف بأخيه، وإمساكه عنده إلى أن اتصل بأبيه، فقال:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾

قلت : (ما كان): جواب «لما» ، و(إلا حاجة) : استثناء منقطع . و (جزاؤه) : مبتدأ ، و (من) : شرطية أو موصولة ، وخبرها: (فهو جزاؤه) ، والجملة: خبر (جزاء) الأول . أو (جزاؤه) : مبتدأ ، و(من) : خبر ، على حذف مضاف ، أي: جزاؤه أخذ من وُجد في رحله ، وتم الكلام ، و(فهو جزاؤه) : جملة مستقلة تقريرية لما قبلها .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولما دخلوا من حيثُ أمرهم أبُوهم ﴾ أي: من أبواب متفرقة في البلد ، ﴿ ما كان يُغني عنهم ﴾ أي: ما أغنى عنهم رأي يعقوب واتّباعهم له ﴿ من الله من شيء ﴾ مما قضى عليهم ، فاتُّهموا بالسرقة وظهرت عليهم ، فأُخذ بنيامين الذي كان الخوف عليه ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب ، ﴿ إلا حاجةً ﴾ : لكن حاجة ﴿ في نفس يعقوب ﴾ يعني: شفقته عليهم ، وتحرزه من أن يعانوا ، ﴿ قضاها ﴾ ؛ أظهرها ووصى بها . ﴿ وإنه لَذو علم لِمَا علمناه ﴾ بالوحي ونصب الدليل . ولذلك قال: ﴿وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾ ؛ فلم يغتر بتدبيره ، ففيه تنزيه ليعقوب عن الوقوف مع الأسباب والعوائد ، ورفع إيهام وقوفه مع عالم الحكمة . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ سر القدر ، وأنه لا ينفع منه الحذر .

قال ابن عطية: قوله: ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ ، معناه : مادرأ عنهم قدراً ؛ لأنه لو قُضي أن تصيبهم عين لأصابتهم ، مفترقين أو مجتمعين . وإنما طمع يعقوب عليه السلام أن تصادف وصيته القدر في سلامتهم .

ثم أثنى الله ـ عز وجل ـ علي يعقوب بأنه لقن مما علمه الله من هذا المعنى، واندرج غيره في ذلك العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك.هـ.

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾ أي: ضم إليه بنيامين على الطعام، أو في المنزل. رُوى أنه أضافهم، فأجلسهم اثنين اثنين، فبقي بنيامين وحيداً فبكى، وقال: لو كان يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، ثم قال: لينزل كل اثنين بيتا، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد إذاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ وعرفه بنفسه، ﴿ فلا تبتئسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ في حقنا من الأذى، أو: لا تحزن بما يعمله فتيانى، ولا تبالي بما تراه في تحيلي في أخذك.

﴿ فلما جَهَّزَهُم بجَهَازِهِم جعل السِّقاية ﴾، التي هي الصواع، ﴿ في رَحْلِ أخيه ﴾، وهي إناء يشرب بها الملك، ويأكل فيها، وكان من فضة، وقيل: من ذهب. وقيل: كان صاعا يُكال به. وقصد بجعله في رحل أخيه أن يحتال على إمساكه معه؛ إذ كان شَرْعُ يعقوب أنَّ من سرق استعبده المسروق منه. ﴿ ثم أذَّن مُؤَذِّنٌ ﴾ بعد أن انصرفوا: ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾، والخطاب لإخوة يوسف، وإنما استحل رميهم بالسرقة مع علمه بأنهم أبرياء؛ لما في ذلك من المصلحة في المآل، وبوحي لا محالة، وإرادة من الله تعالى عَنَتَهم بذلك، يقويه قوله تعالى: ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾، ويمكن من أن يكون فيه تورية، وفيها مندوحة عن الكذب، أي: إنكم لسارقون يوسف من أبيه، حين باعوه.

﴿ قالوا وأقبلُوا عليهم ماذا تفقدون ﴾أي: أيُّ شيء ضاع منكم؟ والفقد: غيبة الشيء عن الحس. ﴿ قالوا نَفقِدُ صُوَاعَ الملكِ ﴾ الذي يكيل به، أو يشرب فيه، ﴿ ولمن جاء به حِمْلُ بعيرٍ ﴾ من الطعام، ﴿ وأنا به زعيم ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعل، وضمان الجعل قبل تمام العمل. قاله البيضاوي.

﴿ قالوا تالله لقد علِمتُمُ ما جئنا لنُفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ فيما مضى، استشهدوا بعلمهم بديانتهم على براءة أنفسهم؛ لِمَا عرفوا منهم من الديانة والأمانة في دخولهم أرضهم، حتى كانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم؛ لئلا تنال زرع الناس، ﴿ قالوا فما جزاؤه ﴾أي: السارق، ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ في ادعاء البراءة. ﴿ قالوا جزاؤه مَن وُجِدَ في رَحْلِه فهو جزاؤُه ﴾؛ يحبس في سرقته، ويُسْتَرَقّ للمسروق منه، وهذا كان قصد يوسف عليه السلام، وهي كانت شريعة يعقوب، وكانت أيضا شريعتنا في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع. ثم قالوا: ﴿ كذلك نجزى الظالمين ﴾ بالسرقة.

﴿ فبَدَأَ ﴾ المؤذن أو يوسف؛ لأنهم رُدُّوا إلى مصر، أي: بدأ في التفتيش، ﴿ بأوعيتِهم قبلَ وعاءِ أخيه ﴾ بنيامين، تقية للتهمة، ﴿ ثم استخرجها ﴾ أي: السقاية، أو الصواع؛ لأنه يذكر ويؤنث، ﴿ من وعاء أخيه ﴾ ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك الكيد ﴿ كِدْنَا ليوسفَ ﴾ أي: علمناه الحيلة بالوحي في أخذ أخيه، ﴿ ما كان لِيأخُذَ أخاه في دين الملك ﴾ ملك مصر؛ لأن دينه كان الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق.﴿ إلا أن يشاءَ اللهُ ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. أو: لكن أخذه بمشيئة الله وإرادته. ﴿ نرفعُ درجات من نشاء ﴾ بالعلم والعمل، كما رفعنا درجته، ﴿ وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم ﴾ أرفع درجة منه.

قال البيضاوي: واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته؛ إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه ـ أي: لدخوله تعالى في عموم الآية ـ والجواب: أن المراد كل ذي علم من الخلق؛ لأن الكلام فيهم، ولأن العليم هو الله تعالى. ومعناه: الذي له العلم البالغ، ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا: فوق كل العلماء عليم، وهو مخصوص. هـ.

قلت: وقد ورد ثبوت العلم له تعالى في آيات وأحاديث، كقوله تعالى: ﴿ أنزله بعلمه ﴾[1]، و﴿ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾[2] ،وإني على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ علَّمَنِيه،[3] إلى غير ذلك مما هو صريح في الرد عليهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾: امتثال أمر الأب فيما يأمر وينهى، ولا فرق بين أب البشرية وأب الروحانية ـ وهو الشيخ ـ، فامتثال أمره واجب على المريد، ولو كان فيه حتف أنفه، وأمره مقدم على أمر الأب كما تقدم في سورة النساء. وقد قالوا: أركان التصوف ثلاثة: الاجتماع، والاستماع، والاتباع. وقوله تعالى: ﴿ ما كان يُغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة .... ﴾إلخ: فيه الجمع بين مراعاة القدرة والحكمة، فالقدرة تقتضي التفويض؛ إذ لا فعل لغير الله، والحكمة تقتضي الحذر، واستعمال الأسباب؛ لأن الحكمة رداء للقدرة. فالكمال هو الجمع بينهما؛ سترًا لأسرار الربوبية، فالباطن ينظر لتصريف القدرة، والظاهر يستعمل أستار الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رَحْلِ أخيه... ﴾ الآية. هذا من فعل أهل التصريف بالله، المأخوذين عنهم، لا يدخل تحت قواعد الشرع؛ لأن فاعله مفعول به، أو ناظر بنور الله إلى غيب مشيئة الله، كأفعال

---

(١) من الآية ١٦٦ من سورة النساء.
(٢) من الآية ١٤ من سورة هود.
(٣) جزء من حديث موسى الخضر وأخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

الخضر عليه السلام. قال الورتجبي: إن الله سبحانه إذا خصَّ نبياً، أو ولياً ألبسه صفاته بتدريج الحال؛ ففي كل حالة له يكسوه نوراً من صفته، فمن جملة صفاته: كيد الأزل ومكر الأبد، فكسى علم كيده قلب يوسفَ، حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي، فعرفه فيه أسرار لطف صنائعه، وعلم حقائق أفعاله وقدرته. هـ.

وقوله: ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ : أي: بالعلم بالله؛ كالكشف عن أسرار ذاته وأنوار صفاته، والتخلق بمعاني أسمائه، والتحقق بمقامات اليقين، ومنازل السائرين. وهذه درجات المقربين، وليس فوقها إلا درجة الأنبياء والمرسلين. أو بالعلم بأحكام الله وشرائعه؛ كالعلم بأحكام العبادات والعادات، وسائر المعاملات. وهذه درجات عامة أهل اليمين من العلماء الأتقياء والصالحين، ومنتهى درجاتهم هي ابتداء درجات العارفين المقربين، ثم الأنبياء والمرسلين. ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾، ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

ثم ذكر جوابهم، فقال:

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: معنى الشرط والجواب: إن ثبت أن بنيامين يسرق فقد سرق أخ له، أي: سرقته كسرقة أخيه، و(مكانا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: قال إخوة يوسف، لما ظهرت السرقة عليهم: ﴿ إن يسرقْ ﴾ بنيامين ﴿ فقد سرقَ أخٌ له ﴾ أخوه يوسف ﴿ من قبل ﴾، فهذا الأمر إنما صدر من ابنَيْ راحيل، لا منا، قصدوا بذلك رفع المضرة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه، وهذه السرقة التي رموه بها؛ قيل: كانت ورثت عمته من أبيها منطقة، وكانت تخص يوسف وتحبه، فلما شب، أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها، ففتّش عليها، فوجدت مشدودة على وسطه، فصارت أحق به في حكمهم، وقيل: كان لجده من أمه صنم من ذهب، فسرقه وكسره، وألقاه في الجيف. وقيل: كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل(١).

---

(١) لم يرد نص ثابت عن النبي ﷺ في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها، فالله أعلم بالذي كان.

﴿ فأسرَّها يوسفُ في نفسه ولم يُبدها لهم ﴾ أي: أخفى هذه الإجابة، ولم يكذبهم فيها. أو: الحزازة التي وجد في نفسه من قولهم: ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾؛ أي: أسر كراهية مقالتهم. أو: المقالة التي يفسرها قوله: ﴿ قال أنتم شرٌّ مكانًا ﴾؛ أي: قال في نفسه خفية: أنتم شر مكانًا، أي: أنتم أقبح منزلة في السرقة بسرقتكم أخاكم، أو بسوء صنيعكم بما فعلتم معي. ﴿ والله أعلم بما تَصفُون ﴾، وقد علم سبحانه أن الأمر ليس كما يصفون، فهو إشارة إلى كذبهم فيما نسبوا إليه من السرقة.

﴿ قالوا يأيها العزيزُ إن له أبا شيخًا كبيرًا ﴾ في السن، أو القدر، ذكروا حاله؛ استعطافًا له، وكانوا أعلموه بشدة محبة أبيه فيه، ﴿ فخُذ أحدَنا مكانه ﴾؛ فإن أباه ثكلان، أي: حزين على أخيه الهالك، يستأنس به، ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ إلينا، فأتمم إحسانك، أو من المتعودين الإحسان فلا تغير إحسانك. ﴿ قال معاذَ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ فإنْ أَخْذَ غيره ظلم، فلا آخذ أحداً مكانه؛ ﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾ في مذهبكم؛ لأن الله أمرنا باسترقاق السارق؛ فاسترقاق غيره ظلم.

الإشارة: النفس الأمارة من شأنها الانتصار، ودفع النقائص عنها والعار. والنفس المطمئنة من شأنها الاكتفاء بعلم الله، والرضا بما يجري به القضاء من عند الله، فإذا اختلجها شيء من الانتصار أسرَّتْه، ولم تخرجه إلى حالة الإظهار.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: آداب الفقير المتجرد أربعة أشياء: الحرمة للأكابر، والرحمة للأصاغر، والانتصاف من نفسه، وعدم الانتصار لها. هـ. فالفقير إذا انتصر لنفسه فقد نقض العهد مع ربه، فيجب عليه التوبة. وقالوا: [الصوفي دمه هدر، وعرضه وماله مباح]. يعني: أنه لا ينتصر لنفسه، فكل من آذاه لا يخاف من جانبه؛ فكأنه مباح، مع كونه حراماً بالشريعة، بل هو أشد حرمة من غيره. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى

﴿كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

قلت: (نَجِياً): حال، أي: انفردوا عن الناس مناجين، وإنما أفرده؛ لأنه مصدر، أو بزنته. و(من قبل ما): يحتمل أن تكون مزيدة ومصدرية مرفوعة بالابتداء، أي: تفريطكم في يوسف واقع من قبل هذا. قاله ابن جزي. وفيه نظر؛ فإن الظرف المقطوع لا يقع خبراً، أوْ منصوبة بالعطف على مفعول (تعلموا)، أي: لم تعلموا أخذ ميثاق أبيكم، وتفريطكم في يوسف قبل هذا .

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما استيأسوا﴾؛ أي: يئسوا ﴿منه﴾ من يوسف أن يجيبهم إلى ما دعوه إليه من أخذ أحدهم مكان أخيهم، ﴿خَلَصُوا﴾ أي: تخلصوا من الناس، وانفردوا عنهم ﴿نجيًا﴾ متناجين، يناجي بعضهم بعضٌ: كيف وقع للصاع؟ وكيف يتخلصون من عهد أبيهم؟ ثم فسر تلك المناجاة: ﴿قال كبيرُهمْ﴾ في السن، وهو رُوبِيْل، أو في الرأي، وهو شمعون، وقيل يهوذا: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾؛ عهداً وثيقا، وحلفتم له لتأتن بابنه إلا أن يُحاط بكم؟ فكيف تصنعون معه، ﴿ومن قبلُ﴾ هذا ﴿فرطتم في يوسف﴾ واعتذرتم بالأعذار الكاذبة؟ ﴿فلن أبرح الأرض﴾؛ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع، ﴿أو يحكم الله لي﴾: أو يقضي لي بالخروج منها، أو بتخليص أخي منهم قهراً، ﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾؛ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

رُوِي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل، وقيل: يهوذا: أيها الملك، لتتركن أخانا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل، ووقف شعر جسده؛ فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابنه الصغير، واسمه نائل: قم إلى جنبه ومُسَّه، فمسه، وكان بنو يعقوب إذا غضب أحدهم لا يسكن غضبه إلا إذا مسه أحد من آل يعقوب، فلما مسه ولد يوسف عليه السلام سكن غضبه، فقال: من هذا؟ إن في هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب.

وقيل: إنهم هموا بالقتال، وقال يهوذا لإخوته: تفرقوا في أسواق مصر، وأنا أصيح صيحة تشق مراريهم، فإذا سمعتم صوتي، فاخربوا يميناً وشمالاً، فلما غضب، وأراد أن يصيح، مسه ولد يوسف فسكن، فلما لم يسمعوا صوته أتوا إليه فوجدوه قد سكن غضبه، فقال: إن هنا بذراً من آل يعقوب.

ثم قال لهم: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق﴾ على ما شهدنا من ظاهر الأمر، ﴿وماشهدْنا إلا بما علمنا﴾ بأن رأينا الصاع استُخرج من وعائه. ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: ما كنا

لباطن الأمر حافظين، فلا ندري أسرق، أو أحد دسه في وعائه؟ أو ما كنا حين أعطيناك العهد حافظين للغيب، عالمين بالقدر المغيب، وأنك تصاب به كما أصبت بأخيه. ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ ؛ وهي القرية التي لحقهم فيها المنادى، أي: أرسل إليهم واسألهم عن القصة إن اتهمتنا. ﴿ و ﴾ سل أيضا ﴿ العيرَ ﴾ : أهل العير، ﴿ التي أقبلنا فيها ﴾ ، والعير: جماعة الإبل. ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به. هذا تمام وصية كبيرهم. فلما رجعوا إلى أبيهم، وقالوا له ما قال لهم كبيرهم،

﴿ قال ﴾ لهم أبوهم: ﴿ بل سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً ﴾ أي: زينت لكم أمراً فصنعتموه، وإلا فمن أين يدري الملك أن السارق يُؤخذ في السرقة، إذ ليست بشريعته، ﴿ فصبر جميلٌ ﴾ أي: فأمري صبر جميل، ﴿ عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ ؛ بيوسف وبنيامين، وأخيهما الذى بقي بمصر، ﴿ إنه هو العليمُ ﴾ بحالي وحالهم، ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره. رُوي أن عزرائيل دخل ذات يوم على يعقوب - عليهما السلام - فقال له يعقوب: جئت لقبض روحي، أو لقبض روح أحد من أولادي وأهلي؟. قال: إنما جئت زائرا، فقال له: أقسمت عليك بالله إلا ما أخبرتني، هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، بل هو حي سَوِيّ، وهو ملك وله خزائن، وجنود وعبيد، وعن قريب يجمع الله شملك به.هـ.

الإشارة: فلما استيأس القلب من الدنيا، والرجوع إليها، وقطع يأسه من حظوظها وهواها، خلصت له المناجاة، وصفت له أنوار المشاهدات، وأنواع المكالمات، والقلب هو كبير الأعضاء وملكها، فيقول لها: ألم تعلموا أن الله قد أخذ عليكم موثقًا ألا تعصوه ولا تُخالفوه، ومن قَبل هذا، وهو زمان البطالة، قد فرطتم في عبادته، فلن أبرح أرض العبودية حتى يأذن لي في العروج إلى سماء شهود عظمة الربوبية، أو يحكم لي بالوصال، وهو خير الحاكمين. فإن وقعت من الجوارح هفوة فيقال لها: ارجعوا إلى أبيكم - وهو القلب - فقولوا: إن ابنك سرق، أي: تعدى وأخذ ماليس له من الهوى فيما ظهر لنا، وماشهدنا إلا بما علمنا، فرب معصية في الظاهر طاعة في الباطن، واسأل البشرية التي كنا فيها والخواطر التي أقبلنا على المعصية فيها، فيقول القلب: بل زينت لكم أنفسكم أمر الهوى، فدواؤكم الصبر الجميل، والتوبة للعظيم الجليل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، فنصرفهم في طاعة الله ومرضاته. والله تعالى أعلم بأسرار حِكَمِ كتابه، فعلم الإشارة يقبل مثل هذا وأكثر. وإياك والانتقاد؛ فقد قالوا في باب الإشارة أرق من هذا وأغرب. وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت : يا أسفى، وياويلتى، وياحسرتى، مما عوض فيه الألف عن ياء المتكلم. والأسف: أشد الحزن. وقيل: شدة الحسرة. و(كظيم) : إما بمعنى مفعول، كقوله: (وهو مكظوم)؛ أي: فهو مملوء غيظاً على أولاده، ممسك له في قلبه، تقول: كظم السقاء؛ إذا شد على ملئه. أو بمعنى فاعل؛ كقوله: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾(1)، من كظم البعير جِرَّتَه؛ إذا ردها في جوفه. و(تفتأ) : من النواقص اللازم للنفي، وحذفه هنا لعدم الإلباس؛ لأنه لو كان مثبتاً لأكد باللام والنون. والحـرض: المريض المشرف على الهـلاك، وهو في الأصل مـصـدر، ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولايجمع. والبث: أشد الحزن.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وتولى ﴾ يعقوب عن أولاده، أي: أعرض ﴿ عنهم ﴾ لما لم يصدقهم، كراهةً إما صادف منهم، ورجع إلى تأسفه ﴿ وقال يا أسفًا ﴾ أي: ياشدة حزني ﴿ على يوسف ﴾ . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه لأن محبته كانت أشد؛ لإفراط محبته فيه، ولأن مصيبته سبقت عليهما. ﴿ وابيضَّتْ عيناه ﴾ من كثرة البكاء ﴿ من الحُزن ﴾ ، كأنَّ العبْرةَ محقت سوادها، وقيل: ضعف بصره، وقيل: عمي. وقد رُوى أنه: «حَزِنَ يعْقُوبُ حُزْنَ سبعين ثَكْلَى، وأُعطي أجْرَ مائةَ شَهيدٍ، وما ساءَ ظنُّه بالله قطُّ».

وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع. ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد بكى رسول الله ﷺ وقال: «القَلْبُ يحْزَنُ، والعَيْنُ تدْمَعُ، ولا نقُولُ إلاَّ ما يُرْضي ربَّنَا، وإنَّا على فِرَاقِك يإبراهيمُ لَمَحْزُونون» .

﴿ فهو كظيم ﴾ أي: مملوء غيظا على أولاده؛ لما فعلوا. أو كاظم غيظه، ماسك له، لم يظهر منه شيئا، ولم يَشْكُ لأحد.

---

(1) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

﴿ قالوا تالله تَفْتَؤُا ﴾: لا تزال ﴿ تذكرُ يوسفَ ﴾ تفجعًا عليه، ﴿ حتى تكون حَرَضًا ﴾: مشرفا على الهلاك، ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ : من الميتين ﴿ قال إنما أشكو بثّي ﴾ أي: شدة همى ﴿ وحزني ﴾ الذى لاصبر عليه، ﴿ إلى الله ﴾ لا إلى أحد منكم ولا غيركم؛ فخلونى وشكايتى، فلست ممن يجزع ويضجر؛ فيستحق التعنيف، وإنما أشكو إلى الله، ولا تعنيف فيه؛ لأن فيه إظهار الفقر، والعجز بين يديه، وهو محمود. ﴿ وأعلمُ من الله ما لا تعلمون ﴾ أي: أعلم من لطف الله ورأفته ورحمته، ما يوجب حسن ظني وقوة رجائي، وأنه لا يخيب دعائي، ما لا تعلمون. أو: وأعلم من طريق الوحي من حياة يوسف ما لا تعلمون؛ لأنه رأى ملك الموت فأخبره بحياته، كما تقدم. وقيل: علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى تخر له إخوته سُجَّدًا.

﴿ يابَنى اذهبوا ﴾ إلى الأرض التى تركتم بها أخويكم، ﴿ فتحسَّسُوا من يوسفَ وأخيهِ ﴾ أى: تعرفوا من خبرهما، وتفحّصوا عن حالهما. والتحسس: طلب الشيء بالحواس. وإنما لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقى هناك اختيارًا، وفى ذكر يوسف دليل على أنه كان عالماً بحياته. ﴿ ولا تيأسُوا من رَوْحِ الله ﴾: لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه، أو من رحمته، وقرئ بضم الراء، أى: من رحمته التى يحيى بها العباد، أى: ولا تيأسوا من حى معه روح الله؛ فكل من بقي روحه يرجى، أى: ويوسف عندى، فمن معه روح الله فلا تيأسوا من رجوعه. ﴿ إنه ﴾ أى: الشأن ﴿ لاييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون ﴾ بالله وصفاته؛ لأن العارف لا يقنط من رحمته فى شيء من الأحوال. وإنما جعل اليأس من صفة الكافر؛ لأن سببه تكذيبٌ بالربوبية، أو جهل بصفة الله وقدرته، والجهل بالصفة جهل بالموصوف، فالإياس من رحمة الله كفر.

وأما حديث الرجل الذى قال: (إذا متُّ فاحرقونى، ثم اذْروني فى البحر والبر فى يوم رائح، فلَئِن قدر الله عليَّ ليعذبنى عذاباً ما عذبه أحد من الناس)، حسبما فى الصحيح[1]، فليس فيه اليأس ولا تعجيز القدرة، لكن لما غلبه الخوف المفرط لم يتأمل ولم يضبط حاله؛ إما لحقه من الخوف وغمره من الدهش والخشية، دون عقد ولا إصرا ر على نفى الرحمة واليأس منها. ويدل على ذلك قوله: (لما قال له الرب ـ تعالى ـ: ماحملك على هذا؟ قال: مخافتك، فغفر له). ولم يقل اليأس من رحمتك. انظر المحشى الفاسى.

الإشارة: لم يتأسف يعقوب عليه السلام على فقد صورة يوسف الحسية، إنما تأسف على فقد ما كان يشاهد فيه من جمال الحق وبهائه، فى تجلي يوسف وحسن طلعته البهية، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ لاَ تَنْظُرُ وسِوَاكُمُ فِي خَاطِرِي لا يَخْطُرُ

---

(١) أخرج قصة هذا الرجل البخارى في (الرقاق، باب الخوف من الله) من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه.

فلما فقد ذلك التجلي الجمالي حزن عليه، وإلا فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أولى بالغنى بالله عما سواه . فإذا حصل للقلب الغنى بالله لم يتأسف على شيء، ولم يحزن على شيء؛ لأنه حاز كل شيء، ولم يفته شيء . «ماذا فقد من وجده، وما الذي وجد من فقده». ولله در القائل:

أنَا الفَقِيرُ إليكُمْ والغَنِيُّ بِكُمْ وليْسَ لي بَعْدَكُمْ حِرْصٌ عَلَى أحدِ

وهذا أمر محقق، مذوق عند العارفين؛ أهل الغنى بالله. وقوله: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) : فيه رفع الهمة عن الخلق، والاكتفاء بالملك الحق، وعدم الشكوى فيما ينزل إلى الخلق.. وهو ركن من أركان طريق التصوف، بل هو عين التصوف. وبالله التوفيق.

ثم ذهبوا إلى مصر كما أمرهم أبوهم، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

قلت: (من يتق ويصبر) : من قرأ بالياء: أجرى الموصول مجرى الشرط؛ لعمومه وإبهامه، فعطف على صلته بالجزم، ومنه قول الشاعر:

كَذَلِكَ الذي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً تُصِبْهُ عَلَى رغمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما دخلوا عليه﴾ على يوسف حين رجعوا إليه مرة ثالثة، ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضُّرُّ﴾ شدة الجوع، ﴿وجئنا﴾ إليك ﴿ببضاعة مُزْجَاة﴾ : رديئة، أو قليلة، أو ناقصة، تدفع

وترد، من أزجيته، دفعته. ومنه: ﴿ يُزْجِي سَحَابًا ﴾(١) قيل: كانت دراهم زيوفاً وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء. وقيل: سَويق المُقْل أي: الدوم. وقيل: عـروضـًا. ﴿ فـأوْفِ لنا الكَيْلَ ﴾ : أتممـه لنا، ﴿ وتصــدّقْ علينا ﴾ بالمسامحة، وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ثمننا. وهذا يقتضي أن الصدقة كانت حلالاً على الأنبياء قبل نبينا ﷺ، وهو خلاف المشهور. أو برد أخينا، ﴿ إن الله يجزى المتصـدِّقين ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق: التفضل مطلقاً، ومنه قوله ﷺ في القصر: «هذه صدقةٌ تَصدّق اللهُ عليكُم بها، فأقبلوا صدقته»(٢).

رُوى أن يعقوب عليه السلام لما أرسلهم المرة الثالثة ليتحسسوا أخبار يوسف وأخيه، أرسل معهم كتاباً ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب الحزين إلى عزيز مصر، ولو عرفت اسمك لذكرتك في كتابي هذا، يا من اعتز بعز الله، فالله يُعِزّ من يشاء ويذل من يشاء، وإني أيها العزيز قد اشمأز قلبي، وقطع الحزن أوصالي، وإني ناه إلى الإقراح، دائم البكاء والصياح، وإني من نطفة آباء كرام، فكيف يتولد اللصوص مني وأنا من الخصوص! وقد أُخبرت أنك وضعت الصّاع بالليل في رحل ولدى الأصغر، وإني حزين عليه كما كنتُ حزيناً على أخيه الفقيد، حزناً دائماً سرمداً شديداً. وإن كنت أفجعتني في الآخر فإن قلبي لا محالة طائر. ثم ختمه بالسلام.

فلما دفعوه ليوسف قرأه، وبكى بكاء شديداً، ثم دفعه لأخيه بنيامين فقرأه وبكى أيضاً. ثم نزل عن سريره، ثم دفع لهم الكتاب الذي كانوا كتبوه لمالك بن ذعْر لمّا باعوه بخطوط شهادتهم، كان أخذه من مالك حين باعه. فلما قرأوه تغيرت ألوانهم وتضعضعت أركانهم، وبُهتوا، فقال لهم: ﴿ هلْ علمْتم ما فعلتم بيوسفَ وأخيه ﴾؛ من إيذاء يوسف، وتفريقه من أبيه، ومضرة أخيه من بعده، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه، أي: هل علمتم قبحه فتبتم منه؟ قاله نصحاً وتحريضاً لهم على التوبة. ﴿ إذ أنتم جاهِلُون ﴾ أي: فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين قُبح ذلك. وإنما سماهم جاهلين؛ لأن فعلهم حينئذ فعل الجهال، أو لأنهم حينئذ كانوا صبياناً طياشين، فعرفوه حينئذ على ظن، فقالوا: ﴿ أئنك لأنتَ يوسفُ ﴾؟ بالاستفهام التقريرى. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل: عرفوه بذوائبه وشمائله حين نزل إليهم وكلمهم. وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفع التاج عن رأسه فعرفوه بِشَامةٍ كانت في رأسه بيضاء، وكانت لسارة ويعقوب مثلها.

﴿ قال ﴾ لهم: ﴿ أنا يوسفُ وهذا أخى ﴾ من أبي وأمي. ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في المنة بقوله: ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ بالسلامة والكرامة والعز، ﴿ إنه من يتقِ ﴾ الله ﴿ ويصبرْ ﴾ على بلواه، وعلى طاعته وتقواه ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾، وضع المحسنين موضع المضمر؛ تنبيهًا على أن المحسن جمع بين الصبر والتقوى. فمن اتقى الله وصبر فهو محسن..

(١) من الآية ٤٣ من سورة النور.
(٢) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿ قالوا تالله لقدْ آثَرَكَ اللهُ علينا ﴾ بحسن الصورة وكمال السيرة، أو فضلك علينا رغماً على أنفنا، ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي: والحال أن شأننا أنَّا كنا مذنبين فيما فعلنا معك. ﴿ قال لا تثريبَ ﴾: لا عتاب ﴿ عليكم اليوم ﴾ أي: لا عقوبة عليكم في هذا اليوم. ثم دعا لهم فقال: ﴿ يغفرُ الله لكم ﴾، فيوقف على اليوم. وقيل: يتعلق بيغفر، فيوقف على ما قبله، وهو بعيد؛ لأنه تحكم على الله، وإنما يصلح أن يكون دعاء، إذ هو الذي يليق بآداب الأنبياء، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾، ثم دعا الله أن يغفر لهم الله حقه. قاله ابن جزي، وصدر به البيضاوي. وبه تعلم ضعف وقف الهبطي. ثم قال في تمام دعائه: ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾؛ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب.

قال البيضاوي: ومن كرم يوسف عليه السلام أنهم لما عرفوه أرسلوا له، وقالوا: إنك تدعوننا بالبكرة والعشي إلى الطعام، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال لهم: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ، ولقد شُرِّفتُ بكم، وعظمت في أعينهم حيث إنكم إخوتي، وإني من حفدة إبراهيم عليه السلام. هـ.

الإشارة: من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار، فليدخل من باب الذل والانكسار. وفي الحِكَم: «ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار» . فإذا قرعت الباب، ورمت الدخول مع الأحباب، فقل بلسان التضرع والانكسار: يأيها العزيز الغفار مسنا الضر، وهو البعد والغفلة، وجئنا ببضاعة مزجاة؛ عمل مدخول، وقلب معلول، فأوْفِ لنا ما أملناه من الجزاء المأمول، وتفضل علينا بالقبول والوصول، وقل: اليوم نغفر لكم ونغطي مساوءكم، ونوصلكم بما مني إليكم من الإحسان، لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان. هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم، واستقلوا بضاعتهم، وأحضروا شكايتهم، سمح لهم وقربهم، وكشف لهم عن وجهه الجميل، ومنحهم العطاء الجزيل، فما ظنك بالرب العظيم الجليل، الذي هو أرحم الراحمين، ومحل أمل القاصدين.

ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم، والإتيان به وبمن معه من أولادهم، فقال:

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ

وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت : جواب (لولا) : محذوف، أي: لولا أن تفندون لقلت إنه قريب، أو لصدقتموني.

يقول الحق جل جلاله : قال يوسف لإخوته لما عرفوه، وأزال ما بينه وبينهم من الوحشة، وقد أخذ قميصه: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾، رُوي أن هذا القميص كان لإبراهيم الذي لبسه حين كان في النار، وقيل: ألبسه له جبريل حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، ثم كان لإسحاق ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف، فكان عنده في حِفَاظ من قصب، وكان في عنقه في الجب، وأمره جبريل بإرساله، وقال: إن فيه ريح الجنة، لا يلقى على مبتلى إلا عوفي. قال ابن عِطية: وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر: أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد. وبهذا تتبين الغرابة في أن وجد يعقوب ريحه من بعد، ولو كان من قميص الجنة لما كان في ذلك غرابة، ويجده كل أحد.هـ.

قلت: وما قاله لا ينهض؛ لأن ما ظهر من الجنة إلى دار الدنيا لا يبقى على حاله دائماً؛ لأنه من أسرار الغيب، بل لا يجده إلا أهل الذوق من أهل القرب، كنور الحجر الأسود، وغيره مما نزل من الجنة. والله تعالى أعلم.

ثم قال لهم اذهبوا به: ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ أي: يرجع بصيراً، علم ذلك بوحي، أو تجربة من القميص، ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾؛ نسائكم وذراريكم وأموالكم.

﴿ ولما فَصَلَتِ العيرُ ﴾ من مصر، وخرجت من عمارتها، ﴿ قال أبوهم ﴾ لمن حضره: ﴿ إني لأجِدُ ريحَ يوسف ﴾؛ أوجده الله، ريح ما عبق من قميصه حين أقبل إليه به يهوذا من ثمانين فرسخا؛ لأن يعقوب كان إذ ذاك ببيت المقدس، ويوسف بمصر، ﴿ لولا أن تُفنِّدون ﴾؛ تنسبوني إلى الفند، وهو: نُقصان عقْلٍ يحدث من هِرَم. ولذلك لا يقال عجوز مفندة؛ لأن نقصان عقلها ذاتي. أي: لولا أن تحمّقوني لقلت إنه قريب، أو لصدقتموني في ذلك، أو لولا أن تلوموني، وتردوا عليّ قولي لقلت إنه ريح يوسف. ﴿ قالوا ﴾ أي: الحاضرون: ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي: إنك لفي خطئك القديم بالإفراط في محبة يوسف، وإكثار ذكره، وتوقع لقائه.

﴿فلما أن جاءَ البشير﴾ أي: المبشر، وهو: يهوذا. رُوي أنه قال: كنتُ أحزنْتُه بحَمل قميصه المُلَطَّخ بالدم إليه، اليوم أفرحُه بحمل هذا إليه. وفي رواية عنه قال: إني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة. فلما وصل إليه ﴿ألقاه على وجهه﴾؛ طرح البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب، أو: ألقاه يعقوبُ بنفسه على وجهه، ﴿فارتدَّ بصيراً﴾ بقدرة الله وبركة القميص. ﴿قال ألم أقلْ لكم إني أعلمُ من الله مالا تعلمون﴾ من حياة يوسف، وإنزال الفرج.

﴿قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾، وقد اعترفنا بذنوبنا، وسألنا المغفرة. ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾، أخره إلى السَّحَر، أو إلى صلاة الليل، أو إلى ليلة الجمعة، تحرياً لوقت الإجابة، أو إلى أن يتحلل لهم من يوسف، فإن عفو المظلوم شرط في المغفرة، ويؤيده ما رُوي أنه لما اجتمع به، وتحلل منه، استقبل يعقوبُ القبلة قائماً يدعو، ويوسفُ خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلةً خاشعين، حتى نزل جبريل وقال: إن الله قد أجاب دعوتك في أولادك، وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة. وهو، إن صح، دليل نبوتهم، وأن ما صدر منهم كان قبل نبوتهم، قاله البيضاوي.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ جعل للبشرية عيْنَين حسيين، تبصر بهما الحسيات، وجعل للقلب عينين معنويين يرى بهما المعاني. فالأول: يسمى البصر، والثاني: البصيرة. فأحد عيني القلب تبصر أنوار الشريعة، والأخرى تبصر أسرار الحقيقة. وقد يغشى القلب ظلمةُ الكفر، فتغطيهما معاً، وهو: عمى البصيرة. وقد يغشاه ظلمة المعاصي، واتباع الحظوظ والهوى، فتعمى عين الحقيقة، وتضعف عين الشريعة، ودواؤهما: إلقاء قميص المعرفة على وجه عين الحقيقة، وجلباب العصمة على عين الشريعة، فيرجع القلب بصيراً. ولابد من صحبة شيخ عارف يعطيه هذا القميص، ويقول: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه بصيرتكم، تأتي بصيرة عارفة، فإذا قرب منها هذا القميص هبَّ عليها نسيم الوصال، وهاج عليها الوجدُ والحالُ. وأنشدت بلسان المقال:

سُويْداء قَلْبِي أَصْبَحَتْ حَرمًا لَكُم ... تَطُوفُ بهـا الأَسرارُ من عَالَم اللُّطف

ومسائلُ مَا بيْنَ المُحَبِّينَ أَصْبَحَتْ ... تَجِلُّ عن التَّعْرِيف والرَّسم والعُرْف

رَسَائِل جَاءَتْنَا بِرُؤْيَا جَنَابِكُم ... عَوارِفُ عُرف فَاقَ كُلَّ شَذًا عَرف

ثم ذكر دخول يعقوب مصر، وجمع شمله بيوسف ـ عليهما السلام ـ، فقال:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ . قبل هذا الكلام محذوفات، وهي: فرحل يعقوب بأهله حتى بلغوا إليه، ولما دخلوا على يوسف.... الخ.

رُوي أن يوسف عليه السلام وجه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، وأرسل إليه مائة وثمانين كسوة من رفيع الثياب والعمائم لإخوته، وقميصان مُذهبان للإناث، فلما وصلت إلى يعقوب لبس، وألبس أولاده، وركبوا المراكب، وخرجوا من أرض كنعان يريدون مصر، فلما قربوا، أمرَ يوسف عليه السلام العساكر أن تخرج معه للقائهم، فأول من لقيهم ثلاثون ألف فارس، كلهم يسجدون بين يدي يعقوب، وهو يتعجب من عظم تلك الأجناد، ويضحك من نصر الله تعالى، وعزه لابنه. ثم لقيهم البغال، والجواري لنساء إخوته وأولادهم. ثم لقيهم أربعون ألف شيخ من الوزراء والكبراء. ثم استقبلهم يوسف عليه السلام مترجلاً ماشياً على قدميه، متواضعاً لأبيه، في مائة ألف، كلهم على أرجلهم، معهم الملك «ريَّان»، ثم سلم يوسف عليه السلام والملك على أبيه، ثم أقبلا يبكيان، وبكى إخوته وضج الناس بالبكاء، ثم ضم إليه أبويه، وقيل: أباه وخالته، ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾، ثم حُمِل يعقوب عليه السلام في هودج من الذهب، ويوسف عليه السلام، وإخوته يمشون بين يديه مترجلين حتى دخلوا مصر، ثم أتوا إلى قصر مملكته.

قال ابن عباس: فجلس يوسف عليه السلام على سريره، وأبوه عن يمينه، وخالته عن شماله، وإخوته بين يديه، فخروا له سجداً؛ لأنها كانت عادتهم في ذلك الزمان ـ يعني تحيتهم على الملوك ـ رُوي أنهم قالوا في سجودهم: سبحان مؤلف الشتات بعد الإياس، سبحان كاشف الضر بعد البأس. فقال يوسف لأبيه: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل...﴾ الخ ـ هكذا ذكر القصة صاحب الزهر الأنيق في قصة يوسف الصديق. وهذا معنى قوله: ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ بلده ومملكته ﴿آوى إليه أبويه﴾؛ أي: اعتنقهما، وسلم عليهما، وضمهما إليه. قيل: الأبوين حقيقة. وقيل: أباه وخالته. ونزَّل الخالة منزلة الأم تنزيلَ العم منزلة الأب في

قوله: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾(١).

﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من القحط وأصناف المكاره. والمشيئة متعلقة بالدخول المكيّف بتلك الهيئة لا بالأمن. وقال ابن جزى: راجعة إلى الأمن. قال البيضاوى: وكان أولاد يعقوب الذين دخلوا مصر اثنين وسبعين رجلاً، وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وتسعين رجلاً سوى الذرية، والهرمى.هـ.

﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾، أى: حين دخلوا قصر مملكته، ﴿ وخرُّوا له سُجداً ﴾؛ تحية وتكرمة؛ فإن السجود كان عندهم يجرى مجرى التحية. وقيل: معناه: خروا لأجله سجداً لله؛ شكراً. وقول البيضاوى: الرفع مؤخر عن الخرور، فيه نظر؛ لما تقدم عن صاحب الزهر الأنيق، ولا داعى إلى الخروج عن الظاهر إلا بنص صريح.

قال ابن عطية: واختلف فى هذا السجود؛ فقيل: كان المعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دون ذلك؛ كالركوع البالغ ونحوه، مما كان سيرة تحيتهم للملوك فى ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود كيفما كان، إنما كان تحيةً لا عبادة.

قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة. ثم قال: قال أبو عمر الشيبانى: تقدم يوسفُ يعقوب عليه السلام فى المشى فى بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال: أتتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبى. هـ. قال المحشى القاسي: وما أظن لهذا صحة، وقد كان من ذريته «يوشع بن نون» عليه السلام، ويوسف المذكور فى سورة الطَّوْل(٢) على قول. وفى البيضاوى: وكان عمر يوسف مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل: إفرائيم وميشا، وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب .هـ. قلت: المذكور فى قصة أيوب أن زوجه رحمة إنما كانت ابنة إفرائيم بن يوشع لابنته.

ثم قال: ﴿ يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ ﴾؛ التى رأيتها أيام الصبا، وهى: رؤيا أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون لى، ﴿ قد جعَلَها ربى حقا ﴾: صدقاً. وكان بين رؤياه وبين صدق تأويلها ثمانون عاما، وقيل أربعون، وهو الأصح. ﴿ وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن ﴾، ولم يذكر الجب؛ لئلا يخجل إخوته، ولأنه خرج من الجب إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح. ﴿ وجاء بكم من البَدْوِ ﴾: من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشى وأهل البدو، فعد عليهم من النعم انتقالهم للحاضرة؛ لأنها محل الراحة. ﴿ من بعد أن نزغ الشيطانُ بيني وبين إخوتي ﴾: أفسد بيننا وحرش، من نَزَغَ الدابة إذا نخسها. ﴿ إن ربى لطيف لِمَا يشاء ﴾

(١) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة. (٢) أى سورة غافر من الآية ٣٤.

أي: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور؛ إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته، ويتسهل دونها، ﴿إنه هو العليم﴾ بوجوه المصالح والتدابير، ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته، على وجه تقتضيه الحكمة.

رُوي أن يوسف ﷺ طاف بأبيه ـ عليهما السلام ـ في خزائنه، فلما أدخله خزانة القرطاس، قال: يابني، ما أغفلك، عندك هذه القراطيس وما كتبت لي على ثماني مراحل، قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط مني، سله، فقال جبريل: أمرني ربي بذلك؛ لقولك: (إني أخاف أن يأكله الذئب)، فهلا خفتني. هـ. قاله البيضاوي. وزاد في القوت: لِمَ خفت عليه الذئب ولم ترجني؟ ولِمَ نظرت إلى غفلة إخوته، ولم تنظر إلى حفظي له؟ فهذا على معنى قول يوسف ﷺ للساقي: (اذكرني عند ربك)، فهذا مما يعتب على الخصوص من خفي سكونهم، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله عز وجل.هـ.

الإشارة: ما أحلى الوصال، بعد الفراق، وما ألذ شهود الحبيب على الإشتياق، فبقدر طول البين يعظم قدر الوصول، وبقدر حمل مشاق الطلب يظفربالمأمول. فجدّ أيها العبد في طلب مولاك، وغب في سيرك إليه عن حظوظك وهواك، تظفر بالوصْل الدائم في عزك وعُلاك، وتتصل بكل ما كنت تأمله من مطالبك ومُناك. وأنشدوا:

وَإِن امْــرءٌ أَمْــسَى بِقُــرْبِـك نَازِلاً فَـأَهْلاً بِه، حَـازَ الْفَـضَــائِلَ كُلَّهــــا
وألبسـته حُـلَلَ المحـاســن فاكْتَسَى حُلَلَ الرضَـا فـازْداد قُـرْبَاً مَـا انْتَـهى

وبالله التوفيق.

ثم إن يوسف ﷺ لما تمكن من المَلك الفاني، اشتاق إلى المُلك الباقي، فقال:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قلت: (فاطر): نعت المنادى، أو منادى بنفسه.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن يوسف ﷺ: ﴿ربِّ قد آتيتني من المُلكِ﴾ أي: من بعض الملك، وهو ملك مصر، ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديثِ﴾؛ الكتب المتقدمة، أو تأويل الرؤيا. و«من»: للتبعيض فيهما؛ إذ لم يعط ملك الدنيا كلها، ولا أحاط بالعلم كله. ﴿فاطرَ السمواتِ والأرض﴾: مبدعهما ومنشئهما، ﴿أنت وليي في

الدنيا والآخرة ﴾: أنت ناصري ومتولي أمري في الدارين، ﴿ توفني مسلماً ﴾: اقبضني مسلمًا، ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ من آبائي، أو جماعة الصالحين في الرتبة والكرامة، أو بالصالحين لحضرة قدسك.

رُوي أن يعقوب ﷺ أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثم توفي، فنقله يوسف ﷺ إلى الشام ليُدفن مع أبويه. هكذا ذكر بعض المفسرين. وقال في الزهر الأنيق: بقي يعقوب ﷺ بمصر أربعين سنة في أطيب وقت، وأكمل عافية، ثم أوحى الله إلى جبريل: أن انزل إلى يعقوب، وقل له: يرحل إلى الأرض المقدسة، عند قبور آبائه، يجاورهم حتى أُلحقه بهم. فنادى يعقوبُ ﷺ يوسفَ وأولاده، وقال لهم: قد أمرني ربي بمجاورة أبي؛ ليقبض روحي هناك، ثم ودّعهم، وخرج إلى الأرض المقدسة، فزار قبور آبائه فبكى، فرأى في المنام إبراهيم على كرسي، وإسماعيل عن يمينه، وإسحق عن يساره، وهم يقولون: الْحق بنا يا يعقوب، فانتبه، ثم قام فوجد قبراً محفوراً تخرج منه رائحة المسك، فقال: لمن هذا؟ قال له ملَكٌ عنده: هو لمن يتمنى سكناه، فقال: أنا، فقبض روحه ملكُ الموت، ثم نزل جبريلُ وميكائيلُ ـ عليهما السلام ـ وكفناه، وصليا عليه، ودفناه.

قال كعب الأحبار: توفي يعقوب وهو ابن مائتي سنة، ولما وصل نعيُه يوسفَ بكى، وبكى معه إخوته. هـ. «قلت» : ظاهره أنهم لم يحضروا موته، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾(١)، إلا أن يؤول بمعنى: قَرُب، فتكون وصيته وقعت حين أراد الرجوع إلى الشام، وهو خلاف الظاهر.

ثم إن يوسف تاقت نفسه إلى الملك المخلد، فتمنى الموت، فقال: ﴿ رب قد آتيتني من الملك .... ﴾ إلخ. رُوي أنه عاش بعد قوله هذا مدة، ثم ماتت زليخا، ولم يتزوج بعدها، وعاش بعدها أربعين يومًا، ثم اشتاق إلى اللقاء واللحوق بآبائه، فتوفاه الله طيِّبا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر في مدفنه، حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مَرْمَر ـ أي: رُخام ـ فيدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر؛ ليكونوا شرْعًا فيه. وفي رواية: أنهم دفنوه على ضفة النيل؛ فخصبت وجدبت الأخرى؛ فنقلوه للأخرى؛ فخصبت وجدبت الأولى، فجعلوه في صندوق، ودفنوه في النيل؛ فاخضرت الجهتان، ثم نقله موسى ﷺ إلى مدفن آبائه. وكان عمره: مائة وعشرين سنة، وقد تقدم ذكر أولاده الثلاثة: إفراثيم، وميشا، ورحمة امرأة أيوب، وتقدم البحث فيها، وذكر في الزهر الأنيق أنه ولد له من زليخا عشرة أولاد، فانظره. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إذا كان العبد في زيادة من الأعمال، وفي الترقي إلى مقامات الكمال، فلا بأس أن يتمنى البقاء في هذه الدار؛ لزيادة الزاد إلى دار القرار، وإذا كان في نقصان من الأعمال، أو خاف النقصان بعد الكمال، فلا بأس بطلب الرحيل والانتقال؛ كما طلبه الصِّدِّيق ﷺ بعد الملك التام. وكما فعل عمر رضي الله عنه حين انتشرت

---

(١) الآية ١٣٤ من سورة البقرة.

رعيته، وخاف التقصير في سيرته. وقد تقدم في سورة البقرة تفصيل ذلك، ولقد أحسن الشاعر في التحذير، من الاغترار بزخرف هذه الدار، فقال:

هُو الحِمَـــامُ فَــلا تُبْعِـدْ زِيَارَتَـــه ... ولا تَقُــلْ: لَيْتَنى منــه على حَــذَرِ
يَاوَيْحَ مَنْ غَـرَّه دَهْـــرٌ فَسُرَّ بِــه ... لَمْ يَخْلُص الصَّفْوُ إلا شِيبَ بالكَدَرِ
أُنْظُـــر لِمَنْ بَادَ تَنْظُرْ آية عَجَــبًا ... وعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَــارِ والبَصَرِ
بَادُوا فعَـــادُوا حَدِيثـًا، إنَّ ذَا عَجَبٌ ... مــا أَوْضَحَ الرُّشْـدَ لولا غَـفْلَةُ النَّظَرِ
تَنَافَسَ النَّــاسُ في الدُّنيا وقَدْ عَلِمُوا ... أَنَّ المُقَــامَ بهـــا كــاللَمْحِ بالبَصَرِ
فَخَــلِّ عن زَمَــنٍ تَخْشَى عَوَاقِبَه ... إنَّ الزَّمَانَ إذا فَــكَّرت ذُو غِـيَـرِ
وَاعْمَلْ لأُخْرَاكَ لا تَبْخَــلْ بِمَكْرُمةٍ ... ومَــهِّد العُذْرَ؛ ليسَ العينُ كَـالأَثَرِ

ثم نبه الحق تعالى أن الإخبار بقصة يوسف عليه السلام من أعلام النبوة لنبينا ﷺ فقال:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قلت : (ذلك) : مبتدأ، و(من أنباء الغيب) : خبر. و(نوحيه) : حال.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ذلك ﴾ أي: خبر يوسف وقصته، هو ﴿ من أنباء ﴾ أخبار ﴿ الغيب ﴾ التي لم يكن لك بها علم، وإنما علَّمتَه بالوحي الذي ﴿ نُوحيه إليك ﴾ فأخبرتهم به. ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي: وما حضرت عندهم، ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ : حين عـزموا أمرهم على أن يجعلوه في غَيَابَةِ الجب، ﴿ وهم يمكرون ﴾ به، وبأبيه؛ ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً من الأحبار

فتعلمت ذلك منه، فتحققوا أنه وحى من عند الله، ولكن جحدوا؛ ﴿وما أكثرُ الناس ولو حرصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت فى إظهار الآيات لهم، ﴿بمؤمنين﴾؛ لعنادهم وتصميمهم على الكفر. ﴿وما تسألُهم عليه﴾ على تبليغ هذا النبأ، أو القرآن، ﴿من أجرٍ﴾؛ كما يفعله حملة الأخبار من الأحْبار. ﴿إن هو إلا ذِكْرٌ﴾: عظة من الله، ﴿للعالمين﴾ من الجن والإنس.

﴿وكأيِّن﴾: كثيراً ﴿من آيةٍ فى السموات والأرضِ﴾ الدالة على وجود صانعها وتوحيده، وكمال قدرته وتمام حكمته، ﴿يَمرُّونَ عليها﴾ ويشاهدونها، ﴿وهم عنها مُعْرِضُون﴾: لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون. ﴿وما يؤمن أكثرُهُم بالله﴾ أى: وما يصدق أكثرهم بوجود الله فى إقرارهم بوجوده، وخالقيته للأشياء، وأنه الرزّاق المميت، ﴿إلا وهم مشركون﴾ بعبادة الأصنام، أو باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً، أو بنسبة التبنى إليه، أو بالوقوف مع الأسباب، أو غير ذلك من أنواع الشرك الجلى والخفى. قيل: نزلت فى مشركى مكة، وكانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك. وقيل: فى أهل الكتاب. ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ﴾: عقوبة تغشاهم وتشملهم، ﴿من عذابِ الله﴾ المرسل على الأمم المتقدمة، ﴿أو تأتيهم الساعةُ بغتة﴾: فجأة، ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها، غير مستعدين لها.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾: مثله يقال لأهل الوعظ والتذكير، الداعين إلى مقام الخصوصية، وما أكثر الناس ولو حرصت على هدايتهم، بمهتدين إلى مقام الخصوصية؛ لأن أهل الخصوصية أفراد قليلون فى كل زمان؛ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١) . وتقدم فى سورة هود(٢) ما يتعلق بقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وكأيِّن من آية . . .﴾ الخ، فيه ذم الغفلة، والإعراض عن التفكر والاعتبار؛ فإن الحق ـ جل جلاله ـ ما أظهر هذه الكائنات إلا ليعرف بها، وتظهر فيها أسرار ذاته، وأنوار صفاته. قال فى لطائف المنن: فما نصبت الكائنات لتراها، ولكن لترى فيها مولاها؛ فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها؛ تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. قال(٣): ولنا فى هذا المعنى:

ما أثبتَ لَكَ العالم إلا ... لِتراها بِعَينٍ مَن لاَ يرَاهَا
فَارْقَ عَنها رُقِيَّ مَنْ لَيْس يَرْضَى ... حَالَةً دُون أن يرى مَوْلاهَا. هـ.

(١) من الآية ١٣ من سورة سبأ. (٢) عند إشارة الآية ٢٩.
(٣) أى: الشيخ السكندرى صاحب لطائف المنن

وقوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ : لا ينجو من الشرك الخفي إلا أهل التوحيد الخاص، وهم الذين غابوا عن الأكوان جملةً بشهود المكون، قد سقط من نظرهم وجود الأغيار، وتطهرت سرائرهم من لوث الأكدار، ولم يبق في مشهدهم إلا الواحد القهار، فلم يعتمدوا على الوسائط والأسباب، برؤية مسبب الأسباب، ولم يركنوا إلى العشائر والأصحاب، فإن التفتوا إلى غيره؛ غفلةً، أدبهم، وردهم إلى حضرته. هذا شأنهم معه أبداً. جعلنا الله منهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

ثم أوضح طريقهم، فقال:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قلت : (أدعو) : حال من الياء، و(على بصيرة) : حال ثان، و(أنا ومن اتبعني) : الضمير. تأكيد للمستكن في (أدعو)، أو في (على بصيرة)، أو مبتدأ خبره : (على بصيرة)، مقدم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿هذه سبيلي﴾: طريقي الذي جئتُ به من عند ربي؛ وهي الدعوة إلى التوحيد، والتأهب ليوم المعاد. ثم فسرها بقوله: ﴿أدعو إلى الله﴾، أو حال كوني داعياً إلى الله؛ أي: إلى توحيده ومعرفته والأدب معه، ﴿على بصيرة﴾: حجة واضحة، وبينة من ربي، لا عن تقليد أو عمى. أدعو إلى الله ﴿أنا ومن اتبعني﴾؛ فمن كان على قدمي فهو يدعو أيضاً إلى الله على بصيرة وبينة من ربه، ﴿وسبحان الله﴾: وأنزهه عن الشركاء والأنداد، ﴿وما أنا من المشركين﴾ به شركاً جلياً ولا خفياً، بل مخلصاً موحداً.

الإشارة: لا يصلح العبد أن يكون داعيًا إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت، ولا يختلجه شك ولا وهم. والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب : فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام؛ وهم الدعاة إلى معرفة أحكام الله وشرائعه، ومنهم من يدعو على بصيرة الإيمان، وهم الدعاة إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته، ومعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز على طريق البرهان الواضح. ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان، من طريق الذوق والوجدان، وهم العارفون بالله، أهل النور الخرق، بحيث كل من واجههم خرق النور إلى باطنه. وهذه الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة، وأهل هذا المقام هم أهل التربية النبوية، فدعوة هؤلاء أكثر نفعا، وأنجح تأثيرا؛ في زمن يسير؛ يهدى الله على أيديهم الجم الغفير.

قال في نوادر الأصول: الداعي إلى الله على بصيرة - أي معاينة - هو الذي قلبه عند الله، وعلى بصيرة في الطريق، ومحل القلوب في تلك المراتب؛ ناطقا بالله، عن الله، فلذلك يلج آذان المستمعين، مع الكسوة التي تخرق كل حجاب، وهو نور الله، لأنه خرج من قلب مشحون بالنور، فخرق كل حجاب قد تراكم على قلوب المخلطين، فخلصها إلى نور التوحيد فأنارها؛ بمنزلة جمرة وصلت النفخة إليها، فالتهبت نارا، فأضاءت البيت. وهذا سبيل الناطق عن الله. ثم قال: وكيف يجوز الدعاء إلى الله لمن ليس عند الله، وهو لله، وإنما قلبه عند نفسه ولنفسه، مشغول بنهمته وشهواته وأحواله، وإنما هذا لمن تفرغ من نفسه، واشتغل بالله. هـ.

ثم رد على من زعم من الكفار أن الرسول من البشر، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

قلت: (يوحى): نعت لرجال، وكذا (من أهل القرى): نعت ثان، و(حتى): غاية لمحذوف، أي: وما أرسلنا إلا رجلاً يوحى إليهم فأوذوا مثلك، ودام عليهم، حتى إذا استيأسوا جاءهم نصرنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ يامحمد ﴿إلا رجالاً﴾؛ بشراً لا ملائكة، وهو رد لقولهم: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[1]، وقيل: معناه: نفي استنباء النساء. وصفة أولئك الرجال: ﴿يوحى إليهم﴾[2] كما أوحي إليك، فتميزوا بالوحي عن غيرهم، وهم ﴿من أهل القُرى﴾. وهم المدن والأمصار، والمداشر[3] الكبار؛ لأنهم أحلم وأعلم، بخلاف أهل العمود فإنهم أهل جفاء وجهالة. قال الحسن: (لم يبعث الله نبياً من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن).

قال ابن عطية: والتَّبَدّي مكروه إلا في الفتن، وحين يُفَرُّ بالدين، لحديث: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ المُسْلِمِ غَنَماً يَتْبَعُ بها سَعَفَ الجِبالِ...[4]» الحديث. وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لسلمة بن الأكوع[5].هـ.

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت. (٢) قرأ حفص (نوحي) بنون العظمة. (٣) المداشر: القرى.

(٤) أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) أخرج البخاري في (الفتن، باب التعرب في الفتنة)، عن سلمة بن الأكوع: (أنه دخل على الحجاج، فقال: يا ابن الأكوع، ارتددت على عقبيك؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو).

قلت : والفتنة تتنوع بتنوع المقامات؛ ففتنة أهل الظاهر: تعذر إقامة الشريعة لكثرة الهرج والفتن، وفتنة أهل الباطن: تعذر جمع القلب بالله؛ لكثرة الحس، وتعرض الشواغل والعلائق. فمن وجد ذلك في الحواضر فلينتقل إلى البوادي، إن وجد من يعينه على الدين. والغالب أن الحواضر في هذا الزمان يغلب فيها العوائد والشهوات، وتعترى فيها الشواغل والشواغب، بخلاف البادية. فإذا كان عليه الصلاة والسلام أذن لسلّمة: خوف فتنة الظاهر، فأولى خوف فتنة الباطن؛ لأنه إذا فسد القلب فسد الجسد كله.

ثم قال ابن عطية: وقال ﷺ: «لا تعرب في الإسلام[(١)]» . وقال: «مَنْ بَدَا جَفَا»[(٢)]. وعن معاذ بن جبل أنه قال: (الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الإِنْسانِ، كَذِئْبِ الغَنَمِ؛ يأخُذُ الشَّاةَ القاصِية؛ فإيَّاكُمْ والشِّعَابَ، وعلَيكُم بالمساجِدِ، والجمَاعَاتِ، والعامةِ)[(٣)].

ثم قال: ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين: أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل العمود، بل بتَقَرّ في منازل وربوع، والثاني: إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر الصغار بدْوٌ بالإضافة إلى الحواضر الكبار.هـ.

قلت : فالتعرب المنهي عنه هو اعتزال الرجل وحده في جبل أو شِعْبٍ، وأما إن تقرر في جماعة يقيمون الدين، ويجتمعون عليه، فليس بتعرب ولا بدو. ويدل عليه جواب ابن عطية الأول عن يعقوب ﷺ. **والحاصل**: أن أهل القلوب يفتشون على مصالح قلوبهم، فأينما وجدوها فهي حاضرتهم. وقد ظهر في البوادي أكابر من الأولياء، ربما لم يظهروا في الحواضر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ أفلم يسيروا ﴾ أي: كفار مكة، ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ﴾ من المكذبين لرسلهم: كيف هلكوا وتركوا آثارهم يشاهدونها خراباً دارسة، فيحذروا تكذيبك؛ ليؤمنوا ويتأهبوا للدار الآخرة؛ ﴿ ولَدَارُ الآخرةِ ﴾ أي: ولدار الحياة الآخرة ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصي، ﴿ أفلا تعقلون ﴾، وتستعملون عقولكم لتعلموا أنها خير. أو: أفلا يعقلون الذين يسيرون في الأرض ليعلموا أن الدنيا فانية، والدار الآخرة خير؛ لأنها باقية.

---

(١) ورد : «لا تعرب بعد الهجرة»، أخرجه، مطولاً، عبد الرزاق في المصنف، (باب: لا رضاع بعد الفطام، ٧/٤٦٤ح ١٣٨٩٩)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه..

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٧١)، وأبو داود في (الصيد، باب اتباع الصيد) والترمذي في (الفتن، باب سكنى البادية) والنسائي في (الصيد، باب اتباع الصيد) من حديث ابي هريرة، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٣٣) من حديث معاذ بن جبل.

فإن أبيتم وكذبتم نبيكم فقد كذب من قبلكم رسلهم، وآذوهم، وتأخر نصرهم؛ ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ من النصر، أو من إيمان قومهم؛ لانهماكهم في الكفر، وتماديهم من غير وازع، ﴿ وظنوا ﴾ أي: تيقنوا ﴿ أنهم قد كذبوا ﴾(١) أي: أن قومهم كذبوهم فيئسوا من إيمانهم. أو: وظنوا أن من آمن بهم قد كذبوهم؛ لطول البلاء وتأخر النصر. وأما قراءة (كُذِبُوا)؛ بالتخفيف؛ فمعناه: وظنوا أنهم قد كذب عليهم في وعد النصر.. وأنكرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ هذه الرواية، وقالت: معاذ الله؛ لم تكن الرسل تظن بربها ذلك. كما في البخاري(٢).

وقد يجاب بأن ذلك كانت خواطر وهواجس من وسواس النفس، يمر ولا يثبت، وهو من طبع البشر، لا يدخل تحت التكليف. وسماه ظنًا؛ مبالغة في طلب المراقبة، كما تقدم في قوله: ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾. وقال ابن جزي، على هذه القراءة: الضميران يعودان على المرسل إليهم، أي: ظن الأتباع أن الرسل قد كذبوا عليهم في دعوى الرسالة، أو في مجيء النصر لما اشتد عليهم البلاء، وتأخر عنهم النصر.

فلما يئسوا ﴿ جاءهم نصرنا فنُجِّي من نشاء ﴾ نجاته، وهو: النبي والمؤمنون. وإنما لم يعينهم؛ للدلالة على أنهم الذين يستأهلون نجاتهم بالمشيئة القديمة، لا يشاركهم فيها غيرهم، ﴿ ولا يُردُّ بأسُنَا عن القوم المجرمين ﴾ إذا نزل بهم. وفيه بيان المستثنين بالمشيئة، كأنه قال: ولا نشاء نجاة المجرمين.

الإشارة: قد وجد كثير من الأولياء بالمدن والحواضر، وكثير منهم في القرى والمداشر. وفضل الله يؤتيه من يشاء، لا يختص بمكان ولا زمان، غير أن جلهم جمعوا بين علم المدن وتفرغ البوادي، يعني: جمعوا بين شريعة المدن وحقيقة البوادي؛ لأن أهل المدن شريعتهم قوية، وحقيقتهم ضعيفة. والبوادي بالعكس؛ لكثرة العلائق في المدن وخفتها في البوادي، والحقيقة تحتاج إلى تفرغ كبير وتفكر كثير، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ بالتخفيف، معناه: أنهم لم يقفوا مع ظاهر الوعد؛ لسعة علمهم؛ لأن ذلك الوعد قد يكون في علم الغيب متوقفًا على شروط خفية لا يعلمها ذلك النبي أو الولي، ليتحقق انفراده تعالى بالعلم الحقيقي، والقهرية الغالبة. فلذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم.

وقال الورتجبي: إنهم استغرقوا في قلْزُوم(٣) الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق. فلما لم يروه ناداهم لسان غيْرة قهر القدم: أين أنتم؟ غبتم عنه رعن الحقيقة، فتطلّع أنوار الحقيقة عليهم، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر. وهذا دأب الحق مع الأنبياء والأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفنوا به عن كل ماله إليهم. هـ.

(١) قرأ «كذِبوا» بالتخفيف، عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر، وقرأ الباقون «كُذِّبوا» بالتشديد. انظر القراءة وتوجيهها في الإتحاف (٢/١٥٠) والبحر المحيط (٥/٣٤٧).
(٢) (كتاب التفسير، باب سورة يوسف). (٣) أي: بحر.

قال المحشي الفاسي: وحاصل ما أشار إليه: أن قراءة التخفيف تشير إلى أخذهم عن الوقوف مع الوعد، والسكون إليه، غيبةً في الحق عن مقتضى وعده، لا تكذيباً لوعده، بل ذلك أحوالٌ غالبة آخذة عن الصفة، غيبةً في الموصوف. وهذا حال الصوفي كما يعرف ذلك أهله. وهو صحيح في نفسه ولكنه بعيد عن مرمى الآية؛ فإن صاحب الغيبة لا يوصف بظن خلاف الوعد، وإن كان غائباً عنه. وأقرب منه ما ذكره الترمذي الحكيم: من أن ظن ذلك كان لظن فقد شرط في الموعود أوجب عدم القطع لوقوع الوعد. والله أعلم.

وقد قال في الحِكم: «لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمنه». يعني أنه قد يتخلف لفقد شرط؛ كما في قضية الجرْو الذي تخلف جبريل من أجله. أو لعدم تحقيق الوقت؛ لأن تعيينه كان من قبل أنفسهم من غير وحي، فلما تأخر ظنوا ذلك بأنفسهم. والله تعالى أعلم.هـ.

والحاصل: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لما تأخر عنهم النصر هجس في أنفسهم تخلف الوعد؛ خوفاً أن يكون متوقفاً على شرط لم يعلموه، أو جعلوا له وقتاً فهموه من أمارات، فلما تأخر عنه ظنوا أنه قد تخلف. وأما قضية الجرو الذي أشار إليها: فكان جبريل عليه السلام وعد نبينا ﷺ أن يأتيه في وقت مخصوص، فدخل جرو البيت، فلم ينزل في ذلك الوقت، فلما نزل بعد ذلك، قال: «إنما تَخلَّفْنا عن الوقت؛ لأنَّ الملائكةَ لا تَدْخُلُ بَيْتاً فيه كَلْبٌ»(١). كما في الصحيح.

ثم قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقد كان في قصصهمْ ﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته، ﴿ عبرةٌ لأولي الألباب ﴾: لذوي العقول الصافية الخالصة من شوائب الإلف والعادة، ومن الركون إلى الحس؛ لأن الإخبار بهم على يد نبي أمي آية واضحة لمن تفكر بقلب خالص. ﴿ ما كان حديثاً يُفترى ﴾ أي: ما كان القرآن حديثًا مُفترىً، ﴿ ولكن ﴾ كان ﴿ تصديقَ الذى بين يديه ﴾ من الكتب الإلهية، ﴿ وتفصيلَ كل شيء ﴾ يحتاج إليه في الدارين؛ إذ ما من أمر ديني إلا وله مستند من القرآن بوسط، أو بغير وسط. ﴿ وهُدى ﴾ من الضلال، ﴿ ورحمةً ﴾ ينال بها خير الدارين، ﴿ لقوم يؤمنون ﴾: يصدقون به، ويتدبرون في معانيه.

---

(١) أخرجه البخاري في (كتاب اللباس / باب: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة).

الإشارة : تفكر الاعتبار يشد عُروة الإيمان، وفكرة الاستبصار تشد عُروة الإحسان. قال في الحكَم: «الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. فالأولى: لأهل التفكر والاعتبار، والثانية: لأهل الشهود والاستبصار». ومرجع الاعتبار إلى خمسة أمور:

الأول: التفكر في سرعة انصرام الدنيا وانقراضها، وذهاب أهلها. قرناً فقرناً، وجيلاً فجيلاً. فيوجب ذلك الزهد في الدنيا، والإعراض عن زخارفها الغرارة، والتأهب للدار الباقية.

الثاني: التفكر في الدار الباقية، ودوام نعيمها، أو عذابها. وذلك مرتب على السَّعْي في هذه الدار، فيوجب ذلك انتهاز الفرصة في الأعمال، واغتنام الأوقات والساعات قبل الفوات.

الثالث: التفكر في النعم التي أنعم الحق - تعالى - بها على الإنسان؛ إما ظاهرة؛ كالعافية في البدن، والرزق الحلال، وما يتبع ذلك مما لا يحصى؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾(١) . وإما باطنة: كنعمة الإسلام والإيمان، وصحيح العرفان، والاستقامة في الدين، ولا سيما إن رزقه الله من يأخذ بيده من شيخ عارف. فهذه نعمة عظمى قلّ من يسقط عليها. فيوجب له ذلك الشكر الذي هو أعلى المقامات، ومتكفل بالزيادات، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(٢) .. ولا يعرف العبد ما عليه من النعم إلا بالتفكر في أضدادها، والنظر إلى أهل البلاء.

الرابع: التفكر في عيوبه ومساوئه، لعله يسعى في تطهيرها، أو يشتغل بها عن عيوب غيره.

الخامس: التفكر فيما أظهر الله تعالى من أنواع المكونات، وضروب المصنوعات؛ فيعرف بذلك جلالة الصانع، وعظيم قدرته، وإحاطة علمه، وحكمته. فإن اتصل بشيخ عارف غيَّبه عنها بشهود مكونها.

وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

● ● ●

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم..

(٢) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

فهرس المجلد الثاني

* * *